تشارلز ديكنز

2020
4.1.2020

# مذكرات بكوك

رواية

الجزء الأول

آفاق
للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

ترجمة: عباس حافظ

تشارلز ديكنز

# مُذكّـرات بكـوك

رواية

ترجمة

عباس حافظ

الجزء الأول

آفاق للنشر والتوزيع

- Author : Charles Dickens
- Title: The Pickwick Club
- Translated by: Abbas Hafez
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Editor: Tarek Hashim

- المؤلف: تشارلز ديكنز
- العنوان: مذكرات بكوك
- ترجمة: عباس حافظ
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المحرر العام: طارق هاشم

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٥٣٠٩

الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 093 - 9



جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.



**Afaq Bookshop & Publishing House**

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

**بطاقة الفهرسة**

**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**

**إدارة الشئون الفنية**

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : مذكرات بكوك - ترجمة: عباس حافظ

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

720 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 5309 / 2017

الترقيم الدولي 9 - 093 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - ديكنز، تشارلز

# مقدمة

قلنا في مقدمة الطبعة الأصلية لمذكرات نادي بكوك المنشورة بعد وفاة مؤسسه، إن المقصود منها إيراد صور مسلية لأنماط من الناس، ورسوم فكهة لصنوف من الوقائع والأحداث، لا محاولة فيها لإظهار البراعة في قصة «محبوكة» موصولة السياق، ولم يكن المؤلف يرى في ذلك الحين أن إيرادها على هذا الوجه ميسورًا؛ لأن أسلوب النشر المتبع في ذلك الوقت لم يكن على نسق مطرد، وقلنا كذلك إننا قد أخذنا نغفل شيئًا فشيئًا الحديث عن جهاز النادي، كلما تقدمنا في الكتاب، وذلك بعد أن تبين لنا أن معالجته من أشق الأعباء، ولئن كانت التجربة والدراسة قد علمتنا فيما بعد شيئًا بسبيل بعض تلك المطالب ونحوها حتى لوددت اليوم لو أن هذه الفصول ترابطت، بخيط قوي واحد، وأمسك بها موضوع يثير الاهتمام العام، فلا تزال في شكلها الحالي عين ما أريد بها أن تكون.

ولقد رأيت روايات مختلفة لأصل هذه المذكرات التي ظلت على الحالات كلها في تقديري تتصف بفتنة الطرافة التامة، وسحر الجدة

البالغة، وإذا كان يصح لي أن أستخلص من ظهور روايات وأقاصيص منها أن في نفوس قرائي توقًا إلى معرفة حقيقتها، فإني سأقص عليهم كيف ظهرت في عالم الوجود.

كنت شابًّا في الثانية أو الثالثة والعشرين حين أثارت بعض قطع كنت أكتبها في ذلك العهد في صحيفة «المورننج كرونكل» اهتمام الناشرين: «تشابمان وهول» أو كنت قد كتبتها توًّا في المجلة الشهرية القديمة «أولد منثلي ماجازين». وقد جمعت أخيرًا سلسلة منها ونشرت في مجلدين ورسمت لها صور من ريشة المستر جورج كرؤكتشنك؟ فجاءني هذان الناشران يطلبان إليَّ أن أقترح شيئًا يصح أن ينشر في أعداد لا يتجاوز ثَمن العدد منها شلنًا، ولم أكن أعرف يومئذ شيئًا عنها، وأعتقد أن أحدًا سواي لم يكن له بها علم، إلا من ذكرى لم تكن واضحة في خاطري، لروايات لا تحصى من هذا القبيل اعتاد الباعة المتجولون حملها والطواف في الريف بها، وأذكر أني ذرفت على طائفة منها دموعًا غزارًا قبل أن أقضي فترة الدربة على الحياة..

وعندما فتحت باب غرفتي في فندق «فرنفال» لأستقبل الشريك الذي يمثل دار الطباعة والنشر، عرفت فيه ذلك الشخص بالذات الذي كنت قد اشتريت منه منذ عامين، أو ثلاثة أعوام، ولم أكن قد رأيته من قبل، ولم أره من بعد.. النسخة الأولى من المجلة التي ألقيت إليها خفية ذات مساء على مطالع الشفق بباكورة قلمي، وهي «صور وشخصيات» دعوتها «المستر مينز وابن عمه» ألقيتها إليها، بيد راعشة، وقلب واجف، في جوف صندوق بريدها القاتم، ودارها المعتمة، في فناء مظلم، بشارع

«فليت ستريت»، وظهرت تلك الباكورة فيها بكل ما أضفى الطبع عليها من رونق وبهاء، فانطلقت بها عندئذ إلى قاعة وستمنتستر فمكثت فيها نصف ساعة، لأن عيني قد ارتدتا مشدوهتين من فرط الفرح والشعور بالفخار، فلم تطيقا الشاعر، ولا كان الطريق بالموضع الذي يصلح لرؤيتها فيه، وقد حدثت زائري بتلك المصادفة، فرحبنا معًا بها، وعددناها بشرى طيبة، وفألًا حسنًا. وأقبلنا نتحدث في الأمر الذي جاء يبحث معي فيه..

وكانت الفكرة التي شرحها لي هي إصدار شيء شهري ليكون وسيلة لنشر صور ورسوم من ريشة المستر سيمور، وأن هناك خاطرًا بدا لذلك الرسَّام الفكه الصنع، أو لزائري نفسه، وهو تخيل ناد يدعى «نادي نمرود» يخرج أعضاؤه لصيد الطير، أو السمك أو نحوهما، فيقعون في محارج، وتحيط بهم متاعب وورطات، لقلة براعتهم وفهمهم لدقائق الأشياء. وقال محدثي إن فكرة كهذه سوف تكون أحسن وسيلة لإبراز تلك الرسوم والألواح، فلما بحثت تلك الفكرة اعترضت عليها، وكان سبب اعتراضي أنني لست بالصياد البارع، وإن كنت قد ولدت وقضيت بعض أيام نشأتي بالريف، ولم أصب من «الرياضة» إلا ما يتصل بكل أنواع الحركة، ووسائل الانتقال، وأن الفكرة ليست بالطريفة وأنها طُرقت كثيرًا من قبل، وأنه من الخير إلى أبعد حد أن تنشأ الصور نشأة طبيعية من النص نفسه، وإنني أحب أن أتخذ سبيلي طليقًا من كل قيد في تصوير المشاهد الإنجليزية والناس، وإنني أخشى أن أفعل ذلك في النهاية على أية حال، مهما يكن السبيل الذي أخططه لنفسي في البداية، ولما قبلت فكرتي، فكرت في «المستر بكوك» وكتبت العدد الأول، وكان المستر

سيمور يتناول «تجارب الطبع» فيرسم الصور على قدودها، فهو الذي رسم «النادي» وصور تلك الصورة الجميلة لمؤسسه، وقد أخذ وصف الثياب والمعالم من المستر إدوارد تشبمن عن شخصية حقيقية كثيرًا ما رآها بنفسه، وقد ربطت المستر بكوك بناد، عملًا بالاقتراح الأصلي، وجئت المستر «ونكل» قصدًا ليفتن فيها المستر سيمور كما يشاء، وبدأنا نصدر عددًا من أربع وعشرين صفحة، بدلًا من اثنتين وثلاثين وأربع صور بدلًا من صورتين، وكانت وفاة المستر سيمور فجأة قبل صدور العدد الثاني، وهي مصاب أحزننا، وجزعنا منه، فاقتضى مماته اتخاذ قرار عاجل في أمر كنا قد مضينا فعلًا فيه، فجعلنا العدد في اثنتين وثلاثين صفحة، واقتصرنا على صورتين وبقي النظام هكذا إلى النهاية.

وأقول هنا على أشد الكره مني إن أقوالًا قيلت تلميحًا، أو متناثرة، عن المستر سيمور خاصة، وهي أن له نصيبًا في اختراع هذا الكتاب، أو في شيء منه، لم يعرض بأمانة في الفقرة السابقة. ولكني أقتصر هنا على تدوين الوقائع التالية:

وهي أن المستر سيمور لم يبتكر يومًا، ولم يقترح إطلاقًا، حادثة أو عبارة أو كلمة، مما حواه هذا الكتاب، وأنه مات حين لم تكن قد صدرت منه غير أربع وعشرين صفحة ولم تكتب على اليقين ثمان وأربعون، وإنني أعتقد أنني لم أر خط المستر سيمور في حياتي، وإنني لم ألتق به غير مرة واحدة في العمر، وكان لقائي له في الليلة السابقة لليوم الذي أدركه الموت في غده فلم يعرض بلا ريب رأيًا ما خلال لقائنا ولا أبدى اقتراحًا، وكان اجتماعنا في محضر شخصين لا يزالان في قيد الحياة،

ويعرفان هذه الوقائع كلها حق المعرفة. ولا يزال تحت يدي إقرار مكتوب منهما بها.. وأخيرًا إن المستر إدوارد تشبمن أحد الشريكين في مؤسسة «تشبمن وهول» وهو لا يزال حيًّا يرزق، قد دوَّن كتابة، للغرض ذاته، وهو تسجيل الحقيقة، كل ما يعرفه شخصيًّا عن أصل الكتاب وسيرته، وعن بشاعة هذه الدعوى التي لا أساس لها، وأورد من التفاصيل ما يدل في ذاته ووضوحه على استحالة احتوائها شيئًا من الحق، ولست أريد عملًا بما أخذت نفسي به، أن أنقل هنا رواية المستر إدوارد تشبمن لما قابل به شريكه الراحل في إحدى المناسبات، هذا الادعاء الذي أسلفت ذكره.

أما «بوز» BOZ، ذلك التوقيع الذي كنت أوقع به ما أكتب في «المورننج كرونكل» و«المجلة الشهرية القديمة»، والذي كان يظهر على غلاف العدد الشهري من هذا الكتاب، وبقي دهرًا طويلًا بعد ذلك، فقد كان كنية أطلقت على طفل مدلل، كان أخًا لي أصغر مني سنًّا، وكنت أدعوه «موزيس» تكريمًا لـ «قسيس وكفيلد» فاستحالت هذه الكلمة، عند النطق بها مزاحًا من الأنف، إلى «بوزس»، ثم أصبحت بعد اختصارها «بوز» وكانت هذه اللفظة مألوفة في أفق بيتنا، قبل أن أصبح «مؤلفًا» بوقت طويل، فاتخذتها لنفسي توقيعًا.

وقد لوحظ عن المستر بكوك أن شيئًا من التغير طرأ قطعًا على شخصيته، في سياق هذه الصفحات واطرادها، فقد أصبح أكثر طيبة، وأوفر عقلًا، ولست أعتقد أن هذا التغير سيبدو مفتعلًا أو متعملًا لقرائي إذا هم تذكروا أن خواص رجل أوتي شيئًا من غرابة الأفكار، ونواحي شذوذه، هي في الحياة أول ما ينطبع فينا عامة منه، وإننا لا نبدأ عادة ننظر

إلى ما تحت الظواهر البادية لأعيننا منه، وندرك النواحي المثلى التي ينطوي عليها، إلا بعد أن نزداد معرفة به، ومتابعة لدقائق شخصيته.

ولكيلا يغيب عن فطنة فريق من سليمي النية، الفارق بين الدين في جوهره، والترائي به، وبين التقوى وادعائها، وبين الاحترام المقترن بالخشوع للحقائق الجليلة التي جاءت في الكتاب المقدس، وبين إقحام حرفيته لا روحه إقحامًا منطويًا على الجرأة ومثيرًا للاشمئزاز، في أحقر شؤون الحياة، وأبسط مسائلها وأدعاها إلى الخلاف، وما يؤدي إليه من البلبلة المتناهية لعقول السذج والجاهلين.. لكيلا تغيب عن فطنة بعض حسني القصد، وكان ذلك جائزًا عند أمثالهم قبل أن يصدر من عهد قريب كتاب OLD MORTALITY «الوفيات القديمة» هذه الفروق التي ذكرتها، أقول لهم إنني في هذا الكتاب إنما سخرت من الرياء في الدين لا من الدين ذاته، وتهكمت بادعاء التقوى لا بالتقوى عينها، وهجوت الذين يعبدون الله على حرف، دون الذين يستمسكون بروح الكتاب المنزل ومعانيه، كما أضيف إلى ذلك، أن كل هذا الذي تعرضت له بالسخرية والتهكم والهجاء، قد دلت التجارب والمشاهدات كلها، على أنه لا يتفق مع الدين والتقوى وسلامة التناول لتعاليم الدين وأصوله، وأنه من المستحيل أن يتحدا، وأنه من أشد الأكاذيب أذى في المجتمع، وأبلغها على الناس ضررًا، سواء اتخذت مقرها اليوم في قاعة إكستر، أو كنيسة «ابنزر» أو فيهما معًا، ولعل هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى كلمة تقال فيه، أو ملاحظة تعرض بسبيله، ولكن الواقع أنه ليس ثمة بد في كل حين من التنديد بهذا العبث السمج بالمقدسات، الذي نرى

الخوض فيه مترددًا على الشفاه، ولا يتأثر به القلب، أو بهذا الخلط بين المسيحية، وبين أية طبقة من أولئك الذين وصفهم «سويفت» بقوله: إن لديهم من الدين ما يكفي لأن يتباغضوا، ولا يكفي لأن يجعلهم متحابين.

وقد وجدت من دواعي العجب والاغتباط، حين عدت أتصفح هذا الكتاب، في طبعة جديدة، طائفة كبيرة الشأن من وجوه الإصلاح الاجتماعي قد تمت بصورة لا تكاد تحس، منذ كتبت هذه الفصول في الأصل، وإن كان التسامح مع المحامين، ومدى الوسائل والأساليب البارعة في تضليل هيئة المحلفين، لا يزالان بحاجة ماسة إلى التعديل، كما لا يزال إصلاح نظام الانتخابات البرلمانية- بل لعل البرلمانات ذاتها أيضًا- في حدود الممكنات، ولكن الإصلاح الذي تناول القضاء قد قلم أظفار أمثال ددسن وفج بين طائفة المحامين، وانتشرت بين وكلائهم وكتبتهم روح الاحترام الذاتي، والأناة والتعليم والتعاون على هذه الغايات الكريمة، والأهداف الحسنة، وتم التقريب بين البقاع النائية، والأماكن القاصية، لراحة الجمهور وفائدته، كما تغيرت القوانين المتعلقة بالحبس من أجل الديون، وهدم سجن «فليت» مما يرجى أن يقضي مع مر الزمن على جملة من الأحقاد الصغيرة، وضروب العمى، وصنوف المساوئ التي ظل الجمهور أبدًا ضحيتها دون أحد سواه.

ومن يدري لعلنا قبل أن تصل هذه السلسلة التي ننشرها تباعًا إلى ختامها واجدون أنه قد أصبح في الحواضر والريف قضاة مدربون على أن يصافحوا كل يوم يد البداهة، ويهزون كف العدل، وأن «قوانين الفقراء» نفسها ستأخذ بالرحمة معاشر الضعفاء والشيوخ والبائسين، وأن

يؤمن الناس بأن المدارس ومعاهد العلم المؤسسة على مبادئ المسيحية السمحة، هي أجمل ما يزين هذه البلاد المتحضرة طولًا وعرضًا وأن يحكم رتاج السجون من الخارج، بذلك الأحكام والتدقيق اللذين يحكم بهما رتاجها من الداخل، وأن يصبح تعميم وسائل النظافة والصحة حقًّا لأفقر أهل الفاقة «كما هي اليوم أمر لا غناء عنه لسلامة أهل الغنى، وأمن الدولة»، وأن هذه الهيئات الصغيرة والإدارات القليلة، التي لا تزال أقل من قطرات في بحر البشرية الخضم الذي يهدر ويزأر من حولها، لا تدع الحمى وذات الرئة طليقتين تصيبان خلق الله كما تشاءان، أو تاركين ربباتها ومعازفها الصغيرة ترسل أنغامها أبدًا لتستقبل رقصة الموت..

* * *

# تشارلز ديكنز

روائي إنجليزي ذائع الصيت ولد سنة ١٨١٢ لأب مسرف أوقعه التبذير في الدين وألقى به في السجن، فساءت حال أسرته واضطر ديكنز أن يتلمس أسباب العيش منذ حداثته تارة عاملًا أجيرًا، وتارة موظفًا صغيرًا في مكاتب المحامين، غير أن أول فتوحه في الكتابة جاء من اشتغاله مخبرًا صحفيًّا يكتب النبذة القصيرة للصحف والمجلات عن أهم الشخصيات والأحداث الجارية، وأخذ ينشر مذكرات بكوك في فصول شهرية حتى تألق نجمه، فتهافت عليه الناشرون، وأخرج من الروايات عددًا وافرًا مثل: «أوليفر تويست»، «دافيد كوبرفيلد»... إلخ.

وقد برع ديكنز أيما براعة في الأسلوب القصصي، وكان يصف شخوصه وصفًا دقيقًا ويرسم حركاتهم ويتعمق دراسة أخلاقهم وسرائرهم من حمق وكبرياء وقسوة وأنانية.

وتصور رواياته ذكرياته الخاصة عن أشخاص صادفهم أو أحداث مرت به، غير أن خياله الخصيب استطاع أن يخلق من الأفراد العاديين شخوصًا روائية مثيرة، وأن يصور الحوادث العابرة تصويرًا رائعًا يلمسه القارئ لمذكرات بكوك.

غير أن ذلك لم يمنعه في كثير من الأحيان من دراسة الناس دراسة واقعية، فاستطاع بذلك أن يمزج الحقيقة بالخيال.

وقد اهتم ديكنز بنقد مساوئ العهد الذي كان يعيش فيه سواء في التربية أو الحكم البرلماني أو الحياة الاقتصادية، كما دعا جاهدًا إلى البر والخلق الطيب، ونادى بتسوية المشكلات الصناعية عن طريق التوفيق بين العمال وأصحاب العمل، وكان حبه للخير ومقدرته على إثارة العطف والرثاء من أهم ما حبب قراءه فيه.

وظل دكنز يشتغل بكتابة القصص والتحرير في الصحف والمجلات حتى مات عام ١٨٧٠.

* * *

# الفصل الأول

## أعضاء نادي بكوك

كان أول خيط من الضياء يبدد الظلام، ويجلو بنوره الباهر ذلك الغموض الذي أحاط بمطالع تاريخ حياة «بكوك» الخالد وبداية سيرته، يرجع إلى قراءة الفقرات التالية من محاضر جلسات نادي بكوك، وهي فقرات يسر ناشر هذه المذكرات أشد السرور أن يضعها بين أيدي قرائه، دليلًا على العناية البالغة، والجهد الذي لا يعرف الكلال، والحصافة المدققة التي توخاها في بحثه بين عديد الوثائق وتنقيبه.

وإليك هذه الفقرات.

«١٢ مايو سنة ١٨٢٧ - برياسة المستر جوزيف اسمجز نائب الرئيس الدائم وعضو نادي بكوك.

تقرر بالإجماع الموافقة على القرارات الآتية:

«بعد أن استمعت الهيئة بارتياح خالص وموافقة تامة، إلى المذكرة التي قدمها المستر صمويل بكوك الرئيس العام للنادي، بعنوان «آراء

ونظرات في منبع بحيرات هامستد وغدرانها، مع بعض الملاحظات على نظرية الزقزوق»[1]، تود الهيئة هنا أن تقدم أصدق شكرها للمستر صمويل بكوك الآنف الذكر على هذا البحث.

«والهيئة إذ تدرك عميق الإدراك مدى الفوائد التي ستعود حتمًا على العلم من هذا البحث الذي سلف ذكره، وجملة الحسنات الأخرى للبحوث والدراسات التي عقدها بدأب لا يعرف الكلال المستر صمويل بكوك الرئيس العام وعضو نادي بكوك في هورنزي وهايجت وبريكستن وكامبرول، لا يسعها إلا أن ترجو رجاء صادقًا أن تؤدي حتمًا بحوث هذا العلَّامة إلى فوائد لا تقدر، ومنافع لا تحصى، في ميدان أوسع مدى، إذا هو مد نطاق أسفاره، ومن ثم وسع أفق نظراته وملاحظاته في سبيل تقدم العلم ونشر المعارف.

وعلى ضوء هذا الرأي، الذي ذكرناه، نظرت الهيئة، بعين الجد والاعتبار، في الاقتراح المقدم من المستر صمويل بكوك الآنف الذكر، والرئيس العام للنادي وأحد أعضائه، بالاشتراك مع ثلاثة أعضاء آخرين في النادي، سيأتي بعد ذكرهم، بشأن تأليف فرع جديد «لرابطة البكوكيين» يدعى «شعبة المراسلين في نادي بكوك».

«وقد حاز الاقتراح المذكور من الهيئة الموافقة والقبول، وبذلك تم تأليف شعبة المراسلين في النادي، وتعيين المستر صمويل بكوك الرئيس العام وعضو النادي، والمستر تراسي طبمن، والمستر أوجستس سنودجراس، والمستر نثنايل ونكل، الأعضاء بالنادي، أعضاء في هذه الشعبة

(١) اسم نوع من الأسماك.

مع رجائهم أن يقدموا إلى النادي بمقره من وقت إلى آخر بيانات معتمدة عن أسفارهم وتحقيقاتهم، وملاحظاتهم على الأشخاص وأوجه السلوك، وكل ما يتعلق بالأحداث التي تقع لهم، مقترنة بكل النوادر والقصص والمذكرات عن مختلف المشاهد والربوع، وما يتصل بها.

وقد تلقت هذه الهيئة بالعرفان الخالص، الاقتراح القاضي بأن يقوم كل عضو من أعضاء «شعبة المراسلين» بأداء نفقات سفره، ولا مانع لديها إطلاقًا من أن يواصل أعضاء الشعبة المذكورة بحوثهم لأية فترة من الوقت يشاءون بهذه الشروط ذاتها.

وقد أبلغ أعضاء شعبة المراسلين السالفة الذكر أن الاقتراح المقدم منهم بشأن قيامهم بأداء أجور البريد عن رسالاتهم، ونقل طرودهم، قد تم بحثه ومناقشته في هذه الهيئة، وترى أنه اقتراح جدير بأن يصدر من العقول الكبيرة التي تفتق عنها، وأنها تسجل هنا موافقتها التامة عليه.

وقد أضاف الأمين الذين ندين لملاحظاته بالبيان التالي: يقول إن كل ملاحظ عابر لا يرى شيئًا غير مألوف في ذلك الرأس الأصلع، والمنظار المستدير اللذين ظلا متجهين نحو وجهه «أي وجه الأمين» في أثناء تلاوته للقرارات التي سلف ذكرها، وأن هذا المنظر كان حقًّا ممتعًا لكل من عرفوا أن عقل بكوك الجبار كان يشتغل خلف تلك الجبهة، وأن عينيه المشعتين كانتا تبرقان من وراء ذلك المنظار، وقد جلس ذلك الرجل الذي اقتفى مجرى تلك البحيرات العظيمة في هامستد حتى منبعها، وهز دنيا العلم بنظريته عن السمك «الزقزوق»، جلس ذلك الرجل هادئًا لا يتحرك كمياه تلك البحيرات في عمق غورها، في يوم شديد الصقيع،

أو كسمكة من تلك الأسماك في أدق زاوية من زوايا جرة من الصلصال، وقد ازداد هذا المنظر متعة، واشتد تشويقًا، حين هبت الأصوات مرة واحدة من أفواه مريديه تدعوه إلى إلقاء كلمة، وحين صعد ذلك الرجل الأمجد برفق إلى ذلك المقعد، «الوندسور» الذي كان من قبل جالسًا فيه، وراح يخطب أهل النادي الذي كان هو مؤسسه، لقد كان ذلك منظرًا مثيرًا خليقًا بدراسة فنان! فقد انثنى بكوك المفوَّه البليغ وكانت إحدى يديه مختفية بشكل جميل خلف ذيل ردائه، والأخرى يلوح بها في الفضاء، يستعين على إلقاء خطبته الحماسية المتأججة، وقد كشفت وقفته المشرئبة عن حمائله ولو أن تلك الحمائل ورباطي ساقيه كانت على رجل عادي، لجاز أن تمر دون ملاحظة، ولكنها على المستر بكوك إذا جاز لنا هذا التعبير، كانت تثير الرهبة اختيارًا لا افتعالًا، وتدعو إلى الاحترام والإكبار، وقد أحاط به في مجلسه هذا أولئك الذين تطوعوا لمقاسمته أخطار أسفاره ورحلاته، والذين قدر لهم أن يشاركوه في مجد اكتشافاته، وعن يمينه جلس المستر تراسي طبمن.. طبمن المفرط في رقة الإحساس، والذي جمع إلى حكمة الشيب وحنكته حماسة الشباب وحرارته، في أمتع مواطن الضعف البشري، وأدعاها إلى الغفران.. وهو الحب، وقد اصطلح الزمان والغذاء الطيب على تسمين ذلك القوام الذي كان «قوامًا ممشوقًا روائيًا» في يوم من الأيام، فأصبح «صداره» الحريري الأسود أكثر على الدهر اتساعًا، وأخذت سلسلة ساعته الذهبية تختفي من تحته وتتوارى شيئًا فشيئًا من مرمى نظره، وبدأ ذقنه الرحيب يجور على حدود ربطة عنقه البيضاء، أما روحه ذاتها، فلم يطرأ عليها تحول

ولا تبديل وظل إعجابه بالجنس اللطيف العاطفة المتحكمة فيه. وعن يسار الزعيم العظيم جلس «سنودجراس» الذي أوتي نزعة شاعرية، وبجواره كذلك جلس الرياضي «ونكل» وقد بدأ أولهما في شكل شعري مرتديًا «سترة» زرقاء غريبة، ذات طوق «ياقة» في مثل جلد الكلاب، وأما الآخر فقد أضاف بريقًا ظاهرًا على سترة صيد جديدة خضراء اللون، وربطة رقبة من صوف مخطط وسروال ضيق لاصق ببدنه.

وقد سجلت خطبة المستر بكوك بهذه المناسبة والمناقشات التي دارت حولها في محاضر جلسات النادي وهي شبيهة إلى حد بالغ بالمناقشات التي تدور في الهيئات الشهيرة الأخرى، ولما كان من الممتع تتبع وجوه الشبه بين تصرفات العظماء، فقد رأينا أن ننقل ما ورد في المحضر إلى هذه الصفحات.

كتب الأمين يقول إن المستر بكوك لاحظ أن الشهرة عزيزة على قلب كل إنسان، فالشهرة الشعرية عزيزة على قلب صديقه «سنودجراس» والشهرة بغزو الأفئدة عزيزة كذلك على قلب صديقه «طبمن» والرغبة في كسب الشهرة في ميدان الصيد، برًّا وجوًّا وعلى الماء، أعز ما تكون مكانًا من صدر صديقه «ونكل» وأنه «أي المستر بكوك» لا يريد أن ينكر سلطان العواطف البشرية، وأثر الأحاسيس الإنسانية في نفسه «هتاف»، ولعله تأثر بمواطن الضعف البشري فيه «صيحات» حاشا، ولكنه يجب أن يقول إنه إذا اشتعلت يومًا في صدره نار الاهتمام بالذات، فإن إيثار الرغبة في نفع البشرية كفيل فعلًا بإخمادها، وأن مدح الجنس البشري هو ما يهتز له طربًا، وحب الخير هو الضمان الكفيل به «هتاف حاد»، وأنه ليعترف

بأنه قد شعر بشيء من الاعتزاز، معترف بهذا الشعور صراحة، أي نعم.. لقد شعر بشيء من الاعتزاز عندما قدم إلى العالم مذكرته بشأن نظرية السمك الزقزوق، ومن الجائز أن تحتفل الدنيا بها، أو لا تحتفل، «هتاف» تحتفل... وتصفيق شديد، وأنه ليلم بما أعلنه هذا البكوكي الموقر الذي سمع اللحظة صوته، وهو أنها قد احتفلت بها. ولكن إذا قيض لهذا البحث أن تمتد شهرته إلى أقصى حدود العالم المعروف، فإن الفخار الذي سوف ينظر به إلى وضع هذا المؤلف لا يقارن إطلاقًا بذلك الفخار الذي ينظر به إلى ما حوله، في هذه الساعة التي يعدها أعز اللحظات في حياته «هتاف»، وهو رجل قليل الشأن، «حاشا.. حاشا»، ولكنه مع ذلك لا يسعه إلا أن يشعر بأنهم قد اختاروه لعمل عظيم، لا يخلو من بعض الخطر، فإن السفر ليس مأمونًا، وعقول الحوذية غير موزونة ولا مستقرة، فلينظروا إلى الخارج، وليتأملوا المشاهد التي تجري من حولهم، فإن المركبات العامة تنقلب في كل ناحية، والخيل تحرن، والمراكب تنكفئ عاليها سافلها، والمراجل تنفجر «هتاف وصوت يصيح كلا! كلا! هتاف» فليتقدم حضرة العضو المبجل الذي صاح بقوله «كلا» ولينكر إن استطاع إلى الإنكار سبيلًا «هتاف» من هو الذي صاح كلا؟؟ «هتاف حماسي» أهو رجل مغرور فاشل خائب- ولا أقول «بائع خردة»- «هتاف مدوّ»، أحس عقارب الغيرة تدب فيه من المذيع الذي وجه إلى بحوثه، أي بحوث المستر بكوك، وقد يكون غير جدير به، وأخذ يتلوى من حرقة الحملات التي توالت على محاولاته هو الضعيفة في ميدان المنافسة، فلجأ الآن إلى هذا الأسلوب الخبيث من الثلب والافتراء.

فقاطعه المستر بلوتن «من سكان أولدجيت» ووجه إليه السؤال: «هل حضرة العضو المبجل يعنيني بهذا التلميح؟»، صيحات «النظام.. الرياسة.. نعم.. كلا.. استمر.. دعوه يتكلم..».

ولكن المستر بكوك قال إنه ليس بالرجل الذي يسكته الصياح، وتثنيه الضجة عن مراده، فهو فعلًا قد عني بتلميحه السيد المحترم «ضجة عامة».

وقال المستر بلوتن إنه لا يقبل هذا الاتهام الباطل البذيء الذي اتهمه به السيد المحترم، بل يقابل هذا الاتهام باحتقار بالغ «هتاف شديد» إن السيد المحترم مخادع «ضجيج وصيحات عالية» الرياسة، النظام.

وهنا انبرى المستر سنودجراس فألقى بنفسه على المقعد، وقال إنه يود أن يعرف هل يصح أن يسمح المجلس بأن يستمر هذا الخلاف المعيب بين عضوين من أعضاء النادي.. «مرحى.. مرحى».

وقال الرئيس إنه واثق من أن العضو المحترم سيسحب التعبير الذي لجأ إليه منذ لحظة.

وأجاب المستر بلوتن بأنه مع احترامه العظيم للرياسة على يقين من أنه لن يسحبه.

وهنا أعلن الرئيس، أنه يرى من واجبه المحتم أن يسأل السيد المحترم، هل استخدم هذا التعبير الذي أفلت اللحظة مني بالمعنى المتعارف؟

فلم يتردد المستر بلوتن في القول بأنه لم يقصد هذا المعنى، ولكنه

استخدمه بمعناه «البكوكي»- «مرحى.. مرحى».. وإنه يجد لزامًا عليه أن يعترف شخصيًّا بأنه يكنّ للسيد المبجل أرفع الاعتبار وأسمى التقدير، وأنه إنما عده «مخادعًا» من وجهة النظر «البكوكية»، «مرحى.. مرحى..».

وقال المستر بكوك إنه قد سر كثيرًا بهذا التفسير الطيب الصريح التام من صديقه المبجل، وإنه يرجو أن يكون مفهومًا في التو واللحظة أنه لم يكن يقصد بملاحظاته إلا تعبيرًا «بكوكيًّا».. «هتاف».

إلى هنا تنتهي الفقرات المقتطفة من المحضر، ولا يخامرنا الشك في أن المنافسة انتهت عند هذا الحد أيضًا، بعد أن وصلت إلى هذه النقطة الموفقة الواضحة، كل التوفيق والإيضاح، وليس لدينا بيان رسمي بالوقائع التي سيجدها القارئ مدونة في الفصل التالي، ولكنها بيانات جمعت بعناية، من رسائل ومخطوطات أخرى، لا يختلف اثنان في صحتها وصدقها مما يبرر روايتها في حلقات متصلة..

* * *

# الفصل الثاني

## اليوم الأول من أيام الرحلة..
## والأحداث التي جرت في مسائه.. والنتائج التي أسفرت عنها..

طلعت الشمس، وهي الخادم المثابر في خدمة كل عمل، وبدأت تلقي ضياء على صبح اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ألف وثمانمائة وسبع وعشرين، حين انبعث المستر صمويل بكوك من نومه، كأنه شمس أخرى، وفتح نافذة غرفته، وأطل على العالم المترامي من تحته، وكان شارع «جوزول» عند قدميه، ممتدًا عن يمينه، إلى آخر مدى العين، ومترامِيًا عن شماله، وكان الجانب المقابل لهذا الشارع في الجهة الأخرى من الطريق، وراح المستر بكوك يناجي خاطره بقوله: «كذلك هي آراء الفلاسفة الضيقي النظر الذين يقنعون بفحص الأشياء المترامية أمامهم، ولا ينظرون إلى الحقائق المحجوبة عنهم فيما وراء حدود أبصارهم، كما لو أني قنعت بإدامة النظر إلى شارع جوزول، دون أن أحاول مرة أن أخترق الربوع المحجوبة، التي تحيط به من كل ناحية».

وما كاد المستر بكوك يتفوه بهذا الخاطر الجميل، حتى شرع يضع نفسه في ثيابه، ويضع ثيابه في حقيبته، وقلما ترى العظماء مدققين في تنسيق ملبسهم، ولم تلبث عملية الحلاقة واللبس ورشف القهوة أن تمت، وما هي إلا ساعة أخرى، حتى كان المستر بكوك قد حمل حقيبته بيده، ووضع منظاره المعظم في جيب معطفه و«مذكرته» في جيب صداره، وتهيأ لاستقبال أي اكتشافات جديرة بالتدوين، وقد وصل إلى موقف المركبات في شارع سانت مارتن موجراند.

وصاح المستر بكوك مناديًا «مركبة!».

وسمع صوتًا يصرخ قائلًا: «لبيك يا سيدي!»، وكان الصائح مخلوقًا عجيبًا، في سترة من الخيش، وميدعة من النوع ذاته، ولافتة من نحاس ذات رقوم حول رقبته، وقد بدا كأنه بعض المعروضات في مجموعة من التحف النادرة، وكان هذا هو «ساقي الخيل»، ومضى يردد قوله: «لبيك يا سيدي! حالًا تأتي المركبة!». ولم يكد الساقي يحضر المركبة الأولى، وكان الحوذي قد ذهب إلى المقهى ليدخن قصبته الأولى، حتى ألقى المستر بكوك وحقيبته في جوفها.

وقال المتسر بكوك «مفترق جولدن!».

فصاح الحوذي في غضب مخاطبًا صديقه الساقي: «تلك مسافة لا تزيد على شلن يا تومي!».

وانطلقت العربة مبعدة.

وأنشأ المستر بكوك يسأل السائق وهو يحك أنفه بالشلن الذي أعده

لدفع الأجرة: «كم عمر هذا الحصان يا صديقي؟».

وأجاب الحوذي وهو ينظر إليه بطرف عينه: «اثنتان وأربعون».

فصاح المستر بكوك مبهوتًا، وهو يضع يده على «مذكرته» «ماذا تقول؟». فكرر الحوذي جوابه الأول، وعندئذ أطال المستر بكوك النظر في وجه الرجل، ولكن معالم وجهه ظلت جامدة لا تتحرك، فأكب المستر بكوك على «المذكرة» يدون فيها ما سمعه.

وعاد يسأله مستزيدًا: «وما مدى الوقت الذي يبقى فيه «يعمل» كل مرة؟».

فأجاب الرجل: «أسبوعان أو ثلاثة أسابيع».

قال في دهشة، وعاد يخرج المذكرة: «أسابيع!».

ومضى الحوذي يقول ببرود: «إنه يقيم في «بنتونويل» كلما ذهبنا به إلى مسكنه، ولكننا قلما نأخذه إليه بسبب ضعفه».

وردد المستر بكوك مرتبكًا قوله: «بسبب ضعفه».

واستتلى الحوذي يقول: «إنه يسقط كلما أخرجناه من المركبة، ولكنه كلما كان مشدودًا إليها، ممسوكًا بحزم، مربوطًا بإحكام، لا يستطيع السقوط، ولدينا زوج من العجلات المتينة فهي تتحرك في أثره، إذا هو تحرك فلا حيلة له غير المسير».

وراح المستر بكوك يدوّن كل كلمة من هذا البيان في مذكرته؛ لإبلاغها إلى النادي، على أنها مثل فريد لقوة التشبث بالحياة عند الخيل في ظروف مجهدة، وما كاد يفرغ من التدوين، حتى وصلت المركبة إلى

«مفترق جولدن» فوثب الحوذي من فوق مقعده ونزل المستر بكوك من المركبة، وتسابق السيد طبمن، والمستر سنودجراس والمستر ونكل إلى الترحيب به، وكانوا في لهفة ينتظرون وصول زعيمهم المجيد.

ومد المستر بكوك يده بالشلن إلى الحوذي قائلًا: «إليك أجرتك».

ولشد ما كانت دهشة العالم، إذ رأى ذلك المخلوق غير المسئول، يلقي بالشلن على الإفريز ويطلب بالكتابة والمجاز السماح له بمتعة الدخول معه- أي مع المستر بكوك- في عراك، نظير هذا القدر، فصاح المستر سنودجراس: «أنت مجنون!».

وقال المستر ونكل: «أو سكران».

وقال المستر طبمن: «أو كلاهما».

وقال الحوذي مبادرًا إلى المناوشة: «هيا.. هيا ادخلوا لي أنتم الأربعة كلكم».

وصرخ بضعة حوذية قائلين: «ذلك أمر عجيب! هيا يا سام اشتغل»، وأقبلوا في فرح بالغ يحيطون بالجمع.

وانبرى سيد في أكمام سود من البعثة يسأل السائق ما سبب هذه «المعركة» يا سام؟

قال الحوذي: «عركة! لماذا يريد أن يدون (رقمي)؟».

وقال المستر بكوك في دهشة: «أنا لم أرد أن أدوّن (رقمك)!».

فعاد الحوذي يسأله قائلًا: «لماذا دونتها إذن؟».

وأجاب المستر بكوك بغضب: «أنا لم أدونها».

وعاد الحوذي يقول مخاطبًا النظارة المزدحمين حولهم: «هل يصدق أحد أن «مخبرًا» ينتقل في مركبة إنسان، فلا يدون رقمه فقط، بل كل كلمة يقولها كذلك؟». وهنا لاحت فكرة بخاطر المستر بكوك.. فقد أدرك أن الحوذي يقصد «المفكرة».

وانثنى حوذي آخر يسأل: «هل فعل ذلك حقًّا؟».

فأجابه الأول قائلًا: «إي والله لقد فعله، وبعد أن تحرش بي هكذا لمهاجمتي جاء بثلاثة شهود هنا للإثبات، ولكني سأعطيها له ولو أخذت فيها ستة أشهر.. هيا.. أقبل علي».. وألقى الرجل قبعته على الأرض بلا اكتراث لمتاعه، وأطار المنظار عن عيني المستر بكوك، وأتبع ذلك الهجوم بضربة على أنفه، وأخرى في صدره، وثالثة في عين المستر سنودجراس، ورابعة على سبيل التنويع، في بطن المستر طبمن، وانثنى عنهم ليرقص في وسط الطريق، ثم يعود كرة أخرى إلى الإفريز، وأخيرًا يخرج كل ما في صدر المستر ونكل من الهواء.. كل ذلك فعله في ست ثوان.

وصاح المستر سنودجراس قائلًا: «شرطي!».

واقترح بائع فطير ساخن على الحوذي قائلًا: «ضعهم تحت المضخة».

ولهث المستر بكوك قائلًا: «ستلقى على ما فعلت عقابًا».

وصاح النظارة المتألبون عليهم: «مخبرون!».

وارتفع صوت الحوذي قائلًا، وهو يلف ويدور بغير انقطاع: «هيا.. ادنوا مني..».

وكان الغوغاء قد لبثوا إلى تلك اللحظة يشاهدون هذا المشهد، غير مشتركين فيه، ولكن ما كادت كلمة «مخبرين» تنتشر بينهم، حتى بدأوا يؤيدون بحماسة بالغة تنفيذ اقتراح بائع الفطير، ولا يعلم إلا الله مدى العدوان الذي كان من الجائز أن يرتكبوه لولا أن انتهت المعركة على غير انتظار بتدخل قادم جديد.

فقد انبرى شاب ناحل يكاد يلوح طويلًا، وهو في سترة خضراء اللون، وقد خرج فجأة من فناء المركبات، يقول: «ما هي القصة؟».

فعاد القوم يصيحون: «مخبرون!».

وعندئذ زأر المستر بكوك بلهجة تحمل معها الإقناع لكل سامع مجرد من الهوى: «لسنا كذلك!».

وقال الشاب، مخاطبًا المستر بكوك: «ألستم كذلك.. ألستم كذلك؟». ومضى يشق طريقه وسط الزحام، بتلك الحركة التي لا تخطئ الهدف، وهي دفعه بالمرفق وجوه كل من لقيه في طريقه.

وأنشأ ذلك العالم في بضع كلمات عاجلة يشرح له حقيقة الموقف.

وعندئذ قال الشاب ذو السترة الخضراء، وهو يسحب المستر بكوك في أثره بالقوة، ويستمر في الكلام، وهو منطلق على هذا النحو: «تعال معي إذن.. وأنت يا رقم ٩٢٤ خذ أجرتك، واذهب وشأنك.. هذا سيد محترم.. وأنا أعرفه حق المعرفة.. هذا كلام فارغ.. من هنا يا سيدي..

أين أصحابك؟ كل هذا نتيجة خطأ كما أرى.. لا بأس.. هذه حوادث تقع كل ساعة.. لأحسن الأسرات، وخيار الناس.. لا عليكم، ولا يهمكم الأمر.. سوء حظ صادفكم.. شدوه إلى مقعده.. ضعوا هذه في قصبته.. ليستطيب مذاقه.. مجرمون ملاعين..».

وبهذا الخيط الطويل من العبارات والجمل المتقطعة ونحوها، مضى الغريب يطلقها بذلاقة وسرعة غير مألوفة، مشى في المقدمة صوب «استراحة» الركاب، يتبعه المستر بكوك ومريدوه.

وصاح الغريب، وهو يدق الجرس بعنف بالغ: «يا غلام.. هات دورًا من البراندي والماء، ساخنًا، وقويًا، وحلو المذاق، وموفورًا.. هل أصاب عينك أذى يا سيدي؟.. يا غلام! قطعة من لحم العجول نيئة لعين السيد.. ليس ثمة علاج أفضل للرضوض من هذا اللحم النيئ يا سيدي.. إن عمود النور البارد مفيد جدًا، ولكنه غير مريح.. لأنه يقتضي وقوفك في الشارع في العراء نصف ساعة، لاصقًا عينك بالعمود.. مفيد جدًا.. ها.. ها.. وانثنى الغريب دون أن يتمهل لحظة ليملك أنفاسه، يرتشف في جرعة واحدة نصف لتر من البراندي والماء القراح، وتهالك على مقعد بكل بساطة، كأن شيئًا غير مألوف لم يحدث إطلاقًا.

وبينما كان الأصحاب الثلاثة في شغل شاغل، بتقديم شكرهم لهذا الرجل الجديد الذي عرفوه، أتيح للمستر بكوك أن يتأمل لباس الرجل ومظهره، فبدا له أنه يكاد يلوح أنه ربعة وإن جعلته نحافة جسمه، واستطالة ساقيه، يبدو أطول كثيرًا مما هو في الواقع، وكانت السترة الخضراء لباسًا رشيقًا في تلك الأيام، التي شاعت فيها الأردية ذوات الأذيال الشبيهة

بأذيال «الخطاطيف»، ولكن الواقع أنها، في ذلك العهد، كانت أليق برجل أقصر من هذا الغريب كثيرًا؛ لأن أردانها القذرة الناحلة اللون لا تكاد تصل إلى معصميه، وكانت مزررة عليه إلى ذقنه تزريرًا شديدًا، حتى ليخشى أن تتفتق من الظهر، وقد زان رقبته بلفافة قديمة، فلا أثر عليه لبنيقة من قميص، وقد بدت في مواضع متفرقة من سراويله القصيرة السود رقعات برّاقة تتحدث عن طول العهد بالابتذال، وهي مشدودة بإحكام إلى مذاء مرقع، كأنما أريد بها إخفاء الجورب الأبيض المتسخ، وإن ظهر مع ذلك واضحًا للعيان، وقد أفلتت من شعره الأسود المستطيل موجهات مهملة من تحت كل جانب من جوانب قبعته المرقعة، كما كانت تلوح لمحات من معصميه العاريين بين أعالي قفازيه وأردان سترته، وكان وجهه ناحلًا شاحبًا منهوكًا، وإن شاع على الرجل ذاته أثر لا يوصف من جرأة مرحة واعتداد تام بالذات.

هذا هو الرجل الذي يراح المستر بكوك يطيل النظر إليه من خلال منظاره الذي كان لحسن الحظ قد استرده، وانثنى بعد أن استنفد أصحابه قواهم، في التعبير عن شكرهم، يقدم إليه، في عبارات منتقاة، أصدق الشكر على معونته.

ولكن الغريب قاطعه قائلًا: «لا بأس.. كفى.. ولا مزيد.. ذلك الحوذي.. نشيط.. يحسن استخدام كفه.. و لو كنت صاحبكم في هذه المعركة، فليلعني الله في كل كتاب، إذا أنا لم أكن قد كسرت دماغه.. ليتني فعلت.. همس خنزير.. وبائع الفطير أيضًا.. كلام جد».

وقطع على الرجل فيض هذا الكلام، غير الموصول، دخول حوذي

العربة الحافلة التي ستسافر إلى روشيستر، ليعلن أن «الكومادور» على وشك القيام.

فلم يكد الغريب يسمع اسم المركبة، حتى استوى في دهشة قائمة وهو يقول: «الكومادور، هذه مركبتي التي حجزت فيها مقعدًا لي، في خارجها.. الآن أترككم لتدفعوا ثمن البراندي والماء.. نريد فكة خمسة.. نقود فضية رديئة.. شيء زائف.. أزرار لا تغني.. ولا تعني.. آه؟».

ومضى يهز رأسه هزة الفطن العارف كل شيء، وصادف أن المستر بكوك وصحبه الثلاثة كانوا قد انتووا أن يجعلوا «روشيستر» أول محطة ينزلون بها هم أيضًا، فبعد أن أفهموا صاحبهم الجديد، بلباقة، أنهم مسافرون إلى المدينة ذاتها، اتفقوا على أن يشغلوا المقعد المقام في ظهر المركبة، حتى يتسنى لهم جميعًا الجلوس معًا.

وانطلق الغريب يقول للمستر بكوك: «هب.. اطلع..» ومضى يعاونه على الصعود إلى السقف في سرعة بالغة، حتى لقد كاد يفسد وقار ذلك السيد وجلال سمعته إلى حد كبير.

وسأل الحوذي الرجل الغريب: «هل معك أمتعة يا سيدي؟».

فأجاب قائلًا: «من.. أنا؟ إضمامة في ورق لف هنا.. هذا هو كل ما لديّ.. أما الأمتعة الأخرى فقد شحنت في المركب، صناديق معبأة، محكمة بالمسامير.. ضخمة كالبيوت.. ثقال الوزن.. فوادح.. ملعونة..» وانثنى، خلال قوله هذا، يحشر في جيبه ما استطاع حشره من الحزمة الملفوفة في الورق الأسمر، التي توحي، في أغلب الظن، بأنها تحوي

قميصًا واحدًا ومنديلًا.

وصاح الغريب الكثير الكلام بأولئك الرفاق محذرًا: «احرصوا على رؤوسكم.. رؤوسكم!».. حين رآهم يجتازون الباب المنخفض الذي كان يقوم في تلك الأيام ويوصل إلى فناء المركبات.

واسترسل يقول: «موضع بشع.. بناء خطر.. منذ أيام.. خمسة أطفال وأمهم، سيدة طويلة، وهي تـأكل «الشطائر».. فنسيت الباب.. طاخ.. الأولاد يتلفتون حولهم.. وإذا برأس الأم، يطير عن جسدها، والشطائر في يدها.. لم يعد هناك فم تدخل فيه.. رأس أسرة يطير في الفضاء.. منظر بشع.. بشع.. ألا تنظر يا سيدي إلى هوايتهول؟ موضع بديع.. شرفة صغيرة.. لقد طار رأس إنسان آخر هنا.. أليس كذلك يا سيدي؟ لأنه هو أيضًا لم يحاذر كثيرًا ولم ينتبه.. أليس كذلك يا سيدي؟».

وقال المستر بكوك: «إنني اللحظة أفكر في عجيب الصروف والتقلبات التي تتعرض لها شؤون الناس وأمورهم».

وأجاب الغريب قائلًا: «آه.. قل لي هذا.. على باب القصر يومًا، ويومًا آخر يلقى من الشرفة.. أفيلسوف أنت يا سيدي؟».

قال: «مجرد ملاحظة للطبيعة البشرية وغرائبها يا سيدي».

وأجاب الغريب: «آه.. وأنا كذلك، وأكثر الناس هكذا، هذا شغل من ليس له شغل.. وأنت يا سيد.. أشاعر؟».

فأجابه المستر بكوك بقوله: «إن لصديقي المستر سنودجراس نزعة قوية إلى الشعر».

وقال الغريب: «وأنا كذلك.. ولي ملحمة في عشرة آلاف بيت، نظمتها في ثورة يوليو.. ووضعت أبياتها في محل الواقعة.. عطارد نهارًا، وأبوللو ليلًا.. ضرب من مدافع الميدان.. وشعر غناء وألحان..».

وانبرى المستر سنودجراس قائلًا: «أكنت حاضرًا ذلك المشهد المجيد يا سيدي؟».

قال: «حاضرًا. أحسبني كذلك[1]، وأطلقت فيه النار من بندقية.. وكان إطلاقي عن فكرة.. ثم اندفعت إلى حانة شراب.. فكتبت القصيدة.. ثم عدت.. طاخ.. طاخ. فكرة أخرى.. والعودة ثانية إلى الحانة.. إلى القلم و الدواة.. عدت كرة أخرى.. طعن وضرب.. أيام رائعة يا سيدي».

والتفت فجأة إلى المستر ونكل فسأله: «أرياضي أنت يا سيدي؟».

فأجاب ذلك السيد بقوله: «قليلًا يا سيدي».

قال: «ولوع جميل يا سيدي.. ولوع جميل.. أكلاب يا سيدي؟».

قال: «ليس الآن».

قال: «آه.. يجب أن تقتني كلابًا.. حيوانات جميلة.. مخلوقات ذكية.. كان لي يومًا كلب.. من نوع «البوينتر»[2] المؤشر- غريزة مدهشة.. خرجت به يومًا للصيد.. فلقينا في طريقنا أرضًا فضاء مسورة.. أطلقت له صفيرًا.. فوقف الكلب عن المسير.. وعدت أصفّر له.. بونتو لا يريم.. وقف جامدًا لا يتحرك.. ناديته: بونتو.. بونتو.. لا يبغي حراكًا..

(١) هذا مثل عجيب لقوة النبوءة في خيال الرجل.. فإن هذا الحوار جرى في عام ١٨٢٧ والثورة وقعت في عام ١٨٣٠.

(٢) نوع من كلاب الصيد، تسير وأنوفها إلى الأرض تشتم الصيد.

كأنما قد وخز وخزًا.. وقف يحملق في لوح.. تطلعت إلى اللوح.. رأيت هذه العبارة مكتوبة عليه «لدى الحارس أوامر بإطلاق النار على كل كلب يدخل هذه الأرض المسورة».. هذا هو سر وقفته، لا يريد اجتياز هذا اللوح.. إنه لكلب عجيب.. كلب قيم.. جدًّا».

قال المستر بكوك: «ظرف غريب هذا.. أتسمح لي أن أدونه؟».

قال: «بلا شك.. يا سيدي، بلا شك عشرات أخرى من النوادر والحكايات عن هذا الحيوان، إن أردت».

واستدار الغريب نحو المستر تراسي طبمن وكان هذا منشغلًا بإلقاء نظرات منافية للمبادئ البكوكية، على فتاة في الطريق فقال: «بنت حلوة يا سيدي؟».

فأجاب المستر طبمن: «جدًّا».

قال: «بنات الإنجليز لسن في مثل جمال بنات الإسبان.. مخلوقات نبيلات.. شعر فاحم.. أعين سود.. أجسام محببة.. مخلوقات حلوة.. حسان».

فسأله المستر طبمن قائلًا: «أزرت إسبانيا يا سيدي؟».

قال: «عشت فيها.. أجيالًا».

قال: «أو لك فيها غزوات كثيرة يا سيدي؟».

قال: «غزوات.. آلاف.. دون بولارو فزجيج.. جراندي.. له ابنة وحيدة.. ألدونا كريستينا.. إنسانة بديعة.. أحبتني إلى حد الوله.. الوالد غيور.. بنت رفيعة النفس.. إنجليزي وسيم.. يتولى اليأس قلب ألدونا

كريستينا.. تتناول حمض «البروسيك».. في حقيبتي جهاز لغسيل المعدة.. إجراء عملية لها.. الشيخ بولارو في فرح بالغ.. يوافق على الزواج.. مصافحة وفيض عبرات.. قصة رائعة.. جدًا..».

وعاد المستر طبمن وقد تأثر بوصف مفاتنها بالغ التأثر يسأله: «هل السيدة في إنجلترا الآن يا سيدي؟».

قال الغريب، وهو يضع على عينه اليمنى بقية صغيرة من منديل حريري قديم: «ماتت يا سيدي.. ماتت.. لم تشف من غسيل المعدة.. تحطمت بنيتها.. راحت ضحية».

فسأله الشاعر سنودجراس: «وأبوها؟».

وأجاب الغريب: «ندامة وفجيعة.. اختفاء فجائي حديث المدينة كلها.. البحث في كل مكان.. بلا جدوى.. نافورة عامة في الساحة الكبرى تكف فجأة عن النفث.. أسابيع تنقضي.. لا تزال منقطعة عن نفثها.. يدعى العمال لتنظيفها.. ينزحون ماءها.. يعثرون على جثة عمي، محشورة الرأس في المضخة الرئيسة.. واعتراف مفصل في جوف نعله الأيمن.. أخرجوه.. عادت النافورة تنفث الماء كما كانت».

وقال المستر سنودجراس من فرط تأثره: «هل لي أن أدوِّن هذه القصة الغرامية الصغيرة يا سيدي؟».

قال: «بلا شك يا سيدي، بلا شك، وخمسين أخرى إذا شئت لها سماعًا.. غريبة كقصتي.. رواية غريبة.. ليست خارقة للمألوف.. ولكن فريدة».

وعلى هذا النحو مضى الغريب في الحديث، بين كؤوس من شراب تتخلله، كلما وقفت المركبة لتغيير الخيل، حتى وصلوا إلى جسر روشستر، وكانت مذكرتا المستر بكوك والمستر سنودجراس قد امتلأتا بمختارات من هذه الأحداث كل الامتلاء.

وانثنى المستر أجستس سنودجراس يقول بكل الحماسة الشعرية التي امتاز بها، حين ألموا على الحصن القديم الباذخ في المدينة: «يا له من طلل عظيم!». وكانت الكلمات التي خرجت من فم المستر بكوك وهو يرفع المنظار المعظم إلى عينيه: «إنها لدراسة خليقة بأن يتولاها عالم من علماء الآثار».

وقال الغريب: «آه.. موضع بديع.. بناء مجيد.. جدران عابسات.. أبواب متداعية.. أركان مظلمة.. مدارج متهاوية.. كنيسة قديمة أيضًا.. رائحة ترابية.. أقدام الحجيج أبلت السلمَ القديم.. أبواب سكسونية صغيرة.. كراسي اعتراف كشبابيك تحصيل النقود في المسارح.. أولئك الرهبان زبائن غريبو الأطوار.. باباوات وأمراء خزائن، وكل صنوف الشيوخ والهرمين، بوجوههم العراض الحمر وأنوفهم المهشمة.. يتوافدون في كل يوم.. أردية مزردة كذلك.. بنادق ذوات أزندة.. توابيت موتى.. موضع بديع.. وأساطير قديمة كذلك.. وقصص غرائب.. شيء مفتخر!» ومضى الغريب في هذه المناجاة حتى وصلوا إلى فندق الثور- بول إن- في شارع «هاي ستريت» حيث وقفت المركبة عن المسير..

وسأله المستر نثنايل ونكل «أنازل هنا يا سيدي؟».

قال: «هنا.. كلا ولكن لخير لكم.. منزل طيب.. وسرر ممتعة.. أما

منزل «رايت» الملاصق، ففادح الأجر.. فادح جدًّا.. ولكنه نصف كراون في فندق الثور، إذا أخذت بالك من الخادم بزيادة في الأجر إذا أنت تغديت عند صديق، أكثر مما لو تناولت الطعام في المقهى.. أناس عجيبون.. جدًّا».

والتفت المستر ونكل إلى المستر بكوك وغمغم ببضع كلمات، وتبادل المستر بكوك والمستر سنودجراس الهمس، وتهامس المستر سنودجراس والمستر طبمن، وتبادل القوم هز الرؤوس هزة الموافقة.

ووجه المستر بكوك الخطاب إلى الغريب:

قال: «لقد أسديت إلينا صنيعًا كبيرًا جدًّا في هذا الصباح يا سيدي، فهل تأذن لنا في تقديم دليل يسير على عرفاننا لك وشكرنا، بالتماس حظوة الجلوس إليك على الغداء؟».

قال: «بكل سرور.. لا أقصد أن أفرض شيئًا عليكم.. ولكن دجاجة مسلوقة وعش الغراب.. شيء فاخر.. كم الساعة؟».

قال المستر بكوك وهو ينظر إلى ساعته: «دعني أنظر.. إنها الآن تقارب الثالثة.. هل نقترح الخامسة مثلًا؟».

قال: «يوافقني هذا الموعد كل الموافقة.. الخامسة بالضبط.. وإلى أن نلتقي خذوا بالكم من أنفسكم».

ومضى الغريب يرفع القبعة المطبقة بضع بوصات من فوق رأسه، ثم أعادها باستخفاف إلى موضعها، منحرفة كثيرًا إلى ناحية، وانطلق في خفة يجتاز الفناء ولا يزال نصف الإضبارة الملفوفة في الورق الأسمر

بارزًا من جيبه، واتجه صوب شارع «هاي ستريت».

وقال المستر بكوك: «الظاهر أنه جوابة تنقل في عدة أقطار، ودقيق الملاحظة لأمور الناس والأشياء».

قال المستر سنودجراس: «وددت لو اطلعت على قصيدته».

وقال المستر ونكل: «وددت لو أني شاهدت ذلك الكلب».

أما المستر طبمن فلم يقل شيئًا، وإنما ذهب خاطره في إثر «ألدونا كريستينا» ومغسل المعدة والفوار، وقد امتلأت عيناه بالعبرات.

وبعد أن انتهى الجمع من استئجار حجرة جلوس خاصة، ومعاينة غرف النوم، والتوصية بتهيئة الطعام، خرجوا إلى الطريق لمشاهدة معالم المدينة وما يحيط بها.

ولسنا نجد من مطالعتنا الدقيقة للملاحظات التي دوَّنها المستر بكوك عن المدن الأربع، استراود، وروشستر وشاتم وبرومتون، اختلافًا يذكر في مبلغ آثارها في نفسه عن أي تأثير لها في نفوس الآخرين من المسافرين الذين زاروا تلك المدائن، فلا يصعب علينا تلخيص وصفة العلم لها.

فقد كتب المستر بكوك في مذكراته يقول: «إنه ليلوح لي أن أهم ما تنبت هذه المدن جنود وبحارة ويهود، وطباشير، وبراغيث بحر، وضباط وعمال أحواض، وأما السلع المعروضة للبيع في الطرقات فهي في الأغلب الأعم أمتعة بحرية، وخبز يابس وتفاح، وسمك موسى ومحار «جندوفلي»، وتبدو الشوارع ملأى بالحياة والحركة، ومردهما غالبًا

إلى مرح العسكريين ومجونهم، وإنه لبهيج حقًّا لمن أوتي خاطرًا نزّاعًا إلى حب الخير أن يشهد أولئك الخلائق الأوداء وهم مترنحون من أثر الإفراط في أكل اللحوم وشرب الكحول الشديد، ولا سيما إذا تذكرنا أن السير في أثرهم والممازحة معهم كفيلان بلهو رخيص، ومتعة بريئة للغلمان من أهل المدينة».

وواصل المستر بكوك قوله في مذكراته: «ولست أحسب شيئًا يمكن أن يفوق خفة روحهم، فقد حدث في اليوم السابق لوصولي أن أحدهم أهين أشد الإهانة في حانة إذ رفضت الساقية بتاتًا أن تقدم له شرابًا أكثر مما تعاطى، فما كان منه لمجرد التسلية إلا أن أخرج «سونكته» من غمدها وجرح الفتاة في كتفها، وكان هذا الفتى البديع أول من قصد إلى الحانة في غداة اليوم التالي وأبدى استعداده للتغاضي عن المسألة ونسيان ما جرى.

ومضى المستر بكوك يقول في مذكراته: «وأكبر ظني أن استهلاك التبغ في هذه المدائن كبير جدًّا، وأن الرائحة التي تعم الشوارع تتجاوز الحد في الزكاوة والعبق في أنوف المولعين بالتدخين المفرطين فيه، وقد ينفر المسافر الذي لا يعني بغير المسائل السطحية من القذر الذي هو من أخص خواص هذه المدن، ولكنه يبدو سارًّا مُرْضِيًا لمن يكسبه دليلًا على كثرة الحركة فيها ورخائها التجاري..

وفي تمام الخامسة قدم الغريب، وأعد الطعام بعد قليل. وكان قد تخلص من إضمامة الورق الأسمر الملففة، وإن لم يحدث تغييرًا في ملابسه، وانقلب أكثر ثرثرة من قبلُ.

قال وقد رأى الغلام يرفع أحد الأغطية: «ما هذا؟».

فأجابه الغلام: «سمك موسى يا سيدي».

- سمك موسى.. آه هذا سمك فاخر.. يأتي كله من لندن.. إن أصحاب الحافلات يعاونون في إقامة المآدب السياسية.. مركبات ملأى بسمك موسى.. عشرات من السلال.. إنهن مكرة.. كأس من النبيذ يا سيدي..

وقال المستر بكوك: «بكل سرور».

وبدأ الغريب بكأس نبيذ مع المستر بكوك أولًا ثم أخرى مع المستر سنودجراس، وثالثة مع المستر طبمن، ورابعة مع المستر ونكل، وخامسة مع الجمع كلهم، في عجلة تكاد تشبه عجلته في الكلام.

وانثنى إلى الغلام فقال: «زحمة ملعونة على السلم.. يا غلام.. أشباح تصعد ونجارون يهبطون.. مصابيح وأقداح ومعازف.. ما الخبر؟».

فأجاب الغلام: «مرقص يا سيدي».

قال: «اجتماع؟».

أجاب: «كلا يا سيدي ليس اجتماعًا.. بل مرقص خيري يا سيدي».

وهنا انثنى المستر طبمن يسأل باهتمام بالغ: «أفي هذه المدينة نساء حسان كثيرات؟ هل تعرف يا سيدي؟».

فصاح الغريب: «بديع.. مفتخر.. إنها «كنت» يا سيدي.. كل إنسان يعرف «كنت» بشهرة تفاحها وكرزها وحشيشة دينارها ونسائها، ألك في كأس من النبيذ يا سيدي؟».

فأجاب المستر طبمن: «بكل سرور».

وراح يملأ الكأس ويفرغها.

وعاد المستر طبمن إلى موضوع «الرقص» فقال: «أحب كثيرًا أن أحضره.. كثيرًا جدًّا».

وعاجله الغلام بقوله: «التذاكر عند مكان الشرب يا سيدي.. التذكرة بنصف جنيه يا سيدي».

فعاد المستر طبمن يبدي رغبة صادقة في حضور السيد المرقص، ولكنه لم يجد استجابة له في عين المستر سنودجراس العابسة، ولا في نظرة المستر بكوك الذاهلة، فأقبل باهتمام بالغ على النبيذ والنُّقْل الذي كان قد وضع منذ لحظة فوق المائدة.

وقفل الغلام راجعًا، وخلا الجمع للاستمتاع بساعتين هنيئتين قَضَوْهُما في عشاء موفق.

وانبرى الغريب عندئذ يقول: «عفوًا يا سيدي.. إن الزجاجة واقفة.. أدرها علينا.. في اتجاه الشمس.. خلسًا لا تدع لها من ثمالة.. وراح يفرغ كأسه وكان قد أترعها شرابًا منذ دقيقتين أو نحوهما، وملأ أخرى، مِلأة رجل عريف بالشراب، عاف عليه.

وطاف النبيذ على الجمع، وطلبوا مزيدًا، وطفق الضيف يتكلم، والبكوكيون يستمعون، وكلما مرت لحظة ازداد المستر طبمن ميلًا إلى حضور المرقص، وطفح محييًا المستر بكوك بشرًا وحبًّا للخير العام، بينما ذهب المستر ونكل، والمستر سنودجراس في سبات عميق.

وانثنى الغريب يقول: «لقد بدأوا في الطبقة العليا مهرجانهم.. ألا تسمعون أنغام الكمان.. ها هو ذا المعزف.. لقد بدأوا».

وكانت الأصوات والأنغام المختلفة التي وجدت طريقها إلى الطبقة الدنيا إيذانًا بابتداء الرقصة الأولى.

فعاد المستر طبمن يقول: «ما أشوقني إلى الذهاب!».

وأجاب الغريب: وأنا كذلك.. ولكن أمتعتي عليها اللعنة لم تصل بعد.. الشحنات ثقال.. ليس عندي ما أرتديه لأدخل، أمر غريب. أليس كذلك؟».

وكان حب الخير من المعالم البارزة للنظرية البكوكية، ولم يكن أحد أكثر حماسة، وأجلى غيرة، في مراعاة هذا المبدأ، من المستر تراسي طبمن حتى لا يكاد امرؤ يصدق كثرة الشواهد والأمثلة المدونة في محاضر جلسات النادي، على ما كان هذا الرجل المتناهي في حب الخير، وإيتاء البر، يرسله من الخيرات والصدقات إلى بيوت أعضاء آخرين، أو يتركه من ثياب، أو يبادر به من معونة مالية.

فلا عجب إذا هو انثنى يقول: «إني ليسعدني أن أعيرك حلة من ثياب لهذا الغرض، ولكني أراك نحيفًا، وأراني..».

فعاجله الغريب قائلًا: «سمينًا كياخوس البدين[1] وهو يقطع الأوراق، ويترجل من فوق القصعة، في رداءة مختارة من صوف خشن.. آه؟ غير مقطر مرتين، بل مطحون طحنتين.. ها.. ها.. أدر النبيذ..».

---

(١) إله الخمر عند قدماء الإغريق.

ولسنا ندري إلى الآن على وجه اليقين، هل أحس المستر طبمن شيئًا من الغضب من تلك اللهجة الجدية الآمرة التي طلبها بها إليه أن يدير النبيذ الذي طواه الغريب سريعًا في جوفه، أم أحس أنه قد أزرى فعلًا به، وهو العضو الكبير النفوذ في نادي بكوك، إذ شُبِّهَ على هذه الصورة المعيبة بباخوس المترجل عن قصعته، ولكنه أدار النبيذ، وسعل سعلتين، ولبث ينظر إلى الرجل عدة ثوان، بتجهم شديد، وعبوس ظاهر، بينما بدا هذا هادئًا كل الهدوء، ساكنًا كل السكينة، تحت نظرته الفاحصة وحدجته القاسية.

وخفت ما به شيئًا فشيئًا، فعاد إلى حديث المرقص.

قال: «لقد هممت أن أقول لك يا سيدي إنه إذا كان ثوبي عليك واسعًا مفرط السعة، فلعل ثوب صديقي المستر ونكل أليق عليك وأصلح سمتًا».

وانثنى الرجل الغريب يأخذ مقاس المستر ونكل بنظراته، وما لبث أن تهللت منه الأسارير رضى وارتياحًا وهو يقول: «بالضبط».

ونظر المستر طبمن حوله فتبين له أن النبيذ الذي أحدث تأثير المنوم، الشديد التخدير، في كل من المستر سنودجراس والمستر ونكل، قد دب دبيبه في حواس المستر بكوك، فإن ذلك السيد راح ينتقل رويدًا من مختلف المراحل التي تسبق الغيبة، من تأثير الطعام ومعقباته، وتحول إلى مرحلة الانتقال العادية من ذروة الفرح والمرح إلى غور الاكتئاب، ومن غور الاكتئاب إلى ذروة الفرح والمرح، وبدا لحظة كمصباح الغاز في الطريق ساطعًا وهّاجًا، إلى حد غير طبيعي، ثم هبط حتى كاد نوره

يتوارى وبريقه يخبو، وما هي إلا فترة قصيرة حتى توهج مرة أخرى هنية، ليعود فيرفرف، ويخفق، مرسلًا ضوءًا مترنحًا متراقصًا، وإذا هو في النهاية ينطفئ جملة واحدة، فقد تراخى رأسه على صدره، ولم يعد من دليل مسموع على وجود ذلك الرجل العظيم غير غطيطه المستمر، إلا من حشرجة عابرة بين الحين والحين.

وكان عامل الإغراء بمشاهدة الرقص، ولتكوين فكرة عن حسان نساء «كنت» قويًا في نفس المستر طبمن، كما كان كذلك شديدًا في نفس الرجل الغريب، فقد كان المستر طبمن يجهل هذا الموضع كل الجهل، ولا يعرف شيئًا مطلقًا عن أهله وسكانه، بينما بدا له أن الغريب عليم بهما كل العلم، كأنه أقام في تلك الجهة منذ طفولته.

وكان المستر ونكل نائمًا، وقد أوتي المستر طبمن قدرًا كافيًا من الخبرة بهذه المسائل، فلا يخفى عليه أن صاحبه لا يكاد يفتح عينيه، وينتبه من غفوته، حتى ينطلق بالطبع متثاقلًا إلى فراشه.

ولكنه لبث مترددًا لا يقطع في الأمر برأي. وسمع الضيف الذي لا يكل ولا يمل يقول: «املأ كأسك وأدر الزجاجة» ففعل.. وجاء تأثير الكأس الأخيرة، فأزال بقية ما في نفسه من التردد، وحفزه إلى الاعتزام، فأنشأ يقول: «إن غرفة نوم المستر ونكل داخل غرفتي، ولن يتيسر لي أن أشرح له ما أريد إذا أنا أيقظته الساعة، ولكني أعرف أن لديه ثوب سهرة، قد أودعه جوف حقيبة من قماش، فأي بأس من ارتدائك إياه لدخول المرقص، وخلعه عنك عند عودتك، فأرده إلى صفه، دون حاجة إلى إزعاجه بهذا الأمر ونحوه؟».

قال: «إنها لفكرة بديعة بحق.. خطة بارعة..! يا له من موقف لعين.. أربع عشرة حلة في الصناديق.. وأضطر إلى ارتداء ثوب رجل آخر.. فكرة حسنة جدًّا.. هذه.. حسنة جدًّا».

وقال المستر طبمن: «لنشتر التذاكر إذن».

قال: «الأمر لا يستحق فك جنيه من أجله.. فلنعمد إلى القرعة، لنرى من الذي يدفع عن نفسه وصاحبه معًا.. سأنادي.. وأنت تدبر.. وسأختار أنا المرأة.. المرأة.. هيا أيتها المرأة الساحرة!».

وهوى الجنيه ثم استقر، فإذا المرأة هي العليا.. أو على الأصح «الحية المجنحة» وإن سماها الرجل «المرأة» من قبيل الأدب والمجاملة.

ودق المستر طبمن الجرس، فابتاع التذكرتين، وأمر بإحضار شموع.

ولم ينقض ربع ساعة، حتى كان الرجل الغريب قد انتهى من ارتداء ثوب المستر ونكل بكامل طاقمه.

وراح المستر طبمن يقول للغريب وهو يتطلع إلى شكله بارتياح بالغ في المرآة: «إنه ثوب جديد، وهو الأول من نوعه الذي فصل تفصيلًا وعليه شارة نادينا» ومضى يسترعي نظر صاحبه إلى الزرار الكبير المذهب على الصدر، و الذي نقشت في وسطه صورة نصفية للمستر بكوك، وعلى جانبيه الحرفان «ن. ب».

وقال الغريب: «ن. ب.. صورة عجيبة.. تامة الشبه بالشيخ.. ن. ب.. وماذا تعني ن. ب هذه؟ باهرة..؟؟ إيه»[1].

---

(١) ن. ب: أي نادي بكوك.

فأنشأ المستر طبمن في غيظ متزايد واعتداد بالغ، يشرح له المعنى المراد.

وانثنى الرجل الغريب يقول: «ألا ترى أنها ضيقة من الخصر نوعًا ما.. أليست كذلك؟».

قال هذا وهو يدور حول نفسه ليرى في المرآة أزرار الخاصرة، وقد بدت في منتصف الطريق إلى أعلى ظهره، وعاد يقول: «كأنها ثوب مأمور البريد.. هذه سترات غريبة.. معمولة بعقد، فلا قياس ولا أخذ أبعاد، ما أغرب تصريف العناية الإلهية.. كل القصار يعطون ثيابًا طوالًا.. وكل الطوال يعطون ثيابًا قصارًا!».

وعلى هذا النحو انطلق صاحب المستر طبمن، أو رفيقه الجديد، في ثرثرته، وهو يصلح من ثوبه، أو على الأصح، من ثوب المستر ونكل، حتى إذا انتهى، صحب المستر طبمن وذهبا يصعدان السلم المؤدي إلى قاعة الرقص.

وقال الرجل الواقف بالباب: «الأسماء.. من فضلك».

وتقدم المستر طبمن ليعلن عن نفسه، ولكن الرجل الغريب منعه قائلًا: «لا أسماء مطلقًا...» وأقبل يهمس للمستر طبمن: «إن الأسماء لا تجدي، إذا كانت غير معروفة. قد تكون حسنة في ذاتها.. ولكنها ليست أسماء كبيرة.. قد تصح الأسماء المعروفة في حفلة صغيرة، ولكنها لا تحدث تأثيرًا في الحفلات والاجتماعات العامة.. فلنتنكر.. هذا خير وأفضل.. سيدان من لندن.. أجنبيان كبيران.. أي شيء..».

وفتح الباب، ودخل المستر طبمن والغريب قاعة الرقص.

وكانت حجرة طويلة، صفت فيها أرائك مكسوة بأغطية قرمزية اللون، ونصبت خلالها الشموع في ثريات زجاجية، وكان الموسيقيون جلوسًا وحدهم فوق منصة عالية، وقد حوت الحلبة زوجين أو ثلاثة أزواج من الراقصين على أنغام المعازف، وقد وضعت منضدتان للميسر، في غرفة مجاورة خصصت للعب الورق، وبدأت أربع سيدات متقدمات في العمر، ومثل عددهن من الرجال البدينين، منهمكين في المقامرة.

وانتهى الرقص، وانطلق الراقصون يتنقلون في أرجاء القاعة، واتخذ المستر طبمن ورفيقه مكانًا لهما في ركن، ليتفقدا القوم.

وقال الغريب: «انتظر لحظة. لا يلبث الفصل البديع.. أن يبدأ.. معاشر الوجهاء والسادات لم يحضروا بعد.. هذا بلد غريب.. أصحاب الطبقة العليا من أهل أحواض السفن لا يعرفون الطبقة الدنيا.. وهؤلاء لا يعرفون صغار السادات.. وصغار السادات لا يعرفون أرباب الحرف والمهن.. والوكيل لا يعرف أحدًا».

قال المستر طبمن: «ومن يكون ذلك الغلام الصغير، ذو الشعر الأشقر والعينين القرنفليتين، الذي يبدو في ثوب تنكري؟».

فأجاب الغريب قائلًا: «صه.. أرجوك.. العينان القرنفليتان، والثوب المستعار.. والغلام الصغير.. هراء.. شارة الآلاي السابع والتسعين.. هذا الشريف ويلموت سنايب.. أسرة عظيمة.. آل سنايب.. عظيمة جدًّا».

وفي هذه اللحظة صاح الرجل الواقف بالباب بصوت عال: «السير

توماس كلابر والسيدة كلابر والآنستان كلابر»، وإذا ضجة تسري في أرجاء القاعة على دخول سيد فارع القد في ثوب أزرق وأزرار براقة، وسيدة ضخمة في ثوب حريري أزرق، وشابتان من الوزن عينه في ثياب مهندمة، من اللون ذاته.

وهنا همس في أذن المستر طبمن: «الوكيل.. رئيس الأحواض.. رجل عظيم.. رجل عظيم إلى حد كبير».. وكان أعضاء اللجنة الخيرية قد أفسحوا الطريق أمام السير توماس كلابر وأسرته إلى صدر القاعة، وتزاحم الشريف ويلموت سنايب وغيره من السادات الأعلام ليؤدوا التحيات للآنستين كلابر، بينما وقف السير توماس كلابر منصوب القامة، وراح ينظر بجلال من فوق لفافة عنقه السوداء إلى المجتمعين من حوله.

ولم تمض لحظة أخرى حتى نادى المنادي: «المستر اسميثي.. والسيدة اسميثي.. والآنستان اسميثي..».

فسأل المستر تراسي طبمن رفيقه: «ومن يكون المستر اسميثي؟».

قال: «إنسان ما في الأحواض».

وانحنى المستر اسميثي باحترام للسير توماس كلابر، ورد السير توماس كلابر على التحية بتنازل ظاهر، وألقت الليدي كلابر نظرة «تلسكوبية» على آل اسميثي، من خلال منظارها، وحملقت مسز اسميثي، بدورها، البصر في سيدة أخرى سواها لم يكن زوجها قط في زمرة أهل الأحواض وأصحابها.

وأقبل على إثر هؤلاء آل بولدر.. الأميرالاي بولدر ومستر بولدر، ومس بولدر.

وأجاب الرجل الغريب على نظرة التساؤل التي بدت في عين المستر طبمن بقوله: «قائد الحامية..».

واستقبلت الآنستان كلابر الآنسة بولدر بترحيب حار، وكان السلام الذي تبودل بين مسز بولدر والليدي كلابر أبلغ ما يكون حرارة ومودة، بينما تبادل الأميرلاي بولدر والسير توماس كلابر حق «النشوق»، وبدا كل منهما على حد قول ألكسندر سلكيرك في مطلع القصيدة المعروفة: «أنا الملك على كل ما يقع عليه ناظري..»[1].

وبينما كان سادات الحفل، آل بولدر، وكلابر، وسنايب على هذا النحو محافظين على وقارهم في صدر القاعة، كان غيرهم من أهل الطبقات المختلفة في المجتمع يحاولون الاقتداء بهم، في أرجاء أخرى منها، ومضى ضباط «الآلاي» السابع والتسعين، ومن هم دون أولئك عراقة وجاهًا يتوددون لنساء من هم أقل شأنًا، بين موظفي الأحواض وكبار العاملين فيها، كما انثنت زوجات «الوكلاء» والمحامين، وزوجة تاجر النبيذ، يرأسن طبقة أخرى (وكانت امرأة تاجر الجعة تزور آل بولدر في دارهم) والظاهر أن مسز توملينسن، زوجة وكيل البريد قد وقع عليها الاختيار بالإجماع رئيسة لطبقة التجار وأرباب المهن.

وكان من أبرز الشخصيات في دائرته وأرمقها مكانة، رجل قصير القامة بدين، له حلقة من الشعر الأسود، ملتفة حول رأسه، وصلعة مستديرة جرداء على أم ناصيته. ويدعى الدكتور «سلامر» الطبيب في الآلاي السابع والتسعين وقد مضى يتبادل النشوق مع كل إنسان،

(١) مطلع قصيدة «ألكسندر سلكيرك» للشاعر وكيم كوبر.

ويتحدث إلى كل إنسان ويضحك ويرقص، وينكت، ويلعب الميسر، ويفعل كل شيء، ويتراءى في كل مكان، وقد جمع هذا الطبيب القصير كل هذه «الفعال» على كثرتها، فعلة أخرى أهم منها جميعًا وأكبر شأنًا.. وهي الإلحاح في غير كلال على تقديم أوفر نصيب، وأغزر قسط لا ينفد، من الرعاية والاحتفال، إلى أرملة عجوز قصيرة ينم ثوبها النفيس، ويشف إفراطها في الزينة والحلي، عنها كأشهى غنيمة لذي دخل محدود.

وظل نظر المستر تراسي طبمن، وصاحبه، فترة من الوقت، يستقر على الطبيب والأرملة، ولم يلبث الرجل الغريب فجأة أن بدد الصمت بقوله: «مال وفير.. هذه العجوز.. هذا الطبيب الفخور المتباهي.. فكرة لا بأس بها.. لعبة طيبة..».

ونظر المستر طبمن إلى الغريب، وهو منطلق في هذه العبارات الغامضة، نظرة المستفسر المتسائل. فقال هذا: «سأرقص مع هذه الأرملة».

قال: «ومن تكون؟».

قال: «لا أدري؟ ما رأيتها من قبل في حياتي. هذا الطبيب لعنه الله.. ها هو ذا ينصرف».

واجتاز الغريب القاعة مسرعًا، فاستند إلى رف موقد وراح يطيل النظر في إعجاب موقر حزين إلى وجه تلك السيدة القصيرة العجوز، ولبث المستر طبمن يشاهد هذا المنظر، في دهشة صامتة.

وتقدم الغريب في سبيل تحقيق مأربه بخطوات سراع، فقد كان

الطبيب في تلك اللحظة يراقص سيدة أخرى، وسقطت المروحة، من يد الأرملة، فأسرع الغريب في التقاطها، وقدمها إليها، فكان الابتسام، فانحناء، فتحية، فكلام. ومضى الغريب بجرأة إلى رئيس الاحتفال، وعاد به، وتلا ذلك تعارف صامت، وإذا الغريب ومسز بادجر يأخذان مكانهما في دور رقص.

وكانت دهشة الطبيب تتجاوز، إلى حد لا يوصف، دهشة المستر طبمن، من هذا التصرف السريع، على شدة هذه الدهشة نفسها، فقد كان الغريب شابًّا في نضارة العمر، فلا عجب إذا بدأت الأرملة مزهوة فرحة به، فلم تعد تأبه بتلطف الطبيب وتحببه إليها، ولم يجد غضبه مطلقًا على مُزاحمه البادئ الذي لبث ساكنًا لا يعبأ بتاتًا.. فقد وقف الطبيب جامدًا في مكانه كأنما أصابه الشلل.. أفمثله وهو الدكتور سلامر، طبيب الآلاي السابع والتسعين، ينطفئ نوره في لحظة ويخبو ضرامه، من رجل لم يره من قبل أحد ولا يعرفه أحد حتى الآن؟! الدكتور سلامر.. الدكتور سلامر من الآلاي السابع والتسعين يُلفظ ويُنبذ على هذه الصورة!.. مستحيل.. ولا يمكن أن يحدث.. ولكنه مع ذلك حدث، بل هو حادث فعلًا.. وها هما هذان واقفان معًا.. ما هذا.. يقدم صديقه إليها للتعارف.. أيمكن أن يصدق عينيه؟.. وعاد ينظر مرة أخرى.. وآلمه أن يعترف كارهًا بأن عينيه صدقتاه.. وها هي ذي مسز بادجر تراقص المستر تراسي طبمن.. تلك حقيقة واقعة لا ينفع فيها تخطئة، ولا تكذيب.. وها هي ذي السيدة أمامه، يتوثب جسدها ويقفز من هاهنا وهاهنا، بقوة لم تؤلف منها، وها هو ذا المستر تراسي طبمن يحجل في كل ناحية، وينم وجهه عن أشد الجد،

وأبلغ الوقار، وإنه ليرقص - كما يفعل خلق كثير من الناس - كأن الرقص على الأنغام ليس شيئًا يبعث الضحك، ويدعو إلى المرح، بل تجربة قاسية للمشاعر، تقتضي مواجهتها عزمًا قويًا لا يلين.

واحتمل الطبيب هذا كله بصبر وصمت، وتجلد لكل ما تلاه من تقديم شراب وارتقاب كؤوس، ومسارعة إلى «بقسماط» وغزل، ولكن لم تكد تنقضي بضع ثوان على اختفاء الغريب ليرافق السيدة بادجر إلى مركبتها، حتى اندفع الطبيب مسرعًا من القاعة كالسهم وقد فارت كل ذرة من غضبه المكظوم، وبدت فورتها على كل ناحية من وجهه، عرقًا متصببًا من شدة الحنق..

وبينما كان الغريب عائدًا، والمستر طبمن بجانبه، راح يتحدث إليه في همس ضاحكًا، فقال: «إن الطبيب القصير ظمآن، يريد أن يشرب من دمه..».

وكان الغريب في فرح بالغ.. لأنه المنتصر.

وتقدم الطبيب نحوه، فقال بصوت مرعب، وهو يقدم إليه بطاقته، وينزوي به في ركن من «الدهليز» سيدي!.. إن اسمي سلامر، الدكتور سلامر، يا سيدي.. من الآلاي السابع والتسعين.. ثكنات شاتام.. وها هي ذي بطاقتي يا سيدي.

وكان يريد أن يسترسل.. ولكن الغيظ خنق أنفاسه.

وأجابه الغريب ببرود.. آه.. سلامر.. متشكر جدًا.. رعاية جميلة منك.. لست في هذه الساعة مريضًا يا سلامر.. ولكني سأطرق بابك إذا مرضت.

وزفر الطبيب من فرط الغضب وتقطعت أنفاسه، وانثنى يقول: أنت نصاب يا سيدي.. نذل.. جبان.. كذاب.. ألا شيء يمكن أن يحملك على إعطائي بطاقتك يا سيدي؟

فأجاب الغريب- وهو يكاد يخاطب نفسه- آه.. فهمت.. الخمر هنا باطشة.. وصاحب الفندق سيد سمح كريم.. الأمر سخيف جدًّا.. شراب الليمون أفضل كثيرًا.. والحجرات حارة، والخمر في الصباح أليمة.. للسادة المسنين.. قاسية.. شديدة..

وتحرك خطوة أو خطوتين..

وقال الرجل القصير الغضوب: أنت نازل في هذا الفندق يا سيدي.. وأنت سكران الآن طافح، يا سيدي.. وستسمع عني صباح غد يا سيدي.. سأعرف من أنت يا سيدي.. أنا غدًا واجدك..

وأجاب الغريب، وهو جامد لا يتحرك: «إني لأفضل أن تجدني خارج الفندق على أن تجدني في داخله».

وبدا الدكتور سلامر في صورة افتراس مكبوت، عاجز عن الإفصاح، وهو يثبت قبعته فوق رأسه بحركة انفعال.

وراح الغريب والمستر طبمن يهبطان السلم إلى غرفة النوم ليعيدا الثياب المستعارة إلى صاحبها، وونكل النائم لا يدري مما حدث شيئًا..

وكان المستر ونكل في سبات عميق، فلم يلبثا أن انتهيا من إعادة الثياب إلى مكانها بسلام، وكان الغريب في حالة مجون متناهية، بينما راح المستر طبمن في ذهوله من أثر النبيذ الذي تناوله على الطعام،

والخمر التي شربها في المرقص، وسطع الأنوار، وكثرة الغيد، يحسب الأمر كله «نكتة» بديعة.

وما كاد صاحبه ينصرف، حتى أخذ يحاول في شيء من الجهد الاهتداء إلى الشق الذي كان قد وضع فيه «قلنسوة النوم» حتى لقد قلب المائلة وهو يحاول وضع القلنسوة بعد العثور عليها فوق رأسه، ولم يتيسر له الوصول إلى فراشه إلا بعد سلسلة من الترنحات والفترات، ولكنه لم يلبث أن راح في سبات عميق.

وما كادت الساعة تكف عن دق السابعة من صباح اليوم التالي حتى تنبه ذهن المستر بكوك، الجامع، المدرك، الواعي، من الغيبوبة التي هبط فيها من أثر النوم، على دقات عنيفة تطرق باب مخدعه.

فاستوى في فراشه وهو يقول: «من الطارق؟».

قال الطارق: «بوتس، يا سيدي!».

قال: «ماذا تريد؟».

أجاب: «هل تتفضل يا سيدي فتنبئ من فيكم يرتدي سترة زرقاء فاتحة، وعليها زرار مذهب نقش عليه الحرفان «ن.ب»؟».

فخطر للمستر بكوك أن السترة قد أعطيت إليه لتنفيضها وأن الرجل نسي لمن هي.. فصاح قائلًا: «المستر ونكل.. وهو في الغرفة التي بعد هذه بغرفتين إلى اليمين..».

قال بوتس: «شكرًا يا سيدي».. وانصرف.

وصاح المستر طبمن، حين سمع دقًّا شديدًا ببابه، أيقظه من سباته

العميق: «ما الخطب؟».

فأجابه بوتس من الخارج: «هل أستطيع أن أكلم المستر ونكل يا سيدي؟».

فنادى المستر طبمن صاحبه النائم في الغرفة الداخلية: «ونكل.. ونكل!».

وسمع صوتًا خافتًا يرد عليه من تحت الغطاء: «هالو.. ماذا تريد..؟».

قال: «أنت مطلوب.. أحد الناس واقف بالباب يطلبك».

وما إن تمكن المستر طبمن من النطق بهذه الكلمات، بعد جهد جهيد، حتى استدار في فراشه، وعاد يغط في نوم عميق.

وقال المستر ونكل لنفسه: «أنا مطلوب!» وأسرع في القفز من فراشه وألقى على جسده شيئًا من ثياب وهو يقول: «مطلوب وأنا على هذه المبعدة من المدينة..؟ ومن ترى هذا الذي يطلبني؟».

وفتح الباب، فوجد بوتس أمامه..

قال هذا حين رآه: «إن سيدًا في قاعة القهوة يطلب لقاءك ويقول إنه لن يستغرق غير لحظة من وقتك، ولا يقبل اعتذارًا».

قال المستر ونكل: «أمر غريب جدًّا.. سأنزل حالًا».

وبادر إلى الاشتمال «بلفافة» سفر وجلباب نوم، وانطلق يهبط الدرج، فوجد عجوزًا وبعض الخدم ينظفون قاعة القهوة، وضابطًا في ثوب عسكري، غير ثوب السهرة مطلًّا من النافذة.

والتفت الضابط عند دخول المستر ونكل وأحنى رأسه انحناءة جامدة، وبعد أن أمر الخدم بالانصراف وأغلق الباب بكل عناية، انثنى يقول: «المستر ونكل.. أظن ذلك؟».

قال هذا: «نعم.. أنا ونكل يا سيدي».

قال: «لن يدهشك يا سيدي أن أنبئك أنني قدمت إلى هنا في هذا الصباح موفدًا من قبل صديقي الدكتور سلامر من الآلاي السابع والتسعين..».

قال: «الدكتور سلامر!».

قال: «نعم. الدكتور سلامر، وقد طلب إليَّ أن أبلغك رأيه في تصرفك الليلة البارحة، وهو أنه تصرف لا يمكن أن يحتمله سيد مهذب، وقد أضاف قوله إنه تصرف لا يتصرفه سيد في حق سيد آخر..».

وكانت دهشة المستر ونكل أصدق وأجلى من أن تفوت صديق الدكتور سلامر، ولهذا واصل حديثه قائلًا: «لقد طلب إليَّ صديقي الدكتور سلامر أن أضيف أيضًا أنه يعتقد اعتقادًا جازمًا، أنك كنت ثملًا في فترة من الليل، ولعلك لم تع مدى الإهانة التي اقترفتها، وقد عهد إليَّ أن أقول لك إنه إذا كان ذلك عذرًا تلتمسه لتصرفك، فلا مانع لديه من قبول اعتذار مكتوب بخطك وإملائي إياه عليك..».

فراح المستر ونكل يردد القول في أبلغ لهجة ممكنة تنم عن الدهشة: «اعتذار مكتوب!».

فأجابه الزائر ببرود: «إنك بالطبع تعرف الوجه الآخر من الموقف

إذا لم تفعل».

قال المستر ونكل، وقد ارتبك ذهنه كل الارتباك من هذا الحديث غير المألوف: «هل كلفت حمل هذه الرسالة إليَّ بالاسم؟».

قال: «لم أكن شخصيًّا حاضرًا، وإنما كلفت، بعد أن رفضت رفضًا قاطعًا أن تقدم بطاقتك إلى الطبيب، أن أتحقق من قبل ذلك السيد من شخصية الرجل الذي كان مرتديًا سترة غير مألوفة، ذات لون أزرق خفيف وزرار مذهب عليه صورة نصفية وحرفان، وهما: «ن.ب».

واضطرب ونكل من الدهشة وهو يسمع هذا الوصف الدقيق لثوبه.

واسترسل صديق الدكتور سلامر يقول: «وقد اقتنعت من التحقيق الذي أجريته اللحظة في مكان الشراب، أن صاحب ذلك الثوب وصل إلى هنا، مع ثلاثة من السادات، أصيل أمس، فأوفدت في الحال رسولًا إلى الرجل الذي وصف لي بأنه رئيس الجماعة، فأحالني في التو واللحظة إليك..».

ولو أن البرج الأكبر، في حصن روشستر، زايل فجأة مكانه، وهوى قبالة نافذة قاعة القهوة، لما كانت دهشة المستر ونكل شيئًا يصح أن يقارن بدهشته البالغة التي سمع بها ذلك الحديث. وكان أول خاطر قام في نفسه أن الثوب قد سرق، فلم يسعه إلا أن يقول للزائر: «هل تأذن لي في احتجازك لحظة وحدة؟».

فأجابه الزائر الثقيل غير المرحب به: «بلا شك».

وجرى المستر ونكل مسرعًا إلى الطبقة العليا وفتح الحقيبة بيد

راجفة فوجد الثوب كما هو، في موضعه المألوف، ولكنه بعد تحقيق دقيق، تبين أن عليه آثارًا ظاهر توحي بأنه قد لبس في الليلة الماضية.

قال وهو يدع الثوب يسقط من يديه: «لا بد من أن يكون الأمر كذلك.. فقد أفرطت في النبيذ بعد الغداء، ويخيل إليّ أنني ذهبت أطوف الشوارع وأدخن «سيجارًا» بعد ذلك.. الواقع أنني كنت سكران.. ولا بد من أنني غيرت ثيابي، وذهبت إلى مكان ما وأهنت أحد الناس، لا شك في ذلك عندي، وهذه الرسالة هي العاقبة الوخيمة».

وعاد المستر ونكل أدراجه إلى قاعة القهوة معتزمًا عزمة أليمة مرعبة، وهي أن يقبل الدعوة التي وجهها إليه الدكتور سلامر لمبارزته، وليكن من الشر ما يكون.

وقد دفعته إلى اتخاذ هذا السبيل عدة اعتبارات.. أولها سمعته في النادي، فقد كان منظورًا إليه أبدًا على أنه حجة عالي الكعب في كل الشؤون المتصلة بالتسلية والبراعة الرياضية، سواء الهجومية منها والدفاعية والبريئة، فإذا هو انزوى وتراجع في أول مناسبة، يوضع فيها موضع التجربة، أضاع سمعته، وفقد مكانته، في غير رجعة. وثانيًا، أنه تذكر أنه كثيرًا ما سمع، من المجربين الخبراء بهذه المسائل ونحوها، أن هناك تفاهمًا بين الشهود، على أن المسدسات في هذه الأحوال قلما تكون محشوة رصاصًا، وخطر له أيضًا أنه إذا طلب إلى المستر سنودجراس أن يكون شاهده، فقد ينبئ هذا السيد الخبر إلى علم المستر بكوك، وهذا بلا شك لن يضيع وقتًا في إبلاغه إلى السلطات المحلية، ليحول دون مصرع مريده، أو إصابته بعاهة دائمة، أو جرح بالغ..

تلك هي الخواطر التي جالت في ذهنه، حين عاد إلى المقهى، وأفضى بعزمه على قبول الدعوة التي وجهها إليه الدكتور سلامر إلى المبارزة.

وقال الضابط الموفد من قبله: «هلا أحلتني إلى صديق لك، لكي نتفق معًا على موعد اللقاء ومكانه؟».

فأجاب المستر ونكل: «لا ضرورة تدعو لذلك.. عين أنت الزمان والمكان، وأنا أتولى إحضار صديق بعد ذلك».

قال الضابط في لهجة مستخفة: «أتقول.. بعد غروب شمس هذا النهار؟».

قال: «حسن جدًّا» وإن كان في أعماق قلبه يراه سيئًا جدًّا.

قال: «أتعرف حصن بت؟».

أجاب: «نعم.. رأيته أمس».

قال: «إذا تكرمت وعرجت على الساحة التي تتاخم الخندق، وأخذت الدرب الممتد عن الشمال، حتى تصل إلى زاوية من الحصن، وانطلقت في وجهك، فسوف تراني، لكي أذهب بك إلى موضع منعزل، ننهي فيه هذه المسألة، دون خشية من قدوم أحد يعوقنا أو يقطع علينا أمرنا».

فقال المستر ونكل في نفسه: «خشية من قدوم أحد يعوقنا!».

وقال الضابط: «أظن أن لا شيء آخر يقتضي التدبير».

وأجاب المستر ونكل: «لست أعرف أن هناك شيئًا آخر. طاب صباحك».

قال: «طاب صباحك». وانطلق يرسل صفيرًا مرحًا..

وانقضى الإفطار ثقيلًا غير شهي، وكان المستر طبمن في حال لا تمكنه من مغادرة غرفته بعد ذلك الإفراط في الشراب، على غير عادته في الليلة البارحة، وبدا المستر سنودجراس كأنما يعاني انقباضًا وهبوطًا نفسيًّا، وركودًا شعريًّا، بل راح المستر بكوك نفسه يبدي نزوعًا غير مألوف إلى ملازمة الصمت والإقبال على «ماء الصودا»، بينما لبث المستر ونكل يرقب الفرصة المواتية، ولكن انتظاره لسنوحها لم يطل، فقد ذهب المستر سنودجراس يقترح الخروج لزيارة الحصن، ولم يكن أحد من الجميع ميالًا إلى الخروج غير المستر ونكل، فانطلقا معًا إليه.

وما كادا يبتعدان من الطريق العام، حتى راح المستر ونكل يقول: «أي سنودجراس يا صديقي العزيز.. سنودجراس».

قال ذلك، وهو يرجو مخلصًا صادقًا، أن يرد قائلًا: «إن ذلك ليس في إمكانه..».

«هل في إمكاني أن أعتمد عليك في أمر يستوجب الكتمان؟».

ولكنه أجاب بقوله: «لك ذلك.. هل تريد أن أقسم لك.. إني..».. قال مقاطعًا، وقد روعته فكرة إقدام صاحبه، قبل أن يعلم جلية الخبر، على التعهد بكتمان السر.. وعاد يقول: «كلا.. لا تقسم.. لا تقسم، فليس ثمة ضرورة».

وعندئذ أرخى المستر سنودجراس اليد التي كان، بدافع الروح الشعرية، قد رفعها إلى السماء، وهو يهم بأن يقسم، واتخذ سيماء الترقب والإنصات.

وواصل المستر ونكل حديثه قائلًا: «أريد عونك يا صديقي العزيز، في مسألة تتصل بالشرف».

قال، وهو يشد يد صاحبه: «حبًا وكرامة».

فمضى المستر ونكل يقول، وقد أراد أن يجعل المسألة تبدو رهيبة ما أمكن: «إن الأمر يتعلق بواقعة حال مع طبيب.. مع الدكتور سلامر، من الآلاي السابع والتسعين.. واقعة مع ضابط، دعوة إلى المبارزة، سيحضر فيها ضابط آخر شاهدًا، عند غروب الشمس، هذا النهار في موضع منعزل، خلف حصن «بت».

وقال المستر سنودجراس: «سأحضر معك».

وقد تولته الدهشة مما عرفه، ولكنه لم يرع مطلقًا، والمشاهد في هذه المسائل، أن الذين لا يعنيهم الأمر فيها يبدون أقل انفعالًا، إلى حد غير مألوف، وأكثر هدوءًا من الشخص المقدم عليه، وكان المستر ونكل قد نسي ذلك وغاب عنه، وراح يقيس شعور صاحبه بشعوره..

ومضى يقول: «قد تكون العاقبة مروعة».

قال: «أعتقد أن الدكتور سلامر يجيد الرماية إلى حد بالغ».

وعاد المستر سنودجراس يجيب بهدوء: «أكثر هؤلاء العسكريين هم كذلك.. ولكنك لا تقل عنهم في هذا الشيء كذلك؟».

وأمّن المستر ونكل على قوله، وأدرك أنه لم يستطع تخويف صديقه إلى الحد الكافي، فانتقل بالحديث إلى موضوع آخر.

قال بصوت مفعم بالانفعال: «سنودجراس.. إذا سقطت في هذا

القتال، فسوف تجد رسالة مني إلى أبي، داخل رزمة سأضعها بين يديك».

ولكن هذا الهجوم لم ينجح كذلك.. نعم لقد تأثر المستر سنودجراس، ولكنه تعهد بحمل الرسالة وتسليمها باستعداد ورضى، كأنه ساعي بريد يحمل كتبًا ورسالات إلى الناس.

واستولى المستر ونكل يقول: «إذا سقطت أو إذا سقط الطبيب، فسوف تحاكم، يا صديقي العزيز، لاشتراكك في الأمر ومساعدتك على تنفيذه.. فهل تراني مورطًا صديقي في هذه المسألة.. وقد أُعرِّض حياته للخطر؟».

وغمز المستر سنودجراس بعينه لسماع هذا القول ولكن بطولته كانت غلابة قاهرة، فصاح بحماسة قائلًا: «في سبيل الصداقة لأواجهن كل المخاطر».

ولشد ما سبّ المستر ونكل ولعن في أعماقه صداقة صاحبه وتفانيه، وهما منطلقان في صمت، جنبًا إلى جنب، بضع لحظات، وكل منهما غارق في لجج أفكاره.

وبدأ الصباح ينقضي، فازداد المستر ونكل يأسًا من صاحبه وتململًا، فوقف فجأة عن المسير وانثنى يقول له: «أي سنودجراس.. لا تحل بيني وبين هذا الأمر، ولا تبلغ السلطات المحلية عنه.. ولا تستعن برجال الأمن على احتجازي، أو احتجاز الدكتور سلامر من الآلاي السابع والتسعين، لمنع هذه المبارزة.. أقول لا تفعل ذلك».

فتناول المستر سنودجراس يد صديقه بحرارة، وهو يجيب بحماسة

قائلًا: «أبدًا.. ولو وهبت الدنيا وهبًا».

وسرت رعدة في كيان المستر ونكل، حين اقتنع بأن لا أمل له في إثارة المخاوف في نفس صديقه، وحين استولت عليه قوة اليقين بأنه قد قدر عليه أن يكون هدفًا ماثلًا للرصاص.

وبعد أن شرح الواقعة للمستر سنودجراس، واستؤجرت المسدسات ولوازمها من البارود والرصاص والكبسول، من تاجر في روشستر، عاد الصديقان إلى الفندق، وخلا المستر ونكل للتفكير في المعركة المنتظرة، وعمد المستر سنود جراس إلى تدبير أسلحتها وترتيبها، استعدادًا لاستخدامها في الحال.

وكان الأصيل بليدًا سقيمًا، حين انطلقا مرة أخرى في هذه «الرحلة» الغريبة، وكان المستر ونكل قد تزمل برداء فضفاض سابغ، حتى لا يراه أحد، بينما حمل المستر سنودجراس تحت معطفه أسلحة القتال وآلات الموت.

قال المستر ونكل بلهجة مضطربة: «هل أعددت كل شيء؟».

وأجاب المستر سنودجراس: «كل شيء.. وقدرًا موفورًا من الذخيرة، إذا لم تحدث الطلقات تأثيرًا، وفي الصندوق أيضًا ربع رطل من البارود، وفي جيبي جريدتان للتعمير».

وكانت هذه الشواهد أمثلة على صدق المودة التي لا غرابة في شعور المرء فيها، بأبلغ العرفان لصديقه، ولكن القرائن توحي بأن عرفان المستر ونكل لصنيع صديقه كان أبلغ وأقوى من أن يجد كلامًا يقال، أو تعبيرًا

لفظيًا يصوره، فلا عجب إذا هو أخلد إلى الصمت، وظل سائرًا في طريقه بخطوات أدنى إلى البطء.

وراح المستر سنودجراس يقول، وهما يتسلقان سياج الساحة الأولى: «لقد جئنا في الموعد، فإن الشمس منحدرة إلى المغرب».

فتطلع المستر ونكل إلى قرصها المتواري، وتملكه عندئذ خاطر أليم، وهو لعله هو أيضًا موشك على «الانحدار» والمغيب.

وبعد أن سار الصديقان بضع دقائق، صاح المستر ونكل قائلًا: «ها هو ذا الضابط».

قال: «أين..؟».

أجاب: «هناك. ذلك السيد المتزمل بقباء أزرق.. فنظر المستر سنودجراس صوب الموضع الذي أشار إليه صديقه بسبابته، فلمح شخصًا مزملًا كما وصفه، وأبدى الضابط انتباهه إلى وجودهما بإشارة خفيفة من يده، فتبعه الصديقان على قيد خطوات منه، وهو يبتعد منصرفًا.

وجعل المساء يزداد في كل لحظة بلادة وإعتامًا، وهبت ريح حزينة على تلك المساحات المهجورة صافرة، كأنها صفير عملاق جبار من بعيد لكلب بيته، كما أضافت كآبة الموضع أثرًا من اكتئاب على مشاعر المستر ونكل، فأحس رجفة، وهما يجتازان زاوية الخندق، فقد بدت له أشبه بقبر ضخم رهيب.

وما لبث الضابط أن تحول فجأة عن الجرب، وبعد أن تسلق سياجًا، واجتازا سورًا من عوسج، دخل ساحة منعزلة، فإذا سيدان في

انتظاره، أحدهما قصير القامة بدين أسود الشعر، والآخر سيد وجيه في معطف سابغ مزركش، وقد جلس في هدوء تام فوق مقعد من مقاعد المعسكرات.

وقال المستر سنودجراس: «أحسبهما الخصم والطبيب.. هلا تناولت قطرة من «البراندي». فتناول المستر ونكل الزجاجة من كف صاحبه، وتناول رشفة مستطيلة من الشراب المنعش الذي احتوته.

وأنشأ المستر ونكل يقول، عندما اقترب الضابط منهما: «هذا صديقي المستر سنودجراس، يا سيدي..» فانحنى صديق الدكتور سلامر، وأخرج حقيبة مماثلة للحقيبة التي كان المستر سنودجراس يحملها.

وانثنى الضابط يقول ببرود، وهو يفتح الحقيبة: «أظن يا سيدي أن لا شيء آخر يمكن أن تقوله، بعد أن رفض تقديم الاعتذار رفضًا قاطعًا».

وأجاب المستر سنودجراس، وقد بدأ هو الآخر يشعر بشيء من الانزعاج: «لا شيء يا سيدي».

وعاد الضابط يقول: «هلا تقدمت خطوة؟».

قال: «بكل تأكيد».

وقيست المسافة، وتمت التدابير الأولية.

وقال الشاهد الآخر، وهو يخرج المسدسات: «ستجد هذه أفضل من مسدساتك.. لقد رأيتني وأنا أحشوها.. فهل لديك مانع من استخدامها؟».

وأجاب المستر سنودجراس: «كلّا، بلا شك».

وقد أحس أن الضابط قد أراحه من ارتباك شديد، لأن حشو المسدس لم يكن شيئًا هو به العارف الخبير.

ومضى الضابط يقول، باستخفاف شديد، كأن المبارزين قطع من الشطرنج، وكأن الشاهدين من اللاعبين: «يصح لنا إذن أن نوقفهما في مكانهما».

وأجاب المستر سنودجراس بالموافقة، وكان يسعه أن يوافق على أي شيء يقترح عليه؛ لأنه كان بكل شيء من هذا الأمر جاهلًا.

وعندئذ تقدم الضابط إلى الدكتور سلامر، ومشى المستر سنودجراس إلى المستر ونكل.

قال، وهو يقدم المسدس إليه: «كل شيء قد أعد.. هات قباءك»..

قال: «تمامًا.. والآن ثباتًا.. واجنح له!».

وقال المستر ونكل المسكين: «لقد سلمتك الرسالة يا صديقي العزيز».

وخطر للمستر ونكل أن هذه النصيحة أشبه بما ينصح به النظارة أصغر غلام في معركة تقوم بين الصبية في الشارع، وهي قولهم: «ادخل عليه واغلبه!» كلام جميل، ونصيحة بديعة، لو كنت تعرف حقًّا كيف يكون الدخول والغلب، ولكنه حسر عنه قباءه في صمت، وكان خلع ذلك القباء يستغرق عادة وقتًا طويلًا، وتناول المسدس، وتراجع الشاهدان، كما تراجع السيد الجالس فوق مقعد المعسكر، وراح كل غريم يدنو من غريمه.

وكان المستر ونكل معروفًا بالتناهي في إنسانيته، وقد قيل إن نفوره من إيذاء آدمي مثله، عمدًا وقصدًا، هو الذي جعله يغمض عينيه عندما وصل إلى البقعة الرهيبة المعينة له، وأن إغماضه حال بينه وبين رؤية سحنة الدكتور سلامر الغريبة، ووجهه العجيب، ونظراته الغامضة فقد لبث هذا السيد يحملق مليًّا، ثم إذا هو يرتد خطوات، ويفرك عينيه، ثم يعود فيحملق، وإذا هو أخيرًا يصيح قائلًا: «قف. قف!».

وأنشأ يوجه القول إلى صديقه وإلى المستر سنودجراس حين خفَّا إليه: «ما هذا كله؟.. ليس هذا هو الشخص المقصود!».

وقال صديق الدكتور سلامر: «ليس هذا بلا شك.. ليس هذا بالرجل الذي أهانك الليلة البارحة».

وصاح الضابط: «هذا شيء عجاب».

وانثنى حامل المقعد قائلًا: «حقًّا.. إن المسألة إذن هي: هل ينبغي ألا نعد السيد الماثل أمامنا، من الوجهة الشكلية، الشخص الذي أهان صديقنا الدكتور سلامر ليلة أمس، وهل هو حقيقة أو ليس هو؟».

وما كاد يدلي بهذا الاقتراح «بلهجة الحكيم، الفطين»، حتى تناول نشقة من حق عطوسه، ومضى يدير عينه فيمن حوله، في صورة الحجة الثبت في هذه المسائل.

وكان المستر ونكل قد فتح عينيه، وأذنيه أيضًا، حين سمع خصمه ينادي بوقف القتال، وتبين- كما قال فيما بعد- أن هناك خطأً وقع في الأمر، بلا أدنى شك، فلم يلبث أن أدرك ما هو حتمًا ظافر به من الشهرة

وحسن الصيت، إذا هو أخفى حقيقة الدافع الذي حفزه إلى القدوم، ولهذا تقدم بجرأة فقال: «لست أنا الرجل المقصود.. وأنا أعرف ذلك».

وهنا قال السيد صاحب المقعد: «إذن هذه إهانة في حق الدكتور سلامر وسبب كاف للأخذ في الإجراءات حالًا».

ولكن الضابط الشاهد انبرى له قائلًا: «أرجوك، يا «بين» أن تلتزم الهدوء، ودعني أسألك يا سيدي: لماذا لم تفهمني بهذه الحقيقة صباح اليوم؟».

وعاد السيد صاحب المقعد يقول، غاضبًا: «مؤكد.. مؤكد».

وقال الآخر: «أرجوك أن تسكت يا «بين».. هل تمسح يا سيدي بأن أعيد عليك سؤالي؟».

فأجاب المستر ونكل، وقد وجد فسحة من الوقت للتفكير فيما عسى أن يكون جوابه: «لأنك.. يا سيدي.. لأنك وصفت رجلًا ثملًا غير مهذب يلبس سترة أتشرف بارتدائها، بل لي الشرف بابتكار تفصيلها.. وهي الشعار الذي اقترحته، يا سيدي، لأعضاء نادي بكوك في لندن، وإني على شرف هذا الثوب لحفيظ، ولهذا قبلت على الفور، بغير تحقيق ولا سؤال، الدعوة التي وجهتها إليّ..».

وهنا قال الطبيب القصير المرح، وهو يتقدم إليه باسطًا يده: «إنني يا سيدي العزيز مكبر شهامتك، بل اسمح لي يا سيدي، أن أبدي لك شديد إعجابي بمسلكك، وبالغ أسفي لما أحدثه هذا اللقاء لك من إزعاج بغير موجب».

فأجاب المستر ونكل: «أرجوك يا سيدي أن لا تذكر ذلك».

قال: «إنني بمعرفتك يا سيدي فخور».

وقال المستر ونكل: «إن معرفتك يا سيدي تتيح لي أبلغ السرور».

وتصافحا، ثم تصافح المستر ونكل والملازم تابلتون، شاهد الطبيب، ثم تبادل ونكل التحية والرجل صاحب المقعد، وأخيرًا تصافح المستر ونكل والمستر سنودجراس، وكانت مصافحة السيد الأخير مقترنة بإعجاب مفرط، بذلك التصرف النبيل الذي بدر من صديقه الشهم الكريم.

وقال الملازم تابلتون: «أظن أنه يصح أن نؤجل الاجتماع».

وقال الطبيب: «بلا ريب».

وتدخل الرجل الذي كان جالسًا على المقعد قائلًا: «إلا إذا كان المستر ونكل يشعر بأنه قد غض من قدره بهذه الدعوة، وفي هذه الحالة أسلم بأنه له الحق في الترضية».

ومضى الرجل يقول: «أو ربما كان السيد الشاهد شعر بشيء من الغضاضة من بعض الملاحظات التي بدت مني في بداية هذا الاجتماع، فإذا كان الأمر كذلك، فإني ليسعدني أن أقدم إليه الترضية في الحال».

فأسرع المستر سنودجراس في إبداء شكره البالغ للسيد الذي تكلم أخيرًا على ما قدم من عرض كريم، وقال إنه لا يسعه إلا أن يرفضه، لأنه في أتم الرضى عن كل ما حدث.

وأقبل الشاهدان ينظمان حقيبتيهما، وغادر الجمع المكان، وهم

أصفى أمزجة مما كانوا عند التوافي إليه.

وسأل الدكتور سلامر المستر ونكل، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، في أبلغ صور المودة: «أباق هنا طويلًا؟».

فكان جوابه: «أظن أننا سنغادر المدينة بعد غد..».

وقال الدكتور: «أرجو أن أحظى بلقائك أنت وصديقك في النزل الذي أقيم فيه وقضاء مساء لطيف معكما بعد هذا الخطأ العجيب.. فهل أنت حر الليلة، غير مرتبط بمواعيد؟».

وأجاب المستر ونكل قائلًا: «إن لنا بعض الصحاب هنا، ولست أود أن أتركهم الليلة، فلم لا توافينا أنت وصديقك في الفندق؟».

قال الدكتور: «لا بأس مطلقًا يا سيدي العزيز».

قال المستر ونكل: «وسوف يسعدني السعادة كلها أن أقدمكما إلى صديقي المستر بكوك والمستر طبمن».

وأجاب الدكتور قائلًا: «سيسرني لقاؤهما أشد السرور»، ولم يدر من عسى أن يكون المستر طبمن.

وقال المستر سنودجراس: «ستأتيان بلا شك».

قال: «طبعًا.. بلا شك..».

وكان القوم قد وصلوا عندئذٍ إلى بداية الطريق فتبادلوا السلام، وتفرقوا، فعاد الدكتور سلامر وصديقاه إلى الثكنات، وقفل المستر ونكل مع صديقه المستر سنودجراس عائدين إلى الفندق.

# الفصل الثالث

## تعارف جديد- قصة الممثل المتجول- إزعاج غير مستحب.. ولقاء ثقيل الظل

شعر المستر بكوك بشيء من القلق لغياب صديقيه على غير المألوف عنهما، ولم يكن تصرفهما الغريب خلال الصباح كله مخففًا من مخاوفه، فلا غرو إذا هو قد نهض بسرور غير عادي لاستقبالهما حين عادا يدخلان عليه، وأنشأ بشوق أكثر من المألوف يسألهما عما جرى، ويستفسرهما سر غيابهما. وهمَّ المستر سنودجراس للرد على هذه الأسئلة، بأن يدلي ببيان تاريخي عن الظروف التي قصصناها الآن عليك، ولكنه أمسك فجأة، إذ لاحظ أن هناك بجانب المستر طبمن، ورفيقهم في الحافلة أمس، غريبًا آخر، لا يقل مظهره عنهما غرابة- رجلًا تبدو الهموم عليه، ويلوح وجهه الشاحب، وعيناه الغائرتان، أغرب وأعجب مما صنعتهما الطبيعة، بشعره الأسود المعتدل المنحدر في اضطراب وتلبد نصف الطريق إلى وجهه، وكانت عيناه براقتين نفاذتين إلى حد يكاد يكون غير طبيعي،

وعظما خديه ناتئين مرتفعين، وفكاه من فرط طولهما وتحولهما، حتى ليظن الرائي أنه يسحب لحم وجهه من الداخل، لحظة تقليص عضلاته، لو لم يعلن فمه المفتوح نصف فتحة، وتقاطيع سحنته الثابتة الجامدة، أن الأمر طبيعي لا اصطناع فيه، وقد أحاط عنقه بلفاعة خضراء تدلت أطرافها الواسعة متراخية فوق صدره، وبادية من لحظة إلى أخرى تحت عرى صداره القديم، وكان الجزء الأعلى من ثوبه سترة طويلة سوداء سابغة، وقد ارتدى من تحتها سراويل فضفاضة وانتعل حذاء كبيرًا يسارع إلى البلى.

وما لبثت عين المستر ونكل أن استقرت على هذا الرجل الأشعث الأغبر، بينما مد المستر بكوك يده نحوه وهو يقول: «صديق لصديقنا الذي معنا هنا، وقد عرفنا، صباح اليوم، أن لصديقنا علاقة بالمسرح في هذه المدينة، وإن كان لا يحب أن يعرف ذلك عنه، وأن هذا السيد أحد الزملاء في المهنة، وكان يهم بأن يطرفنا بحكاية قصيرة تتصل بها حين دخلت»..

وقال الغريب ذو السترة الخضراء الذي لقيه الجمع في اليوم السابق، وهو يتقدم إلى المستر ونكل ويتحدث بصوت منخفض، كأنه يكاشفه بسر من الأسرار، بل بحكايات وحكايات: «رجل مدهش.. يؤدي عملًا شاقًّا.. في هذه المهنة.. ليس ممثلًا.. رجل غريب.. عرك مختلف المهن والخطوب.. ونحن ندعوه في نادينا جيمي التعس».

وحيا المستر ونكل والمستر سنودجراس الرجل الملقب «بالتعس»

في أدب، وطلبا شرابًا من البراندي والماء، وانثنيا يقتديان بالآخرين، فجلسا إلى المنضدة.

وقال المستر بكوك: «والآن يا سيدي هلا تكرمت علينا بقص ما كنت تهم بأن ترويه لنا؟».

وعندئذ أخرج الرجل «التعس» من جيبه لفة قذرة من الأوراق واستدار نحو المستر سنودجراس، وكان هذا قد أخرج «كناشته»، فقال بصوت أجوف يلائم مظهره كل الملاءمة: «هل أنت شاعر؟».

فأجاب المستر سنودجراس، مأخوذًا إلى حد ما بهذا السؤال المباغت: «إنني أقوم بشيء يسير في هذا الباب».

قال: «آه.. إن الشعر يصنع بالحياة ما تصنع الأضواء والأنغام بالمسرح، فإن أنت جردت أحدهما من بهارجه ومحسناته وأزلت من الآخر الأوهام والخدع المحيطة به، فما الذي يبقى حقًا فيهما يستحق أن يحيا المرء له أو يعتني به؟».

وأجاب المستر سنودجراس: «هذا حق وصدق يا سيدي».

واستطرد الرجل التعس حديثه قائلًا: «إن الوقوف أمام الأضواء الأمامية على المسرح هو كالجلوس في بلاط عظيم، ومعرض بديع، والإعجاب بالثياب الحريرية التي يرتديها السادات فيه والغيد، أما المجلس من تحتهم فذلك مكان الشعب الذي صنع ذلك الرواء، وأحدث ذلك البهاء، ولكنه ترك مهملًا مجهولًا، لا يعني أحد به، ولا يأبه

إنسان بمعرفته.. ترك ليغرق أو يعدم، ليهلك جوعًا أو يحيا، كما تشاء الحظوظ، وتريد المقادير».

وهنا قال المستر سنودجراس، وكانت عين الرجل التعس مستقرة عليه، فلم يكن بد من أن يقول شيئًا: «بلا شك».

وقال السائل الإسباني: «امض في حديثك يا جيمي كسوزان السوداء العين.. الكل في البادية.. لا نقيق.. تكلم بوضوح، وتهلل، وابد مرحًا».

وقال المستر بكوك: «هل لك في كأس أخرى قبل أن تبدأ القصص يا سيدي؟».

فما كان من الرجل التعس إلا أن قبل هذا العرض، ومزج لنفسه كأسًا من البراندي بالماء واجترع في رفق نصفها، ونشر الأوراق الملففة بين يديه، وبدأ يقص القصص، بين تلاوة من الأوراق، وسرد من غير أوراق.

وكانت القصة التالية هي قصته، كما سجلت في محاضر النادي بعنوان: «قصة الممثل المتجول».

## قصة الممثل المتجول

ليس فيما أنا قاصه عليكم شيء عجاب، ولا أمر غير مألوف، فإن الحاجة والمرض ليسا غريبين في كثير من شؤون الحياة، غرابة تستحق من التنويه أكثر مما تستحقه عادة تقلبات الطبيعة البشرية وتغيراتها المألوفة، وقد جمعت هذه الملاحظات معًا في ورق مكتوب لأني عرفت المرء الذي تتصل به حق المعرفة منذ عدة سنين، وجعلت أتابع شقاءه،

خطوة خطوة، وهو يهوي، حتى بلغ في النهاية حدًّا متناهيًا من العوز والإدقاع، لا قيام له إلى الأبد منهما.

كان الرجل، الذي أتحدث عنه، ممثلًا فقيرًا من ممثلي المسرحيات الإيمائية الصامتة، وكان كخلق كثير ممن هم في مركزه وطبقته، سكيرًا مدمنًا، وكان في أيامه النضرات قبل أن يوهن منه الإسراف في الملذات، ويحط السقام عليه، يتقاضى مرتبًا حسنًا، لو أنه انتهج سبيل الحرص والحكمة والقصد، لظل يتقاضاه بضع سنوات، ولكنها ليست سنوات كثيرة على أية حال؛ لأن أمثاله يموتون في نضارة العمر، أو يُفقدون قبل الأوان، باستنفاد قواهم الجسدية، استنفادًا غير طبيعي، الملكة الوحيدة التي يعتمدون عليها في كسب أقواتهم، وسداد أرماقهم، وقد أسرف على نفسه، وأمعن في آثامه، حتى أصبح من المحال أن يستعان به في الأعمال التي كان فيها نافعًا فعلًا للمسرح، فقد كان للحانة جاذبية لم يستطع مغالبتها، وكان المرض الذي يسوقه الإهمال، والفقر الذي لا أمل في النجاة منه، نصيبه المحقق كالموت ذاته إذا هو استمر، ولم ينته، وثابر، ولم يرعو، وقد استمر وثابر فعلًا، فكانت النتيجة معروفة، وهي العجز عن الظفر بعمل، وهو يطلب القوت ويحتاج إلى الخبز.

ولا يجهل أحد ممن عرفوا المسرح وكل ما يتصل به، كثرة الذين يترددون عليه، من الفقراء والكدورين، والبادين في الثياب الناحلة الألوان، وما هم بممثلين يعملون فيه بانتظام، ولكنهم يشتركون في المراقص أو المواكب التي تشاهد في بعض الروايات أو البهلوانات،

والمهرجين ومن إليهم ممن يستعان بهم في إخراج مسرحية «صامتة» أو قطعة بمناسبة عيد الفصح، ثم يفصلون حين تنقطع الحاجة إليهم، وريثما يستوجب إخراج مشاهد حافلة، وروايات ضخمة، العودة إلى استئجارهم، وإلى هذا الأسلوب من العيش اضطر الرجل إلى الالتجاء، وكان يجلس كل ليلة مجلس الرياسة، ببعض دور التمثيل الصغيرة، فيصيب منها بضعة شلنات أخرى في الأسبوع، تيسر له إرواء غلته، ومعاودة كؤوسه، ولكن هذا المورد أيضًا لم يلبث أن انقطع، فقد كثرت تصرفاته الشاذة، إلى حد لم يعد معه في الإمكان أن يصيب الأجر الزهيد، الذي كان ممكنًا أن يصيبه، حتى بلغ فعلًا حدود الجوع، ولم يعد يظفر بغير قدر تافه من المال أحيانًا يستعيره من زميل قديم، أو يأتيه من الظهور على المسرح في أحقر دور التمثيل، فإذا أصاب شيئًا، أنفقه في الخمر ديدنه القديم.

وفي ذلك العهد أو قرابته، حين لم يكن أحد يدري كيف كان يعيش أكثر من عام، كنت قد ظفرت بعمل قصير الأمد، في أحد المسارح، في هذه الضفة من النهر، فرأيت ذلك الرجل الذي كان قد غاب عن عيني فترة من الزمن؛ لأني كنت أتجول في الأقاليم، وكان هو يتسكع في أزقة لندن ودروبها الضيقة، وفيما كنت أرتدي ثيابي للانصراف من الملعب، واجتاز المسرح إلى الباب، إذ راح يربت بيده على كتفي، وإن أنسى، لا أنسى ذلك المشهد المنفِّر الذي أخذ عيني حين استدرت لأرى من الرابت، فقد بدا في ثوب من ثياب التمثيل الصامت، توافرت فيه كل غرائب رداءة «المضحك» ولبسة «المهذار»، فما أحسب صور الأشباح

في «رقصة الموت» ولا أقبح الأشكال وأشدها ترويعًا مما يخرج من ريشة أقدر الرسامين على الرسم، وأبرعهم في صنعة التصوير، إلا بادية دونها قبحًا، وأقل منها نكرًا، فإن بدنه المتورم، وساقيه الضامرتين اللتين زادهما ثوبه الغريب شناعة على شناعة، وعينيه الزجاجيتين المتناقضتين إلى حد مرعب، وكثافة الطلاء الذي لطخ به وجهه، ورأسه المزدان بأغرب الزينة الراعش من أثر الفالج، ويديه الطويلتين الضامرتين المدهونتين بالطباشير- كل أولئك جعله يبدو مشوه الصورة متكور الشكل، ليس في وسع الواصف أن يعطي عنه فكرة كافية، حتى لتعروني، إلى الساعة، رجفة كلما خطر ببالي، وكان صوته أجوف راعشًا، حين انتحى بي ناحية، وانثنى بعبارات متقطعة يقص عليَّ قصة، ويعدد لي صنوفًا من العلل وألوانًا من الحرمان التي يعانيها، وانتهى إلى النتيجة المعروفة طبعًا، والمتكررة في هذه الحالات، وهي طلب قرض عاجل يسير، فدسست في كفه بضعة شلنات، وما كدت أتولى عنه، حتى سمعت ضحكات عالية، كتلك الضحكات التي تلت أول مرة ظهر فيها على المسرح.

وجاءني بعد بضع ليال غلام، فألقى في يدي قصاصة قذرة من الورق، كتبت عليها بضع كلمات بالقلم الرصاص، يقول الرجل فيها إنه مريض، في حالة خطرة، ويرجوني بعد التمثيل أن أراه في مسكنه، بشارع نسيت اسمه الآن، ولكنه غير بعيد من المسرح، فوعدته أني فاعل بمجرد فراغي من العمل، وانطلقت عقب انسدال الستار، لكي أؤدي هذه المهمة المحزنة.

«وكان الوقت متأخرًا، لأن دوري كان في المسرحية الأخيرة، وكان إيراد الليلة مخصصًا لبعض أفراد الفرقة، فطال التمثيل فيها، إلى حد غير مألوف، وكان الليل حالكًا مقرورًا، والريح رطبة قاصفة، جعلت المطر يسقط غزيرًا على الشرفات وواجهات الدور، وقد اجتمعت منه برك من الماء، في الشوارع الضيقة التي قلما يختلف إليها الناس، وأطفأت شدة الرياح المصابيح القليلة المتناثرة في بعض نواحيها، فلم يكن المسير مزعجًا فحسب بل أشد ما يكون أخطارًا كذلك، ولكني لحسن الحظ اتخذت الطريق السوي واستطعت بعد جهد قليل أن أهتدي إلى البيت الذي وصف لي، فإذا هو سقيفة فحم تعلوها طبقة واحدة، وجدت في الغرفة الخلفية منها ضالتي المنشودة، واستقبلتني عند السلم زوجته، وهي امرأة مسكينة، فنبأتني أنه قد أغفى منذ لحظة واقتادتني بخطى رفيقة إلى الحجرة ووضعت كرسيًّا لي بجانب فراشه، ورأيت الرجل راقدًا وقد ولى وجهه إلى الجدار، ولم يبد اكتراثًا بمحضري، فاتسع لي الوقت لأدير عيني في المكان الذي احتواني، فإذا هو على سرير قديم جيء به خلال النهار، وقد أسدلت بقايا ستار مهلهل حول رأس السرير، وقاية من الريح، وإن كانت الريح وجدت طريقها إلى الحجرة المتعبة من كثرة الثقوب والشقوق في الباب، وجعلت تهب على الستار وتهزه هزًّا في كل لحظة، ورأيت نارًا خابية من فحم رجوع في موقدة صدئة، مفككة غير مستقرة، ومنضدة قديمة ملطخة، ذات ثلاثة أركان، قد صفت عليها بعض زجاجات من أدوية، ومرآة مكسورة، وبضعة أشياء أخرى، مما يشاهد في البيوت، وطفلًا صغيرًا نائمًا على فراش أعد له مؤقتًا، فوق أديم

الحجرة، وقد جلست المرأة على كرسي بجانبه، وشهدت هنالك رفين من الرفوف وبضع صحاف وأقداح وأطباق، وحذاء من أحذية المسارح، وسيفين من أسيافها معلقين تحت الرف، وكانت تلك الأشياء هي كل ما حوته الحجرة، إلى جانب أكوام صغيرة من الخرق البالية والرزم، ألقيت في زواياها بغير عناية ولا اهتمام.

وكذلك اتسع الوقت أمامي لملاحظة هذه الدقائق القليلة، وتأمل تنفس المريض ولهثه، ورجفات الحمى التي كانت تهزه، قبل أن ينتبه إلى وجودي، وحاول جاهدًا أن يجد مستقرًا لرأسه، فلم يستطع، فأخرج يده من تحت غطائه فسقطت فوق كفي، فانتبه فجأة وراح يحملق البصر بلهفة في وجهي.

وعندئذ قالت زوجته: «يا جون.. المستر هطلي الذي بعثت في طلبه الليلة كما تعلم!».

فقال المريض، وهو يمر بكفه على جبينه: «آه.. هطلي.. هطلي.. أين هو؟» وخيل إليّ أنه يحاول أن يجمع شتات أفكاره بضع لحظات، ثم أمسك بمعصمي إمساكة التشبث، وراح يقول:

«لا تتركني.. لا تتركني.. ألا تعرفني؟».

قلت موجهًا خطابي إلى زوجته الباكية: «أهو هكذا من وقت طويل؟».

قالت: «منذ الليلة البارحة.. جون.. جون.. ألا تعرفني؟».

وقال وهو يرجف حين انحنت فوقه: «لا تدعها تقترب مني..

أبعدها.. لست أطيق قربها مني».

وانثنى ينظر إليها نظرات موحشة، يبدو خلالها رعب شديد، وخوف مميت، وهمس في أذني قائلًا: «لقد ضربتها يا جم.. ضربتها أمس، وضربتها مرارًا قبل ذلك.. لقد أجعتها هي والطفل كذلك، والآن بت واهنًا يائسًا لا حول لي ولا قوة، وستقتلني جزاء ما فعلت بها.. أنا عارف أنها قاتلتي، ولو شهدتها وهي تبكي، كما شهدتها أنا، لعرفت أنت أيضًا.. أبعدها عني..».

وأرخى إمساكته بمعصمي، وانقلب على وسادته، منهكًا مجهدًا..

وكنت أعرف حق المعرفة المراد من ذلك كله، وإذا كان شيء من الشك قد خامرني لحظة، فإن نظرة واحدة إلى وجه المرأة الشاحب وبدنها الذاوي كانت كافية لشرح حقيقة الأمر وكشف خافيته.

فقلت للمرأة المسكينة: «يحسن أن تنتبذي من الحجرة مكانًا قصيًّا.. فإنك لن تستطيعي له خيرًا، ولعله سيهدأ إذا لم يرك».

فتوارت عنه، وعاد الرجل بعد بضع لحظات يفتح عينيه ويدير بصره فيما حوله، قلقًا موجسًا..

قال في لهفة: «هل ذهبت؟».

قلت: «نعم.. نعم.. إنها لن تَمَسَّك بأذى».

قال، وهو يغض من صوته: «سأقول لك شيئًا يا جم.. إنها تؤذيني فعلًا.. إن في عينيها شيئًا يلقي في قلبي رعبًا يذهب بلبي، فقد قضت الليلة البارحة كلها وعيناها الواسعتان المحملقتان، ووجهها الشاحب

بقرب عيني ووجهي، كلما تحولت تحولت، وكلما أجفلت من نومي وجدتها بجانب فراشي تنظر إليّ..».

ومضى يدنيني منه، ويقول في همس عميق مروع: «هي حتمًا روح شرير. . صه.. إنني أعرف أنها كذلك.. ولو كانت مخلوقة آدمية لماتت من عهد طويل.. فليس في البشر امرأة تتحمل ما تحملت!».

وأحسست ألمًا بالغًا في نفسي حين تخيلت صنوف القسوة وألوان العذاب، والآلام والإهمال التي لا بد أن تكون قد اصطلحت على إحداث هذا الأثر المخيف في نفس هذا الرجل ومشاعره، ولم أجد جوابًا أجيب به، ومن الذي يستطيع أن يجدد الأمل، أو يعرض العزاء، أو يهب السلوى، لهذا المخلوق المنكر الذي يرقد أمامي..؟

وقضيت في مجلسي ذاك أكثر من ساعتين، لبث خلالها يتقلب في مرقده ويلقي بذراعيه متململًا ها هنا، وها هنا، وينكفئ على هذا الجانب، ثم ينقلب على الآخر، حتى هبط أخيرًا إلى حال من الغيبوبة يطوف فيها العقل المكدود من مشهد إلى مشهد، وينتقل من موضع إلى موضع، دون رقابة عليه من الفكر، وإن ظل مع ذلك عاجزًا عن التخلص من إحساس غامض مما هو فيه من عذاب، وما يشعر به من ألم، ولما تبين لي من هذا الهذيان المنقطع، والتخريف المجرد من كل صلة أو تماسك أن هذه هي حقيقة حاله، وأدركت أن الحمى على أكبر الظن سوف لا تزداد سوءًا في الحال، تركته واعدًا زوجته المسكينة أنني سأكرر زيارتي مساء اليوم التالي، وأنني، إذا اقتضى الأمر، ماكث مع المريض الليل كله.

وأنجزت موعدي، وبدا لي أن الساعات الأربع والعشرين الماضية

أحدثت تغييرًا مروعًا، فقد رأيت العينين، وإن لبثتا غائرتين كثيرًا في محجريهما، ثقيلتين مهمومتين، تلتمعان، وترسلان بريقًا مخيفًا، يشق المرء من التطلع إليه، وكانت الشفتان قد ارتدتا يابستين، محترقتين، مشققتين، في عدة أجزاء منهما، وشهدت البشرة الجافة الصلبة تتأجج من شدة الحرارة المحرقة، وبدا لي أن في وجه الرجل أمارات قلق موحش، لا يكاد يشبه شيئًا في هذه الأرض، وعلامات هياج نفسي رهيب، يدل دلالة بالغة على مدى فتكات المرض، ومبلغ تلفه، وكانت الحمى قد بلغت أشدها.

واتخذت المجلس الذي شغلته في الليلة الماضية، ولبثت فيه ساعات، مصغيًا إلى أصوات تزلزل قلب أشد المخلوقات الآدمية قسوة وجمودًا.. أصوات رجل في سكرات الموت، مشرف على التلف.

وعرفت مما سمعته عن رأي الطبيب أن لا أمل في حياته، وبدا لي أنني جالس بجانب فراش رجل محتضر، وشهدت الأطراف الذاوية التي كانت إلى ساعات قليلة تتشوه وتتنكر لتسلية النظارة في الملهى، قد عادت تتلوى من عذاب الحريق، وشدة الحمى.. وسمعت ضحكة المهرج المدوية، مختلطة بأنين المحتضر.

وإنه لمن الفاجع للنفس أن يسمع المرء العقل وهو يعود إلى ما كان يألفه من عمل أو حرفة وهو سليم موفور العافية، فترى البدن الراقد حيالك، واهيًا ذابلًا، لا حراك به، ولكن حين يكون ذلك العمل، من نوع يتعارض أشد التعارض، مع التفكير الجدي، أو الحرفة الرزينة، نجد الأثر الذي يحدث للمريض قويًا بالغًا. فلا عجب إذا كان الملهى

والألحان هما الغالبان على كل ما عداهما من المشاهد والموضوعات التي جعل الرجل يتحدث عنها في غشيته، ويرددها في غيبوبته، فقد خُيِّل إليه أن الوقت مساء، وأن عليه دورًا يمثله في تلك الليلة، وأنه قد تأخر عن الموعد ولا بد له من مغادرة البيت في الحال، ولكن لماذا يحتجزونه ويمنعونه من الذهاب.. سيخسر الأجر إذا لم يذهب.. فليذهب حتمًا.. ولا يتخلف.. ولكن كلا.. إنهم لا يريدون أن يتركوه.. وراح يدفن وجهه في يديه المحترقتين، ويئن أنين المتوجع من ضعفه وقسوة معذبيه.. ثم يسكن لحظة، ويعود فيطلق بضعة ألحان رخيصة.. كانت هي آخر ما حفظه.. ونهض من فراشه، ونشر ذراعيه الذابلتين، وانثنى يتقلب فوق سريره القذر، وأخذ يمثل.. فقد توهم أنه على المسرح، وبعد سكون قصير أنشأ يغمغم بأنغام أغنية صاخبة، وعاد إلى بيته القديم بعد التمثيل.. ما أشد الحر في الحجرة.. لقد كان مريضًا مدنفًا، ولكنه الآن سليم وسعيد.. املأ الكأس.. وانزع القدح..! من هذا الذي أبعده من شفتيه.. إنه ذلك المضطهد المتعقب عينه، الذي كان من قبل يطارده.. وعاد يتقلب فوق الوسادة ويئن أنينًا عاليًا.. ثم تلت الأنين فترة غياب ونسيان مطلق، وإذا هو يهذي وينطلق في تيه متشعب من الحجرات الخفيضة السقوف.. حتى ليضطر أحيانًا إلى الزحف على يديه وركبتيه ليمضي في طريقه.. وكان الطريق ضيقًا ومظلمًا، وكلما دار منحرفًا عنه، حال حائل بينه وبين التقدم في مسيره.. ووجد حشرات زواحف مخيفة، ذوات أعين تحملق فيه، وتملأ الهواء من حوله، وتبرق بريقًا بشعًا في وسط الظلام الكثيف، الذي يغمر الموضع، كما كانت الجدران والسقف

ملأى بالحيات والأفاعي ومختلف الزواحف، والسقف المقبوب يتسع شيئًا فشيئًا، حتى يبلغ حجمًا ضخمًا.. وإذا أشباح مرعبة تروح وتغدو من حوله، وقد رأى وجوهًا يعرفها، قد ارتدت قبيحة منكرة تمط شفاها له سخرية وتلعب حواجبها هزءًا به وتهكمًا، وإذا أصحابها يتقدمون نحوه، فيكوونه بقطع من حديد محمي، ويربطون رأسه بالحبال حتى ينحبس الدم منه، وهو يصارع في سبيل الحياة، صراع مجنون هائج.

وفي نهاية إحدى تلك النوبات، وقد وجدت مشقة بالغة خلالها، في احتجازه في فراشه، رأيته يهبط فيما يشبه النوم، وكان طول المراقبة، وكثرة الإجهاد، قد تغلبا على قواي، فأغمضت عيني بضع دقائق، ولكني لم ألبث أن شعرت بقبضة قوية خشنة تمسك بكتفي فاستيقظت في الحال، فإذا أنا أراه قد تحامل في فراشه واستوى في مرقده، وعرا وجهه تغير مروع، ولكنه أفاق من الغشية، إذ تبين لي أنه قد عرفني ورأيت الطفل الذي كان قد انزعج من وقت طويل واضطرب من شدة هذيانه، ينهض من فراشه الصغير، ويجري نحو أبيه صارخًا من شدة الخوف، غير أن أمه عاجلته، فتناولته بين ذراعيها، مخافة أن يؤذيه وهو في عنفوان جنونه، ولكنها حين أبصرت التحول البادي، على قسمات وجهه، وقفت مروعة جامدة بجانب سريره، وتناول كتفي في يد متشنجة راعشة، وباليد الأخرى ضرب صدره، وحاول جاهدًا أن ينطق.. ولكنه لم يستطع. فبسط ذراعيه نحوهما، وعاد يحاول مرة أخرى.. ولكن حشرجة قامت في حنجرته.. وخطف بريق على عينيه.. وانبعثت منه آنة قصيرة مختنقة.. وارتد إلى الوراء.. ميتًا..

وكان يسعدنا أشد الإسعاد أن ندوِّن رأي المستر بكوك في هذه القصة، التي أسلفناها عليك، ولسنا نشك في أننا كنا نوافيك به، لولا وقوع حادث حال لسوء الحظ بيننا وبين إيراده.

وكان المستر بكوك قد أعاد إلى المنضدة الكأس التي لبثت خلال العبارات الأخيرة من القصة مرفوعة بيده، وهم بالكلام- استنادًا إلى ما ورد فعلًا في كناشته، من أنه هم فعلًا بأن يفتح فمه ليقول شيئًا- لولا أن دخل غلام الفندق في تلك اللحظة فقال له: «بعض السادات يا سيدي!».

وقد ذهبت الظنون إلى القول بأن المستر بكوك كان على وشك إلقاء بعض ملاحظات من شأنها أن تنير العالم كله، إن لم يقتصر نورها على المدينة القائمة على ضفاف «التايمز»، لولا هذه المقاطعة، فقد راح يطيل النظر عابسًا في وجه الغلام، ثم أدار عينه في وجوه الجمع عامة، كأنما يطلب منهم خبرًا يتصل بأمر أولئك الزائرين.

وعندئذ نهض المستر ونكل من مجلسه فقال: «آه.. بعض صحاب لي. دعهم يتفضلوا بالدخول»، وأردف يقول، عقب انصراف الخادم: «إنهم أناس لطاف جدًّا. ضباط من الآلاي السابع والتسعين، عرفتهم مصادفة في هذا الصباح، وسنأنس إليهم كثيرًا».

فاستعاد المستر بكوك طمأنينته في الحال، وما لبث الغلام أن عاد معلنًا دخول ثلاثة سادات إلى الحجرة.

وتولى المستر ونكل مهمة التعريف فقال: الملازم تابلتون.. المستر بكوك. الدكتور بين.. المستر بكوك.. المستر سنودجراس، الذي رأيته

من قبل.. صديقي المستر طبمن.. الدكتور بين، الدكتور سلامر، المستر بكوك.. المستر طبمن الدكتور سلامـــ...

وهنا وقف المستر ونكل فجأة عن الكلام، إذ رأى أمارات الانفعال الشديد جلية على وجه كل من المستر طبمن والطبيب.

وقال هذا بلهجة توكيد ظاهر: «لقد التقيت بهذا «السيد» من قبل..».

وقال المستر ونكل في دهشة: «أحقًّا؟!».

ومضى الدكتور سلامر يقول: «وهذا.. الشخص أيضًا، إذا لم أكن مخطئًا.. وراح يلقي نظرة متفحصة على الرجل الغريب ذي الثوب الأخضر، وتابع الكلام قائلًا: «أعتقد أنني وجهت إلى هذا الشخص دعوة ملحة في الليلة الماضية، فرأى من الواجب أن يرفضها..».

وما إن أتم هذا القول، حتى نظر إلى الغريب نظرة متعاظمة مترفعة، وهمس لصديقه الملازم تابلتون.

فقال هذا السيد، حين سمع قوله: «لا تقل هذا».

قال: «بل أقوله.. لأنه الواقع».

وغمغم الآخر، صاحب المقعد المألوف في الثكنات، باهتمام شديد: «من واجبك أن تركله بقدمك في الحال».

وتدخل الملازم قائلًا: «اسكت من فضلك يا (بين)»، وتقدم صوب المستر بكوك فقال: «هل تسمح يا سيدي أن أسألك: هل ينتمي هذا الشخص إلى جمعكم؟».

وكان المستر بكوك يبدو مبهوتًا إلى حد كبير من هذا المسلك

المجافي للأدب.

ولكنه أجاب قائلًا: «كلا يا سيدي.. إنه ضيفنا»، وعاد الملازم يسأل: «وهل هو عضو في ناديكم، أو أنا مخطئ؟».

وأجاب المستر بكوك: «كلا.. بلا شك».

وعاد الملازم يسأل: «ألم يضع يومًا شارة النادي على ثوبه؟».

فازدادت دهشة المستر بكوك، وقال: «كلا.. مطلقًا».

وعندئذ التفت الضابط إلى صديقه الدكتور سلامر، رافعًا كتفيه في هزة لا تكاد ترى، كأنما يشك في صدق ذاكرته، وبدا الدكتور سلامر غضوبًا مغيظًا، وإن ظل مبهوتًا حائرًا، ولبث المستر «بين» ينظر نظرة موحشة مفترسة إلى وجه المستر بكوك المشرق، الحائر، لا يفهم مما سمع شيئًا.

وانثنى الطبيب فجأة، يوجه الكلام إلى المستر طبمن، بلهجة جعلته يجفل إجفالة ظاهرة، كأن دبوسًا غرز بمكر، في مشط قدمه، قائلًا: «لقد كنت في المرقص الذي أقيم هنا في الليلة الماضية».

وشهق المستر طبمن، شهقة خافتة، مؤمنًا بها على قوله، وهو ينظر طيلة الوقت إلى المستر بكوك.

وعاد الطبيب يقول، وهو يشير إلى الغريب، وقد ظل هذا جامدًا لا يتحرك ولا ينبس: «وكان هذا الشخص رفيقك؟».

وأقر المستر طبمن الحقيقة.

وانثنى الطبيب إلى الغريب، فقال: «والآن يا سيدي. إنني أكرر

عليك، بحضور هؤلاء السادات، سؤالي القديم: هل تريد أن تقدم إليّ بطاقتك، فتلقى مني المعاملة الخليقة بسيد مهذب، أو ستضطرني إلى معاقبتك في التو واللحظة؟».

وهنا قال المستر بكوك: «مهلًا أيها السيد. إني في الواقع لا يمكنني أن أسمح بأن يمضي الأمر على هذا النحو قبل أن أسمع شرحًا.. طبمن.. اقصص علينا الخبر».

وعندئذ امتثل المستر طبمن للأمر، فشرح الحادث في بضع عبارات، ولم يمس مسألة استعارة الثوب إلا مسة عابرة، وإنما أطال في محاولة تبرير ما جرى بأنه حدث «بعد الغداء»، وانتهى من شرح بقول يسير، يعلن فيه ندامته وأسفه فيما يتعلق بشخصه، وترك للغريب تبرئة نفسه أو الدفاع عن مسلكه، كما يشاء.

وهم الغريب أن يفعل، لولا أن عاجله الملازم تابلتون، وكان يتبعه بعينيه في فضول شديد، قائلًا، في سخرية بالغة، واحتقار شديد: «ألم أرك قبل الآن في دار التمثيل يا سيدي؟».

قال، بلا حياء: «بلا شك».

ومضى الملازم يقول باحتقار، وهو يلتفت إلى الدكتور سلامر، «إنه ممثل متجول.. وهو يقوم بأحد الأدوار في المسرحية التي سيخرجها ضباط الآلاي الثاني والخمسين، على مسرح روشستر ليلة غد.. لا تستطيع إجراء شيء في هذه المسألة.. مستحيل».

وقال «بين» المتعاظم المترفع: «تمامًا».

وانثنى الملازم تابلتون، موجهًا الخطاب إلى المستر بكوك: «آسف لوضعك في هذا الموقف الأليم. اسمح لي أن أقترح عليك الوسيلة المثلى لاجتناب تكرار أمثال هذه الحوادث في المستقبل، وهي أن تكون حريصًا في انتقاء رفقائك».

وأضاف يقول، وهو يخرج مسرعًا من الحجرة: «طاب صباحك يا سيدي».

وتبعه الدكتور «بين» السريع الغضب فقال: «واسمح لي أنا أيضًا يا سيدي أن أقول إنني لو كنت في مركز تابلتون أو سلامر، لجدعت أنفك يا سيدي وأنف كل رجل في جماعتك.. إي والله، لما ترددت في جدع أنوفكم جميعًا، إنني أدعى «بين» يا سيدي.. الدكتور «بين» في «الآلاي» الثالث والأربعين. طاب مساؤك يا سيدي».

وما كاد يختم هذا القول بالكلمات الثلاث الأخيرة بصوت جهير، حتى تسلل مزهوًّا متعاظمًا في إثر صديقه وتبعهما على الأثر الدكتور سلامر، دون أن يقول شيئًا وإنما قنع بإلقاء نظرة ساخرة على القوم جميعًا.

وكان الغضب المتزايد والدهشة المتناهية، قد هاجا في صدر المستر بكوك، وأثارا عاطفة النبل في جوانحه، حتى كاد صداره ينشق، عند سماعه ذلك التحدي السافر، فوقف مسمرًا جامدًا في مكانه، ينظر نظرات فارغة، ولكن صوت انغلاق الباب أثابه إلى رشده، فانطلق وسورة الغضب بادية في عينيه، والنار متأججة في ناظريه، ويده على أكرة الباب، وكانت في اللحظة التالية ستمسك بعنق الدكتور «بين» طبيب الآلاي الثالث والأربعين، لولا أن جري المستر سنودجراس وراءه، فأمسك

رئيسه الموقر، من ذيل ردائه، وراح يجره جرًّا.

وصاح المستر سنودجراس بصاحبيه قائلًا: «أمسكاه، يا ونكل وطبمن، فلا يصح أن يعرض للخطر حياته الغالية في أمر كهذا».

وقال المستر بكوك: «دعوني أذهب».

وعاد المستر سنودجراس يصيح بهما قائلًا: «شددا الإمساك به».

وهكذا تعاون القوم جميعًا، على إرغام المستر بكوك على التهالك في مقعد رحيب.

وقال الغريب، ذو الثوب الأخضر: «دعوه وخلوا عنه.. بكأس من البراندي والماء.. يا له من شيخ بديع.. ممتلئ شجاعة وإقدامًا.. اشرب هذه الكأس.. هم، إنه شراب مفتخر».

وكان من قبل قد ذاق حلاوتها، بعد أن تولى الرجل التعس «شعشعتها» وتقدم الغريب بالكأس، فقربها من شفتي المستر بكوك، فلم تلبث بقاياها أن توارت في جوفه.

وساد السكون لحظة، وفعلت كأس البراندي فعلها، فعاد وجه المستر بكوك ينطلق، واسترد تهلله المألوف.

وقال الرجل «التعس»: «إنهم لا يستحقون منك التفاتًا».

وأجاب المستر بكوك قائلًا: «أنت على حق يا سيدي.. فهم لا يستحقونه، وإني لخجلان من أنني استسلمت لهذا الغضب الذي بدر مني.. هلا قرّبت كرسيك من المنضدة يا سيدي»، فامتثل الرجل التعس في الحال لأمره، وانتظم القوم حلقة حول الخوان، وعاد الوئام يسود

القوم وإن بدا على المستر ونكل شيء من القلق قد ظل مخامرًا صدره، ولعل مرجعه إلى انتزاع ثوبه من الحقيبة وغيابه عنها إلى حين، وإن لم يكن من المعقول أن نظن أن حادثًا يسيرًا كهذا يمكن أن يثير غضبًا- ولو عابرًا- في صدر رجل من معاشر «البكوكيين».

وفيما عدا هذا، عاد القوم إلى مرحهم، واستردوا صفو مزاجهم، وانتهى المساء بالروح المرحة التي بدأ بها.

* * *

# الفصل الرابع

## يوم ميدان ومبيت في الخيام

## أصدقاء جدد آخرون، دعوة إلى زيارة الريف

نرى خلقًا كثيرًا من المؤلفين يقيمون اعتراضًا سخيفًا، بل في الواقع اعتراضًا غير صادق على الاعتراف بالموارد التي استقوا منها معلوماتهم النفسية ورواياتهم القيمة، ولكنا لا نرى هذا الرأي، وإنما نحاول أن نؤدي على أجمل وجه واجبنا بوصفنا ناشرين، ومهما يصح أن نحمله في هذه الظروف، من الطموح أو الرغبة، في ادّعاء تأليف هذه القصة، فإن احترام الحقيقة يمنعنا أن نفعل ذلك، بل يقتضينا ألا نعزو من الفضل أكثر من جهد التنسيق الحكيم، والسرد النزيه، جاعلين مذكرات «بكوك» بمثابة منبع النهر الجديد، ونحن إزاءها أشبه بشركة هذا النهر ومؤسسته، فإن جهد غيرنا هو الذي هيأ لنا معينًا عظيمًا من الوقائع الخطيرة، وكل مهمتنا أن نبسطها ونسوقها في «فيض» رقراق أو «غدير» رقيق، في هذه الفصول المتتابعة، إلى العالم «المتعطش» لمعرفة البكوكيين.

وعملًا بهذا المبدأ، وتنفيذًا صادقًا لعزمنا على الوفاء بحق، والمراجع التي استأنسنا بها، نقول بصراحة، إننا مدينون «لكناشة» المستر سنودجراس بما أوردناه من الحوادث في هذا الفصل والذي سيليه، والآن وقد أرضينا ضميرنا، نمضي في السياق، بغير تعليق آخر.

نهض أهل روشستر جميعًا، وسكان المدن المجاورة، من مراقدهم، في ساعة باكرة من صباح اليوم التالي، وهم في قلق بالغ وحماسة ظاهرة، لأن عرضًا عسكريًّا كبيرًا سيجري في الميدان، وأن القائد العام سيتفقد، بعين النصر، مناورات ستة ألوية ستشترك فيه، وقد أقيمت استحكامات موقوتة لهذا الغرض، ووضعت التصميمات لمهاجمة القلعة والاستيلاء عليها وتفجير الألغام.

وكان المستر بكوك من أشد المعجبين بالجيش، ولعل قرَّاءنا قد أدركوا ذلك في النبذة اليسيرة التي أوردناها عن وصفه «لشاتام» فلم يكن ثمة شيء أشد إمتاعًا له، ولا أكثر انسجامًا، مع إحساس كل رفيق من رفقائه، من هذا المشهد المرتقب، فلا غرو إذا هم بادروا إلى المسير نحو أرض العرض، وكان الناس قد استفاضوا إليه قبلهم، من مختلف الأحياء، وعديد الدروب.

وكان الاستعداد في الميدان يوحي بأن الاحتفال المنتظر سيكون على أعظم جانب من الخطورة والروعة، والجلال، فقد أقيم الحراس حوله حتى تظل أرضه الفضاء مخصصة للجنود، ومضى الخدم في المدفعية يحجزون أماكن للسيدات، والجاويشية يروحون ويغدون مسرعين، وقد حملوا كتبًا مجلدة بالقماش، تحت آباطهم، وبدا

الأميرالاي بولدر في نوبة العسكري الكامل، ممتطيًا صهوة جواده وهو يعدو به من موضع إلى آخر ويدخل به في غمار الجماهير، أو يتمخطر فوقه ويصيح بأعلى صوته حتى يبح من كثرة الصياح، ويحمر وجهه أشد الاحمرار، لغير ما سبب ظاهر أو باعث معقول، والضباط يجرون إلى الأمام، وإلى الخلف ويتحدثون أولًا إلى الأميرالاي بولدر، ثم يصدرون الأوامر إلى الجاويشية، ثم يعدون جميعًا مبتعدين، وكانت وجوه الجنود أنفسهم وهم في أحذيتهم اللامعة وأطقمهم البراقة، تبدو عليها خطفة من هيبة وجلال تكفي للدلالة على ما لهذا الاحتفال من شأن خاص.

ووقف المستر بكوك ورفقاؤه الثلاثة في الصف الأول من صفوف الجماهير، ولبثوا في لهفة، يرتقبون ابتداء العرض العام، وكان الزحام يشتد بين لحظة وأخرى، فشغلهم الجهد الذي اضطروا إلى بذله للعرض على المكان الذي وقفوا فيه، عن كل شيء سواه، ساعتين كاملتين، وأحسوا ضغطًا شديدًا في فترة ما من خلفهم، وإذا بالمستر بكوك يدفع فجأة إلى الأمام دفعًا عدة ياردات، بسرعة ورجرجة، لا تتفقان مطلقًا مع وقاره وهيبته، وفي لحظة أخرى سمع صيحات تأمره بالتراجع عن الخط، وأحس مؤخر بندقية يسقط فوق أصابع رجله لتنبيه بإطاعة الأمر، أو في صدره، للتحقق من امتثاله إليه، وإذا بعض الماجنين عن شماله، يضغطون من هذا الجانب بجمعهم عليه، ويحشرون سنودجراس حشرة أليمة متناهية في الإيلام، صائحين به: «إلى أين أنت ذاهب؟» وما كاد ونكل يفرغ من إبداء غضبه المتناهي من مشهد هذا الهجوم عليهم بغير داع، حتى عمد أحدهم من خلفه، إلى إرخاء قبعته على عينيه، ومطالبته بأن

يتكرم فيضع رأسه في جيبه، فكانت هذه المداعبات، بجانب الدعابات الأخرى، ثم اختفاء السيد طبمن فجأة بلا سبب، وحيرة أصحابه في الاهتداء إليه، مما جعل الموقف يبدو، في الجملة، مزعجًا أكثر منه سارًّا أو مرغوبًا فيه.

وأخيرًا ارتفع في الفضاء زئير أصوات كثيرة في صفوف النظارة، إيذانًا بوصول من كانوا طيلة الوقت في انتظاره، فاتجهت الأبصار جميعًا، نحو نقطة الابتداء، ولم تنقض بضع لحظات في لهفة شديدة، وارتقاب بالغ، حتى شوهدت الأعلام خفاقة في الفضاء، والأسلحة وهاجة في ضياء الشمس. وجاء الجنود، صفًّا صفًّا، يمشون إلى الساحة بانتظام، ثم وقفوا فاصطفوا، وتعالت كلمات الأمر من أفواه القواد، فارتفعت البنادق والأسلحة، مؤدية وقفة السلام، وجاء القائد العام، يمشي إلى جانبه الأميرالاي بولدر، وعدد كبير من الضباط، يتفقد العرض، وعزفت الموسيقات كلها عزفة واحدة، ووقفت الخيل على ساقين، وتراجعت إلى الخلف، وهزت أذيالها في كل مكان، ونبحت الكلاب، وارتفع الهتاف من أفواه الحاشدين، وانطلقت الكتائب في سير عام مبتعدة، فلم تجد العين تشهد على الجانبين وإلى نهاية مدى البصر، غير ظل مستطيل في أردية حمر وسراويل بيض، وهي مستقرة جامدة بلا حراك.

وكان المستر بكوك مشغولًا طيلة الوقت بالتعثر والسقوط، وتخليص نفسه بأعجوبة، من بين سيقان الخيل، فلم يستمتع بمشاهدة المنظر استمتاعًا كافيًا، حتى اتخذ الصورة التي وصفناها، فتمكن عندئذ من الوقوف مستويًا على ساقيه، ولم يلبث سروره وابتهاجه أن جاوزا

الحدود، فأقبل على صاحبه المستر ونكل يقول: «هل يمكن أن يكون في الدنيا شيء أبدع من هذا وأكثر متعة للنفس؟».

فأجاب هذا قائلًا: «لا يمكن».

وكان رجل قصير القامة قد لبث ربع ساعة واقفًا على قدميه يدوسهما بكل ثقله، وهو صابر لا يشكو.

وهاجت في صدر المستر سنودجراس وقدة الشاعرية، وكادت تبعث متأججة منه، فذهب يقول إنه حقًّا لمشهد رفيع باهر، أن تلم عينك بحماة وطنك البواسل، وهم مصطفون في ثيابهم البراقة، أمام مواطنيهم الآمنين، مشرقو الوجوه، لا بوحشية الحرب، بل بلطف الحضارة، ملتمعو الأعين، لا بنار الرغبة في النهب والسلب وحب الانتقام، بل بضياء الإنسانية، وبريق الفهم والذكاء..

واندمج المستر بكوك بكل مشاعره، في روح هذا المديح ومعانيه، ولكنه لم يستطع ترديد أصدائه وتكرار ألفاظه بالذات.

وتلفت حوله وأنشأ يقول: «نحن الآن في موقف بديع» فقد بدأ الناس يتفرقون من مواقفهم القريبة منهم، حتى كادوا يخلون لأنفسهم حيث وقفوا.

وانثنى المستر سنودجراس والمستر ونكل يردان قول صاحبهما: «بديع!».

ووضع المستر بكوك منظاره فوق عينيه، وقال: «ما تراهم يفعلون الساعة؟».

وقال المستر ونكل وقد بدأ لونه يتغير: «أظنهم.. أحسبهم يهمون بإطلاق النار».

ولكن المستر بكوك قال في عجلة: «هذا كلام فارغ!».

وقال المستر سنودجراس في شيء من الفزع: «أعتقد أنهم سيفعلون».

فأجاب المستر بكوك: «مستحيل»، ولم يكد يفوه بهذه الكلمة حتى صوب جنود الآلايات الستة في حركة واحدة فوهات بنادقهم، كأنما يوشكون أن يسددوها إلى هدف واحد مشترك، وهذا الهدف هو معاشر البكوكيين، وإذا دوي مروع يدوي، فيرج الأرض رجًّا، ويهزها من نقطة ارتكازها هزًّا كما يهز سيدًا كبيرًا ويقتلعه من مكانه اقتلاعًا.

وفي ذلك الموقف العصيب، موقف التعرض للنيران المروعة من الذخيرة «الرش» والمضايقة من حركات القوات العسكرية، وقد أخذ قسم منها يصطف في الجبهة المقابلة، راح المستر بكوك يبدي من السكينة التامة ورباطة الجأش، ما يلازم صفات الرجل الكبير العقل ويقترن عادة بسجاياه وخلاله. فقد أمسك المستر ونكل من ذراعه، واتخذ موقفه بين هذا والمستر سنودجراس، راجيًا بجد منهما أن يذكرا أن ليس ثمة خطر مباشر، يدعو إلى الخوف من إطلاق النار، إلا ما قد يحتمل من الإصابة بالصم من شدة الدوي وقصفه.

وهنا اعترض المستر ونكل، وقد اصفرّ وجهه من الافتراض الذي كان هو الذي أثاره بقوله: «ولكن افرض أن بعض الجنود قد وضع خطأ

رصاصًا حيًّا في «ظروفه» وخراطيشه، فقد سمعت شيئًا يصفر في الفضاء اللحظة، وقد مرق الصوت الصافر بقرب أذني».

وقال المستر سنودجراس: «لخير لنا أن ننبطح على وجوهنا، أليس ذلك أحجى وأحكم؟».

وقال المستر بكوك: «لا.. لا.. لقد انتهى كل شيء الآن».

وقد بدت شفتاه ترجفان، وصفحة وجهه تبيض وتشحب، ولكن شفتيه لم تنفرجا عن أي تعبير من خوف أو جزع، شأن الرجل الخالد الذي لا يخشى الموت.

وكان المستر بكوك على حق.. فقد انقطع إطلاق النيران، ولكن لم يكد يتسع الوقت له ليهنئ نفسه بصواب رأيه، حتى شوهدت في الميدان حركة واسعة، وسرت في الصفوف أوامر عاجلة، وقبل أن يتمكن الرفقاء الثلاثة من تكوين رأي في معنى هذه الحركات الجديدة، أقبلت الآلايات الست بأجمعها شاهرات الأسنة، متقدمات بخطوة سريعة، نحو البقعة التي كان السيد بكوك وصاحباه واقفين فيها.

إن الإنسان معرض للموت في كل لحظة. وإن هناك حدًّا للشجاعة البشرية، لا تستطيع تجاوزه، فلا غرو إذا كان المستر بكوك، بعد نظرة سريعة من خلال منظاره، إلى هذه الكتل الزاحفة، قد ولى ظهره لها ولذا نقول: لاذ بأذيال الفرار.. لأنه أولًا تعبير محبب. وثانيًا إن شكل المستر بكوك لا يتفق مع هذا الأسلوب من التقهقر، ولكنا نقول إنه انطلق «خَبَبًا» على قدر ما استطاعت ساقاه أن تحملاه، أي نعم انطلق بسرعة بالغة، لم

يفطن معها إلى غرابة موقفه كل الفطنة، إلا بعد حين.

وكانت القوات التي اصطفت قبالة المستر بكوك من قبل، وحار في إدراك المراد من اصطفافها بضع ثوان على هذه الصورة، قد وقفت هكذا لصد هجمة تمثيلية من الجنود المحاصرين للقلعة، على سبيل التمثيل. وإذا بالمستر بكوك ورفيقاه قد وجدوا أنفسهم فجأة محصورين بين صفين من القوات الكبيرة، أحدهما يزحف بخطى سريعة، والآخر ثابت الاشتباك في قتال وطعان.

وصاح الضباط في الجيش الزاحف: «هو....».

وصرخ الضباط في الجيش الواقف: «ابتعدوا عن الطريق، أفسحوا السبيل...».

وصاح البكوكيون الثلاثة مروعين: «إلى أين نذهب؟».

فكان الجواب الوحيد: هو.. هو.. هو..

وتلت هذا الموقف حيرة بالغة، وذهول شديد، ووقع أقدام ثقال، ورجة عنيفة، وضحكة مكبوتة، وكانت الآلايات الستة على قيد خمسمائة ياردة، ولكن حذاء المستر بكوك بدا طائرًا في الفضاء، وأما المستر سنودجراس والمستر ونكل فقد اضطرا إلى الانقلاب ظهرًا لبطن في خفة ظاهرة، وكان أول شيء وقعت عين المستر ونكل عليه حين حط على الأرض، بعد ذلك الانقلاب في الفضاء، وهو يمسح بمنديل حريري أصفر «نهر الحياة» الذي نزف من أنفه، مشهد زعيمه الموقر على قيد خطوات منه، وهو يعدو في إثر قبعته وهي تصفر لاهية ذاهبة مع الهواء كل مذهب.

وقلما تعرض للمرء في حياته لحظات يواجه فيها محنة تثير الضحك، ولا تبعث كثيرًا من الإشفاق عليه، والرثاء لحاله، كاللحظة التي يجري فيها مطاردًا قبعته، وإن القبض عليها ليقتضي قدرًا كبيرًا من الهدوء، وحدًّا بالغًا من الاتزان، فلا ينبغي للمرء أن يتعجل الهجوم عليها.. وإلا داسها بقدميه أو استبقها في عدوه، كما لا يصح له الغلو في الهدوء.. وإلا فقدها إلى الأبد. وإنما الطريقة المثلى هي التلطف للطريدة، والأخذ بالحذر والحيطة، وترقب الفرصة المواتية، والتقدم شيئًا فشيئًا أمامها، ثم الانقضاض العاجل عليها، والإمساك بها من قمتها، وحشرها في رأسك حشرًا لا فكاك لها منه. وأنت في ذلك كله باسم بسعة الرضى، كأنك تعتقد أنها منظر مضحك لك، كما هو مضحك لسواك من الناس.

وكانت الريح رخاء، فراح المستر بكوك يتدحرج أمامها مداعبًا، ثم هبت الريح، فهب المستر بكوك مثلها، فانطلقت القبعة متدحرجة دحرجة مرح ودعابة كأنها سمكة حية في موج شديد، وكان من الجائز أن تظل متدحرجة على هذا النحو حتى تعز على منال المستر بكوك، لولا أن وقف فجأة في طريقها حائل ساقته الأقدار، في اللحظة التي أوشك ذلك السيد أن يدعها إلى مصيرها المحتوم.

نقول إن المستر بكوك أحس بإعياء تام، وكاد ينثني عن المطاردة، في اللحظة التي اندفعت فيها القبعة بعنف فاصطدمت بعجلة مركبة كانت واقفة في صف مستطيل من بضع مركبات أخرى في البقعة التي ساقته إليها خطاه، وأدرك المستر بكوك أن الظرف في مصلحته فاندفع بخفة إلى الأمام فاسترد قبعته، ووضعها فوق هامته، وتمهل ليملك أنفاسه اللاهثة،

ولكنه ما كاد يقف في مكانه نصف دقيقة، حتى سمع صوتًا ينادي باسمه في لهفة، وتبين في الحال أنه صوت المستر طبمن، فرفع بصره ليرى أين هو، فشهد منظرًا ملأ خاطره دهشة وحبورًا.

رأى في مركبة مفتوحة، انتزعت جيادها منها، مراعاة لشدة الزحام، شيخًا بدينًا، في ثوب أزرق، وأزرار براقة، وسراويل من المخمل، وحذاء طويل، وبجانبه شابتين في ثياب هفافة وريش، وفتى في نضارة العمر، يبدو عليه أنه يحب الغادتين، وسيدة لا يستطيع المرء أن يقدر سنها، وأكبر الظن أنها خالتهما، ومعهم المستر طبمن، وهو مطمئن مرتاح، كأنه يمت إلى الأسرة بنسب منذ طفولته، وقد ربطت بمؤخر المركبة سلة كبيرة من تلك السلال التي تثير في الخاطر القوي الخيال صور الدجاج البارد واللسان وزجاجات النبيذ. وفي مقعد السائق جلس غلام بدين محمر الوجه، وهو يهوم في مجلسه تهويمًا، لا يكاد الداني المتأمل يبصره على هذه الصورة حتى يعتقد أنه سوف يكون الساعي على القوم بما حوته تلك السلة من أطياب، عندما يحين الوقت المناسب لتناولها.

وألقى المستر بكوك نظرة عجلى على هذه المشاهدة الممتعة، وإذا هو يتلقى تحية أخرى من مريده الأمين، فقد صاح المستر طبمن به قائلًا: بكوك.. بكوك.. أقبل.. أسرع إلينا..

وتلاه الشيخ البدين مناديًا: «تعال يا سيدي، أرجوك أن تأتي يا جو؟.. لعنة الله على هذا الغلام. لقد عاد إلى النوم.. أي جو.. أنزل السلم!».

فنزل الغلام من فوق مقعده ببطء وأنزل سلم المركبة وأمسك ببابها مفتوحًا أمام المستر بكوك ليدخل، وفي هذه اللحظة أقبل المستر

سنودجراس والسيد ونكل.

وصاح الرجل البدين: «إن في المركبة متسعًا لكم جميعًا أيها السادة.. اثنان في جوفها، والآخر خارجها.. يا جو.. هيئ مكانًا لأحدهم فوق المقعد، والآن يا سيدي هلم» وراح يمد ذراعه ويجذب المستر بكوك أولًا ثم المستر سنودجراس بعده، إلى الدخول بالقوة. وصعد المستر ونكل إلى المقعد وفي أثره الغلام النوَّام، ولم يكد يستقر في مجلسه حتى ذهب في النعاس.

وأنشأ الرجل البدين يقول: «أهلًا بكم أيها السادة.. إني لفرح بلقائكم، وأنا عليم بكم حق العلم، وإن كان من المحتمل أنكم لا تذكرونني، فقد قضيت بضع أمسيات في ناديكم خلال الشتاء الماضي، والتقيت مصادفة بالمستر سنودجراس في هذا الصباح، وسرني لقاؤه السرور كله. والآن كيف أنت يا سيدي؟ إنك لتبدو في خير وعافية، أكثر من أي وقت آخر».

فشكر المستر بكوك له هذه التحية، وصافحه بمودة وتلطف.

ودار الرجل البدين بعينه إلى المستر سنودجراس، في حنان أبوي، فقال: «والآن.. كيف حالك يا سيدي؟ بديع؟ أليس كذلك؟ حسنًا!. هذا جميل.. هذا جميل».. وانثنى إلى المستر ونكل، فمضى يقول: «وكيف أنت يا سيدي؟ حسنًا.. إنني لسعيد أن أسمعك تقول إنك بخير. حقًّا إنني لسعيد.. هاتان ابنتاي يا سادة.. وهذه أختي مس راشيل واردل، هي آنسة، ومع ذلك ليست آنسة، إيه يا سيدي.. إيه!» ومضى يضع مرفقه مداعبًا بين أضلاع المستر بكوك، ويضحك من أعماق قلبه.

وقالت مس واردل بابتسامة متعبة: «ما هذا يا أخي؟.. ويحك!».

قال: «حقًّا.. حقًّا.. وهل ينكر أحد ذلك أيها السادة؟ أستميحكم المعذرة، هذا صديقي المستر «ترandel» والآن قد تعارفتم جميعًا، فلنطمئن، ولنسعد، ولنر ماذا نحن صانعون بعد ذلك.. هذا هو ما أقوله».

ووضع الرجل البدين منظاره على عينيه، وأخرج المستر بكوك أيضًا منظاره، ووقف الجميع في المركبة وراح كل منهم ينظر من فوق كتف الآخر إلى تدريبات الجنود وحركاتهم.

وكانت حركاتهم مثار دهشة بالغة، فقد مضى صف منهم يطلق النار من فوق هامات الصف الآخر، ثم يعدو مبتعدًا، وراح هذا يفعل ما فعله الأولون، ثم يسرع مبتعدًا كذلك، ثم يؤلف الجمع مربعات منهم، بحيث يقف الضباط في وسطها ثم ينزلون الخندق من جانب واحد بمدارج خشبية، ثم يصعدون من الجانب الآخر بالوسيلة عينها، ويتقدمون إلى متاريس من السلال فيقلبونها من مواضعها، وهم في ذلك كله يبدون من الشجاعة والإقدام أروع الأمثلة، وتلا ذلك من إطلاق المدافع الضخمة، وإفراغ كل ما في جوفها، لمسح العدو مسحًا. ومن الدوي الرهيب قبل إصدار الأمر إلى القوات بالمسير، ما جعل الفضاء يردد أصدية الصرخات المنبعثة من أفواه النساء، حتى لقد بلغ الرعب من الآنستين «واردل» حدًّا اضطر المستر ترandel إلى إسناد إحديهما في المركبة حتى لا تسقط من موضعها هلعًا، بينما بادر المستر سنودجراس إلى إسناد الأخرى، واستولى الفزع على أخت المستر واردل، إلى حد مروع، حمل المستر طبمن على تطويق خصرها بذراعه، لكيلا تسقط في

جوف المركبة. وكان الاضطراب قد ساد الجمع، ما خلا الغلام البدين، فقد لبث في نومه هادئًا كل الهدوء، كأن قصف المدافع النغمة المألوفة التي اعتاد أن ينام عليها.

وصاح الرجل البدين مناديًا: «جو.. جو» حين اقتحمت القلعة، وجلس المنتصرون والمحاصرون لتناول الطعام، وطفق يقول: «لعنة الله على هذا الغلام، لقد ذهب في النوم مرة أخرى.. تكرم يا سيدي واعركه في ساقه من فضلك، فلا شيء غير العرك يوقظه.. شكرًا لك.. والآن علينا بالسلة يا جو».

وعندئذ استيقظ الغلام، وما أيقظه حقًّا غير الشعور بجزء من ساقه منضغطًا بين إصبعي المستر ونكل، وراح يثب من فوق المقعد، وأخذ في فك أربطة السلة، بسرعة لم تكن منتظرة منه، بعد جموده واستيلاء النعاس عليه.

وقال الرجل البدين: «الآن فلنجلس متقاربين».

وبعد أن تناول القوم عدة نكات وأمازيح عن حشر أكمام السيدات، واصطبغت الخدود بحمرة الحياء من عدة مقترحات مضحكة، كقول قائل منهم يحسن أن تجلس السيدات في حجور الرجال، انتظمتهم جميعًا حلقة في المركبة، وبدأ الرجل البدين يتسلم الأطعمة من الغلام. وكان هذا قد صعد خلف المركبة لهذا الغرض.

وصاح السيد البدين: «الآن يا جو.. علينا بالسكاكين والشوك»، فناوله الغلام إياها، فوزعت على السيدات والسادة في جوف المركبة،

وأوتي المستر ونكل، القائم فوق مقعد السائق نصيبه من هذه القواطع النافعة.

وعاد السيد البدين يصيح: «جو.. الأطباق!».

وتم توزيع الصحاف بالطريقة ذاتها..

وصاح السيد البدين: «جو.. الدجاج! لعنة الله على هذا الغلام.. لقد ذهب في النوم مرة أخرى.. جو.. جو!».

وراح يدق رأس الغلام دقات متوالية بعصا حتى انتبه بمشقة من نعاسه، فصاح السيد به: «هات الطعام!».

وكان في صوته، وهو يقول الكلمة الأخيرة، شيء أيقظ الغلام الشحيم اللحيم بعنف فقفز، وراحت عيناه المتثاقلتان من سلطان النعاس عليهما تبرقان، خلف خديه الضخمين، فطفق يبتسم ابتسامًا بشعًا للطعام، وهو يخرجه من جوف السلة.

وصاح المستر واردل به قائلًا: «هيا.. أسرع»، حين شهد الغلام متشبثًا في سرور ولذة بدجاجة محمرة لا يستطيع لها فراقًا، ولا يبغي لها تركًا، فزفر زفرة عميقة وألقى نظرة متشهية على لحمها اللدن، وسمنها الظاهر، ثم تقدم على كره منه بها إلى سيده.

وقال هذا: «حسن.. انتبه.. والآن هات اللسان.. والحمام، وانتبه لهذا اللحم الكندوز.. ولحم الخنزير.. ولا تنس الكابوريا.. وأخرج «السلاطة» من الغطاء.. وأعطني المفرش!».

وكانت هذه الأوامر العاجلة تخرج من شفتي المستر واردل، وهو

يحمل المآكل المختلفة التي أسلفنا ذكرها، ويضع الصحاف في أيدي القوم، وعلى ركبهم، وهي كثيرة لا تنتهي.

وعندما بدأت عملية الانقضاض على الطعام، أنشأ ذلك السيد المزاح يقول: «والآن أليس هذا بديعًا؟..».

وأجاب المستر ونكل، وهو يقطع أوصال دجاجة فوق مقعد السائق: «مفتخر!».

وسأل المستر واردل: «ألك في كأس من النبيذ؟».

قال: «بكل سرور».

وأجاب المستر واردل: «خير لك أن تأخذ زجاجة بأكملها لنفسك وأنت في مكانك هذا.. ألا تقر هذا الرأي؟».

قال: «إنك لكريم!».

وعاد الرجل البدين ينادي الغلام: «جو!».

وأجاب هذا: «نعم يا سيدي». ولم يكن في هذه المرة نائمًا فقد ظفر لنفسه بفطيرة محشوة لحمًا..

قال: «زجاجة نبيذ للسيد.. إني لسعيد برؤيتك يا سيدي».

وأجاب المستر ونكل: «شكرًا» وقد أفرغ الكأس في جوفه ووضع الزجاجة بجانبه فوق المقعد.

وقال المستر ترانْدل مخاطبًا المستر ونكل: «هل تسمح لي بمتعة الشراب معك يا سيدي؟».

قال: «حبًّا وكرامة».

وتناول السيدان كأسًا من النبيذ، ثم انطلقا يشربان أخرى مع القوم جميعًا، سيدات ورجالًا..

وهمست العمة العانس بتلك الغيرة الصادقة التي تحسها العمات العوانس، لأخيها السيد واردل: «انظر كيف تعاكس إميلي العزيزة بالغزل ذلك السيد الغريب؟!».

فأجابها السيد الشيخ المرح: «أوه.. لا أعرف.. كل هذا طبيعي.. بل أقول إنه شيء مألوف يا مستر بكوك، هل لك في نبيذ؟».

فاستجاب المستر بكوك للدعوة على الفور، وكان في تلك اللحظة منهمكًا في البحث عما عسى أن يكون الحشو في جوف اللحم المحمر.

وقالت العمة العانس في لهجة الولية الراعية: «يا عزيزتي إميلي.. لا تتكلمي بصوت مرتفع، يا حبيبتي»، فأجابتها هذه بقولها: «يا سلام يا عمتي!».

وهنا همست مس إيزابيللا واردل لأختها إميلي قائلة: «أظن أن عمتي والشيخ الكبير يريدان أن يستأثرا بكل شيء لنفسيهما».

وضحكت الفتاتان من أعماق قلبيهما، غير أن العجوز حاولت أن تبدو متلطفة راضية، ولكنها لم تستطع.

وأقبلت على المستر طبمن تقول بلهجة رثاء رقيق: «إن للبنات أرواحًا أي أرواح! كأن الأرواح الحية المرحة ممنوعة، وامتلاكها بغير رخصة جريمة نكراء».

وأجاب المستر طبمن جوابًا لم تكن تنتظره منه، فقد ذهب يقول: «أي نعم، إن لهن ما وصفت.. وهو شيء يبهج ويبعث السرور».

وقالت مس واردل متشككة: «هيم..!».

وعاد المستر طبمن يقول مجاملًا، وهو يلمس معصم راشيل الفاتن بإحدى يديه، ويرفع الزجاجة في رفق بالأخرى: «هل تسمحين لي؟».

قالت: «أوه.. يا سيدي».

وبدا المستر طبمن شديد الإغراء، وأبدت راشيل خوفها من أن يعود الدافع إلى إطلاق النار فتحتاج طبعًا إلى من يسندها مرة أخرى..

وهمست عمة الفتاتين الودود في أذن المستر طبمن: «هل تعتقد أن ابنتي أخي مليحتان؟».

فقال هذا البكوكي على الفور، وفي عينيه نظرة شيقة: «أعتقد ذلك، إذا لم تكن عمتهما حاضرة».

قالت: «يا لك من رجل «شقي» ولكن قل لي حقًّا.. لو كانت قسماتهما أحسن.. قليلًا.. ألست ترى أنهما ستبدوان عندئذ فتاتين مليحتين على ضوء الشموع؟».

قال بلهجة استخفاف: «أعتقد أنهما كانتا ستبدوان كذلك».

قالت: «أوه.. إنك لماجن.. أعرف ماذا كنت موشكًا أن تقوله».

وهنا قال المستر طبمن: «ماذا؟» لأنه في الواقع لم يكن فكر فعلًا في أن يقول شيئًا إطلاقًا.

قالت: «أعرف أنك هممت بأن تقول إن «إيزابيللا «محنية» أعرف أنك كنت قائلًا ذلك.. إنكم معاشر الرجال أقوياء الملاحظة. والواقع أنها كذلك، فلا نفي ولا إنكار، وفي الحق، إذا كان ثمة شيء أكثر إظهارًا لقبح الفتاة من كل ما عداه فهو الانحناء، وكثيرًا ما قلت لها إنها ستبقى منحنية الشكل، حين تتقدم قليلًا في العمر.. حقًّا إنك لماجن».

ولم يكن لدى المستر طبمن مانع من أن يكسب هذه الشهرة بثمن بخس كهذا، فتراءى كأنه العريف العليم وابتسم ابتسامة غريبة..

وهنا قالت راشيل المعجبة به: «يا لها من ابتسامة ساخرة.. إنني أصارحك أنني منك جد خائفة».

قال: «أخائفة مني أنا؟».

قالت: «أوه.. إنك لا تستطيع أن تخفي شيئًا عني.. إنني أعرف معنى ابتسامتك هذه حق المعرفة».

قال، ولم يكن يدري بتاتًا المراد: «ماذا تقولين؟».

وهنا قالت العمة المعجبة، وهي تخفض كثيرًا من صوتها: «إنك تعني بها إنك لا تعتقد أن انحناءة إيزابيللا رديئة كجرأة إميلي.. ولك الحق.. إنها لجريئة، ولا يمكنك أن تتصور مبلغ ألمي أحيانًا من جرأتها، بل لكثيرًا ما بكيت منها الساعات الطوال.. إن أخي العزيز طيب القلب غاية الطيبة، سليم النية كل السلامة، فلا يفطن إليها أبدًا، ولو فطن فلا أشك في أن قلبه سينفطر ألمًا.. لوددت لو استطعت أن أحسب جرأتها مجرد اصطناع وتكلف.. أرجو أن تكون كذلك».. وهنا أرسلت هذه

العمة الودود زفرة عميقة وهزت رأسها هزة اليائس المحزون.

وهمست مس إميلي واردل لأختها: «إني واثقة من أن عمتي تتحدث عنا.. إني واثقة من ذلك كل الثقة.. إن الرغبة في الأذى والخبث بادية على وجهها».

وأجابت إيزابيلا قائلة: «أكذلك.. هيم.. أي عمتي العزيزة!».

فقالت عمتها: «نعم يا حبيبتي الغالية!».

وأجابت إيزابيلا: «إنني أخشى كثيرًا أن يَمَسَّك برد يا عمتي.. خذي منديلًا من حرير فاربطيه حول رأسك الكبير الغالي.. يجب في الواقع أن تحرصي على صحتك، وتراعي سنك».

وكانت هذه العبارة التي أطلقتها الفتاة ردًّا على ما قالته عمتها في حقها، كلامًا في محله، وكانت صحتها تستحقه فعلًا، ولكنه بلغ من الحقد حدًّا لم يكن يحسن الالتجاء إليه، ولسنا نستطيع أن نتكهن بما كانت عمتها في غضبها مجيبة لو لم يغير المستر واردل موضوع الحديث وهو لا يدري، بترديد ندائه على الغلام: «جو!».

وقال هذا السيد الشيخ: «لعنة الله على هذا الولد..لقد عاد إلى النوم!».

وانثنى المستر بكوك يقول: «هذا غلام شاذ حقًّا.. أينام دائمًا على هذا النحو؟».

وقال الشيخ بتأن: «إنه «نائم» على الدوام. وإنه ليذهب ليؤدي أعماله وهو مستغرق في النوم ويغط وهو يخدمنا على المائدة».

قال المستر بكوك: «ما أعجب وما أغرب!».

وردد الشيخ قوله: «حقًّا ما أعجب وما أغرب.. إني بهذا الغلام لفخور.. ولن أدعه يفارقني لأي سبب من الأسباب، إنه لأعجوبة من أعاجيب الطبيعة.. جو.. جو.. ارفع هذه الأشياء وافتح زجاجة أخرى.. أأنت سامع؟».

ونهض الغلام الشحيم اللحيم وفتح عينيه، وازدرد الفطيرة الضخمة التي كان منشغلًا بمضغها، حين استولى النعاس عليه آخر مرة، وراح في بطء ينفذ أوامر سيده، محدقًّا البصر في استرخاء في بقايا المائدة، وهو يرفع الصحاف ويودعها جوف «السفط».

وأحضرت الزجاجة الجديدة، وما لبثت أن أفرغت، ثم ربط السلة في موضعها القديم، وعاد الغلام السمين يصعد إلى المقعد. ووضعت المناظر والمجاهير مرة أخرى فوق الأبصار، واستؤنفت الحركات العسكرية أمام النظارة، واشتد قصف المدافع، وعادت السيدات إلى الإجفال من الخوف، وإذا بنزك ينبعث في الفضاء، فيتلقاه الناس بالفرح والاغتباط، وما كاد ينطفئ ويتوارى، حتى حذا الجنود والجماعة التي أسلفنا عليك وصفها حذوه، فتواروا هم كذلك منصرفين.

وانثنى الشيخ يقول، وهو يهز يد المستر بكوك، عقب حديث جرى متقطعًا على فترات، خلال ختام العرض: «والآن تذكر أننا سنراكم جميعًا غدًا».

وأجاب المستر بكوك: «بكل تأكيد».

قال: «ولديك عنواننا».

وأجاب المستر بكوك، وهو يستوحي كناشته: «نعم.. عزبة مانور.. في دنجلي ديل».

قال: «بالضبط.. وتذكر أنني لن أتركك حتى تقيم لدينا أسبوعًا على الأقل، وأؤكد لك أنك ستشهد كل ما يستحق المشاهدة، وإذا رغبت في الاستمتاع بالحياة في الريف، فتعال أشهدك منها ألوانًا وأسرحك فيه سراحًا جميلًا.. يا جو.. لعنة الله على هذا الغلام.. لقد عاد إلى النوم ثانية.. جو.. ساعد «توم» على إسراج الجياد.

وأُسْرِجَت الخيل، وصعد السائق، ووثب الغلام إلى مجلسه بجانبه، وتبودلت عبارات الوداع، وانطلقت المركبة رجراجة، وفيما كان البكوكيون يديرون أعينهم لتعليلها بآخر لمحة منها، أرسلت الشمس الهائلة إلى المغيب ضياء باهرًا من حمرة اللحيم على وجوه مضيفهم، كما سقط الضياء على الغلام الشحيم اللحيم، فإذا رأسه ينحدر فوق صدره، وقد عاوده النعاس..

* * *

# الفصل الخامس

**فصل قصير، يصف فيما يصف، كيف تولى المستر بكوك قيادة المركبة وكيف ركب المستر ونكل حصانًا، وكيف تصرفا في هذه المسألة..**

كانت السماء صافية ممتعة، والهواء عليلًا، وكل شيء في الفضاء الرحيب جميلًا، حين أطل المستر بكوك من فوق سياج «جسر روشستر» يتأمل الطبيعة، وينتظر طعام الفطور.

وكان المشهد في الحق أدعى إلى الاستحواذ على من كان أقل من المستر بكوك عقلًا لمَّاحًا، أو دونه خاطرًا مصقولًا، فمن شماله ينهض الجدار الأثري المتداعي، من عدة نواحيه، والمطل من بعضها الآخر على الشاطئ الرملي المترامي كثبانًا متعرجة، وربوات عالية، وقد نما وتكاثر عشب البحر، فبدا عقدًا ضخمة فوق الأحجار المتثلمة الجوانب، المحددة الأسنان، والعشب يهتز مع كل هبة من أنفاس الريح، بينما راح اللبلاب الأخضر يتشبث، في حزن واكتئاب، بالشرفات القواتم الخربة، ومن ورائه يقوم الحصن القديم، أبراجًا بلا سقوف، وجدرانًا ضخمة

مهدمة، وإن حدثنا حديث الزهو والفخار عن بأسه القديم، وقوته الغابرة، يوم كان منذ سبعمائة عام، يضج بصليل السيوف، واشتباك السلاح، وتتردد في نواحيه أصدية المآدب والولائم وضوضاء اللهو والقصف، وقد ترامت على ضفتي نهر المداوي، حقول من القمح، ومروج ناضرة، تلوح خلالها طاحونة هواء، أو كنيسة منعزلة، وتبدو مترامية إلى أقصى حدود البصر، في مشهد جميل، مختلف الألوان، تزيده جمالًا الظلال المارقة التي تخترقه، كلما توارت السحب القلائل المتناثرة في ضياء الصباح، والنهر يعكس على صفحته زرقة السماء الصافية، ويلتمع ويبرق ويشع، وهو مستفيض في رفق، منطلق في سكون، ومجاديف الصيادين مغيبة في جوف أمواجه، محدثة صوتًا جليًّا صائلًا، والزوارق الثقال، وإن بدت جميلة الصور تناسب في بطء على صفحته.

وما لبث المستر بكوك أن انتبه من هذه «الفجوة» التي اجتذبته إليها تلك المشاهد البادية أمامه، على زفرة عميقة، ولمسة رفيقة، فوق كتفه فاستدار؛ ليرى من هذا المباغت.

قال: «أتتأمل هذا المشهد؟».

فوجد «الرجل التعس» واقفًا بجانبه.

قال: «نعم.. كنت أفعل».

فعاد الرجل التعس يقول: «وتهنئ نفسك باليقظة باكرًا هذا البكور؟».

فأومأ المستر بكوك إيماءة الإيجاب.

وواصل الرجل حديثه يقول: «ما أحوج الناس إلى النهوض من

فراشهم باكرين؛ ليشهدوا الشمس في روعتها التامة وكل جلالها، إذ قلما يمكث بهاؤها النهار كله، فما أقرب الشبه بين صباح اليوم وصباح الحياة».

وقال المستر بكوك: «لقد قلت حقًّا يا سيدي».

واسترسل الرجل التعس: «وقد صدق القول السائر إن الصباح لأبدع وأجل من أن يدوم، وما أولى بهذا القول أن ينطبق على حياتنا اليومية.. يا إلهي.. بأي ثمن أود لو استعدت أيام طفولتي، أو استطعت أن أنساها إلى الأبد».

وقال المستر بكوك بإشفاق ورثاء: «لقد قاسيت كثيرًا في حياتك يا سيدي».

وأجاب الرجل التعس في عجلة: «نعم، لقد قاسيت أكثر مما يستطيع الذين يرونني اليوم أن يصدقوا جوازه أو يعتقدوا احتماله».

وتمهل لحظة ثم عاد يقول فجأة: «ألم يخطر يومًا ببالك، في ذات صبح كهذا، أن في الموت غرقًا هناءة وراحة وسلامًا؟».

وأجاب المستر بكوك قائلًا: «يا ألله! كلا!» وانثنى قليلًا عن سياج الجسر، إذ تصور، على الرغم منه، أن الرجل قد يدفعه من فوقه، ولو على سبيل التجربة.

ومضى هذا في حديثه يقول، دون أن يفطن إلى الحركة التي بدرت منه: «ولكني فكرت في ذلك أحيانًا كثيرة، ويلوح لي أن الماء الهادئ البارد إنما يغمغم بدعوتي إلى الراحة والسكون، فما هي إلا قفزة،

فرشاش، فمغالبة قصيرة، فدوامة عابرة، ثم تستحيل شيئًا فشيئًا إلى موجة خفيفة رقيقة، وقد أطبق الموج عليك، وانفلق الماء فوق رأسك، فإذا الدنيا قد أغلقت دونك أبواب متاعبك وخطويك إلى الأبد.

وكانت عينه الغائرة تشع كالشهاب، وهو يمضي في هذا القول، ولكن هذه الحماسة الخاطفة ما لبثت أن رسبت، فأشاح بوجهه في هدوء ومضى يقول: «ولكن حسبنا هذا، ودعنا منه.. إنني أريد أن أراك لأمر آخر.. لقد دعوتني إلى قراءة تلك الأوراق عليك في الليلة السابقة للبارحة وأصغيت إليَّ وأنا أتلوها على سمعك».

قال: «حقًّا.. وكان رأيي بلا شك أن....».

ولكن الرجل التعس قاطعه قائلًا: «لم أسألك رأيك، ولست أريد الآن أن أسألك.. إنك مسافر جوالة للتسلية والمعرفة معًا، فما قولك إذا أنا بعثت إليك بمخطوط غريب. أقول «غريب» لا لأنه غير معقول أو غير مرجح، بل إنه لغريب، كصفحة من صفحات قصة الحياة الحقيقية، فهل أنت مبلغها إلى ناديكم الذي حدثتني كثيرًا عنه؟».

قال: «بلا شك إذا شئت، وسوف تدون في محاضره».

وأجاب الرجل التعس: «سأوافيك بها. فعليَّ بعنوانك» ولما أنبأه المستر بكوك بالموضع الذي يرجح أن ينزل به، أقبل الرجل يكتبه بعناية في «دفتر جيب» ملطخ ببقع من الدهن، واعتذر من إلحاح المستر بكوك عليه في دعوته إلى الإفطار، وتركه عند الفندق، وانصرف بخطى وئيدة.

ووجد المستر بكوك صحبه الثلاثة قد نهضوا من فراشهم، ولبثوا في

انتظار وصوله، ليشرعوا في تناول الفطور، وكان قد أعد فوق المائدة، وبدا منظره شهيًّا مغريًا، فجلسوا إليه، وبدأ لحم الخنزير المحمر والبيض والشاي والقهوة وأصناف أخرى من الطعام تتوارى، في سرعة ظاهرة، تشهد بجودة المأكل في ذاتها وحدة شهية الآكلين.

وانثنى المستر بكوك يقول: «والآن لنتحدث عن رحلتنا إلى «ضيعة مانور.. كيف يتواتى لنا السير إليها؟».

وقال المستر طبمن: «لعله من الخير أن تستشير غلام الفندق».

ودعي الغلام للاستشارة.

وقال حين سئل: «(دنجل ديل) أيها السادة.. تبعد منا خمسة عشر ميلًا أيها السادة.. عند مفرق الطريق.. أتريدون مركبة سفر؟».

وقال المستر بكوك: «إن مركبة السفر لا تتسع لأكثر من راكبين اثنين».

وقال الغلام: «هذا صحيح يا سيدي.. أستميحك معذرة. مركبة ذات أربع عجلات تبدو بديعة جدًّا، يا سيدي، ولها مقعد خلفي يتسع لاثنين، وآخر للسيد الذي سيسوق.. آه.. أستمحيك عفوًا يا سيدي.. إنها لن تتسع إلا لثلاثة ركاب».

وهنا قال المستر سنودجراس: «وما العمل إذن؟».

قال الغلام وهو ينظر إلى المستر ونكل: «لعل أحد السادة يجب أن يركب حصانًا يا سيدي.. إن لدينا جيادًا حسنة للركوب يا سيدي.. وفي إمكان أي واحد من خدم المستر واردل يتفق قدومه إلى روشستر، أن

يعود به يا سيدي..».

وقال المستر بكوك: «هذا هو الحل المطلوب.. فما رأيك يا ونكل، هل تركب حصانًا؟».

والواقع أن المستر ونكل شعر بمخاوف بالغة وتشاؤم شديد، في أعماق قلبه، من ناحية مدى خبرته بركوب الخيل، ولكنه لم يشأ أن يفطن أحد إلى تلك المخاوف التي تساوره، فأجاب على الفور، وبجرأة بالغة بلا شك: «هذه متعة لي، لا يدانيها شيء».

وهكذا اندفع المستر ونكل نحو القدر المقدور له، وسلم مسرعًا لمصيره، فليس له عنه رجوع، ولا منه مرد.

وقال المستر بكوك للغلام: «لتكن المركبة والحصان عند الباب في الحادية عشرة».

وأجاب الغلام: «سمعًا وطاعة يا سيدي».

وانصرف الخادم، وانتهى الإفطار، وصعد السفر إلى مخادعهم؛ ليعدوا الثياب التي سيأخذونها في رحلتهم الدانية.

وفرغ المستر بكوك من المعدات التمهيدية ووقف يطل من خلال أستار غرفة القهوة على السابلة، الغادين والرائحين في الطريق، فدخل الغلام عليه وأنبأه أن العجلة على الأهبة، وما لبثت العجلة ذاتها أن أكدت النبأ، بظهورها في اللحظة ذاتها لعين المستر بكوك من خلال الستار.

وكانت العربة صندوقًا صغيرًا، غريب الشكل، أخضر اللون قائمًا على أربع عجلات، ولها موضع منخفض من خلفها أشبه شيء بصندوق

نبيذ، يتسع لجلوس رجلين، ومجلس مرتفع لثالث في المقدمة، ويجرها حصان أسمر ضخم، يبدو متناسق العظام، وقد وقف بقربه سائس، ممسكًا بعنان حصان آخر ضخم، يبدو كأنه قريب للحصان المشدود إلى العجلة، وهو مسرج مهيأ لركبة السيد ونكل.

وانثنى المستر بكوك يقول، وهم وقوف على الإفريز، ريثما توضع الثياب في العربة: «يا إلهي! ومن الذي سيسوقها، ما خطر ذلك يومًا ببالي».

وقال المستر طبمن: «أوه.. أنت طبعًا»..

وردد المستر سنودجراس القول: «طبعًا»..

فصاح المستر بكوك مدهوشًا: «أنا!».

وتدخل السائس فقال: «لا خوف مطلقًا يا سيدي.. إني أؤكد لك أنه حصان هادئ، يا سيدي، حتى ليستطيع طفل في المهد أن يسوقه».

قال مستفسرًا: «أهو شرود مجفل؟».

وأجاب السائس: «شرود يا سيدي! إنه لن يشرد ولن يجفل، حتى ولو لقي في طريقه مركبة ملأى بقردة اشتعلت النار في أذنابها».

وكانت هذ التوصية لا تقبل الجدل، فدخل المستر طبمن والمستر سنودجراس في «السحارة»- مقعد السائق- وصعد المستر بكوك الكرسي القائم في المقدمة وأسند قدميه إلى رف مقام لهذا الغرض.

وقال السائس لصبيه: «هيا يا وليم «المؤتلق»، أعط السيد اللجام».

وتقدم وليم «المؤتلق»، وأكبر الظن أنه سُمي بهذا اللقب، لشعره

الناعم وسحنته «الزيتية»، فوضع الزمام في يسرى المستر بكوك، بينما دس السائس الكبير سوطًا في يمناه..

وصاح المستر بكوك: «أوه..!»، وقد رأى الحصان الطويل يبدي ميلًا ظاهرًا نحو الارتداد إلى شرفة غرفة القهوة.

وردد كل من المستر طبمن والمستر سنودجراس آهته وهما في مقعد السائق.

وانثنى السائس الكبير يقول مشجعًا: «هذه مداعبة منه أيها السادة.. أمسكه يا وليم، فتقدم هذا إلى الحصان فرده عن حدته، بينما جرى السائس الكبير ليعين المستر ونكل على الامتطاء.

وقال: «من الجانب الآخر، يا سيدي، إذا تكرمت».

وقال غلام في خدمة الخيل، وهو يبتسم هامسًا لغلام الفندق، وهو يكتم ضحكة: «أراهن أن السيد كان سيركب من الجانب الخاطئ».

وتلقى المستر ونكل هذا الدرس وامتثل له، فصعد إلى السرج، بمشقة بالغة، لا تقل عن مشقة الصعود إلى بارجة من الطراز الأول.

وسأل المستر بكوك أصحابه: «هل كل شيء تام؟» وهو في أعماق صدره يشعر بأن كل شيء.. ليس تامًّا..

وصاح السائس: «دعه ينطلق.. أمسك به يا سيدي».

وانطلقت العجلة والحصان المسرج، وعلى المقعد الأعلى من الأولى جلس المستر بكوك واستوى المستر ونكل فوق صهوة الآخر، وكل من في فناء الفندق ينظرون فرحين ضاحكين.

وأنشأ المستر سنودجراس، وهو على مقعد السائق يقول للمستر ونكل، وهو فوق السرج: «وما الذي يجعله يمشي هكذا مجانبًا؟».

وأجاب المستر ونكل: «لا أدري!».

وكان حصانه قد انطلق في الطريق بشكل غريب كل الغرابة.. مندفعًا أولًا بجنبه، ورأسه متجه صوب جانب من الطريق، وذيله نحو الجانب الآخر.

ولم يؤت بكوك الفرصة لملاحظة ذلك، أو مشاهدة شيء سواه، فقد كانت كل قواه محصورة في مراقبة حركات الحصان المشدود إلى العجلة، فقد راح يبدي من الغرائب والعجائب ما يجتذب أي- مشاهد- ويسره، ولكنه لا يسر ولا يجتذب الجالس من خلفه، بل لقد لبث يرفع رأسه بشكل متعب مزعج، ويشد اللجام إلى حد جعل من المشقة البالغة على المستر بكوك الإمساك به، وكانت للحصان نزعة عجيبة، إلى الاندفاع فجأة بين لحظة وأخرى نحو جانب الطريق ثم الوقوف بغتة، ثم الانطلاق بضع دقائق بسرعة، من العسير مراقبتها.

وانثنى المستر سنودجراس يقول، حين رأى الحصان يفعل ذلك للمرة العشرين: «ماذا تراه يقصد من هذا؟» فأجابه المستر طبمن قائلًا: «لست أدري!! ولكن أليس هذا أشبه بالشرود والإجفال؟».

وهم المستر سنودجراس بالجواب، لولا أن أسكتته صرخة منبعثة من المستر بكوك وهو يقول: «ويحي.. لقد سقط السوط من يدي»..

فنادى المستر سنودجراس قائلًا: «يا ونكل».

وجاء هذا «الفارس» يتخطر فوق فرسه الطويلة، وقد هبطت قبعته، حتى غطت أذنيه، وهو يرعش من جميع جهاته، كأنما يوشك أن يتنافر بددًا في كل ناحية، من فرط الجهد الذي كان يبذله.

ومضى المستر سنودجراس يناشده: «التقط السوط أيها الشهم الكريم».

فراح المستر ونكل يشد عنان الفرس الطويلة حتى امتقع من الجد وجهه، واستطاع بعد لأيٍ وقفها عن المسير، وعندئذ ترجل، وسلم السوط إلى مستر بكوك، وتناول اللجام واستعد للوثوب فوق الصهوة.

ولسنا ندري أكانت تلك الفرس العالية، من ناحية روح اللعب المستمكنة منها، تريد أن تلهو لهوًا بريئًا مع المستر ونكل، أم خطر لها أن تقطع الرحلة على هواها، بغير راكب يعلو صهوتها، فإن ذلك أمر لا نستطيع أن نقطع فيه برأي حاسم، ومهما يكن الباعث الذي بعث الفرس على هذا المسلك، فلا ريب في أن المستر ونكل لم يكد يلمس اللجام، حتى بادرت الفرس إلى التطويح به من فوق رأسها، واندفعت إلى الخلف تجره في أثرها جرًّا إلى نهاية طرفيه.

ومضى المستر ونكل يقول متلطفًا لها، مواسيًا: «مسكينة مسكينة.. يا لك من فرس كريمة سمحة!» ولكن الفرس «الكريمة السمحة» كانت في مناعة من الملق، أبية على المديح، فجفلت كلما حاول المستر ونكل الدنو منها، تتثنى مبتعدة، ورغم كل صنوف التلطف، والمداراة، والممانعة، راح هو وهي يدوران.. ويلفان، زهاء عشر دقائق ولا يزال كل منهما مبتعدًا عن الآخر، المسافة ذاتها التي كانت بينهما من البداية، وهو

أمر مجهد، في الظروف المألوفة، ولكنه أجهد وأشق خاصة على طريق منعزل، يعز فيه الظفر بمعين أو نصير.

وصاح المستر ونكل، بعد أن طال الأمد على هذه المراوغة: «ماذا تراني أصنع.. وليس في إمكاني التغلب عليها..».

وأجابه المستر بكوك من فوق المركبة قائلًا: «يحسن بك أن تقودها حتى تبلغ بابًا من أبواب المكوس».

وعاد المستر ونكل يصيح قائلًا: «ولكنها لا تريد أن تسير، هلا جئت فأمسكت بها؟».

وكان المستر بكوك المثل المجسم للرفق والإنسانية، فلا عجب إذا هو ألقى باللجام على ظهر الحصان، وهبط من مقعده، وجر العجلة بعناية إلى ناحية السياج، مخافة أن يأتي شيء ما على الطريق، وعاد ليعاون صاحبه في محنته، تاركًا صاحبيه الآخرين في المركبة.

ولكن ما كادت الفرس تشهد المستر بكوك يتقدم نحوها والسوط في يده، حتى استعاضت عن الدوران الذي كانت ممعنة فيه، بحركة تراجع حاسم شديد، لم تلبث أن اجتذبت بها المستر ونكل، وهو لا يزال ممسكًا بالطرف الآخر من العنان، جذبة أسرع من الجري العاجل، في الاتجاه الذي جاءوا منه.

وجرى المستر بكوك لنجدته، ولكنه كلما أسرع في جريه، أسرعت في ارتدادها، واشتد احتكاك الأقدام، والركل بالأرجل، حتى تعالى الغبار، وتطاير العثير، وعندئذ شعر المستر ونكل بذراعيه تكادان تنخلعان

من كتفيه، فترك العنان ينفلت منه.

ووقفت الفرس ساكنة، ثم حملقت، ثم هزت رأسها، وتولت بظهرها، وبكل رفق وهدوء انطلقت خببًا عائدة إلى روشستر، تاركة المستر ونكل والمستر بكوك يتبادلان النظرات، في ذهول واكتئاب، ولكن لم يلبث أن طرق سمعهما صوت جرجرة من مكان قريب، فرفعا البصر ليريا ماذا جرى.

وفي الحال صرخ المستر بكوك صرخة المبهور المعذب: «يا ويلنا.. إن الحصان الآخر يريد الفرار».

وكان ذلك هو الواقع، فقد أجفل الحصان من ذلك الصوت وأحس بالأعنة فوق ظهره، فكانت النتيجة معروفة، وهي أنه انطلق في وجهه، والمركبة ذات العجلات الأربع من خلفه والمستر سنودجراس والمستر طبمن في جوفها، وكانت الفرصة قصيرة، والوقت ضيقًا، فألقى المستر طبمن بنفسه فوق السياج، وحذا المستر سنودجراس حذوه، واندفع الحصان بالمركبة ذات العجلات الأربع نحو قنطرة خشبية، ففصل العجلات عن الهيكل، ومقعد السائق عن المقعد الأمامي، ووقف أخيرًا جامدًا، ينظر إلى الدمار الذي أحدثه.

وكان كل هم الصديقين، اللذين لم يسقطا من المركبة، أن يستخلصا صاحبيهما المنكودين من وسط الشوك والحسك اللذين سقطا فيهما، وهي عملية انتهت بارتياح لا يوصف، لأنهما تبينا أنهما لم يصابا بأذى غير مزق في ثيابهما، وخدوش في وجهيهما من الشوك الذي أصابهما، وكان العمل الثاني الذي ينتظر منهما، أن يفكا الحصان من المركبة

المهشمةِ، وما كادا يفعلان هذا حتى انطلق الجميع يمشون في بطء، وهم يجرون الحصان بينهم، تاركين العجلة لمصيرها.

ووصلوا بعد مسيرة ساعة كاملة على جانب الطريق إلى حانة صغيرة، ذات شجرتين من أشجار الدردار ومسقى للخيل، وأمامها لافتة لهداية الناس إلى الطريق، ومن خلفها جرس للدرس أو جرنان غير منسقين وعن أحد جانبيها حديقة مطبخ وسقائف عفنة وأكواخ من المدر متناثرة بغير نظام حولها، ورأوا رجلًا أحمر الشعر يعمل في الحديقة، فبادر المستر بكوك إلى مناداته صائحًا: «يا هذا!».

فرفع الرجل ذو الشعر الأحمر بدنه، وظلل عينيه بيده ووقف يحملق البصر مليًّا في وجه المستر بكوك وصحبه.

وأعاد المستر بكوك النداء قائلًا: «يا هذا!».

فكان جواب الرجل ذي الشعر الأحمر ترديدًا لذلك القول.

قال: «كم تبعد دنجلي ديل من هذا الموضع؟».

قال: «سبعة أميال على الأقل».

فعاد يسأله: «وهل الطريق معبد؟».

قال: «كلا». ولم يكد يفوه بهذا الجواب المقتضب، ويحاول الاطمئنان، في الظاهر، بإلقاء نظرة فاحصة أخرى، حتى أكب على العمل من جديد.

وقال المستر بكوك: «إننا نريد إبقاء هذا الحصان هنا، أظن أننا مستطيعون.. ألا نستطيع؟».

وكرر الرجل الأحمر الرأس السؤال قائلًا، وهو معتمد بفأسه: «تريدون إبقاء هذا الحصان هنا؟».

وأجاب المستر بكوك، وكان قد تقدم عندئذ، وهو ممسك بالحصان، إلى سور الحديقة: «بالطبع».

وخرج الرجل من الحديقة، ونظر طويلًا إلى الحصان، وصاح مناديًا: «يا سيدة.. يا سيدة..».

وجاءت على النداء امرأة طويلة معروقة، بادية العظام من رأسها إلى قدمها، وهي في «إزار» أزرق خشن، وقد هبط صدرها قدر بوصة أو بوصتين إلى ما يلي إبطيها.

وتقدم المستر طبمن إليها، وراح يقول في أرق صوت ممكن، وألطف إغراء: «هل تسمحين لنا، أيتها السيدة الكريمة، أن نبقي هذا الحصان هنا؟».

ووقفت المرأة تحدجهم بنظرة قاسية، وأقبل الرجل ذو الرأس الأحمر، فهمس لها في أذنها كلامًا.

وانثنت المرأة تقول بعد تفكير قصير: «كلا.. أخشى ألا يتسنى ذلك».

وهنا صاح المستر بكوك قائلًا: «تخشين!.. مِمَّ تخشى هذه المرأة؟».

قالت، وهي متكئة إلى الدار: «لقد وقعنا في محرجة آخر مرة.. ليس عندي ما أقوله لك».

وقال المستر بكوك وهو في دهشة: «هذا أغرب شيء لقيته في حياتي كلها».

وهمس المستر ونكل في أذنه، وقد أحاط به أصحابه: «أعتقد أنهما يظنان أننا جئنا بهذا الحصان، من طريق غير شريف».

فصاح المستر بكوك في سورة غضب: «ماذا تقول؟».

فأعاد المستر ونكل قوله السابق على استحياء.

وانثنى المستر بكوك ينادي الرجل قائلًا: «أيها الرجل.. هل تظن أننا لهذا الحصان سارقون؟».

وأجاب الرجل ذو الشعر الأحمر: «بل أنا على يقين».

وراح يرسل ابتسامة عريضة غمرت وجهه كله من إحدى أذنيه إلى الأخرى، وتولى عنهم إلى الدار وأغلق الباب بعنف في أثره.

ووقف المستر بكوك مذهولًا يقول: «إنه لأشبه بحلم.. حلم قبيح.. كيف يتصور الخاطر إنسانًا يمشي اليوم كله بحصان مخيف لا يستطيع الخلاص منه؟».

وانطلق «البكوكيون» المحزونون ساهمين واجمين، وذلك الحصان الطويل يتبعهم في رفق، وقد أحسوا جميعًا بأشد الاشمئزاز منه.

وكان الأصيل قد آذن بمغيب حين عرج الأصدقاء الأربعة ورفيقهم ذو الأربع، على الدرب المؤدي إلى «ضيعة مانور» وكان السرور لقربهم من الموضع المنشود، أقل كثيرًا من الفرح الذي كانوا سيشعرون به، لو لم يقع ذلك الحادث لهم، فقد بدت لهم غرابة مظهرهم، ونكر ما هم فيه.. ثياب ممزقة، ووجوه مخدوشة، وأحذية علاها الغبار، وأعراض الإعياء بادية عليهم.. وأكثر من هذا كله.. الحصان.

ولكن راح المستر بكوك يلعن ذلك الحصان، وقد لبث يحدق في ذلك الحيوان الكريم بعينه، بين لحظة وأخرى، ويحدجه بنظرات حقد وجدة، وكان قد حسب في خاطره، أكثر من مرة، مبلغ الخسارة التي سوف يتكبدها إذا هو قطع رقبته، ولكن فكرة إيراده موارد التلف، أو إطلاق سراحه، في هذا العالم الفسيح، يصنع فيه ما يشاء، عادت الآن تستبد بخاطره، عشرة أضعاف رغبته الأولى، وإذا هو ينتبه من التفكير في هذه التصورات ونحوها، على ظهور شبحين فجأة، عند منعطف زقاق، وما لبث أن تبين أنهما المستر «واردل» وتابعه الأمين.. الغلام البدين.

وابتدره الشيخ المضياف الكريم قائلًا: «ماذا أرى؟ أين كنتم؟ لقد ظللت طيلة النهار أرتقبكم.. يا عجبًا. ما بالي أراكم مجهدين حقًّا؟.. وما هذا؟.. أخدوشًا أرى.. أرجو ألا تكون جروحًا.. إنه ليسعدني أن أسمع أن لا أذى ولا ضير.. يسعدني كل السعادة أن أسمع ذلك».. أكذا انكسرت بكم العجلة؟ لا بأس.. ذلكم حادث مألوف في هذه الأنحاء.. يا جو.. أراه قد عاد إلى النوم.. جو.. خذ هذا الحصان من السيد وقده إلى الإسطبل».

ومضى الغلام البدين يمشي متثاقل الخطى خلفهم، وهو يجر الحصان، وأما السيد الكبير، فقد راح يواسي أضيافه بكلام رقيق فيما رأوا من اللباقة أن يحدثوه به من أحداث يومهم هذا، وانطلق بهم إلى المطهى وهو يقول: لا بد من إصلاح ما أفسده الحادث من ثيابكم هنا، ثم أتقدم بكم للتعارف بالقوم المجتمعين في قاعة الاستقبال.. يا «أما» هاتي نقيع الكرز الآن.. وأنت يا جان هاتي إبرة وخيطًا في الحال، وأنت يا ماري..

فوطًا وماء.. هيا يا بنات أسرعن..

وتفرقت ثلاث فتيات بضات أو أربع سراعًا لإحضار الأشياء التي طلبها السيد الكريم، بينما نهض خادمان ذو رأسين ضخمين ووجهين مستديرين، من مقعديهما في ركن المطبخ عند المدخنة، فقد كانا يجلسان بجوار النار المشبوبة، كأنهما يصطليان، في متعة محببة يوم عيد الميلاد، وإن كان الوقت مساء أحد الأيام في شهر مايو، والموسم الربيع، وانطلقا يغوصان في بعض الزوايا المظلمة، وما لبثا أن أطلعا منه «حقًا» من الطلاء الأسود وبضع فرش لمسح الأحذية.

وعاد الشيخ الكبير ينادي: «قليلًا من السرعة.. هيا.. تحركوا!» ولكن هذه النصيحة لم تكن ضرورية إطلاقًا، فقد جاءت إحدى البنات فملأت الأقداح شرابًا، وأقبلت أخرى بالفوط والمناشف، وتناول أحد الخادمين فجأة قدم المستر بكوك حتى لقد خيف على الرجل أن يفقد توازنه، وانطلق الخادم ينفض الغبار عن حذائه حتى أحس بأن أصابع قدمه قد التهبت نارًا، بينما عكف الآخر على مسح ثوب المستر ونكل، بفرشاة كثيفة من قماش، وهو لا يفتأ خلال ذلك يرسل ذلك الصوت المخيف الذي اعتاد سائقو الخيل أن يرسلوه، وهم عاكفون على تطميرها.

وأما المستر سنودجراس فما إن فرغ من الغسل والتنظيف والتجميل، حتى ألقى نظرة عامة على المكان، وهو مولي ظهره إلى النار، ورشف شراب «الكرز» في ارتياح ومتعة، وقد وصف المكان في كناشته، بقوله إنه حجرة رحيبة الجنبات، رصف أرضها بالآجر الأحمر، وازدان سقفها بأفخاذ الخنازير وأجنابها، وتدلت منها حبال من البصل وعقود، بينما

تجملت جدرانها بعدة سياط، مما يستخدم في الصيد والقنص وبرذعتين أو ثلاث براذع، وسرج وبندقية قديمة صدئة كتب تحتها ما يفهم منه أنها محشوة.. كما كانت، والعهدة على الراوي، منذ نصف قرن على أقل تقدير، وساعة جدار قديمة، تبدو موحشة الصورة، رزينة الشكل، لا تقل قدمًا عن تلك البندقية، وهي تتدلى من أحد الخطاطيف الكثيرة، التي تزين خزانة أدوات المائدة.

وقال الشيخ الكريم: «على استعداد؟» حين فرغ أضيافه من الاغتسال وإصلاح الهندام وتنفيض الثياب، والتطمير، فأجاب المستر بكوك قائلًا: «على أتم الاستعداد».

قال: هلموا بنا إذن!

وبعد أن اجتاز الجمع عدة دهاليز مظلمة، ووافاهم المستر طبمن، وكان قد تخلف قليلًا؛ لينتزع قبلة من خد الجارية «أما»، وكان جزاؤه عليها ما يستحق من لكمات وخدشات، وصلوا إلى باب القاعة، فانثنى مضيفهم الكريم يقول، وهو يفتح الباب، ويتقدم لإعلان قدومهم: «مرحبًا بكم أيها السادة في ضيعة مانور».

***

# الفصل السادس

## «جماعة» قديمة الطراز تلعب الورق.. أشعار القسيس وأبياته.. قصة «عودة السجين»..

ونهض عدة أضياف من مجالسهم في تلك القاعة القديمة، لتحية المستر بكوك وأصحابه عند دخولهم، وتوانى المستر بكوك خلال فترة التقديم والتعارف ومراسيمها المرعية؛ ليتأمل القوم الذين أحاطوا به، ويلاحظ أشكالهم، ويفكر فيما عسى أن تكون شخصياتهم وصناعاتهم، وهي عادة كان يحرص على مراعاتها عادة، كدأب الكثير من العظماء أمثاله.

وكانت في مجلس الصدارة من الجمع سيدة عجوز، غطت رأسها بقبعة عالية وارتدت «ثوبًا» من حرير ناصع اللون، وتبين أنها لم تكن سوى والدة المستر «واردل»، بجلالة قدرها، وكان مجلسها في الجانب الأيمن من المدفأة، بينما ازدانت الجدران بصور مختلفة، نواطق بأنها نشأت النشأة الواجبة لها في شبابها، ثم لم تفارقها أو تنحرف عنها في مشيبها، وهي صور شتى.. قديمة التواريخ، إلى جانب مناظر طبيعية، لا تقل عنها

قدمًا، ومقابض قرمزية حريرية لأباريق شاي أحدث عهدًا، وكانت العمة والفتاتان والمستر واردل يتنافسون في إبداء العناية البالغة، والرعاية المستمرة للسيدة الكريمة، وهم مزدحمون حول مقعدها الرحيب، بين ممسكة بمسمعتها، ومتقدمة ببرتقالة في يدها، وأخرى بزجاجة رائعة لمعطسها، ورابعة منهمكة في توطئة الوسادات المرفوعة سنادًا لها، بينما جلس قبالتها سيد عجوز أصلع، يبدو المزاج الرافق والطيبة على وجهه، وهو قسيس دنجلي ديل. واتخذت زوجته مجلسها بجانبه، وهي سيدة متقدمة في العمر، بدينة متفتحة كأكمام الزهر، تبدو كأنها لم تبرع في فن صنع الأشربة المنزلية والمرطبات وأسرار تخميرها وإجادتها، إلى الحد البالغ الذي يرضي شاربها، فحسب، بل برعت في مذاقها أحيانًا، لإرضاء نفسها كذلك، وكان في القاعة أيضًا رجل صغير الجثة، شديد المراس، له وجه كالتفاحة، وهو يتحدث إلى سيد كبير السن بدين، في ركن منها، واثنان أو ثلاثة أشياخ آخرين، ومثلهم من السيدات، وقد جلسوا جميعًا معتدلي القدود جامدين في مقاعدهم، ينظرون مليًّا إلى المستر بكوك ورفقائه في سفره.

وانثنى السيد واردل يقول بأعلى صوته: «هذا هو، السيد بكوك يا أماه».

وقالت العجوز وهي تهز رأسها: «آه.. لا أستطيع سماع كلامك!».

وهنا صرخت الفتاتان في نفس واحد: «المستر بكوك.. يا جدتي».

وصاحت العجوز: «آه.. حسن.. هذا الأمر لا يهم كثيرًا.. بل إني لاجترئ فأقول إنه لا يعني بامرأة عجوز مثلي».

وقال المستر بكوك، وهو يتناول يد السيدة الكبيرة، ويرفع صوته حتى ليبدو الاحمرار على سحنته الخيرة: «أؤكد لك يا سيدتي، أن لا شيء أبهج لخاطري من لقاء سيدة في مثل سنك على رأس أسرة طيبة كهذه، تبدو في منتهى الشباب والعافية».

وعادت السيدة العجوز بعد لحظة سكون تقول: «آه.. كل ذلك بديع.. ولكني لا أستطيع أن أسمعه».

وقالت إيزابيللا واردل مخافتة: «إن جدتي الآن كدرة المزاج.. ولكنها لن تلبث أن تتحدث إليك».

وهز المستر بكوك رأسه، هزة المستعد للتسامح أمام مناقص الشيخوخة وعيوبها، ومضى يشترك في الحديث العام مع السادات الآخرين.

قال: «موضع بهيج هذا».

ورد أصحابه، سنودجراس وطبمن وونكل هذه العبارة قائلين: «بهيج حقًّا».

وقال المستر واردل: «أعتقد ذلك».

وانثنى السيد الشديد المراس، المستدير الوجه كالتفاحة يقول: «ليس في إقليم «كنت» كله موضع أفضل من هذا الموضع يا سيدي. إي والله يا سيدي.. إني لعلى يقين أن ليس فيه مكان أفضل» وراح يتلفت حوله منتصرًا، كأن أحدًا قد عارضه معارضة شديدة، ولكنه في النهاية تغلب عليه.

وصمت الرجل لحظة ثم عاد يقول: «ليس في جميع أرجاء «كنت» موضع أفضل».

وهنا انبرى الرجل البدين يقول بجد: «إذا استثنينا مراعي مولين!».

فصاح الآخر باحتقار بالغ: «مراعي مولين!».

وعاد الرجل البدين يقول: «نعم مراعي مولين».

وتدخل سيد بدين آخر فقال: «هذه أرض طيبة طبعًا».

وقال بدين ثالث: «إنها لكذلك يقينًا».

وقال المضيف اللحيم: «كل إنسان يعرف ذلك».

وعندئذ ألقى الرجل العنيد المستدير الوجه نظرة تشكك حوله، ولكنه تبين أنه «أقلية» فاتخذ سمات الرفق والمسالمة، فلم يقل شيئًا.

وسألت العجوز إحدى حفيدتيها قائلة: «عم يتحدثون؟» وكان صوتها مسموعًا مرتفعًا، كدأب معاشر الصم، كأنما لا يعنيها أن يسمع آخرون ما قالته.

وأجابت حفيدتها قائلة: «عن الأرض يا جدتي..».

قالت: «وماذا عن الأرض؟.. هل من أمر ذي بال؟».

وأجابت الفتاة: «كلا. كلا.. كان المستر ملر يقول إن أرضنا أحسن من مراعي مولين».

وقالت العجوز غاضبة: «من أين أتاه العلم بأرضنا؟ إن ملر لمختال فخور.. ولك أن تقولي له إنني قلت ذلك».

وما إن فرغت من قولها هذا، وهي لا تشعر بأن كلامها كان أكثر من همس، حتى استوت في جلستها، وحدجت الرجل الشديد المراس بنظر حاد.

وبادر المضيف الكثير الحركة، في لهفة طبيعية، على تغيير موضوع الحديث يقول: «هلم.. هلم.. ما قولك في لعبة «ربر»، يا مستر بكوك؟».

قال: «أحب الأشياء إلى نفسي.. ولكن أرجوك ألا تجعل اللعب على حسابي».

قال: «أؤكد لك أن أمي مولعة بلعبة «الربر».. ألست كذلك يا أمي؟».

وأجابت العجوز بالإيجاب، وكانت أقل صمتًا بكثير في موضوع لعب الورق مما هي في الموضوعات الأخرى.

وصاح السيد الكبير مناديًا: «جو.. جو.. لعنة الله.. ولكن ها هو ذا.. هلم هيئ لنا موائد اللعب».

فمضى ذلك الغلام النوَّام بغير حاجة إلى مزيد من اليقظة، يعد مائدتين، إحداهما للعبة «البباجوان» وأخرى للعبة «الويست»، وكانت حلقة لاعبي الويست تتألف من المستر بكوك والسيدة العجوز والمستر ملر والسيد البدين. أما اللعبة المستديرة فقد شملت بقية الحاضرين.

وكان اللعب فيما يتعلق «بالويست» مقترنًا بكل الجد والاتزان والرزانة، التي تليق باسمها ومعناه «السكون»، حتى ليلوح لنا أن تسميتها «باللعب» تسمية منكرة وغير متفقة مع «الجد» الذي يراعى فيها. أما اللعبة الأخرى فقد بلغ من ضجتها والمرح الصاخب من حولها، أن قطعت فعلًا

على المستر ملر أفكاره ومسرحاته، فلم يندمج فيها كما ينبغي، وارتكب عامدًا، مرارًا عدة أغلاط صارعة ومخالفات، أثارت غضب السيد البدين إلى حد بعيد، وأدخلت السرور على نفس السيدة العجوز إلى الحد ذاته.

وقال المستر ملر بلهجة المنتصر، وهو يعود إلى الخدعة القديمة في نهاية كل دور: «هيـــ... ما رأيكما لم يكن في الإمكان أن تلعب هذه الورقة أحسن من هذا.. إني لأمتدح نفسي وأتملقها.. مستحيل أن أكون قد عدت إلى خدعة أخرى؟».

وقال العجوز: لقد كان أجدر بملر أن يرمي «الإسباني» أليس كذلك يا سيدي؟

فأومأ المستر بكوك إيماءة الموافقة.

وقال وهو يتوسل إلى زميله مستنجدًا: «أكان ذلك أحق؟».

وأجاب السيد البدين بصوت مرعب: «إنه أجدر بك يا سيدي..!».

قال وهو مطرق الرأس: «يؤسفني ذلك جدًّا».

وزمجر السيد البدين قائلًا: «هذه لعبة معروفة متداولة كثيرًا».

وقال المستر بكوك: «(عشرتان) بالشرف تساوي لدينا ثمانية».

وقالت العجوز: «هل تلعب (عشرة)؟».

قال: «ألعب.. (عشرتين)، واحدة (والثالثة)..».

وقال المستر ملر: «ما رأيت يومًا حظًّا كهذا..».

وقال السيد البدين: «بل ما رأيت ورقًا كهذا..».

وساد سكون رهيب، أما المستر بكوك فبدا «زائغًا»، وأما السيدة العجوز فبدت جادة، ولاح السيد البدين غضبان متحاملًا، وكان المستر ملر هيابًا خائفًا.

وقالت العجوز: «نلعب دورًا آخر.. هل يمكن؟» وأقبلت تسجل الانتصار، بوضع قطعة من ذات البنسات الستة ونصف بنس مضعضعًا تحت «الماثلة».

وقال المستر بكوك: «هذا «تطبيق» يا سيدي..».

وأجاب السيد البدين بحدة: «فاهم يا سيدي».

وأعقب اللعب دورًا آخر من المستر ملر «المنحوس»، انفجر على أثره غضب السيد البدين وهياجه، فانتبذ من القوم مكانًا قصيًّا، ولبث صامتًا لا ينبس ساعة وسبعًا وعشرين دقيقة، خرج بعدها من معتزله وأقبل على المستر بكوك يعرض عليه عطوسه، بدا كأنما قد قرر في نفسه أن يأخذ بالسماحة المسيحية فيصفح عن المسيئين إليه، ويغفر ما أصابه من أذى، وتبين أن سمع السيدة العجوز قد تحسن يقينًا، وشعر المستر ملر، السيئ الحظ، بأنه قد أخرج من محيطه، كما يخرج الدرفيل فيوضع في مكان ديدبان.

أما اللعبة الأخرى فقد استمرت في مرح وسلام، وكانت إيزابيللا واردل والمستر تراندل «شريكين» وكذلك كانت إميلي واردل والمستر سنودجراس، حتى المستر طبمن أيضًا والعمة العانس، فقد عقدا شركة بينهما من الروغان والملق، وكان المستر واردل الشيخ في أوج ابتهاجه

وأنسه ومرحه، وهو مضحك في تدبير ألعابه ورمي أوراقه، كما كانت السيدات العجائز فطنات ذكيات بعد المكسب، إلى حد جعل المنضدة كلها في قصف مستمر من المرح والضحك، وكانت بينهن سيدة لا تفتأ تخسر، وكان معها في كل مرة ست أوراق أو نحوها، فكان القوم يضحكون في كل دور، ولا يمسكون عن الضحك، وعندما نظرت السيدة العجوز نظرة الغاضبة، من اضطرارها إلى الدفع، ازدادوا هم ضحكًا، حتى أخذ وجهها ينطلق شيئًا فشيئًا، إلى أن راحت أشد منهم ضحكًا من نفسها وأعلى صوتًا، وعندما ألقت العمة العانس ورقتين، كانتا في يدها وهما: «البنت» و«الشايب»، كأنهما صورة «قران»، ضحكت الفتاتان مرة أخرى، وكادت العانس تنزع إلى الغضب، ولكنها شعرت بالمستر طبمن يضغط يدها، من تحت المائدة، فعادت أساريرها تنطلق، وبدت كأنما قد فهمت، كأن «القران» في الواقع لم يكن بعيدًا إلى الحد الذي ظنه بعض الناس وتوهموه، فعاود القوم الضحك، ولا سيما المستر واردل، فقد كانت النكتة تلذه بقدر ما تلذ الشباب، وأما المستر سنودجراس، فلم يفعل شيئًا غير الهمس بعواطف شعرية، في أذن شريكته، مما جعل أحد السادات الشيوخ ينكت تلميحًا، على الشركة في لعب الورق، والشركة في الحياة، فما كان من السيد الشيخ إلا أن أبدى بعض الملاحظات على هذه المقارنة، مصحوبًا بغمزات بالحواجب، وومضات بالفم، جعلت القوم يضحكون كثيرًا، ولا سيما زوجته، وانبرى المستر ونكل يلقي بنكات معروفة في المدن، ولكنها ليست معروفة إطلاقًا في الريف فضحك الجمع لها كثيرًا، وقالوا إنها نكت ظريفة كل الظرف، حتى لقد

شعر المستر ونكل بأنه قد أصاب شرفًا عظيمًا، ومجدًا باذخًا، بينما لبث القسيس الخيّر مسرورًا راضيًا؛ لأن الوجوه المستبشرة التي أحاطت بالمائدة جعلته هو الآخر سعيدًا قرير العين. ولئن جاء الضحك أقرب شيء إلى الصخب، فقد انبعث من القلوب، لا من الشفاه، وهذا هو أفضل المرح وأحسنه حقًّا.

وانقضى المساء سريعًا في تلك الرياضة البهيجة واللهو اللطيف، وبعد أن فرغ القوم من العشاء الدسم، وإن كان من النوع «البيتي»، انتظم الجمع حلقة أنس حول الموقدة، وقال المستر بكوك إنه لم يشعر في حياته يومًا بمثل الهناءة التي شعر بها الآن، ولم يحس من قبل ما يحس الساعة، من الإقبال على الاستمتاع بهذه اللحظات العابرة، والانتفاع بها غاية الانتفاع.

وقال المضيف الكريم، وقد جلس جلسة الأبهة والسلطان، بجانب المقعد الرحيب، الذي جلست فيه السيدة العجوز، ويدها مشتبكة بيده: «هذه هي اللحظة التي أحبها.. إن أسعد اللحظات في حياتي انقضت بجانب هذه الموقدة القديمة، وأنا بها جد مولع، حتى لأحتفظ بالنار مشوبة فيها كل مساء، إلى أن يشتد أوارها فلا يطيق المرء احتمالها.. وإن أمي العجوز هنا قد ألفت الجلوس أمام هذه الموقدة، فوق ذلك الكرسي الصغير الذي اعتادت الجلوس عليه وهي فتاة.. أليس كذلك يا أماه؟».

وكانت الدمعة التي تبادرت إلى عينها، على عودة ذكرى الأيام الخوالي فجأة، ورغد السنين الماضيات، قد تسللت إلى وجهها، وهي

تهز رأسها وتبتسم ابتسامة حزينة.

وواصل رب الدار المضياف حديثه قائلًا، بعد سكون قصير: «إني لأستميحك المعذرة عن حديثي بسبيل هذا المكان القديم، فإنه عليَّ عزيز، ولا أعرف موضعًا سواه.. إن الدور والعقول القديمة لتلوح لي، كأنها أصحاب أحياء لي وأصدقاء، وكذلك كنيستنا الصغيرة، التي أذكر بهذه المناسبة أن صديقنا الفاضل نظم في «لياليها» شعرًا غنائيًا، حين جاء أول مرة، ليقيم بين ظهرانينا، يا سيد سنودجراس، هل بقيت في كأسك قطرات من الشراب؟».

فأجاب المستر سنودجراس: «كثيرة.. وأشكرك..» وكان فضوله الشعري قد هاج في نفسه، عند سماع العبارة الأخيرة، التي فاه بها مضيفه الكريم، فاستتلى يقول: «عفوًا إذا أنا ذكرتك بأن قلت اللحظة شيئًا عن أغنية اللبلاب».

فقال رب الدار وهو يومئ برأسه إيماءة العليم، نحو القسيس: «سل صديقنا الجالس قبالتنا عن أمرها..».

وقال المستر سنودجراس: «هل تأذن لي يا سيدي في مصارحتك أني أود أن أسمعها منك».

وأجاب القس قائلًا: «ولم لا؟.. وإن كانت المسألة صغيرة جدًّا، والعذر الوحيد لي عن اقترافها هو أني كنت في تلك الأيام شابًّا، ومهما يكن من شيء، فإني مسمعك إياها، إذا شئت».

وكان الجواب بالطبع غمغمة فضول وتلهف، وأنشأ السيد الكبير

ينشد، وامرأته تعاجله بالتلقين إذا نسي شيئًا!

قال: لقد سميتها:

## اللبلاب الأخضر

ياللبلاب الأخضر من نبات طيب رقيق، يتسلل إلى كل أثر قديم، وطلل عتيق، ويأبى إلا أن يتخير لطعامه، في محبسه المنفرد المقرور ومقامه، فلا يختار إلا الجدار المنقض، والحجر البالي، لإرضاء أنفته وأوهامه، وأفضل الغذاء لديه الطحلب الذي اصطنعته كرة السنين ودورة الأعوام الخوالي، وإنه ليتسلل إلى حيث لا يرى للحياة أثر. إنه لنبات قديم نادر.. ذلك هـــــو اللبلاب الأخضـــــــــر....

* * *

إنـــــه ليختلس الخطـــــى ســـــــراعًا،
وإن لم يؤت جناحًـــا ولا ذراعًـــــا

ولكن له قلبًا مخلصًا وفيًّا.. ألا تراه كيف يلتف حول صديقته السروة العظيمة، التفافًا قويًّا ويتشبث بها تشبثًا وفيًّا، ويجر على

الأرض أذياله، ماكرًا متلطفًا، ويدع أوراقه تموج في رفق تموجًا، وهو يحتضن فرحًا ويزحف زحفًا، حول الطحلب الوفر، على قبور الموتى الذاهبين، متسللًا إلى حيث الموت الرهيب قد تسلل .. إنه لنبات قديم نادر.. ذلك هو اللبلاب الأخضر

***

أجيال وقرون انقضت، وآثارها بليت وعفيت.. وأمم وشعوب تفرقت وانقرضت، ولكن اللبلاب القوي المعمر لن يذوي إلى الأبد، و لن ينقطع عبقه ولن يتبدد، ونضارته المنبعثة من قلبه وخضرته في تجدد.. وسيسمن هذا النبات الجريء القديم على الماضي وينمو ويشتد، وكل ما يبني الإنسان من قصر منيف، وبنيان باذخ ويشيد سيصبح في النهاية للبلاب طعامًا. وإنه المتسلل على الزمان القائم المستمر.. إنه نبات قديم نادر.. ذلك هو اللبلاب الأخضر..

***

وبينما كان الشيخ يردد هذه الأبيات للمرة الثانية، حتى يتمكن المستر سنودجراس من تدوينها، راح المستر بكوك يتطلع في قسمات وجهه باهتمام بالغ، وما إن فرغ الشيخ من إملائه، وأعاد المستر سنودجراس الكناشة إلى موضعها من جيبه، حتى أنشأ المستر بكوك يقول: «معذرة يا سيدي، إذا أنا أبديت ملاحظة على قصر العهد بتعارفنا، ولكن سيدًا مثلك لا يمكن، في اعتقادي، إلا أن تكون قد مرت عليه عدة مشاهد وأحداث خليقة بالتدوين، في طريق تجاربه، بوصفه خادمًا من خدام الله!».

فأجاب الشيخ قائلًا: «لقد شاهدت شيئًا منها بلا شك. ولكن الحوادث والأشخاص الذين عرفتهم هم من النوع العادي؛ لأن مجال عملي محدود جدًّا».

وانثنى المستر واردل، بدافع الرغبة في إخراجه من صمته، وحمله على الكلام، إرضاء لزائريه الجدد يقول: «إنني أعتقد أنك دونت بعض المشاهدات، ألم تفعل كذلك في أمر جون أدموندز؟».

فأومأ الشيخ قليلًا إيماءة الموافقة، وهم بأن يغير الموضوع، لولا أن بادره المستر بكوك قائلًا: «أستميحك عفوًا يا سيدي إذا أنا اجترأت على سؤالك من يكون جون أدموندز هذا؟».

وابتسم الشيخ مسرورًا راضيًا، و قرب مقعده، كما قرب الآخرون مقاعدهم وتلاصقوا، وكان أسبقهم إلى تقريبها المستر طبمن والسيدة العانس، ولعلها كانت تشكو وخزًا في أذنيها، كما رفعت السيدة العجوز مسمعتها، واستيقظ المستر ملر، وكان قد استولى النعاس عليه في فترة

تلاوة الأبيات، حين أحس وخزة تأنيب من تحت المائدة، وخزه بها الشيخ البدين الرزين الذي كان شريكًا له في لعب الورق.

وبدأ السيد العجوز، بلا مقدمات، يقص القصة التالية التي دعوناها:

## عودة السجين

قال الشيخ: حين جئت لأقيم في هذه القرية، وهو عهد يرجع إلى خمسة وعشرين عامًا خلت، وجدت أن أسوأ الناس فيها سمعة، وشرهم مكانًا، رجل يدعى «أدموندز» كان قد استأجر ضيعة صغيرة بجوار هذا الموضع. وكان امرأ سوء، غليظ القلب، حاد الطبع متبطلًا منحلًا في عاداته، قاسيًا متوحشًا في نزعاته، ولم يكن له من صديق أو صاحب، غير أفراد قليلين من المكاسل والسوقة والمستهترين، جعل يقضي أوقاته معهم متسكعًا في الحقول، أو ماجنًا معربدًا، في الحان، فلم يكن أحد من خلق الله يعني بالكلام مع هذا الرجل، الذي كان قوم كثيرون يخشونه، والجميع يكرهونه، والكل يتحامونه.

وكانت له زوج وولد، كان يبلغ من العمر، أول ما نزلت بهذا الموضع، قرابة اثني عشر عامًا، وليس في وسع إنسان أن يتصور مدى الآلام التي كانت تلك المرأة تعانيها ومبلغ الجلد الرقيق والاحتمال، اللذين تذرعتا بهما، والعذاب المضني الذي قاسته، في تنشئة ذلك الصبي. وليغفر لي الله ظني، إن بعض الظن إثم، وإن كنت على يقين تام في أعماق قلبي، إنه ظل يعمل جاهدًا عدة سنين على كسر قلبها، وتحطيم فؤادها، ولكنها احتملت ذلك كله من أجل ولدها، بل ومن أجله هو كذلك، وإن بدا

هذا القول لقوم كثيرين غريبًا. فقد كانت في يوم من الأيام تحبه، وهو الحيوان البهيم، والجبار القاسي الغاشم عليها، فلا عجب إذا أيقظت ذكرى ماضيه ومبلغ مكانه من قبل في نفسها، مشاعر الرفق به، والصبر عليه، والحلم في معاملته وهي المعذبة المعانية، وهي مشاعر لا يعرفها ولا يتجمل بها من دون خلق الله، غير معاشر النساء.

وكانا فقيرين، بطبيعة الحال، ما دام الرجل سادرًا في غلوائه، ولكن الجهد المستمر الذي كانت تبذله، والعناء الذي كانت تجانبه، بكرة وعشيًا، وصباحًا وظهرًا وليلًا، جعلهما بمنجاة من الحاجة، وجنبهما العوز، ولكنه جازاها على تلك الجهود شر الجزاء، كان الذين يمرون بالموضع عشاء، أو في ساعة واهنة من الليل، يقولون إنهم كانوا يسمعون أنين امرأة في خطبها ونحيبها، وتطرق آذانهم أصوات لكمات وضربات، وحدث أكثر من مرة، أن خرج الغلام بعد منتصف الليل، يدق في رفق باب الجيران، فرارًا من غضب ذلك الوالد الشاذ، أو امتثالًا لأمر أمه، التي خشيت عليه من بطشه.

وكانت تلك المخلوقة المسكينة لا تكف عن الحضور إلى كنيستنا الصغيرة، وكثيرًا ما كانت تلوح عليها آثار القسوة والعذاب، الذي كانت واجدته منه، ولا تستطيع لتلك الآثار إخفاء، فكانت لا تفتأ في كل أحد، صباحًا وأصيلًا، تأتي فتتخذ مجلسًا بعينه، والغلام بجانبها، ولئن كانا يلوحان في ثياب مهلهلة، بل أسوأ مظهرًا من كثير من جيرانهما، الذين هم أقل منهما شأنًا، ودونهما في العيش مكانًا، فقد ظلا أبدًا حريصين على الظهور أمام الناس نظيفين وضاءين، وكان كل امرئ يومئ إيماءة

مودة ويعد كلمة رقيقة حانية للسيدة «أدموندز المسكينة»، وأحيانًا، إذا وقفت لتتبادل بضع كلمات مع جارة لها بعد انتهاء الصلاة، وسط أشجار الدردار المؤدية إلى السقيفة، أو تتخلف قليلًا عن الخارجين، لتلقي نظرة فخار وزهو وحب، على وجه ولدها اليافع، وهو يستبق في صحبته بعض الرفاق الصغار، وقد تهلل وجهها الذي علاه الهم وغمرته الكآبة، بعرفان صادق، وشكر جميل، فكانت تبدو على الأقل هادئة النفس، قانعة راضية، وإن لم تلح مبتهجة سعيدة هانئة..

وانصرفت خمس سنين أو ستًا، فأصبح الغلام شابًا قويًا صلب العود ناميًا، ولكن الزمان الذي أكسب الصبي القوة، وحبا كيانه الواهن بأسًا، وأحال أوصاله الواهبة مفتولة، في قوة الرجولة وأيدها، قد أحنى ظهر أمه، وأضعف من خطاها، ولكن الذراعين اللتين كان أولى بهما أن تسنداها لم تعودا بين أحضانها، ولا مشتبكتين وذراعيها، وذلك الوجه الذي كان أحق به أن يؤنسها في وحشتها، لم يعد ينظر إلى وجهها، فكانت تأتي إلى الكنيسة، فتجلس في مقعدها القديم، وإن ظل المقعد الملاصق خاليًا، ولبث الكتاب المقدس مصونًا لديها، محفوظًا كعهده، والصفحات تنشر بين يديها وتطوي كدأبها، ولكن لم يكن ثم أحد يقرأها معها، فكانت الدموع تتساقط غزارًا سراعًا على الكتاب، وتجعل الكلمات متراقصة أمام عينيها، وظل جيرانها على ما ألفوه، رحماء بها، حناة عليها، ولكنها جعلت ترد على تحياتهم بإشاحة وجهها، ولم تعد تبطئ الخطى بين أشجار الدردار كعادتها، ولم يبق في قرارة نفسها من أمل مداعب لوحي إليها أن السعادة قادمة على الأيام، بل بقيت المرأة المنهكة ترخي قبعتها

على وجهها وتنصرف مهرولة مسرعة.

وهل أحدثك عما كان من أمر ذلك الفتى؟.. إنه لم يعد كلما رجع بخاطره، إلى أيام الطفولة الأولى، التي لا بد من أن تعيها الذاكرة، فيذكر شيئًا من تلك السلسلة المستطيلة من صنوف الحرمان الطائع المختار، الذي كانت تقاسيه أمه من أجله، إلى جانب من المساءة والإهانة، والبطش الذي كانت تحتمله في سبيله، وهل أحدثكم عنه، كيف استخف بفؤادها الكسير، وكيف نسي عامدًا كل ما فعلته وقاسته بسببه، فمضى بصحبة الفاسدين وسيئي السيرة والمنبوذين من الناس، ومضى في غيه لا يبالي، وينحدر إلى الهاوية ولا يعبأ؟ هل هو ملاق في هذا الضلال مصرعه، وجالب العار عليها والشنار بسوء مسلكه؟ وا أسفاه للطبيعة البشرية!! وما أحسبكم إلا عرفتم النتيجة المحتومة، قبل أن أصفها لكم، فقد كادت تلك المرأة الشقية المنكوبة تصل إلى نهاية حدود شقائها وبأسائها، لقد وقعت جرائم كثيرة في هذه الربوع، وظل أمر الجناة مجهولًا، مما زادهم جرأة، وأغراهم بالمعاودة والإمعان، ووقع حادث سطو جسيم يدل على جرأة جناته، فاقتضى الأمر السهر في البحث عنهم، وتشديد مطاردتهم، ولم يكن الجناة يحسبون لهذا التعقب الملح حسابًا، وقد وقعت الشبهة على الفتى إدموندز وثلاثة من أصحابه، فقبض عليه، وحوكم، وحكم عليه بالموت.

وإن الصرخة الموحشة النفاذة، التي ارتفع بها صوت المرأة، فترددت أصداؤها في جنبات ساحة القضاء، حين نطق القاضي بهذا الحكم الرهيب، لترن اللحظة في أذني. وقد ألقت تلك الصيحة المدوية

الرعب في قلب الجاني، وكانت المحاكمة والإدانة والحكم بالموت قد عجزت جميعًا عن إيقاظ ضميره، فلم تلبث الشفتان اللتان ظلتا مطبقتين مرفوعتين في عبسة كظيمة طيلة الجلسة أن رعشتا وانفرجتا على الرغم منه، وارتد وجهه شاحبًا كرماد نار خابية، وتفصد العرق البارد من كل مسامه ورجفت أوصاله القوية، ووقف مترنحًا متمايلًا في القفص لا تحمله ساقاه.

وفي الغشيات الأولى، من أثر ألمها البالغ، وعذابها الشديد، راحت هذه الأم المعذبة تلقي بنفسها جاثية عند قدمي، ضارعة إلى الله من أعماق صدرها، وهو الذي أضفى عليها رحمته في مختلف الخطوب التي اجتازتها، والمحن والأهوال التي مرت بها، أن يخلصها من هذا العالم المليء بالويلات والأحزان، وينقذ حياة ولدها الوحيد.

وأعقب ذلك انفجار في أحزانها، وصراع عنيف أرجو الله أن لا أشهد مثله مرة أخرى فيما بقي من حياتي، وكنت أحس أن قلبها قد تحطم من تلك اللحظة، ولكني لم أكن قد سمعت يومًا منها شكاة، ولا أفلتت أمامي أنات من بين شفتيها.

ولقد كان مشهدًا يستثير الشفقة، منظر تلك المرأة في فناء السجن، تغدو إليه في كل يوم، محاولة في لهفة وحرارة، أن ترقق، بالحب والتوسل والتضرع، قلب ابنها القاسي، وتلين من فؤاده الجمود المتحجر، ولكن محاولتها ذهبت أدراج الرياح، فقد ظل واجمًا عنيدًا لا تتحرك في نفسه خالجة، ولا تجيش في صدره عاطفة، بل إن استبدال حكم الموت ذاته بالنفي أربعة عشر عامًا لم يستطع أن يلين ولو لحظة من قسوته أو يرفق

من غلظته، ولم تلبث روح الاستسلام، وقوة الجلد، التي طالما أعانتها من قبل، وشدت من نفسها الواهنة، أن عجزت عن مقاومة ضعفها، ومغالبة وهنها، فمرضت ولكنها ظلت تجر قدميها المتعثرتين، تاركة فراشها، إلى السجن لتزور ابنها مرة أخرى، وإذا قوتها تخذلها فتهوي إلى الأرض مهدمة لا تستطيع حراكًا.

وكانت القسوة التي كان ذلك الفتى يباهي بها، وعدم مبالاته، قد امتحنا حقًّا، وجربا إلى آخر الحدود، فكاد الانتقام الذي ألقى بجرانه عليه، يذهب بلبه، وانقضى يوم ولم تأت أمه لتزوره، وفات آخر، ولم تقترب منه حتى كان مساء اليوم الثالث، ولم يرها، ولم يبق إلا أربع وعشرين ساعة أخرى، فيفترق عنها، ومن يدري فقد يكون فراق الأبد.. يا ألله! لشد ما عادت إلى خاطره ذكريات الأيام الخوالي التي كان قد نسيها، فراح يقطع الفناء الضيق، ذهوبًا وجيئة بخطى مسرعة، كأن أخبارها ستوافيه سراعًا كلما أسرع في غدوه ورواحه على تلك الصورة، يا ألله.. لشد ما آلمه الإحساس المرير بأنه قد بات وحيدًا مهجورًا، مقطوع الصلة بالدنيا، حين سمع النبأ اليقين، وهو أن أمه، الوالدة التي لم يعرف من أبويه غيرها، مريضة في فراشها، أو من يدري فقد تكون محصورة في سكرات الموت، على مبعدة ميل واحد من الموضع الذي وقف فيه، ولو أنه كان حرًّا طليقًا من الأغلال، لاستطاع في بضع دقائق أن يكون بجانبها، فاندفع نحو باب السجن، وأمسك بقضبانه الحديدية، بكل قوة الاستيئاس، وراح يهزها هزًّا، وهي تعود جامدة مرتدة إلى مكانها، ومضى يلقي بكل قوته على الجدار السميك، كأنما يريد أن يشق لنفسه طريقًا من

خلال هذا الحجر الأصم، ولكن البناء المكين سخر من جيده الضعيف، فوقف يقلب يديه حسرة، ويبكي كالطفل من فرط اليأس.

وحملت مغفرة الأم وبركتها إلى ولدها في السجن، ونقلت إليها وهي في فراشها، أقسامه المغلظة على توبته وندامته وتضرعاته الحارة لها أن تعفو عنه، واستمعت إليه، في إشفاق ورحمة ورثاء له، وهو يصف لي عشرات الوسائل التي سينتهجها ليكفل لها الراحة والمعونة عند عودته، ولكني كنت أعلم أن أمه لن تكون من أهل هذه الدنيا، قبل أن يعود إليها بعد عدة أشهر.

ونقلوه ليلًا، ولم تنقض على نقله بضعة أسابيع، حتى رحلت أمه من هذا العالم، وأرجو موقنًا، وأومن حقًّا، إلى مكان تجد فيه السعادة الأبدية والراحة السرمدية. وقمت بالصلاة على رفاتها، وهي اليوم ترقد في فناء كنيستنا الصغيرة، وليس على قبرها حجر، ولا فوق جدثها من أثر، فقد عرف البشر أحزانها، وعرف الله ما في نفسها من فضيلة وخير.

وكان الاتفاق قد تم قبل نقل السجين على أن يكتب إلى أمه بمجرد الإذن له في مراسلتها، وأن يرسل كتبه إليها بعنواني، وكان أبوه قد رفض بتاتًا أن يرى ابنه، من اللحظة التي أعتقل فيها، وأصبح سواء لديه أبقي حيًّا أم ذهب في الهالكين.

وانصرمت عدة سنين ولم يأتنا عنه نبأ. ولما انقضى أكثر من نصف المدة المحكوم بها عليه، ولم أتلق منه كتابًا، استنتجت من انقطاع أخباره أنه قضى نحبه، بل لقد رجوت أن يكون الموت قد أدركه.

ولكن الواقع أن إدموندز كان قد أرسل إلى موضع قصي من الأرض، عند قدومه إلى مستعمرة السجناء، ولعل هذا هو السبب في أنني لم أتلق منه ولا كتابًا واحدًا، وإن كان قد بعث إليَّ بعدة خطابات. وقد لبث في ذلك الموضع عينه المدة المقررة كلها، وهي أربعة عشر عامًا، ولما انقضت، اتخذ طريقه إلى هذه البلاد وهو ذاكر عزمته القديمة، والميثاق الذي قطعه على نفسه لأمه، ولقي في سفره صعابًا كثيرة، وأهوالًا عدة، حتى عاد ساعيًا على قدميه إلى موطنه.

ففي أصيل يوم أحد جميل، في شهر أغسطس، قدم «جون إدموندز» إلى القرية التي غادرها مجللًا بالعار والشنار قبل ذلك بسبعة عشر عامًا، وكان أقرب طريق إليها يمر بالكنيسة، وما كاد الرجل يجتاز باب فنائها الخشبي حتى هاجت الذكرى في فؤاده، وراحت أشجار «الدردار» القديمة الفارعة، التي ألقت الشمس وهي في المغيب، من خلال أفنائها، ضياء سنيًّا على الدرب الظليل الممتد أمامها، توقظ في نفسه ذكريات أيام طفولته الخالية، فمضى يتمثل نفسه يومًا وهو متشبث بيد أمه، منطلق في سكون معها إلى الكنيسة، وتذكر كيف أن من عادته أن يتطلع إلى وجهها الشاحب، وكيف كانت عيناها تغرورقان أحيانًا بالعبرات، وهي تنظر إلى معالم وجهه، تلك العبرات السخينة التي كانت تساقط على جبينه، وهي تنحني عليه لتقبله، وتستثير دموعه هو كذلك وعبراته، وإن لم يكن يعرف يومئذ مبلغ المرارة التي كانت تختلط بدمعها.. وتذكر كذلك كم مضى يعدو فرحان جذلًا، في هذا الدرب مع بعض اللدات من الصبيان مثله، ملقيًا، بين لحظة وأخرى، عينه إلى الخلف ليلمح بسمة أمه

أو يسمع صوتها الحنون. وسرعان ما أحس كأن ستارًا قد رفع عن ذاكرته فما لبث أن تزاحمت على خاطره مشاهد قسوته، حين كان يتلقى كلمات الرفق والحنان منها بجفوة، ونذرها بسخرية، ووعوده لها بخلف ونكث، حتى لقد أحس في قلبه رجفة بالغة، فلم يعد يستطيع احتمالًا ولا تجلدًا..

ودخل الكنيسة، وكانت صلوات المساء قد انتهت، والمصلون قد انصرفوا، ولكن الأبواب لا تزال مفتحة، فكانت خطواته، وهو يمشي في جنباتها، تتردد أصداؤها جوفاء غريبة الوقع، حتى لقد أوجس خيفة أن رأى نفسه بمفرده، وأحس السكون البالغ من حوله، فأدار في المكان عينه، فتبين له أنه لا يزال على قديم عهده. لم يعتره تحول ولا تبدل، وإن بدا أصغر مما كان يألفه، ولكن ها هي ذي التماثيل القديمة، التي طالما تطلع إليها بتلك الرهبة الصبيانية ألوف المرات، وها هو ذا المنبر الصغير، بوسادته الناحلة اللون، ومائدة العشاء الرباني التي طالما وقف أمامها ليردد «الوصايا» التي كان يجلها وهو صبي، وقد نسيها وهو رجل، ومضى يقترب من المقعد القديم، فبدا له باردًا مهجورًا، وكانت الوسادة قد أزيلت عنه، ولم يجد الكتاب المقدس في موضعه، فقال في نفسه لعل أمه اليوم تتخذ مقعدًا أقل شأنًا، أو نراها وقد وهن العظم منها، فلم تعد تقوى على المجيء إلى الكنيسة وحدها، ولم يجرؤ على التفكير فيما كان منه متوجسًا، وسرت برودة في أنحاء نفسه، ورجفة شديدة في كيانه، فأشاح ببصره موليًا، وكان شيخ كبير قد دخل السقيفة في اللحظة التي وصل فيها، فأجفل إدموندز متراجعًا، فقد عرفه حق المعرفة، ولطالما شهده وهو يحفر القبور في مقبرة الكنيسة.. وتساءل خاطره ماذا عسى أن

يقوله هذا الرجل للسجين العائد؟

ورفع الشيخ عينيه ليتأمل وجه هذا الغريب وحياه بقوله: «طاب مساؤك»، وانطلق بخطى وئيدة، وقد نسيه ولم يعرف من هو.

ومضى يهبط التل ويمشي في مناكب القرية. وكان الجو صائفًا، والناس جلوسًا على أبواب دورهم، أو متمشين في بساتينها الصغيرة وهو يمر عليهم، وقد راقتهم هدأة الأصيل، والاستجمام من كفاح النهار وكده. وكم من نظرات اتجهت صوبه، وكم من لمحات متشككة مستريبة ألفاها على جانبي الطريق؛ ليرى هل أحد من الناس عرفه فتحاماه، فقد رأى وجوهًا غريبة عليه في كل بيت، وتبين في بعضها أشكالًا تقرب من أشكال لدات له في المدرسة ورفاق.. رأى صبيًّا منذ آخر عهده به، قد أصبح رجلًا يحيط به جمع من أولاد له وهم في مرح وقصف، وشهد في بيوت أخرى شيخًا واهنًا محطومًا، يجلس في مقعد رحيب بباب كوخ، تذكر أنه كان يومئذ عاملًا ممزاحًا طروبًا، ولكن القوم جميعًا قد نسوه، فمضى في طريقه مجهولًا لا يعرفه أحد.

وكانت آخر خيوط الشمس في المغيب قد سقطت على الأرض، ملقية شفقًا أحمر على سنابل القمح الصفر، ومطيلة خلال الأشجار في البساتين، حين وقف قبالة بيتهم القديم، مهد طفولته، ذلك البيت الذي طالما حن إليه فؤاده، وأحس له حبًّا بالغًا لا يوصف، خلال أعوام سجنه الطوال، وفترة أحزانه المبرحة، وكان السور خفيضًا، وإن تذكر الأيام التي كان يبدو فيها جدارًا شاهقًا في عينه، وأطل على البستان القديم، فوجد فيه من البذور والأزاهر، أكثر مما كان من قبل يألفه، ورأى الأشجار

القديمة كما هي، وشهد الشجرة ذاتها التي رقد تحتها ألف مرة، كلما شعر بتعب من اللعب والرتع في الشمس، والتي كان يحس تحت وارف ظلها دبيب النوم في طفولته السعيدة يدب رفيقًا إلى معاقد أجفانه. وطرقت أذنيه أصوات منبعثة من عقر الدار، فأصغى إليها، ولكنها وقعت غريبة في مسمعه، ولم يعرفها، فقد كانت أصواتًا مرحة، وكان يعلم حق العلم أن أمه العجوز المسكينة لا يمكن أن تكون مرحة، وهو عنها النائي المغترب.

وفتح الباب، فوثبت من خلاله مجموعة من الأطفال الصغار صارخين قافزين، وظهر الأب يحمل طفلًا صغيرًا بين ذراعيه فأحاطوا جميعًا به، مصفقين بأيديهم الدقيقة مجتذبيه إليهم ليشاركهم في ألعابهم ومراتعهم. فما لبث السجين أن تذكر كيف كان ينزوي رعبًا من مشهد أبيه في ذلك المكان بالذات، وكيف كان يدفن رأسه الراجف تحت اللحاف، وكم سمع الكلمة الخشنة منه، وذاق «العلقة الساخنة» من كفه، وولولة أمه الحدبة الرءوم عليه، فأجهش الرجل بالبكاء من شدة الألم الذي اعتلج في خاطره، وهو منصرف من الموضع، ولكنه مضى في طريقه جامعًا قبضة يده، صارفًا بأسنانًا، تغمر صدره عاطفة موحشة قاتلة.

وكذلك كانت الرجعة التي تمثلها في عدة السنين الخاليات والتي من أجلها قاسى الأهوال، وعانى أشد صنوف العذاب، لا وجه يرحب به، ولا نظرة صفح وغفران تطالعه، ولا بيت يتلقاه، ولا يد تتقدم إليه بعون.. وذلك كله في القرية القديمة التي نشأ فيها، والبلد الذي درج على أرضه صغيرًا. إن عزلته في الغابات والآجام، حيث لا يرى إنسانًا ولا يلم ببشر،

لأهون والله من هذا وأخف وقعًا..

ولقد تذكر كيف كان وهو في تلك الأرض القصية، التي قضى فيها عهد عبوديته، وعاره، وشناره، يتمثل مسقط رأسه كما تركه، لا كما سوف يبدو عند مآبه، فلم تلبث هذه الحقيقة المرة أن نزلت باردة جامدة على فؤاده، وأمسكت بكفها الباردة بقلبه، وأحس روحه تهوي في أعماقه، فلم يجد في نفسه شجاعة تغريه بسؤال الناس عما صنع الله بأهله، أو تحمله على التقدم إلى الإنسان، الوحيد الذي يحتمل أن يتلقاه بحنان ورحمة، بل مضى يمشي مبطئ الخطى، متحاميًا عدوة الطريق، كالمجرم الأثيم، وعرج على بعض المروج التي كان يعرفها حق المعرفة، وراح يتهالك على الحشائش، دافنًا وجهه في راحتيه.

ولم يفطن عندئذ إلى رجل كان راقدًا فوق الجسر غير بعيد، إن كان هذا قد شعر به، فاستدار ليختلس نظرة إلى هذا الطارئ الغريب، فأحدثت ثيابه حفيفًا، فانتبه إدموندز من غشيته، ورفع رأسه ليتبين ما سر هذا الحفيف وباعثه.

وكان الرجل الآخر قد استوى جالسًا فوق الثرى، وقد بدا كأنه مقوسًا، ووجهه مغضنًا، ولونه أبهر شاحبًا، ويوحي لباسه بأنه من العاملين الكادحين في الأرض، ويدل مظهره على أنه قد بلغ من الكبر عتيًا، وإن لاح عليه أن الشيخوخة التي أدركته كانت من أثر الإسراف على نفسه، واصطلاح السقام عليه، لا من مطال العمر، وتقادم السنين.

ولبث يحملق البصر في ذلك الطارئ الغريب، وإن كان بريق عينيه قد خبا، وجفناه متثاقلين خلال النظرة الأولى، فما عتمتا أن أبرقتا،

وخطف عليهما وميض غير طبيعي، ونظر مروع رهيب، بعد أن استقرتا على ذلك الوجه الغريب القائم حياله، كأنما توشك عيناه أن تخرجا من محجريهما.

وانثنى إدموندز يتحامل شيئًا فشيئًا ليستوي على ساقيه، ويطيل النظر في وجه ذلك الشيخ المهدم، وإذا الرجلان يتبادلان النظرات في صمت مستطيل.

وبدا الشيخ شاحبًا في مثل شحوب الموتى، وأخذته رجفة راجفة، وترنح حتى استوى على قدميه، كما وثب إدموندز من مكانه وتراجع خطوة أو خطوتين، ثم دنا من الشيخ.

قال بصوت متهدج متقطع: «دعني أسمع منك قولًا..».

ولكن الشيخ المهدم صاح به، ساخطًا ناهرًا: «اغرب عني!».

وعاد السجين يدنو منه ويقترب.

وانثنى الشيخ يصرخ: «اغرب عني!» واشتد به الرعب فرفع عصاه، وضرب إدموندز بها ضربة شديدة على وجهه.

وغمغم السجين قائلًا وهو يصرف بأسنانه: «أبي.. أيها الشيطان!» واندفع هائجًا وأمسك الشيخ من عنقه، ولكنه كان أباه، فما لبثت ذراعه أن تراخت إلى جنبه عاجزة لا حراك بها.

وأما الشيخ فقد أرسل صيحة عالية تردد صداها في الحقول الساكنة كأنها زمجرة مارد رجيم، وارتد وجهه مسودًا، وانبجس الدم من فمه وأنفه، فلطخ العشب بحمرة قاتمة، وترنح الشيخ ثم هوى.. فقد انفجر

شريان فيه، وأدركه الموت قبل أن يتقدم ابنه إليه ليرفعه.

وسكت السيد الكبير لحظات وعاد يقول: «وفي ذلك الركن من فناء الكنيسة، ذلك الركن الذي تحدثت عنه، يرقد رجل قضى ثلاث سنين في خدمتي عقب ذلك الحادث، ظل خلالها سحيق القلب، تائبًا، نادمًا، خاشعًا كل الخشوع الذي يتسنى لأحد من البشر الإخلاد إليه، و ما عرف أحد سواي خلال السنين التي قضاها قبل أن يوافيه الموت من يكون ذلك الرجل، ومن أين أتى.. لقد كان جون إدموندز.. السجين العائد!

* * *

# الفصل السابع

**كيف رأينا المستر ونكل، بدلًا من أن يسدد الرماية إلى الحمامة ويقتل الغراب، سدده إلى الغراب، وجرح الحمامة، وكيف تبارى فريق نادي الكريكت في «دنجلي ديل» مع فريق «ماجلتون» وكيف تناول هذا الفريق طعام العشاء، على مائدة رب الضيعة في دنجلي ديل. وشؤون طريفة طلية أخرى**

واصطلحت متاعب النهار أو أثر القصة، التي قصها القسيس ومفعولها المنوم، على معاقد أجفان المستر بكوك ولهفته على النعاس، فلم تكد تنقضي بضع دقائق على اقتياده إلى حجرة نومه المريحة، حتى هبط في سبات عميق، لا أحلام فيه، ولم يوقظه منه إلا شمس الصباح، وقد نفذت بأشعتها الباهرة في جوانب المخدع، كأنما تعتب عليه طول المكث في سريره، ولم يكن السيد بكوك بالرجل المكسال المتبلد، فما عتم أن وثب من فراشه وثبة جندي محارب، متحمس للقتال من جوف خيمته.

وغمغم ذلكم السيد المتحمس، وهو يفتح باب الشرفة المتشابك قائلًا، وهو يرسل تنهدًا مستطيلًا: «ريف جميل.. ريف جميل.. منذا يطيق العيش في بلد لا يشهد فيه كل يوم غير الطوب والقرميد، بعد أن أحس سلطان مشهد كهذا وأثره في نفسه، ومنذا الذي يحتمل الحياة في موضع لا أبقار فيه غير الأبقار المرسومة على غطاء المدخنة، ولا شيء فيه من عطر إله الرعاة، غير رائحة الآجر، ولا إنتاج فيه غير الحجر.. ومنذا الذي يحتمل أن يحيا تلك الحياة السقيمة في موضع كهذا؟ إنني أسأل، منذا الذي يطيقها، لعمري، ومنذا يحتملها؟».

وبعد طول التساؤل والمناجاة بينه وبين خاطره، على هذا النحو، راح السيد بكوك يخرج رأسه، من خلال الباب المتشابك الأجزاء، ويجيل البصر فيما حوله.

وتصاعدت رائحة الدريس الزكية الحلوة، إلى شرفة حجرته، وتأرج الفضاء المترامي حوله، بأنفاس الزهر وشذى الشجر الفواح، في البساتين القائمة من تحته، ولمعت المروج النضر بندى الصباح المتلألئ على أوراق الأفنان، وهي تتثنى وتتمايل في الهواء العليل، والأطيار تشدو، كأن كل قطرة براقة من قطر الندى فوارة تبعث الوحي، وتدفع الإلهام، فتصدح وتغني، فلم يلبث المستر بكوك أن ذهب في حلم فاتن، وخيال ممتع بديع، لم يوقظه منه غير صوت ينادي «من هنا؟».

فنظر عن يمينه، فلم ير أحدًا، وتلفت عن شماله وأرسل بصره يشق الفضاء، ورفعه إلى السماء، ولكنه لم يكن مطلوبًا فيها، وعندئذ فعل ما يفعله كل إنسان في الحال.. نظر إلى الحديقة، فإذا هو يبصر السيد واردل.

وبادره هذا السيد الخفيف الروح، في لهفة المتعجل اللذة، المرتقب للمتع، قائلًا: «كيف أنت؟ إنه لصباح جميل.. يسرني أنك قد بكرت من فراشك هذا البكور.. هيا انزل إلينا، وعجل فإني هنا مرتقبك..».

ولم يكن المستر بكوك بحاجة إلى دعوة أخرى، فلم يستغرق إصلاح بزته غير عشر دقائق، وإذا هو قد وافى السيد واردل ووقف بجانبه.

قال بدوره لمضيفه: «هاأنذا.. ماذا وراءك؟» وقد رآه مسلحًا ببندقية، وشهد أخرى ملقاة على الحشائش.

وأجابه مضيفه قائلًا: «إنني وصاحبك خارجان لصيد الطيور، قبل أن يحين موعد الفطور، إنه حسن الرماية جدًّا.. أليس كذلك؟».

وقال المستر بكوك: «لقد سمعته يقول إنه الماهر الحاذق، ولكني لم أره يومًا يسدد الرماية إلى شيء».

وعاد المضيف يقول: «حسنًا، أود لو يأتي معي.. جو.. جو..!».

وإذا الغلام البدين يخرج من البيت، وهو من أثر هياج الصباح وكثرة حركته، يبدو أكثر من ثلاثة أرباع نائم..!

قال السيد الكبير لغلامه: «اصعد وناد السيد، وقل له إنه سيجدني أنا والمستر بكوك في مألف الطير.. وأر السيد الطريق إليها، هل أنت سامع؟».

وانصرف الغلام لتنفيذ الأمر، بينما حمل المضيف البندقيتين كأنه روبنسون كروزو آخر، وسار في المقدمة ليهدي صاحبه إلى الطريق.

وبعد أن سار بضع لحظات في طريق تقوم الأشجار على حفافيه،

وقف عن المسير قائلًا:

«هذا هو الموضع».

ولم يكن المستر بكوك بحاجة إلى من ينبئه، لأن نعيق الغربان المستمر كان كافيًا للتدليل على المكان المقصود.

وألقى الشيخ بندقية فوق الثرى، وحشا الأخرى.

وانثنى المستر بكوك يقول: «ها هم أولاء». وفيما كان يقول ذلك، بدت أشباح المستر طبمن والمستر سنودجراس والمستر ونكل من مكان بعيد، ذلك أن الغلام البدين لم يكن متحققًا أي السادات هو المطلوب، فعمد بذكائه الخاص، ومنعًا للوقوع في خطأ، إلى دعوتهم جميعًا.

وصاح الشيخ بالسيد ونكل مناديًا: «أقبل.. إن راميًا حاذقًا مثلك كان أجدر به أن يستيقظ من وقت طويل حتى ولو من أجل عمل يسير كهذا».

فأجاب السيد ونكل بابتسامة مصطنعة، وتناول البندقية الأخرى، وقد بدا على وجهه من الأثر والتعبير، ما نحسب الغداف[1] الملهم، المتطير، الشاعر بدنو الموت، رميًا بالرصاص إلا موجسًا من دلالته، مشفقًا من معانيه. ومن الجائز أن يكون ما بدا على وجهه دليلًا على الحذق ومضاء العزيمة، ولكن الظاهر الغالب أنه يرجع إلى الألم والحيرة والارتباك.

وأومأ الشيخ برأسه، فبادر غلامان مهلهلا الثياب كانا قد أقيما في هذا الموضع تحت إشراف الصبي «لامبرت» إلى التسلق فوق شجرتين.

عندئذ راح السيد بكوك يسأل مضيفه: «ما شأن هذين الغلامين؟».

---

(١) الغداف: نوع من الطير.

فقد أحس شيئًا من الجزع، لأنه اعتقد أن سوء أحوال الفلاحين والعاملين في الأرض، كما سمع من قبل الشيء الكثير عنها، ربما أرغمت هذين الغلامين الصغيرين، على كسب قوتهما من عمل خطر محفوف بالمكاره، وهو أن يجعلا من نفسيهما هدفًا لصيادين غير خبيرين بالرماية.

وأجاب السيد واردل ضاحكًا: «لا لشيء غير بدء الصيد».

وعاد السيد بكوك يقول مبهوتًا: «لأي شيء تقول؟».

قال بصراحة: «لتخويف طيور الغداف».

قال: «أهذا كل ما في الأمر؟».

قال: «هل اقتنعت؟».

أجاب: «كل الاقتناع».

واستتلى المضيف يقول: «حسنًا جدًّا.. هل أبتدئ؟».

وقال السيد ونكل، وقد سره أن يعطى أي مهلة يسترد فيها أنفاسه، ويستعيد جأشه: «تفضل».

قال: «قف جانبًا إذن.. والآن..».

وفي هذه اللحظة صرخ الغلامان وهزا فرعًا يحوي وكرًا، فإذا ستة غربان صغار، كانت في حديث عنيف، قد طارت لترى ما الخطب، فعمد الشيخ إلى إطلاق النار ردًّا عليها، وبمثابة جواب، فسقط أحدها، وطارت الأخرى هاربة.

وقال الشيخ لغلامه: «احمله يا جو!».

وخطفت على وجه الغلام ابتسامة وهو يتقدم ليحمله وقد تمثلت له صور الفطير المحشو بلحم الغداف، ومرقت رسومها في خياله، وضحك وهو بالغداف عائد، فقد وجده سمينًا ممتلئًا.

والتفت الشيخ إلى المستر ونكل، وهو يعيد حشو قذيفته وقال: «الآن هلم يا مستر ونكل».

وتقدم هذا فسدد بندقيته، وبادر المستر بكوك وأصحابه إلى التراجع بغير إرادة؛ تجنبًا لأي أذى قد يمسهم، من تساقط طيور الغداف وتناثرها من حولهم، فقد كانوا على يقين من كثرة صرعاها برصاص صاحبهم المدمر.

وساد سكون رهيب.. وتلته صيحة.. وأعقب الصيحة رفيف أجنحة.. ثم تكتكة خافة.

وصاح الشيخ: «هيا!».

وسأل السيد بكوك صاحبه قائلًا: «ألم تخرج الرصاصة؟».

وأجاب السيد ونكل وهو شاحب الوجه، والغالب أن يكون مرد شحوبه إلى الخيبة: «الطلقة خابت!».

وبادر الشيخ إلى البندقية فتناولها وهو يقول: «هذا غريب!! فما عرفت من قبل أن بندقية منها تكذب.. يا للعجب!!.. ما لي لا أرى للظرف أثرًا؟».

وعاد المستر ونكل يقول: «ويحي.. لقد نسيت الظرف».

وأصلح هذا الخطأ اليسير، وعاد المستر بكوك يقبع تحاميًا للخطر، وتقدم المستر ونكل بخطوة عزم وتصميم، ووقف المستر طبمن خلف شجرة، يطل من ورائها، وأرسل الغلام صيحة، فطارت أربعة غربان، فأطلق المستر ونكل عليها النار، وإذا بصيحة تنبعث، كأنها صيحة إنسان، لا صرخة غراب، وهي صرخة ألم جثماني.. وتبين أن المستر طبمن قد أنقذ أرواح عدد لا يحصى من الأطيار البريئة الوادعة، بتلقي جزء من الطلقة في ذراعه اليسرى.

وليس من الهين أن نصف مبلغ الاضطراب، الذي أدى إليه هذا الحادث، والارتباك الشديد الذي أعقبه، وكيف انثنى السيد بكوك، في بوادر انفعاله يصيح بالسيد ونكل: «يا لك من شقي!» وكيف استلقى المستر طبمن فوق الثرى، وكيف جثا السيد ونكل، مروعًا فزعًا بجانبه، وكيف مضى المستر طبمن، وهو لا يعي، ينادي باسم سيدة، وكيف فتح أولًا إحدى عينيه، ثم عاد ففتح الأخرى، ورجع فأغمضهما معًا.. نقول إن وصف ذلك كله تفصيلًا لا يقل مشقة وتعذرًا عن شرح ما تلاه، وكيف أخذ الجريح السيئ الحظ يفيق رويدًا من غشيته، وكيف ضمدت ذراعه بالمناديل، وحمل على فترات، مسنودًا إلى أذرع أصحابه المشفقين عليه، كلما مضوا به عادوا فتمهلوا قبل استئناف المسير.

وحين اقتربوا من البيت، كانت السيدات في الحديقة ينتظرن وصولهم، ويرتقبن الفطور، وظهرت السيدة العانس فابتسمت وأشارت إليهم بأن يسرعوا، وتبين أنها لم تكن تعرف ما جرى.. لها الله..! إن الجهل قد يكون أحيانًا نعمة.. أي نعمة..

وتدانوا.. وانثنت إيزابيللا واردل تسأل قائلة: «ما الذي حدث للشيخ الكبير؟» ولكن العمة العانس لم تعبأ بهذا السؤال، وحسبت المستر بكوك هو المراد به، وكان المستر طبمن في تقديرها لا يزال فتى في نضارة الشباب، فقد كانت تنظر إلى سنه من خلال منظار مصغر!

وصاح المضيف الشيخ، مشفقًا من إزعاج ابنتيه: «لا تخفن».

وكان القوم قد ازدحموا حول المستر طبمن وأحاطوا به، فلم يتبين لهن حقيقة الحادث، ولم يعرفن مداه.

وعاد الشيخ يقول: «ما الخطب؟».

وصاح النساء: «ما الخطب؟».

قال: «إن المستر طبمن أصيب في حادث بسيط.. هذا هو كل ما في الأمر..».

وما إن سمعت العمة العانس هذا القول، حتى أطلقت صرخة تشق الفضاء، وانطلقت في ضحكات «هستيرية».

وسقطت في أحضان ابنتي أخيها.

وقال الشيخ: «ارششن قليلًا من الماء على وجهها..».

وغمغمت العانس تقول: «لا.. كلا.. إنني بخير الآن.. بيلا.. إميلي.. هيا ادعوا طبيبًا. أهو جريح؟ أهو ميت؟ هل هو.. ها ها ها؟ وأصابتها النوبة رقم ٢، فعادت إلى ضحكها «الهستيري» الذي كانت الصرخات المولولة تتخلله.

وهنا قال المستر طبمن، وهو من فرط تأثره لا يكاد يمسك دموعه،

حين شهد هذا العطف عليه وهو في ألمه: «هدئي روعك يا سيدتي العزيزة.. هدئي روعك».

وعندئذ صاحت العمة العانس، وقد انتابتها النوبة رقم ٣، تقول: «هذا صوته!».

وعاد المستر طبمن يقول لها مواسيًا: «لا تنفعلي هكذا يا سيدتي العزيزة ولا تضطربي، أتوسل إليك.. أؤكد لك أن الجرح يسير..».

وصاحت السيدة المتشنجة: «لم تمت إذن.. قل إنك لم تمت!».

وفي هذه اللحظة تدخل المستر واردل، في خشونة لا تتفق وهذا المشهد الشعري، قائلًا: «كفى حمقًا يا راشيل! ما الفائدة بالله عليك من قولك له إنه لم يمت؟».

وقال المستر طبمن: «كلا.. كلا.. أنا لم أمت، ولكني لست بحاجة إلى معونة أحد سواك.. دعيني أستند إلى ذراعك»، ومضى يهمس لها: «أواه يا آنسة راشيل..!» فدنت المرأة المضطربة منه، ومدت نحوه ذراعها.

ودخل القوم قاعة الفطور، ومد المستر طبمن يده، فرفع كفها برفق إلى شفتيه، وتهالك على الأريكة.

وسألته راشيل في لهفة: «هل أغمى عليك؟».

قال: «كلا.. لا شيء.. لن ألبث أن أفيق».

وأغمض عينيه.

وغمغمت العانس تقول، ولما يمض على إغماضه أكثر من ثوان

معدودات: «لقد تولاه النوم.. عزيزي.. عزيزي يا مستر طبمن».

وإذا السيد طبمن يثب من مكانه صائحًا: «أواه.. أعيدي على سمعي تلك الكلمات مرة أخرى..».

فأجفلت السيدة، وقالت وقد استولى عليها الحياء: «وهل سمعتها حقًّا؟».

قال: «نعم.. سمعتها.. هلا رددتها.. إن كنت تريدين أن أفيق فأعيديها على مسمعي».

قالت: «صه!.. أخي قادم!».

وعاد المستر طبمن إلى استلقائه، ودخل السيد واردل، مصطحبًا طبيبًا.

وفحص الطبيب الذراع، وضمد الجرح وأعلن أنه يسير لا يذكر، فاطمأنت الخواطر، وهدأت النفوس، وشرع القوم في إشباع شهواتهم إلى الطعام، وعادت أمارات الغبطة إلى وجوههم إلا السيد بكوك، فقد لزم الصمت، وبدت الشكوك والريب تلوح على محياه، فقد زعزع هذا الحادث في نفسه الثقة بالمستر ونكل، إلى حد كبير.

والتفت المستر واردل إلى هذا الصياد البارع فسأله قائلًا: «هل تعرف الكريكت؟».

ولو أن المستر ونكل سئل في أي وقت آخر هذا السؤال، لكان رده بالإيجاب، ولكنه أحس بدقة الموقف، فقال في استحياء وتواضع: «كلا».

وأنشأ المستر سنودجراس يسأل رب البيت: «هل تلعب الكريكت يا سيدي؟».

قال: «كنت فترة من الدهر، ولكني أهملتها اليوم.. وأنا مشترك في النادي هنا، ولكني لا ألعب».

وقال المستر بكوك: «أعتقد أن المباراة الكبرى ستقام اليوم».

وأجاب رب الدار: «أجل.. وتحب طبعًا أن تشهدها».

فقال المستر بكوك: «إني ليبهجني يا سيدي أن أشهد أي ألعاب يمارسها الناس في أمان، ولا تتعرض فيها حياة البشر للخطر من عجز غير البارعين فيها، الذين لم يحذقوها».

وتمهل المستر بكوك ونظر إلى المستر ونكل طويلًا، فانزوى هذا من نظرة زعيمه المتفحصة، واسترد ذلك الرجل العظيم عينيه بعد بضع دقائق، وأضاف يقول: «هل من شفيع يشفع لتركنا صديقنا الجريح لعناية السيدات؟».

وقال المستر طبمن: «لستم تاركي لرعاية أفضل من هذه وأجدى».

وقال المستر سنودجراس: «حقًّا إن هذا لمتعذر».

وكذلك تم الاتفاق، على أن يبقى المستر طبمن في الدار، برعاية السيدات، وأن يذهب الباقون من الأضياف، بقيادة المستر واردل، إلى الموضع الذي ستقام فيها هذه المباراة، التي أثارت أهل ماجلتون من سكونهم، وهاجت حماسة «دنجلي ديل» وحميتها..

وفي الطريق، والمسافة لا تعدو أكثر من ميلين، خلال دروب

ظليلة، ومسالك مقفرة، عطفت أحاديث القوم على المشاهد البهيجة، التي أحاطت بهم من كل ناحية، حتى لقد كاد المستر بكوك يأسف بعد اجتياز هذا الطريق، على أنهم وصلوا إلى الطريق الرئيس الذي يشق بلدة «ماجلتون».

ولا يجهل أحد أوتيت عبقريته ميلًا إلى علم تخطيط الأرض، أن «ماجلتون» بلدة ذات شخصية معنوية، ولها عمدة ومشايخ وأعضاء مجلس قروي، وكل من يطلع على عناوين كبارها، من العمدة إلى الأعضاء، أو من الأعضاء إلى العمدة، أو منهما معًا إلى الهيئة العامة، أو من هؤلاء الثلاثة إلى البرلمان، يتبين منها ما كان أولى أن يتبينه من قبل، وهو أن ماجلتون قرية قديمة مخلصة، جمعت بين الحماسة الصادقة لتعاليم المسيحية وبين التفاني في المحافظة على الحقوق التجارية، بدليل أن العمدة والمجلس وغيرهما من السكان قدموا في أوقات مختلفة، لا أقل من ألف وأربعمائة وعشرين معروضَ احتجاجٍ على استمرار النخاسة والرق في الخارج، ومثل هذا العدد من المعروضات يحتجون فيها على التدخل في نظام المصانع في البلاد، وثمانية وستين معروضًا أخرى، يؤيدون فيها بيع المأكولات في الكنيسة، وثمانين وستة معروضات، يلتمسون فيها إلغاء البيع والشراء في الطريق، أيام الآحاد.

ووقف المستر بكوك في الشارع الأكبر، في هذه البلدة المجيدة، وألقى نظرة فضول مختلط باهتمام، على الأشياء المحيطة به، فرأى ساحة خصصت للسوق، وفي وسطها فندق كبير، علقت لافتة على واجهته، تمثل صورة شائقة في عالم الفن، وإن ندر وجودها في دنيا

الطبيعة، ونعني بها صورة أسد أزرق، ارتفعت منه ثلاث سيقان مقوسة في الفضاء وهو متوازن على الطرف الأقصى، من المخلب الأوسط من قدمه الرابعة، وعلى مدى البصر، رأى دكان دلال ومكتبًا للمطافئ، وسمسار غلال، ودكان تاجر قماش وحانوت «سراج» ومعمل خمر، ثم دكان بقال ودكان بيطار، وكان الأخير أيضًا يبيع القلانس والقبعات والثياب والمظلات، المصنوعة من القطن، ويقدم المعلومات المختلفة لمن يشاء، وألمت عيناه كذلك ببيت مقام من الآجر الأحمر، له فناء مرصوف صغير في مقدمه، لا يشق على أحد أن يعرف أنه بيت المحامي، وبيت آخر مبني من الآجر ذاته، وله شباك من حصير، ولوح نحاسي كبير على بابه، كتب عليه بخط مقروء واضح أنه بيت الطبيب، وكان بضعة غلمان في طريقهم إلى ملعب «الكريكت» وتاجران أو ثلاثة تجار قد وقفوا بأبواب حوانيتهم، وهم يلوحون كأنهم يودون أن يتخذوا الطريق هم كذلك إلى الملعب، وكان من الجائز كل الجواز أن يفعلوا، دون أن يفقدوا كثيرًا من البيعاء، أو تفوتهم فرص البيع.

وقف المستر بكوك لحظة، يجيل العين في هذه المشاهد؛ لكي يدونها في فرصة مؤاتية، ولكنه عاد يلاحق أصحابه، وكانوا قد انحرفوا عن الطريق العام، وأصبحوا على مقربة من ميدان المباراة.

وكانت «الشبكات» منصوبة، كما أقيم سرادقان، يستريح فيهما أفراد الفريقين المتباريين، ويتناولون فيهما المرطبات. ولم يكن اللعب قد بدأ بعد، ووقف اثنان أو ثلاثة، من لاعبي فريق «دنجلي ديل» وفريق «ماجلتون» يتلهون ويتسلون في وقار وجلال، بإلقاء الكرة في استخفاف

ظاهر، من يد إلى يد أخرى، بينما كان عدة سادات آخرين، مرتدين الزي ذاته، في قبعات من القش، وقمصان من «الفانللا»، وسراويل بيض، وهو زيّ بدوا فيه أشبه ببناءين من الهواة، متفرقين حول الخيام، فتقدم المستر واردل بالقوم، إلى خيمة منها، وإذا بعشرات من تحيات «وكيف الحال؟» تستقبل ذلك الشيخ الكبير، وإذا بالقبعات القش ترتفع للسلام عليه، والانحناءات تطالعه من اللاعبين ذوي القمصان، بعد أن تولى تعريف الجميع بأضيافه قائلًا إنهم سادات قادمون من لندن، يتلهفون على مشاهدة مباراة اليوم، التي لا يخامره الشك، في أنها ستكون مبعث غبطة بالغة.

وأنشأ سيد ضخم بدا جسمه وساقاه أشبه بنصف لفة ضخمة من الأصواف، مرفوعة فوق مخدتين منفوختين، يقول: «أظن الأوفق يا سيدي أن تدخل السرادق».

وقال آخر يشبه كثيرًا النصف الثاني من اللفة السالفة الذكر: «ستجد الجلوس في السرادق أوفق وأريح كثيرًا يا سيدي».

فأجاب المستر بكوك قائلًا: «إنك لكريم يا سيدي».

وقال الأول: «من هنا يا سيدي. هنا الدرجة الأولى، وهي أفضل مكان في الملعب كله».

وتقدمهم وهو يلهث من فرط البدانة، إلى الخيمة التي أشار إليها.

وتتابع على سمع المستر بكوك عند دخوله السرادق قول القائلين: «مباراة باهرة.. لعب بديع.. رياضة رائعة جدًّا..». وكان أول شيء طالع

عينيه، منظر صاحبه ذي الثوب الأخضر، الذي رافقهم في المركبة إلى روشستر، وقد وقف يهتف، وسط مظاهر بالغة من السرور والاغتباط، غمرا حلقة مختارة من صفوة أهل ماجلتون وساداتها، وكان هندامه قد تحسن قليلًا، وكان ينتعل حذاء، ولكنه هو بعينه، لا شك فيه ولا ريب.

وعرف الغريب أصحابه في الحال؛ فاندفع نحوهم، وتناول يد المستر بكوك، ومشى به إلى أحد المقاعد بذلك التهور المألوف منه، وهو لا يكف عن الكلام، كأنه المشرف على المكان كله، المدبر المنظم لكل شيء فيه.

وطفق يقول: «من هنا.. من هنا.. تسلية ممتعة.. جعة موفورة.. دنان ملأى منها.. أكوام من اللحم.. لحم العجول.. توابل ومشهيات.. حمل مركبات منها.. يوم عظيم.. اجلس.. ابتهج يا رجل واشعر بأنس، كأنك في بيتك.. مسرور للقائك جد السرور..».

وجلس المستر بكوك كما أُمِر أن يجلس، كما امتثل السيد ونكل والمستر سنودجراس لتوجيهات صديقهما العجيب، بينما لبث المستر واردل ينظر في دهشة صامتة.

وعندئذ انبرى المستر بكوك يقول: «هذا أحد أصدقائي يا مستر واردل».

فصاح هذا قائلًا: «أحد أصدقائك..! كيف أنت يا سيدي العزيز، يا صديق صديقي؟ هات يدك يا سيدي».

وتناول الغريب يد السيد واردل بكل حماسة الصداقة المتينة التي

توثقت على السنين، ثم تراجع خطوة أو خطوتين، كأنما يريد أن يتأمل وجهه وشكله، ثم صافحه مرة أخرى بحرارة أشد من قبلُ.

وقال المستر بكوك، وهو يبتسم ابتسامة، تنازعت فيها الطيبة والعجب الشديد: «وما الذي جاء بك إلى هنا؟».

فأجابه الغريب قائلًا: «دَعْ عنك.. إنك نازل في فندق «الكراون».. الكراون في بلدة ماجلتون.. التقيت بجماعة فيه من ذوي القصمان والسراويل البيض.. شطائر بالأنشوجة.. والكلاوي.. قوم ظرفاء... شيء بديع».

وكان المستر بكوك قد أَلِف من ذلك الغريب هذا النحو «الاختزالي» من الكلام، فاستخلص من تلك العبارات السريعة المفكَّكة المقطوعة الصلة أن الرجل تعرَّف بطريقة ما بلاعبي ماجلتون، وأنه لم يلبث أن أحال مجرد المعرفة - بوسائله الخاصة - إلى هذا المدى من «المودة» الذي يسهل معه توجيه الدعوة إليه، والمبالغة في تكريمه، فلا غرو إذا سكن فضوله، وهدأ خاطره، وأقبل على منظاره يضمه على عينيه، استعدادًا لمشاهدة اللعب، وكان قد بدأ فعلًا.

وكان أول النازلين إلى الحومة فريق ماجلتون، واشتدت الحماسة حين تقدم المستر دمكنز والمستر بدر- وهما من أبرز أعضاء ذلك النادي المشهور- متماسكين باليدين إلى الشبكتين المخصصتين لهما، وكان اللاعب الذي وقع الاختيار عليه ليلعب إزاءه دمكنز البارع، من فريق «دنجلي ديل» هو المستر لفي، زين أهلها وأرفع القوم مكانة فيها، كما انتخب المستر سترجلز لمباراة «بدر» القاهر الذي لم

يغلبه في اللعب غالب إلى الساعة، بينما «رابَطَ» عدة لاعبين «للمراقبة» في أنحاء مختلفة من الملعب ومضى كل لاعب منهم يتخذ الوضع اللائق، وهو واضع يديه فوق ركبتيه، وقد انحنى برأسه وظهره كثيرًا، كأنه يتأهب للعبة المعروفة «بقفزة الضفادع»[1]. والمشاهد أن اللاعبين جميعًا يفعلون ذلك، حتى ليذهب الظن عامة إلى أنه من المستحيل إجادة المراقبة في أي وضع آخر.

ووقف «الحُكَّام» خلف الشباك، واستعد العداءون لعد الرميات، وعندئذ ساد سكون تتقطع فيه الأنفاس، وارتد المستر لفي بضع خطوات خلف شبكة المستر بدر، وكان هذا قد وقف في مكانه، هادئًا لا يتحرك، وقرب الكرة من عينه اليمنى عدة ثوانٍ، وانتظر دمكنز مجيئها في طمأنينة واعتداد، وعيناه تراقبان حركات لفي.

وصاح الممسك بالكرة فجأة «العب!»، وطارت الكرة من يده رأسًا، وبسرعة بالغة، صوب النقطة الوسطى من الشبكة، وكان دمكنز الفطن المتنبه على الأهبة لها، فسقطت فوق طرف القبعة، ثم قفزت بعيدًا فوق رؤوس «المراقبين» الذين انحنوا لها كثيرًا ليدعوها تطير فوقهم.

وتعالت عندئذ الصيحات متتابعة: «اجر.. اجر.. ضربة أخرى.. والآن اقذفها عاليًا.. هيا طوح بها.. قِفْ عندك رمية أخرى... كلا.. نعم.. كلا.. اقذفها إلى أعلى... اقذفها إلى أعلى..».

---

(١) كاللعبة المعروفة بين أطفالنا، وهي: «عنكب، شد واركب»، والتي يسميها الفرنسيون «قفزة الخروف».

وانتهت تلك الصيحات بفوز فريق ماجلتون بهدفين، ولم يتخلف بدر أو يتوانَ في الظفر بأكاليل الغار للإشادة بذكره، وكسب المجد لبلدته، فجعل يحتجز الكرات المشكوك فيها، ويتخلى عن الكرات الرديئة، ويتوخى الجيدة منها، فيرسلها طائرة في مختلف أرجاء الملعب، وكان «المراقبون» قد عرقوا وسخنوا واستولى التعب عليهم، واستبدل برماة الكرة آخرون، وظلوا يطوحون بها حتى خدرت أذرعهم. ولكن دمكنز وبدر ظلا غالبين لا قاهر لهما، وكلما حاول سيد متقدم في السن أن يوقف سير الكرة، تدحرجت من خلال ساقيه، أو تسربت من بين أنامله، وكلما حاول سيد ناحل الإمساك بها، ضربته على أنفه، ثم قفزت لاهية مداعبة، وهي أشد من قبل وثبًا وقفزًا، تاركة الرجل مغرورق العين بالدمع، متلويًا من الألم. وكلما طوحت رأسًا صوب الشبكة، وصل دمكنز إليها قبل وصول الكرة.. وجملة القول إن لاعبي فريق ماجلتون بفضل براعة دمكنز وحذق «بدر»، ظفروا بنحو أربع وخمسين رمية صائبة، بينما كان حساب ما فاز به لاعبو «دنجلي ديل» فارغًا، أو ظل على «بياض» كشحوب وجوههم، وكان تفوق غرمائهم أكبر من أن يحاولوا التغلب عليه، وذهبت سدى كل جهود «لفي» الصادقة، وحماسة «استرجلز» المتقدة، في حشد كل ما في وسع البراعة والخبرة أن تبذلاه، أو تستعينا به، لاسترداد الأرض التي فقدها فريقهما.. ولم تجد المحاولات كلها نفعًا، فما لبث لاعبو «دنجلي ديل» أن استسلموا، وتركوا فريق «ماجلتون» يظهرون من براعتهم الفائقة ما هم مظهروه.

وكان الغريب طيلة الوقت مُقبِلًا على الطعام والشراب والكلام،

لا ينثني لحظة عنها ولا يكف، وكلما شهد رمية طيبة أبدى ارتياحه ورضاه عن لاعبها، في لهجة المتنزل من عليائه، المتبرع بعطفه ورعايته، مما سرّ كثيرًا الفريق الذي ينتمي ذلك اللاعب إليه، بينما كان يقابل كل محاولة خائبة، أو يقتصر في وقف الكرة بالتعبير عن استيائه الشخصي من ذلك اللاعب المسيء، أو المحاول الفاشل في عبارات غريبة، كقوله: «آه يا غبي.. والآن.. خسئت يا طري اليد.. مغفل مخادع..» وما إليها من عبارات، جعلته يبدو في أعين جميع المحيطين به كأبدع خبير، لا تُنْكَر خبرته، بسائر فنون الكريكت وأسرارها.

وازدحمت الخيمة بكلا الفريقين المتبارين عقب انتهاء المباراة، فأنشأ الغريب يقول: «مباراة مفتخرة.. لعبت بإجادة.. بعض الألعاب تستحق الإعجاب..».

وهنا سأله المستر واردل، وقد سرته كثيرًا ثرثرته وهذره: «هل سبق لك يا سيدي أن لعبتها؟».

قال: «لعبتها؟ أظن أنني لعبتها آلاف المرات.. ليس هنا.. بل في جزر الهند الغربية.. شيء مثير.. نضال حام متوقد.. جدًّا..».

وقال المستر بكوك: «لا بد من أن يكون اللعب رياضة دافئة في مناخ كهذا؟».

قال: «دافئة..! بل ساخنة كالنار.. محرقة متأججة.. لعبت مرة في مباراة.. بشبكة واحدة.. يا صديقي الأميرالاي السير توماس بليزو، وكان المعتقد بأنه سوف يظفر بأكبر عدد من الأهداف.. عملنا القرعة

لمن يلعب أولًا.. وابتدأنا الساعة السابعة صباحًا.. ستة أفراد من الأهلين اشتركوا في المباراة «مراقبين»، نزلت واتخذت مكاني.. الحر شديد.. كل الأهلين أغمى عليهم.. وحُمِلوا من الملعب حملًا.. وجيء بستة آخرين.. ولكنهم عجزوا عن ملاحقتي.. أغمى عليهم كذلك.. دوخت الأميرالاي.. أبى أن يسلِّم.. تابعي الأمين.. كوانكو سامبو.. آخِر مَنْ بقي.. الشمس مسودة من شدة الاحتراق.. رميت خمسمائة وسبعين رمية.. كاد الإعياء يستولى عليَّ.. كوانكو مضى يستجمع آخر بقايا قواه.. ظل إلى جانبي يعد لي الضربات إلى النهاية.. اغتسلت.. وذهبت لأتناول طعام الغداء».

وهنا سأله سيد متقدم في العمر: «وماذا صنع الله يا سيدي بذلك الرجل الذي لم أستطع أن ألتقط اسمه؟».

قال: «هل تعني «بليزور»؟».

قال: «كلا.. السيد الآخر».

قال: «كوانكو سامبو؟».

أجاب: «أي نعم يا سيدي».

قال: «مسكين كوانكو! لم يقم بعدها أبدًا.. لقد مات يا سيدي..!».

وهنا راح الغريب يخفي وجهه في جرة سوداء، ولكننا لا نستطيع أن نؤكد هل أراد بهذه الحركة أن يخفي تأثره، أو يرشف ما في الجرة ويحتسيه؟ وكل ما نعرفه أنه تمهل فجأة، وتنفس نفسًا طويلًا عميقًا، وجعل ينظر حوله بفضول، بينما اقترب اثنان من كبار أعضاء نادي «دنجلي ديل»

من المستر بكوك، فقالا: «إننا موشكون أن نتناول غداءً بسيطًا في فندق «الأسد الأزرق» يا سيدي، ونرجو أن تتكرم أنت وأصحابك بمشاركتنا فيه».

وأجاب المستر واردل: «بالطبع.. ومن بين أصدقائنا المستر...».

والتفت نحو الغريب، فقال هذا السيد الخبير بكل شيء، وهو ينتهز الفرصة: «جنجل»! الفرد جنجل المحترم.. من أهل نوهول نوهوير[1].

وأجاب المستر بكوك على الدعوة قائلًا: «إنني على يقين أنني سأكون سعيدًا كل السعادة».

وقال المستر جنجل، وهو يدخل إحدى ذراعيه في ذراع المستر بكوك، والأخرى في ذراع المستر واردل: «وأنا كذلك!».

ومضى يهمس في أذن المستر بكوك قائلًا: «غداء طيب.. بارد ولكنه عظيم.. لقد أطللت على القاعة في هذا الصباح.. دجاج وفطير وألوان شهية.. كرام.. أهل أدب.. جدًّا..».

ولم تكن ثمة مقدمات أخرى، أو تمهيدات يراد اتخاذها، فلم يلبث القوم أن اتخذوا سمتهم إلى البلدة في جماعات صغيرة، أو مثنى وثلاث. ولم يكد ينقضي ربع ساعة، حتى كانوا جميعًا جلوسًا في القاعة الكبرى بفندق «الأسد الأزرق» في ماجلتون، وقد اتخذ المستر دمكنز كرسي الرياسة، وتولى المستر لفي مركز «نائب الرئيس».

---

(1) العادة أن يذكر الاسم والبلد والإقليم عند التعريف، وقد عرف المستر جنجل نفسه بأنه من نوهول NO HALL أي لا بلد له، وهي من أعمال نوهوير، أي ليست في مكان ما.

وكثر الكلام واشتدت قعقعة السكاكين والشوك والصحاف، وهرولة ثلاثة غلمان ضخام الرؤوس، واختفت في لمح البرق اللحوم المصفوفة فوق المائدة، وكان المستر جنجل الماجن، يساوي في كل ضجة وحركة، أو يعدل على الأقل، ستة من الأشخاص العاديين.

ولما أكل كل منهم ما استطاع أن يأكل، ملء جوفه أو يزيد، رفع الغطاء عن المائدة وأزيلت الزجاجات والأقداح، ووضع النقل والفاكهة، وانسحب الخدم، لكي «يزيحوا» ما هنالك.. أو بعبارة أخرى، ليعكفوا على البقايا والفضلات، من كل مأكول ومشروب، يصح لهم أن يضعوا عليه أيديهم، امتلاكًا ومكسبًا..

وفي وسط تلك الجلبة العامة من المزاح والكلام، لبث رجل صغير الجثة ساكنًا صموتًا، تلوح على وجهه سمات من هو قائل لك: «حذار.. لا تكلمني، أو إني سأعارضك»، وإن مضى بين لحظة وأخرى يجيل البصر حوله، كلما وجد الحديث هدأ قليلًا، كأنما يفكر في قول شيء قيم، أو كلام متزن، أو يروح يسعل سعلة قصيرة، توحي بعظمة ووقار لا وصف لهما، وأخيرًا، حين كاد السكون يسود المكان، انطلق ينادي بصوت مرتفع رهيب قائلًا: «يا لفي!»، فغمر الجميع سكون شديد، وانثنى السيد الذي وجه النداء إليه يجيب قائلًا: «نعم يا سيدي»، قال: «أود أن أوجه إليك، يا سيدي بضع كلمات، إذا تكرمت فرجوت إلى السادة أن يملأوا الأقداح».

وهنا صاح المستر جنجل، بلهجة المشرف الراعي: «مرحى.. مرحى!»، وردد الآخرون هتافه، واترعت الأقداح، واتخذ نائب الرئيس

سمت الحكمة والانتباه الشديد، وأنشأ يقول مستر «ستيبل»!

ونهض الرجل الصغير الجثة فقال: «سيدي، أود أن أوجه ما أنا قائله إليك أنت، لا إلى رئيسنا الفاضل؛ لأن رئيسنا الفاضل هو إلى حد ما- بل اسمح لي أن أقول إلى حد كبير- موضوع ما سأقوله، أو ما يصح أن....».

فبادر المستر جنجل إلى إسعافه قائلًا: «أن أدلي به...».

قال: «أجل.. ما سأدلي به.. إني لشاكر صديقي الكريم، إذا أذن لي أن أدعوه كذلك. مرحى (أربع مرات، وواحدة بلا شك من المستر جنجل) على التعبير الذي أقترحه. إنني يا سيدي ديليري- أي من أهل دنجلي ديل- هتاف- «فلست أدعي شرف الانتساب إلى أهل ماجلتون، وإن أردت يا سيدي الصراحة قلت: إنني لست أطمع في الظفر بهذا الشرف، وأنا مبين لك السبب يا سيدي.. «مرحى».. وهو أنني مسلم على الفور لماجلتون بكل الأمجاد والمناقب، التي في وسعها بحق أن تنسبها إلى نفسها.. وإنها لأمجاد ومناقب، من فرط كثرتها وشهرتها لا تقتضي مني تنويهًا ولا تحتاج إلى تعديد أو ترديد، ولكن إذا تذكرنا يا سيدي أن ماجلتون أنجبت دمكنز وبدر، فلا يصح أن ننسى، أن دنجلي ديل لها أن تفخر بإنجابها رجلًا مثل «لفي» وسيدًا من طراز «استرجلز».. هتافات مدوية.. وأرجو ألا أعد رجلًا يريد أن ينتقص من فضل السيدين، أو يغض من قدرهما ومواهبهما، ولكني يا سيدي أحسدهما على اغتباطهما وهناءتهما بهذه المناسبة- هتاف- وأكبر ظني أن كل سيد يستمع الساعة إلى ما أقوله، يعرف رد ذلك الرجل الذي وجد نفسه- على سبيل المجاز والاستعارة- قابعًا في طشت فقال، للإمبراطور الإسكندر: لو لم أكن

ديوجينيس لوددت أن أكون الإسكندر» وبالمثل أستطيع أن أتصور هذين السيدين وهما قائلان مقالة «ديوجينيس» لو لم أكن «دمكنز» لوددت أن أكون «لفي»، ولو لم أكن «بدر» لوددت أن أكون «استرجلز»، هتاف حماسي، ولكن يا سادة ماجلتون، أفي ملاعب الكريكت وحدها يبرز أبناء جلدتكم أعلامًا ساطعين؟ ألم تستمعوا يومًا عن دمكنز وقوة العزيمة.. ألم تسمعوا يومًا عن بدر والنضال عن حقوق الملكية؟- هتاف شديد- أو لم تسمعوا عن نضالكم عن حقوقكم، وحرياتكم، وامتيازاتكم، حين انتقص منها، ولو لحظة واحدة، حتى لقد أحسستم من انتقاصها التطير واليأس، وحين تطرق اليأس إليكم، ألم يكن الاسم دمكنز هو الذي عاد يشعل نار الحمية في صدوركم حين خبت جذوتها، أو لم تكف يومئذ كلمة من هذا الرجل لكي ترسلها مشتعلة كما كانت، مستعرة باهرة اللهب، كأنها لم تخب يومًا ولم تخمد- هتافات مدوية- أيها السادة، إني لأود أن أحيط اسمي «دمكنز وبدر» مقترنين بهالة باهرة من الحماسة والهتاف..».

وهنا وقف الرجل الصغير الجثة عن الكلام، وبدأ الجمع يتصايحون، ويدقون الموائد بأيديهم، ولبثوا كذلك في صياح ودق بقية المساء لا يكفون عنهما إلا على فترات قصار، وشربت الأنخاب مرة أخرى، وكان كل من المستر لفي والمستر استرجلز والمستر بكوك، والمستر جنجل، موضع مديح مستمر، وثناء مستطاب غير منقطع، ومضى كل منهم في دوره يرد بالشكر، على هذا التكريم.

وكان أجدر بنا، ونحن مخلصون كل الإخلاص في تأدية رسالتنا

الكريمة، التي توفرنا عليها، أن نشعر بزهو لا نستطيع عنه تعبيرًا، وأن نحس بأننا أدينا عملًا يستحق خلودًا نحن الساعة محرومون منه، لو أننا استطعنا أن نسجل هنا ما تيسر من تلك الخطب الرنانة، التي ألقيت في ذلك الحفل، ليطّلع عليها قراؤنا الكرام. وكان المستر سنودجراس كدأبه قد دوّن حشدًا كبيرًا من المذكرات، وكانت هذه المذكرات، بلا شك، كفيلة بأوفى وأنفع المعلومات، لولا أن بلاغة تلك الخطب وحماسة عباراتها، أو لولا أن الحمى التي انتابته من أثر النبيذ، قد جعلت يد ذلك السيد راجفة كل الارتجاف، مهتزة أشد الاهتزاز، مما جعل خطه لا يكاد يُقرأ، وأسلوبه لا يُفهم إطلاقًا، ولكننا بفضل البحث المستمر، والصبر الشديد على التحقيق والاستقصاء، استطعنا أن نكشف بعض حروف تشبه من بعيد أسماء الخطباء، كما تيسر لنا العثور على «مدخل» أغنية يظن أن المستر جنجل هو الذي كان يغنيها، ويكثر فيها ترديد كلمات وألفاظ، بين كل بيت، ونحوه مثل «الكأس والطاس» و«المشعشع» كلون الياقوت، «وباهر» «والنبيذ»، ويخيل إلينا أيضًا أننا استطعنا في نهاية تلك المذكرات أن نتبين إشارة غير واضحة إلى «عظام محمرة» ثم كلمة «باردة».. وكلمة «بدون»، ولكن أي فكرة يمكن أن نبنيها على هذا الأساس يجب بطبيعة الحال أن تقوم على مجرد «الحدس والتخمين»، ولسنا نريد أن نمعن في شيء منهما، ولا فيما عسى أن يكون مدلول تلك الكلمات.

ولهذا نعود إلى المستر طبمن، غير مضيفين هنا شيئًا، غير أنه لم يكن قد بقي على منتصف الليل سوى بضع دقائق، حتى سمعت أصوات

سادات دنجلي ديل وماجلتون، وهم يغنون بحماسة وقوة، هذا النشيد الوطني الجميل المؤثر وهو:

لن نذهب إلى دورنا حتى الصباح

لن نذهب إلى دورنا حتى الصباح

لن نذهب إلى دورنا حتى الصباح

لن نذهب إليها حتى يطلع النهار

* * *

# الفصل الثامن

## شرح وافٍ للموقف، والتدليل على أن طريق «الحب الصادق» ليس «سكة حديدية»

كانت السكينة المخيمة على ضيعة «دنجلي ديل» المنعزلة وكثرة أفراد «الجنس اللطيف» فيها، واللهفة والقلق اللذين أبدينه نحو المستر تراسي طبمن، عوامل اجتمعت لتنمية تلك الأحاسيس الرقيقة التي أنبتتها الطبيعة وغرزتها في أعماق صدره، والتي تبين الآن، أنها قد قدر لها، أن تتركز حول شخص واحد محبب جميل..

لقد كانت الغيد الصغيرات مليحات، وآدابهن فاتنة، وأمزجتهن ومنازعهن مألوفة، لا شذوذ فيها ولا نبو عما عرف من الأمزجة، وشوهد في مظهر العمة العانس شيء من اعتزاز واعتداد، وفي مشيتها نذير يقول لك حذار من الاقتراب، وفي العين روعة، لا تخولها في أنضر أيامها حقًّا يميزها عن أية أنثى وقعت عليها عين المستر طبمن في يوم من الأيام، ولكن الجلي الواضح أنه كان بينه وبينها شيء من تماثل الطباع، وتوافق «الأرواح»، بل شيء من التشابه الغريب في العواطف والأحاسيس،

وكان اسمها أول ما ارتفع إلى شفتيه، وهو جريح مستلق فوق الحشائش، وكانت ضحكاتها الهيستيرية أول صوت طرق أذنه حين حمل إلى البيت، ولكن هل كان جزعها عليه راجعًا إلى «حساسية» محببة، ورقة شعور لم يكن في الإمكان مغالبته أو كبته في أية حالة مماثلة، أو كان مبعثه شعورًا أقوى من ذلك أثرًا، وإحساسًا أطغى من ذلك سلطانًا، شعورًا ليس في إمكان أحد من خلق الله، أن يوقظه في نفس امرأة وصدرها؟

هذه هي الشكوك والهواجس التي ألحت على خاطره وهو راقد ممدَّد على الأريكة، بل هذه هي الشكوك والخوالج التي اعتزم أن يقطع فيها برأي في الحال، ويتخذ فيها قرارًا حاسمًا لا حول عنه إلى الأبد.

وكان الوقت مساءً، وقد ذهبت إيزابللا وإميلى تتمشيان مع المستر ترندل، واستولى النعاس على السيدة العجوز وهي في مقعدها، وغطيط الغلام البدين ينبعث رتيبًا خافتًا من المطبخ البعيد، والجواري البضَّات الغضَّات مسترخيات في مقاعدهن عند الباب الجانبي يستمعن ببهجة المساء وفتونه، ولذة المغازلة «في غير إثم» مع بعض الفلاحين الملحقين بالمزرعة.

وفي خلوة جلس المستر طبمن والعمة العانس لا يعنى أحد بهما، ولا يعنيان بأحد، ولا يحلمان إلا بنفسيهما، بل هنالك جَلَسَا كزوج من قفاز مطوي، متلاصقين متجاورين.

وأنشأت العمة العانس تقول: «لقد نسيت أزهاري».

وقال المستر طبمن بلهجة الحض والاحتثاث: «هيا نسقيها الآن...».

وقالت هي برثاء وتلطف: «أخاف عليك أن تصاب بالبرد من هواء المساء!!».

قال وهو ينهض: «كلا.. كلا.. بل سيفيدني الخروج.. دعيني أذهب معك».

وتمهلت الغادة لتصلح من الرباط الذي علقت فيه ذراعه اليسرى، وتناولت ذراعه اليمنى، واقتادته إلى الحديقة.

وكانت ثمة خميلة في الطرف الأقصى منها تحوي عيدانًا من زهر العسل والياسمين والنباتات الزاحفة، وهي خلوة من تلك الخلوات الحلوة التي يبنيها البشر لسكنى العناكب.

وتناولت العمة العانس «رشاشة» كبيرة كانت ملقاة في ركن، وهمت بأن تغادر الخميلة لو لم يحتجزها المستر طبمن ويجرها إلى مقعد قريب منه.

قال: «يا آنسة واردل».

فارتجفت، حتى لقد وجدت حصوات في الأرض طريقها عرضًا إلى جوف الرشاشة، فاهتزت كما تهتز «شخشيخة» الوليد.

وعاد المستر طبمن يقول: «يا آنسة واردل... إنك لملك كريم»!

وصاحت راشيل، وقد احمرت وجنتاها احمرار لون «الرشاشة» ذاتها: «يا سيد طبمن».

وقال ذلكم «البكوكي» البليغ: «إي والله.. إنني أعرف ذلك حق المعرفة».

وغمغمت السيدة بدلال قائلة: «يقولون إن النساء جميعًا ملائكة».

وأجاب هو قائلًا: «إذا صح ذلك، فماذا عسى أن تكوني «أنت» إذن، وبأي شيء يمكن أن أقارنك، في غير رياء أو ادعاء.. أين تلك المرأة التي تشبهك.. وأين أرجو أن أعثر على هذا المثال النادر من الإبداع والجمال مجتمعين.. وأين تراني ملتمسًا.. أواه..» وتمهل المستر طبمن وراح يضغط اليد التي أمسكت بمقبض الرشاشة السعيدة.

وأمالت السيدة برأسها إلى ناحية، وهمست في رفق قائلة: «يا للرجال من غشاشين»!

وصاح هو قائلًا: «إنهم لكذلك.. إنهم لكذلك، ولكن ليس الرجال جميعًا بالخداعين، بل هناك على الأقل واحد لن يتغير أو يتحول.. واحد يقنعه أن يكرس كل حياته لسعادتك.. ولا يحيا إلا في عينيك، ولا يتنفس إلا من ابتسامتك، ولا يحمل عبء الحياة الفادح إلا من أجلك..».

وقالت السيدة: «أيمكن أن يكون لرجل كهذا وجود؟؟».

وأجاب المستر طبمن المتلهف مقاطعًا: «يمكن أن يوجد.. بل هو فعلًا موجود.. إنه هنا يا آنسة واردل».

وقبل أن تفطن إلى ما هو مقدم عليه، راح يجثو على ركبتيه عند قدميها.

وأهابت راشيل به: «يا مستر طبمن.. انهض!».

وكان جوابه الجريء: «أبدًا... أواه... يا راشيل».. وأمسك بيدها المتراخية، فهوت الرشاشة إلى الأرض، في اللحظة ذاتها التي أدنى فيه

يدها من شفتيه وهو يغمغم قائلًا: «أي راشيل. قولي إنك تحبينني».

وأجابت العمة العانس مطرقة: «يا مستر طبمن، لا أكاد أقدر على قول هذه الكلمات... ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو إنك لست بالذي لا أهتم به».

وما كاد المستر طبمن يسمع هذا الاعتراف، حتى أخذ يفعل ما يحث الانفعال الشديد على فعله، وما يفعله كل إنسان دائمًا إذا وجد نفسه في مثل هذا الموقف، وإن كنا نحن قليلِيْ المعرفة بهذه المسائل وأمثالها ... لقد استوى واقفًا، وأحاط بذراعه جيد العمة العانس، وطبع على شفتيها عدة قبلات، تلقَّتْها بعد أن أظهرت طبعًا ما ينبغي إظهاره من المغالبة والمقاومة، بكل هدوء ورضى، لا ندري كم من عشرات القُبَل مثلها كان من المحتمل أن يطبعها المستر طبمن على شفتَيْها، لو لم تجفل السيدة إجفالة لا تصنُّع فيها،وتصرخ صرخة مروعة، قائلة: «يا مستر طبمن، إننا مراقبان.. لقد اكتشف أمرنا».

فتلفَّتَ المستر طبمن حوله، فرأى الغلام البدين واقفًا جامد الحركة، محملقًا بعينيه الكبيرتين المستديرتين في الخميلة، وإن لم يبدُ على وجهه أي انفعال ولا أقل تعبير، حتى ليعجز أقدر الخبراء بعلم الفراسة، عن تأويل ذلك بأن مرجعه إلى الدهشة، أو مرده إلى الفضول، أو إلى أية عاطفة أخرى من العواطف المعروفة التي تخالج صدور البشر. ولبث المستر طبمن يجيل البصر في وجه الغلام البدين، وظل هذا يحملق البصر فيه، وكلما تبيَّن الفراغ المطلق في سحنة الغلام، ازداد اقتناعًا بأن الغلام إما أنه لا يعرف، أو لم يفهم شيئًا مما كان جاريًا أمام عينيه،

ولهذا انثنى بعد هذا الاقتناع يقول بكل هدوء وثبات: «ماذا جئت تريد هنا يا سيدي؟».

فكان جوابه على الفور: «العشاء مهيأ يا سيدي».

قال وهو ينظر إليه نظرة نفاذة: «هل أتيت هذه اللحظة فقط يا سيدي؟».

وأجاب الغلام البدين: «في هذه اللحظة ذاتها».

وعاد المستر طبمن يحدجه بنظرة قاسية، فلم يلمح في عينيه غمزة ولا اختلاجة في معارفه.

وتناول المستر طبمن ذراع العمة العانس ومشى بها إلى البيت، وفي أثرهما انطلق الغلام البدين.

وهمس لها قائلًا: «إنه لا يعرف مما جرى شيئًا»...

وقالت العمة العجوز: «وهو كذلك».

وسَمِعَا صوتًا من خلفهما يشبه صوت ضحكة مكبوتة، فالتفت المستر طبمن بسرعة، ولكنه لم يستطع أن يصدِّق أن هذا الصوت انبعث من ذلك الغلام، فلم تكن تبدو على وجهه بارقة من مرح، أو خالجة ضحك ... ولكن كل وجهه ينمُّ عن اللهفة على الطعام.

وهمس المستر طبمن: «لا بد من أنه كان غارقًا في النوم».

وأجابت العمة العانس: «لا شك عندي مطلقًا في ذلك».

وضحكا من أعماقهما.

ولكن المستر طبمن كان مخطئًا، فإن الغلام البدين لم يكن كما توهَّم غارقًا في النوم، بل كان يقظان صاحيًا، منتبهًا إلى كل ما جرى.

وانقضى العشاء دون أن يحاول أحد تجاذب أطراف الحديث، فأما السيدة العجوز فقد آوت إلى فراشها، ومضت إيزابيللا واردل تكرس نفسها للمستر ترندل خاصة، بينما خصت العمة العانس المستر طبمن بكل اهتمامها، وبدا على «إميلي» الانشغال بشيء بعيد... لعل أفكارها كانت في أثر سنودجراس الذي لم يعد إلى الآن.

ودقت الحادية عشرة ... والثانية عشرة ... والواحدة بعد نصف الليل، ولما يصل السادة بعدُ، وبدأ الذهول يستقر على الوجوه كلها ... أتراهم سطا اللصوص عليهم في الطريق، وهل يصح لهم أن يرسلوا بعض الخدم ومعهم المصابيح ليبحثوا عنهم في كل مكان يُرجح أنهم اتخذوا منه طريقهم إلى البيت، أم ينبغي ... صه ... ها هم أولاء قد وصلوا ... ياعجبًا ما الذي أخَّرهم كل هذا الوقت ... ها هو ذا صوت غريب لم تألفه الأسماع ... لمَنْ يكون هذا الصوت؟ ... وبادر القوم سراعًا إلى المطبخ حيث ترددت الجلبة وتعالت، فلم يلبثوا أن طالعتهم أكثر من لمحة من حقيقة الحال وواقعه.

فقد بدا المستر بكوك واضعًا يديه في جيبيه، وقبعته مرخية تمامًا على عينه اليسرى، وقد استند إلى «منضدة» المطبخ، وهو يهز رأسه من جانب إلى آخر، ويرسل فيضًا متتابعًا من ألطف وأرق الضحكات، بلا أقل سبب ظاهر، أو باعث معقول، بينما راح المستر واردل، وقد احمر وجهه أشد الاحمرار، يمسك بكف السيد الغريب، ويرسل فيضًا من عبارات

الصداقة الأبدية، أما المستر ونكل فقد أسند ظهره إلى الساعة الأثرية، وأخذ يتوعد في كلام خافت متلعثم كل من يقترح عليه أن يأوي إلى فراشه، بتحطيم رأسه، بينما تهالك المستر سنودجراس على مقعد، وهو في أسوأ حال من التعب والعجز والسُّكر يمكن أن يتصورها الخاطر، وقد بدت بكل علاماتها وأماراتها في كل ناحية من معارف صفحته المعبرة.

وراحت السيدات الثلاث يسألن قائلات: «ما الخبر؟ هل من شيء يستوجب الاهتمام؟».

فأجابهن المستر بكوك قائلًا: «لا شيء... إننا كلنا.. بخير.. يا مستر واردل.. ألسنا بخير؟».

وأجاب الرجل الممراح قائلًا: «أظن ذلك.. يا عزيزاتي، أقدم إليكن صديقي المستر جنجل... صديق المستر بكوك، وقد جاء في زيارة قصيرة».

وسألت إميلي في قلق شديد: «هل من شيء ألمّ بالمستر سنودجراس يا سيدي».

وأجاب الغريب: «لا شيء يستوجب الاهتمام يا سيدتي.. عشاء بعد الكريكت... حفلة باهرة... أغان «مفتخرة» نبيذ معتق.. نبيذ جيد... جدًّا يا سيدتي.. نبيذ..!».

وغمغم المستر سنودجراس بصوت متقطع: «لم يكن النبيذ هو السبب.. بل سمك السلمون، وفي هذه الحالات لا يكون الذنب للنبيذ، ولكن الذنب للسلمون».

وانثنت إميلي تقول: «ألا يحسن أن يذهبوا إلى فراشهم يا سيدتي... وليحمل اثنان من الغلمان السيد إلى مخدعه..».

وقال المستر ونكل بعناد: «لن أذهب إلى الفراش».

وقال المستر بكوك بقوة وجرأة، وهو لا يكف عن الضحك والابتسام: «لن يحملني في هذه الدنيا غلام...».

وقال المستر ونكل مخافتًا لاهثًا: «مرحى!» ومضى ينزع قبعته عن رأسه فألقى بها على الأرض ورمى في جِنَّةٍ منظاره في وسط المطبخ، وهو من هذه الفعلة المجونية ضاحك مقهقه.

وشرع المستر ونكل يصيح في نغمة عالية، ثم يخفضها: «لنشرب زجاجة... أخرى!».

وهوى رأسه إلى صدره، وتمتم مكررًا عزمته الغلابة على أن يظل ساهرًا، لا يأوي إلى فراشه، ويعبِّر عن أسفه الصادق على ما فرط منه في حق طبمن في الصباح، وهبط وادي الكرى سريعًا، فحمله وهو على هذه الحال إلى فراشه شابان عملاقان تحت إشراف الغلام البدين بنفسه، ولم يلبث المستر سنودجراس أيضًا أن ترك له العناية به، وتقبَّل المستر بكوك ذراع المستر طبمن المبسوطة إليه، وتوارى في هدوء، وهو أشد من قبلُ ابتسامًا، وأكثر ضحكًا، وأما المستر واردل فبعد أن ودَّع أفراد الأسرة كلها وداعًا أليمًا، كأنه قد أَمَرَ بأن يساق إلى المشنقة في الحال، ترك للمستر ترندل شرف حمله إلى الطبقة العليا من البيت، وأوى إلى فراشه بعد محاولة فاشلة في سبيل التظاهر بكل ما يقتضيه الوقار والجد.

وقالت العمة العانس: «يا له من منظر بشع!».

وقالت الفتاتان معًا: «ويثير الاشمئزاز..».

وقال المستر جنجل: «مخيف.. مروع..»، وهو يبدو رزينًا متزنًا، وكان قد سبق صحابه بزجاجة ونصف زجاجة، ومضى يقول: «منظر شنيع.. جدًّا..».

وهمست العمة العانس للمستر طبمن: «يا له من رجل ظريف!».

وهمست إيزابيلا واردل كذلك: «جميل الملامح أيضًا».

وقالت العمة العانس: «بلا شك».

وتذكر المستر طبمن عندئذٍ واقعة الحال مع أرملة روشستر؛ فانشغل باله واضطرب خاطره.

ولم يُفِدْ الحديث الذي تلا ذلك، واستغرق نصف ساعة في تهدئة هواجسه.

وطفق الزائر الجديد يُكثِر من الكلام، ولم تكن حكاياته ونوادره ليفوقها شيء، غير أدبه الجم، ولطفه المتناهي. وأحس المستر طبمن أنه كلما ارتفعت مكانة «جنجل» في القلوب ارتد هو إلى الظل، وفقد موضعه، فظل ضحكه مفتعلًا، ومرحه مصطنعًا، وحين وضع صدغيه أخيرًا بين أطواء لحافه وأغطيته، مضى يتصور في سرور شنيع مدى الاغتباط الذي كان يشعر به، لو أنه استطاع في تلك اللحظة أن يدس رأس «جنجل» بين الفراش الريشي والحشية ليخنقه خنقًا.

واستيقظ الغريب- الذي لا يعرف الكَلَال، ولا ينتابه الإعياء- مبكرًا

في الصباح، ولا يزال رفقاؤه في مراقدهم من أثر إفراطهم في الليلة البارحة، ومضى ينشط ويؤدي من الحركات الرياضية ما يزيد في بهجة مائدة الفطور ولذة الطعام، وكانت محاولاته وجهوده موفَّقة ناجحة إلى حد جعل السيدة العجوز الصماء تلح عليه أن يحكي لها نادرة أو نادرتين من أحسن نوادره من خلال جهاز سمعها، بل لقد تنزَّلت من عليائها لتقول للعمة العانس إنه- أي «جنجل»- فتى جسور لا يعرف الحياء... وهو رأي وافقت عليه كل ذوات قرباها الحاضرات وأقررنه على الأثر.

وكان من عادة السيدة العجوز في كل صباح صافٍ في فصل الصيف أن تذهب إلى الخميلة، التي كان السيد طبمن قد انكشف فيها أمره، وقد بدأ الغلام البدين بإحضار قبعة صغيرة من الحرير الأسود اللون، كانت معلقة في مشجب خلف باب مخدع السيدة العجوز، ثم جاء بلفاعة كثيفة من القطن، وعصا غليظة ذات مقبض كبير، وما أن وضعت السيدة العجوز القبعة على رأسها، وتلفت بلفاعتها على مهل، واتكأت على العصا بإحدى يديها، وبالأخرى استندت إلى كتف الغلام البدين، ومشت الهوينى إلى الخميلة، حيث اعتاد الغلام أن يتركها لتستمتع باستنشاق النسيم العليل نصف ساعة أو نحوه؛ فيعود أدراجه إليها، ويسير بها عائدة إلى البيت.

وكانت السيدة العجوز دقيقة في ملازمة هذه العادة، ومعنية بكل دقائقها وجزئياتها، وقد انفرطت ثلاثة أعوام متوالية، وهي في كل صيف تجري عليها، فلم تنحرف يومًا أقل انحراف عن شيء منها، فلا عجب إذا هي أحست ببعض الدهشة في ذلك الصباح بالذات حين رأت الغلام

البدين لم ينصرف من الخميلة، بل خطا بضع خطوات، ثم تلفت بحذر حوله في كل ناحية، وعاد يمشي نحوها مختلسًا الخطى في شكل يثير أشد العجب.

وشعرت السيدة العجوز بوجل ... وأوجست خيفة - وكل العجائز أبدًا موجسات - وكان أول خاطر تبادر إلى ذهنها أن الغلام المتورم يريد أن يمسها بأذى بالغ لينتزع النقود الصغيرة التي لديها، وكانت توشك أن تصرخ طالبة النجدة، لولا أن الكبر والعجز قد أفقداها من زمن بعيد القدرة على الصراخ، فقنعت بمراقبة حركاته، وهي في رعب شديد لم يلبث أن ازداد حين رأته يقترب كثيرًا منها، ويصيح في أذنها بلهجة مضطربة، وإن بدت لها هي متوعدة مهددة:

«.. يا سيدتي..!».

واتفق في تلك اللحظة أن كان المستر جنجل يتمشى في الحديقة بجوار الخميلة، فسمع صيحة الغلام لها، فوقف ليستمع إلى مزيد، وكانت لوقوفه واستراقه السمع ثلاثة أسباب، أولًا: أنه كان خاليًا من كل عمل، وفضوليًّا. وثانيًا: أن مثله لا يعرف التردد مطلقًا، ولا وخز الضمير. وثالثًا وأخيرًا: أنه كان في خفية عن الأنظار خلف بعض الزهر وقصار الشجر.

هنالك وقف ... وهنالك أرهف السمع.

وعاد الغلام البدين يصيح: «يا سيدتي!».

فأجابت السيدة العجوز وهي راجفة: «إيه يا جو.. لقد كنت لك

يا جو سيدة كريمة حانية، وقد أحسنت إليك أبدًا وأكرمت مثواك، ولم تكلف يومًا بعمل يفدحك، وكان لك من الطعام القسط الوفير».

وكانت هذه العبارة الأخيرة مناشدة منها لأشد حواس الغلام البدين تأثرًا، فبدا ذلك عليه، فراح يجيب مؤمِّنًا عليها: «أعرف ذلك حقًّا..».

وانثنت العجوز وقد استردت بعض الشجاعة تقول: «إذن ماذا تريد أن تفعل الآن؟».

قال: «أريد أن أجعل بدنك يقشعر..!».

وبدا هذا القول منه تعبيرًا عن عرفانه للجميل شبيهًا بتعبير إنسان متعطش للدم، فلم تفهم السيدة العجوز تمامًا ما هي الوسيلة التي يريد أن يستعين بها للوصول إلى هذه النتيجة، وعاودها رعبها السابق.

وراح الغلام البدين يسألها قائلًا: «ماذا تظنين أني رأيته في هذه المظلة الليلة البارحة؟».

قالت وهي فزعة من هذه اللهجة الجديدة، التي اتخذها ذلك الغلام السمين: «يا ويحي.. ماذا رأيت..».

قال مترددًا: «السيد الغريب.. الذي جرحت ذراعه.. وهو يقبل ويحتضن...».

فعاجلته مقاطعة: «من يا جو..؟ أرجو أن لا تكون خادمًا من خدم البيت».

وزأر الغلام البدين في أذن العجوز: «بل شر من ذلك وأدهى».

قالت: «أإحدى حفيداتي..؟».

قال: «أسوأ من ذلك وأدهى».

قالت وقد ظنت ذلك أقصى حدود الفظاعة البشرية: «أتقول: شر من ذلك وأدهى؟.. من تكون إذن.. يا جو؟.. أصر على أن أعرف».

فتلفت الغلام البدين بحذر حوله، وراح يصيح، بعد أن انتهى من الحيطة واطمأن: «مس راشيل».

وعندئذ صرخت السيدة العجوز بصوت صافر قائلة: «من هي؟ ارفع صوتك قليلًا».

وصرخ الغلام البدين في أذنها: «مس راشيل!».

قالت: «ابنتي!».

وراحت الإيماءات المتتابعة التي أومأها الغلام اللحيم، يعبِّر بها عن الموافقة، تحيل خدَّيْه السمينين أشبه بالفالوذج المترجرج.

وعادت السيدة العجوز تقول: «وهل كانت راضية منه بما فعل؟».

وقال الغلام البدين، وقد تسللت بسمة مومضة إلى قسمات وجهه: «لقد رأيتها هي أيضًا تقبله».

ولو استطاع المستر جنجل من مخبئه، أن يشهد وجه السيدة العجوز، وما علاه في تلك اللحظة، عند سماعها هذا النبأ، لانفجرت منه على الأرجح ضحكة مدوية تنم عنه وتكشف عن مختبئه بجوار تلك العريشة، ولكنه ظل مصغيًا مرهفًا أذنيه، فسمع عبارات متقطعة كقولها: «بدون إذني.. وفي هذه السن التي وصلت إليها.. وأنا عجوز مدبرة.. كان أولى بها أن تنتظر حتى أموت».. وعندئذ سمع مواقع حذاء الغلام البدين

ومواطئه فوق الحصباء، وهو منصرف تاركًا السيدة العجوز وحدها.

ولعل من أعاجيب المصادفات، وإن كان هو الواقع، أن المستر جنجل كان بعد خمس دقائق من وصوله إلى «ضيعة مانور» في الليلة الماضية قد اعتزم في أعماق نفسه أن يضرب حصارًا في الحال حول قلب تلك العمة العانس، فقد كان له من الفطانة ما يكفي لكي يتبين أن طريقته المرتجلة كانت مستحبة لدى موضع هجومه، ومركز حصاره، وكان يساور نفسه شيء أقوى من مجرد الظن أنها تملك أحب ما يقتنى في هذه الدنيا وأعز ما يملك.. وهو.. المال.. فلم تلبث أن خطرت له فكرة العمل السريع الملح على إزالة منافسه من طريقه بأية وسيلة، فاعتزم في الحال اتخاذ خطط معينة، تؤدي إلى تحقيق هذا الهدف، دون إضاعة لحظة واحدة، وقد رأينا فيلدنج[1] يقول لنا إن مثل الرجل كمثل نار، والمرأة كمثل قطعة صوف، وإن أمير الظلام- أي إبليس- هو الذي يحكمها فيحدث ضوءًا، ويبعث وهجًا. ولم يكن يخفى على المستر جنجل أن الفتيان للعمات العوانس كالغاز المستعمل للبارود، فانتوى أن يبادر إلى تجربة مدى الانفجار وأثره.

ومضى في زحمة نفسه بالأفكار والخواطر، بعد هذا القرار الخطير الذي اتخذه، يتسلل من مخبئه متسترًا بالشجر، حتى اقترب من البيت، والظاهر أن الحظ كان له حليفًا، فقد تبيَّن أن المستر طبمن والسادات الآخرين قد غادروا الحديقة من الباب الخلفي في تلك اللحظة بالذات

---

(١) كاتب إنجليزي معروف.

التي دخلها فيها، وعرف أن الفتاتين قد خرجتا وحدهما، عقب تناول الإفطار مباشرة، وأن الجو خالٍ، والظروف مواتية.

ورأى باب قاعة الإفطار مفتوحًا قليلًا فأطل منه، فوجد العمة العانس تغزل، فسعل، ورفعت بصرها إليه وابتسمت، ولم يكن التردد من خلقه، فوضع أنملته فوق شفتيه بشكل غامض، وحركة مجهولة، وتقدم فأغلق الباب.

قال في جد مصطنع: «اغفري لي يا مس واردل تطفلي على قصر العهد بتعارفنا... لا متسع من الوقت للكلفة... لقد اكتشفت الأمر كله».

وقالت العمة العانس بشيء من الدهشة لمباغتته وظهوره على تلك الصورة الفجائية وبعض الشك في سلامة عقله: «سيدي!».

قال وهو يهمس همسة مسرحية: «صه... الغلام البطين... ذو الوجه الطري كالفطير... المستدير العينين... الوغد الأثيم...!».

وهنا هز رأسه هزة معبرة، فاضطربت العمة العانس وتولاها الوجل.

قالت وهي تحاول جاهدة اصطناع الهدوء: «أظنك تقصد جوزيف يا سيدي؟».

قال: «نعم.. هو جو ذلك اللعين... ذلك الكلب الضخم جو... لقد أبلغ السيدة الكبيرة... السيدة الكبيرة مغضبة... حانقة... هاذية... العريشة... طبمن يقبل ويحضن... وكل الأشياء التي من هذا القبيل... إيه... يا سيدتي... إيه؟».

قالت: «إذا كنت قد أتيت إلى هنا يا مستر جنجل لتهينني...».

وأجاب جنجل الصفيق: «لا إطلاقًا... بتاتًا... لقد سمعت القصة... جئت لأحذرك من الخطر... أقدم خدماتي... لأمنع الثرثرة... لا بأس.. ظنيها إهانة... سأغادر الحجرة».

واستدار كأنما يريد أن ينفذ وعيده.

فانفجرت العمة العانس باكية وهي تقول: «ماذا أفعل؟ إن أخي سيغضب وسيشتد حنقه».

وقال المستر جنجل: «بالطبع سيغضب»... وتمهل هنيهة، ثم عاد يقول: «بل سيتهيج ويحنق لعرضه».

وصاحت العمة العانس في نوبة أخرى من اليأس: «أواه يا مستر جنجل، ماذا يمكن أن أقوله له؟».

قال بكل برود: «قولي إن الغلام البدين كان يحلم».

فلم تكد تسمع هذا الاقتراح حتى خطف شعاع من أمل في خاطرها، ولاحظ المستر جنجل ذلك، فاستغله لمصلحته فاستتلى قائلًا: «ما أسهل هذا وما أيسر!.. غلام خبيث... امرأة جميلة... الغلام البدين سوف يساط... وتنتهي الحكاية... بسلام».

ولسنا ندري هل سر العمة العانس رجحان كفة نجاتها من عواقب هذا الاكتشاف الذي حدث في أسوأ الأوقات، أو خفف وصفه لها بقوله: «امرأة جميلة» من حدة غمها، ولكنا نعلم أنها شعرت بشيء من الخجل وراحت تلقي على المستر جنجل نظرة شكر ورنوة عرفان.

وتنهد ذلك السيد الذي أوحى بالفكرة وأرسل زفرة من أعماقه،

ونظر مليًّا إلى وجه العمة العانس، وأجفل إجفالة مسرحية، ثم استرد عينيه فجأة.

وقالت العمة العانس في نغمة حانية: «يلوح لي يا مستر جنجل أنك لست سعيدًا، فهل تسمح لي بأن أبدي لك عرفاني لتدخلك الكريم، بأن أسأل عن سبب حزنك، والعمل إذا أمكن على إزالته».

فأجفل المستر جنجل إجفالة أخرى وقال: «ها... إزالته... إزالة حزني... وأنت تخلعين حبك على رجل لا يدرك هذه النعمة ولا يقدرها حق قدرها... رجل يفكر الساعة في كسب رضى ابنة أخي الإنسانة التي.. ولكن لا يصح لي أن أتكلم... إنه صديقي... ولست أريد أن أكشف النقاب عن مساوئه.. يا مس واردل.. وداعًا!».

ولم يكد يتم كلماته هذه، وهي الكلمات الوحيدة المتصلة المتابعة التي عُرِف يومًا عنه أنه فاه بها، حتى رفع إلى عينَيْه بقايا منديل لاحظناه من قبلُ، والتفت ناحية الباب.

وأهابت به العمة العجوز: «قف يا مستر جنجل. لقد لمَّحت عن المستر طبمن تلميحًا معينًا، فاشرحه».

قال بلهجة المحترفين، أي الممثلين: «أبدًا... أبدًا...» ولكي يظهر أنه لا رغبة له في أن يسأل سؤالًا آخر، راح يسحب كرسيًّا ويدنيه من مجلس العمة العانس ويستوي فوقه.

وقالت العمة العانس: «أتوسل إليك يا مستر جنجل وأتضرع... إذا كان هناك سر مخيف يتصل بالمستر طبمن... فاكشفه».

فألقى بنظرة على وجه العمة وأنشأ يقول: «وهل أستطيع... هل أستطيع أن أرى... مخلوقة محببة.. تقدم على مذبح... الجشع المجرد من الإحساس؟».

وتظاهر بأنه يغالب عدة انفعالات متعارضة بضع لحظات، ثم انثنى يقول بصوت خافت أجش: «إن طبمن لا يريد منك إلا... مالك!».

فصاحت العانس بغضب شديد قائلة: «يا له من وغد!».

وهنا تبددت شكوك المستر جنجل... لقد عرف أنها تملك مالًا... فاسترسل يقول: «وفوق هذا يحب أخرى».

وصاحت العانس: «أخرى... ومن تكون؟».

قال: «الفتاة القصيرة... ذات العينين السوداوين... ابنة الأخ... إميلي».

وساد سكون...

ولو أن في العالم كله إنسانًا واحدًا كانت العمة العانس تكِنُّ له كراهية مميتة، وتطوي الجوانح على غيرة متأصلة منه، لكان هذا الإنسان هو ابنة الأخ تلك بالذات، فلا عجب إذا تغيَّر في الحال وجهها، وغمر الاحمرار عنقها، وراحت تطوح برأسها في صمت واحتقار يفوق كل وصف.

وأخيرًا أنشأت تقول، وهي تعض شفتيها وتكبح جماح حقدها: «هذا لا يمكن. لا يصدق!».

قال: «راقبيهما».

قالت: «سأفعلن».

قال: «وراقبي نظراته».

قالت: «إني لفاعلة».

- «وهمساته».

- «سأفعل».

- «وسيجلس بجانبها إلى المائدة».

- «فليجلس».

- «وسيتملقها».

- «ليتملقها؟».

- «وسيبدي لها كل عناية ممكنة».

- «دعه».

- «وسيجفوك».

وهنا صاحت العمة العانس قائلة: «يجفوني.. يجفوني، وهل تراه فاعلًا؟» ورجفت من شدة الغيظ وخيبة الأمل.

قال: «وستقتفين نفسك بنفسك».

قالت: «لأفعلن».

قال: «وهل ستظهرين له روحك؟».

قالت: «وإني لفاعلة».

- «ولن تكون لك به صلة بعد ذلك».

- «أبدًا».

- «وستتقبلين أحدًا آخر..».

- «نعم».

- «حقًّا».

وراح المستر جنجل يجثو عند قدميها، ولبث طويلًا في جثوته، حتى نهض حبيبًا مقبولًا عند العمة العانس على شرط واحد.. وهو أن تظهر خيانة المستر طبمن جلية واضحة.

وكان عبء الإثبات من واجب المستر الفرد جنجل، فمضى يبرز الدليل في ذلك ليوم بالذات على مائدة الغداء.

وكادت العمة العانس لا تصدق عينيها، حين رأت المستر تراسي طبمن يجلس بجانب «إميلي» يرنو إليها، ويهمس ويبتسم، «إغاظة» في المستر سنودجراس، فلم يوجه كلمة ولا نظرة، ولا رنوة واحدة إلى التي كانت موضع معزته وحبه في المساء المنصرم.

وجعل المستر واردل يقول لنفسه: «لعنة الله على ذلك الغلام، لقد سمع هذه القصة من أمه... لعنة الله عليه.. كان نائمًا بلا شك... ذلك كله من نسج الخيال».

وكانت العمة العانس في تلك اللحظة ذاتها تقول لنفسها: «يا للخائن، لم يخدعني المستر جنجل العزيز... أوه، كم أنا لذلك الشقي الأثيم كارهة!».

ولعل في الحديث الذي نحن هنا موردوه شرحًا كافيًا لسر هذا التحول الغريب في ظاهره، الذي بدا من جانب المستر تراسي طبمن.

كان الوقت مساء، والمنظر في الحديقة، وكان هناك شبحان يسيران في طريق جانبي، أحدهما أميل إلى القصر والبدانة، والآخر أدنى إلى الطول والنحول. وكان الرجلان هما المستر طبمن، والمستر جنجل.

وبدأ الرجل البدين الحوار.

قال: «لست أدري كيف فعلت ذلك؟».

وأجاب الآخر: «بديع... مفتخر... لو كنت في مكانك لما فعلت أحسن من ذلك ولا أفضل... لتكرر الدور عينه غدًا... وفي كل مساء... إلى حين صدور تعليمات أخرى».

قال: «وهل تريد راشيل مني أن أثابر؟؟».

قال: «بالطبع... وإن كان ذلك على الرغم منها... ولكن لا بد مما ليس منه بد... لتحويل الأنظار... وإزالة الشبهات... خائفة من أخيها... تقول إنه لا حيلة غير ذلك... وأن يستمر عدة أيام قليلة لا أكثر... وعندما تعمى أبصار الكبار في السن هنا... تقدم فتوج سعادتك بأكاليل الانتصار».

قالك «أو لم تحملك إليّ رسالة ما؟».

قال: «حب. أعز الحب وأغلاه.. أزكى التحيات... وفاء ثابت لا يتغير... فهل أقول لها عنك شيئًا؟».

قال: «لا شيء سوى أن تبين لها كم أني مشوق متلهف للخطة التي

أستطيع فيها أن أدعوها «مليكتي»، ولا تبقى ضرورة لكل هذا التصنع والرياء».

قال: «بلا شك... بلا شك... لديك مزيد أحمله إليها؟».

وهنا تناول المستر طبمن المسكين يد صاحبه وهو يقول: «أواه يا صديقي.. لك مني أصدق الشكر على كريم عطفك المبرأ من الغرض، واغفر لي إن كنت قد ظلمتك، ولو كان ذلك الظلم مجرد تفكير مر بخاطري، فظننتك مزاحمي أو قائمًا في طريقي... أيها الصديق العزيز، هل يتاح لي يومًا أن أرد إليك هذا الجميل؟».

فأجاب المستر جنجل قائلًا: «لا تتكلم عن ذلك ولا تتحدث» وأمسك عن القول كأنما قد تذكر شيئًا فجأة ثم مضى يقول: «والشيء يذكر بالشيء... هل معك عشرة جنيهات أنت في غنى عنها؟... لي غرض معين أريد تنفيذه... وسأردها إليك في غضون ثلاثة أيام».

وقال المستر طبمن من صميم قلبه: «أظن معي... أقلت بعد ثلاثة أيام...».

قال: «بعد ثلاثة ليس أكثر... انتهى كل شيء على ما يرام... لا حوائل أخرى ولا صعاب».

ومضى المستر طبمن يعد النقود في كف صاحبه، وجعل هذا يدسها قطعة قطعة في جيبه، وهما يسيران صوب البيت.

وقال جنجل: «حذار... ولا نظرة واحدة».

وأجاب المستر طبمن: «ولا رنوة حتى».

- «ولا مقطعًا من كلمة».

- «ولا همسة هامس».

قال: «بل ليكن كل اهتمامك منصرفًا إلى بنت الأخ... وأظهر بعض الجفوة للعمة على الأقل.. على سبيل تضليل العجائز الآخرين».

قال بصوت مرتفع: «سأحاذر».

وقال المستر جنجل في نفسه: «وسأحاذر أنا أيضًا».

ودخلا البيت.

وتكرر مشهد ذلك الأصيل في ذلك المساء، والأصائل والليالي الثلاث التالية، حتى إذا كان مساء اليوم الرابع، بدا رب الدار منشرح الصدر رائق المزاج؛ إذ اقتنع أن ما ادُّعِي على المستر طبمن لا أساس له، كما كان هذا الأخير مغتبطًا راضيًا؛ لأن المستر جنجل أبلغه أن مسألته لا تلبث أن تنتهي، وكذلك بدا المستر بكوك، وهو قلما يبدو عكس ذلك، والمستر سنودجراس أيضًا؛ لأنه بدأ يغار من المستر طبمن، والسيدة العجوز؛ لأنها كسبت في لعبة «الويست»، وبالمثل كان المستر جنجل ومس واردل، لأسباب ذات بال فيما يتصل بهذا التاريخ المليء بالأحداث، حتى يصح أن نُفرِد لشرحها الفصل التالي.

* * *

# الفصل التاسع

## اكتشاف ومطاردة

كان العشاء قد أُعِدَّ فوق الخوان، وصُفت المقاعد من حوله، ونُسقت الزجاجات والجرار والأقداح فوق النضد الجانبي، وكان كل شيء يشير إلى اقتراب أبهج فترة في الساعات الأربع والعشرين كلها.

وسأل المستر واردل: «أين راشيل؟».

وأضاف المستر بكوك قائلًا: «إي والله وأين جنجل؟».

وقال رب الدار عجبًا: «لم يغب لحظة قبل الآن عن ناظري غريب حقًّا، لست أحسبني قد سمعت له صوتًا منذ ساعتين على الأقل. يا عزيزتي إميلي دقي الجرس».

ودق الجرس، وظهر الغلام البدين.

وسئل: «أين مس راشيل؟» وكان جوابه أنه لا يدري.

وقيل له: وأين المستر جنجل إذن؟ فقال إنه لا يعرف.

وبدت الدهشة على الجميع، وكانت الساعة متأخرة قد جاوزت الحادية عشرة، وضحك المستر طبمن في سره، فقد كان وحده الذي يعرف أنهما ذهبا يتمشيان في مكان ما، ويتحدثان عنه ... ها ... ها ... فكرة بديعة هذه ... ومضحكة.

وأنشأ المستر واردل بعد لحظة سكون يقول: «لا بأس.. لن يلبثا أن يظهرا.. والحق أقول إنني لا أطيق انتظار أحد على العشاء».

وقال المستر بكوك: «هذه قاعدة بديعة... خليقة بالإعجاب».

وقال المضيف: «تفضل بالجلوس».

وأجاب المستر بكوك قائلًا: «بالتأكيد».

واتخذ إلى المائدة مجلسه.

وكان فوق الخوان كتلة ضخمة من لحم البقر البارد، وقُدِّمت إلى المستر بكوك حصة وفيرة منها، ولكنه ما كاد يرفع الشوكة إلى شفتيه، ويهم بفتح فمه لتلقي قطعة من اللحم، حتى ارتفعت فجأة أصوات مختلطة من جانب المطبخ، فأمسك ووضع شوكته، وتمهل المستر واردل أيضًا، وأرخى قبضته على السكين، وهو لا يعي، فبقيت مغروزة في كتلة اللحم، ونظر إلى المستر بكوك، ونظر المستر بكوك إليه.

وسمعت مواقع أقدام ثقال في الردهة، وانفتح الباب فجأة، وإذا ذلك الرجل الذي مسح حذاء المستر بكوك عند مقدمه قد اندفع إلى القاعة، يتبعه الغلام البدين وبقية الخدم.

وصاح رب الدار بهم: «ما معنى هذا؟ ويحكم!».

وسألت السيدة العجوز حفيدتها: «هل شب حريق في المطبخ يا إميلي؟».

وصرخت الفتاتان معًا: «يا إلهي... يا جدتاه... كلا.. لا قدر الله».

وزأر رب الدار قائلًا: «ما الخطب؟ وما الأمر؟».

ووقف الرجل يحاول استعادة أنفاسه، وانثنى يقول بصوت خافت: «لقد ذهبا يا مولاي... هربا يا سيدي».

ولوحظ في هذه اللحظة أن المستر طبمن وضع الشوكة والسكين من يديه وارتد شاحبًا مبهورًا.

وسأل المستر واردل الرجل بحدة: «من هما اللذان ذهبا؟».

قال: «المستر جنجل ومس راشيل... في مركبة من فندق الأسد الأزرق في ماجلتون. لقد كنت هنالك، ولكني لم أستطع الإمساك بهما، فأسرعت إلى هنا لإبلاغكم...».

ولم يكد المستر طبمن يسمع هذا النبأ حتى نهض من المائدة مذعورًا هائجًا، وقال: «لقد ذهب على حسابي... أخذ نفقة السفر مني... لقد أخذ مني عشرة جنيهات. أمسكوه!» لقد نصب عليَّ واحتال، لا يمكن أن أحتمل هذا، العدالة يا مستر بكوك، لن أحتمل هذا مطلقًا».

ومضى المسكين في هذه الصيحات المتقطعة. وأمثالها يلف ويدور حول نفسه، وحول القاعة، وهو في جِنة.

وصاح المستر بكوك، وهو ينظر إلى حركات صديقه الغريبة بدهشة مروعة: «يا حفيظ يا رب! لقد جن، فماذا نصنع؟».

وقال الشيخ المضيف البدين، ولم يكن قد ألقى باله إلى شيء، غير هذه العبارة الأخيرة: «ماذا نصنع؟ نشد الحصان إلى المركبة، ونستأجر أخرى من فندق الأسد الأزرق، ونطاردهما بغير توان. أين؟» وقد صاح بهذه الكلمة الأخيرة، بينما كان الرجل قد انطلق لينفذ الأمر- وعاد يصيح قائلًا: «أين ذلك الوغد جو؟».

وأجاب صوت يقول: «أنا هو ولكني لست وغدًا».

وكان ذلك صوت الغلام البدين.

وصرخ الشيخ وهو يندفع نحو ذلك الغلام المنحوس: «دعني أنقض عليه يا بكوك. لقد رشاه ذلك المجرم جنجل، ليصرف أنفي عن اشتمام الحقيقة، باختلاقه حكاية سخيفة عن أختي وصديقك طبمن».

وهنا هبط المستر طبمن في جوف أحد المقاعد: «دعني أنقضَّ عليه».

وصرخت النساء: «لا تدعه يذهب وحده، إنه سيقتل إذن الغلام البدين» وإجهاشاته بالعبرات كانت أعلى، وأوضح من صرخاتهن.

وصاح الشيخ: «لا يمنعني أحد.. يا مستر ونكل، ارفع يديك عني، وأنت يا مستر بكوك اتركني من فضلك يا سيدي».

وكان مشهدًا جميلًا في وسط تلك الجلبة والأصوات المختلطة، أن يرى المرء ذلك التعبير الهادئ الفلسفي الذي بدا على وجه المستر بكوك، وقد احمر قليلًا من الإجهاد، وهو واقف وذراعاه محيطان بقوة حول خصر مضيفه البدين، وبطنه الرحيب؛ ليكبح جماح غضبه، ويحتجزه عن

إيذاء الغلام البدين، بينما تكاثرت السيدات جميعًا على الغلام فأوسعنه خدشًا وجذبًا، وجررنه جرًّا، ودفعنه من القاعة دفعًا، وما إن أرخى المستر بكوك قبضته حتى دخل الرجل ليعلن أن المركبة قد أُعِدَّتْ.

وصرخت النساء جميعًا قائلًات: «لا تدعه، ولكن صيحات ترك لغضبه».

وهنا قال المستر بكوك: «سأذهب معه».

وقال المضيف، وهو يتناول يده: «إنك لرجل كريم يا بكوك، إميلي، أعطي المستر بكوك لفاعة يلقيها حول رقبته، وعَجِّلي.. ويا بنات، خذن بالكن من جدتكن، لقد أغمى عليها. والآن هل أنت على استعداد؟».

وراح المستر بكوك في عجلة يلف فمه وذقنه في لفاعة كبيرة، ويضع قبعته على رأسه، ويلقي بمعطفه الكبير على ذراعه، حتى إذا انتهى من ذلك كله أجاب بالإيجاب.

ووثبا إلى العجلة، وصاح رب الدار: «أطلق لها العنان يا توم»، وانطلقا يقطعان الأزقة والدروب الضيقة والعجلة تهتز وتعلو وتهبط، وهي مارقة فوق الأخاديد، تصطدم بأسوار العوسج على كلا الجانبين، كأنما توشك أن تتكسر إربًا في كل لحظة.

وصاح واردل حين وصلوا إلى باب فندق الأسد الأزرق، وقد رأى جمعًا قليلًا قد وقفوا حوله، على الرغم من أن الوقت كان متأخرًا: «كم من الوقت ترونهم سبقونا؟».

فكان جواب الجميع: «ليس أكثر من ثلاثة أرباع ساعة».

وصرخ الشيخ: مركبة وأربعة خيول في الحال. هيا، أسرعوا، ودعوا العجلة لتدخلوها فيما بعد».

وصاح رب الفندق: «والآن يا أولاد، «مركبة وأربعة خيول في الحال، عجلوا، شيئًا من الهمة، هلموا».

وجرى رب الفندق وخدمه سراعًا مبادرين، وأنوار «المصابيح» لماحة، وهم يروحون بها ويغدون، وسمعت حوافر الخيل وهي تدق أرض الفناء غير المستوية، وجاءت المركبة من المرابط رجراجة، والمكان يعج جلبة وحركة.

وصاح واردل قائلًا: «هيه... أليست المركبة آتية الليلة؟».

وأجاب رب الفندق قائلًا: «إنها تقطع الفناء اللحظة يا سيدي».

وجاءت المركبة، وشدت الخيل، وفوق صهواتها وثب الأولاد، وفي جوفها دخل الراكبان.

وصاح واردل: «افهموا. سبعة أميال في أقل من نصف ساعة. اجعلوا هذا نصب أعينكم. هيا انطلقوا».

وأعمل الأولاد السوط والمهماز، وسط صراخ الخدم وصاحب الفندق، وانطلقت المركبة سريعة مغضبة هائجة.

وأنشأ المستر بكوك يحدث خاطره، حين وجد لحظة تتسع للتفكير: «موقف حرج، للرئيس العام لنادي بكوك، مركبة رطبة، خيل غريبة، خمسة عشر ميلًا في الساعة، والساعة الثانية عشرة ليلًا!».

ولم يتبادل السيدان كلمة واحدة، خلال الأميال الثلاثة أو الأربعة

الأولى، فقد كان كل منهما مستغرقًا في أفكاره، منشغلًا بهواجسه وخواطره، حتى لا يجد شيئًا يمكن أن يقوله لصاحبه، ولكن حين اجتازا هذه المسافة من الرحلة، وبدأت الخيل تستحث وتؤدي مهمتها بشكل حسن، وسرعة معقولة، لم يلبث المستر بكوك أن اغتبط بتلك السرعة إلى حد لم يستطع عنده أن يبقى ملازمًا الصمت على تلك الصورة، فقال: «أعتقد أننا سنلحقهما بلا شك».

وأجابه صاحبه: «أرجو ذلك».

وتطلع المستر بكوك إلى القمر، وكان ضياؤه باهرًا فقال: «ليلة صافية».

وأجاب واردل قائلًا: «هذه هي المصيبة؛ لأنهما استغلا ضياء القمر فسبقانا، أما نحن فسوف نفقد كل مزايا هذا البزوغ وفائدته... إذ لن تمضي ساعة أخرى حتى يتوارى نور القمر».

فسأله المستر بكوك: «أظن أن المسير بهذا المعدل غير مستحب في الظلام. أليس كذلك؟».

وقال صاحبه بجفاء: «فعلًا».

وبدأ اضطراب المستر بكوك العابر يهدأ قليلًا، فمضى يفكر في المتاعب والأخطار التي تكتنف هذه الرحلة التي أقدم بغير ترو عليها، ولكنه انتبه من تأملاته على صيحة الغلام الراكب فوق الحصان الذي في المقدمة وهو يقول: «لو... لو... لو... لو...».

وعلى أثره صاح الغلام الثاني: «لو... لو... لو... لو...».

وتبعهما المستر واردل نفسه يصيح، في حماسة صيحتهما ذاتها، وقد أخرج رأسه ونصف جسمه من نافذة المركبة».

وصاح المستر بكوك أيضًا: «لو... لو... لو...» مرددًا النغمة عينها، وإن لم تكن لديه أقل فكرة عن معناها أو الغرض منها، وفي وسط هذه «الصيحات» من السيدين والغلامين وقفت المركبة.

وسأل المستر بكوك: «ما الخطب؟».

وأجاب الشيخ واردل: «هنا باب... وسنسمع شيئًا عن الهاربين».

وبعد أن انقضت خمس دقائق في دق متواصل وصياح، خرج من بيت المكوس رجل متقدم في العمر، في قميص وسراويل، وفتح البوابة، فابتدره المستر واردل قائلًا: «كم من الوقت انقضى منذ مرت مركبة من هنا؟».

قال: «كم من الوقت؟».

قال: «آه».

وعندئذ مضى الرجل يقول: «لست أدري تمامًا، ولكن من وقت غير طويل، ولا هو قصير، ولعله بين ذلك».

وعاد الشيخ يسأله: «هل مرت مركبة من هنا فعلًا؟».

قال: «أي نعم، مرت مركبة».

وتدخل المستر بكوك فسأله: «متى يا صديقي؟ هل من ساعة مثلًا؟».

فأجاب الرجل قائلًا: «أستطيع أن أقول ذلك».

وسأله الغلام الراكب في العربة: «أو من ساعتين؟».

وأجاب الرجل بلهجة المتشكك: «لا يبعد أن يكون الأمر كذلك».

وهنا صاح الشيخ غاضبًا: «انطلقا أيها الغلامان بنا، ولا تضيعا الوقت مع هذا العجوز المغفل».

وصاح الرجل وهو يومض بابتسامة «مغفل!» وقد وقف في وسط الطريق، وفتح البوابة قليلًا، وراح يرقب بنظره المركبة، وهي تتضاءل وشيكًا، كلما أمعنت في المسير وأوغلت: «كلا لست مغفلًا إلى هذا الحد، وقد أضعتم عشر دقائق هنا، وانصرفتم جاهلين الحقيقة كما جئتم، ولو أن رجلًا على الطريق أصاب جنيهًا وعرف كيف يكسبه، كما عرفت، لما لحقتم بتلك المركبة قبل موسم عيد الميلاد أيها الشيخ القصير البدين».

وانثنى الرجل يغلق البوابة، وهو يبتسم ابتسامة أخرى مستطيلة، وعاد إلى البيت، وأغلق الباب في أثره.

وكانت المركبة في تلك اللحظة موغلة في المسير دون إبطاء صوب نهاية الرحلة، وكان القمر كما تكهَّن واردل، قد أخذ يضعف نوره سريعًا، وبدأت قطع كبيرة من سحب قاتمة ثقال كانت منذ لحظات تتجمع رويدًا، وتغمر وجه السماء، تتحول إلى كتلة سوداء واحدة، وأخذت قطرات كبيرة من المطر تتساقط بين هنيهة وأخرى على نافذة المركبة، كأنما تنذرهما بوشك اقتراب ليل عاصف، وكانت الريح أيضًا ضدهم، وهي تهب في زفيف وعصف على الطريق الضيق تزمجر وتعصف من

خلال الشجر الذي يحف به، فعمد المستر بكوك إلى جمع أطراف معطفه حول بدنه، وانزوى منكمشًا في ركن من المركبة، وهبط في سبات عميق، لم يستيقظ منه إلا على وقوف المركبة، وصوت جرس رب الفندق، وصيحة عالية تقول: «علينا بخيل في الحال».

ولكن حدث هنا أيضًا بعض التأخير، فقد كان الخدم في سبات عميق، اقتضى خمس دقائق لإيقاظ كل خادم منهم، وكان رب الفندق قد وضع مفتاح الإسطبل في مكان ما ونسيه، فمضى يبحث عنه، ولما وجده أخطأ خادمان منهم لا يزال النوم يداعب أجفانهما، فوضعا على حصان سرج الحصان الآخر، واضطر الأمر إلى تكرار الأسراج من جديد، ولو كان المستر بكوك هو المسافر وحده لكانت هذه العقبات المتكررة كافية لعدوله في الحال عن هذه المطاردة، ولكن الشيخ لم تكن هذه الحوائل لتثنيه عن واجبه بهذه السهولة، فطفق يستجمع كل عزمته، ويستعين بكل قوته، ويلكز هذا الغلام، ويدفع ذاك، ويفك رباطًا هنا، ويشد حلقة هناك، حتى تهيأت المركبة للمسير في فترة أقل مما كان متوقعًا وسط كل هذه الحوائل والعقبات.

وواصلوا المسير، ولكن المدى أمامهم لم يكن ليغري بأمل، فإن المرحلة تبلغ خمسة عشر ميلًا، والليل حالك، والريح عاتية، والمطر يهطل مدرارًا، وليس في الإمكان قطع شوط كبير مع اجتماع هذه العوائق كلها، وكان الوقت قد جاوز الواحدة بعد نصف الليل، ولا بد من انقضاء ساعتين أو قرابتهما لبلوغ نهاية المرحلة، ولكن شيئًا تراءى لهم، فجدَّد آمالهم وأحيا موات هممهم، وعاد يرفع من أرواحهم المتخاذلة.

وصاح المستر واردل وهو يقفز من مكانه في المركبة، ويشير إلى

مركبة أخرى علاها الطين الرطب، وهي واقفة في الفناء: «متى جاءت هذه المركبة؟».

قال رب الفندق الذي وُجِّهَ السؤال إليه: «من أقل من ربع ساعة يا سيدي».

وعاد المستر واردل يسأله، وهو لاهث الأنفاس من اللهفة والقلق: «وهل كانت تحوي سيدة وسيدًا؟».

- «نعم يا سيدي».

- «والسيد طويل، وعليه سترة، وساقاه مستطيلتان، وناحل البدن؟».

- «نعم يا سيدي».

- «والسيدة نصف. ولها وجه نحيل، وتبدو عجفاء.. إيه؟».

- «نعم يا سيدي».

وصاح السيد الكبير: «وحق السموات إنهما هما يا بكوك».

وواصل رب الفندق حديثه يقول: «كان من الجائز أن يكونا الآن هنا، ولكنهما أرادا أن لا يشق لهما غبار».

قال واردل: «هو كذلك، والله هو كذلك، مركبة وأربعة خيول في الحال، وسنلحقهما قبل أن يبلغا المرحلة التالية، هلموا يا أولاد، جنيه لكل منكم إذا نشطتم، هيا أظهروا همة أيها الفتيان الطيبون».

ومضى الشيخ بهذه الاحتثاثات والحوافز ونحوها يروح ويغدو في جنبات الفناء في حالة من الهياج، انتقلت عدواها إلى بكوك أيضًا، فلم

يلبث هذا تحت تأثير العدوى أن ورط نفسه في عملية الإسراج، وتهيئة الخيل والعجلات، في صورة تبعث أشد الدهشة، اعتقادًا جازمًا منه بأنه بعمله هذا كان يعاون معاونة فعلية في الاستعداد لمواصلة المسير.

وصاح واردل بصاحبه، وهو يقفز إلى المركبة ويرفع سلمها: «ادخل، ادخل»، وانثنى يغلق الباب بعنف في أثره ويعاود الصياح قائلًا: «هيا بنا، أسرعوا». وقبل أن يعي بكوك شيئًا مما حوله، أحس بمن يرفعه رفعًا من الباب الآخر، وإذا الشيخ يجتذبه إلى الداخل، وصاحب الفندق يدفعه من الخارج، وإذا المركبة منطلقة تنهب الطريق نهبًا.

وقال الشيخ الكبير بسرور بالغ: «آه... نحن الآن متابعون السير حقًّا».

والواقع أنهم كانوا كذلك، بدليل ما كان المستر بكوك يحسه بين لحظة وأخرى من الاصطدام بالجزء الخشبي الصلب من المركبة، وأخرى بجسم صاحبه.

وصاح المستر واردل البدين: «اثبت» حين رأى المستر بكوك يضرب برأسه في بطنه الرحيب، وهو يقول: «لم أشعر بخضخضة كهذه في حياتي».

وقال صاحبه: «لا عليك، فلن تلبث أن تزول، ثباتًا، ثباتًا».

وراح المستر بكوك يغرز نفسه في ركنه، محاولًا أن يثبت فيه ما استطاع، بينما راحت المركبة أشد سرعة من قبلُ، وأكثر اندفاعًا.

ولبثت على تلك السرعة مارقة حتى قطعت قرابة ثلاثة أميال، أخرج

بعدها المستر واردل رأسه من النافذة، وأطل على الطريق دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم أدخل وجهه وقد غمره رشاش من المطر، وصاح لاهثًا في لهفة شديدة: «ها هما...».

وعندئذ أخرج المستر بكوك رأسه من النافذة، فإذا هو يبصر حقًّا مركبة وأربعة جياد، على مسافة قصيرة منهما، وهي مندفعة في سرعة بالغة.

وقال الشيخ بصوت يكاد يكون صراخًا: «تقدما، تقدما، جنيهان لكل منكما، لا تدعاهما يسبقاننا، هلما، احرصا على اللحاق بهما».

وكانت الخيل المسرجة في المركبة الأولى قد شرعت تعدو بأقصى السرعة، ومركبة واردل تنهب الأرض في أثرها نهبًا، ولا تلوي على شيء.

وصاح الشيخ الغضوب قائلًا: «إني أرى رأسه، لعنة الله، إني لأرى رأسه».

وقال المستر بكوك: «وأنا أيضًا، هذا هو».

ولم يكن المستر بكوك مخطئًا، فقد كان وجه المستر جنجل الذي غمره الوحل المتطاير من العجلات ظاهرًا للعين من شرفة المركبة، وحركة ذراعه التي كان يلوح بها بعنف صوب السائقين لتشجيعهما واحتثاثهما على زيادة السرعة.

وكان الموقف قد استحمى واستحرّ، وبدت الحقول والأشجار وأسوار العوسج تمرق من أمامهما بسرعة «الدوامة» وشدة انطلاق المركبة واندفاعها، حتى دنت من جانب المركبة المستبقة، وكان صوت

جنجل في تلك اللحظة غالبًا على أصوات العجلات، وهو يستحث الغلمان، واشتد غضب الشيخ وثارت ثائرته، وذهب يزأر شاتمًا لاعنًا، عشرات الشتائم واللعنات، صارخًا: «أيها الأوغاد، أيها المجرمون» جامعًا قبضة يده، ملوحًا بها، يهزها في الفضاء هزًّا لذلك المستهدف لغضبه، ولكن المستر جنجل لم يجاوز في الرد على هذا الوعيد أكثر من الابتسام المستخف، والجواب عن هذه التهديدات بصيحات المنتصر، حين انطلقت خيله مستجيبة لمهوى السياط المتزايدة، ووخزة المهماز في الخاصرة، في سرعة متجددة، تركت المطاردين في أثرها متخلفين.

وما كاد المستر بكوك يُدخِل رأسه من النافذة، ويفعل المستر واردل مثله من الجهد والتعب بعد ذلك الصياح الشديد، حتى حدثت رجة عنيفة طوحت بهما فوق مقدم المركبة، وتلتها خبطة فجائية، وصوت تهشم شديد، وانطلاق عجلة من مكانها، وانقلاب المركبة رأسًا على عقب.

وبعد بضع ثوانٍ في ذهول واضطراب بالغين، لا يتبيَّن خلالهما غير اندفاع الخيل، وتحطم الزجاج، شعر المستر بكوك بأيدٍ تجذبه من تحت أنقاض المركبة، ولم يكد يستوي على قدميه، ويستخرج رأسه من أطراف معطفه الفضفاض الذي حال في الواقع بينه وبين الانتفاع بمنظاره، حتى بدت النكبة واضحة لعينيه.

ورأى الشيخ واردل حاسر الرأس، طارت القبعة من فوقه، ممزق الثياب في عدة أجزاء منها، واقفًا بجانبه، وبقايا المركبة متناثرة عند قدميه، وأما الغلامان فقد استطاعا بعد جهد قطع «السيور» والحلقات التي تربط الخيل، ووقفا بجانب رؤوسها، تعلوهما الأوحال، ويلوحان

أشعثين أغبرين من عناء السفر، ومجهدة الركوب.

وعلى قيد مائة خطوة أو نحوها، وقفت المركبة الأخرى على صوت الاصطدام، والغلامان يبتسمان ابتسامة يختلج لها وجهاهما أشد الاختلاج، وهما يشهدان ما حل بالمركبة الأخرى من فوق سرجيهما، بينما أطل المستر جنجل من النافذة، يتأمل المشهد بارتياح ظاهر.

وكان النهار قد طلع منذ لحظة، فبدا المشهد جليًّا للعين على مطالع خيوطه.

وصاح جنجل الصفيق الذي لا يعرف الحياء: «هل أصيب أحد؟ شيخان كبيران، ليس من الوزن الخفيف، عملية خطرة جدًّا».

وصرخ واردل وزأر قائلًا: «إنك لوغد!».

وأجاب جنجل ضاحكًا: «ها ها!» ثم أردف يقول بغمزة ذات دلالة من طرف عينه، وهزة من أنملته صوب داخل مركبته: «إنها بخير، وتحملني إليك السلام، وترجو أن تكف عن إتعاب نفسك، الحب لطبي، ألا تركبان في المؤخرة؟ سق يا غلام».

فعاد الغلامان إلى مجلسهما من المركبة، وانطلقت بهم، وقد رفع المستر جنجل منديلًا أبيض، وأخذ يلوح به من النافذة سخرية واستهزاء.

ولكن هدوء طبع المستر بكوك وسكينة نفسه لم يكدرهما شيء مما جرى، ولم يزعجهما انقلاب المركبة ذاتها، وإنما كانت تلك الخسة التي بلغ من نكرها أن يقترض في أول الأمر مالًا من مريده الأمين، ثم تختصر اسمه اختصارًا وقحًا، فتدعوه «طبي» أكثر وأشد مما يطيق صبره، حتى

راح يتنفس بمشقة ويحمر وجه إلى طرف منظاره ذاته، وهو يقول في رفق ولهجة جد: «لو أتيح لي لقاء هذا الرجل مرة أخرى فلأ...».

ولكنه لم يتم- فقد عاجله المستر واردل بقوله: «نعم، نعم، هذا كله جميل ولكنهما، ونحن هنا واقفان نتكلم، سيظفران بعقد قرانهما في لندن».

فتمهل المستر بكوك وكبت غضبه، كما يملأ المرء الزجاجة ويغلقها بالسدادة.

والتفت المستر واردل إلى الغلامين فقال: «كم المسافة بيننا وبين المرحلة التالية؟».

قال أحدهما لزميله: «ستة أميال، أليس كذلك يا توم؟».

وأجاب هذا: «أكثر قليلًا».

وانثنى الأول يقول: «ستة أميال أو نحوها».

وقال المستر واردل: «لا بد مما ليس منه بد، سنقطعها مشيًا يا بكوك، ليس ثمة شيء غير هذا».

وأرسلا غلامًا على حصان ليظفر لهما بمركبة أخرى وخيل، وتركا الآخَر لحراسة المركبة المحطمة، ثم انطلقا بعزمة الرجال يقطعان بقية الطريق على الأقدام، بعد أن لفا لفاعيتهما حول عنقيهما، وأرخيا قبعتيهما لكي يحتميا ما استطاعا من هطل المطر، وكان قد عاد بعد انقطاع يسير يتساقط صببًا مدرارًا.

# الفصل العاشر

## إزالة كل ما كان يساور النفس من الشكوك «إن كان ثمة شيء منها» في أن المستر جنجل منزه عن الفرض

لا تزال لندن تحوي عدة فنادق، كانت في سالف الدهر مركزًا للمركبات التي كانت تؤدي الأسفار، وتقطع الرحلات في صورة أكثر جدًّا، وأفعل أثرًا مما يبدو من المركبات، في هذه الأيام. ولكن تلك الفنادق قد انحط شأنها اليوم، فلم تعد تزيد عن محطات ونقط لحجز أماكن في المركبات المسافرة إلى الريف. ولن يهتدي القارئ الآن إلى شيء من تلك الفنادق أو «الوكالات» القديمة، مهما يحاول البحث عنها بين فنادق الصليب الذهبي «الجولدن كروس» و«الثور» بل والأفواه «ماوثز» القائمة بواجباتها الرائعة في شوارع لندن التي دخل التحسين عليها، فإذا أراد فندقًا من تلك الفنادق القديمة، فليوجه خطاه صوب أحياء المدينة المظلمة، ومعالمها الأثرية، فهو واجد في بعض زواياها المهجورة عدة فنادق كهذه لا تزال قائمة تعلوها الكآبة، وينم شكلها عن قوة التشبث بالبقاء، في وسط الأبنية الحديثة المحيطة بها.

وفي قصبة لندن خاصة لا تزال ثمة بضعة فنادق عتيقة احتفظت بمعالمها الخارجية كما هي، فلم يطرأ عليها تغيير، ولم تتعرض لخطر الدعوة العامة إلى التحسين والتعمير، ولا استهدفت لمغامرات الأفراد بأموالهم في تجديد المباني وتشييد العمارات، وهي إلى اليوم تبدو عظيمة، متماسكة غريبة، ذات دهاليز وممرات ومدارج، ومن الرحابة وقدم العهد بحيث تكفي لتهيئة مواد موضوعات لمئات القصص عن المردة والعفاريت، إذا فرضنا أننا قد نتدهور إلى هذا الحد المؤسف من ابتكار شيء منها، أو وصل الإسفاف بنا إلى تأليف روايات على غرارها، أو إذا تصورنا أن الدنيا سوف تعيش حتى تستنفد الأساطير الصحيحة التي لا تحصى عن جسر لندن القديم، وما جاوره من الأحياء القائمة على جانب «صرى».

وفي فناء أحد تلك الفنادق، وهو فندق الأيل الأبيض (هوايت هارت) الذائع الصيت، كنت ترى ثمة رجلًا منهمكًا في تنظيف حذائه، في بكور الصباح التالي لليوم الذي وقعت فيه الحوادث التي سردناها عليك في الفصل السابق. وكان الرجل يرتدي صدارًا مخططًا تخطيطًا لا يدل على ذوق جميل، ذا ردنين أسودين من القطن وأزرار زرق من الزجاج وسراويل ذات لون كئيب، «وطماقًا» يكسو ساقيه، وقد لف حول رقبته منديلًا أحمر خفيف الحمرة لفة غير محبوكة ولا متقنة، وألقى قبعة قديمة بيضاء بغير عناية على جانب من رأسه، وأمامه صفان من الأحذية أحدهما قد فرغ من تنظيفه، وبقي الآخر متسخًا لم يتناوله بعد، وكلما فرغ من مسح حذاء أضافه إلى مجموعة الأحذية التي نظفها، وكف

لحظة عن العمل يتأمل نتائجه بارتياح ظاهر.

ولم تكن ترتفع في جنبات الفناء تلك الجلبة التي امتازت بها أفنية الفنادق الكبيرة عادة، ولا بد فيه تلك الحركة الدائبة المعروفة عنها، بل كانت هنالك ثلاث مركبات أو أربع ضخمة، محملة أكداسًا من البضائع تلوح تحت أغطيتها الرحيبة، وترتفع إلى ما يقرب من ارتفاع النوافذ في الطبقة الثانية من أي منزل عادي، وهي مصفوفة تحت سقف مرتفع، يمتد على طول الفناء من أحد طرفيه، والغالب أنها كانت على وشك الخروج في ذلك الصباح؛ فقد أُخرِجت من السقيفة إلى الجزء الفضاء من الفناء.

وحول جانبي الأرض الفضاء كليهما قام صف مزدوج من الدهاليز المؤدية إلى غرف النوم «بدرابزين» قديم مشوه الشكل، كما بدا صفان مزدوجان من الأجراس يحميهما من التقلبات الجوية سقف مغبر منحدر، من تحته باب يؤدي إلى «محل الشراب» وغرفة القهوة، وقد سبقت عربتان صغيرتان وعربتان أخريان من عربات النقل إلى سقائف صغيرة مختلفة، وبين فترة وأخرى كان يرتفع صوت مركبة قادمة أو حركة حلقات وسراج في الطرف الأقصى من الفناء، كأنما تعلن لمن يعنيه الأمر أن الإسطبل قائم في هذه الناحية من الفندق، فإذا قلنا أيضًا إن هناك بضعة غلمان في جلابيب فضفاضة بدوا رقودًا فوق الطرود الثقال، والرزم الضخمة، وغيرها من البضائع المتناثرة في أرجاء الفناء فوق أكداس من القش، فقد وصفنا بما فيه الكفاية مظهر فناء فندق الأيل الأبيض في «هاي ستريت» ورسمنا صورته العامة، كما كان يبدو في صباح ذلك اليوم الذي نتحدث عنه.

وأعقب ارتفاع صوت أحد الأجراس ظهور وصيفة رشيقة في الردهة العليا لغرف النوم، وبعد أن طرقت إحدى الحجرات، وتلقت أمرًا ممن فيها، وقفت على رأس السلم تنادي قائلة:

«يا سام...!».

وأجاب الرجل ذو القبعة البيضاء: «نعم!».

- «رقم ٢٢ يطلب حذاءه».

- «اسألي رقم ٢٢ ، هل يريده الآن أو ينتظر حتى يتلقاه؟؟».

وقالت الفتاة مداعبة: «هيا.. يا سام.. دع الهزل والمزاح.. العميل يريد حذاءه حالًا».

فأجابها مسّاح الأحذية: «حسن. أنت شابة لطيفة تصلح للعمل مع فرقة موسيقية.. انظري إلى هذه الأحذية هنا.. أحد عشر زوجًا.. ونعل لرقم ٦ ذي الساق الخشبية، والأحد عشر زوجًا مطلوبة في الساعة الثانية والنصف، والنعل في التاسعة.. فمن هو رقم ٢٢ حتى يتقدم الباقين جميعًا.. لا.. لا. كل إنسان بدوره.. كما قال «جاك كش» حين راح يشد وثاق الجمع واحدًا بعد الآخر، آسف يا سيدي لأني جعلتك تنتظر.. ولكني قادم إليك حالًا..».

وأقبل المسّاح على عمله، وكان يمسح حذاء طويلًا وهو يضاعف نشاطه.

وتردد صوت جرس آخر عاليًا، وظهرت ربة الفندق العجوز الكثيرة الحركة في الدهليز المقابل، وصاحت قائلة: «يا سام.. أين ذلك البليد

الكسول.. آه.. ها أنت ذا يا سام.. لماذا لا ترد؟».

قال بخشونة: «ليس من حسن الذوق أن أرد حتى تنتهي من الكلام».

قالت: «اسمع هنا.. امسح هذا الحذاء لرقم ١٧ حالًا، وأحضره إلى قاعة الجلوس الخاصة رقم ٥ في الدور الأول».

وطوحت ربة الفندق بحذاء أنثى في الفناء، وانصرفت مسرعة.

وتناول سام الحذاء، وأخرج قطعة من الطباشير من جيبه، وأخذ مذكرة على مشط النعل بها وهو يقول لنفسه: «رقم ٥ حذاء سيدة، قاعة الجلوس الخاصة.. لا أظنها جاءت في مركبة العفش».

وصاحت الفتاة وهي لا تزال مستندة إلى سياج السلم: «لقد جاءت باكرة في هذا الصباح مع سيد في مركبة أجرة، وهو السيد الذي يريد حذاءه.. أحسن لك أن تمسحهما.. هذا هو كل ما في المسألة».

قال في غضب شديد، مخرجًا الحذاء المشار إليه من الكومة المصفوفة أمامه: «لماذا لم تقولي ذلك من أول الأمر، فقد كنت فاهمًا أنه عمل غير ذي شأن من الذين لا يدفعون عادة أكثر من ثلاثة بنسات، وإذا بي أسمع.. قاعة خاصة.. وسيدة أيضًا، فإن كان سيدًا كما قلت، فحقه أن يدفع شلنًا في اليوم، وأجرة الذهاب والإياب».

وحفزه هذا الخاطر الملهم، فمضى في مسح الحذاء بالفرشاة بحماسة وإقبال صادقين، فلم تنقض بضع دقائق حتى كان الحذاء والنعل قد دهنا بطلاء برّاق كان بلا ريب مثيرًا للحسد في نفس المستر وارن.

فقد كانوا في الأيل الأبيض «هوايت هارت» يستعملون طلاء «داي ومارتن».

ووصل المسّاح إلى باب الغرفة رقم ٢٢.

وسمع صوت رجل من الداخل يقول: «ادخل» ردًّا على دقة سام للباب.

وانحنى «سام» بأحسن ما لديه من الانحناءات، ومثل في حضرة سيدة ورجل، كانا جالسين يتناولان طعام الفطور، وبعد أن سلم الحذاءين بكل الرسميات المطلوبة، ووضع أحدهما على اليمين والآخر على اليسار عند قدمي السيد، ووضع حذائي السيدة مثلها عن يمينها ويسارها، تراجع خطوات نحو الباب.

وقال السيد: «الأحذية!».

وأجاب سام: «نعم يا سيدي» وهو يغلق الباب ويبقي يده على الأكرة.

قال: «هل تعرف.. ما يسمى.. بماذا؟؟ بحي الأطباء؟».

- «نعم يا سيدي».

- «أين هو؟».

_ «بحضرة كنيسة القديس بولس يا سيدي، وهناك باب مقوى خفيض على الجانب الذي تقف عنده المركبات، وبائع كتب في ركن منه، وفندق في الركن الآخر، وحمَّالان في الوسط يعملان في استخراج الرخص».

وقال السيد: «سمساران للرخص!».

وأجاب سام: «نعم سمساران للرخص.. وهما يلوحان في حلة بيضاء، ويلمسان قبعتيهما احترامًا، عند دخولك ويسألانك: «رخصة يا سيدي، رخصة؟» إنهما لشخصان عجيبان يا سيدي.. ومعلموهما عجيبون أيضًا.. وكلاء محامين في محكمة «أولد بيلي»، وهذا كله صحيح لا خطأ فيه».

وسأل السيد قائلًا: «وماذا يعملان؟».

قال: «يعملان.. سبحان الله يا سيدي.. يعملان ما لا يخطر ببال.. يدخلان أشياء في رؤوس أناس كبار السن لم يكونوا يحلمون بها في يوم من الأيام.. كان والدي يا سيدي حوذيًا.. وكان أرمل أيضًا، وبدينًا لا يصلح لشيء.. سمينًا إلى حد غير مألوف.. ماتت زوجته وتركت له أربعمائة جنيه.. فذهب إلى ذلك الحي لمقابلة المحامي ليسحب النقود.. ذهب في هندام رشيق جدًّا.. حذاء طويل ووردة في عروة سترته.. وقبعة عريضة الحاشية.. ولفاعة خضراء.. وجيه جدًّا.. واجتاز الباب، وهو يفكر فيما عسى أن يفعل لاستثمار ذلك المال.. وإذا السمسار يتقدم نحوه، ويرفع القبعة له ويسأله: «رخصة يا سيدي؟ رخصة»، فيقول والدي: «وماذا تكون هذه؟». فيقول صاخبًا: «رخصة يا سيدي؟». ويقول والدي: «أي رخصة تعني؟». فيجيبه السمسار: «رخصة الزواج؟!». ويقول والدي: «أي زواج! ما فكرت فيه مطلقًا». فيعود السمسار يقول له: «أعتقد أنك محتاج إلى رخصة يا سيدي..». ويذهل والدي ويفكر قليلًا ثم يقول: «لا.. لا.. إنني كبير في السن.. ومفرط في السمنة إلى

حد لا أصلح معه للزواج». فيقول السمسار: «أبدًا والله.. لست كذلك يا سيدي». ويجيب الوالد: «لا أظن»، ولكن صاحبنا يقول له: «أنا متأكد أنك لست كذلك.. لقد زوجنا سيدًا في ضعفيّ بدانتك، في يوم الإثنين الماضي»، ويقول الوالد: أحقًّا؟ فيجيب السمسار: فعلًا. وأنت طفل صغير بالنسبة إليه.. من هنا الطريق يا سيدي، من هنا.. ومشى والدي في أثره كما يمشي القرد المستأنس خلف صاحبه، حتى وصلا إلى مكتب منعزل، حيث جلس رجل وسط أوراق قذرة وصناديق صفيح صغيرة، ليوهم أنه مشغول ولديه أعمال كثيرة، ويقول هذا المحامي للسيد الوالد: تفضل اجلس ريثما أتم تحرير الإقرار، فيقول أبي: «شكرًا لك يا سيدي» ويجلس وهو محملق البصر فاغر الفم على سعته، يتأمل الأسماء المكتوبة على الصناديق، ويسأله المحامي: ما الاسم الكريم؟ فيجيب الوالد اسمي «توني ويلر» فيعود يسأله: وأية أبرشية تتبع؟ ويقول أبي: «بل سفج» وهو محل الشراب الذي كان قد عرج عليه في طريقه قبل حضوره، ولم يكن يعرف أية «أبرشيات» إي والله لم يكن فعلًا يعرف. ويسأله المحامي: وما اسم السيدة؟ فبهت الوالد ولم يدر بماذا يجيب. قال والله لا أعرف، ويقول المحامي: لا تعرف.. كيف هذا؟ ويجيب والدي: والله لا أدري.. ألا يجوز أن نؤجل مسألة الاسم إلى ما بعد؟ ويقول المحامي: مستحيل، وهنا يفكر الوالد لحظة ثم يقول: حسنًا، اكتب «مسز كلارك» ويقول المحامي وهو يغمس القلم في الدواة: «أي كلارك؟» فيرد الوالد قائلًا: «سوزان كلارك ماركيز أو جرانبي من ناحية دركنج، فهي ستقبلني إذا طلبت ذلك إليها.. أنا لم أقل شيئًا لها، ولكني

أعرف أنها سترضى بي». وهكذا تم تحرير الرخصة، والواقع أنها رضيت به، وأدهى من ذلك أنها الآن قابضة على خناقه، وأنا لم أفز بشيء من الأربعمائة جنيه.. حظ سيئ.. أرجوك المعذرة يا سيدي.. كلما ذكرت هذه المظلمة، أجري كالعجلة الجديدة عقب «التشحيم».

وغادر «سام» الحجرة بعد أن وقف لحظة ليتبين هل هو مطلوب لشيء آخر.

وقال السيد: «ولسنا بحاجة إلى تقديمه للقارئ، فهو المستر جنجل بعينه، الساعة التاسعة والنصف.. هذا هو الوقت الملائم.. فلأذهب في الحال..».

وقالت العمة العانس بدلال ودعابة: «الوقت الملائم.. لأي شيء؟».

قال وهو يضغط يد العمة العانس: «للرخصة يا أعز الملائكة، وإعطاء خبر للكنيسة لكي أدعوك مليكتي غدًا..».

وقالت راشيل بحياء: «الرخصة..».

وردد المستر جنجل الكلمة وترنم قائلًا:

«في سرعة العربة للرخصة اذهب..».

«وفي عجلة، دقات الجرس أؤوب..».

قالت: «ما أشد استعجالك!».

قال: «استعجالي! لا شيء يقف أمام الساعات والأيام والأسابيع، والشهور والأعوام التي ستوحد بيننا وتجمعنا.. أنا مستعجل، ستطير كلها.. مقلقًا.. وفوهة.. وقاطرة.. وقوة ألف حصان.. لا شيء».

وسألت راشيل: «ألا يمكن.. ألا يمكننا أن نقترن قبل صباح غد؟».

قال: «مستحيل، لا يمكن.. إبلاغ الكنيسة.. استخراج الرخصة اليوم.. الاحتفال بالقران غدًا».

وقالت راشيل: «إني في هلع من أن يكشف أخي أمرنا».

قال: «يكشف أمرنا!.. كلام فارغ.. هزته كسرة المركبة هزة شديدة.. وبجانب ذلك.. اتخذت أشد الحيطة.. تركنا المركبة.. مشينا.. أخذنا عربة مأجورة.. جئنا إلى «الضاحية».. آخر مكان في العالم يخطر بباله أن يبحث فيه عنا.. ها.. ها.. فكرة مفتخرة هذه، جدًّا».

وقالت العانس بحب، وهو يلصق قبعته الضيقة برأسه: «لا تغب».

قال: «أغيب عنك.. أيتها الفاتنة القاسية».. وأسرع في مجانة إلى العمة العانس، وطبع قبلة بريئة على شفتيها، واندفع من الحجرة وهو يرقص.

وقالت العمة العانس وهو يغلق الباب وراءه: «يا له من عزيز!».

وقال هو لنفسه وهو منصرف من الردهة: «يا لها من فتاة عجوز بديعة!».

ومن المؤلم للخاطر أن يتمثل المرء منا مبلغ غدر الإنسان ولؤمه، ولهذا لا نبغي أن نتابع خيط أفكار المستر جنجل وسلسلة تصوراته وهو منطلق في طريقه إلى حي الأطباء، وإنما حسبنا في هذا المجال أن نقول إنه أفلت من شراك السمسارين الواقفين بالمرصاد في بذلتيهما ذواتي اللون الأبيض.

ووصل إلى مكتب القسيس العام بسلام، وبعد أن ظفر بكتاب رقيق لطيف العبارة، محرر على ورق مصقول جميل من كبير أساقفة كانتربري إلى عزيزيه المخلصين «الفرد جنجل» و«راشيل واردل» تحيات وسلامًا وبعد...إلخ. وضع بكل حذر الوثيقة الشرعية في جيبه، وعاد أدراجه منتصرًا إلى المدينة.

وبينما كان في طريقه إلى الفندق، إذ دخل الفناء سيدان بدينان وآخر نحيف، وتلفتوا حولهم للبحث عن شخص مسئول يمكن الحصول منه على بضع معلومات، واتفق أن كان المستر صمويل ويلر منهمكًا عندئذ في تلميع حذاء طويل لمزارع جلس يستمتع بغداء خفيف يتألف من رطلين أو ثلاثة أرطال من اللحم البارد، وجرة أو جرتين من النبيذ، بعد متاعب السوق.

وتقدم السيد النحيف رأسًا إلى المستر صمويل ويلر فقال: «يا صديقي!».

وقال «سام» لنفسه: «يظهر أنك من الذين يطلبون المشورة ولا يدفعون شيئًا، وإلا لما حييتني هكذا مسرعًا، ودعوتني صديقًا..».

ولكنه أجاب السائل قائلًا: «نعم يا صديقي».

وقال السيد النحيف بنحنحة مغرية: «اسمع يا صديقي.. هل لديكم هنا نزلاء كثيرون الآن.. والحركة طيبة؟».

واختلس سام نظرة إلى السائل، فبدا له أنه رجل نحيف، «ضامر» ذو وجه أسمر مغلق وعينين صغيرتين خلاجتين، لا تكفان عن الغمز

والاختلاج واللمع على كلا جانبي أنفه الدقيق الملح، وكان مرتديًا ثيابًا سوداء، ومنتعلًا حذاء برَّاقًا كعينيه، وغطاء رقبة صغير أبيض اللون، وقميصًا نظيفًا متغضنًا وسلسلة ساعة ذهبية وخاتمًا متدليًا من جيب صداره، وكان يحمل قفازًا أسود من جلد الماعز في يديه، لا عليهما، وكلما تكلم ألقى بمعصميه تحت ذيل ردائه، فعل الرجل الذي اعتاد حل المشكلات.

وعاد الرجل النحيل يسأل قائلًا: «الحركة طيبة.. هه؟».

وأجاب سام: «طيبة جدًّا يا سيدي. فلا ينتظر أن نفلس، ولا أن نغتني، يكفينا أننا نأكل لحم الضأن المسلوق بغير قبار، ولا يهمنا الفجل الحراق، ما دمنا نجد لحم العجول».

وقال الرجل النحيل: «أراك ابن نكتة.. أفأنت كذلك؟».

وأجاب سام: «كان أخي الكبير مصابًا بهذا المرض، ومن الجائز أنه من الأمراض المعدية.. وقد اعتدت أن أنام معه!».

وعاد السيد النحيف يقول وهو يدير عينيه فيما حوله: «وهل هذا الفندق القديم العجيب لك؟».

وأجاب سام بكل برود: «لو كنت أرسلت خبرًا أنك قادم لأصلحناه ورممناه».

وبدت على الرجل النحيف الحيرة من هذه الردود المسكنة، فاختلى بالسيدين البدينين للمشاورة. ولم يكد يتم تبادل الرأي حتى تناول شيئًا قليلًا من علبة عطوسه الفضية المستطيلة الشكل، وهم بتجديد الحديث،

لولا أن أحد السيدين الضخمين، وهو رجل تلوح الطيبة على وجهه ويضع منظارًا على عينيه، ويلبس «طماقًا» أسود اللون، بادر إلى التدخل قائلًا لسام: «إن واقع الأمر هو أن صديقي هذا- مشيرًا إلى السيد البدين الآخر- سيعطيك نصف جنيه، إذا أنت رددت على سؤال أو سؤالين...».

ولكن السيد النحيل قاطعه بقوله: «كلا. يا سيدي العزيز كلا، يا سيدي العزيز! من فضلك اسمح لي يا سيدي العزيز. إن المبدأ الأول الذي ينبغي أن يراعى في هذه المسائل هو أنك إذا وضعت مسألة ما في يدي أحد أرباب المهنة، فلا يجوز لك بأية حال أن تتدخل في سيرها، بل يجب أن تضع فيه ثقتك المطلقة، وفي الحقيقة يا مستر...».

والتفت إلى السيد الآخر البدين:

«لقد نسيت اسم صديقك».

وأجاب المستر واردل: «بكوك» ولم يكن الرجل المعني بالسؤال أحدًا غير صاحب هذه الشخصية المرحة.

وواصل السيد النحيف حديثه قائلًا: «وفي الحقيقة يا مستر بكوك أستميحك المعذرة يا سيدي العزيز، وفي الحقيقة إني ليسعدني أن أتلقى أية مقترحات منك «بصفة ودية»، كما نقول نحن رجال القانون، ولكن لا يخفى عليك بطبيعة الحال مبلغ الخطأ البالغ من تدخلك في تصرفاتي في هذه القضية، بهذا الاقتراح الذي تعرض فيه دفع نصف جنيه، إنه اقتراح من النوع الذي نسميه في اصطلاحنا القانوني «إغراء». في الحقيقة يا سيدي العزيز، في الحقيقة».

وتناول السيد النحيل قدرًا «جدليًّا» من عطوسه، وبدا عليه الجد المتناهي.

وقال المستر بكوك: «إن كل رغبتي يا سيدي هي أن أنهي هذه المسألة المؤلمة في أسرع وقت ممكن».

وأجاب السيد النحيف: «صح.. صح.. تمام!».

وواصل المستر بكوك حديثه قائلًا: «وفي سبيل تحقيق هذا الغرض، استعنت بالحجة التي علمتني التجارب أنها الوسيلة التي يغلب على الظن أنها الطريقة الناجحة في كل قضية».

وقال الرجل النحيل: «حسن جدًّا.. حسن جدًّا.. فعلًا ، ولكن كان يصح أن تقترحها عليَّ أنا أولًا. إنني واثق يا سيدي العزيز أنك لست تجهل مدى الثقة التي ينبغي أن توضع في أرباب المهنة، وإذ لم يكن بد في هذه النقطة من الاستناد إلى السوابق والأمثال، فدعني يا سيدي العزيز أحيلك إلى القضية المشهورة في بارنول و....».

وهنا قاطعه سام، وكان قد لبث يستمع في دهشة خلال هذا الحوار القصير، فقال:

«إن مسألة جورج بارنول لا تهم في الموضوع. كل إنسان يعرف أي نوع من القضايا كانت قضيته، وإن كان رأيي الذي لا أتحول عنه، أتفهمني؟ كان رأيي الثابت أن المرأة الشابة كانت تستحق الشنق أكثر منه. ولكن هذه المسألة على أية حال، غير ذات بال، أنت تريد مني أن أقبل نصف جنيه، حسن جدًّا، وأنا قبلت، هذا هو ما أقوله، وليس عندي قول

أحسن منه»- والتفت إلى المستر بكوك قائلًا: «هل يمكنني يا سيدي؟». وهنا ابتسم المستر بكوك، وقال: «ثم ننتقل إلى المسألة الأخرى، ماذا بالله تريد مني، كما قال الرجل حين رأى العفريت؟».

وهنا قال المستر واردل: «نريد أن نعرف...».

وقاطعه السيد النحيف المترقب لكل كلمة: «والآن يا سيدي العزيز، يا سيدي العزيز».

فهز المستر واردل كتفيه ولزم الصمت.

وواصل السيد النحيف حديثه بجد بالغ: «نريد أن نعرف، نريد أن نسألك أنت، حتى لا نثير مخاوف في الداخل، نريد أن نعرف من هم النزلاء في اللحظة الراهنة في الفندق؟».

وأجاب سام: «من هم النزلاء؟» ولم يكن يعرف النزلاء إلا بذلك الجزء الخاص من ثيابهم الذي يقع تحت ملاحظته مباشرة، ونعني به «الأحذية»، ومضى يقول: «عندنا الساق الخشبية في رقم ٦، وعندنا زوجان من الروس في رقم ١٣، وعندنا «نصفان» في التجاري، وهذا الحذاء الطويل الممسوح للجالس في ركن منزو من «محل الشراب».. وخمسة أحذية طوال أخرى في غرفة القهوة».

وعاد السيد النحيف يسأله: «أليس هناك آخرون؟».

فأجاب سام وقد تذكر فجأة: «قف لحظة. نعم عندنا زوج أحذية طرز ولنجتون طال العهد على انتعاله، وزوج من أحذية السيدات، في رقم ٥».

وسأله واردل في عجلة، وكان هو والمستر بكوك قد استولى الذهول عليهما، عند استعراض أوصاف النزلاء على تلك الصورة: «أي نوع من أحذية النساء هو؟».

فأجاب سام: «من صنع الريف».

- «وهل كتب عليه اسم الصانع؟».

- «أي نعم. براون».

- «ومن أي بلد؟».

- «من ماجلتون».

فصاح المستر واردل قائلًا: «هما، والله لقد اهتدينا إليهما.

وعاد سام يقول: «صه. أما الولنجتون فقد ذهب إلى حي (الأطباء)».

وقال السيد النحيف: «كلا. أأنت واثق؟».

فقال: «نعم.. لأجل الرخصة».

وعاد واردل يصيح قائلًا: «لقد أتينا في الوقت المناسب هيا، أرنا الحجرة، فلا ينبغي أن نضيع لحظة واحدة».

وتدخل السيد النحيف قائلًا: «أرجوك يا سيدي العزيز، أرجوك، الاحتياط، الاحتياط». وأخرج من جيبه كيسًا من الحرير الأحمر، ونظر طويلًا في وجه «سام» وهو يخرج من الكيس جنيهًا ذهبيًا.

وتهللت أسارير سام على مشهده.

وقال السيد النحيل: «أرنا الحجرة في الحال، دون أن تعلن قدومنا».

فألقى سام الحذاء الطويل الممسوح في ركن، وتقدم الجمع يشق الطريق من خلال دهليز مظلم، ويصعد بهم سلمًا رحيبًا، ووقف في نهاية دهليز آخر، ومد يده وهمس للمحامي وهو يضع النقود في كفه: «ها هو ذا».

وتقدم سام بضع خطوات يتبعه الصديقان ومستشارهما القانوني، حتى وقف بباب هنالك.

وغمغم السيد النحيف قائلًا: «أهذه هي الغرفة؟».

فأومأ سام إيماء الإيجاب.

وفتح الشيخ واردل الباب، ودخل الثلاثة كلهم في اللحظة التي كان فيها المستر جنجل قد عاد من مهمته، ووقف يبرز الرخصة أمام العمة العانس.

ولم تكد هذه تراهم، حتى أطلقت صرخة مدوية وارتمت على مقعد، وغطت وجهها بيديها، وطبق المستر جنجل الرخصة في كفه ودسها في جيب ردائه، بينما تقدم الزائرون الثقلاء إلى وسط الغرفة، وصاح واردل، وهو لاهث من شدة الغضب، يقول: «أنت. أنت وغد عجيب. ألست كذلك؟».

وقاطعه السيد النحيف، وهو يضع قبعته فوق النضد: «يا سيدي العزيز.. يا سيدي العزيز.. أرجوك أن تفكر من فضلك- هذا سب علني يستوجب رفع قضية تعويض، هدئ روعك يا سيدي العزيز- أرجوك».

وقال الشيخ: «كيف سولت لك نفسك أن تجر أختي من بيتي؟».

وعاد السيد النحيف يقول: «هذا كلام صحيح.. صح، تمام، يجوز لك أن تسأله هذا السؤال، كيف سولت لك النفس يا سيدي؟».

وقال المستر جنجل بلهفة حادة خشنة: «ومن تكون أنت؟».

واضطر السيد النحيف، من حدة لهجة السائل وخشونته، إلى التراجع خطوة أو خطوتين.

وتدخل واردل قائلًا: «من يكون هو أيها الوغد؟ إنه المحامي عني، المستر بركر من «جرايز إن».. يا بركر إنني أصر على مقاضاة هذا الشقي، ومحاكمته وتخريب بيته، وأنتِ (ملتفتًا فجأة إلى أخته) وأنتِ يا راشيل في هذه السن التي كان أولى بك فيها أن تكوني أحكم وأحجى. ماذا تقصدين بالفرار مع متشرد كهذا، وتعريض سمعة أسرتك للعار، والاستهداف لهذا البؤس والشقاء؟ هلمي البسي قبعتك وعودي، ادع لنا مركبة يا هذا في الحال. وهات حساب هذه السيدة. هل سمعت؟ هل أنت سامع؟».

وأجاب سام، وقد جاء مهرولًا حين سمع دق الباب بعنف شديد، مما يثير الدهشة في نفس أي إنسان لا يعرف أن عينه كانت تطل من خصاص الباب طيلة هذا الحديث الذي دار في الحجرة: «حالًا يا سيدي!».

وعاد واردل يقول لأخته: «البسي القبعة!».

وقال جنجل: «لا تفعلي شيئًا كهذا. وأنت يا سيدي اخرج من هنا. ليس لك عمل هنا. السيدة حرة تتصرف كما تشاء؛ لأنها تجاوزت الحادية والعشرين».

وصاح واردل باحتقار: «تجاوزت الحادية والعشرين! قل الحادية والأربعين!».

وقالت العمة العانس، وقد تغلب الغضب في نفسها على اعتزامها الإغماء: «كلا. لم أتجاوزها».

وأجابها أخوها قائلًا: «بل تجاوزتها. أنت لا تقلين عن الخمسين ساعة واحدة!».

وعندئذ أطلقت العمة العانس صرخة شديدة، وغابت عن رشدها.

وبادر المستر بكوك الإنساني الرحيم إلى مناداة ربة الفندق وهو يقول: «كوبًا من الماء».

وصاح واردل في شدة غضبه: «كوبًا من الماء! هاتوا جردلًا فألقوه على بدنها كله، لكي تفيق. إنها تستحق كل ما جرى لها».

وصرخت ربة الفندق الحنون قائلة: «يا لك من حيوان! ما أشقاك يا أختي!» وطفقت تلاطفها قائلة: «هلمي أفيقي! اشربي قليلًا من هذا يفقك. لا تستسلمي هكذا يا حبيبتي» إلى غير ذلك. وأخذت ربة الفندق بمعونة إحدى الوصيفات تمسح بالخل جبين العمة العانس، وتضرب كفيها، وتدغدغ أنفها، وتفك حمائل ثدييها، وتعطيها المنبهات ما تعطيه النساء الرحيمات عادة للسيدات اللائي يحاولن تهييج أنفسهن والالتجاء إلى التشنج.

وقال سام وقد ظهر لدى الباب: «المركبة جاءت يا سيدي».

وصاح واردل: «هيا بنا. سأحملها وأنزل بها السلم».

وعند هذا الاقتراح عاد التشنج إلى العمة العانس بشدة مضاعفة.

وهمت ربة الفندق بالدخول في احتجاج شديد على هذا التصرف، وبدأت فعلًا تغضب وتسأل واردل: هل يحسب نفسه رب الخليقة، وعندئذ تدخل المستر جنجل قائلًا: «مسّاح! ادع لي ضابطًا..!».

وأهاب السيد النحيف بالمسّاح قائلًا: «قف. قف» والتفت إلى المستر جنجل فقال: «فكر يا سيدي. فكر».

وأجاب هذا: «لن أفكر. إنها سيدة نفسها. وسأرى من الذي سيجرؤ على أخذها. إلا إذا شاءت هي».

وغمغمت العمة العانس تقول: «لا يمكن أن أوخذ، لا أريد» وهنا عاودتها الغشية المروعة.

وقال السيد النحيف بصوت خافت وهو ينتحي المستر واردل والمستر بكوك ناحية: «يا سيدي العزيز، إننا في موقف جد حرج، وقضية مؤلفة جدًا، لا أذكر أنني شهدت يومًا أسوأ منها، ولكن في الحقيقة يا سيدي، في الحقيقة لسنا نملك السيطرة على تصرفات هذه السيدة، وقد حذرتك قبل مجيئنا يا سيدي أنه لا سبيل أمامنا غير الترضية».

وسأل المستر بكوك: «بأي نوع من الترضية تشير؟».

قال: «إن صديقنا يا سيدي العزيز في موقف لا يسر، في موقف سيئ جدًا، فلنقنع بعرض بعض المال ولو خسرناه».

وقال واردل: «إنني لأوثر أن أخسر شيئًا منه على التسليم بهذه الفضيحة، وتعريض هذه الحمقاء لشقاء مؤبد».

وقال السيد النحيف الهمام: «أظن أن هذا ممكن.. يا مستر جنجل. تفضل معنا إلى الغرفة المجاورة لحظة».

وأجاب المستر جنجل الطلب، ودخل الأربعة حجرة خالية.

وبدأ السيد النحيف الحديث بعد أن أغلق الباب بعناية فقال: «والآن يا سيدي، هل من وسيلة لتصفية هذه المسألة؟ تقدم خطوة إلى هذه الناحية يا سيدي ولو لحظة. تعال إلى النافذة يا سيدي حيث تتيسر الخلوة لنا. هكذا، يا سيدي، أرجو أن تجلس يا سيدي، والآن يا سيدي العزيز بيني وبينك، إننا نعرف حق المعرفة أنك هربت مع هذه السيدة من أجل المال، لا تعبس يا سيدي لا تعبس، بيني وبينك. نحن نعرف ذلك. ونحن، أنا وأنت، من الرجال الذين يعرفون شؤون العالم، ولا يخفى علينا نحن أن هذين الصديقين ليسا كذلك؟».

وبدأ وجه المستر جنجل ينطلق شيئًا فشيئًا، ويزول العبوس منه، ولاح شيء يشبه الاختلاج لحظة خاطفة في عينه اليسرى.

وقال السيد النحيف وقد لاحظ هذه الاختلاجة التي أحدثها كلامه: «حسن جدًّا.. حسن جدًّا. والواقع أن السيدة لا تملك شيئًا كثيرًا، بل إنها عدا بضع مئات، لا تملك في الحقيقة شيئًا، قبل وفاة أمها. ولكن أمها يا سيدي العزيز عجوز دردبيس، وصحتها قوية».

وقال المستر جنجل بإيجاز، ولكن بتأكيد: «عجوز!».

ومضى المحامي يقول وهو يسعل سعلة خفيفة: «أي نعم، يا سيدي العزيز. إنها عجوز تقريبًا، ولكنها سليلة بيت قديم، نعم يا سيدي العزيز

قديم بكل معنى الكلمة، لقد جاء مؤسس هذه الأسرة إلى ولاية «كنت» حين غزا يوليوس قيصر أرض بريطانيا، ولم يحدث يومًا أن فردًا من الأسرة، اللهم إلا واحدًا- لم يعش إلى الخامسة والثمانين، ولكن هذا الواحد مات شنقًا في عهد هنري ما، هنري هذا أو ذاك، والسيدة العجوز في الثالثة والسبعين فقط الآن يا سيدي العزيز».

وتمهل السيد النحيف وتناول قدرًا من سعوطه.

وقال المستر جنجل: «وماذا أيضًا؟».

قال: «والآن ألا تتنشق؟ هذا أفضل كثيرًا، عادة كثيرة التكاليف. وأنت يا سيدي العزيز شاب ملم بشؤون الدنيا، وفي إمكانك أن تدفع بحياتك إلى الأمام إذا توافر لك شيء من المال».

وعاد المستر جنجل يقول: «وماذا أيضًا؟».

قال: «هل تفهم مرادي؟».

أجاب: «ليس كثيرًا».

قال: «ألا ترى يا سيدي العزيز! دعني أصارحك. ألا ترى أن خمسين جنيهًا، والحرية خير من واردل والانتظار؟».

وعندئذ نهض المستر جنجل من مجلسه وهو يقول: «لا يكفي بلا، لا يكفي ولا نصف الكفاية».

ولكن السيد النحيف أمسك به من زر ثوبه محتجًا، وهو يقول: «حسن، حسن، انتظر يا سيدي العزيز. رقم مستدير بديع. يستطيع رجل مثلك أن يبلغ به ثلاثة أضعافه في وقت قصير. إن خمسين جنيهًا يا سيدي

العزيز تعمل عملًا كبيرًا».

وقال المستر جنجل ببرود: «ومائة وخمسون تعمل أكثر».

وعاد السيد النحيف يقول: «حسن. يا سيدي العزيز. لا يصح أن نضيع الوقت في تجزئة القش، قل، قل سبعين!».

قال: «لا يكفي».

وقال المحامي: «لا تذهب يا سيدي العزيز، ولا تسرع، ثمانين، هلم. سأكتب لك صكًّا بها في الحال».

وعاد المستر جنجل يقول: «لا تكفي».

وقال السيد النحيف وهو يمسك به: «حسن، حسن، يا سيدي العزيز. قل لي أنت ما الذي يكفي إذن؟».

وأجاب المستر جنجل: «مسألة كلفتني نفقات كثيرة دفعتها من جيبي- أجور سفر تسعة جنيهات- رخصة ثلاثة جنيهات- الجملة اثنا عشر جنيهًا- ومائة بصفة تعويض- تكون الجملة ١١٢- إخلال بالتعهد وفقدان السيدة...».

وقال السيد النحيف بنظرة العارف: «نعم. يا سيدي العزيز.. نعم، ولكن دعنا من الفقرتين الأخيرتين، يعني مائة واثنى عشر جنيهًا، فلنقل مائة فقط، هيا».

وأجاب المستر جنجل: «مائة وعشرون».

وقال السيد النحيف بنظرة العارف: «نعم يا سيدي العزيز، صكًّا بها».

وجلس إلى المنضدة لتنفيذ الاتفاق.

وقال: وهو ينظر إلى المستر واردل: «سأجعل الوفاء بعد غد، وفي الوقت ذاته يمكننا أن نأخذ السيدة الآن».

وأومأ المستر واردل إيماء الموافقة وهو غاضب.

وقال المستر بركر: «مائة».

وعاد المستر جنجل يقول: «مائة وعشرون».

واحتج السيد النحيف قائلًا: «يا سيدي العزيز...».

وتدخل المستر واردل فقال: «أعطه القدر المطلوب، ودعه يذهب».

وتم تحرير «الصك» ودسه المستر جنجل في جيبه.

ونهض المستر واردل وهو يقول: «والآن انصرف من هذا المكان في الحال!».

وقال السيد النحيف: «يا سيدي العزيز....».

وعاد المستر واردل يقول: «ولا تنس أنه ما كان شيء في هذا العالم ليحملني على هذا الحل، حتى ولا الإبقاء على كرامة أسرتي، لو لم أعرف أنك في اللحظة التي ستذهب فيها والمال في جيبك هذا، ذاهب إلى الشيطان أسرع ما تكون خطى، وأعجل إذا أمكن مما كنت إليه ذاهبًا، وأنت لا تملك منه شيئًا».

وعاد السيد النحيف يحتج قائلًا: «يا سيدي العزيز...».

واستتلى واردل يقول: «اسكت يا بركر. وأنت يا سيدي انصرف من الحجرة».

وأجاب المستر جنجل بكل صفاقة: «حالًا... وداعًا يا بكوك! إلى الملتقى».

ولو أن امرءًا هادئ الطبع رأى وجه ذلك الرجل العظيم الذي وسم هذا الكلب باسمه، خلال الجزء الأخير من ذلك الحديث، لكاد يعجب لنار الغضب التي تأججت في عينيه كيف لم تذب زجاجة منظاره، فقد كان غضبه رهيبًا جليلًا، وخيشومه راعشًا، وقبضتا يديه مجتمعتين رغم إرادته، حين سمع اسمه ينبعث من فم ذلك المجرم الأثيم، ولكنه كبح جماح غضبه مرة أخرى، فلم... «يسحقه!».

ومضى ذلك الخائن الغليظ يقول وهو يلقي بالرخصة عند قدمي المستر بكوك: «خذ وغير الاسم وعد بالسيدة إلى البيت، إنها تصلح لطبي»..

وكان المستر بكوك فيلسوفًا، ولكن الفلاسفة مع ذلك ليسوا إلا بشرًا، يلبسون دروعًا تقيهم الطعن والضرب. وقد أصابه السهم، ونفذ في دروعه الفلسفية إلى صميم قلبه فأصمه. وفي جنة الغضب الذي استولى عليه، راح يقذف بالدواة إلى الأمام في جنون ويندفع هو نفسه وراءها، ولكن المستر جنجل كان قد توارى، فوجد المستر بكوك نفسه في أحضان «سام»!.

وصاح هذا العامل الشاذ الغريب الأطوار: «ها! يظهر أن الأثاث رخيص في البلد الذي جئت منه يا سيدي. هذا حبر يكتب بنفسه يا سيدي. ألا ترى كيف كتب علامتك على الجدار أيها السيد الكبير؟ هدئ روعك يا سيدي. ما الفائدة من الجري وراء رجل ظفر بالحظ،

ووصل إلى الطرف الآخر من الضاحية في هذه اللحظة؟».

وكان عقل المستر بكوك كعقول بقية العظماء حقًّا مهيأ للاقتناع، وهو المفكر السريع القوي العارضة، فلا غرو إذا كانت لحظة تفكير واحدة كافية لتذكيره بأن غضبه لا أثر له، ولا جدوى منه، فلم يلبث أن هدأ بالسرعة ذاتها التي هاج بها وثار، وراح يلهث وينظر نظرة حنان وطيبة إلى صديقَيْه.

والآن، هل نحدثكم عن العويل الذي جرى حين وجدت مس واردل نفسها مهجورة، قد تخلى عنها جنجل الغادر؟ وهل نحدثكم بشيء مما كتبه المستر بكوك من وصف رائع لذلك «المشهد الذي يقطع نياط القلوب»؟.

إن كناشته التي محت أسطرها دموع العطف الإنساني مبسوطة الساعة منثورة بين أيدينا، وكلمة واحدة تذهب بها إلى أيدي الصفاقين والطامعين... ولكن كلا! ينبغي أن نحزم الأمر، فلا نهز صدر الجمهور برسم ذلك الألم الشديد.

وحسبنا أن نقول إن الصديقين والسيدة المهجورة، عادوا بحزن ووجوم وبطء إلى البيت في غداة اليوم التالي في مركبة ماجلتون الكبيرة، كانت ظلال المساء القاتمة قد غمرت ما حولهم حين وصلوا إلى «دنجلي ديل» ووقفوا في مدخل «ضيعة مانور».

* * *

# الفصل الحادي عشر

**رحلة أخرى - وكشف أثري - وتسجيل اعتزام المستر بكوك**
**حضور معركة انتخابية - ومخطوط من القسيس الشيخ**

وكانت ليلة هدوء وراحة في ذلك السكون التام الذي يحيط بمزرعة «دنجلي ديل»، وساعة كاملة في استنشاق أنسامها العليلة، وهوائها العطر، في صباح اليوم التالي، كافيتين لاستجمام المستر بكوك من أثر تعبه الجثماني الأخير، وقلقه النفسي، فقد غاب هذا الرجل العظيم عن أصحابه ومريديه يومين كاملين، فلا غرو إذا هو شعر بقدر من السرور والابتهاج لا يستطيع الخيال العادي أن يتصوره على حقيقته، حين تقدم خطوة للسلام على المستر ونكل، وتحية المستر سنودجراس، عندما التقى بهما بعد عودته من رياضته في بكرة الصباح.

وكان السرور متبادلًا، ومَنْ ذا الذي ينظر إلى وجه المستر بكوك المشرق المتهلل، ولا يشعر بهذا الشعور؟ ولكن بدت على صديقَيْه غمامة لم تكن لتفوت عين ذلك الرجل العظيم، أو تخفى على مشاعره،

وإن عجب وحار في تعليلها، فقد كان يلوح عليهما معًا شيء غريب، غير مألوف، بل مزعج أيضًا.

وقال المستر بكوك وهو يتلقى صاحبيه باليدين، ويبادلهما أصدق التحيات والترحاب: «وكيف حال طبمن؟».

ولم يحر المستر ونكل جوابًا، وإن كان السؤال موجهًا إليه خاصة أو أكثر من صاحبه، بل أشاح بوجهه وبدا عليه الاستغراق في تفكير أليم.

وعاد المستر بكوك يقول بجد: «كيف حال صديقنا يا سنودجراس؟ إنه ليس مريضًا؟».

وأجاب المستر سنودجراس، وقد تحيرت دمعة في مآقيه كقطرة من قطرات المطر على إطار نافذة: «كلا، ليس مريضًا».

ووقف المستر بكوك ينقل عينيه في صديقيه.

قال: «ونكل، سنودجراس، ما معنى هذا، أين صديقنا، وما الذي حدث؟ تكلما أستحلفكما بالله، أناشدكما، بل آمركما أن تتكلما».

وكانت دعوة المستر بكوك إليهما مقترنة برهبة وجلال لا يستطيعان مقاومتهما.

وهنا قال المستر سنودجراس: «لقد ذهب!».

فصاح المستر بكوك: «ذهب! ذهب!».

وعاد المستر سنودجراس يقول: «ذهب».

وصاح المستر بكوك قائلًا: «إلى أين؟».

وأجاب المستر سنودجراس، وهو يخرج كتابًا من جيبه ويضعه في يد صديقه: «ليس في وسعنا غير الحدس والتخمين، بعد قراءة هذا الكتاب، وقد لوحظ صباح أمس حين وصل كتاب من المستر واردل يقول فيه إنه عائد مع أخته ليلًا، إن الكآبة التي كانت مخيمة على صديقنا طيلة اليوم السابق قد أخذت تشتد، ولم يلبث أن اختفى سحابة النهار كله، وجاء بهذا الكتاب في المساء رسول من فندق «الكراون» في ماجلتون، وقال إنه تركه لديه في الصباح، مع تعليمات مشددة بألا يسلم الكتاب قبل حلول المساء».

وفضل المستر بكوك الرسالة، فوجدها بخط صاحبه، وهي تحوي هذه الكلمات:

«عزيزي بكوك:

«إنك يا صديقي العزيز بعيد بمراحل من منال كثير من مواطن الضعف الخلقي التي لا يستطيع الناس الغلبة عليها، ولست تدري ما مدى مصاب رجل حين تهجره فجأة إنسانة محببة، ومخلوقة فاتنة، وحين يقع فريسة لاحتيال مجرم شقي، جعل يخفي بسمة الخبث والمكر خلف قناع المودة. وأرجو الله أن لا يعرضك يومًا لمثل هذا المصاب... إن أي كتاب يرسل بعنواني هذا: «لذر بوتل- قربة الجلد- كوبهام- كنت، سيجدني، إذا فرضنا أنني سأظل حيًّا. إني مسارع من مشهد هذه الدنيا التي أصبحت قبيحة نكراء في عيني، فإن أنا سارعت من هذا العالم كله، فرحمة بي، ومغفرة لي. إن الحياة يا عزيزي بكوك لم تعد تطاق

عندي أو تحتمل، وإن الروح التي تحترق فينا لأشبه بعقدة الحمال يريح عليها المرء أثقال همومه وأحمال متاعبه، فإذا هي خذلتنا، لم نعد نطيق لأحمالنا وأعبائنا احتمالًا، بل نروح تحتها... لك أن تنبئ راشيل... آه... من ذلك «الاسم!»... تراسي طبمن».

وانثنى المستر بكوك يقول، وهو يطوي الكتاب: «يجب أن نغادر هذا المكان في الحال... ما كان يجمل بنا أن نمكث فيه، بأي حال، بعد الذي جرى، ونحن الآن مضطرون إلى السفر لافتقاد صديقنا».

ومشى في المقدمة صوب البيت.

وبادر إلى إعلان عزيمته، وكانت دعوات القوم له ومناشدتهم إياه البقاء صادقة ملحة، ولكن المستر بكوك لم ينثنِ عن عزمه، ولم يلن لرجاء، معتذرًا بأن عملًا كثيرًا يقتضيه الاهتمام العاجل به.

وكان القسيس الشيخ حاضرًا، فانتحى بالمستر بكوك ناحية وأنشأ يقول: «لا أحسبك ذاهبًا في الواقع. أذاهب حقًّا؟».

فردد المستر بكوك القول بأنه فعلًا مسافر.

وقال السيد الكبير: «إذن هاك مخطوطًا صغيرًا كنت أرجو أن تتاح لي متعة قراءته عليك بنفسي، فقد عثرت عليه عند وفاة صديق لي من المشتغلين بالطب، في مستشفى الأمراض العقلية ببلدنا مع جملة أوراق أخرى ترك لي الخيار بين إتلافها أو الإبقاء عليها، إذا رأيتها تستحق الحرص عليها. ولا أكاد أعتقد أنه مخطوط حقيقي، وإن كان من المؤكد أنه ليس مكتوبًا بخط صاحبي، ولكن لتقرأه، ولتحكم بنفسك، سواء كان

حقيقة من وضع رجل مجنون فعلًا، أو مبنيًّا على تخريفات إنسان معذب وهو ما أعتقد أنه الأرجح».

وتناول المستر بكوك المخطوط، وودَّع الشيخ الخير الطيب، مبديًا له كثيرًا من الاحترام وصادق الدعوات.

وكان توديع أهل الضيعة الذين أكرموا مثواهم، وأحسنوا وفادتهم أشق وأصعب من توديع ذلك الشيخ، وأقبل المستر بكوك على الفتاتين يقبِّلهما، وقد هممنا أن نقول كما لو أنهما ابنتاه، لكن المقارنة ما كانت تصح، وإن كان من الجائز أن يبث في هذا السلام قدرًا أكبر من الحرارة، كما عانق السيدة العجوز عناق الابن لأمه، وربَّتَ بكفه خدود الخادمات في أبلغ صورة الأبوة وأصدق مظاهرها، وهو يدس في كف كل منهن بعض الأدلة المادية على رضاه وارتياحه. وكان تبادل التحيات بينهم وبين مضيفهم الكريم الكبير، والمستر تراندل أبلغ كثيرًا من ذلك، وأطول أمدًا، ولم يتمكن الأصحاب الثلاثة من الإفلات من مكرميهم إلا بعد أن نودي مرارًا على المستر سنودجراس، فخرج أخيرًا من دهليز مظلم، وتبعته وشيكًا إميلي، وكانت عيناها البراقتان تلوحان قاتمتين على غير العادة، وراحوا يلقون عدة نظرات إلى الضيفة، وهم سائرون في طريقهم بخطى بطيئة، وكم من قبلة حمَّلها المستر سنودجراس الريح؛ ردًّا على شيء يشبه منديل سيدة كان ملوحًا به من إحدى النوافذ العليا، حتى بلغوا منعرجًا في طريقهم؛ فاحتجب البيت عن أنظارهم.

ولما وصلوا إلى ماجلتون استأجروا مركبة تقلهم إلى روشستر، وكانت شدة حزنهم قد خفَّت عند بلوغها إلى حد سمح لهم بتناول عشاء

مبكر شهي فاخر، وبعد أن ظفروا بمعلومات ضرورية تتصل بالطريق إلى الوجهة المقصودة، عاودوا المسير إلى «كوبهام» مع الأصيل.

وكان السير بهيجًا، فقد كان الأصيل جميلًا في أحد أيام شهر يونية، وكان طريقهم يشق صميم غابة مترامية ظليلة، تهب عليها الأنسام فترسل حفيفًا رفيقًا وسط أوراق الشجر الألفاف، ويزيدها لطفًا وجمالًا شدو الأطيار الجامحة فوق الأغصان، ويتسلل خلالها اللبلاب والطحلب في عناقيد كثيفة متلوية حول الدوح، ويكسو العشب الناضر اللين الأرض بساطًا من سندس، وما زالوا يسيرون في وسط تلك الغابة حتى ألموا على أرض فضاء، وبستان نضير، وبناء قديم، يدل طرازه الأثري الجميل على أنه يرجع إلى عهد الملكة «إليزابيث». وتبدو على كل جانب صفوف طوال من أشجار السرو الرائعة الفخمة وأسمطة من «الدردار»، وتشاهد قطعان كبيرة من الغزلان وهي ترعى الكلأ الندي الصبيح، وبين الفينة والفينة يتراءى أرنب بري وجل يعيث في الأرض ويجول في رحابها، بسرعة الظلال التي تلقيها السحب الخفاف الخاطفة على ذلك المشهد المشمس، كأنها أنفاس عابرة انبعثت من أعماق صدر الصيف.

وقال المستر بكوك وهو يجيل العين فيما حوله: «يخيل إليَّ أنه لو كان هذا هو الموضع الذي يأتي إليه كل الذين يشكون مما يشكو منه صاحبنا، لعاودهم وشيكًا تعلقهم القديم بهذا العالم».

وقال المستر ونكل: «وهذا رأيي أيضًا».

ومضى المستر بكوك، بعد أن أوصلهم المسير نصف ساعة إلى

القرية يقول: «وفي الحق. إن هذا الموضع أصلح ما يختاره كاره الناس، وأجمل نزل، وأشهى مستقر رأيته في حياتي».

وأبدى كل من المستر ونكل والمستر سنودجراس موافقته أيضًا على هذا الرأي.

وبعد الاهتداء إلى حانة لذربوتل، وهي حانة قروية نظيفة رحيبة لشرب الجعة، دخل المسافرون الثلاثة وسألوا في الحال عن سيد يدعى «طبمن».

وقالت ربة الحان: «أر السادة قاعة الجلوس يا توم!».

وفتح غلام ريفي ضخم البدن بابًا في نهاية الردهة، فدخل الأصدقاء الثلاثة حجرة مستطيلة خفيضة السقف، فُرِشت بعدد كبير من المقاعد ذات ظهور ومساند مرتفعة، ووسائد من الجلد غرائب الأشكال، وازدانت جدرانها بعدة رسوم قديمة مختلفة الألوان، وصور أثرية أخرى، وفي طرفها الأقصى تقوم مائدة مكسوة بغطاء أبيض، وقد صُفَّت عليها دجاجة مشوية، ولحم خنزير، وشراب وما إليه، وقد جلس إليها المستر طبمن، وهو أبعد ما يكون شبهًا بالرجل الذي أراد أن يودِّع العالم ويترك الحياة.

وما إن دخل الصحب عليه حتى وضع السكين والشوكة فوق المائدة، وتقدم للقائهم تبدو عليه سمات الكآبة والأحزان.

قال وهو يتناول يد المستر بكوك: «لم أكن أتوقع لقاءكم هنا، إن هذا منكم لكريم».

وقال المستر بكوك وهو يجلس ويمسح عن جبينه العرق الذي تصبب من طول المسير: «آه أكمل غداءك، وتعال سر معي، فإني أريد أن أتحدث إليك على انفراد».

ففعل «طبمن» كما طلب إليه، وبعد أن أنعش المستر بكوك نفسه برشفة طيبة من الشراب، لبث ينتظر صديقه حتى ينتهي من طعامه على مهل، ولكن الطعام انتهى عاجلًا، فانطلقًا يسيران معًا.

وكانا يبدوان خلال فترة تقرب من نصف ساعة رائحين غاديين في فناء الكنيسة، ويلوح المستر بكوك من بعيد منهمكًا في مقاومة الأمر الذي اعتزم صديقه الإقدام عليه، وليس ثمة فائدة من تكرار أقواله هنا وحججه؛ إذ ليت شعري أية لغة يمكن أن تعبِّر عن تلك القوة التي راح صاحب تلك الحجج البديهية يستعين بها على شرحها، ولا يهمنا أن نعرف هل كان المستر طبمن قد برم فعلًا بالعزلة التي أرادها، أو شعر بأنه العاجز كل العجز عن مقاومة تلك المناشدة البليغة التي سمعها من صاحبه، وإنما كل ما يهمنا أنه سلَّم في النهاية، وانثنى عن المقاومة، وأنشأ يقول إنه لم يعد يهمه أن يقضي البقية التعسة من أيامه في هذه الدنيا، ولكن ما دام صديقه قد أصر على أن يصحبه، ورضي برفقته الذليلة، فلا يسعه إلا قبول مقاسمته أسفاره ومخاطره.

وابتسم المستر بكوك، وتصافح الصديقان، وعادا أدراجهما ليوافيا رفيقيهما الآخرين.

وفي تلك اللحظة بالذات تواتى للمستر بكوك ذلك الكشف الخالد الذي كان موضع فخار أصدقائه واعتزازهم، ومثار حسد كل عالم أثري

في هذا البلد وسواه، فقد حدث وهما يجتازان الفندق، ويبتعدان قليلًا في بعض أرجاء القرية أن تذكَّرا البقعة بالذات التي يقوم فيها، فتلفتا وراءهما، وعندئذٍ وقعت عين المستر بكوك على حجر صغير مكسور، يبدو جزء منه مدفونًا في الأرض أمام باب كوخ، فوقف لحظة ينظر، ثم أنشأ يقول: «إن هذا لشيء عجاب!».

وقال المستر طبمن، وهو ينظر بلهفة إلى كل ما هو منه قريب، ويحدّق في كل شيء ببصره، عدا الشيء الذي يعنيه صاحبه: «ما هو هذا العجاب؟ يا عجبًا... ما الخطب وما الأمر؟».

وكانت هذه العبارة الأخيرة صيحة تنم على الدهشة الشديدة، سببها أنه رأى المستر بكوك في حماسته للكشف، وولوعه بالتنقيب، يجثو على ركبتيه أمام ذلك الحجر الصغير، ويشرع في إزالة الغبار الذي علاه بمنديله.

وقال المستر بكوك: «أرى نقشًا هنا...».

وقال المستر طبمن: «أممكن هذا؟».

ومضى المستر بكوك يقول، وهو يحكه بكل ما أوتي من قوة، وينظر بانتباه بالغ من خلال منظاره: «إنني ألمح صليبًا وأتبين حرف الباء، ثم حرف «التاء» هذا شيء من الخطر بمكان، إنه بعض نقوش قديمة لعلها ترجع إلى ما قبل قيام الملاجئ القديمة في هذا الموضع بأمد طويل».

ودق برفق باب الكوخ، فخرج له رجل يعمل في الأرض، فبادره

المستر بكوك الخيِّر الكريم بالسؤال قائلًا: «هل تعرف يا صديقي كيف أتى هذا الحجر إلى هنا؟».

وأجاب الرجل بأدب قائلًا: «كلا، لا أعرف يا سيدي، إنه كان هنا قبل أن أولد أو يولد أحد منا بعهد طويل».

فنظر المستر بكوك إلى رفيقه نظرة المنتصر.

وانثنى يسأل الرجل وهو يهتز من شدة الفضول: «إنك إنك.. أحسبك لا توليه اهتمامًا خاصًّا، فهل ترضى أن تبيعه الآن».

وسأل الرجل وقد بدت على وجهه من الأمارات ما يغلب على الظن أنه ينم عن المكر الشديد: «ولكن منذا يرضى أن يشتريه؟».

وقال المستر بكوك: «سأعطيك عشرة شلنات في الحال إذا أنت حملته من مكانه لأجلي».

ومن السهل أن تتصور مبلغ الدهشة التي استولت على القرية، حين رأوا المستر بكوك بعد أن تم انتزاع ذلك الحجر الصغير بضربة فأس واحدة يحمله بجهد شديد بكلتا يديه إلى الفندق، ويضعه فوق المنضدة بعد مسحه بعناية وتنظيفه.

أما فرح البكوكيين وسرورهم به فقد جاوزا الحدود، حين رأوا بعد الصبر والمثابرة على التنظيف والتشطيف والحك والدعك، أن جهدهم كلل بالنجاح.

وكان الحجر غير مستوي الأطراف، وكانت الحروف المنقوشة عليه متباعدة، وغير منتظمة، ولكن الجزء التالي من النقش كان جليًّا واضحًا.

| | |
|---|---|
| ب ا ل س ت | BILST |
| أ م | UM |
| ب ش ى | PSHI |
| س م | S. M. |
| أ ر ك | ARK |

ولم تلبث عينا المستر بكوك أن برقتا بريق سرور بالغ، وقد جلس ينظر إلى هذا الأثر النفيس الذي كشفه منهوم العين، فقد حقَّق مطمعًا من أكبر مطامعه، وقد تواتى له في إقليم عُرِف بكثرة ما فيه من آثار العصور الغابرة، وفي قرية لا تزال تحوي شيئًا من تذكارات الأجيال الماضية، وقد تواتى له، وهو رئيس نادي بكوك أن يكشف نقشًا غريبًا عجيبًا، لا نزاع في قِدَمه، نقشًا غاب عن أعين كثير من العلماء الذين سبقوه، حتى لم يكن يصدِّق حواسه، أو يعتمد على شهادة مشاعره.

وقال لأصحابه: «هذا... هذا هو الذي يحدوني إلى تقرير خطتي، سنعود إلى المدينة غدًا».

وصاح مريدوه المعجبون به: «غدًا؟».

قال: «أجل غدًا، إن هذا الكنز الثمين يجب أن يوضع في الحال، حيث يتسنى فحصه والتقصي في دراسته وفهمه على حقيقته، وأدى سبب آخر لاتخاذ هذا التدبير، وهو أنه بعد بضعة أيام سيجري انتخاب عن دائرة «إيتنزول» التي سيتولى فيها المستر بركر، وهو سيد التقيت من عهد قريب به، تأييد أحد المرشحين، وفي نيتي أن نشهد وندرس بدقة

مشهدًا ممتعًا لنفس كل إنكليزي أقصى غاية الإمتاع».

وصاح الرفقاء الثلاثة في نفس واحد بحماسة: «سنشهده حتمًا!».

وأدار المستر بكوك عينه فيما حوله، فلم تلبث حمية مريديه وشدة تعلقهم به أن أججتا جذوة الحماسة في صدره.

لقد كان زعيمهم، وقد أحسن هذه الزعامة حقًّا.

قال: «لنحتفل بهذا الاجتماع السعيد في شراب ومرح».

وتلقى أصحابه هذا الاقتراح الجديد بمثل ما تلقوا به الاقتراح الأول من الموافقة والارتياح العام، وبعد أن تولى بنفسه إيداع الحجر الخطير الشأن جوف صندوق صغير من الخشب، اشتراه من ربة الفندق لهذا الغرض، جلس في مقعد رحيب عند رأس المائدة، وترك المساء ينقضي كله في مهرجان وسمر.

وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة- وهو وقت متأخر بالنسبة لسكان قرية كوبهام الصغيرة- حين أوى المستر بكوك إلى غرفة النوم التي كانت قد أُعِدَّت لاستقباله، ومضى يفتح النافذة، ويضع مصباحه على المائدة، ويسبح في زاخر من الأفكار والتأملات بسبيل الأحداث السريعة التي جرت في اليومين السابقين.

وكان الزمان والمكان معًا ملائمين للتأمل، صالحين للتفكير، فلم ينتبه منهما إلا على دق ساعة الكنيسة الثانية عشرة، وكانت الدقة الأولى قد رنت رهيبة الوقع في أذنه، ولكن السكون حين كفت الساعة عن الدق بدا غير محتمل، كأنه شعر بأنه قد فقد رفيقًا؛ فاضطربت أعصابه، وهاجت

هائجته، فأسرع إلى خلع ثيابه، ورفع المصباح فوق طنف المدفأة، وأوى إلى فراشه.

وكل إنسان منا قد جرب تلك الحالة النفسية السيئة التي يحاول فيها الشعور بالتعب الجثماني مغالبة الأرق عبثًا، ومقاومة استعصاء النوم عليه، وكانت تلك حال المستر بكوك في هذه اللحظة، فقد راح أولًا يتململ على أحد جنبيه، ثم مضى ينقلب على الجنب الآخر، ويغمض عينيه بإلحاح كأنما يداعب النوم مداعبة، ويغري نفسه بالاستسلام إليه... ولكن ذلك كله لم يجد نفعًا، ومهما يكن من شيء، سواء كان الإجهاد الذي عاناه ولم يكن يألفه، أو كانت حرارة الجو، أو البراندي والماء، أو نومه في فراش غريب عليه، فقد لبثت أفكاره تعود بشكل متعب إلى الصور البشعة المعلَّقة فوق الجدران في الطبقة الأولى من الفندق، والقصص القديمة التي أثارتها في فترة المساء، وبعد أن قضى نصف ساعة في مغالبة غير منتجة، وصل إلى قرار متعب، وهو أن لا فائدة من محاولة النوم، ونهض من فراشه، فارتدى بعض ثيابه وهو يقول لنفسه إن تأدية عمل ما خير من الرقاد في الفراش، وتصور كل ضروب المفزعات، وأطل من النافذة، وكان الظلام شديدًا، فعاد يمشي في الغرفة ذهوبًا وجيئة، وبدت الغرفة لخاطره قفرًا موحشة.

وبعد أن لبث لحظة يدور بين النافذة والباب، ومن الباب إلى النافذة، خطر بباله لأول مرة ذلك «المخطوط» الذي تلقاه من القسيس، فاستروح إلى الفكرة، وبدا له أنه إذا لم يجد قراءته متعة، فلعله سيدفع به إلى النوم، فأخرجه من جيب ردائه وقرب مائدة صغيرة من سريره، وأصلح ذبالة

المصباح ووضع المنظار على عينيه، وتهيأ للقراءة. وكان الخط غريبًا، والورق ملطخًا ممحوًّا في عدة أجزاء منه، وما لبث العنوان أن أحدث هزة فجائية في نفسه كذلك، فلم يتمالك نفسه من إلقاء نظرة ترقب وتوجس حول الغرفة، ولكنه عاد يفكر في سخف الاستسلام لهذا الشعور، فأصلح من ذبالة المصباح مرة أخرى، وأنشأ يقرأ القصة التالية:

**قصة مجنون، كتبها بخط يده**

نعم ... قصة مجنون ... ما كان أشد وقع هذه الكلمة في قلبي، لو قيلت منذ عدة سنين، ولَكَمْ كانت ستثير الرعب الذي كان يتملكني أحيانًا، ويجعل الدم يصفر ويطن في عروقي، حتى ليقف العرق البارد من الخوف قطرات كبارًا على بشرتي، وترعش فرائصي من الفزع! ولكني الآن أستطيب ذلك الوصف وأستروح إليه، إنه اسم بديع، أروني الملك الذي يخشى من عبسة غضبه مثل ما يخشى من حملقة المجنون، أو تروح حباله ومقصلته يومًا مضمونة نصف ضمانة قبضة المجنون على الرقاب، أجل، أجل! إنه لشيء عظيم أن يكون المرء مجنونًا، وأن يطل عليه كما يطل على الأسد المفترس من خلال قضبان قفصه الحديدية، وأن يصرف بأسنانه، ويعوي ويزمجر في سكينة الليل الطويل وهدأته، على رنين أصفاده، ولحن سلاسله الثقال، وأن ينقلب ويتلوى بين أكداس الفتن، نشوان ثملًا بتلك الموسيقى العذبة الأنغام، مرحى لدار المجانين؛ إنها لَمكان نادر، وموضع بديع!

إني لأذكر أيامًا كنت فيها خائفًا من أن أصبح مجنونًا؛ أيامًا اعتدت خلالها أن أستيقظ من نومي فأجثو ضارعًا إلى الله أن ينجيني من النقمة

التي حلَّت بقومي، وكنت فيها أنفر من مشهد المرح والفرح، لأختبئ في مكان منعزل، أو ركن مهجور، وأقضي الساعات الطوال مراقبًا سير الحمى التي كانت تأكل عقلي أكلًا، فقد كنت أعلم أن الجنون ممتزج بدمي ذاته امتزاجًا، مختلط بنخاع عظامي اختلاطًا، وأن جيلًا بأكمله مر سليمًا لم تظهر فيه على أحد من أهلي أعراض هذا المرض وأدلته، وأنني سوف أكون أول مَن سيتجدد فيه ويعاود الظهور عليه. لقد كنت أعلم أن الأمر سيكون كذلك «حتمًا»؛ لأنه هكذا كان من قبل، وكذلك سيكون من بعد، فكنت كلما قبعت في ركن مظلم من غرفة مزدحمة بالناس، ورأيتهم يتهامسون ويشيرون إليَّ ويديرون أعينهم نحوي، أيقنت أنهم إنما كانوا يتحدثون عن هذا المخلوق الذي قُضِي عليه بالجنون، فكنت أتسلل منصرفًا إلى العزلة والاكتئاب.

وكذلك فعلت عدة سنين، إي والله عدة سنين طوال؛ إن الليالي هنا طويلة أحيانًا، طويلة مفرطة في الطول، ولكنها ليست شيئًا يُذكَر إذا قيست بتلك الليالي القلقة التي كانت تتخللها الأحلام المفزعة، والرؤى البشعة، التي كلما ذكرتها الآن جعلت الدم يجمد في عروقي، لقد كانت تتراءى لي في زوايا الحجرة صور ضخمة مهزوزة، ذوات وجوه ماكرة، وسحنات مستهزئة ساخرة، تقترب مني فتنحني ليلًا فوق مضجعي، لتغريني بالجنون وتزينه لخاطري. لقد مضت تحدثني في همس خافت أن أرض البيت القديم الذي مات فيه جدي لأبي ملطخة بدمه، وأنه هو الذي أراقه بيده في ثورة جنون استولت عليه، فكنت أُدخِل أناملي العشر في أُذني حتى لا أستمع إلى حديثها، ولكنها كانت تصرخ في رأسي حتى

تدوي أرجاء الحجرة بصراخها، وكانت تقول لي: إن الجنون كان قد هجع وسكن قبل جدي لأبي بجيل من الزمان، ولكن جده هو عاش أعوامًا مقيَّد اليدين بالأصفاد؛ حتى لا يتمكن من تمزيق جسده بهما، وتقطيع أوصاله إربًا. وكنت أعلم أن الحق هو ما قالت ... كنت أعرف ذلك حق المعرفة، وقد اهتديت إليه قبل ذلك بسنين، وإن حاولوا إخفاء هذه الحقيقة عني. ها، ها، لقد كنت أمكر منهم وأدهى، وإن حسبوني يومئذٍ مجنونًا.

وأخيرًا استولي الجنون عليَّ، فعجبت لنفسي كيف كنت من قبلُ أتوجس منه خوفًا، وأنا الآن أستطيع أن أشق طريقي في هذا العالم، وأضحك وأصرخ بين خيار أهله وصفوة بنيه؛ لقد أدركت أنني مجنون، ولكن الناس لم تخطر بأذهانهم شبهة ولا ريبة في أنني كذلك، ولكم رحت أعانق نفسي من فرط السرور كلما فكرت في الخدعة البديعة التي مضيت أخدعهم بها بعد تلك الإشارات التي كانوا يشيرون بها نحوي، والسخرية التي ينظرون بها صوبي، حين لم أكن مجنونًا، بل كنت موجسًا فقط من أن أصبح كذلك في يوم من الأيام، ولَكَمْ كنتُ أضحك فرحًا واغتباطًا كلما وجدتني منفردًا، وتمثلت في خاطري كيف كتمت عنهم سري، وكم تخيلت أصدقائي المشفقين وهم مسارعون إلى الابتعاد عني، والانفضاض من حولي، إذا هم عرفوا الحقيقة وأدركوها، ولكم هممت بأن أصرخ من فرط اللذة كلما خلوت إلى طعام برجل منهم ضحوك ممراح، وتصورت كيف سينقلب وجهه شاحبًا مسفوعًا، وكيف سيطلق للريح ساقيه إذا هو عرف أن هذا الصديق العزيز الذي

يجلس بقربه، ويشحذ سكينًا لامع النصل في يده ... مجنون، أوتي كل القوة، ونصف الإرادة، في تغييبه ذلك النصل في صميم قلبه. أواه، لقد كانت حياة مرحة مليئة بالبهجة واللذات!

لقد أصبح اليسار في هذا العالم لي، والثراء يتدفق عليَّ تدفقًا، وأنا أعربد وألهو بنعم ومتع زادها أضعافًا مضاعفة شعوري بسري المكتوم، لقد ورثت عقارًا، وخدعت القانون، القانون ذاته المديد البصر كعين النسر، فأين كل ذكاء أصحاب العقول السليمة الحداد الأبصار؟ أين براعة المحامين المدارية الذين لا ينثنون عن اكتشاف نقص ولو يسير، أو البحث عن أقل مخالفة للقانون؟ إن مكر المجنون قد فاق مكرهم جميعًا.

وكان المال في يدي، فكم تملقني الناس وكم تلطفوا، وجروا في أذيالي، ومضيت أنفق بسخاء وأفرط في البذل، ولكم مدحني الناس وأشادوا بي! وكيف ذهب أولئك الإخوة الثلاثة المتكبِّرون المتغطرسون يتطامنون، ويذلون لي، ويقفون خاشعين أمامي، وكيف جعل أبوهم الشيخ الأشيب أيضًا يوليني الإجلال، ويخاطبني بالاحترام والصداقة المتفانية. لقد كان يعبدني عبادة! وكانت للشيخ ابنة، هي للإخوة الثلاثة أخت، وكان الخمسة فقراء وكنت غنيًّا، فلما تزوجت الفتاة رأيت ابتسامة انتصار تخطف على وجوه أهلها المحاويج، حين رأوا خطتهم المرسومة قد نجحت، وأدركوا أنني وقعت لهم غنيمة باردة، ولكن كان الابتسام أولى به أن يكون من جانبي، فقد كنت أحق منهم بأن أبتسم وأضحك وأقهقه، وأقطع شعري تقطيعًا، وأتمرغ فوق الأرض صارخًا من المرح

والسرور؛ لأنهم لم يكونوا يدرون أنهم زوَّجوا الفتاة لرجل مجنون.

وَلْنقف هنا لحظة لنسأل: هل تظنونهم كانوا منقذيها، إذا هم عرفوا خافية أمري؟ أسعادة أختهم أولى، أم ذهب زوجها؟ إن أقل ريشة أنفخها في الهواء لتعدل السلاسل البهيجة التي تعذب بدني.

ولكني على فرط مكري وخداعي كنت في أمر واحد مخدوعًا، فلو لم أكن مجنونًا؛ لأننا معاشر المجانين على حدة ذكائنا، وشدة فطانتنا، نضل أحيانًا وتفوتنا أشياء كثيرة- لأَدركت أن الفتاة كانت تؤثر أن توسد تابوتًا مظلمًا، وهي متخشية باردة خامدة الأنفاس، على أن يساق بها عروسًا محسودة إلى بيتي الفخم المتوهج الأضواء، لقد كان أولى بي أن أعرف أن قلبها يهفو إلى ذلك الشاب الأسود العينين الذي سمعت اسمه مرة، وهي تلفظه في نومها المضطرب، لقد ضحَّى بها عروسًا لي، لتنقذ من الفاقة ذلك الرجل العجوز الأشيب وإخوتها المتكبرين.

ولست أتذكر الآن شخوصًا ووجوهًا، ولكني أعرف أن الفتاة كانت حسناء، لقد كنت أعرف عن يقين أنها كذلك، فقد كنت في الليالي الصافية القمراء، أستيقظ من نومي، فأشهد قوامًا نحيلًا، وقدًّا أهيف واقفًا حيالي ساكنًا، لا يعير حراكًا في ركن من هذا المحبس الانفرادي، قوام امرأة ذات شعر فاحم مستطيل، تتدلى ذوائبه على ظهرها، ولا تحركه ريح من رياح هذه الدنيا، وعينين مستقرتين على وجهي، لا تطرفان ولا تغمضان. صه! إن الدم ليبرد في عروقي وأنا أكتب هذه السطور. إن ذلك القوام هو «قوامها» وإن الوجه الشاحب، والعينين زجاجيتان، ولكني أعرفهما حق المعرفة. إن ذلك القوام لا يتحرك أبدًا، كما تفعل الأشباح

الأخرى التي تملأ هذا المكان أحيانًا، إن ذلك القوام لأشد رهبًا، وأكثر رعبًا لي من تلك الأرواح التي كانت تغريني بالجنون منذ عدة سنين، إنه قادم من القبر لتوه وساعته، فهو أشبه بالموت كل الشبه.

ولبثت قرابة عام كامل أرى ذلك الوجه يزداد شحوبًا، وأبصر العَبَرَات تتسلل إلى خدَّيْها الحزينين، ولا أدري لذلك سببًا، ولكني اهتديت أخيرًا إليه؛ لأنه كان من المستحيل أن يظل خافيًا عليَّ طويلًا، لم تكن تطيقني، ولم يخطر ذلك يومًا بخلدي، لقد كانت تحتقر ثرائي، وتمقت الفخفخة التي كانت تعيش فيها، ولم أكن أتوقع ذلك، لقد كانت تحب غيري، وما كان ذلك ليدور يومًا في خاطري، واستولت على نفسي أحاسيس غريبة، وتملكتني أفكار تدفعها إلى خاطري قوة خفية مجهولة، فتدور كالدوامة حول عقلي، لم أكن أكرهها، وإن كنت قد كرهت الفتى الذي ظلت تبكي من أجله، لقد رثيت، نعم لقد رثيت لها، في تلك الحياة التعسة التي قضى بها عليها أهلها الجامدون القساة الأنانيون، وكنت أعلم أنها لن تعيش طويلًا، ولكني تصورت أنها قبل أن يدركها الموت قد تلد مخلوقًا منحوسًا مقدرًا عليه أن يورث أبناءه من بعده الجنون المتنقل في ذرارينا، فكان تصوري لهذا كله دافعًا دفعني إلى تقرير خطتي، لقد اعتزمت أن أقتلها.

فكرت عدة أسابيع في استخدام السم، ثم الإلقاء في اليم، وبعدئذٍ في الإحراق، وراقني مشهد البيت الكبير ولهب النيران مندلعة في جنباته، وزوجة المجنون محترقة في ناحية منه مستحيلة رمادًا، وتصورت أيضًا أضحوكة دفع مكافأة كبيرة، ومنظر إنسان عاقل يترنح في الفضاء عقابًا

على فعلة لم يأتها؛ وذلك كله نتيجة مكر مجنون. فكَّرت كثيرًا في هذا، ولكني عدلت أخيرًا عنه. آه! ما أشد اللذة التي كنت أحسها، وأنا أشحذ الموسى يومًا بعد آخر، وأتحسس نصلها المرهف، وأتمثل الدم المتحبس الذي ستحدثه ضربة واحدة من نصلها الرفيع!

وجاءتني أخيرًا تلك الأرواح القديمة التي كانت من قبلُ توافيني، فهمست في أذني أن الوقت قد حان، ودست الموسى المفتوحة في كفي، فأمسكتها بقوة، ونهضت برفق من فراشي، وانحنيت فوق زوجتي النائمة، وكان وجهها مدفونًا في راحتَيْها، فأزحتهما عنه بلطف، فسقطتا متراخيتين فوق صدرها، لقد كانت تبكي؛ لأني رأيت العبرات لا تزال ندية على خدها، وكان مُحَيَّاها ساكنًا هادئًا، بل حين أطللت عليه أشرقت ابتسامه ساجية على قسماته المصفرة، فألقيت يدي برفق على كتفها، فأجفلت، كأنه حلم عابر ... فعدت أنحني فوقها، وعندئذٍ صرخت واستيقظت ...

حركة واحدة من كفي، فإذا هي خامدة إلى الأبد، لا تستطيع صراخًا، ولا تُخرِج صوتًا، ولكني ذعرت وتراجعت، لقد كانت نظراتها مستقرة على وجهي؛ فانزويت منها رعبًا ووجلًا، ولست أدري كيف حدث ذلك لي، بل لقد خارت حيالها عزيمتي، ونهضت من الفراش وهي لا تزال ترمقني بنظراتها، فارتجفت، وكانت الموسى في يدي، ولكني لم أستطع حراكًا، ومشت إلى الباب، وما كادت تقترب منه حتى تلفَّتَتْ، وتولت بعينيها عن وجهي، لقد زال السحر؛ فوثبت نحوها وأمسكت بذراعها، فسقطت فوق الأرض مرسلة صرخة بعد صرخة.

وكان في وسعي عندئذٍ أن أقتلها بغير مقاومة، ولكن الفزع ساد البيت، وطرق سمعي وقع أقدام فوق مدارج السلم، فرددت الموسى إلى موضعها المألوف في أحد الأدراج، وفتحت الباب، ورفعت صوتي أطلب النجدة.

فجاءوا ... واحتملوها إلى فراشها، فرقدت فيه ساعات وهي هامدة لا حياة ولا حراك بها، ولكن حين عاودتها الحياة والنظرة والكلام، تخلت حواسها عنها، فجعلت تهذي هائجة ثائرة.

ودُعِي الأطباء، وكانوا رجالًا أساطين في عملهم، أتوا إلى باب داري في مركبات فاخرة، وجياد مطهمة، وخدم في ثياب مزخرفة، ولبثوا يترددون على سريرها عدة أسابيع، وعقدوا اجتماعًا كبيرًا، وتشاوروا في همس داخل حجرة أخرى، وانتحى أبرعهم وأشهرهم ناحية بي، وقال لي أنا المجنون أن أستعد لسماع ما هو أنكى وأدهى، لقد أبلغني أن زوجتي مجنونة! وكان واقفًا بجانبي عند نافذة مفتحة، وعيناه تنظران إلى وجهي، ويده ملقاة فوق ذراعي، وكان في وسعي بحركة واحدة أن أقذف به إلى الشارع، ولو فعلت لكان في ذلك متعة يندر أن يكون في الدنيا متعة مثلها، ولكني خليته ولم أفعل، فقد كان سري معرضًا للخطر، فأمسكت، وبعد بضعة أيام نبَّئوني أنه لا بد من وضعها تحت رقابة، ولا غناء عن تعيين حارس لها، فذهبت إلى الحقول حيث لا يستطيع أحد أن يسمعني، وضحكت ملء صدري حتى ردَّد الفضاء أصدية صرخاتي وضحكاتي.

وماتت في غداة اليوم التالي، وتبعها الشيخ الأشيب إلى القبر، وذرف الإخوة المتكبرون دمعة على جسد المخلوقة التي كانوا في

حياتها ينظرون إلى ما تعانيه من آلام نظرات قاسية كأنهم جلمود من صخر أصم، وكان ذلك كله غذاء لفرحي المكتوم، فجعلت أضحك من خلف المنديل الأبيض الذي قربته من وجهي، ونحن عائدون أدراجنا من دفنها، حتى اغرورقت بالدموع عيناي...!

ولئن كنت قد نفذت غرضي وقتلتها، فقد ظللتُ قلقًا منزعجًا، وشعرت بأنه لن ينقصني وقت طويل حتى يعرف الناس سري حتمًا، ولم أعد أستطيع أن أخفي المرح الثائر، والسرور الهائج، اللذين كانا يغليان في جوانحي، ويجعلانني كلما خلوت إلى نفسي في البيت، أصفِّر وأصفِّق، وأرقص وأزمجر، وأصرخ صراخًا عاليًا. وكنت كلما خرجت وشهدت الناس مسرعين في الطريق، أو ذاهبين إلى المسرح لمشاهدة التمثيل، أو سمعت أنغام الموسيقى، أو رأيت القوم يرقصون، شعرت من فرط الفرح أني قادر على أن أندفع نحوهم، وأمزقهم إربًا، وأعوي من اللذة عواء، ولكني كنت أصرف بأسناني، وأضرب الأرض بقدمي، وأغيب أظفاري الحداد في كفي، وأكبت رغبتي، فلم يكن أحد يعرف بعدُ أنني مجنون.

وأذكر، وإن كان ما أذكره آخِر الأشياء التي لبثت قائمة في خاطري؛ لأنني الآن أصبحت أخلط بين الحقائق وبين أحلامي، ولكثرة أعمالي هنا، واستمرار نقلي من موضع إلى آخر، لا أجد متسعًا من الوقت أمامي لكي أفصل بين الحقائق والأوهام لاضطراب غريب يسودها جميعًا، وفوضى عجيبة تغمرها جملة- أذكر كيف تركت سري أخيرًا ينطلق من مكمنه. ها، ها، أحسبني أشهد الآن نظراتهم المروعة إلى وجهي،

وأحس الراحة والسرور في دفعهم بقوة عني، وضرب وجوههم المصفرة بجمع كفي، ثم أطلق للريح ساقي، تاركًا الناس صائحين صارخين في أثري. إن قوة عملاق جبار تتملكني كلما فكرت في ذلك كله أو تمثلته، أنظر إلى هذا القضيب الحديدي كيف يلتوي من قبضتي، حين أهيج وتثور ثائرتي، لقد أصبحت قادرًا على انتزاعه من مكانه، كما أنتزع عودًا من العوسج، أو فرعًا من الفروع، ولكن هنا دهاليز طويلة ذوات أبواب كثيرة، فلا أظنني مستطيعًا أن أهتدي إلى طريقي من خلالها، ولو استطعت، فلست أجهل أن هناك أبوابًا من حديد يحرصون على بقائها موصدة بالأقفال والمزاليج؛ لأنهم يعرفون أي مجنون ذكي بارع أنا، وهم فخورون بأن يبقوني هنا ليشهدني الناس، وأُعرض عليهم.

دعني أنظر! أي نعم! لقد أخرجوني، وكان الليل قد أوهن حين بلغت داري، وكان أشد الإخوة الثلاثة كبرياء وعجرفة منتظرًا وصولي، وأذكر جيدًا أنه قال إنه كان يرتقب رؤيتي لمسألة عاجلة. لقد كنت أكره ذلك الرجل بكل كراهية مجنون، ولكم من مرات تلهفتْ أناملي على تمزيقه، وقيل لي: إنه في البيت يرتقبني. فمرقت صاعدًا السلم إليه، وأمرت الخدم بالانصراف، وكان الوقت متأخرًا، ونحن وحدنا لأول مرة.

وحرصت على أن أشيح بعيني عنه أولًا؛ لأني كنت أعلم أنه كان يعرف- ولكم كان اغتباطي بأنه يعرف- أن بريق الجنون كان ينبعث منهما كالشرر. وجلسنا بضع دقائق صامتين، وأخيرًا بدأ هو الكلام، فقال إن إسرافي في الأيام الأخيرة، وبعض الأقوال الغريبة التي صدرت مني عقب وفاة أخته، كانت إهانة لذكراها، وإن عدة ظروف أخرى وأمور فاته

في أول الأمر أن يلاحظها، جعلته أخيرًا يعتقد أنني لم أكن أحسن مثواها؛ فهو يريد أن يعرف هل هو على حق إذا استخلص من ذلك كله أنني أقصد أن أُلقِي ظل عتب وملامة على ذكراها ومساءة إلى أسرتها، وكان اقتضاؤه مني شرحًا لذلك كله يرجع إلى الثوب العسكري الذي كان يرتديه.

وكان ذلك الرجل يحمل براءة رتبة عسكرية، براءة اشتراها بمالي، وبشقاء أخته: «وكان هو في مقدمة الذين تآمروا على إلقائي في الشرك، ووضع أيديهم على ثروتي. لقد كان ذلك الرجل هو الأداة الكبرى في إرغام أخته على الزواج بي، وهو يعلم حق العلم أنها قد وهبت فؤادها لذلك الغلام المزقزق كالعصفور، كل ذلك لأنه يرتدي ثوبًا عسكريًّا، فلم ألبث أن أدرت عيني إليه، لقد فعلت ذلك على الرغم مني، ولم أنبس بكلمة واحدة.

ورأيت التغير الفجائي الذي بدا عليه من نظرتي، لقد كان شجاعًا جسورًا، ولكن لونه ارتدَّ مسفوعًا، وتراجع بمقعده، فجررت أنا مقعدي إليه وضحكت، فقد أحسست عندئذٍ بمرح بالغ، ورأيته يرتجف، وشعرت بالجنون يثور في أنحائي، لقد تولاه الرعب مني.

قلت: «لقد كنت مولعًا بأختك، وهي في قيد الحياة، كل الولوع».

وراح هو يتلفت حوله قلقًا مضطربًا، ورأيت يده تقبض على مسند المقعد، ولكنه لم يحر جوابًا.

قلت: «أيها الوغد! لقد اكتشفتك، وأزحت النقاب عن مؤامراتك الجهنمية ضدي، أعرف أن قلبها كان مستقرًّا على إنسان سواي قبل أن

ترغمها على الزواج بي إرغامًا.. أعرف ذلك. أعرف ذلك».

فوثب فجأة من مجلسه، ورفع المقعد عاليًا، وأمرني بأن أتراجع، فقد حرصت على أن أدنو منه رويدًا وأنا أتحدث إليه.

لقد كان قولي صراخًا أكثر منه كلامًا، فقد كنت أشعر بانفعالات صخابة هائجة، تتدفق في شراييني، والأرواح القديمة تهمس في أذني وتغريني بأن أمزق قلبه تمزيقًا.

قلت وأنا مندفع نحوه: «اللعنة عليك، أنا الذي قتلتها، أنا «مجنون» فلتسقط، الدم! الدم! أريد دمًا».

وبضربة واحدة من كفي أطحت بالمقعد الذي شهره في وجهي من فرط رعبه، وأطبقت عليه، وتمرغنا معًا على الأرض برجة شديدة.

لقد كان ذلك الصراع بديعًا رائعًا؛ لأنه كان رجلًا فارع القد، شديد المراس، يدافع مستميتًا عن حياته، وأما أنا فمجنون قوي باطش، أتعطش لدمه، وكنت أعرف أن ليس ثمة قوة على الأرض تعدل بأسي وبطشي، وكنت على حق، نعم كنت مصيبًا مرة أخرى وإن أصبحت مجنونًا. وبدأت مقاومته تفتر، وجثمت فوق صدره، وأمسكت بكلتا يدي القويتين عنقه المفتول، وخُيِّلَ إليَّ من لسانه المتدلي أنه يسخر مني، فشددت القبضة على مخنقه.

وإذا الباب يُفتَح فجأة في جلبة شديدة، ويدخل جمع من الناس مهرولين، وهم يتصايحون أن أمسكوا المجنون.

لقد كُشِف سري، وأصبح نضالي الآن في سبيل شيء واحد، وهو

الحرية والفكاك، واستويت على ساقي قبل أن تصل يد إليَّ، وألقيت بنفسي في وسط المهاجمين، وشققت بينهم طريقي بذراعي القوية، كأني كنت أحمل فاسًا في يدي وأجندلهم به من أمامي صرعى مضرجين، وبلغت الباب، ونزلت السلم مسرعًا، وفي لحظة واحدة احتواني الطريق.

وعدوت لا ألوي على شيء، فلم يجرؤ أحد على إيقافي، وسمعت وقع أقدام من خلفي فضاعفت سرعتي، فلم يلبث وقعها أن وهن وخفت من بعيد، ثم تلاشى بددًا، ولكني طفقت أعدو مخترقًا مستنقعًا، عابرًا جدولًا، متخطيًا سياجًا، قافزًا فوق جدار، في صيحة موحشة زادتها وحشة الصيحات المنبعثة من المخلوقات الغريبة التي تزاحمت حولي من كل ناحية، حتى راحت صيحاتنا مجتمعة تشق أجواز الفضاء. لقد كنت محمولًا على أذرع شياطين تمرق في الهواء كالريح، وتدك كل جسر وسياج يعترضها دكًّا، وتلف بي لفًّا، في حفيف وسرعة جعلتا رأسي يموج موجًا، إلى أن طرحتني أخيرًا عنها بهزة عنيفة، فسقطت على الأرض في رجة «أليمة» وحين أفقت وجدتني هنا.. هنا في هذا المحبس الانفرادي المظلم الذي قلما تدخله أشعة الشمس ويتسلل القمر إليه، فلا يضيء إلا ليريني الظلال والأشباح السود الحوَّامة من حولي، وذلك النهج الصامت القائم في ذلك الركن المعهود. وكلما رقدت يقظان ساهرًا، سمعت أحيانًا صرخات غريبة، وصيحات منبعثة من بعيد في هذا المكان الرحيب، أما ما هي تلك الصيحات فلست أدري، وإنما كل ما أدريه أنها ليست آتية من ذلك الشبح الناحب الماثل في ذلك الركن، ولا هو بعابئ بها ولا مكترث؛ لأنه من أول خيوط الغسق إلى مطالع ضياء

النهار لا يزال قائمًا، ثم جامدًا لا حراك به يستمع إلى أنغام سلاسلي الحديدية، ويرقب وثباتي وقفزاتي فوق فراشي الخشن.

وقد وردت في ذيل هذا المخطوط، المذكرة التالية بخط آخر:

لقد كان الرجل المنكود الذي دون هذيانه فيما سلف مثالًا محزنًا لعقبى القوى التي تتجه اتجاهًا سيئًا في الشباب، ونتيجة سوأى أليمة للإفراط المتمادي، حتى يصبح إصلاحها متعذرًا، فإن الإسراف في غير روية والتناهي في الملذات بغير تفكير، والإباحية التي استبدت بأيام شبابه، جعلته محمومًا هاذيًا مخرفًا، كانت آثارها الأولى ذلك الوهم الغريب المبني على نظرية معروفة في عالم الطب، يؤيدها فريق من أهله ويعارضها الفريق الآخر، وهي أن الجنون وراثي في الأسرة، فإن هذا الوهم الغريب أحدث لديه وجومًا مستمرًّا تطور مع الأيام إلى جنون سوداوي، ثم انتهى أخيرًا إلى جنون هاذٍ صاخب. وقد توافرت عدة أسباب تحمل على الاعتقاد بأن الحوادث التي رواها، وإن جاء وصفها مشوهًا بفعل خياله المريض، قد وقعت حقًّا، ومن العجيب للذين عرفوا مساوئ شبابه وأدركوا طرفًا من أخبار مفاسد حداثته، كيف لم تؤد به انفعالاته الثائرة، حين لم يعد للعقل سلطان عليها، إلى ارتكاب أفعال أكثر مما ارتكب هولًا ورهبًا.

وكان مصباح المستر بكوك قد أوشك أن يخبو ضياؤه، حين انتهى من قراءة ذلك المخطوط الذي تلقاه من القسيس الشيخ، فلما انطفأ النور فجأة، دون رفيف سابق من ذبالته على سبيل الإنذار، أحس برجفة شديدة تسري في كيانه المضطرب، فأسرع في خلع ما كان قد ارتداه من الثياب

عندما نهض من مرقده، وأقضّه المضجع من السهد، ثم ألقى نظرة خوف حوله، وبادر في عجلة إلى التسلل تحت الأغطية، ولم يلبث أن راح في سبات عميق.

وكانت الشمس ساطعة في غرفته حين استيقظ، والصباح بدأ يدنو من الضحى، وكانت الكآبة التي استولت عليه وأرهقته في الليلة الماضية قد تلاشت مع الظلال القاتمة التي كانت تكتنف المشهد المترامي من حوله، فأشرقت أفكاره وأحاسيسه إشراق الصباح ذاته، وما إن تناول الصحاب الأربعة فطورهم بشهية وإقبال، حتى انطلقوا سعيًا على الأقدام صوب «جريفسند» يتبعهم رجل حاملًا الحجر في صندوقه الخشبي، فوصلوا إليها حوالي الواحدة بعد الظهر، وكانوا قد أمروا بأن ترسل أمتعتهم من روشستر إلى لندن رأسًا- ووجدوا، لحسن الحظ، أماكن لهم خارج مركبة حافلة، فدخلوا لندن في أصيل اليوم ذاته مشرقي النفوس، خفاف الأرواح، معافين.

وشغلتهم الاستعدادات التي كان لا بد من تدبيرها للرحلة التي اعتزموها إلى دائرة «إيتنزول» الانتخابية، طيلة الأيام الثلاثة الأولى أو الأربعة، ويقتضي الحديث عن هذه الرحلة الخطيرة فصلًا قائمًا بذاته، فلا يسعنا إلا أن نخصص بقية هذا الفصل لنقصّ عليك فيه بإيجاز كبير، تاريخ ذلك الكشف الأثري وختام قصته.

والظاهر من محاضر النادي أن المستر بكوك ألقى محاضرة عنه في جمعية عامة عقدت في مساء اليوم التالي لعودتهم، وتناول في المحاضرة طائفة من التفسيرات الطريفة، والتعليلات والنظريات البارعة، في معنى

تلك النقوش ومرادها، كما يظهر أن رسَّامًا حاذقًا تولى رسم ذلك الحجر الغريب بكل معالمه ودقائقه في أمانة وإتقان، وأن هذا الرسم طبع على الحجر وقدمت نسخ منه إلى جمعية الآثار الملكية وغيرها من الهيئات العلمية، وأن الحسد والغيرة بمختلف أعراضهما ومظاهرهما المتعددة دبَّا في نفوس المنافسين، فذهبوا في الجدل حول موضوع الحجر كل المذاهب، وأن المستر بكوك نفسه كتب «رسالة» في ست وتسعين صفحة بالخط الدقيق، وساق سبعة وعشرين تعليلًا مختلفًا لمعنى تلك النقوش والمراد منها، وأن ثلاثة سادات كبار السن حرموا أكبر أولادهم من الميراث، وقطعوا منه نصيبهم لافتراضهم الشك في صحة ذلك الأثر، وأن شخصًا آخر اشتدت الحماسة به، فقطع رقبته منتحرًا قبل الأوان يأسًا من عجزه عن استقصاء معانيه، وأن المستر بكوك عُيِّن عضوًا فخريًا في سبع عشرة جمعية، بين أهلية وأجنبية، عرفانًا بفضل اكتشافه، وأن هذه الجمعيات السبع عشرة لم تهتد واحدة منها إلى شيء بسبيله، ولكنها كانت جميعًا متفقة على أنه كشف نادر خارق للمألوف حقًّا.

غير أن المستر «بلوتن»، الذي يستهدف اسمه حتمًا لاحتقار أبدي من جانب المولعين بكل غريب ورفيع وجليل، نقول إن المستر بلوتن راح بذلك الشك، وتلك المكابرة، اللذين عرفا عن العامة وأصحاب العقول السوقية، يذهب في تأويل هذا الكشف مذهبًا يحط من القدر، ويثير الضحك والسخرية، فقد أراد أن يطفئ بريق اسم «بكوك» الخالد، فقصد إلى «كوبهام» بنفسه، وعاد فألقى في النادي خطابًا يقول فيه ساخرًا متهكمًا إنه اجتمع بالرجل الذي اشترى ذلك الحجر منه، وأنه يظن أن

الحجر قديم، ولكنه نفى قطعًا أن النقش الظاهر عليه أثري، لأنه هو الذي نقشه بنفسه في بعض أوقات فراغه، وأن تلك الحروف لا يراد بها أكثر ولا أقل من شيء واحد، وهو تكوين اسمه منها، فهو يدعى «بيل سطمبس»- هذه علامته- وأن المستر سطمبس لم يكن قد اعتاد الإنشاء، وإنما كل ما يسترشد به في نقش الحروف والكلمات هو «أصواتها» أكثر مما يستهدي بقواعد الكتابة والتشكيل ذاتها، ولهذا نسي اللام الأخرى من اسمه الأول.

وقد تلقى نادي بكوك- كما ينتظر من معهد مستنير مثله- هذا القول بما يستحقه من الاحتقار، وقرر فصل «بلوتن» الجريء في دعواه، الضعيف السيئ الحال، من عضويته، وإهداء المستر بكوك منظارًا ذهبيًّا رمزًا لثقة النادي به، وموافقته على كل ما صرح به، فلم يكن من المستر بكوك في الرد على هذا العرفان، إلا أن عهد إلى رسام برسم صورة زيتية له لتعليقها في قاعة النادي.

ولئن كان المستر بلوتن قد طُرد من النادي، فقد ظل مناضلًا لا يقهر، وراح يوجه «رسالة» إلى الجمعيات العلمية السبع عشرة، الأهلية والأجنبية، مكررًا فيها البيانات التي سبق أن أدلى بها، وكاد خلالها يفصح عن رأيه في أن هذه الجمعيات السبع عشرة نصابة، محتالة، «مهرجة»، وغضبت الجمعيات السبع عشرة، الأهلية والأجنبية لكرامتها، فلم تلبث أن ظهرت عدة رسالات أخرى في الموضوع ذاته، وتبادلت الجمعيات العلمية الأجنبية المكاتبات مع الجمعيات العلمية الأهلية، وتولت هذه ترجمة رسالات تلك إلى الإنجليزية، وتولت تلك نقل رسالات الأولى

إلى لغاتها، وبدأ بذلك النقاش العلمي المشهور الذي عرفه الناس جميعًا، وأطلقوا عليه القضية البكوكية.

ولكن هذه المحاولة في سبيل إيذاء المستر بكوك في سمعته ارتدَّتْ في نحر صاحبها المفتري، فقد أجمعت الهيئات العلمية السبع عشرة على أن هذا المفتري بلوتن جاهل دَعِيٌّ، وشرعت في إعداد بحوث أخرى، ورسالات جديدة، ولا يزال ذلك الحجر إلى يومنا هذا قائمًا أثرًا مطماسًا غير مقروء من آثار عظمة المستر بكوك، بل أثرًا باقيًا من آثار صغار خصومه، وهوان أقدارهم.

* * *

# الفصل الثاني عشر

## وصف إجراء خطير جدًّا اتخذه المستر بكوك ولا يقل شأنًا في رواية حياته عنه في سياق هذا التاريخ

لم تكن حجرات المستر بكوك في شارع «جوزول»- على محدود نطاقها- نهاية في النظافة، جامعة لأسباب الراحة، فحسب، بل كانت أيضًا لائقة بنوع خاص لأن تكون مسكن رجل في مثل عبقريته، وقوة ملاحظاته، وكانت حجرة جلوسه في مقدمة الطابق الأول، وحجرة نومه في واجهة الطابق الثاني، وكانت الفرصة مواتية له - سواء جلس إلى مكتبه في حجرة الجلوس، أو وقف أمام المرآة في حجرة نومه - للتأمل والتفكير في الطبيعة البشرية من جميع مظاهرها ونواحيها المتعددة، في ذلك الحي الذي كان عظيم الشهرة بقدر ما كان كثير السكان. وكانت ربة البيت مسز باردل هي الوحيدة التي آل إليها ميراث موظف سابق في مصلحة الجمارك، وكانت امرأة لطيفة جمة النشاط، حسنة المظهر، أوتيت براعة طبيعية في طهو الطعام، ازدادت بفضل الممارسة الطويلة ومداومة الدرس، حتى استحالت إلى نبوغ فائق، وموهبة رفيعة، ولم يكن

لها أطفال، ولا خدم، ولا دجاج، وكل من يساكنها في ذلك البيت رجل بدين، وغلام صغير، أولهما ساكن بأجر، والآخر نجيبها، وكان الساكن البدين يحضر دائمًا في تمام العاشرة ليلًا، فإذا جاء حشر نفسه حشرًا في نطاق سرير فرنسي قصير في الحجرة الخلفية، وكانت ألعاب «السيد باردل» الصغير وحركاته الرياضية، ومراتعه، مقصورة على الأفاريز المجاورة، والمزاريب والأفنية العامة، فكانت النظافة والسكينة تغمران البيت، وكانت رغبة المستر بكوك فيه قانونًا لا نقض فيه ولا إبرام...

وكان كل من يعرف هذه النواحي من التدبير المنزلي في ذلك البيت، ولا يخفى عليه شيء من عقلية المستر بكوك المنظمة الجديرة بالإعجاب، يبدو له أن مظهره وسلوكه في الصباح السابق لليوم المقرر لسفره إلى «إيتنزول»، نهاية في الغموض والغرابة، فقد جعل يذرع الحجرة ذهابًا وجيئة بخطى مسرعة، ويخرج رأسه من النافذة على فترات، كل ثلاث دقائق أو نحوها، وينظر مرارًا إلى ساعته، ويبدي من مختلف أمارات القلق ما لم يكن من ديدنه، وكان من الجلي أنه كان يفكر في أمر كبير الأهمية، ولكن لم يكن أحد، ولا مسز باردل نفسها، مستطيعًا أن يكشف ما هو ذلك الأمر الذي يشغله.

وأخيرًا انثنى ينادي: «يا مسز باردل» في اللحظة ذاتها التي كانت هذه المرأة اللطيفة توشك أن تنتهي من «إزالة التراب من الحجرات».

وأجابت مسز باردل: «نعم يا سيدي!».

قال: «إن غلامك الصغير قد ذهب من وقت طويل جدًّا».

وأجابت مسز باردل محتجة: «كيف ذلك؟.. إن الطريق إلى الضاحية طويل يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «آه! إنه حقًّا كذلك».

وعاد المستر بكوك إلى الصمت، وواصلت مسز باردل إزالة التراب والكنس.

ولم تمض بضع دقائق أخرى حتى عاد المستر بكوك ينادي: «يا مسز باردل».

وأجابت قائلة: «نعم يا سيدي».

قال: «هل تظنين أن الإنفاق على اثنين أكثر من النفقة على واحد بمفرده؟».

وأجابت مسز باردل، وقد امتقع لونها حتى وصل امتقاعه إلى طرف قلنسوتها، إذ خيل إليها أنها قد رأت بريق رغبة في الزواج يشع من عيني الساكن عندها: «وي.. يا مستر بكوك.. وي يا مستر بكوك.. يا له من سؤال!».

قال: «ولكن هل تظنين حقًّا... أن...».

قالت وهي تدني «المنفضة» من مرفق المستر بكوك المسند إلى المائدة: «إن هذا يتوقف كثيرًا على الشخص نفسه كما تعرف يا مستر بكوك، وهل هو شخص مدبر حريص على المال أو لا يا سيدي».

قال: «هذا عين الصواب، ولكن الشخص الذي أمام عيني»- وهنا أطال النظر إلى مسز باردل- «أعتقد أنه قد أوتي هذه الصفات، إلى جانب

علمه الواسع بالدنيا وأحوالها، ولديه قدر كبير من الذكاء، قد يكون ذا فائدة محسوسة لي يا مسز باردل...».

وقالت مسز باردل وقد اصطبغ وجهها بلون الأرجوان مرة أخرى، وبلغت حمرته طرف قلنسوتها: «وي يا مستر بكوك!».

ومضى المستر بكوك يقول وقد ازداد حماسة كشأنه إذا تكلم عن موضوع يهمه: «إني جاد حقًّا فيما أقوله، ولا أخفي عنك يا مسز باردل أنني قد اعتزمت التنفيذ»...

فصاحت مسز باردل قائلة: «ويحي يا سيدي!».

وقال المستر بكوك وهو يرسل نظرة لطيفة إلى رفيقته: «سترين الآن أنه كان غريبًا مني كل الغرابة أنني لم أستشرك مطلقًا في الأمر، ولم أذكره إطلاقًا حتى أرسلت غلامك الصغير في هذا الصباح، آه».

فلم تستطع مسز باردل أن تجيب بأكثر من نظرة، فقد طالما عبدت المستر بكوك عبادة من بعيد، ولكن ها هي ذي فجأة تُرفَع إلى مكانة مرموقة لم تصل إليها في يوم من الأيام ذروة أمانيها، ولا بلغها أوج ما كان يداعب خاطرها من غرائب الآمال والتعلات. لقد اعتزم المستر بكوك أن يفاتحها في أمر الزواج بها، ورسم الخطة لذلك، فأرسل ابنها الصغير إلى الضاحية؛ ليخلو الجو لهما، يا له من مفكر حكيم! ويا له من بصير عليم بالأمور!

وقال المستر بكوك: «هيه ما رأيك؟».

وأجابت مسز باردل وهي راعشة من فرط الاضطراب: «أوه! يا مستر

بكوك إنك لكريم يا سيدي!».

قال: «سأعفيك من كثير من التعب، أليس كذلك؟».

وأجابت مسز باردل: «ما فكرت يومًا في مسألة التعب، ولكنه كريم منك كل الكرم يا مستر بكوك أن تراعي مسألة وحدتي إلى هذا الحد، وتهتم بها كل هذا الاهتمام».

وقال المستر بكوك: «الواقع أنني لم أفكر في ذلك مطلقًا، ولكني أرى أن يكون في البيت إنسان يجلس معك كلما ذهبت إلى المدينة، هذا هو ما أردته، تأكدي أن هذا هو ما أردت».

قالت: «سأكون سعيدة السعادة كلها بالتأكيد».

قال: «وغلامك الصغير؟»..

فقاطعته مسز باردل، وهي تنتحب انتحابة أم، حين يذكر ابنها: «واكبدي له!».

قال: «وسيكون له هو أيضًا رفيق يؤنسه، رفيق خفيف الروح يعلمه بلا شك من الألاعيب والحيل في أسبوع واحد ما لا يؤاتيه منها علمه في عام كامل».

وابتسم المستر بكوك ابتسامة لطيفة ساجية.

وقالت مسز باردل: «أواه! أيها العزيز».

فأجفل المستر بكوك.

وقالت باردل: «أواه.. أيها الكريم، الحنون الطيب، اللعوب»،

ثم نهضت من مخدعها وبلا سابق إنذار، وألقت ذراعيها حول عنقه، وأرسلت فيضًا من عبراتها، وأنغامًا متلاحقة من نحيب.

وصاح المستر بكوك من فرط دهشته قائلًا: «يا للعجب!.. يا مسز باردل، أيتها المرأة العاقلة الأريبة، ويحي! يا له من موقف، أرجوك أن تراعي.. يا مسز باردل.. باردل حذار، ماذا عسى أن يقال إذا دخل أحد؟».

وصاحت باردل ثائرة هائجة: «ليدخلوا، فلن أفارقك ولن أتركك أيها العزيز، الكريم الحدب الحنون».

وراحت بهذه الكلمات تتشبث بنحره أكثر من قبل، وتزيده ضمًّا واعتناقًا.

ومضى المستر بكوك يقاوم بعنف وهو يقول: «رحمة بي. إني أسمع وقع أقدام على السلم، ألا كفي عن هذا. حسبك، هيا أيتها المخلوقة الطيبة! كفي عني».

ولكن توسلاته واحتجاجاته ذهبت سدى، فقد أغمى على مسز باردل وهي بين ذراعي بكوك، وقبل أن يتمكن من إلقائها فوق مقعد، دخل السيد باردل الصغير مؤذنًا بقدوم طبمن، والمستر ونكل، والمستر سنودجراس.

ووقف المستر بكوك في مكانه جامدًا لا يتحرك، ولا ينطق نطقًا، وقف بحمله الجميل بين ذراعيه، وهو ينظر نظرات شاردة إلى وجوه أصحابه، دون أن يحاول مطلقًا أن يتقدم للسلام عليهم أو شرح موقفه، كما وقفوا هم محملقي الأبصار، بينما لبث السيد باردل بدوره يحملق

في الجميع.

وكانت دهشة البكوكيين بالغة، وحيرة المستر بكوك متناهية، إلى حد كان من المحتمل معه أن يظلوا جميعًا وقوفًا في أماكنهم ريثما تثوب السيدة إلى نفسها، لولا أن بدت من ولدها حركة من أجمل الحركات، وأشدها تأثيرًا، وأبلغها دلالة على حبه البنوي، وكان الغلام في ثوب ضيق من قماش مضلع، تناثرت عليه أزرار نحاسية من حجم كبير، قد وقف في أول الأمر لدى الباب مبهوتًا مستريبًا، ولكن ما لبث أن تصور أن أمه لا بد من أن تكون قد اعتدي عليها، وما عتم هذا التصور أن استولى على خاطره الساذج، واعتقد أن المستر بكوك هو المعتدي، فلم يلبث أن راح يرسل صراخًا مروعًا، مزمجرًا عاويًا، ويندفع إلى الأمام ناطحًا برأسه، وبدأ بمهاجمة ذلك السيد الخالد في ظهره وساقيه، بلكمات وعضات أسنان بكل ما في ذراعه من قوة، وكل ما في هياجه وغضبه من عنف.

وقال المستر بكوك من أثر ما أحسه من الضرب واللكز: «خذوا هذا الغلام الشقي بعيدًا، إنه مجنون!».

وقال البكوكيون الثلاثة الذين عقدت الدهشة ألسنتهم: «ما الخبر؟».

وأجاب المستر بكوك بحدة: «لست أدري، أبعدوا هذا الغلام!» وهنا احتمل المستر ونكل الغلام وهو يصرخ ويقاوم إلى الطرف الآخر من الحجرة! « والآن أعينوني على المسير بهذه المرأة إلى الدور الأول».

وعندئذ قالت مسز باردل بصوت خافت: «أواه، إنني أحسن حالًا الآن».

وقال المستر طبمن الجسور كعهدنا به: «دعيني أسر بك إلى الدور الأول من البيت».

وصاحت مسز باردل بتشنج: «شكرًا لك يا سيدي، شكرًا لك».

وسيق بها إلى الدور الأول يصحبها ولدها البار.

وأنشأ المستر بكوك يقول عندما عاد صاحبه: «لست أتصور ما الذي دعا هذه المرأة، فما كدت أعلن لها عزمي على الاستعانة بخادم، حتى استرسلت في هذه الحالة الشاذة التي وجدتموها فيها. هذا شيء عجاب».

وقال أصحاب الثلاثة: «جدًّا».

واستتلى المستر بكوك يقول: «لقد وضعتني في موقف حرج كل الحرج».

وكان جواب الثلاثة قولهم: «جدًّا»، وهم يسعلون سعلة خفيفة، ويتبادلون نظرات الشك والارتياب.

ولكن ذلك لم يغب عن نظر المستر بكوك الثاقب، وشعر بأنهم مرتابون في صدق ما قاله، وتبين له أنهم متهموه.

وأنشأ المستر طبمن يقول: «إن في الدهليز الآن رجلًا».

فأجاب بكوك قائلًا: «إنه الرجل الذي حدثتكم عنه، فقد أرسلت إلى الضاحية في هذا الصباح أدعوه، تكرم يا مستر سنودجراس فادْعُه».

واستجاب المستر سنودجراس، وفي الحال ظهر صمويل ويلر، وابتدره المستر بكوك قائلًا: «أوه، أحسبك لا تزال ذاكري».

وأجاب «سام» بنظرة وتعطف: «أظن ذلك. لقد بدأ ذلك الرجل بداءة غريبة، لقد كان واحدًا، ولكنه كثير عليكم كما كان يغلبكم في السعوط مرة أو مرتين.. أليس كذلك؟».

فقال المستر بكوك في عجلة: «دعنا من تلك القصة الآن، إني أريد أن أتحدث إليك عن أمر آخر. اجلس!».

وأجاب سام: «أشكرك يا سيدي، وراح يجلس دون انتظار أمر آخر، وكان قد وضع قبعته القديمة البيضاء عند مدخل رأس السلم خارج الباب. ومضى يقول: «إنها- أي القبعة- «منظر» فقط، ولكن لبسها فوق الرأس مربك.. وكانت قبل أن تزول عنها حافتها، تبدو قالبًا جميلًا كقالب من القرميد، ومع ذلك أصبحت أخف مما كانت قبل زوال حافتها، هذه نقطة. والنقطة الأخرى هي أن كل ثقب فيها يدخل الهواء؛ ولهذا أسميها «أنبوبة التهوية»!».

ولم يكد ينتهي المستر ويلر من هذا التعبير عن عواطفه، حتى أرسل ابتسامة لطيفة إلى البكوكيين المجتمعين.

وعاد المستر بكوك يقول: «والآن فيما يتعلق بالأمر الذي دعوتك من أجله، بموافقة هؤلاء السادة».

وقاطعه سام قائلًا: «هذه هي النقطة يا سيدي، عليّ بها أو أخرجها، كما قال الوالد لابنه حين ابتلع قطعة من النقود!».

ومضى المستر بكوك يقول: «نريد أولًا أن نعرف هل من سبب يدعوك إلى الاستياء من مركزك الحالي؟».

وأجاب سام قائلًا: «قبل أن أرد على هذا السؤال أيها السادة، أريد

أولًا أن أعرف هل في نيتكم أن تعرضوا عليَّ وظيفة أحسن منه؟».

وهنا لاحت على وجه المستر بكوك ومضة من الطيبة الهادئة وحب الخير، فذهب يقول: «أكاد أقطع العزم على استخدامك».

قال: «أحقًّا؟».

وأومأ المستر بكوك إيماءة الإيجاب.

قال: «والأجر؟».

قال: «اثنا عشر جنيهًا في السنة».

- «والكساء؟».

- «حلتان».

- «والعمل؟».

- «القيام على خدمتي، والسفر معي ومع هؤلاء السادة هنا».

وهنا قال سام بلهجة التوكيد: «أكتب العقد في الحال، لقد أصبحت أجيرًا في خدمة سيد واحد، وأنا موافق على الشروط».

وسأل المستر بكوك: «هل قبلت إذن العمل؟».

قال: «بالتأكيد. وإذا كانت الثياب لائقة نصف لياقة المكان، فأنعم بها».

وعاد المستر بكوك يسأله قائلًا: «وفي إمكانك بالطبع تقديم شهادة».

وأجاب سام: «سل ربة فندق «الأيل الأبيض» عن ذلك يا سيدي».

قال: «هل في إمكانك أن تحضر في هذا المساء؟».

وأجاب سام بفرح بالغ: «إذا كانت الملابس معدة الآن، فأنا على

استعداد للدخول فيها من هذه اللحظة».

وقال المستر بكوك: «تعال في الثامنة من هذا المساء، فإذا كانت المعلومات المطلوبة مرضية، فسوف نعدها لك».

وكان سلوك المستر ويلر لا غبار عليه، ولا لائمة إلا من حادثة واحدة تنمُّ عن نزق لطيف، شاركته فيها مساعدة خادمة، فلم يتردد المستر بكوك في إتمام العقد في ذلك المساء بالذات، وبتلك السرعة وذلك النشاط اللذين عُرِفا عن ذلك الرجل النادر، لا في تصرفاته العامة فحسب، بل في كل تصرفاته الخاصة أيضًا، بادر في الحال إلى أخذ خادمه الجديد إلى سوق من تلك الأسواق الرخيصة التي تباع فيها الثياب الجديدة والمستعملة، ويستغني فيها عن متاعب الشكليات، كأخذ المقاس، وتجربة الأزياء ونحوها، فلم يكد يحل الليل حتى تم تجهيز المستر ويلر برداء رمادي اللون وضعت عليه شارة «نادي بكوك»، وقبعة سوداء ذات شريط، وصدار قرنفلي اللون مخطط، وسراويل خفيفة وأغطية ساق، وأنواع أخرى كثيرة لا يحدها الحصر.

وانثنى ذلك الإنسان الذي تحول فجأة كل هذا التحول يقول، وهو يتخذ مجلسه خارج المركبة الحافلة الشاخصة إلى «إيتانسويل» في صباح اليوم التالي: «إني لفي عجب! هل يراد مني أن أكون حاجبًا، أو سائسًا، أو حارس صيد، أو بائع بذور، فإني لأبدو خليطًا من هؤلاء جميعًا. ولكن لا بأس، إن فيه لتبديلًا للهواء، ورؤية كثير من المناظر، وقليلًا من العمل، وكل ذلك علاج للفاقة التي أشكو منها مر الشكوى.. فليحيى البكوكيون..!».

# الفصل الثالث عشر

## وصف لدائرة إيتنزول الانتخابية، ومراكز الأحزاب فيها، وانتخاب نائب في البرلمان عن تلك الدائرة القديمة الوفية الوطنية

دَعْنَا نعترف صراحة بأننا إلى الفترة التي بدأنا فيها نغوص في مجلدات محاضر نادي بكوك وأوراقها الضخمة، لم نكن قد سمعنا بـ «إيتنزول» أبدًا، بل دعنا نقر بتلك الصراحة ذاتها أننا قد بحثنا عن دليل يثبت وجود هذا الموضع في عهدنا الحاضر، ولعلمنا بالثقة البالغة التي ينبغي أن توضع في كل مذكرة أو بيان من جانب المستر بكوك، ونفيًا لكل رغبة منَّا في تغليب ذاكرتنا على بيانات ذلك الرجل العظيم وتصريحاته المدوَّنة في السجلات، مضينا نستأنس بكل المراجع والمظان التي تتصل بهذا الموضوع، ونتابع كل اسم وارد في قوائم أ و ب، فلم نعثر على أثر فيها لـ «إيتنزول» في حرف الألف، ولا في الحرف الذي يليه، وتقصينا البحث أيضًا في كل ناحية من خرائط الجيب والمصورات الجغرافية للأقاليم التي يصدرها كبار الناشرين عندنا لخدمة الجمهور،

فلم نعثر فيها على أثر لذلك الاسم، فلا غرو إذا نحن اعتقدنا أن المستر بكوك قد تعمَّد الاستعاضة عن اسم الموضع الذي دوَّن ملاحظاته عنه باسم مصطنع، تحدوه تلك الرغبة الملحة في تحاشي الإساءة إلى أحد، وتحفزه تلك المشاعر المرهفة التي يعرف كلُّ مَن عرفوه حق المعرفة أنها أروع خلاله، وأبرز سجاياه، وقد تأكد هذا الاعتقاد لدينا من حادث يلوح صغيرًا وتافهًا في حد ذاته، ولكنه جدير بالتنويه، إذا نحن نظرنا إليه من هذه الناحية، فقد تيسر لنا أن نستخلص من «كناشة» المستر بكوك عبارة تفيد بأن الأماكن المطلوبة له ولمريديه كانت محجوزة قبيل السفر في المركبة الحافلة الشاخصة إلى «نوروك» وإن كانت هذه العبارة قد شطبت فيما بعد، كأنما أريد إخفاء كل شيء يتصل بموقع هذه الدائرة والطريق المؤدي إليها، ولهذا لا نريد أن نضرب في أودية الحدس، بل نمضي سراعًا في سياق هذا التاريخ قانعين بالمواد التي يسرها أبطاله لنا، والأشخاص الذين ورد ذكرهم في ثناياه.

يبدو إذن أن أهل «إيتنزول» كأهل عدة بلدان صغيرة أخرى، يعدون أنفسهم قومًا لا يدانيهم أحد في خطر الشأن، وعلو المكانة، وأن كل رجل في «إيتنزول» يشعر بالقدر الواجب لأمثاله، فلا يتردد في الانتساب قلبًا وقالبًا إلى أحد الحزبين الكبيرين اللذين تقاسما البلدة بينهما، وهما حزب «الزُّرْق» وحزب «الصُّفْر»، فأما الزُّرْق فلا يدعون فرصة إلا انتهزوها لمعارضة الصُّفر، ولم يكن الصُّفْر ليدعوا فرصة إلا اهتبلوها لمعارضة الزُّرق، فكانت النتيجة أنه كلما التقى الزُّرْق والصُّفْر في اجتماع عام، سواء في قاعة البلدية، أو المولد، أو السوق، تبادلوا الكلمات الحادة،

والألفاظ النابية، والنزاع المستحر، حتى لا نحسب مع كل هذه الخلافات أننا بحاجة إلى القول بأن «الحزبية» في «إيتنزول» دخلت في كل شيء، فإذا اقترح الصُّفْر بناء «كوة» في سقف السوق العامة؛ لدخول النور إليها، عقد الزُّرْق اجتماعات، ونددوا بهذا الاقتراح وشنعوا عليه. وإذا اقترح الزُّرْق إنشاء مضخة إضافية في شارع «هاي ستريت» هب الصُّفْر هبَّة رجل واحد، وأعلنوا استنكارهم لهذه الكبيرة المنكرة، وكانت في البلدة صحيفتان، صحيفة «الغازت إيتنزول»، وفنادق لهؤلاء، وفنادق لأولئك، وفي الكنيسة ذاتها للزُّرْق جناح، وللصُّفْر جناح.

ولم يكن بد لكل حزب من هذين الحزبين القويين بطبيعة الحال من أن يختار لسانه الناطق، وممثله الصادق، فكانت في البلدة صحيفتان، صحيفة «الغازت إيتنزول»، و«الإيتنزول الإنديبندنت»، أولاهما تذود عن مبادئ الزُّرْق، والأخرى تنتهج سياسة الصُّفْر قطعًا، وكانت الصحيفتان ظريفتين بديعتين، فهما فصول افتتاحية أي فصول! وهجمات حامية أية هجمات، فتقول إحداهما عن زميلتها: رصيفتنا الغازات المعدومة الفضل، وتقول هذه «الإنديبندنت» المخادعة الخسيسة. وتتحدث هذه عن «الغازت» قائلة: «تلك الصحيفة السافلة العيَّابة الدساسة» إلى آخر تلك الشتائم المثيرة للنفوس التي تتناثر غزارًا في أعمدة كل صحيفة منهما وتفيض بها أنهارها، ولا يخلو منها عدد من أعدادها، وتلك العبارات التي يسر لها القراء أشد السرور، أو يغضبون منها أبلغ الغضب، وكل حزب بصحيفتهم مرحون...

وقد اختار المستر بكوك ببعد نظره المعروف، وفطانته المشهورة،

الوقت الملائم كل الملاءمة لزيارة تلك الدائرة، فما عرف يومًا فيها تنافس حامي الوطيس كذلك التنافس على الترشيح، بين «الأونورابل» صمويل سلمكي، من سلمكي هول، مرشح الزُّرْق، والسيد هوراشيو فيزكين، من فزكن لودج بقرب إيتنزول، الذي ألح عليه أصدقاؤه في قبول ترشيح نفسه عن حزب الصُّفْر، وراحت صحيفة «الغازت» تهيب بالناخبين في الدائرة ألا ينسوا أن الأنظار، لا في إنجلترا فحسب، بل في جميع أرجاء العالم المتحضر أيضًا، تتطلع إليهم، بينما طالبت «الإنديبندنت» حتمًا بأن تعرف هل ناخبو دائرة «إيتنزول» لا يزالون على عهدها بهم رجالًا عظماء النفوس، أو انقلبوا آلات مهنية مُسَخَّرة، لا يستحقون اسم «الإنجليز» ولا هم جديرون بنعمة الحرية التي حباهم الله بها. وهكذا لم تشهد البلدة من الحمية والحماسة في يوم من الأيام، قدر ما شهدت منهما الآن.

وكان المساء قد أوغل حين نزل المستر بكوك وصحبه، من سقف المركبة الحافلة، بمعاونة سام، فإذا هم يشهدون أعلامًا زرقاء كبيرة ترفرف من شرفات فندق «تاون أرمز»، ويرون اللافتات منصوبة في كل نافذة، معلنة بحروف ضخمة، أن لجنة الأونورابل صمويل سلمكي تنعقد يوميًّا في ذلك الفندق، ويبصرون حشدًا من المتسكعين والمتبطلين قد ازدحم الطريق بهم، وهم يتطلعون بأبصارهم إلى رجل مبحوح الصوت جاهدًا، حتى احمر من كثرة الصراخ وجهه، وإن كانت قوة حججه ومحور خطابه قد ضاعا إلى حد ما وسط الدقات المستمرة من أربعة طبول ضخمة كانت اللجنة الانتخابية المناصرة للمستر «فيزكين» قد أقامتها في ركن الشارع، وكان بجانب الخطيب رجل نحيف كثير

الحركة، جعل يرفع قبعته بين لحظة وأخرى، ويشير إلى الناس بمعاودة التصفيق والهتاف لذلك الخطيب، فكان الناس لا ينفكون يفعلون ذلك وهم في أشد الحماسة، ولبث السيد المحمر الوجه مسترسلًا في الخطابة حتى ارتد وجهه أشد احمرارًا، كأنما كانت حماسة القوم عنده وافية بالغرض، حتى ولو لم يسمع أحد مقاله.

وما إن نزل البكوكيون من المركبة، حتى أحاط بهم فريق من أفراد الغوغاء المخلصين الأوفياء، هاتفين ثلاثة هتافات تصم الآذان، وما لبث جموع الغوغاء الأخرى أن ردَّدتْ تلك الهتافات؛ لأنه ليس من الضروري مطلقًا أن يعرف المحتشدون حقيقة ما هم هاتفون بسبيله! فلم يلبث ترديدهم أن استحال إلى زئير انتصار يدوي في الفضاء دويًّا، حتى اضطر الخطيب المحمر الوجه في الشرفة إلى الوقوف عن الكلام.

وصاح الغوغاء في الختام «مرحى!».

وصرخ الرجل النحيف الموكل بإعطاء الإشارة إلى الناس: «هتاف.. مرة أخرى!» فعاد الغوغاء يهتفون كأن رئاتهم من حديد، وأجهزتها من فولاذ.

وصرخ الناخبون الأمناء الأحرار: «سلمكي إلى الأبد!».

وردد المستر بكوك وهو يرفع قبعته: «سلمكي إلى الأبد!».

وصاح المحتشدون: «لا فيزكين بعد الآن!».

وعاد المستر بكوك يهتف: «لا فيزكين بعد الآن بلا شك..!».

«مرحى..!».

وأعقب الهتاف زئير جديد، كصيحة الحيوانات في حديقتها حين يدق الفيل الجرس إيذانًا بمجيء اللحم البارد.

وهمس المستر طبمن يسأل صاحبه: «ومن يكون سلمكي هذا؟..».

وقال المستر بكوك هامسًا كذلك: «لست أدري، فلا تسأل عن شيء، لأنه من الخير في هذه المواقف وأشباهها أن يفعل المرء كما يرى الناس يفعلون».

وهنا قال المستر سنودجراس: «ولكن افرض أن هناك فريقين منهم، فماذا تكون الحال؟».

فكان جواب المستر بكوك: «تهتف مع أكثر الفريقين عددًا وأعز نفرًا».

وكان ذلك الرد وحده أبلغ من جملة كتب ومجلدات.

ودخل الرفقاء الفندق، وأفسح الحشد لهم عن اليمين والشمال منتحين، طريقًا لمرورهم، وهم يهتفون أشد الهتاف.

وكان أول أمر أحق بالتفكير، البحث عن أماكن للمبيت.

فنادى المستر بكوك أحد غلمان الفندق وسأله قائلًا: «هل نستطيع الظفر بسرر هنا؟».

وأجاب الغلام: «لا أعرف يا سيدي، أخشى أن يكون المكان ممتلئًا يا سيدي، ولكني سأستفهم يا سيدي».

وانصرف لتنفيذ هذا الغرض، ثم لم يلبث أن عاد ليسأل السادة هل هم من حزب «الزُّرْق».

ولم يكن المستر بكوك ولا أحد من صحابه معنيًّا بقضية الترشيح، ولا مهتمًا بأيهما يؤيد، فلا عجب إذا كانت الإجابة عن هذا السؤال متعذرة.

وانثنى المستر بكوك يسأل الغلام: «هل تعرف سيدًا يدعى المستر بركر؟».

وأجاب الغلام قائلًا: «بلا شك يا سيدي».

قال: «أحسبه من الزُّرْق؟».

وأجاب الغلام: «نعم يا سيدي».

فصاح المستر بكوك قائلًا: «نحن إذن.. زُرْق!» ولكنه لاحظ على الرجل شيئًا من التشكك عقب هذا الإعلان الصريح، فأعطاه «بطاقته» وطلب إليه تقديمها إلى المستر بركر في الحال، إذا كان بالمصادفة مقيمًا في الفندق.

وانصرف الغلام، وعاد بعد هنيهة يرجو من المستر بكوك أن يتبعه، ومشى به إلى قاعة رحيبة في الطبقة الأولى من الفندق، حيث جلس المستر بركر إلى منضدة مغطاة بالكتب والأوراق.

وتقدم السيد النحيف للقائه: «آه ها، يا سيدي العزيز، إني لسعيد بلقائك، يا سيدي العزيز جدًّا. تكرم بالجلوس، أهكذا أدخلت نيتك في حيز التنفيذ؟ لقد جئت إلى هنا لمشاهدة الانتخاب؟».

فأجاب المستر بكوك: «أي نعم».

واستتلى الرجل النحيف قائلًا: «المنافسة حامية الوطيس يا سيدي العزيز».

وقال المستر بكوك وهو يفرك يديه: «يسرني أن أسمع ذلك؛ لأني أحب أن أشهد الوطنية الصلبة المكينة، في أي جانب هي منبعثة متدفقة، المنافسة إذن حامية؟».

وأجاب الرجل النحيف: «أي نعم إلى حد بالغ فعلًا، وقد فتحنا جميع المقاهي والمحال العامة في البلدة، فلم ندع لخصمنا منها شيئًا غير حانات الجعة، ضربة عارف بالأمور يا سيدي العزيز، آه؟».

وابتسم الرجل النحيف ابتسامة سرور ورضى وتناول قدرًا كبيرًا من السعوط، وسأل المستر بكوك: «وما هي النتيجة المرجحة لهذه المنافسة؟».

وأجاب الرجل النحيف: «لا تزال مشكوكًا فيها إلى الآن يا سيدي العزيز. إن جماعة «فيزكين» احتجزوا ثلاثة وثلاثين ناخبًا في مربط المركبات بفندق «الأيل الأبيض».

وقال المستر بكوك: «أتقول في مربط المركبات؟».

ومضى الرجل النحيف يقول: «إنهم سيبقونهم في هذا المكان ريثما يحتاجون إليهم، والغاية من هذا الاحتجاز هي كما ترى منعنا من الوصول إليهم، ولو استطعنا، لما كان ثمة أية فائدة؛ لأنهم يبقونهم سكارى عن عمد. إن وكيل فيزكين داهية، داهية كبير فعلًا».

ولبث المستر بكوك محملقًا، ولم يقل شيئًا.

وقال المستر بركر، وهو هابط بصوت إلى ما يشبه الهمس: «ولكننا جد مطمئنين. وقد أقمنا هنا ليلة أمس حفلة شاي صغيرة، دعونا إليها

خمسًا وأربعين امرأة يا سيدي العزيز، وأعطينا كل واحدة منهن مظلة خضراء عند انصرافها».

وقال المستر بكوك مبهوتًا: «مظلة!».

ومضى المستر بركر يقول: «فعلًا، يا سيدي العزيز، فعلًا، وزعنا خمسًا وأربعين مظلة خضراء بسعر الواحدة سبعة شلنات وستة بنسات. كل النساء بالزخارف والزينة مولعات، إن تأثير هذه المظلات خارق للمألوف؛ لأنها كفيلات بحصولنا على أصوات أزواجهن ونصف عدد إخوتهن. إنها لتفوق في تأثيرها الجوارب والقمصان، وما إليها من الأشياء الجوفاء. إنها فكرتي يا سيدي العزيز، فكرتي أنا من جميع نواحيها. إنها تنفع في البرد والمطر والشمس على السواء، ولا تستطيع الآن أن تمشي بضع خطوات في الشارع دون أن تلتقي بعدد من هذه المظلات الخضراء».

وهنا استرسل الرجل النحيف في ضحك شديد، لم ينثنِ عنه إلا بدخول شخص ثالث، وكان هذا رجلًا طويلًا نحيلًا ذا رأس رملي اللون، يميل إلى الصلع، ووجه امتزجت فيه رهبة المظهر بنظرة العمق الذي لا يسبر له غور، وكان مرتديًا ثوبًا أسود مستطيلًا، وصدارًا في مثل لون ردائه، وسراويل فضفاضة، ويتدلى منظار ذو زجاجتين من جيب صداره، وعلى رأسه قبعة خفيضة ذات حاشية عريضة، وتولى المستر بركر تعريف المستر بركر تعريف المستر بكوك به، فقال إنه المستر «بت» رئيس تحرير «الغازت إيتنزول».

وبعد بضع ملاحظات تمهيدية، راح المستر بت يدور بعينه ناحية

المستر بكوك، وهو يقول بلهجة الجد: «هل تثير هذه المنافسة اهتمامًا شديدًا في العاصمة يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «أعتقد ذلك».

وعاد المستر «بُت» يقول، وهو ينظر صوب المستر بركر مرتقبًا منه التأمين على قوله: «إني لواثق أن بعض الفضل في ذلك يرجع إلى مقالي المنشور في يوم السبت الماضي».

وأجاب السيد النحيف: «بلا أدنى شك».

وقال المستر بوت: «إن الصحافة أداة ذات قوة بالغة يا سيدي».

ووافق المستر بكوك على هذا الرأي كل الموافقة.

واستتلى المستر «بت» قائلًا: «ولكني على يقين يا سيدي من أنني لم أسئ يومًا استغلال هذه القوة العظيمة التي في يدي، ولم أوجه هذا السلاح الرفيع الشأن الذي وضع في كفي في صدر حياة الأفراد الخاصة وقدسيتها، أو في صميم سمعة إنسان وشهرته. وأعتقد يا سيدي أنني كرست قواي وجهودي، وقد تكون هذه الجهود صغيرة متواضعة، بل أعرف أنها كذلك، في سبيل غرس تلك المبادئ التي...».

وهنا بدا على رئيس تحرير «الغازت إيتنزول» أن ذهنه بدأ يشرد، فبادر المستر بكوك إلى إسعافه قائلًا: «بلا شك».

وقال المستر بت: «ودعني أسألك يا سيدي، ما شعور الرأي العام في لندن من ناحية خصومتي مع جريدة «إيتنزول المستقلة».

وتدخل المستر بركر قائلًا، وهو ينظر نظرة استحياء يغلب على

الظن أنها عريضة: «لقد تأثرت كثيرًا بلا شك».

ومضى المستر «بت» يقول: «ستبقى هذه الخصومة ما بقيت لي صحتي وقواي، وذلك النصيب من النبوغ الذي وهبته، ولن أنزوي أو أتراجع يا سيدي يومًا عن هذا النضال، حتى أضع قدمي فوق هامة «إيتنزول المستقلة» وإن كان نضالي حيالها قد يحدث بلبلة في عقول الناس، ويثير مشاعرهم، ويجعلهم عاجزين عن تأدية واجباتهم اليومية في الحياة العادية. إني أود أن يعلم أهل لندن، وشعب هذا البلد جميعًا يا سيدي أن لهم أن يضعوا ثقتهم في شخصي، وإنني لن أتخلى عنهم، وإنني معتزم أن أقف بجانبهم يا سيدي، إلى النهاية...».

وقال المستر بكوك: «إن تصرفك يا سيدي نهاية في النبالة وسمو النفس» وراح يتناول يد «بت» العظيم.

وعاد المستر «بت» يقول، وهو يكاد تتقطع أنفاسه من تأثير هذا التصريح الوطني الذي أدلى به: «إنني أراك يا سيدي أخا رجاحة ونبوغ، وإني لسعيد كل السعادة يا سيدي بمعرفة رجل مثلك».

وأجاب المستر بكوك قائلًا: «إنني أشعر بشرف عظيم من هذا الرأي الذي أبديته، اسمح لي يا سيدي بأن أقدم إليك رفقائي في سفري، وهم أعضاء مراسلون أيضًا في النادي الذي أفخر بأنني مؤسسه».

وقال المستر بت: «يسرني التعارف بهم كل السرور».

فانصرف المستر بكوك لحظة، وعاد بأصحابه فقدمهم كما تقتضي المراسيم إلى رئيس تحرير «الغازت إيتنزول».

وهنا قال المستر بركر: «والآن يا عزيزي «بت».. إن المسألة التي أمامنا اللحظة هي: ماذا نحن صانعون لأصدقائنا هنا؟».

وقال المستر بكوك: «أظن أن في إمكاننا أن ننزل في هذا الفندق».

وأجاب المستر بركر: «ليس فيه ولا سرير واحد خاليًا، يا سيدي العزيز، ولا سرير واحد».

وقال المستر بكوك: «هذا غريب كل الغرابة».

وتبعه رفقاؤه قائلين: «جدًّا».

وانثنى المستر «بت» يقول: «عندي فكرة في هذا الموضوع، قد تكون موفقة كل التوفيق، إن في فندق «بيكوك» سريرين، وفي إمكاني أن أجترئ فأقول بالنيابة عن مسز «بت» إنها ستسر كل السرور بتوفير مكان للمستر بكوك وواحد من أصدقائه في بيتنا، إذا لم يكن ثمة مانع لدى السيدين الآخرين وخادمهما من التنقل حيث يشاؤون في فندق «بيكوك».

وبعد إلحاح متكرر من جانب المستر بت، وتكرار رجاء من الأعضاء من هذا الاقتراح من جانب المستر بكوك، محتجًّا بأنه لا يرضى لنفسه أن يحدث مضايقة أو تعبًا لزوجته الفاضلة، تم الاتفاق على أن هذا هو التدبير الميسور الذي يمكن اتخاذه، وتم هذا فعلًا، وعقب أن تناول الأصدقاء طعام الغداء معًا في فندق «تاون آرمز» افترقوا، فذهب المستر طبمن والمستر سنودجراس إلى فندق «بيكوك»، واتجه المستر بكوك والمستر ونكل إلى دار المستر بت، بعد أن اتفق الجميع على أن يتوافوا إلى فندق «تاون آرمز» في الصباح، لمرافقة موكب السيد المحترم

صمويل سلمكي إلى مقر الانتخاب.

وكانت أسرة المستر «بت» مقصورة عليه هو وزوجته وحدهما، ولا يخفى أن الذين رفعتهم عبقريتهم الجبارة إلى مصاف الأعلام البارزين في هذا العالم، لا يخلون عادة من مواطن ضعف صغيرة، تلوح أوضح وأجلى ظهورًا مما هي في الواقع، لتناقضها مع شخصيتهم العامة، وإذا كان في المستر «بت» نقطة ضعف، فقد كان موطن الضعف فيه أنه «يكاد يبدو» خاضعًا أكثر مما ينبغي لرقابة زوجته عليه، وسلطانها الذي لا يخلو من الغض والازدراء به، وإن كنا لا نجد مبررًا يدعو إلى تعليق أهمية خاصة على هذه الحقيقة؛ لأن مسز «بت» في هذا الحادث بالذات أبدت أدبًا جمًّا، وسلوكًا يستهوي النفوس، وفتونًا يستبي الأفئدة، في استقبال السيدين.

وقال المستر «بت» وهو يقدم الضيفين: «يا عزيزتي هذا هو المستر بكوك.. المستر بكوك من لندن».

وتلقت مسز «بت» يد المستر بكوك الأبوية بعذوبة ساحرة، بينما وقف المستر ونكل الذي لم يقدم إليها إطلاقًا، في ناحية مظلمة، وهو يحني رأسه بالتحية، دون أن يأبه أحد به.

وقالت مسز بت: «يا عزيزي ب».

وأجابها المستر «بت» قائلًا: «إيه يا عزيزتي!».

قالت: «من فضلك عرفني بالسيد الآخر».

قال: «ألف معذرة. اسمح لي- مسز بت، المستر...» وعاجله المستر

بكوك قائلًا: «المستر ونكل».

وردد «بت» الاسم: «ونكل».

وتم التعارف..

وأنشأ المستر بكوك يقول: «إننا معتذران لك يا سيدتي كثيرًا عن إزعاجنا لنظامكما المنزلي في «ساعة ضيقة».

وأجابت السيدة «بت» برشاقة بالغة: «أرجوك يا سيدي ألا تذكر هذا. وأؤكد لك أن هذه متعة كبيرة لي، أن أشهد وجوهًا جديدة؛ لأنني أعيش من يوم إلى يوم، وأسبوع إلى أسبوع، في هذا المكان الضجر دون أن أرى أحدًا».

وقال المستر «بت» مداعبًا: «لا ترين أحدًا يا عزيزتي!».

وأجابت مسز «بت» بحدة: «لا أحد سواك».

وقال رب الدار لضيفه، تعليلًا لأسف زوجته وضجرها: «وهكذا ترى يا مستر بكوك أننا إلى حد ما منقطعان عن عدة ملذات ومسرات، كان من الجائز أن نتناول قسطًا منها. إن مركزي في رياسة تحرير «الغازت إيتنزول»، والمكانة التي تحتلها هذه الصحيفة في البلاد، وانغماسي المستمر في دوامة السياسة..».

وهنا قاطعته مسز «بت» قائلة: «عزيزي ب....».

وقال رئيس التحرير: «نعم يا حياتي».

فعادت تقول: «أود يا عزيزي أن نحاول إيجاد موضوع آخر للحديث يتسنى لهذين السيدين أن يجدا فيه مصلحة وطنية».

وقال المستر «بت» بذلة بالغة: «ولكن المستر بكوك يا حبيبتي يبدي اهتمامًا به».

وقالت مسز «بت» بلهجة التوكيد: «لا بأس عليه إذا هو استطاع، ولكنني تضايقت أشد الضيق من سياستك ومشاداتك مع «الجريدة المستقلة»، وهذا الهراء كله، وإني لمندهشة حقًّا يا «ب»، من هذا العرض الذي تريد به إظهار سخافتك».

وقال المستر بت: «لكن يا عزيزتي!».

وعاجلته زوجته قائلة: «أوه! كلام فارغ! لا تكلمني! هل تلعب «الأكارتيه» يا سيدي؟».

وأجاب المستر ونكل قائلًا: «يسعدني كل السعادة أن أتعلمها منك».

قالت: «إذن قرب هذه المنضدة الصغيرة من هذه النافذة، ودعني أبتعد من سماع هذا الكلام السقيم في السياسة».

وقال المستر «بت» للخادم التي أحضرت الشموع: «اذهبي يا «جان» إلى مكتبي في الدور الأول، وأحضري الملف الخاص «بالغازت» عن عام ١٨٢٨»، والتفت إلى المستر بكوك ومضى يقول: «سأقرأ عليك بضع افتتاحيات كتبتها في حينها عن تعيين واحد من الصُّفْر جابيًا جديدًا لجمع المكوس هنا، وأعتقد أنها ستسرك».

وقال المستر بكوك: «أحب كثيرًا أن أسمعها».

وجاء الملف، وجلس رئيس التحرير، وبجانبه جلس المستر بكوك.

وقد بحثنا عبثًا في كل صفحات «كناشة» المستر بكوك على أمل

الاهتداء إلى خلاصة عامة لتلك المقالات الإنشائية الجميلة، ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه وجد لذة تامة في قوة أسلوبها وطرافته، وقد رأينا المستر ونكل يسجل من جانبه القول بأن عينيه ظلتا مغمضتين كأنما إغماضهما من فرط السرور، طيلة الوقت الذي استغرقتها قراءتها.

وجاء إعلان القوم أن العشاء قد هُيِّئ، فأوقف لعب «الأكارتيه» وقراءة المقالات الجميلة في «الغازت إيتنزول» وبدت مسز «بت» أصفى ما تكون مزاجًا وأبدع ما تكون نفسية، وكان المستر ونكل قد قطع شوطًا كبيرًا في كسب جميل رأيها فيه، فلم تتردد في إبلاغه سرًّا أن المستر بكوك شيخ لطيف ظريف، وهي عبارة تنطوي على تعبير اعتاد بعض الذين توثقت معرفتهم بذلك الرجل الجهار الذهن التحدث به، والكلام فيه، وقد حرصنا على إيراده هنا؛ لما فيه من دليل يهز القلوب لتوه وساعته، ويقنع النفوس بذلك التقدير الذي تقدّره به كل طبقة من طبقات المجتمع، والسهولة التي يشق بها طريقه إلى المشاعر والأفئدة.

وكان الوقت متأخرًا، وقد أوغل الليل، حين أوى الصديقان إلى الراحة، بعد أن استولى النعاس على صاحبيهما الآخرين، وهما المستر طبمن، والمستر سنودجراس في بعض زوايا فندق «بيكوك» بوقت طويل، ولم يلبث النوم أن أخذ بمعاقد أجفان المستر ونكل، ولكن مشاعره كانت قد اضطربت، وإعجابه قد استثير، فلبث وجه السيدة «بت» الجميل، وقوامها المحبب، عدة ساعات، بعد أن غشي النوم على حواسه، فلم يَعُدْ يشعر بأمور الدنيا ومشاهدها، يتراءيان مرة أخرى لخياله السابح،

ويتمثلان له في شوارد أحلامه وسوانح رؤاه.

وكانت الضوضاء والحركة اللتان عادتا مع مطالع الصباح كافيتين لأن تنفيا من خاطر أغزر الخياليين في العالم خيالًا، كلَّ شيء غير الأفكار المتصلة رأسًا بالانتخاب، الذي أخذ موعده يقترب مسرعًا، فلم يلبث قرع الطبول، والنفخ في الأبواق والمزامير، وصيحات الناس، ومواقع حوافر الخيل أن ترددت أصديتها في الشوارع من أبكر ساعات الفجر وبوادره، وجاءت معركة عارضة بين خفاف المناوشين من كل حزب، فزادت في الحال حركة الاستعدادات صخبًا، ونوَّعت صورها وأشكالها تنويعًا لطيفًا مقبولًا...

وأنشأ المستر بكوك يقول «لسام» غلامه حين ظهر بباب غرفة نومه، في اللحظة التي كان يتم فيها زينته: «إيه يا سام! أظن الحياة قد دبت اليوم في كل شيء».

وأجاب المستر ويلر: «مباراة منظمة يا سيدي، إن جماعتنا يتوافون الساعة إلى الفندق، وقد بدأت أصواتهم تبح من الصباح الآن».

وعاد المستر بكوك يسأل غلامه قائلًا: «وهل يبدو عليهم يا سام أنهم فعلًا مخلصون لحزبهم؟».

وقال سام: «لم أر يا سيدي إخلاصًا كهذا في حياتي».

وقال المستر بكوك: «قويًا، آه؟».

وأجاب سام: «بشكل غير عادي. لم أر الناس من قبل يأكلون ويشربون إلى هذا الحد الكبير. وأعجب أنهم لا يخافون أن «يتفجروا»

من كثرة الأكل والشرب على هذه الصورة».

وقال المستر بكوك: «هذا يرجع إلى خطأ السادات هنا في فهم معنى العطف والحنان».

وأجاب سام بإيجاز: «جائز جدًّا».

وألقى المستر بكوك نظرة من النافذة وهو يقول: «يلوحون لي أناسًا خفافًا لطافًا ظرافًا».

وأجاب سام قائلًا: «ظرافًا للغاية. لقد كنت أنا واثنان من خدم فندق بيكوك نضع تحت «المضخة» الناخبين المؤيدين لصحيفة «إنديبندنت» الذين كانوا يتعشون هناك في الليلة الماضية».

وصاح المستر بكوك قائلًا في دهشة: «تضعونهم تحت المضخة؟».

وأجاب خادمه: «نعم، فقد نام كل إنسان حيث سقط، فكنا نجرهم في هذا الصباح واحدًا بعد واحد إلى المضخة، فنضعهم تحتها ونترك الماء ينزل عليهم، وهم الآن في حال حسنة، وشكل بديع، وقد دفعت لنا اللجنة على هذا العمل شلنًا عن كل رأس».

وصاح المستر بكوك في دهشة: «أيمكن أن تحدث هذه الأمور؟».

وقال سام: «يا سيدي، بارك الله في عمرك. بالله أين كان مولدك؟ هذه أمور بسيطة جدًّا، فما بالك بغيرها إذن؟ هذه لا شيء!».

وقال المستر بكوك: «لا شيء؟».

وأجابه غلامه: «لا شيء مطلقًا يا سيدي. لقد حدث في الليلة السابقة لآخر يوم في الانتخاب الأخير هنا أن الحزب المعارض رشا الساقية في

فندق «تاون آرمز» لغش البراندي الذي ستقدمه لأربعة عشر ناخبًا لم يكونوا قد أعطوا أصواتهم، وكانوا نازلين في هذا الفندق».

فسأله المستر بكوك: «ماذا تقصد بكلمة غش البراندي؟».

وأجاب سام قائلًا: «يعني تضع فيه منومًا، وقد فعلت الساقية، وتركتهم ينامون جميعًا إلى ما بعد انتهاء الانتخاب باثنتي عشرة ساعة. واضطر القوم أن يحملوا واحدًا منهم إلى صندوق الانتخاب في مركبة نقل وهو نائم غارق في النوم، على سبيل التجربة، ولكنها لم تفلح لأن اللجنة رفضت، فاضطروا إلى العودة به، وألقوه في فراشه؛ ليواصل النوم مرة أخرى».

وقال المستر بكوك محدثًا نفسه ومخاطبًا سام في وقت واحد: «هذه تصرفات غريبة».

وأجاب سام: «ليست غريبة كثيرًا بالنسبة لظرف عجيب حدث لوالدي نفسه في أحد الانتخابات في هذه الدائرة ذاتها يا سيدي».

قال: «وكيف كان ذلك؟».

ومضى سام يقول: «كان والدي يسوق مركبة إلى هنا في ذات مرة، فحلّ موعد الانتخاب، فاستأجره أحد الحزبين لإحضار ناخبين من لندن، وفي الليلة السابقة لموعد انصرافه، بعثت اللجنة الانتخابية لتأييد مرشح الحزب الآخر في طلبه سرًّا، فذهب مع الرسول، وأدخله الرسول على اللجنة، وكانت تجلس في غرفة واسعة، فرأى خلقًا كثيرًا فيها، وأكوامًا من الأوراق، والأقلام والمحابر، وغيرها. وقال السيد الجالس

في كرسي الرياسة: «آه يا مستر ويلر، يسرني لقاؤك يا سيدي، كيف حالك؟» وقال والدي: «بخير والحمد لله. أشكرك يا سيدي». وقال السيد الرئيس: «أرجو أن تكون الأحوال بين بين» وأجاب والدي: «الحال طيبة. وأشكرك يا سيدي» وقال السيد: «اجلس يا مستر ويلر، أرجوك أن تجلس يا سيدي» فجلس والدي، وراح هو والسيد يتبادلان النظر طويلًا، وبدأ السيد يقول: «ألا تتذكرني؟» وأجاب والدي: «لا أستطيع أن أقول». وقال السيد: «أنا عارفك... لقد عرفتك وأنت غلام». وأجاب والدي: «والله أنا غير متذكر». وقال السيد: «شيء غريب جدًّا، لا بد أن تكون ذاكرتك ضعيفة يا مستر ويلر»، وأجاب والدي: «ذاكرتي ضعيفة جدًّا». وقال السيد: «أعتقد ذلك». وعندئذ ملأوا له كأسًا من النبيذ، وطفقوا يتحدثون معه عن سوقه ويداعبونه ويمزحون معه، وأخيرًا دسوا ورقة بعشرين جنيهًا في يده. وعاد السيد يقول: «إن الطريق رديء للغاية من هنا إلى لندن»، وأجاب والدي: «إنه طريق ثقيل في بعض أجزائه». وقال السيد: «وبالأخص قرب القناة». وقال والدي: «هذا طريق ملعون جدًّا». وقال السيد: «ولكنك يا مستر ويلر سواق بارع تحسن استخدام السوط، وتفعل بخيلك ما تشاء، ونحن جميعًا نحبك يا مستر ويلر، فإذا كان لا بد أن يقع حادث وأنت قادم بأولئك الناخبين إلى هنا، فليكن ذلك الحادث إسقاطهم في القناة، ولكن دون أذى لهم، وهذا المبلغ لمزاجك». وقال الوالد: «هذا كريم منك يا سيد، وسأشرب كأسًا في صحتك» وراح يشربها، ووضع المال في جيبه وضم ثوبه عليه، وانحنى مسلمًا وخرج».

ومضى سام يقول، وهو يلقي على سيده نظرة جريئة صامتة لا يمكن

التعبير عنها: «وسوف لا تصدق يا سيدي إذا قلت لك إن المركبة التي جاء فيها بأولئك الناخبين في ذلك اليوم انقلبت عند تلك النقطة عينها، وسقطوا كلهم في القناة..!».

وأسرع المستر بكوك في سؤاله: «وهل خرجوا منها؟».

وأجاب سام بكل رفق وبطء: «أظن أنه ظهر أن شيخًا منهم لم يعثر عليه. ولكنني علمت أن قبعته وُجِدَت، وإن لم أكن متأكدًا تمامًا هل كان رأسه فيها أو لا، وكل ما أنا مندهش له هو هذه المصادفة العجيبة المدهشة، أن مركبة والدي بعد الذي قاله ذلك السيد رئيس اللجنة الانتخابية قد انقلبت في تلك الجهة بالذات، وفي ذلك اليوم بعينه..!».

وقال المستر بكوك: «إنه لا شك ظرف غير مألوف بالمرة، ولكن نظف قبعتي يا سام لأنني أسمع صوت المستر ونكل يناديني إلى الفطور».

ومضى المستر بكوك بعد هذه الكلمات يهبط السلم إلى قاعة الجلوس؛ حيث وجد طعام الإفطار مهيَّأ، والأسرة مجتمعة، ولم تلبث الوجبة أن انتهت، وزُيِّنَتْ قبعة كل من السيدين بشارة زرقاء بارزة، وكان المستر ونكل قد تعهد بمرافقة السيدة إلى سطح أحد المساكن القريبة من مكان الانتخاب، فذهب المستر بكوك والمستر بت وحدهما إلى فندق «تاون آرمز»، وكان أحد أعضاء لجنة المستر سلمكي واقفًا في شرفة خلفية منه يخطب في ستة أولاد صغار وصبية، وهو يمجدهم بين كل عبارة وأخرى من خطابه بمناداتهم يا رجال «إيتنزول»، فكان أولئك الغلمة يستقبلون هذا اللقب المخلوع به عليهم بأشد الهتاف والتصفيق.

وكان فناء الإسطبلات في الفندق مظهرًا صادقًا من مظاهر قوة «الزُّرْق» وروعتهم وجلالهم، فقد كان هنالك جيش منظم من حملة الأعلام الزرقاء، بعضهم يحمل سارية واحدة، والآخرون يحملون ساريتين، وقد ازدانت تلك الأعلام بوسائل مبتكرة، وزخارف مناسبة، وكُتِبَ عليها عبارات بحروف مذهَّبة، وهي ترتفع أربعة أقدام، وتلوح كبيرة الأحجام، كما كانت هناك فرقة موسيقية كبيرة، تتألف من طبول ومزامير وأبواق، ويسير أفرادها أربعة أربعة، ويبرئون ذممهم من الأجر الذي يتقاضونه بحق، ولا سيما الطبالون منهم، فقد كانوا أشداء مفتولي العضلات، إذا صح أن في الناس مَنْ يكسب أجره بحق، وكان هنالك أيضًا جماعات من المحافظين على النظام يحملون عصيًّا زرقاء، وأعضاء اللجنة- وهم عشرون عضوًا- يضعون أغطية زرقاء حول أعناقهم، وجمع حاشد من السوقة يلبسون قبعات بهذا اللون، وكان هنالك ناخبون على ظهور الخيل، وآخرون مشاة، ومركبة مكشوفة بأربعة جياد لمركب السيد الشريف صمويل سلمكي، وأربع مركبات بحصانين لأصدقائه ومؤيديه، وكانت الأعلام خفّاقة، والموسيقى عازفة، والمحافظون على النظام يسبون ويلعنون، وأعضاء اللجنة يتشاحنون ويتشاجرون، والغوغاء يصيحون ويصرخون، والجياد تتواثب وتتراجع، والسائسون تتفصد جباههم عرقًا، وكل مَنْ في الموضع، وكل ما في الساحة، قد هُيِّئ واجتمع وتوافر لخدمة السيد الشريف صمويل سلمكي ومصلحته، وشرفه وسمعته، وهو أحد المرشحين عن دائرة إيتنزول للنيابة عنها في مجلس العموم ببرلمان المملكة المتحدة.

وتعالت الهتافات واستطالت، وخفقت الرايات، وقد كُتِبَ على أديم إحداها «حرية الصحافة» في اللحظة ذاتها التي أشرف فيها رأس المستر «بت» الأصفر الشعر على الحاشدين، من إحدى الشرفات، على السوقة المحتشدين في الفناء، وما كان أشد الحماسة التي استقبل بها السيد الشريف صمويل سلمكي، وقد تقدم في حذائه الطويل وغطاء رقبته الأزرق، فتناول يد المستر «بت»، معبرًا في صورة «مسرحية» للمحتشدين في الساحة عن شكره الذي لا يمحوه شيء، ودينه الذي لا يفي به عرفان، لجريدة «الغازت إيتنزول».

وانثنى المستر صمويل سلمكي يسأل المستر بركر: «هل كل شيء على ما يرام؟».

وأجاب ذلك الرجل النحيف: «كل شيء يا سيدي العزيز».

وقال السيد الشريف: «أرجو ألا تكونوا قد نسيتم شيئًا».

وأجاب المستر بركر: «لم نترك شيئًا يصح أن يُفْعَل إلا فعلناه يا سيدي العزيز. لا شيء إطلاقًا. إن لدى الباب المؤدي إلى الشارع عشرين شخصًا اغتسلوا واستحموا وتهيأوا لتتقدم إليهم فتصافحهم بيدك، وستة أطفال محمولين على الأذرع لكي تربت على رؤوسهم بكفك، وتسأل عن أعمارهم، فاهتم خاصة بالأطفال يا سيدي العزيز، فإن هذه الحركة كبيرة الأثر في النفوس دائمًا».

وقال السيد الشريف صمويل سلمكي: «سأهتم بالأمر».

وعاد السيد النحيف الفطن المحتاط لكل شيء يقول: «ويمكن أيضًا

يا سيدي العزيز، إذا استطعت، لأني أريد أن أقول إن ذلك شيء لا يمكن الاستغناء عنه، وإنما أقول إذا تيسر، أن تُقبِّل واحدًا منهم، فثق أن ذلك سيحدث تأثيرًا عظيمًا جدًّا في نفوس الناخبين».

وهنا سأل السيد الشريف قائلًا: «ألا يمكن أن يحدث هذا التأثير العظيم ذاته، إذا تولى عملية التقبيل أحد من الأنصار والمؤيدين؟».

وأجاب الوكيل: «أخشى ألا يحدثه. أما إذا توليتها أنت بنفسك يا سيدي العزيز، فإني أعتقد أنها ستجعلك محبوبًا من الشعب كل المحبة».

وقال السيد المحترم بلهجة المستسلم: «ليكن ذلك، ما دام لا مفر منه...».

وصاح أعضاء اللجنة العشرون: «أعدوا الموكب!».

وفي الحال، ووسط الهتاف المدوي من حناجر المحتشدين، اتخذت الفرقة الموسيقية، والمحافظون على النظام، وأعضاء اللجنة الانتخابية، وجموع الناخبين، والخيَّالة، والمركبات، أماكنهم من الموكب الزاخر، وامتلأت كل مركبة من المركبتين اللتين يجرهما حصانان بأقصى عدد من الركاب يمكن حشرهم فيها وقوفًا على سوقهم، وركب في الأخرى المستر بكوك، والمستر بركر، والمستر طبمن، والمستر سنودجراس، ونحو ستة من أعضاء اللجنة أيضًا.

وسادت لحظة رهيبة، وغمرها سكون مروع؛ انتظارًا لظهور السيد المحترم صمويل سلمكي، وتقدُّمه ليستقل المركبة ليبدأ الموكب سيره،

ولم تلبث الجماهير أن أرسلت فجأة هتافًا مدوِّيًا.

وقال المستر بركر في حماسة بالغة: «لقد خرج إليهم»، ولم يكن السيد النحيف في موضع يمكنه أن يمكن الركب الذين معه من رؤية ما هو حادث.

وتعالى هتاف آخر أشد دويًا من سالفه.

وعاد المستر بركر يقول: «لقد صافح الناخبين بيده».

ودوَّى هتاف ثالث أبعد صدى.

فقال المستر بركر، وهو يرعش من شدة الفضول والسعوط: «لقد ربت بيده على رؤوس الولدان».

وعاد الهتاف يشق عنان السماء.

وصاح السيد النحيف وهو في فرح بالغ: «لقد قبّل أحدهم».

وتعالى الهتاف مرة أخرى.

وعاد السيد النحيف يصيح من شدة الحماسة: «لقد راح يقبلهم جميعًا»...

وبدأ الموكب يشق طريقه وسط صيحات تصم الآذان.

وليس في إمكاننا أن نصف كيف اختلط هذا الموكب بالموكب الآخر، أو بأية وسيلة اختلط، وكيف تواتى له الخروج من الفوضى التي ضربت أطنابها، من جراء هذا الاختلاط، وكل ما في وسعنا أن نقوله إن قبعة المستر بكوك طارت من فوق رأسه؛ فهبطت فوق عينيه

وأنفه وفمه، بسبب سارية من ساريات أعلام «الصُّفْر» أصابتها في بداية الموكب، وقد وصف هو المشهد بقوله إنه وجد نفسه- حين تيسر له أن يلتقط لمحة من المشهد- محاطًا من كل جانب بوجوه غاضبة، وسحنات كاشرة، وغمامة كثيفة من الغبار، وحشد حاشد من المتشاجرين، وقال إن قوة خفية أنزلته من المركبة كرهًا، وأنه اشتبك أيضًا في معركة ملاكمة، ولكنه لا يعرف مطلقًا مع من اشتبك أو كيف، أو لماذا، ثم وجد نفسه يدفع من الخلف دفعًا فوق مدارج سلم خشبي، ولم يكد يرفع قبعته عن رأسه، حتى رأى نفسه بين أصدقائه في مقدمة الجانب الأيسر من المنصة. وكان الجناح الأيمن مخصصًا لحزب «الصُّفْر»، والجزء الأوسط منها للعمدة وموظفيه، وكان أحدهم- وهو المنادي البدين في المدينة- يقرع ناقوسًا، ضخمًا، يطلب أن يسود الصمت، بينما كان السيد هوراشيو فيزكين، والسيد المحترم صمويل سلمكي، قد وضعا يديهما فوق قلبيهما وهما يدليان في تلطف متناه، لذلك البحر الزاخر من الرؤوس الذي غمر مقدمة الساحة المكشوفة، وقد تصاعدت من ناحيتها عواصف وزوابع من الأنَّات والصرخات والصيحات والصفير، تزري بما للزلزال من تأثير.

وقال طبمن: «هناك، فوق سطح ذلك البيت، ها هو ذا ونكل!».

وقال المستر بكوك، وهو يضع منظاره فوق عينيه، وكان لحسن الحظ قد حفظه في جيبه إلى تلك اللحظة: «أين؟».

وقال طبمن: «هناك، فوق سطح ذلك البيت!».

وبالفعل كان المستر ونكل ومسز «بت» هنالك فوق الأنابيب

المصنوعة من الرصاص في سطح بيت من القرميد يجلسان مستريحين على مقعدين، وهما يلوحان بمنديلهما تلويحة توحي بأنهما قد لمحا المستر بكوك وزميله، وهي تحية رد عليها المستر بكوك بقبلة من يده أسلمها إلى الريح لتحملها إلى السيدة.

ولم تكن الإجراءات المتبعة في هذا الموقف قد ابتدأت بعد، والمعروف عن الجماهير، حين لا تجد شيئًا تنشغل به، أن تنبعث إلى «التنكيت»، فكانت تلك الحركة البريئة من جانب المستر بكوك كافية لإثارة المجون.

فصاح صوت قائلًا: «آه. أيها العجوز الخبيث، الذي ينظر إلى البنات! أليس كذلك؟».

وصاح آخر: «ارجع أيها الشيخ عن الإثم وتب يومًا».

وصاح ثالث، وهو يضع المنظار على عينيه: «ليغازل امرأة متزوجة!».

وصرخ رابع: «أراه يغمز لها بطرف عينه الأثيمة».

وقال خامس: «احرص يا «بت» على امرأتك».

وتعالت الضحكات.

وكان غضب المستر بكوك على أشده، من هذه النكات التي اقترنت بمقارنة مثيرة بينه وبين رجل كبير السن، واختلطت بعدة مداعبات ونكات من هذا النوع وأمثاله، والتي أريد منها أيضًا المساس بشرف سيدة بريئة، فكاد يرفع الصوت محتجًا، لولا أن طُلِب إلى الجمع التزام السكوت؛ فاكتفى بإرسال نظرة قاسية عابسة إلى الجماهير، ورثاء لعقولها الضالة،

فما زادتهم نظرته هذه إلا ضحكًا مدويًا، واستهزاء متناهيًا.

وصاح رجال العمدة: «سكوتًا!».

وقال العمدة بلهجة فخمة تليق بمركزه الرفيع: «يا ويفن، اطلب إليهم السكوت».

وامتثالًا لهذا الأمر، عاد المنادي يقرع الناقوس، وعندئذ صاح أحدهم قائلًا: «أين الفطير؟» فدوت الضحكات مرة أخرى.

وبدأ العمدة يخطب، فقال بأعلى صوت استطاع إطلاقه من حنجرته: «أيها السادة، أيها الإخوان، ناخبي دائرة إيتنزول، لقد اجتمعنا هنا اليوم لانتخاب نائب يشغل المقعد الخالي بوفاة المرحوم...».

وهنا قاطعه صوت من جانب الجمهور يقول: «ليحيَ العمدة، وليكن النجاح والتوفيق نصيبه، حتى لا يفلت من كفه المسمار، وطبق الفنجان اللذان يتقاضى منهما مرتبه!».

فقوبلت هذه الإشارة إلى مهنة الخطيب ووظيفته بعاصفة من الضحك والسرور، فلم تلبث بقية خطبته من أثر قرع الناقوس مرة بعد أخرى أن ضاعت في الهواء، ولم تَعُدْ مسموعة إلا حين بلغ منها العبارة الختامية التي شكر فيها للجمهور انتباهه وإصغاءه لخطبته من بدايتها إلى خاتمتها، وهو شكر قوبل بعاصفة جديدة من الضحك لبث ربع ساعة مدويًا.

وانبرى عندئذٍ رجل نحيف طويل العود يلبس قميصًا أبيض، مكويًّا بالنشاء؛ ليخطب في الجماهير المحتشدة، ولكنه ما كاد يتكلم حتى ارتفعت الأصوات من كل ناحية تطلب إليه أن يرسل غلامًا إلى بيته ليسأل

امرأته: هل تراه ترك صوته تحت الوسادة! بيد أنه استطاع أن يقول إنه يرجو أن يرشح الشخص الجديد بشرف النيابة عنهم في البرلمان. ولما قال إن هذا الشخص هو السيد هوراشيو فيزكين، قابله أنصار فيزكين بالهتاف، ومؤيدو سلمكي بالصفير، واشتد الهتاف والصفير لحظة طويلة، حتى لقد كان في وسع الخطيب والذي سيليه فوق المنبر أن يغنيا أغنيات فكهة، بدلًا من أن يخطبا ويناشدا، دون أن يأبه بهما أي مخلوق لغنائهما.

وبعد أن فرغ أنصار هوراشيو فيزكن من دورهم، تقدَّم رجل صغير الجثة، سريع الغضب، قرنفلي الوجه، ليقترح مرشحًا آخَر خليقًا بأن يمثل ناخبي إيتنزول في البرلمان، وكان من الجائز لذلك الرجل القرنفلي الوجه أن يمضي في خطبته سابحًا طافيًا، لو لم يكن مفرطًا في الغضب والاحتداد إلى حدٍّ جعله لا يفطن إلى مجانة الجماهير ودعابتها، ولكنه بعد بضع كلمات حشد فيها ألوانًا من الاستعارات والمجاز، انتقل من التنديد بأولئك الذين قاطعوه إلى تبادل التحدي مع السادة القائمين فوق المنصة، فلم تلبث أن ارتفعت صيحات مزمجرة في وجهه، فاضطر إلى التعبير عن مشاعره بالإشارات والحركات دون الكلام، ثم ترك المنصة للخطيب الذي يليه، فقام هذا يلقي خطبة مكتوبة استغرقت نصف ساعة، وهو يأبى الامتناع عن الكلام، والوقوف عن الخطبة؛ لأنه كان قد بعث بها إلى صحيفة «الغازت إيتنزول»، وكانت الصحيفة قد نشرتها فعلًا بحذافيرها.

وعندئذ تقدم السيد هوراشيو فيزكين من «لودج فيزكين» بقرب إيتنزول ليخطب في جموع الناخبين، ولكنه ما كاد يبدأ الكلام حتى أخذت الفرقة الموسيقية التي استأجرها السيد المحترم صمويل سلمكي

تعزف بقوة لم يكن صخبها في الصباح ليذكر بجانب ضوضائها في هذا المقام، فما كان من أنصار «الصُّفْر» للرد على هذا، إلا أن راحوا يضربون بالعصي رؤوس «الزُّرْق» وأكتافهم، ومضى هؤلاء يحاولون التخلص من هؤلاء الجيران الثقلاء معاشر الصُّفْر، وعندئذ بدأ التدافع والتجاذب والعراك بين الفريقين، وهو مشهد ليس في إمكاننا أن نؤدي له من حق الإنصاف أكثر مما فعله «العمدة»، وإن كان قد أصدر أوامر مشددة إلى اثني عشر رجلًا من القائمين على حفظ النظام بالقبض على كبار الجناة، وهم قرابة مائتين وخمسين رجلًا، وكان السيد هوراشيو فيزكن وأصحابه خلال هذه الملاحم والاشتباكات قد استشاطوا غيظًا، وتناهوا في الغضب والهياج، حتى اضطر السيد هوراشيو في النهاية أن يرجو إلى منافسه السيد المحترم صمويل سلمكي أن ينبئه هل كان عزف تلك الفرقة الموسيقية تنفيذًا لأمر صادر منه؟ ولكن السيد المحترم صمويل سلمكي رفض الإجابة عن هذا السؤال، فما كان من السيد هوراشيو فيزكن إلا أنْ هَزَّ قبضة يده في وجه السيد المحترم، وعندئذٍ تصاعد الدم في وجه هذا السيد، فطلب إلى منافسه المبارزة، وإزاء هذه المخالفة الصارخة لجميع القواعد والسوابق المتصلة بأمر النظام وصونه، طلب العمدة إلى «المنادي» أن يقرع الناقوس، وأعلن أنه سوف يدعو كلًّا من السيد هوراشيو فيزكين والسيد المحترم صمويل سلمكي إلى الحضور أمامه، وينذرهما بوجوب حفظ النظام، وأمام هذا التنديد المروع، تدخل أنصار المرشحين، وبعد أن قضى أصدقاء كل حزب ومريدوه ثلاثة أرباع الساعة في مشاجرات ومنازعات بين كل اثنين من الفريقين، رفع السيد

هوراشيو فيزكين يده فلمس قبعته تحية للسيد المحترم صمويل سلمكي، وفعل هذا ما فعله منافسه، فكفت الموسيقى عن العزف، وهدأ الفريقان نوعًا ما، وسمح للسيد هوراشيو فيزكين بمتابعة الكلام.

وكانت خطبتا المرشحين، على اختلافهما في كل شيء، تنويهًا بديعًا بفضل ناخبي إيتنزول ورجاحة ألبابهم، فقد ذهب كلاهما في خطابه يعلن أن الدنيا لم تشهد من قبلُ مَنْ هُمْ أكثر استقلالًا، ولا أوفر فطنة واستنارة، ولا أرعى للروح الوطنية، ولا أسمى أذهانًا، ولا أبدع نزاهة، من معاشر الناخبين الذين تعهدوا بإعطائه أصواتهم، كما مضى كلٌّ منهما يشير من طرف خفي إلى توجسه خيفة من أن يكون الناخبون في الجانب الآخر من الخبث والسخف والعجز، بحيث لا يصلحون لتأدية الواجب الخطير الذي طُلِب إليهم تأديته، وراح السيد فيزكن يعلن استعداده لإنجاز كل ما يطلبه الناخبون منه، بينما مضى سلمكي يعلن أنه معتزم ألا يفعل شيئًا يطلبه الناخبون إليه أن يفعله، وقال الاثنان إن تجارة «إيتنزول» ومصالح أصحاب المصانع فيها، ومستلزمات رخاء الدائرة ورفاهيتها، أعزّ على نفسيهما من كل شيء في هذا العالم، وإن في وسع كل منهما أن يعلن، بكل اطمئنان وثقة، أنه هو الرجل الذي سيفوز في المعركة ويظفر بتمثيل الدائرة.

وعزفت الموسيقى، وأعلن العمدة أنه يؤيد السيد المحترم صمويل سلمكي، وطلب السيد هوراشيو أخذ الأصوات، فحُدِّد موعد للتصويت، وعندئذٍ تقدم اقتراح بشكر العمدة على حسن تصرفه، ومقدرته في توجيه الحفل، من كرسي رياسته، ورد العمدة شاكرًا بعد أن قال إنه كان يتمنى

لو أنه وجد كرسيًا يستطيع وهو فيه أن يُظهِر كفايته وحسن تصرفه؛ لأنه ظل واقفًا على قدميه طيلة الاجتماع.

وأعيد تنظيم الموكب، ودرجت المركبات في طريقها برفقٍ، شاقةً صفوف الجماهير، وانثنى الناس في إثرها يرسلون صيحات وهتافات مختلفة كما تملي عليهم مشاعرهم، وترتضي أهواؤهم.

وظلت البلدة خلال فترة أخذ الأصوات في حمى شديدة من الهياج والحماسة، وجرى كل شيء على أحسن وجوهه، وفي أبدع مظاهره، فكانت السلع التي فُرِضت عليها المكوس تُعرَض رخيصة إلى حد ملحوظ في مختلف المتاجر والمحال العامة، وكانت مركبات الإسعاف تطوف الشوارع لنقل الناخبين الذين يصابون فجأة بدوار خلال المعركة الانتخابية، وهو عارض انتشر بينهم انتشارًا يبعث على أشد القلق، حتى ليُشَاهَد خلق كثير منهم في أغلب الأحيان رقودًا فوق الأفاريز غائبين عن صوابهم، وقد بقيت فئة قليلة من الناخبين متخلفة عن الانتخاب إلى اليوم الأخير قبل إقفال الصناديق، وهم معاشر أهل الرأي والمفكرين الذين لم يقتنعوا بحجج كلا الحزبين، وإن كثرت الاجتماعات والمؤامرات بينهم وبين أنصارهما، وقبل انتهاء الموعد بساعة، طلب المستر بت التشرف بحديث خاص مع أولئك الأذكياء الكبار النفوس الوطنيين، فاستجابوا له، وكانت حججه موجزة ولكن مرضية، فانطلقوا بجمعهم إلى صناديق الانتخاب، وحين عادوا، كان الفوز للسيد المحترم صمويل سلمكي من سلمكي هول «محققًا».

# الفصل الرابع عشر

## يحوي وصفًا موجزًا لجمع تلاقوا في فندق بيكوك وقصة تاجر متجول

إنه ليثلج الصدر، ويسر النفس، التحول من التفكير في شؤون الحياة السياسية ونضالها وجلبتها، إلى الراحة والسكينة اللتين تلازمان الحياة الخاصة، ولم يكن المستر بكوك في الحقيقة نصيرًا لأي حزب بالذات، ولا منتميًا إليه كل الانتماء، ولكن حماسة المستر بت أوقدت مشاعره إلى حدٍّ جعله يشغل كل وقته، ويحشد كل اهتمامه؛ لمتابعة الإجراءات والتدابير التي جئنا بوصفها في الفصل السابق من كناشته ومذكراته، ولم يكن المستر ونكل أيضًا طيلة انشغال زعيمه بتلك الشؤون، متبطلًا ولا متبلدًا، بل لقد مضى يخصِّص كل وقته للرياضات البهيجة، والرحلات الريفية اللطيفة مع مسز بت التي لم تكن تَدَع أية فرصة تسنح لها إلا انتهزتها؛ التماسًا للترفيه عن نفسها من تلك الحياة المملة الرتيبة التي ما فتئت تشكو منها.

وهكذا بينما كان هذان السيدان يقيمان في دار رئيس التحرير، وينزلان فيها منزلة الأهل والعشراء، كان المستر طبمن والمستر سنودجراس قد تُرِكا وحدهما ليستمتعا إلى حد كبير بالعيش على هواهما، ولم يكونا يعنيان كثيرًا بالمسائل السياسية، فراحا يقتلان الوقت في الاستمتاع غالبًا بكل ما تكفله الحياة في فندق بيكوك من صنوف اللهو وألوان التسلية وهي لا تعدو لعبة «البلياردو» في الطابق الأول منه، وألعاب «الكرة»، في ساحة مهجورة من فنائه الخلفي، وكان المستر ويلر مستكمل العلم بهاتين اللعبتين، فتولى تدريبهما على دقائقهما وما خفي عليهما من أسرارهما، التي لا يعرفها الأشخاص العاديون، وظل يلقنهما شيئًا فشيئًا حتى يألفا ممارستهما على الأيام، وهكذا استطاعا رغم حرمانهما كثيرًا من متعة لقاء المستر بكوك والانتفاع بمجالسه، أن يقضيا أوقاتهما بغير ملالة، وتمكنا من تجنب السآمة والضجر.

ولكن مجالس المساء في الفندق لم تكن تخلو من مفاتن، مكنت هذين الصديقين من التغلب على الدعوات التي كان «بت» الذكي الموهوب، رغم بلادته وأحاديثه السقيمة، يوجهها إليهما، وكانت العادة أن تمتلئ في كل مساء «القاعة التجارية» في الفندق «بحلقة اجتماعية»، كان يطيب للمستر طبمن أن يلاحظ أفرادها، ويتأمل تصرفاتهم، وآداب سلوكهم، ويألف المستر سنودجراس تدوين أقوالهم وأفعالهم في مذكراته.

وأكثر الناس يعرفون ما شأن تلك القاعات التجارية عادة، ولم تكن هذه القاعة في فندق «بيكوك» تختلف في شيء عن أمثالها في الفنادق

الأخرى، أي أنها كانت قاعة رحيبة الجوانب تكاد تلوح خالية من الرياش عارية، وإن كان ما فيها منه يوحي بأنه كان أحسن وأفضل منظرًا، حين كان أجد وأحدث عهدًا، وقد وضعت في وسطها منضدة كبيرة، وعدة مناضد أخرى صغيرة في مختلف زواياها، وجملة منوعة الأشكال من المقاعد وبساط قديم من البسط التركية يكاد يتناسب حجمه مع مساحة القاعة ذاتها، تناسب منديل غادة. وكانت الجدران ومقر الحارس مزدانة بخريطة أو خريطتين كبيرتين وعدة معاطف «لوحتها الشمس»، أو ذهبت التقلبات الجوية بألوانها، وقلانس وقبعات مدلاة من صف مستطيل من المشاجب في ركن منها، كما ازدان الطنف بدواة من الخشب تحوي «بقية» قلم ونصف قرطاس ودليلًا للمسافرين ودليلًا للأعلام، وتاريخًا للأقاليم ينقصه الغلاف، وبقايا سمكة في تابوت زجاجي، وكان أفق القاعة مختنقًا بذوائب الدخان المتصاعد من اللفائف والقصبات، حتى أحالت القاعة قاتمة اللون، ولا سيما الأستار الحمر المغبرة التي تظلل النوافذ والشرفات. وكانت على الصوان الجانبي أنواع منوعة من الأشياء متجاورات متقاربات، كان أبرز ما فيها بضعة أباريق، وصناديق، وسياط، ولفاعات للسفر، وصينية للسكاكين والشوك، وآنية للتوابل والخردل.

وفي هذه القاعة كان المستر طبمن والمستر سنودجراس يجلسان في مساء اليوم الذي انتهت فيه الانتخابات مع عدة نزلاء آخرين، يدخنون ويشربون.

وأنشأ رجل بدين موفور العافية، يناهز الأربعين، أعور ذا عين سوداء شديدة البريق، يختلج فيها المكر والمجانة والولوع بالمزاح، يقول:

«أيها السادة، نحن معاشر السادة، إن من عادتي أن أقترح شرب نخب الحاضرين، وأخص نفسي بشرب نخب «ماري»، إيه يا ماري!».

فأجابته الساقية، وهي تبدو غير مستاءة من هذه التحية التي وُجِهَت إليها: «الزم شأنك أيها المنكود».

وقال ذو العين السوداء: «لا تنصرفي يا ماري!».

وأجابت الفتاة: «دعني وهذه القحة».

وقال الأعور وهو ينادي الفتاة بعد أن تركت القاعة: «لا بأس! سأحضر إليك بنفسي يا ماري بعد لحظة، فلا تغضبي يا عزيزتي وكوني مرحة».

ومضى في حركة ليست بالشاقة، وهي الغمز بعينه السليمة للجميع، مما أثار ابتهاجًا متزايدًا في نفس رجل مكتهل ذي وجه قذر وقصبة تبغ من الفخار، فراح يقول بعد سكون قصير: «النساء مخلوقات لطيفات».

وأجاب رجل شديد احمرار الوجه قائلًا من خلف لفافة في فمه: «آه، لا نزاع في ذلك».

وعاد السكون يغمر المجلس عقب هذه القطعة الصغيرة من الفلسفة.

وانثنى ذو العين السوداء، وهو يملأ بالتبغ قصبة هولندية كبيرة: «لا تنس أن في الدنيا أشياء ألطف من النساء وأظرف».

فسأله ذو الوجه القذر: «هل أنت متزوج؟».

قال: «لست أستطيع أن أقول إنني كذلك».

وأجاب الآخر: «هذا هو ما خطر لي»، وعندئذ انتابته نوبات من الضحك لهذا الجواب، اشترك معه فيها رجل ذو صوت هادئ، ووجه رزين، اعتاد أن يوافق كل إنسان على ما يقوله.

وانبرى المستر سنودجراس في حماسة يقول: «إن النساء أيها السادة، رغم كل ما قيل ويقال عنهن، دعامة حياتنا وسلوة عيشنا، ومتعة نفوسنا».

وقال السيد ذو الوجه الساكن: «إنهن لكذلك!».

واعترض الرجل الأشعث قائلًا: «حين يكن صافيات المزاج».

وقال السيد الهادئ: «هذا صحيح جدًّا».

وقال المستر سنودجراس، وكانت أفكاره قد عادت سراعًا به إلى «إميلي واردل»: «إنني لا أقر هذا الاشتراط، وأعترض عليه بكل احتقار، وكل غضب. أروني الرجل الذي يقول شيئًا ضد النساء، وأنا أعلن على رؤوس الأشهاد أنه ليس رجلًا».

وأخرج المستر سنودجراس «اللفافة الكبيرة» من فمه، وضرب المنضدة ضربة عنيفة بجميع كفه.

وقال الرجل الهادئ: «هذه حجة سليمة صائبة».

وقال الأشعث مقاطعًا: «ولكنها حجة تحوي نقطة لا أوافق عليها».

وقال السيد الهادئ: «وفي هذا القول بلا شك كثير من الحق يا سيدي».

وقال التاجر المتجول ذو العين الواحدة: «في صحتك يا سيدي»، وراح يومئ برأسه للمستر سنودجراس إيماءة الموافقة.

وقبل المستر سنودجراس منه هذه المجاملة.

ومضى التاجر المتجول يقول: «إنني أحب دائمًا أن أسمع حجة صائبة، حجة قوية كهذه؛ لأنها تنعش الصدر كل الإنعاش. ولكن هذه المحاجة اليسيرة عن النساء قد ذكرتني بقصة سمعتها من عم لي كبير في السن، وكانت ذكراها منذ لحظة هي التي حملتني على أن أقول إن في الدنيا أحيانًا أشياء ألطف من النساء وأجمل».

وقال ذو الوجه المحمر الممسك باللفافة الكبيرة: «أحب أن أسمع هذه القصة».

وقال التاجر: «أحقًّا؟» ولم يرد بل ظل يدخن بشدة بالغة.

وقال المستر طبمن، ولم يكن تكلم قبل هذه اللحظة: «وأنا كذلك»، فقد كان متشوقًا لزيادة مدخره من العلم والتجربة.

وقال ذو العين الماكرة، وهو يحيلها بالاختلاج أشد مكرًا: «أحقًّا تريد أن تسمعها، حسن جدًّا، سأقصها، ولكن كلا، ما أنا بقاصها؛ لأني أعرف أنكم لن تصدقوها».

وقال المستر طبمن: «إذا قلت إنها حقيقة.. فسأصدقك بالطبع».

وأجاب التاجر الجوّاب: «على هذا الشرط إذن سأقصها. فهل سمعتم يومًا باسم بيت تجاري كبير يُدعى بيلسن وسلام؟ ولكن ليس بذي بال أن تكونوا قد عرفتموه أو لم تعرفوه؛ لأنه بيت ترك التجارة من عهد بعيد، وقد وقع ما ستسمعونه للوكيل المتجول في خدمة ذلك البيت منذ ثمانين عامًا، وكان صديقًا حميمًا لعمي، وكان عمي هو الذي

قصها على مسمعي، وقد جعل لها عنوانًا غريبًا، ولكنه كان قد اعتاد أن يدعوها»:

### قصة التاجر المتجول

وقد اعتدت أنا أن أقصّها على النحو التالي:

في ذات مساء خلال أيام الشتاء، وحوالي الساعة الخامسة، حين أخذ الغسق يغمر الكون، كان رجل يستقل عجلة ذات حصان واحد، وهو يستحث حصانه المكدود على الطريق الذي يشق «براري مارلبرة» في اتجاه برستل، وكان من المحتمل أن يراه أحد من الناس، بل لا أشك في أن أحدًا من الناس كان لا بد أن يراه حتمًا، إلا إذا كان مَن عساه أن يمر به في تلك الناحية أعمى لا يبصر، وكان الجو من السوء، أو الليل من شدة البرودة والبلل، بحيث لم يكن ثمة شيء في طريقه غير هطل الأمطار، وغزارة الماء من حوله، فكانت العجلة تشق طريقها وحيدة مكفهرة مقرورة، ولو أن تاجرًا متجولًا في تلك الأيام لمح تلك العجلة الصغيرة المتجردة التي يضرب هيكلها إلى لون الطفل، وتبدو الحمرة على عجلاتها، وشاهد تلك الفرس الشموس الشكسة السريعة التي تبدو هجينًا بين حصانِ جزارٍ، ومهرةِ موزِّعِ بريد؛ لعرف في الحال أن ذلك التاجر لم يكن أحدًا غير «توم سمارت» الذي يعمل في خدمة بيت «بيلسن وسلام» في شارع «كاتيتن» بحي الأعمال، في لندن، ولكن لم يكن ثمة أحد من التجار الجوالين في ذلك الطريق ليشاهده، فلبث أمره مجهولًا لا يدري مخلوق عنه شيئًا، وظل منطلقًا بعربته الطفلية اللون، وعجلاتها الحمراء الأديم، وفرسها الشموس السريعة الخطى، كأنما قد

احتفظ الكل بالسر، فلبث الأمر مكتومًا على الناس مخفيًّا.

وفي الأرجاء المهجورة من هذا العالم بقاع أخف رحمة من «براري مارلبرة» حين تهب عليها الرياح العاتية، فإذا أضفت إلى ذلك كله، ذلك المساء المكفهر القاتم، والطريق الموحل الزلق، وهطل المطر الشديد، وجربت ما يكون من الأثر بنفسك، على سبيل الاختبار الشخصي، أدركت قوة هذا الوصف كاملة، ووعيت رهبة ذلك المشهد جملة.

وكانت الريح تهب في الطريق، لا في اتجاه البلدة ولا في الاتجاه المضاد، ، وكلا الأمرين لا يقل عن الآخَر سوءًا، بل كانت تهب في عرضه، تاركة المطر ينحدر ويميل كالأسطر التي كان الطلبة في المدرسة يسطرونها في كراساتهم؛ حتى تستقيم كتابتهم عليها، وقد تسكن الريح لحظة وتتلاشى، ويبدأ المسافر يوهم نفسه أنها قد تعبت، واضمحلت من هياجها السابق، فهدأت من روعها، وأخلدت إلى الراحة، وإذا هي تهب مرة أخرى، وتزمجر زمجرة، وتصفر صفيرًا بعيدًا، ثم تندفع فوق أعالي الرُّبَى، وتكتسح السهول، مستجمعة زفيفها وقوتها، وهي مقتربة، حتى تصطدم بإعصارها العنيف بالفرس والرجل معًا، ملقية بقطرات المطر العصيب في آذانيهما، وأنفاسهما الباردة الرطبة في مستدق عظامهما، وتنطلق مبتعدة في زئير يصم الأسماع، كأنما تسخر من ضعفهما، وتغتبط بانتصارها واعتدادها بشدتها وسلطانها.

ولبثت الفرس تعدو مرسلة الرشاش من حولها وسط الأوحال والمياه، متهدلة الأذنين، مطوحة بين لحظة وأخرى برأسها، كأنما تريد بهذه الحركة التعبير عن اشمئزازها من هذا المسلك الجاف الذي

تسلكه عناصر الطبيعة، وإن احتفظت مع ذلك بسرعتها، حتى تعود الرياح فتهاجمها مرة أخرى بأشد وأقسى مما هاجمتها به من قبلُ، فلا تلبث أن تقف عن المسير فجأة، وتغرز قوائمهما الأربع في الأرض؛ حتى لا تكتسحها من مكانها، وهي رحمة أحاطت بها؛ لأنها لو انساقت مع الريح، وهي خفيفة، والعربة خفيفة مثلها، وتوم سمارت من الوزن الخفيف كذلك، لذهب الجميع يتدحرجون إلى أقصى أطراف الأرض، أو ريثما تهدأ الرياح، وأغلب الظن في كلتا الحالين أن الفرس والعربة الطفلية اللون ذات العجلات الحمر، وتوم سمارت ذاته، لن يعودا صالحين للخدمة بعد ذلك.

وقال توم سمارت، وكان مولعًا في بعض الأحيان بالسب واللعن: «لعنة الله على ذقني وطوقي، إن كان هذا سيطول شرحه، فلتنسفني الريح نسفًا».

ولعلكم تسألونني: لماذا أبدى توم سمارت- بعد أن كادت الريح تطوح به- رغبةً في التعرض لهذه العملية مرة أخرى، ولكني لست أدري ما الباعث له على هذا، وكل ما أعرفه أنه قال ذلك فعلًا، أو على الأقل كان هذا هو ما اعتاد أن ينبئ عمي بأنه قال كذلك، وكلا الأمرين سواء.

وصاح توم سمارت: «لتنسفني الريح!»، وصهلت الفرس كأن هذا هو رأيها في الموقف تمامًا.

ولكن توم سمارت راح يربت على عنقها بطرف سوطه قائلًا: «استجمعي قواك ولا تبتئسي أيتها البنت العجوز. لا فائدة من مواصلة المسير في هذه الليلة، وأول منزل نصادفه في طريقنا سنبيت فيه، فكلما

أسرعت في السير بلغنا المأرب المقصود. هلمي أيتها البنت العجوز، هلمي، ولكن برفق، برفق!».

ولست أستطيع طبعًا أن أقول: هل كانت تلك الفرس الشموس قد اعتادت سماع صوت توم إلى حدٍّ يكفي لأن تفهم المعنى المقصود، أو وجدت أن الجمود في مكانها أشد تعرضًا للبرد والزمهرير من متابعة المسير، ولكن كل ما أستطيع أن أقوله إنها ما كاد توم ينتهي من كلامه حتى نشرت في الفضاء أذنيها، وانطلقت بسرعة جعلت المركبة الطفلية اللون تجلجل حتى ليخيل إليك أن كل عجلة من عجلاتها الحمراء موشكة أن تطير من موضعها على العشب في براري مارلبرة، وحتى عجز توم نفسه- وهو السائق الماهر- عن إيقافها أو الحد من سرعتها، إلى أن وقفت من تلقاء ذاتها أمام فندق على قارعة الطريق في الجانب الأيمن منه، على مبعدة نحو ربع ميل من نهاية تلك التلال الكَلِئة.

وألقى توم نظرة سريعة على الطبقة العليا من المبنى، وهو يلقي باللجام إلى السائس، ويرشق السوط في مقعده، وبدا له أن المكان غريب قديم العهد، بُني من نوع من الحصباء، ومسقوف بالأخشاب، وله نوافذ منحدرة الشكل بارزة كل البروز إلى مشرع الطريق، وباب خفيض، وسقيفة مظلمة، ومدرجان عاليان يهبطان إلى البيت ولا يصعدان إليه، كالطراز المألوف في عصرنا الحديث، ولكنه كان على كل حال موضعًا يلوح عليه أنه مربح يبعث الرضى، إذ ينبعث من نافذة «موضع الشراب» فيه نور قوي بهيج، يلقي شعاعًا وهاجًا على الطريق، وينير العدوة الأخرى المقامة من العوسج، ومن الشرفة المقابلة ينبثق نور خفاق يبدو

لحظة ضعيفًا لا يكاد يبين، ثم لا يلبث في اللحظة التالية أن يبرق بقوة من خلال الأستار المسدلة، موحيًا بأن نارًا متأججة تتقد داخل الحجرة، وما إن تبيَّن توم هذه الأمارات والشواهد بعين الجوابة الخبير بالأسفار، حتى ترجَّل عن العجلة بكل خفة ممكنة تواتت لأوصاله وأطرافه التي كان البرد يهرؤها، ودخل البيت.

ولم تكد تنقضي بضع دقائق حتى كان توم مستكنًا في الغرفة المقابلة لموضع الشراب، وهي الغرفة ذاتها التي خُيِّل إليه أنها تحوي نارًا مشوبة، وقد جلس قبالة نار متأججة فعلًا، غنية بالوقود من فحم، ورأى فوق المدفأة أكداسًا من الخشب، تكفي أن تتألف منها بضعة آجام، وقد راحت النار تزمجر وتطقطق، وتُحدِث صوتًا يكفي في حد ذاته لأن يدفئ قلب أي إنسان عاقل، وكان هذا كله مرفهًا على النفس، مريحًا للخاطر، ولكنه لم يكن كل شيء في الدار، بل كانت ثَمَّ فتاة رشيقة ذات عين براقة، وكعب نظيف، وهي تنشر غطاء أبيض متناهيًا في النظافة فوق الخوان، وفيما كان توم جالسًا، وقد أسند قدميه وهما في الخف إلى حاجز «الموقدة»، وولى ظهره إلى الباب المفتوح، استطاع أن يشهد على أديم المرآة المعلقة فوق الموقدة منظرًا فاتنًا، لما كان يحويه مكان الشراب من صفوف الزجاجات الخضر الذهبية، ومن قدور المخلل والأطعمة المحفوظة، وأنواع الجبن، ولحوم الخنازير السليقة، والقطع المستديرة من لحم العجول، كل أولئك قد صُفَّتْ فوق الرفوف بصورة مغرية، وشكل جذاب، ونظام بديع، وهو مريح كذلك، ولكن ذلك لم يكن كل ما هنالك أيضًا، فقد رأى في مكان الشراب أرملة غضة بضة قد

جلست تشرب الشاي على أصغر وأبدع مائدة يمكنك أن تتخيلها، وهي قريبة من أوهج وأدق نار مشبوبة يمكن أن تُوقد، ويبدو على تلك الأرملة أنها في الثامنة والأربعين أو نحوها، ذات وجه مرفه مريح كمكان الشراب ذاته، والظاهر أنها ربة الفندق، وصاحبة الأمر والنهي في كل هذه الأملاك البديعة، والذخائر الممتعة، ولكن كان ثمة عيب واحد يغض من جمال الصورة، وفتون معالمها ودقائقها، وهو وجود رجل طويل مفرط الطول، في سترة سمراء، وأزرار براقة، وشاربين أسودين، وشعر فاحم متموج، كان يجلس إلى الشاي مع الأرملة، ولا يحتاج المرء إلى ذكاء وقاد لكي يتبيَّن أن الرجل يحاول إقناعها بأنه قد حان لها أن لا تبقى أرملة، وأن تنعم عليه بحق الجلوس في مكان الشراب طيلة الأعوام التي بقيت له في الحياة.

ولم يكن «توم سمارت» بالرجل الذي تنزع به النفس إلى الهياج، أو الحسد، ولكن منظر ذلك الرجل الطويل ذي السترة السمراء، والأزرار المقعرة الشكل البرّاقة، لم يلبث لسبب ما أن أثار حفيظته، وغضبه الشديد، وخاصة لأنه مضى بين لحظة وأخرى يلاحظ، وهو في مجلسه قبالة المرآة، بعض حركات لطف ومودة تجري بين ذلك العملاق وتلك الأرملة، مما يكفي للإيحاء بأن ذلك الرجل الطويل قد أصاب عندها حظوة عالية كقامته. وكان توم مولعًا بشراب «البنتش» الساخن، بل أجرؤ على القول بأنه كان به «جد» مولع، فبعد أن اطمأن إلى أن فرسه الشموس قد أحسن علفها، ومهد لها مربطها، وبعد أن أكل كل قطعة من الطعام الشهي الذي جعلت الأرملة تلقيه إليه بيديها، راح يطلب قنينة

من «البنتش» على سبيل التجربة، وإذا كان ثمة شيء من مختلف فنون البيت وأساليب تدبيره، تحسن الأرملة إعداده، أكثر من أي شيء سواه، فذلكم هو «البنتش» بالذات، وقد وافقت القارورة الأولى منه مزاج توم سمارت، وطاب لديه مذاقها، إلى حد أغراه بطلب أخرى في الحال، ولا يخفى أيها السادة أن «البنتش» الساخن شراب لذيذ ممتع، غاية الإمتاع، في أي ظرف من الظروف، ولكنه في تلك الغرفة الدفئة القديمة، وقبالة تلك النار المتقدة الزائرة، وتلك الرياح القاصفة في الخارج، حتى ليكاد كل لوح من الخشب في ذلك البيت يهتز ويتشقق من هول قصفها، كان ممتعًا، في تقدير توم سمارت، كل المتعة، فطلب قارورة أخرى، ثم ثالثة، ولست متأكدًا هل طلب واحدة بعد ذلك، ولكن الواقع أنه كلما أكثر من شرب البنتش الساخن، اشتد به التفكير في ذلك الرجل الطويل الفارع.

وأنشأ توم يحدث نفسه فقال: «لعنة الله على قحته. ما شأنه في مكان الشرب البديع، وأي عمل له فيه؟ إنه لقبيح الصورة دميم، لو أن للأرملة ذوقًا جميلًا، لاختارت إنسانًا أحسن من هذا نوعًا ما». ومضت عينه تنتقل بين الزجاجة المقامة فوق المدفأة، وبين الزجاجة الموضوعة فوق المائدة، وما إن شعر بأنه قد أمسى ثائر العاطفة، حتى أفرغ القارورة الرابعة في جوفه، وطلب الخامسة.

وكان توم سمارت أيها السادة لا يكف من قبل عن التعلق بالحانات، والولوع بالشراب، وكان كلُّ مناه من عهد طويل أن يقف في مشرب يملكه، مرتديًا سترة خضراء، وأربطة ركبتين، وحذاء مستطيلًا، وكانت نفسه أبدًا تهفو إلى الجلوس في مكان الصدارة من مجالس الشراب

ومطارح السمر، ولطالما تخيل نفسه مقتعدًا كرسي الرياسة في حجرة يملكها، ويدير الحديث بلباقة وحذق، وأي أسوة حسنة هو المتجمل بها أمام زبائنه في الجناح المخصَّص للشراب، ولم تلبث هذه الأخيلة كلها والأماني الماضية أن خطرت في تلك اللحظة بباله، وهو جالس إلى قوارير شرابه بجانب النار التي تزأر في الموقدة، فلا عجب إذا هو شعر بغيظ شديد من مشهد ذلك الرجل المارد، وهو قد أوشك أن يظفر بهذا البيت البديع، بينما هو- توم سمارت- لا يزال يهفو في أثر أمنية بعيدة لا تقترب أبدًا، وبعد أن ظل طيلة بقاء القارورتين الأخيرتين أمامه يفكر مليًّا هل من حقه أن يخلق سببًا للاشتجار مع ذلك المارد؛ لأنه عرف كيف يظفر بالحظوة عند تلك الأرملة البضة، وانتهى به التفكير إلى نتيجة مقنعة، وهي أنه رجل أساءت الدنيا كثيرًا إليه، واضطهدته الأقدار، فمن الخير له أن يأوي إلى الفراش.

وتقدمته الفتاة الرشيقة، تصعد به سلمًا قديمًا رحيبًا، وتظلل شمعة الحجرة بكفها؛ وقاية لها من التيارات الهوائية التي تجد لها في ذلك البيت القديم الذي تخفق الأرواح فيه سبيلًا إلى التسرب خلال منافسه، والعبث فيه كما تشاء، دون أن تطفئ نور الشمعة، ولكنها مع ذلك قد هبت عليها فأطفأتها، مهيئة لخصوم «توم» فرصة اتهامه بأنه هو الذي أطفأها، ولم تكن الريح هي التي أخمدت أنفاسها، وإنه بينما كان يتظاهر بأنه يحاول إضاءتها، كان في الواقع يقبِّل الفتاة ويلثمها، وسواء كان هذا أو ذاك هو الصحيح، فقد تيسر الحصول على ضوء آخَر، وتقدَّمت به الفتاة في تيه من الحجرات والدهاليز حتى بلغ الغرفة التي أُعِدَّتْ لمبيته، فسلمت

الفتاة مودعة، وتركته وحده.

وكانت الغرفة رحيبة ذات مرافق كبيرة، وتحوي سريرًا يصح أن يتسع لمنام طلبة قسم داخلي في إحدى المدارس، فضلًا عن صوانين للثياب من خشب السرو يتسعان لأمتعة جيش صغير، ولكن أشد ما استرعى نظر توم وأثار خياله مقعدٌ غريب رهيب المنظر، عالي المسند، تناهى في طرافة الشكل، وله وسادة من الدمقس المزين بالأزهار، وركبتان مستديرتان في أسفل ساقيه، مربوطتان بقماش أرجواني، كأنما يشكو من نقرس أصاب أصبع قدميه.

وخُيِّلَ إلى توم أنه دون سائر المقاعد كلها يبدو «غريبًا» حقًّا، وكان الأمر محتملًا أن ينتهي عند هذا الحد، فينشغل الرجل عنه، لولا أنه لاحظ على ذلك المقعد بالذات شيئًا آخَر، وإن لم يتبين فعلًا ما هو، فقد كان من الشذوذ والغرابة بحيث لا يماثله مقعد آخَر من كل المقاعد وقطع الأثاث التي شهدها في حياته، حتى لقد استهواه، واجتذب خاطره اجتذابًا، فجلس قبالة الموقدة، وظل يحملق البصر في ذلك المقعد القديم نصف ساعة، وهو لا يستطيع أن يسترد عنه عينه، ولا يشيح بوجهه دونه.

وراح توم يقول لنفسه، وهو ينضو عنه ببطء ثيابه، ويطيل النظر إلى ذلك المقعد القائم بجوار مضجعه بشكله الغريب المرهوب: «لعمري ما رأيت في حياتي عجبًا كهذا في أيامي الخاليات»، وكان توم قد استحال «حكيمًا» فيلسوفًا من أثر «البنتش الساخن» الذي شربه، فمضى في نجواه يقول: «هذا غريب جدًّا، غريب جدًّا» وانثنى يهز رأسه هزة الحكمة البالغة، ويلقي نظرة أخرى على المقعد، ولكنه لم ير شيئًا جديدًا، يمكن

أن يستخلص منه علة أو يهتدي إلى سر، فدخل في فراشه، وتغطى بلحافه، ليدفئ بدنه، وما لبث أن هبط في سبات عميق.

ولكنه بعد نصف ساعة أو قرابته استيقظ مجفلًا من حلم مضطرب، تراءت له فيه صور عمالقة ومَرَدة وقوارير من شراب، وكان أول شيء تمثَّل لخياله في يقظته، هو ذلك المقعد الغريب.

فقال في نفسه وهو يحاول إغماض أجفانه، ويقنع نفسه أنه عائد إلى النوم: «لن أعيرك نظرة بعد الآن» ولكن النوم لم يطاوعه، فلم يلمح غير مقاعد غريبة تتراقص أمام عينيه، وتهز سوقها، ويقفز بعضها فوق ظهور بعض، وتحدث من الألعاب صنوفًا وألوانًا.

وأخرج توم رأسه من تحت الأغطية، وهو يقول: «ليس ثمة ضير من أن أشهد مقعدًا واحدًا حقيقيًّا، كما لو شهدت مجموعتين أو ثلاث مجموعات من الكراسي المزيفة»، ونظر إلى المقعد، فإذا هو قائم حياله ظاهر واضح على وهج النار المشبوبة في المدفأة يبدو متحديًا مستفزًا كدأبه.

وفيما كان يطيل البصر إليه، إذ بدا له فجأة أن تحوُّلًا متناهيًا في الغرابة قد عراه، فقد بدأ المسند العالي يتخذ تقاطيع وجه بشري مغضن كثير المكاسر كوجوه الشيوخ، واستحالت الوسادة الحريرية رويدًا رويدًا إلى صدار غريب ذي شقين، والركبتان المستديرتان إلى قدمين اثنتين منتعلتين خفًّا من قماش أحمر اللون، وبدا المقعد القديم أشبه شيء برجل متقدم في السن دميم الخلقة إلى حد بعيد، من شيوخ القرن الماضي، وهو مشتبك الذراعين، فاستوى توم في مرقده، وراح يفرك

عينيه ليطرد الصورة الماثلة لهما، ولكن بلا فائدة ولا جدوى، لقد تمثل المقعد القديم أمامه رجلًا عجوزًا دميمًا، بل أدهى من ذلك وأنكى، راح يغمز بطرف عينه لتوم سمارت.

وكان توم بطبعه رجلًا ثابت الجنان غير هياب ولا وجل، وقد شرب خمس قوارير من البنتش الساخن، فلم يلبث بعد الإجفالة العابرة التي أحسها في بداية الأمر أن استشاط غيظًا منه بتلك القحة المتناهية، وأخيرًا عقد النية على ألا يسكت على هذه الجرأة، فراح يقول بلهجة غضب شديد، حين رأى ذلك الوجه القبيح لا يزال مستمرًّا في غمزه أكثر من قبل: «قل لي أيها الشيطان اللعين ما الذي يدعوك إلى هذا الغمز لي على هذه الصورة؟».

وأجابه المقعد أو الرجل العجوز، أيًّا ما تحبون أن تدعوه: «لأنني أحب أن أغمز هكذا يا توم سمارت!»، ولكنه كف مع ذلك عن الغمز، حين رأى توم يكلمه، وبدأ يضحك ويبدي نواجذه أشبه بقرد عجوز بلغ أرذل العمر.

وبهت توم حين سمعه يناديه باسمه، وإن تظاهر بأنه لم يرع منه ولم يبال: «كيف تعرف اسمي يا ذا الوجه القبيح الذي يشبه «كسارة» الجوز؟».

وقال السيد العجوز: «لا عليك يا توم، لا عليك، ليست هذه هي الطريقة التي تخاطب بها مقعدًا قديمًا من خشب المجنة الإسبانية، اللعنة عليّ، ما كنت مخاطبي بأقل من هذا احترامًا لو أني كنت مقعدًا مصنوعًا من قشرة لا من خشب صلب».

وبدا الشيخ وهو يقول ذلك موحشًا غاضبًا، حتى لقد بدأ الخوف يسري في نفس توم من وحشة غضبه، فمضى يقول بلهجة أرق كثيرًا من لهجته الأولى: «لم أقصد أن أعاملك يا سيدي بأي استهزاء أو احتقار».

وقال الشيخ: «ما علينا، قد يكون ذلك، ولكن اسمع يا توم».

- «نعم يا سيدي».

- «إنني أعرف كل شيء عنك يا توم، كل صغيرة وكبيرة، أنت فقير شديد الفقر يا توم».

- «إني في الحق كذلك، ولكن من أين عرفت ذلك عني؟».

وأجاب السيد العجوز: «لا تسأل عن ذلك، وأنت شديد الولوع بالبنتش يا توم».

وكان توم قد همَّ بأن يزعم أنه لم يذق قطرة منذ عيد ميلاده الأخير، لولا أن التقت عينه بعين الشيخ، وتبين له من نظراته أنه كان يعرف كل شيء، فخجل توم ولزم الصمت.

وعاد الشيخ يقول: «اسمع يا توم، إن الأرملة امرأة جميلة، جميلة إلى حد بالغ، أليست كذلك يا توم؟» وانثنى العجوز يتخازر بعينيه، ويرفع إحدى ساقيه الواهيتين القصيرتين ويبدو منعزلًا بشكل متناهٍ في القبح، حتى اشمأز توم من هذا التصرف النزق منِ رجل في مثل سنه.

ومضى العجوز يقول: «إنني ولي أمرها يا توم».

قال: «أحقًّا؟».

واستتلى العجوز يقول: «لقد عرفت أمها يا توم وجدتها وكانت

مولعة بي، هي التي حاكت لي هذا الصدار يا توم».

قال: «أفعلت ذلك هي؟».

واسترسل العجوز قائلًا: «وهذا الحذاء، ولكن لا تذكر شيئًا من ذلك يا توم؛ لأني لا أحب أن يعرف أحد من الناس أنها كانت تحبني إلى هذا الحد، فقد يحدث ذلك بعض الكدر في الأسرة».

وبدت على العجوز جرأة متناهية، قال توم سمارت في وصفها فيما بعد أنه كاد يهم من تناهيها أن يجلس فوقه بلا ندامة أو أسف.

ومضى ذلك الشيخ المستهتر يقول: «لقد كنت في زماني أخا حظوة كبيرة عند النساء، وكم من مئات الغيد رحن يجلسن في حجري ساعات طوالًا يا يزايلنه، فما رأيك في هذا يا كلب؟».

وهم الشيخ بأن يقص عليه طرفًا من وقائعه الغرامية في شبابه، لولا أن استولت عليه نوبة صرير عنيفة أعجزته عن المضي في قصصه.

وقال توم لنفسه: «هذا جزاؤك أيها الشيخ المتصابي!»، ولكنه لم يقل للعجوز شيئًا.

وعاد هذا إلى حديثه فقال: «آه! لقد أصبحت أعاني كثيرًا من هذه العلة اليوم، لقد بدأت أشيخ يا توم، وكدت أفقد كل مقوماتي الحديدية وقضباني، وقد أجريت لي أيضًا جراحة قبل الآن، وأدخلت قطعة صغيرة في ظهري، وكانت المحنة أليمة قاسية يا توم عانيت منها عناء شديدًا».

وأجاب توم سمارت قائلًا: «أكبر ظني يا سيدي أنك عانيت كثيرًا».

واسترسل العجوز يقول: «ولكن ليست هذه هي موضوع البحث

يا توم، وإنما كل ما أريد أن أقوله إنني أريد منك أن تتزوج الأرملة».

وقال توم في دهشة: «أنا يا سيدي؟».

وأجابه العجوز: «نعم أنت».

وصاح توم قائلًا: «بارك الله في جدائلك الموقرة يا سيدي»، وكانت قد بقيت للشيخ بضع شعرات متناثرة من شعر الخيل: «إن الأرملة لن ترضى بي بعلًا لها»، وراح يزفر على كره منه، وقد خطر «البار» لخياله.

وقال الشيخ بقوة: «أحقًّا لن ترضى بك؟».

وأجاب توم قائلًا: «بلى، بلى، إن هنالك إنسانًا آخر رجلًا طويل القد، ملعون الشبه، ذا شاربين أسودين».

وقال الشيخ: «اسمع مني يا توم. إنها لن ترضى به».

وقال توم: «لن ترضى به! أحقًّا؟ لو وقفت في مكان الشراب أيها السيد الكبير لقلت غير هذا المقال».

وصاح الشيخ قائلًا: «أف! أف منك!.. أنا عارف كل شيء».

قال: «وماذا تعرف؟».

وأجاب السيد الكبير: «تعاطي القبلات «خلف الباب» وكل ما هو من هذا النوع أو نحوه»، ثم انثنى يرسل نظرة وقحة أخرى، أغضبت توم أشد الغضب؛ لأن سماع عجوز، كان أولى به أن يكون أعقل من ذلك وأحجى، يتحدث في هذه الأمور وأمثالها، شيء تعرفون جيدًا، أيها السادة، إنه أثقل ما يكون على النفس وأسوأ ما يكون قيلًا.

ومضى الشيخ يقول: «إنني أعرف كل شيء يا توم، وقد شاهدت مثله يقع كثيرًا في زماني يا توم بين قوم لا أود أن أذكر لك أسماءهم، ولكن ذلك كله لم يأت في النهاية بنتيجة».

وقال توم وهو ينظر إليه نظرة فضول: «لا بد من أنك شهدت العجب في شبابك».

وأجاب الشيخ بغمزة مضطربة من عينيه، وزفرة أليمة من صدره: «لك أن تقول ذلك، إنني آخر فرد من أسرتي يا توم».

قال بفضول: «أو كانت كبيرة العدد؟».

قال: «اثني عشر يا توم رفيعي الظهور حسانًا تشتهي عينك أن ترانا، ولم نكن كهذه الأجنة المجهضة التي شاعت في هذه الأيام، كلها أذرع، ومجرد طلاء يروقك منظره، وكان أجدر بك ألا تنخدع به».

وسأله توم قائلًا: «وماذا صنع الله بالآخرين؟».

وأجاب السيد العجوز وهو يرفع مرفقه إلى عينه: «لقد ذهبوا جميعًا يا توم وانقرضوا. لقد خدمنا خدمة شاقة ولم يكن الآخرون في مثل قوة بنيتي، فأصلبهم النقرس في سوقهم وأذرعهم، ونقلوا إلى المطابخ وغيرها من المستشفيات، وحدث لأحدهم، وكان قد ابتذل طويلًا في الخدمة وقاسى بلاء شديدًا، أن فقد قواه العقلية، وبلغ جنونه حدًّا اقتضى إحراقه، وهي نهاية مروعة يا توم».

وقال توم سمارت: «مرعبة».

وسكت العجوز لحظة، والظاهر أنه كان يغالب انفعالاته، ثم عاد

يقول: «ولكني يا توم قد شردت عن الموضوع، إن ذلك الرجل الطويل يا توم أفلق، وغد، أثيم، وسوف يبيع كل الأثاث الذي يحويه هذا البيت بمجرد الزواج بالأرملة، ويلوذ بأذيال الفرار، وعندئذ ماذا ستكون العاقبة؟ سوف تجد المرأة نفسها وحيدة مهجورة ضاع مالها، وحل الخراب بدارها، وسوف ألفظ أنفاسي الأخيرة في دكان أحد الراهنين».

وقال توم: «نعم، ولكن...».

وصاح الشيخ به قائلًا: «لا تقاطعني، أما عنك أنت يا توم، فلي رأي آخر مختلف كل الاختلاف عن رأيي فيه؛ لأني أعرف حق المعرفة أنك يوم تستقر في مشرب وحانة عامة، لن تغادرها ما دام بين جدرانها شراب تتعاطاه».

وقال توم سمارت: «إني لشاكر لك كل الشكر هذا الرأي الجميل في شخصي».

واستتلى العجوز في لهجة الآمر الناهي قائلًا: «ولهذا ستنالها، أما هو فلن يظفر بها».

وقال توم في لهفة: «وما الوسيلة إلى منعه؟».

وأجاب السيد الكبير بقوله: «هذا السر الذي أكشفه لك إنه متزوج فعلًا!».

وكاد توم يهب من فراشه، قائلًا: «وكيف يتواتى لي إثبات ذلك؟».

وأزاح السيد الكبير ذراعه عن جنبه، وأشار إلى إحدى الخزانتين، ثم أعاد في عجلة ذراعه إلى موضعها السابق، وانطلق يقول: «إنه قد نسي أنه

في الجيب الأيمن من سراويله الموضوعة في تلك الخزانة قد ترك خطابًا يرجو فيه أن يعود إلى زوجته الحزينة التي رزقت منه بستة- افهم مني يا توم- بستة ولدان كلهم صغار».

ولم يكد الشيخ يفوه بهذه الكلمات، حتى بدت معالم وجهه تتلاشى شيئًا فشيئًا، وأخذ شكله يتوارى رويدًا، وغمرت غشاوة عينَيْ توم سمارت، وراح الشيخ يندمج تدريجًا في المقعد، ويتقمص تقمصًا، ويتحول الصدار الحريري إلى وسادة، والخف الأحمر إلى كيسين صغيرين من قماش أرجواني اللون، وبدأ الضياء يخفت قليلًا قليلًا، وارتمى توم سمارت فوق وسادته، وتولاه النعاس.

وأيقظه مطلع النهار من نومه الذي استولى عليه عقب اختفاء الشيخ، فجلس في فراشه، وراح يحاول عبثًا بضع لحظات أن يتذكر أحداث الليلة الماضية، فلم تلبث ذكراها أن تدافعت على خاطره، فنظر إلى المقعد، فإذا هو كما رآه من قبلُ مقعد غريب الشكل، رهيب المنظر، وخُيِّل إليه أنه لم يكن سوى خيالٍ بارعٍ قوي الأثر، ذلك الذي جعله يكشف وجوه شبه بين ذلك المقعد والشيخ الكبير الذي لا يزال ماثلًا لخاطره.

وقال توم بلهجة أجرأ في النهار مما كانت في الليل، والناس تعاودهم الجرأة في النهار عامة: «كيف أنت أيها العجوز المتصابي؟».

ولكن المقعد ظل جامدًا صامتًا لا يحير جوابًا.

واسترسل توم يقول له: «صباح أنكد»، ولكن المقعد لم يشأ أن ينساق إلى الحديث.

وقال توم: «إلى أي الخزانتين أشرت؟ أظنك لا تبخل عليَّ بهذا على الأقل؟».

ولكن المقعد أيها السادة لم ينبس ببنت شفة.

وقال توم وهو يغادر الفراش بحذر بالغ: «لا عناء من فتحها على أية حال».

ومشى صوب إحدى الخزانتين، فوجد المفتاح في القفل، فأداره وفتح الباب، وإذا هو يجد فعلًا سراويل في جوفها، فدسَّ يده في الجيب، فاطلع الخطاب عينه الذي تحدَّث الشيخ الكبير عنه.

وأنشأ توم يقول، وهو ينظر إلى المقعد، ثم إلى الخزانة، ثم إلى الخطاب، ثم عاد ينظر إلى المقعد: «هذا شيء غريب، غريب كل الغرابة!»، ولكنه لم يجد ما يقلل من هذه الغرابة التي أحارته، فخطر له أنه يحسن به أن يرتدي ثيابه، ويُنهِي قصة الرجل الطويل بغير إبطاء، ليخرج من الشقاء الذي هو فيه، وانطلق ينزل السلم، معددًا الحجرات التي يجتازها في طريقه، بعين فاحصة متقصية، عين المالك العتيد، متصوِّرًا أنه ليس من المستحيل أن تصبح تلك الحجرات وما حوت من رياش ملك يمينه، وما إن بلغ الطبقة الدنيا من الفندق حتى لمح الرجل الطويل واقفًا في مكان الشراب الدفيء الصغير، واضعًا يديه خلف ظهره، كأنه في بيته الذي لا ينازعه فيه أحد، ولم يكد يرى توم حتى ابتسم له ابتسامة فارغة، ولو رآها مراقب عابر، لظن أنه إنما ابتسمها ليبدي أسنانه البيض، ولكن توم سمارت تصور أن الشعور بالنصر كان يغمر المكان الذي كان يتمثل لخاطر ذلك المارد، وهو يبتسم على تلك الصورة؛ فراح يضحك

في وجهه، وينادي ربة الفندق إليه.

قال وهو يغلق باب البهو الصغير على أثر دخولها: «طاب صباحك يا سيدتي».

وأجابته الأرملة قائلة: «صباح الخير يا سيدي، أي طعام تريده لفطورك يا سيدي؟».

وكان توم مشغولًا بإعداد الكلام الذي يصح أن يفتح به الموضوع، فلم يجب، ومضت هي قائلة: «إن عندنا لحم خنزير مملحًا شهيًّا للآكلين، ودجاجة باردة سمينة. فهل أجيء بهما يا سيدي؟».

وأيقظت هذه الكلمات توم من سبح أفكاره، وازداد إعجابه بالمرأة وهي تتكلم، فقال في نفسه: «يا لها من مخلوقة مدبرة! يا لها من مرفهة أريبة!».

وابتدرها توم سائلًا: «من يكون ذلك السيد الواقف في مكان الشراب يا سيدتي؟».

قالت وهي تشعر بخجل عابر: «إنه يدعى جنكنز يا سيدي».

فعاد يقول: «إنه رجل طويل».

فأجابت: «إنه رجل بديع جدًّا يا سيدي، وسيد لطيف للغاية».

وقال توم: «آه!».

قالت وهي حيرى من سلوكه: «هل من شيء آخر تريده يا سيدي؟».

قال: «نعم يا سيدتي العزيزة، هل تتكرمين بالجلوس لحظة؟».

فبدت الدهشة عليها، ولكنها جلست، فجلس هو كذلك بجوارها، ولست أدري كيف حدث ذلك أيها السادة، ولكن عمي اعتاد أن يقول لي إن توم سمارت نفسه قال إنه لا يعرف كيف حدث ذلك هو أيضًا. ولكن الواقع أن راحة كف توم لمست بوسيلة من الوسائل ظهر يد الأرملة، فاستقرت عليه، وهو منطلق يقول بلهجة المتلطف الذي يعرف حق المعرفة أنه كذلك: «يا سيدتي العزيزة، إنك لجديرة بزوج بديع جدًّا، إنك فعلًا كذلك».

وقالت الأرملة، وهو ما كان منتظرًا أن تقوله: «يا إلهي!».

وكانت طريقة توم في التمهيد للحديث غير مألوفة، إن لم نقل أدعى إلى إثارة الدهشة والذهول، ولكن يجب أن نراعي عاملًا له أثره، وهو أنه لم تكن عينه قد وقعت عليها قبل الليلة البارحة.

ومضى توم يقول: «إنني لا أحب الملق، بل أمقته وأسخر منه يا سيدتي، إنك حقًّا جديرة بزوج يستحق أشد الإعجاب، وسوف يكون السعيد الموفق، كائنًا من يكون».

وفيما كان توم يقول ذلك، انطلقت عينه على غير إرادة منه تنتقل هائمة بين وجه الأرملة، وتلك الخيرات المحيطة به من كل ناحية.

وبدت الأرملة أكثر حيرة وارتباكًا مما كانت من قبلُ، وهمت بالنهوض، ولكنه ضغط يدها برفق كأنما أراد أن يحتجزها، فلبثت في مجلسها، والأرامل أيها السادة لسن بالخوافات، كما اعتاد عمي أن يقول.

وقالت ربة البيت الغضة البضة في شبه ضحكة: «إنني على يقين إنني

مدينة لك كثيرًا يا سيدي لحسن رأيك، وإذا قدر لي يومًا أن أتزوج مرة أخرى...».

وقاطعها توم سمارت، وهو ينظر بخبث شديد من الطرف الأيمن لعينه اليسرى: «أتقولين إذا؟».

قالت وهي ضاحكة ضحكة كاملة في هذه المرة: «والله إني لأرجو حين أفعل ذلك أن يكون لي زوج كالذي وصفته».

وقال توم: «جنكنز مثلًا؟».

وصاحت الأرملة: «يا إلهي يا سيدي».

ومضى يقول: «أوه. لا تقولي لي إنني أعرف!».

وقالت الأرملة مستجمعة شجاعتها إزاء تلك اللهجة الغامضة التي تحدث توم بها: «إنني لعلى يقين أن من يعرفه لا يعرف عنه سوءًا».

وقال توم سمارت: «احم؟».

وبدأت الأرملة تعتقد أنه قد حان لها أن تبكي، فأخرجت منديلها، وسألت توم: هل يريد أن يهينها؟ وهل يرى من أدب السيد المهذب أن يطعن في حق سيد آخَر من خلف ظهره؟ وإذا كان عنده ما يقوله، فلماذا لا يقوله لذلك الرجل مواجهة، بدلًا من ترويع امرأة مسكينة ضعيفة على هذا النحو؟

وأجاب توم قائلًا: «لن أتردد في قوله له، ولكني أردت أولًا أن تسمعيه أنت».

قالت وهي تطيل النظر إلى وجهه: «وما هو؟».

قال وهو يضع يده في جيبه: «ستذهلين لسماعه».

وعادت الأرملة تقول: «إذا كان ما تريد أن تقوله إنه يطلب مالًا، فإني أعرف ذلك مقدمًا، فلا تتعب نفسك في ترديد ما أعلمه».

وقال توم سمارت: «أف! هذا هراء، لا شأن له ولا خطر، أنا نفسي أريد مالًا، ليس هذا هو ما أعني».

وصاحت الأرملة المسكينة قائلة: «رباه! ماذا يمكن أن يكون إذن؟».

وقال توم سمارت: «لا تراعي!» وبكل رفق راح يخرج الكتاب وينشره قائلًا بلهجة المتشكك: «ولكني أرجو أن لا تصرخي!».

قالت: «كلا! كلا! دعني أنظر الكتاب».

قال: «أولست مستسلمة إلى إغماء أو شيء من هذا القبيل؟».

قالت: «لا عليك! لا عليك! دعني أر الكتاب».

قال وهو يضع الكتاب في كفها: «ها هو ذا!».

أيها السادة، لقد سمعت عمي يقول: إن توم سمارت قال إن ولولة الأرملة حين علمت بالسر كانت تنفذ في أي فؤاد قُدَّ من الصخر، وكان توم بالطبع رقيق القلب كريمه، ولكن تلك الصرخات نفذت فيه إلى الصميم، وظلت الأرملة تهتز وتقلب كفيها وهي تقول: «أواه، ما أشد خبث الرجال ومكرهم!».

وقال توم سمارت: «إنه لأمر مرعب يا سيدتي العزيزة، ولكن هدئي من روعك».

وصاحت الأرملة: «أواه، لا أستطيع تهدئة روعي، لن أجد أبدًا رجلًا سواه يمكن أن أحبه كل هذا الحب الذي أوليته إياه».

وقال توم سمارت: «بل ستجدينه يا عزيزتي!» وترك دمعة من أكبر الدموع حجمًا تنحدر من عينيه رثاء لنكبة الأرملة، وكان توم سمارت في فورة عطفه، وثورة رحمته، قد طوَّق خصرها بذراعه، وكانت في اشتداد حزنها قد أمسكت بيده، وتطلعت إلى وجهه وابتسمت من خلال عبراتها، فأطل هو على محياها، وابتسم من ثنايا دموعه.

ولم أستطع أيها السادة أن أعرف يومًا هل قَبَّل توم الأرملة في تلك اللحظة بالذات، أو لم يقبِّلها، فقد اعتاد أن يقول لعمي إنه لم يفعل ذلك، ولكني منه في شك مريب، وأكاد أعتقد فيما بيننا أيها السادة أنه قد فعل.

وعلى أية حال، لقد استطاع توم أن يطرد الرجل الطويل من الباب الأمامي بعد نصف ساعة من ذلك الموقف الذي جرى، وتزوَّج بالأرملة بعد شهر، واعتاد أن يطوف أرجاء الإقليم في عربته الطفلية اللون ذات العجلات الحمر، والفرس الشموس السريعة الخطى، حتى اعتزل العمل بعد ذلك بعدة سنين، وذهب إلى فرنسا مع زوجته، وانتهى الأمر بهدم ذلك البيت القديم على مر الأيام.

وهنا قال ذلك الشيخ الفضولي: «هل تأذن لي في سؤالك: ماذا كان من أمر المقعد؟».

فأجاب التاجر الأعور قائلًا: «لقد لوحظ عليه أنه بات يكثر من الصرير والطقطقة في ليلة الزفاف، ولكن توم سمارت لم يستطع أن يجزم

هل كان ذلك منه تعبيرًا عن فرحه، أو شكوى من ضعفه وإلحاح العلة عليه، وإن كان يحسب الثانية هي أقرب إلى الحقيقة؛ لأن المقعد لم يعد يتكلم بعد ذلك التاريخ.

وقال الرجل الأشعث الأغبر وهو يعيد ملء قصبته: «وهل صدق كل إنسان هذه القصة أو وجدت من يكذبها؟».

وأجاب التاجر المتجول: «لقد صدقها الجميع إلا خصوم توم، فقد قال فريق منهم إنه اخترعها اختراعًا، وقال آخرون إنه كان سكران منزوفًا، فتوهمها توهمًا، وأمسك بالسراويل خطأ قبل أن يذهب إلى النوم، ولكن الناس لم يأبهوا يومًا بما قال أولئك الخصوم».

- «وهل قال توم إن كل ما فيها صحيح؟».

- «بل كل كلمة من كلماتها».

- «وماذا قال عمك؟».

- «كل حرف من حروفها».

وعقَّب الرجل الأشعث الأغبر بقوله: «لا بد من أنهما كانا لطيفين».

وأجاب التاجر الجوَّابة: «أي نعم في منتهى اللطف فعلًا».

* * *

# الفصل الخامس عشر

**تصوير صادق لشخصين بارزين ووصف دقيق لمادبة فطور عامة في بيتهما وحديقتهما، وكيف أدت هذه المادبة إلى لقاء صاحب قديم وبداية فصل جديد...**

وبدأ ضمير المستر بكوك يؤنبه قليلًا على إهماله في الأيام الأخيرة شأن صديقيه المقيمين في فندق «بيكوك»، وفيما هو يهم بالخروج للبحث عنهما في صبيحة اليوم الثالث عقب انتهاء الانتخاب، إذ جاء خادمه الأمين فدس في يده بطاقة كتب عليها هذا الاسم:

**مسز ليو هنتر[1] العرين - إيتنزول**

وقال سام بلهجة غامضة: «صاحب البطاقة في الانتظار».

وسأله المستر بكوك: «هل يريد مقابلتي يا سام؟».

وأجاب سام: «إنه يريد مقابلتك شخصيًا، ولا يغني أحد سواك عنك، كما قال السكرتير الخاص في خدمة الشيطان، حين جاء يدعو الدكتور فاوستس».

---

(١) معنى «ليو هنتر» في الأصل «صيادة السبع» وتقيم في «العرين» بيت السبع، ولكن الكلمة هنا تعني المكان الذي اتخذته السيدة للدرس والبحث أو المحراب.

وقال المستر بكوك: «هل هو رجل؟».

وأجاب المستر ويلر قائلًا: «إذا لم يكن كذلك، فهو أحسن تقليد له».

وقال المستر بكوك: «ولكن هذه بطاقة سيدة!».

وأجاب سام قائلًا: «سواء كان هذا أو ذاك، فقد أعطانيها سيد، وهو منتظر في حجرة الاستقبال، وقال إنه يُفضِّل أن ينتظر طول النهار على أن ينصرف دون مقابلتك».

وما إن سمع المستر بكوك هذا الإلحاح في لقائه، حتى نزل إلى حجرة الاستقبال، حيث جلس رجل وقور السمات، لم يكد يراه مقبلًا عليه حتى استوى قائمًا، وقال باحترام بالغ: «المستر بكوك. أليس كذلك؟».

قال: «بلى».

وعاد الرجل الوقور يقول: «اسمح لي يا سيدي بشرف مصافحتك، ائذن لي يا سيدي في تناول يدك».

وقال المستر بكوك: «بلا شك».

وهز الغريب اليد المبسوطة إليه، ثم استرسل يقول: «لقد سمعنا يا سيدي بصيتك، وبلغت الضجة التي أحاطت بكشفك الأثري سمع مسز ليو هنتر زوجتي يا سيدي. فأنا المستر ليو هنتر». وتمهل الغريب لحظة كأنما كان يرتقب من المستر بكوك التأثر بهذا الكشف عن اسمه، ولكنه رآه قد ظل هادئًا كل الهدوء، فاستتلى قائلًا: «إن زوجتي يا سيدي... مسز ليو هنتر لفخورة بأن تعد في مصاف معارفها كل من رفعوا ذكرهم بأمجاد

أعمالهم ومواهبهم، فاسمح لي يا سيدي أن أضع في مكان بارز من قائمة أسمائهم اسم المستر بكوك وإخوانه أعضاء النادي الذي يستمد اسمه منه».

وأجاب المستر بكوك قائلًا: «إني ليسعدني السعادة كلها أن أتعرف إلى مثل هذه السيدة يا سيدي».

وقال الرجل الوقور: «وإنك لفاعل يا سيدي، فنحن صباح غد يا سيدي مقيمون مأدبة فطور عامة- حفلة ريفية- لعدد كبير من أولئك الأعلام الذين ظفروا بالمجد والشهرة بفضل أعمالهم ومواهبهم، فاسمح يا سيدي لمسز ليو هنتر بأن تحظى بلقائك في مغناها المعروف بالعرين».

وأجاب المستر بكوك: «بكل سرور».

ومضى الرجل الوقور يقول: «إن مسز ليو هنتر قد أقامت عدة مآدب إفطار من هذا النوع يا سيدي، مآدب للعقل والنهى يا سيدي، وفيض النفس والروح، كما وصفها أحدهم في أبيات كتبها إلى مسز ليو هنتر عن مآدبها هذه، وهي أبيات تنم عن شعور صادق ووصف مبتكر».

وقال المستر بكوك: «وهل هو من الذين مجدتهم أعمالهم ومواهبهم؟».

وأجاب الرجل الوقور: «أي نعم يا سيدي، إن جميع معارف مسز ليو هنتر هم كذلك، إن كل أمنيتها يا سيدي ألا تعرف أحدًا سواهم».

وقال المستر بكوك: «تلك أمنية سامية جدًّا».

وأجاب الرجل الوقور: «إن مسز ليو هنتر ستعتز حقًّا بهذه الملاحظة

التي خرجت من بين شفتيك يا سيدي حين أنقلها إليها، وأظن يا سيدي أن بين رفقائك سيدًا أخرج قصائد روائع، وخرائد صغيرة».

وأجاب المستر بكوك قائلًا: «إن لصديقي المستر سنودجراس نزعة قوية إلى الشعر».

واستتلى الرجل الوقور يقول: «ومسز ليو هنتر كذلك يا سيدي، فهي بالشعر مولعة، إنها لتعبد الشعر عبادة، بل يجوز لي أن أقول إن كل روحها وخواطر ذهنها مندمجة فيه اندماجًا. وقد أخرجت بعض قصائد طرائف من نظمها يا سيدي، ولعلك قرأت لها يومًا أغنيتها التي تناجي فيها «ضفدعة تلفظ أنفاسها» يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «لا أظن أنني قرأت شيئًا كهذا من قبل».

وأجاب المستر ليو هنتر: «إني لفي دهشة يا سيدي، فإن تلك الأبيات أثارت ضجة بالغة، وقد مهرتها بالحرف «ل» وثمانية نجوم، وظهرت أولًا في «مجلة السيدة»، وكان مطلعها:

هل أطيق رؤيتك تلهثين
وعلى بطنك، ترقدين، ولا تتنهدين؟
وكيف أطيق صبرًا على مشهدك تموتين
فوق الخشبة، أيتها الضفدعة!

وقال المستر بكوك: «جميل!».

وقال المستر ليو هنتر: «بديع. سلس!».

وقال المستر بكوك: «جدًّا».

ومضى المستر ليو هنتر يقول: «والأبيات التالية لا تزال أكثر تأثيرًا، هل أتلوها؟».

وقال المستر بكوك: «من فضلك».

وقال السيد الوقور، وقد بدا أكثر وقارًا: «إنها تجري هكذا:

خبريني أشياطين في صور غلمـــــان
بصرخات موحشة وصياح يصم الآذان
صادوك بكلبهم من مستنقعات المتـــع
أيتها الضفدعة التي بأنفاسك تجودين؟

وقال المستر بكوك: «صياغة بديعة».

وقال المستر ليو هنتر: «كلها في الصميم! ولكنك ستسمع مسز ليو هنتر ترددها على سمعك بنفسها، فهي وحدها التي تعرف كيف توفيها حقها يا سيدي، إنها سترددها وهي متمثلة لك في شخصية أخرى يا سيدي صباح الغد».

- «شخصية أخرى؟».

- «في شخصية «منيرفا» ربة الحكمة، لقد نسيت أن أقول لك يا سيدي إنها مأدبة في ثياب تنكرية».

وقال المستر بكوك، وهو ينظر إلى شكله: «يا عجبًا! ربما لا يمكنني!».

وصاح المستر ليو هنتر بدهشة: «لا يمكنك؟ لا يمكنك؟ يا سيدي، كيف هذا؟ إن لدي سلمون لوكس اليهودي في شارع «هاي ستريت»

آلافًا مؤلفة من هذه الثياب، فلنفكر يا سيدي في عديد الشخصيات المناسبة لتختار منها ما يلائمك. أفلاطون، زينون، أبيقور، فيثاغورس، وسائر أصحاب المدارس ومؤسسي الأندية».

وأجاب المستر بكوك: «أعرف ذلك، ولكني لا أستطيع أن أضع نفسي في ميزان واحد وأولئك العظماء، ولهذا لا أدعي لنفسي حق ارتداء ثيابهم».

ففكر الرجل الوقور مليًّا، ثم عاد بعد لحظات يقول: «لست أدري بعد أن فكرت يا سيدي في هذا الأمر هل سيكون سرور مسز ليو هنتر أكبر وأعظم أن يرى ضيوفها سيدًا في مثل صيتك الذائع في ثوبه المألوف، أو يشهدوه في ثوب من ثياب التنكر، وشخصية منتحلة؟ ولكن يصح أن أجترئ فأعدك بهذا «الاستثناء» فيما يتعلق بك. نعم يا سيدي إنني لواثق كل الثقة أنه بالنيابة عن مسز ليو هنتر يجوز لي أن أقدم على هذه الجرأة».

وقال المستر بكوك: «إذا كان الأمر كذلك، فسوف يسرني كل السرور أن أحضر».

وقال الرجل الوقور كأنما قد ثاب فجأة إلى نفسه: «ولكني قد أضعت عليك وقتك يا سيدي، وإني أعلم أنه لثمين يا سيدي. ولهذا لن أحتجزك. سأقول إذن لمسز ليو هنتر إن لها أن تطمئن إلى قدومك أنت وأصحابك الأمجاد، طاب صباحك يا سيدي، إني لفخور بأني قد شهدت شخصية عظيمة كهذه. لا خطوة يا سيدي ولا كلمة».

وتسلل المستر ليو هنتر بكل وقار منصرفًا، قبل أن يعطي المستر

بكوك فرصة لاحتجاج أو رفض.

وتناول المستر بكوك قبعته، وقصد إلى فندق الطاووس «بيكوك»، ولكن المستر ونكل كان قد نقل إليه نبأ المأدبة التنكرية قبله.

وكان أول كلام استقبل به الزعيم قوله إن مسز «بت» ستحضر المأدبة.

وقال المستر بكوك: «أحقًّا؟».

ومضى المستر ونكل يقول: «في ثياب «أبوللو». ولكن المستر «بت» يعترض على الثوب فقط».

وقال المستر بكوك بلهجة التوكيد: «وله حق، كل الحق».

وقال المستر ونكل: «أي نعم. ولهذا سترتدي ثوبًا أبيض من الحرير ذا برق من الذهب».

وسأل المستر سنودجراس قائلًا: «أحسبهم لا يكادون يعرفون مرادها منه، أتظنهم سيعرفون المقصود؟».

فأجاب المستر ونكل بغضب: «طبعًا، سيعرفون؛ لأنهم سيرون قيثارها».

فقال المستر سنودجراس: «هذا صحيح. لقد نسيت ذلك». وقاطعه المستر طبمن قائلًا: «وسأبدو أنا في زي قاطع طريق».

وهنا قال المستر بكوك وقد تولته هزة فجائية: «ماذا؟».

وردد المستر طبمن القول في رفق: «قاطع طريق!».

ومضى المستر بكوك يقول، وهو ينظر إلى صديقه بعبوس شديد: «لا أحسبك تعني يا مستر طبمن أن في نيتك أن تحشر نفسك في سترة من القطيفة «الخضراء» ذات ذيل يبلغ طوله بوصتين؟».

وأجاب المستر طبمن بحماسة: «هذه هي نيتي، ولم لا يا سيدي؟».

وقال المستر بكوك ثائرًا: «لأنك يا سيدي، لأنك أكبر سنًّا من أن تبدو في هذا الذي اخترته».

وصاح المستر طبمن مبهوتًا: «أكبر سنًّا؟».

ومضى المستر بكوك يقول: «وإذا أردت اعتراضًا آخر، فأنت أكثر بدانة من ذلك يا سيدي».

فاشتد احمرار وجه صديقه، وانثنى يقول: «هذه إهانة يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك باللهجة ذاتها: «إن ظهورك يا سيدي في حضرتي بسترة خضراء من المخمل ذات ذيل قصير لا يعدو البوصتين إهانة لي، أكثر منه إهانة لك».

وقال المستر طبمن: «سيدي، أنت مخلوق...».

وقال المستر بكوك: «سيدي، وأنت آخر..».

وراح المستر طبمن يتقدم خطوة أو خطوتين ويحدج المستر بكوك بنظرة حادة، ورد المستر بكوك عليها بمثلها، وزادها منظاره احتدادًا، وزفر زفرة التحدي، بينما وقف المستر سنودجراس والمستر ونكل يشهدانهما وهما جامدان في موضعهما من شدة الدهشة لهذا المشهد بين رجلين من طرازهما.

وقال المستر طبمن بعد لحظة بصوت خافت أجش: «سيدي، لقد دعوتني كبيرًا في السن».

وقال المستر بكوك: «نعم، لقد فعلت».

- «وبدينًا».

- «وأكرر التهمة».

- «ومخلوقًا...».

- «وإنك لكذلك!».

وهنا مضى المستر طبمن يقول بصوت راعش من شدة الانفعال، وهو يشمر عن معصميه: «إن صلتي بشخصك يا سيدي، كبيرة، كبيرة جدًّا، ولكن لا بد لي من الأخذ عاجلًا بثأري من شخصك هذا».

وقال المستر بكوك: «تقدم إذن! يا سيدي». وراح هذا البطل من شدة تأثره بهذا الحوار المهيج المستفز يستسلم فعلًا لاتخاذ موقف جمود تام، اعتقد المشاهدان الواقفان على مرأى منه أنه موقف أراد به اتخاذ وضع دفاعي حيال مهاجمه.

وانثنى المستر سنودجراس يصيح قائلًا، وقد استطاع فجأة استعادة قوة النطق التي أفقدته إياها حتى اللحظة تلك الدهشة البالغة التي استولت عليه، وهو يندفع نحوهما فيقف حائلًا بينهما، معرضًا نفسه حتمًا لتلقي ضربة على الصدغ من أحدهما: «ما هذا يا مستر بكوك؟ وعين الدنيا تتطلع إليك، والعالم إليك ناظر، والمستر طبمن مثلنا جميعًا يستمد بريقًا متألقًا من اسمه الخالد الذي لا يمحي العار! أيها السيدان! العار!».

وما لبثت الغضون والتقاطيب غير المألوفة التي رسمها الغضب العارض على جبين المستر بكوك الواضح، وجبهته المتهللة، أن توارت على منطق صديقه الشاب، وانمحت كما تنمحي السطور المكتوبة بالقلم الرصاص من أثر الممحاة الرقيقة اللينة؛ فاستعاد وجهه هدوءه وطيبته، وانثنى يقول: «لقد كنت متسرعًا، متسرعًا جدًّا، يا طبمن هات يدك!».

وعندئذ اختفى الظل القاتم من وجه المستر طبمن وهو يتناول بحرارة يد صديقه، قائلًا: «لقد كنت أنا أيضًا متسرعًا».

ولكن المستر بكوك قاطعه قائلًا: «كلا، كلا! الخطأ خطئي، أسترتدي السترة القطيفة الخضراء؟».

وأجاب المستر طبمن: «كلا، كلا».

فعاد المستر بكوك يقول: «بل ستفعل لإرضائي».

وقال المستر طبمن: «حسن، حسن، سأفعل!».

وكذلك تم الاتفاق على أن يرتدي المستر طبمن، والمستر ونكل، والمستر سنودجراس جميعًا ثيابًا تنكرية، وهكذا انساق المستر بكوك مع حرارة إحساسه الرقيق إلى قرار أمرٍ كانت رجاحة عقله وأصالة رأيه تمُجَّانه، وتنفران من قبوله، ولا نحسب مثلًا أروع، ولا شاهدًا أبلغ من هذا وأَجَلَّ، يمكن أن نتصوره؛ للدلالة على لطف شخصيته، ولين عريكته، ولو افترضنا أن الحوادث المدونة في هذه الصفحات جاءت جميعًا من نسج الخيال.

ولم يكن المستر ليو هنتر مبالغًا فيما تحدَّث به عن كثرة موارد

المستر سلمون لوكس، والألوف المؤلفة من الثياب التنكرية في متجره، فقد كانت خزائنه ملأى حافلة بها، لا بالقديم منها فحسب، ولا بالقشيب فقط، ولا بالمفصل التفصيل الدقيق على زي عصر بذاته، وجيل بعينه، بل كان كل شيء فيه مرصَّعًا بالبرق، وأي شيء أبدع وأجمل مظهرًا من التراصيع والبروق ...! ورُبَّ معترض يقول إنها ليست مناسبة في النهار، ولكن كل إنسان يعرف أنها تبرق وتتلألأ إذا كانت ثمة شموع ومصابيح، وأنه لا خلاف في أن الذنب ذنب الذين يقيمون الحفلات التنكرية، إذ هم أقاموها نهارًا، ولم تَبْدُ الثياب براقة ذات سناء كما تلوح ليلًا، وليس الذنب مطلقًا للبروق ذاتها والتراصيع.

وكان هذا الرأي رأي المستر سلمون لوكس، وحجته المقنعة، وقد تأثر بها المستر طبمن والمستر ونكل والمستر سنودجراس، فقبلوا أن يستأجروا من الثياب ما وصاهم به الرجل، وزكاه لديهم، معتمدين على ذوقه وخبرته، آخذين برأيه فيها، وهي أنها مناسبة للحفلة إلى حد بديع.

واستؤجرت مركبة من فندق أسلحة المدينة «تاون آرمز» لكي تقل البكوكيين، وأخرى مكشوفة من الفندق عينه ليركبها المستر «بت» وزوجته، إلى دار مسز ليو هنتر، وكان المستر «بت» قد عمد إلى وسيلة لطيفة لإبداء عرفانه للدعوة التي وجهت إليه، فكتب في جريدة «الغازت إيتنزول» يقول إنه لعلى ثقة «بأن الحفلة سوف تتيح للعين مشهدًا حافلًا بأفانين وألوان مختلفة من الفتنة والسحر المبين، وسوف تكون معرضًا مدهشًا يأخذ بمجامع القلوب، تتلاقى فيه أضواء الجمال والنبوغ، والكرم العظيم، والأبهة البالغة.. وفوق ذلك كله ستمتاز المأدبة بحد من الروعة

يلطف منه الذوق الرفيع، وحد من الزينة يهذب من حواشيه الانسجام التام، والحشمة الطبيعية الواجبة، حتى ليبدو بهاء الشرق وأرض سحره التي تحدثنا عنها الأساطير، بالقياس إليها، قاتمة كدرة معتمة، كخاطر المخلوق الحقود الخسيس الذي يحاول أن ينال بسم حسده، ونفث حقده من جمال الاستعدادات التي تعدها السيدة الفاضلة الرفيعة المكانة التي تتقدم بهذا الإعجاب المتواضع إلى محرابها»، وكانت هذه العبارة الأخيرة سخرية لاذعة موجهة إلى الإنديبندنت «الجريدة المستقلة» التي ظلت في أربعة أعداد متوالية تحاول الزراية بالحفلة؛ لأنها لم تدع إليها، وتشنع على المأدبة، بأكبر الحروف حجمًا، وتصفها بأسوأ الأوصاف.

وحل الصباح، فكان مشهدًا بديعًا ممتعًا للعين أن ترى المستر طبمن في ثوب «قاطع طريق»، ذي سترة محبوكة ضيقة للنهاية، جالسة فوق ظهره وكتفيه أشبه شيء بمخدة الدبابيس، بينما بدا الجزء الأعلى من ساقيه محشورًا في سراويل قصيرة من المخمل، والجزء الأدنى منهما ملفوفًا مقمطًا في تلك الأربطة، واللفائف المعقدة التي اعتاد قطَّاع الطرق جميعًا ربطها وحزمها بنوع خاص، وكان من الممتع للعين كذلك أن تشهد وجهه المتفتح الصفي المزدان بالشارب، الشبيه بسدادة القوارير، وهو مطل من طوق قميص مفتوح، وأن تتأمل قبعته التي تحكي «قمع السكر» بأربطتها التي جمعت بين مختلف الألوان، وقد اضطر أن يحملها فوق ركبته، كما لو كانت شيئًا مما يحمل ولا يعرف، وله قمة تعلوه، ولا يتواتى للمرء أن يحمله بين رأسه والسقف. وكان منظر المستر سنودجراس لا يقل إضحاكًا وطرافة، فقد بدا في صدار وحلة من الحرير الأزرق، وسراويل محكمة من الدمقس الأبيض، وحذاء وخوذة إغريقية،

يعرف كل إنسان- أو إذا لم يعرف، فإن المستر سلمون لوكس يعرف- أنه الثوب المألوف الذي يرتديه عادة شعراء الفروسية الغزلون، من أبعد عصور التاريخ إلى الوقت الذي اختفوا فيه جملة على وجه الأرض.

كل ذلك كان ممتعًا، ولكنه لم يكن شيئًا مذكورًا بجانب هتاف العامة وصرخاتهم، حين وقفت بهم المركبة، وراء مركبة مسز بت، التي كانت واقفة بباب داره، وحين انفتح الباب ذاته، وبدا منه ذلك الرجل العظيم «بت» مرتديًا ثوب ضابط روسي من رجال الشرطة يحمل سوطًا ضخمًا في يده كأبدع رمز، وأنسب شارة، لسلطان «الغازت إيتنزول» ونفوذها المرهوب وبأسها العظيم، وتلك السياط المخيفة التي يلهب بها ظهور المخطئين والمسيئين إلى الحياة العامة.

وصاح المستر طبمن والمستر سنودجراس من جانب الدهليز، حين شهدا هذا «الرمز» الماشي على قدمين «مرحى؟».

وهتف الجمهور: «مرحى! يا بت!».

وفي وسط هذه التحيات تقدم المستر بت، وهو يبتسم تلك الابتسامة المقترنة بالكرامة والهيبة التي تدل دلالة كافية على شعوره بقوته، وإحساسه بنفوذه، ومعرفته كيف يبديه، ومتى يجب أن ينفذه، فدخل في المركبة.

وعندئذٍ خرجت من البيت المسز بت، وكانت بلا ريب ستبدو أشبه بأبوللو لو لم ترتدِ ثوبًا فضفاضًا، وكان يأخذ بيدها المستر ونكل، وهو في سترة ذات لون أحمر مائل إلى البياض، كان من المحتمل أن يتراءى

للعين أشبه بالرجل «الرياضي» دون أحد سواه، لو لم يرتد هو الآخر شيئًا جعله أقرب ما يكون شبهًا إلى ساعي بريد، وأخيرًا أقبل المستر بكوك، فصفق الأولاد والغلمة له، كما صفقوا للآخرين وهتفوا كهتافهم المدوي لهم، وأغلب الظن أنهم اعتقدوا أن سراويله وأربطة ساقيه هي بعض بقايا العصور المظلمة.

وانطلقت المركبتان صوب دار مسز ليو هنتر، بينما راح المستر ويلر الذي تقرر أن يذهب معهم للخدمة كبعض الندول والسعاة، يتخذ مجلسه فوق مقدم المركبة التي احتوت سيده.

ولم يلبث الرجال والنساء، والأولاد والبنات، والأطفال الصغار الذين احتشدوا لرؤية المدعوين في ثيابهم المستعارة، أن صاحوا صيحات الفرح الشديد والمسرة البالغة، حين رأوا المستر بكوك يمشي بين «قاطع طريق» وبين أحد الشعراء الغزلين، إلى مدخل الدار في وقار وجلال، وما كان أشد الصيحات التي استقبلوا بها المستر طبمن، وهو يحاول تثبيت قبعته الشبيهة بقمع السكر فوق رأسه، يهم بالدخول إلى حديقة البيت دخلة رسمية جليلة.

وكانت الاستعدادات أبدع ما تكون مدى، وأبهج ما تكون نطاقًا، بل كانت في الحق مصداقًا لما توقعه المستر بت فيما كتبه عن أبهة الشرق، وفخفخة أرض السحر، وتكذيبًا كافيًا في الوقت ذاته لما كتبته «الإنديبندنت» الأفعى عن الحفلة من سوء وقول خبيث وتشنيع.

وكانت حديقة البيت أكثر من فدان وربع فدان مساحةً، وهي مزدحمة بالناس، فلم تشاهد العين يومًا مثل ما اجتمع في الحديقة ذلك

الصباح من وهج الجمال، وسناء الأدب، وحسن الأزياء، فهنالك الغادة الشابة التي كانت تتولى قسم الشعر في صحيفة «الغازت إيتنزول»، وهي في ثوب «سلطانة» وقد استندت إلى ذراع الشاب الذي يشرف على باب النقد والاستعراض، وكان يرتدي ثوبًا مناسبًا لمركزه ذاك، وهو ثوب «فريق»، خلا الحذاء وهنالك أيضًا جموع من العباقرة وأهل النبوغ ممن يحسب العاقل أو مَن به مسكة من العقل أن الشرف كله في لقائهم، ولكن إلى جانب أولئك جميعًا كان هناك نحو ستة من أسود لندن، من المؤلفين، والكتاب، الذين وضعوا كتبًا ومؤلفات كاملة، ثم عادوا فطبعوها للناس. وإنك لتراهم في الحديقة يمشون بين المدعوين كأنهم من عامة الناس، مبتسمين ومتحدثين أحاديث لا تخلو من هراء كثير، وليس من شك في أنهم تعمدوها تعمدًا، عن لطف ورعاية، لكي يفهمهم عامة الناس الذين أحاطوا بهم، وكانت هناك أيضًا فرقة موسيقية وضع أفرادها على رؤوسهم قلانس من الورق المقوى، وأربعة مغنين «من كل شيء كان» وهم مرتدون زي بلادهم، واثنا عشر من السعاة والخدم في الفنادق استؤجروا وجاءوا هم كذلك في زي بلادهم، وهو زي قذر نهاية في الاتساخ كذلك.

وفوق كل هذا وذاك، كانت هنالك مسز ليو هنتر في زي «منيرفا» تستقبل الجميع، وتفيض زهوًا، واغتباطًا بجمع هذا الحشد الحاشد من المشاهير والأعلام في صعيد واحد.

وقال خادم ينبه ربة الدار: «المستر بكوك يا سيدتي»، بينما كان هذا السيد يقترب من تلك «المعبودة» المشرفة على الحفل، وهو ممسك

قبعته بيده، وكل من «قاطع الطريق» والشاعر الغزلي ممسك بإحدى ذراعيه.

وصاحت مسز ليو هنتر مجفلة، في نشوة دهشة مصطنعة: «ماذا! أين؟».

وقال المستر بكوك: «هنا».

فعادت مسز ليو هنتر تصيح قائلة: «هل أتيح لي حقًّا أن أحظى برؤية المستر بكوك نفسه؟ أممكن هذا؟».

وأجاب المستر بكوك وهو ينحني انحناءة بالغة: «هو بعينه، لا أحد سواه يا سيدتي. اسمحي لي أن أقدم أصدقائي: المستر طبمن، المستر ونكل، المستر سنودجراس، إلى الشاعرة صاحبة قصيدة، الضفدعة المحتضرة».

ولا يعرف غير القليلين الذين جربوا مدى المشقة التي يعانيها كلُّ مَنْ يريد أن ينحني بالتحية، وهو في سترة خضراء من المخمل ضيقة عليه شديدة الضيق، وقبعة عالية مفرطة في الارتفاع، أو في صدار حريري أزرق، وسراويل بيضاء، أو أربطة ركب، وأحذية طوال لم تُفصَّل مطلقًا على لابسيها، بل رُكِّبت عليهم دون أي مراعاة لتناسب الأحجام والمساحات بينها وبين المرتدين، فلا عجب إذا قلنا: إنه لم يعانِ أحدٌ يومًا مثل ما عانى المستر طبمن من التلوي والتقلص والتقبض، وهو يحاول أن يبدو مستريحًا ليس به من عناء، وإنه لم يقاسِ أحدٌ يومًا من هذه الأوضاع المحرجة مثل ما قاساه أصدقاؤه المتنكرون في تلك الثياب.

وانثنت مسز ليو هنتر تقول: «إنني مضطرة يا مستر بكوك إلى استنزال وعد منك بأن لا تتحرك من جنبي طيلة اليوم، إن هنا مئات من الناس لا بد لي قطعًا من تقديمك إليهم».

وقال المستر بكوك: «إنك لجد كريمة يا سيدتي».

ومضت «منيرفا» تقول وهي تشير بغير اهتمام إلى فتاتين مليئتين، إحداهما في نحو العشرين، والأخرى أكبر منها بعام أو عامين، وهما مرتديتان ثيابًا أقرب ما تكون إلى ثياب الأحداث والصغار لكي تلوحا أصغر من سنهما، أو تبدو أمهما أدنى إلى الشباب، وهو أمر لم يحدثنا عنه المستر بكوك في مذكراته، ولم يقطع فيه برأي حاسم. ومضت منيرفا تقول أول كل شيء: «ها هما هاتان ابنتاي الصغيرتان، لقد كدت أنساهما».

وأجاب المستر بكوك بعد أن شهدهما تتوليان مبتعدتين، عقب تقديمهما إليه: «إنهما جميلتان في غاية الجمال».

وقال المستر بت بجلال: «مثل أمهما».

وصاحت به مسز ليو هنتر: «أوه أيها الرجل الشرير!» وراحت مداعبة تدق بلطف ذراع رئيس التحرير بمروحتها (تصوروا منيرفا ممسكة بمروحة!).

وقال المستر بت، وهو يشغل في هذا البيت وظيفة (النافخ في البوق): «والآن يا عزيزتي مسز هنتر، أنتِ تعرفين أنه عندما كانت صورتك في معرض الجمعية الملكية، ذهب كل إنسان يتساءل: هي هي صورتك أو

صورة ابنتك الصغرى؟ لأنكما بدوتما أقرب شبهًا، وأتم تماثلًا، حتى ليحار المرء فيكما، ولا يدري الفارق بينكما».

وقالت مسز ليو هنتر، وهي تنعم بدقة أخرى من مروحتها على هذا الأسد الرابض في جريدة «الغازت إيتنزول»: «وإذا كانوا قد حاروا ولم يدركوا الفارق، فما حاجتك إلى ترديد ذلك أمام الغرباء؟».

وصاحت مسز ليو هنتر في أثر رجل غزير الشاربين في ثوب أجنبي كان قد مر بها: «يا كونت، يا كونت!».

وتولى الكونت إليها بوجهه قائلًا: «آه أتريدنني؟».

قالت: «أريد أن أقدم رجلين بارعين كل البراعة، أحدهما إلى الآخر. يا مستر بكوك، يسرني أن أقدم إليك الكونت «سمورلتورك»، وأردفت تقول للمستر بكوك مخافتة بصوتها «الأجنبي المشهور الذي جاء ليجمع معلومات ومواد لكتابه العظيم عن إنجلترا، يا كونت سمورلتورك، أقدم إليك المستر بكوك».

فحيا المستر بكوك الكونت بكل الاحترام الخليق برجل عظيم مثله، بينما أخرج الكونت مجموعة من الألواح ومضى يقول وهو يبتسم لمسز ليو هنتر: «ماذا قلت يا مسز هنت؟ بيج فج، أو ما تدعونه «محاميًا» آه، فهمت بيج فج» وهم الكونت بأن يدون اسم المستر بكوك في ألواحه بوصفه سيدًا من ذوي الأردية الطوال، ورجلًا استمد اسمه هذا من المهنة التي ينتمي إليها، لولا أن قاطعته مسز ليو هنتر قائلة: «كلا، كلا، يا كونت، إن اسمه هو بك.. وك».

وأجاب الكونت: «آه، فهمت، بيك الاسم الأول «وويكي» اللقب أو الكنية، حسن جدًّا، بيك ويكس، كيف حالك يا مستر ويكس؟».

وأجاب المستر بكوك بكل لطفه المألوف: «بخير، أشكرك. هل جئت إلى إنجلترا من عهد بعيد؟».

قال: «من عهد بعيد، بعيد جدًّا، من أسبوعين أو أكثر».

وسأله المستر بكوك قائلًا: «وهل تنوي المقام طويلًا؟».

قال: «أقيم أسبوعًا واحدًا».

وابتسم المستر بكوك وهو يقول: «سيذهب الوقت كله في جمع كل المواد التي تريدها».

وقال الكونت: «آه، إنها مجموعة فعلًا».

وقال المستر بكوك: «أحقًّا؟».

وأردف الكونت قائلًا، وهو يدق جبينه بيده دقة ذات دلالة: «كلها هنا، وفي البيت كتاب ضخم حافل بالملاحظات والمذكرات، عن الموسيقى، والرسم، والعلم، والشعر، والسياسة، وكل الأشياء».

وقال المستر بكوك: «إن كلمة «السياسة» تقتضي وحدها دراسة شاقة لا يستهان بسعة نطاقها، وترامي حدودها».

وقال الكونت وقد عاد يخرج ألواحه: «آه، حسن جدًّا، هذا أبدع مطلع يفتتح به فصل في الكتاب، وهو الفصل السابع والأربعون، السياسة. إن كلمة السياسة مدهشة في حد نفسها» وراح يدون كلمات المستر بكوك في ألواحه، في مختلف الصياغات والزيادات التي عنت

لخياله الخصيب، واقتضاها علمه الناقص باللغة الإنجليزية.

ونادته مسز ليو هنتر قائلة: «يا كونت!».

وأجاب الكونت: «نعم يا مسز هنت؟».

قالت: «وهذا هو المستر سنودجراس، صديق للمستر بكوك وشاعر!».

وصاح الكونت قائلًا، وهو يخرج الألواح مرة أخرى: «ففي في باب «الشعر» أصدقاؤنا الأدباء. الاسم «سنودجراس»، حسن جدًّا. وقدمنا إلى «سنودجراس» الشاعر الكبير، وصديق «بيك ويكس»، وكانت التي قدمتنا إليه هي مسز هنت، التي نظمت قصيدة أخرى بديعة. ما هو ذلك الاسم؟ الضفدعة.. الضفدعة المحتضرة؟! حسن جدًّا، حسن جدًّا في الحقيقة».

وأعاد الكونت الألواح إلى مكانها، وانحنى عدة انحناءات مختلفة، وانصرف وهو مرتاح كل الارتياح؛ لأنه استطاع أن يضيف أهم وأثمن الإضافات إلى خزانة معلوماته.

وقالت مسز ليو هنتر عقب انصرافه: «الكونت سمورلتورك رجل مدهش!».

وقال المستر بت: «فيلسوف سديد الرأي».

وأضاف المستر سنودجراس: «صافي القريحة، قوي الذهن».

وتناول جمعٌ، من الذين كانوا وقوفًا على مقربةٍ، الثناءَ على الكونت سمورلتورك، فقالوا وهم يهزون الرؤوس هزة الحكماء: «جدًّا» بإجماع الأصوات.

وكان من الجائز وقد سرت الحماسة في مديح الكونت، وتعالت بالثناء عليه، أن يتغنى القوم بها إلى نهاية الحفل، لولا أن بادر الأربعة المغنون «المساكين» فاصطفوا أمام شجرة تفاح صغيرة، ليتراءوا في منظر جميل، وشرعوا يغنون أغانيهم الوطنية، وتبيَّن أن التغني بها لم يكن شاقًّا في شيء؛ لأن السر في غنائها هو أن ثلاثة منهم كان عليهم أن يقبعوا كالخنازير، وليس على الرابع إلا أن يعوي أو يزمجر، ولم يكد هذا الدور الغنائي ينتهي وسط التصفيق الشديد، والهتاف المدوي، من حناجر المدعوين، حتى انبرى غلام فبدأ يشتبك في إسلاك مقعد، ثم يقفز فوقه، ويزحف تحته، ويقع معه، ثم يلفهما حول عنقه، وأخيرًا، بمثل السهولة التي يتيسر بها للمخلوق البشري أن يبدو للأنظار كأنه ضفدعة برية، وكانت كل هذه الحركات والألعاب تثير السرور والضحك والابتهاج في نفوس النظارة الحاشدين.

وعقب ذلك سمع صوت مسز بت وهي ترسل شدوًا مخافتًا، أو شيئًا تدعوه المجاملة «غناء»، وكان كله «قديمًا» أو مناسبًا للمقام؛ لأن «أبوللو» نفسه كان واضع «ألحان»، وقلما يغني واضعو الألحان ألحانهم أو ألحان سواهم.

وتلا ذلك قراءات من الشعر، فقرأت مسز ليو هنتر على المدعوين مرثيتها الشعرية «للضفدعة المحتضرة»، وكان المدعوون يصفقون لها، ويستعيدونها، وكادوا يكررون الهتاف باستعادتها، لولا أن فريقًا أكبر منهم رأوا أنه قد حان أن يجدوا شيئًا يأكلونه، وذهبوا يقولون إنه من المحبب للغاية استغلال طيبة مسز هنتر وطبيعتها الكريمة، إلى حد مطالبتها بإعادة

الأبيات، وكانت مسز ليو هنتر قد أبدت ارتياحها التام لتلاوة القصيدة من جديد، ولكن أصدقاءها الكرام المشفقين عليها أبوا أن يسمعوها مهما كان الأمر، وكانت قاعة الطعام قد فتحت أبوابها، فاندفع إليها كل الذين كانوا من قبل فيها وتزاحموا عليها سراعًا متدافعين، وكان برنامج مسز ليو هنتر يقضي بتوزيع مائة بطاقة، وإعداد الطعام لخمسين، أو بعبارة أخرى لا تطعم غير «الآساد» الكبار من المدعوين، وتدع الحيوانات الصغار تتلمس طعامها جاهدة».

وصاحت مسز ليو هنتر وقد جعلت «الآساد» يحيطون بها: «أين المستر بت؟».

وقال رئيس التحرير من أقصى طرف القاعة، حيث لا أمل له في الوصول إلى الطعام، ما لم تبادر ربة البيت إلى نجدته: «هأنذا!».

قالت: «أو لا تأتي إلى هنا؟».

وقالت مسز بت بصوت رقيق للغاية: «أوه، أرجوك، لا تحفلي به، إنك تتعبين نفسك كثيرًا دون ضرورة يا مسز هنتر. ألا تستطيع يا عزيزي أن تؤدي لنفسك حقها وأنت في موضعك ذاك؟».

وأجاب بت المسكين، وهو يكشر نابه عن ابتسامة مصطنعة: «بلا شك يا عزيزتي!».

وا أسفًا لذلك السوط الذي في يده ...! إن الذراع العصبية التي تستخدمه بتلك القوة الضخمة في المسائل العامة، قد استحالت شلَّاء من نظرة زوجته الآمِرة المتحكمة.

وأرسلت مسز ليو هنتر عينها فيما حولها، وألقت نظرة فوز وانتصار، فقد رأت الكونت سمورلتورك منهمكًا كل الانهماك في تدوين ملاحظاته عن ألوان الصحاف، والمأكل، بينما مضى المستر طبمن يوزع «السلاط» المصنوع من جراد البحر على عدة «لبؤات» كبار بأدب جم، لم يُشهَد مثله قاطع طريق في يوم من الأيام، وراح المستر سنودجراس يعرض على الشاب الذي كان يتولى نقد الكتب في «الغازت إيتنزول» ويقبل على محادثة السيدة الشابة التي تشرف على قسم الشعر فيها، وكان المستر بكوك يحاول جاهدًا التلطُّف للجميع، وبدا كل شيء بديعًا، والحلقة لا ينقصها أحد، وإذا بالمستر ليو هنتر، الذي كان كل عمله في هذه المناسبات الوقوف بالأبواب، والتحدث إلى المدعوين الذين هم أقل شأنًا من أولئك المحيطين بزوجته، ينادي فجأة، قائلًا: «يا عزيزتي، هنا المستر شارل فيتز- مارشال».

وصاحت مسز ليو هنتر: «أواه يا عزيزي، لكم كنت في قلق وارتقاب شديد لحضوره، أرجو أن تفسحوا طريقًا لكي يمر المستر فتز-مارشال، ألا أنبئ يا عزيزي المستر فتز- مارشال أن يأتي رأسًا إليَّ لكي أؤنبه على تأخيره!».

وصاح صوت قائلًا: «أنا آت يا سيدتي العزيزة بأسرع ما استطعت، زحام شديد، القاعة غاصَّة، مهمة شاقّة، جدًّا».

ولم يكد المستر بكوك يسمع هذا الصوت حتى سقطت السكين والشوكة من يده، وأرسل نظرة من وراء المائدة إلى المستر طبمن، وكان هذا أيضًا قد سقطت السكين والشوكة من كفه، وبدا كأنما يوشك أن

يسقط على الأرض بلا سابق إنذار.

وصاح ذلك الصوت، بينما كان صاحبه يشق طريقه بين الخمسة والعشرين الأخيرين من المتنكرين في أزياء «الأتراك» والضباط والفرسان وشارل الثاني، وهم الذين لا يزالون حائلًا بينه وبين الوصول إلى المائدة: «يا ألله! صقل بديع من طراز بيكر لم يدع ولا ثنية واحدة في سترتي بعد كل هذا الحشر، ليتني جئت بكل ثيابي الثمينة لكي تصقل هنا، ها ها، فكرة حسنة هذه، أن تصقل الثياب هكذا، وهي على جسم لابسها، وإن كانت عملية متعبة، جدًّا».

وبهذه العبارات المتقطعة مضى شاب يرتدي زي ضابط بحري يشق الطريق إلى المائدة، ويتمثل للبكوكيين المبهوتين المستر ألفريد جنجل بشكله وملامحه.

ولم يكد يتسع له الوقت لتناول يد مسز ليو هنتر الممدودة إليه، حتى التقت عيناه بعيني المستر بكوك، وهما من شدة الغيظ تقدحان شررًا، فقال: «ها، لقد نسيت شيئًا! لم أعط تعليمات لسائسي الخيل، سأذهب إليهم في الحال وأعود بعد دقيقة واحدة».

وقالت مسز ليو هنتر: «دع الخادم، أو المستر هنتر يقوم بذلك في الحال يا مستر فتز-مارشال».

ولكنه أجابها قائلًا: «كلا، كلا، سأقوم أنا بها، لن أغيب، سأعود بعد لحظة».

واختفى في غمار الزحمة.

وقال المستر بكوك وهو ينهض من مقعده: «هل تسمحين لي يا سيدتي أن أسأل من يكون ذلك الشاب وأين يقيم؟».

وأجابت مسز ليو هنتر: «إنه سيد من أهل الثراء يا مستر بكوك، أريد أن أقدمك إليه، ويقيني أن الكونت سيسر بمعرفته».

وقال المستر بكوك في عجلة: «نعم، نعم. ولكن أين يقيم؟».

قالت: «إنه يقيم الآن في فندق الملاك «أنجل» ببلدة بري».

فعاد يسأل ليستوثق: «أتقولين في بيري؟».

قالت: «نعم في بري سانت إدموندز التي لا تبعد منا أميالًا كثيرة. ولكن عجبًا يا مستر بكوك، لا أحسبك تاركنا هكذا، لا يمكن يا مستر بكوك أن تفكر في الانصراف هكذا وشيكًا!».

وقبل أن تتم كلامها كان المستر بكوك قد توارى في غمار الزحام، ووصل إلى الحديقة حيث وافاه بعد لحظة المستر طبمن، وكان قد تبع حركاته عن كثب.

قال المستر طبمن: «لا فائدة، لقد انطلق».

فأجاب المستر بكوك: «أعرف ذلك، ولكني سأتبعه».

وقال المستر طبمن مبهوتًا: «تتبعه! إلى أين؟».

وأجاب المستر بكوك بلهجة سريعة: «إلى فندق أنجل في بلدة بري. ما يدرينا أي قوم تراه يحتال عليهم فيها. لقد غش رجلًا فاضلًا من قبل وكنا نحن السبب، ولم نكن ندري. لن أدعه يفعلها مرة أخرى إذا أنا استطعت. لأفضحنه، ولأكشفن خبيئته للناس. أين خادمي؟».

وإذا بالمستر ويلر يقول: «أنا هو يا سيدي»، وقد خرج من بقعة منعزلة كان فيها «يناقش» زجاجة من نبيذ «الماديرة» استخلصها من مائدة الفطور قبل ذلك بساعة أو ساعتين.

ومضى يقول: «ها هو ذا خادمك يا سيدي. الفخور بهذا اللقب، كما قال الهيكل العظمي الحي عندما عرضوه...».

وقال المستر بكوك: «اتبعني في الحال! وأنت يا طبمن إذا أنا تأخرت في «بيري» فوافني إليها حين أكتب إليك، والآن، إلى اللقاء!».

ولم تكن الاحتجاجات على ذهابه بمجدية، فإن المستر بكوك قد اتقدت الحماسة في صدره، وأجمع نيته على الذهاب. فلم يسع المستر طبمن إلا الرجوع إلى أصحابه، ولم تنقض ساعة حتى غرقت ذكريات المستر ألفريد جنجل، أو المستر شارلز فيتز- مارشال في لجة رقصة «الكوادريل»[1]، وزجاجة من الشمبانيا، بينما كان المستر بكوك وخادمه سام ويلر جالسين خارج مركبة حافلة، تنهب بهما الأرض، وتقربهما شيئًا فشيئًا من بلدة «بري سانت إدموندز» لمطاردة الرجل الغريب!

* * *

(١) رقصة يشترك فيها أربعة أزواج من الراقصين وتسمى موسيقاها «كوداريل» كذلك.

# الفصل السادس عشر

## حافل بالأحداث بحيث لا يغني الإيجاز في وصفها

ليس في شهور العالم كله شهر تبدو فيه الطبيعة أبهى ثيابًا كشهر أغسطس، ولسنا ننكر أن للربيع عديد محاسنه، وأن شهر مايو شهر وسمي متفتح كأكمام الزهر، ولكن مفاتن هذا الشهر تزداد حسنًا لاختلافها عن أيام الشتاء وشهوره، وليس لشهر أغسطس هذه المزية، فهو يأتي حين لا نذكر شيئًا غير السموات الصافية، والحقول الناضرة، والأزاهر الفواحة، وحين تتوارى عن خواطرنا أخيلة الجليد والثلوج والرياح المقرورة، كما توارت عن الأرض ... ومع ذلك كله ما أجمل هذا الشهر وأخفه على النفس! فإن الأزهار فيه وحقول القمح لتضج بطنين العمل، وثمار الدأب، فنرى الأشجار رازحة فيه تحت كثاف عناقيد الثمرات الطيبة، على أغصانها المنحنية إلى الأرض، والقمح متكدسًا في البيادر أكوامًا جميلة، أو متموجًا متمايلًا مع كل نسمة عليلة من الأنسام الهابّة عليه، كأنما تناجي المنجل، وتضفي على الأرض لونًا من نضار، وكأنما يغمر

الكون كله لطف بهيج لين بديع، يسر الناظرين، وكأنما امتدت فتنة الموسم ذاته إلى المركبة التي لا تشعر بحركتها البطيئة في الحقول الجنية غير العين وحدها، ولا يطرق الأذن منها صوت شديد.

وكلما مرت المركبة مارقة من خلال الحقول والبساتين المترامية على حافة الطريق، تمهلت جموع النساء والأطفال، الذين يجمعون الثمار في الغرابيل، أو يجنون سنابل القمح المتناثرة، وكفت لحظة عن عملها، وظللت وجوهها الملفوحة من حر الشمس بأكفها السمراء مثلها من وقدة أشعتها، لترمق الركب أعينها الطلقة، ويروح من بينها صبي قوي البدن، وإنْ كان أصغر سنًّا من أن يعالج عملًا، ولكنه من فرط الخبث والنزوع إلى العبث والأذى لا ينبغي أن يترك في البيت، يتسلق جانب «السلة» التي أودع جوفها ليبقى في مأمن، وينطلق يركل بقدميه يصرخ من فرط الفرح، بينما يكف الحاصد عن العمل، ويقف مشبوك الذراعين، لينظر إلى المركبة وهي مارقة قبالته، وتنثني الخيل التي تجر العجلات، فتنعم على خيل المركبة المطهمة، بنظرات نعسانة كأنما لسان حالها يقول، في أبلغ ما يمكن أن تتحدث به نظرات حصان: «إنه لمنظر بديع حقًّا». ولكن السير في رفق، فوق أرض الحقول اللينة، أفضل من هذا العدو السريع فوق أرض معفرة مثيرة الغبار على هذه الصورة.

وإذا أنت ألقيت البصر كرة أخرى إلى ركن من الطريق، رأيت النساء والأطفال قد عادوا إلى ما كانوا فيه من عمل ودأب، وألقيت الحصد قد رجع يكب على ما بين يديه، وأبصرت العجلة قد عاودت المسير، وكل شيء قد عاد إلى الحركة والنضال.

ولم يَغِبْ جلال هذا المشهد عن خاطر المستر بكوك وذهنه المتسق المنظم، ولكنه عقد العزم على كشف خبيئة الخبيث الداهية «جنجل» في أي مكان قد يعاود فيه النصب والاحتيال على الناس، وجلس في بداية الأمر صموتًا مفكرًا ساهمًا، يتدبر الوسائل التي يتسنى له بها تحقيق هدفه على أحسن وجه، فقد أخذه خاطره شيئًا فشيئًا ينجذب إلى المشاهد المحيطة به، حتى بدأ عندئذ يجد متعة بالغة في هذه المركبة، كأنه قد اعتزم بها الاستمتاع بأبدع نزهة.

وأنشأ يقول: «مشهد بهيج يا سام!».

وأجاب سام وهو يلمس قبعته: «إنها لتضرب رؤوس المداخن يا سيدي».

فابتسم المستر بكوك ومضى يقول: «أحسبك لم تشهد في كل حياتك شيئًا غير رؤوس المداخن والطوب والملاط يا سام».

وأجاب المستر ويلر وهو يهز رأسه: «لم أكن طول عمري مساح أحذية يا سيدي. فقد كنت صبي حوذي صاحب مركبة نقل في يوم من الأيام».

وقال المستر بكوك: «ومتى كان ذلك؟».

وأجاب سام: «عندما حملت من رقبتي وغرتي فألقيت لأول مرة في هذا العالم لألعب لعبة «قفزة الضفدع» مع متاعبها وأكدارها، فبدأت صبي حمَّال، ثم صبي سائق مركبة نقل، ثم مساعدًا، ثم مساح أحذية. وأنا الآن خادم سيد. ومن يدري فقد أصبح أنا الآخر سيدًا في يوم من الأيام،

أضع القصبة في فمي، ولي سقيفة في حديقة بيتي الخلفية، من يدري؟ وإن كنت أنا نفسي لن أدهش يومئذ ولن أعجب».

وقال المستر بكوك: «إنك لفيلسوف يا سام».

وأجاب سام قائلًا: «أعتقد يا سيدي أنها وراثية في الأسرة، ووالدي في هذا الدور ذاته الآن، فإذا «كشرت» له امرأة أبي أو هبت فيه، لم يفعل شيئًا غير أن يطلق «صفيرًا» من بين شفتيه، وإن هي غضبت وكسرت قصبته، انصرف من البيت واشترى قصبة غيرها، وإذا ما صرخت ودخلت في دور «تشنج» واصل تدخينه هادئًا مسالمًا، حتى تثوب إلى نفسها. هذه فلسفة يا سيدي. أليست كذلك؟».

فأجاب المستر بكوك ضاحكًا: «أو بديل حسن جدًّا منها على كل حال، ولا بد من أن تكون قد خدمتك كثيرًا في سير حياتك المتنقلة يا سام».

وصاح سام قائلًا: «خدمتني! يا سيدي، لك أن تقول ذلك، ولكني بعد أن هربت من الحمّال، وقبل أن أعمل مع السائق.. قضيت أسبوعين في مسكن غير مفروش».

وقال المستر بكوك في دهشة: «مسكن غير مفروش؟».

قال: «نعم، في عقود جسر واترلو الجافي مكان بديع للمبيت.. لا يبعد أكثر من مسيرة عشر دقائق من المكاتب العامة، وإذا كان ثمة عيب فيه، فهو أن الموقف يبدو «طلقًا» كثير الهواء، وكنت أشهد فيه بعض المناظر الغريبة».

وقال المستر بكوك باهتمام بالغ: «أظنك لا بد فعلت».

واستتلى المستر ويلر يقول: «مناظر يا سيدي تنفذ في جنب قلبك الرحيم، وتخرج من الجنب الآخر. وأنت لا ترى المتشردين الذين يأوون إلى ذلك الموضع بانتظام.. بل ثق أنهم أحكم من أن يتركوك تراهم هناك، وأحيانًا ترى المتسولين الأحداث، الذكور منهم والإناث، الذين لم يرقوا بعد في المهنة، يتخذون من ذلك المكان مقرًّا لهم، ولكن المشاهد عامة فيه هم أولئك المخلوقات المكدودة الجائعة التي لا مسكن لها ولا مأوى، فتلجأ إلى تلك الزوايا المظلمة في ذلك الموضع المعزول.. تلك المخلوقات المسكينة التي لا تستطيع أن تكفل لأنفسها، الحبل ببنسين!».

وراح المستر بكوك يسأله: «وما هو هذا الحبل ببنسين يا سام؟».

وأجاب سام قائلًا: «الحبل ببنسين يا سيدي هو: وكالة رخيصة الأجور للمبيت، السرير فيها ببنسين اثنين في الليلة...».

قال: «ولماذا يسمون الفراش حبلًا؟».

وأجاب سام بقوله: «بارك الله يا سيدي في سلامة قلبك. إنه ليس فراشًا. وعندما بدأت السيدة والسيد اللذان أسسا هذا الفندق ينظمان عملهما، جعلا المراقد على الأرض، ولكنهما وجدا أن العمل هكذا لا يجدي، فبدلًا من أن يأخذ النزلاء حقهم في النوم نظير بنسين لا أكثر، راحوا يعتادون الرقاد في الفندق نصف يوم، فجاء صاحبا الفندق أخيرًا بحبلين، تفصل كل منهما عن الآخر مسافة ست أقدام، وعن السقف

ثلاث، ويمتدان بعرض الغرفة، والمراقد مصنوعة من خرق من الخيش الخشن مصفوفة على طول الحبلين».

وقال المستر بكوك: «وماذا بعد؟».

قال: «إن مزية هذا الخطة واضحة، ففي كل صباح في الساعة السادسة يسقطون الحبلين من أحد طرفيهما، فيقع النزلاء جميعًا من فوق مضاجعهم، والنتيجة أنهم يستيقظون طبعًا، وينهضون بكل هدوء وينصرفون».

وانقطع سام فجأة عن سياق الحديث الثرثار، قائلًا: «معذرة يا سيدي.. أليست هذه بري سانت إدموندز؟».

وأجاب المستر بكوك: «هذه هي».

وانطلقت المركبة تشق شوارع معبَّدة في وسط بلدة صغيرة جميلة، تلوح عليها سمات الرفاهية والنظافة، ووقفت أمام فندق رحيب يقع في شارع مفتوح واسع، يكاد يواجه الكنيسة القديمة.

وقال المستر بكوك وهو يتطلع إلى الفندق ببصره: «وهذا هو فندق (أنجل) وسنترجل هنا يا سام، ولكن لا بد من الأخذ بشيء من الحيطة. فمر بحجز غرفة خاصة ولا تذكر اسمي، أتفهمني؟».

وقال وهو يغمز بعينه غمزة ذكاء وفهم: «تمامًا يا سيدي» ومضى يجر حقيبة المستر بكوك من الجزء الخلفي الذي ألقيت فيه بعجلة عندما لحقا بالمركبة في «إيتنزول» وانطلق المستر ويلر لإنجاز المهمة التي وكلت إليه، فلم يلبث أن تم حجز غرفة خاصة، ومشى المستر بكوك

إليها دون تأخير.

وقال المستر بكوك: «والآن يا سام، إن أول شيء ينبغي أن تفعله هو...».

فعاجله المستر ويلر قائلًا: «نأمر بإعداد الغداء.. فلقد تأخر عن وقته يا سيدي».

فنظر المستر بكوك إلى ساعته وقال: «آه هذا صحيح، وأنت على حق يا سام».

وأردف المستر ويلر يقول: «وإذا جاز لي أن أقدم نصيحة يا سيدي، قلت وبعد هذا الإخلاد إلى الراحة الليل كله، فلا نبدأ البحث عن ذلك الرجل «العميق» إلا في الصباح، فليس في الدنيا يا سيدي شيء أكثر إنعاشًا للبدن من النوم، كما قالت الخادمة قبل أن تتجرع ملء قشر بيضة من المخدر».

وقال المستر بكوك: «أحسبك مصيبًا فيما تقول يا سام، ولكن يجب أولًا أن أستوثق من أنه في هذا الفندق، وأنه ليس من المرجح أن يهرب أو ينصرف».

وقال سام: «اترك هذه المسألة لي يا سيدي، ودعني آمر لك بغداء طيب خفيف، وأسأل في الطابق الأسفل ريثما يعدون لك الطعام، وأنا كفيل بأن أنتزع أي سر من قلب مسّاح الأحذية في خمس دقائق يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «افعل!».

وفي الحال انصرف المستر ويلر، ولم تنقض نصف ساعة حتى كان المستر بكوك جالسًا إلى طعام شهي، وبعد ثلاثة أرباع الساعة عاد المستر ويلر يقول: «إن المستر شارلز فتز- مارشال أمر بحجز غرفة خاصة له إلى حين صدور أوامر أخرى؛ لأنه سوف يقضي المساء في بعض الدور الخاصة في جوارنا، وأمر بأن ينظف حذاؤه قبل عودته وأخذ خادمه معه».

ولما انتهى المستر ويلر من إبلاغ سيده هذا النبأ، استرسل يقول: «والآن يا سيدي إذا استطعت أن أتحدث مع هذا الخادم هنا في الصباح، فسوف يقول لي كل شيء عن سيده».

وقاطعه المستر بكوك قائلًا: «وكيف تعرف هذا؟».

وأجاب المستر ويلر: «سبحان الله يا سيدي، كل الخدم يفعلون ذلك دائمًا».

وقال المستر بكوك: «آه، لقد نسيت ذلك، وما... ذا بعد..؟».

قال: «وعندها تفكر يا سيدي في خير ما ينبغي عمله، ونحن نقوم بالتنفيذ».

وتبيَّن أن هذا هو أحسن تدبير يصح اتخاذه، فتم أخيرًا الاتفاق عليه، وانصرف المستر ويلر بعد إذن سيده ليقضي المساء كما يهوى، ولم تمضِ لحظات حتى انْتُخِب بإجماع آراء الخدم المجتمعين في الطبقة الأولى من الفندق لتولي كرسي الرياسة، وهو مكان مشرف عرف كيف يدير الجلسة منه، ويشغله بجدارة فائقة، ويكتسب أتم الرضى والارتياح من السادة الأعضاء، حتى لقد ذهبت ضحكاتهم المدوية تخترق مخدع

المستر بكوك، وتقتطع ثلاث ساعات على الأقل من وقت راحته الطبيعية.

وفي بكرة الصباح أخذ المستر ويلر يعالج الآثار الباقية من سهرة الليلة الماضية والإفراط في الشراب، بدفع نصف بنس لقاء أخذ حمام رشاش، بعد أن تيسر له إقناع غلام ملحق بالإسطبل بقبول هذا القدر نظير تشغيل المضخة لترش الماء على رأسه ووجهه، حتى أفاق تمامًا، وإذا هو يلمح فتى في ثوب أحمر من ثياب الخدم جالسًا فوق أريكة في فناء الفندق، يقرأ في كتاب يبدو عليه أنه كتاب «مزامير» وهو مستغرق في القراءة، وإن جعل بين لحظة وأخرى يسترق نظرات إلى الشخص القائم تحت «المضخة»، كأن هذا المنظر قد أثار اهتمامه، رغم انشغاله بقراءة ذلك الكتاب.

وقال المستر ويلر لنفسه: «إنك لمخلوق بديع يطيب للعين أن تنظر إليه». وكانت هذه الخواطر أول ما خطر له حين ألمت عيناه بنظرة ذلك الخادم الغريب في هذا الثوب التوتي اللون، فقد كان وجهه كبيرًا أصفر اللون دميمًا، وعيناه غائرتين، ورأسه ضخمًا، تدلى منه قدر من شعر فاحم.

وعاد المستر ويلر إلى نجواه فقال: «إنك لمخلوق بديع!» ومضى في استحمامه، غير مفكر بعد ذلك فيه.

ومع ذلك فقد ظل الفتى ينظر إلى سام، فيرفع عينيه عن الكتاب ثم يعود بعدئذ إليه، كأنما يريد أن يجاذبه الحديث.

وأخيرًا أنشأ سام يقول بإيماءة مألوفة يقصد بها إعطاءه الفرصة

للكلام: «كيف الحال أيها الحاكم؟».

وأجاب هذا قائلًا بتحفظ بالغ، وهو يطوي الكتاب: «يسعدني أن أقول إنني بخير تام يا سيدي. وأرجو أن تكون كذلك أيضًا».

فقال سام: «لو أني أشعر بأني لا أشبه زجاجة خمر متحركة، لما بدوت مترنحًا كل هذا الترنح في هذا الصباح. هل أنت نازل في هذا الفندق أيها الشيخ الكبير؟».

فأجاب الرجل التوتي الثياب بالإيجاب.

وقال سام وهو يجفف وجهه بالمنشفة: «وإذا كان ذلك فلماذا لم تكن معنا في الليلة الماضية؟.. وأنت ظاهر يبدو أنك إنسان تحب المتعة، وتبدو أنيسًا صاحب مزاج».. وهنا خفض من صوته وانثنى يقول: «كأنك سمكة لوت حية في سلة جير».

وأجاب الغريب: «لقد كنت في الخارج ليلة أمس مع سيدي».

وسأل المستر ويلر وقد احمر وجهه من الحماسة الفجائية واحتكاك المنشفة معًا: «وماذا يدعى؟».

وأجاب الرجل التوتي اللون: «فتز- مارشال».

فتقدم المستر ويلر نحوه وهو يقول: «هات يدك، إني أود معرفتك ويروقني شكلك أيها الزميل القديم».

وقال الرجل التوتي اللون بكل بساطة: «هذا شيء غريب جدًّا. وأنا أيضًا أشعر بميل شديد إليك، حتى لقد أردت أن أكلمك من أول لحظة رأيتك فيها تحت المضخة».

وقال المستر ويلر: «أحقًا؟».

وأجاب الرجل: «نعم، بشرفي، أليس هذا غريبًا؟».

وقال سام وهو يهنئ نفسه بسذاجة هذا الغريب: «شيء مدهش! وما اسمك أيها السيد؟».

قال: «جوب».

ومضى المستر ويلر يقول: «وإنه لاسم حسن جدًّا. إلا أنه اسم لا يشتق منه اسم يتهكم به، فما هو الاسم الآخر؟».

وأجاب الغريب: «تروتر. وما اسمك أنت؟».

وتذكر سام تحذير سيده فأجاب قائلًا: «اسمي ووكر واسم سيدي ويلكنز. ألا تتناول قليلًا من شيء في هذا الصباح يا مستر تروتر؟».

وافق المستر تروتر على هذا الاقتراح اللطيف، فدسَّ كتابه في جيب ردائه، وانطلق مع المستر ويلر إلى غرفة الشراب، ولم يلبثا أن انشغلا بالبحث في اختيار خليط منعش منه، يتألف من مزج مقادير معينة من خمرة الهولاندز البريطانية وروح القرنفل، في إناء من الزنك.

وأنشأ سام يسأل جليسه، وقد ملأ له كأسًا للمرة الثانية: «وأي مكان تشغل عند سيدك؟».

وأجاب جوب وهو يمسح شفتيه بلسانه: «سيئ. مكان سيئ جدًّا».

وقال سام: «أتقول جدًّا؟».

قال: «هذا صحيح، بل أسوأ من هذا، إن سيدي مقدم على الزواج».

- «لا تقل هذا!».

- «بل هو الواقع. وأسوأ منه أيضًا أنه ينوي الفرار بوريثة ثراء ضخم في مدرسة داخلية».

وقال سام وهو يعيد ملء كأس محدثه: «يا له من ثعبان! وأظن أن المدرسة الداخلية هنا في هذه البلدة؟ أليس كذلك؟».

وكان هذا السؤال قد ألقي بلهجة متناهية في الاستخفاف، وقلة المبالاة، ولكن المستر جوب تروتر أبدى من الحركات والإشارات ما ينبئ صراحة بأنه قد فطن إلى فضول صاحبه الجديد، ومحاولته انتزاع رد منه على سؤاله، فأفرغ ما في كأسه، ونظر نظرات غريبة إلى محدثه، وغمز بكلتا عينيه، واحدة بعد الأخرى، وأخيرًا أدى حركة بذراعه، كأنما يدير يد «مضخة» وهمية، موحيًا بتلك الحركة أنه يعد نفسه تحت عملية «امتصاص» يقوم المستر ويلر بها «لفتح» ما في صدره من الأسرار.

وقال المستر تروتر في النهاية: «كلا! كلا! هذا أمر لا يصح أن يقال لكل إنسان. هذا سر، سر عظيم يا مستر ووكر».

وما كاد الرجل «التوتي» اللون ينتهي من هذه العبارة، حتى انثنى يقلب القدح رأسًا على عقب، كأنما يريد تذكير صاحبه أنه لم يعد لديه شيء من شراب يطفئ به ظمأه. ولمح سام تلك الإشارة، وشعر بالحركة الدقيقة التي أديت بها، فأمر بأن يملأ الإناء شرابًا، وعندئذ برقت عينا الرجل «التوتي» الصغيرتان.

وقال سام: «إذن هو سر؟».

وأجاب «التوتي» اللون وهو يتناول رشفة من الشراب، وقد بدا البِشر في وجهه: «أظنه كذلك».

سأل سام صاحبه: «أحسب سيدك عريض الثراء».

وهنا ابتسم المستر تروتر، وأمسك الكأس بيسراه وضرب جيب ردائه أربع ضربات واضحة بيمناه، كأنما يشير بها إلى أن سيده كان من الجائز أن يفعل ذلك دون إحداث إزعاج شديد لأحد بوسوسة أي نقود في جيبه[1].

وقال سام: «آه، أهذه هي اللعبة إذن؟».

فأومأ الرجل التوتي اللون إيماءة ذات مغزى.

واحتج المستر ويلر قائلًا: «حسن. ألا تظن أنك إذا تركت سيدك يختطف هذه الفتاة كنت مجرمًا شقيًّا؟».

وأجاب المستر تروتر، وهو ينظر إلى رفيقه نظرة ندامة بالغة، ويرسل أنّة خافتة: «أعرف ذلك، وهو ما يشغل ذهني و يحرق فكري، ولكن ماذا أفعل؟».

وقال سام: «ماذا تفعل؟ تكشف السر للسيدة وتفضح سيدك».

وأجاب جوب تروتر: «ولكن من الذي سيصدقني؟ إن الفتاة تعد مثالًا مجسمًا للبراءة والفطنة، وسوف تكذبني، وكذلك سوف يفعل سيدي. منذا الذي يصدقني؟ وسأفقد مركزي، وسأتهم بمؤامرة أو شيء من هذا القبيل. هذا هو كل ما سيصيبني من حركة كهذه».

---

(١) أي أن سيده مثله خالي الوفاض.

وفكر سام قليلًا ثم مضى يقول: «في هذا القول شيء معقول، فيه شيء معقول».

ومضى المستر تروتر يقول: «ولو أني وجدت سيدًا محترمًا يتولى هذه المسألة بنفسه، لكان لدي شيء من الأمل في منع هذا الاختطاف، ولكن هنا أيضًا الصعوبة ذاتها يا مستر ووكر. فإني لا أعرف سيدًا في هذا المكان الغريب، ولو وجدت، لما صدق قصتي في الغالب ولأنكرها إنكارًا».

ووثب سام فجأة من مجلسه، وأمسك بالرجل «التوتي» من ذراعه وهو يقول: «تعال معي. إنني أعتقد أن سيدي هو الرجل الذي تريده»، وحاول جوب تروتر الامتناع قليلًا، ولكن سام سار بهذا الصديق الذي اكتشفه حديثًا إلى غرفة المستر بكوك، فقدمه إليه بعد خلاصة موجزة للحديث الذي دار منذ لحظة بينهما.

وقال جوب تروتر، وهو يقرب من عينيه منديلًا قرنفلي اللون يكاد يبلغ ست بوصات مربعة: «إنني ليحزنني كثيرًا يا سيدي أن أخون مخدومي».

وأجاب المستر بكوك: «إن هذا الشعور يشرفك كثيرًا، ولكن هذا هو واجبك على أية حال».

وقال جوب بانفعال شديد: «أعرف يا سيدي أن هذا هو واجبي، وإننا جميعًا نحاول أن نؤدي واجبنا يا سيدي، وأنا بكل خشوع أحاول تأديته، ولكن من التجربة القاسية خيانة عهد سيد ترتدي ثيابه، وتأكل خبزه، ولو

كان في ذاته مجرمًا يا سيدي».

وتأثر المستر بكوك كثيرًا من قول الرجل فقال: «إنك امرؤ خير، وإنسان أمين».

وهنا تدخل سام، وقد رأى الدمع يجول في عيني تروتر، ولكنه لم يطق صبرًا على هذا الموقف، فقال: «كفى، كفى. دع هذا البكاء جانبًا. إنه لا فائدة منه مطلقًا، لا فائدة».

وقال المستر بكوك لخادمه معاتبًا: «يؤسفني يا سام أن أراك قليل المبالاة بشعور هذا الشاب».

وأجاب المستر ويلر قائلًا: «إن شعوره يا سيدي جميل، وما دام الأمر كذلك، ومن الأسف أن يفقده، فمن الخير أن يبقيه في جوانحه، بدلًا من أن يتركه هكذا يتبخر ماء ساخنًا، وخاصة أنه لا فائدة منه ولا نفع، إن الدموع لم تملأ في يوم من الأيام ساعة فارغة، ولا حركت آلة بخارية، وإني لأنصح لك أيها الشاب إذا ذهبت بعد اليوم إلى الجلوس مع جماعة من المدخنين، أن تملأ قصبتك بهذه الفكرة التي شرحتها لك، وأما في اللحظة الراهنة، فأرجوك أن تضع هذا المنديل القرنفلي في جيبك، إنه ليس جميلًا حتى تحتاج إلى تركه هكذا مرفرفًا خفاقًا في الهواء كأنك أحد الراقصين على الحبال».

وقال المستر بكوك مخاطبًا جوب: «إن خادمي على حق، وإن كانت طريقته في التعبير عن رأيه طريقة غير مهذبة، ولهذا تبدو أحيانًا غير مفهومة».

وأجاب المستر تروتر قائلًا: «إنه على حق تمامًا يا سيدي، ولن

أستسلم إلى البكاء بعد الآن».

وقال المستر بكوك: «حسن جدًّا. والآن قل لي: أين هذه المدرسة؟».

وأجاب جوب تروتر: «إنها تقع في بيت كبير قديم العهد خارج المدينة يا سيدي».

وعاد المستر بكوك يسأل: «ومتى ستنفذ هذه الخطة المنكرة؟ ومتى سيتم هذا الاختطاف؟».

وأجاب جوب: «الليلة يا سيدي».

فصاح المستر بكوك قائلًا: «الليلة!».

وعاد تروتر يقول: «نعم! الليلة بالذات يا سيدي، وهذا هو ما يزعجني كثيرًا».

وقال المستر بكوك: «لا بد من اتخاذ تدابير في الحال، وسأذهب على الفور لمقابلة السيدة التي تشرف على تلك المدرسة».

وقال جوب: «معذرة يا سيدي إذا قلت إن هذا التصرف لن يجدي».

قال: «ولماذا؟».

وأجاب تروتر: «لأن سيدي رجل واسع الحيلة داهية».

وقال المستر بكوك: «أعرف ذلك عنه».

ومضى جوب يقول: «وقد استولى على قلب تلك السيدة إلى حد يجعلها لا تصدق شيئًا سيئًا عنه، حتى وإن جثوت عند قدميها وأقسمت جاهدًا أنه لحق، ولا سيما أنك لا تملك دليلًا على صدق ما تقول غير

كلام خادم ستزعم (وسيزعم معها سيدي بالطبع) أنه فصل لبعض خطأ ارتكبه، وأنه إنما قال ذلك انتقامًا وأخذًا بالثأر».

وهنا قال المستر بكوك: «وماذا يحسن أن نفعل إذن؟».

وأجاب جوب قائلًا: «لا شيء يقنع تلك السيدة العجوز غير ضبطه متلبسًا بجريمة الاختطاف يا سيدي».

وعندئذ انبرى المستر ويلر يقول استطرادًا: «آه، ستعود تلك القطط العجائز فتصدم رؤوسها بالأحجار».

وقال المستر بكوك: «أخشى أن يكون ضبطه متلبسًا أمرًا من الصعب جدًّا تنفيذه».

وأجاب المستر تروتر بعد تفكير قائلًا: «لا أعرف يا سيدي، ولكني أعتقد أنه سهل غاية في السهولة».

قال: «وكيف؟».

وأجاب الخادم: «سنختبئ أنا وسيدي في المطبخ في العاشرة ليلًا، بعد أن تم لنا الاتفاق مع الخادمين في المدرسة، فإذا أوى القوم إلى مضاجعهم، خرجنا من المطبخ، وجاءت الفتاة من غرفة النوم، وستكون مركبة في انتظارنا بالباب، فنمضي بها مسرعين».

وقال المستر بكوك: «ثم ماذا؟».

وأجاب تروتر: «لقد فكرت في طريقة، وهي أن تكون أنت يا سيدي في انتظار خروجنا مختبئًا في الحديقة وحدك».

وقال المستر بكوك: «ولماذا أكون وحدي؟».

وأجاب تروتر قائلًا: «أعتقد أنه من الطبيعي جدًّا أن السيدة العجوز لا ترضى أن تحدث فضيحة أليمة كهذه أمام أشخاص أكثر مما ينبغي، ولا بد أيضًا من مراعاة شعور الفتاة».

وقال المستر بكوك: «أصبت، إن هذا التفكير يدل على رقة شعورك، امض في حديثك، فأنت مصيب كل الصواب».

ومضى تروتر يقول: «لقد بدا لي كذلك يا سيدي إنك إذا انتظرت في الحديقة الخلفية وحدك، وجئت أنا فأدخلتك من الباب المفضي إليها من طرف الدهليز في تمام التاسعة والنصف، فسوف يكون دخولك على هذا النحو في الوقت المناسب لمعاونتي على إفساد خطة هذا الرجل الشرير الذي وقعت لسوء حظي في شركه».

وهنا زفر المستر تروتر زفرة من الأعماق.

وقال المستر بكوك مواسيًا: «لا تزعج خاطرك من هذه الناحية، فلو أنه أوتي ذرة واحدة من رقة الشعور التي امتزت بها، على ضعة شأنك، لكان في نفسي بعض الأمل في صلاح أمره».

وهنا انحنى جوب تروتر انحناءة بالغة، ووثبت الدموع مرة أخرى إلى عينيه رغم احتجاج المستر ويلر كما أسلفنا عليك.

وقال سام مرة أخرى: «لم أشهد في حياتي إنسانًا كهذا، يلعنني الله في كل كتاب إذا لم يكن في رأسه صنبور دموع لا ينقطع عن السيل».

فانتهره المستر بكوك قائلًا: «أمسك يا سام عليك لسانك».

وأجاب المستر ويلر: «سأفعل يا سيدي».

وعاد المستر بكوك يقول بعد تفكير طويل: «لست راضيًا عن هذه الخطة، لماذا لا أتصل بأهل هذه الفتاة؟».

وأجاب تروتر قائلًا: «لأن أهلها يقيمون على بعد مائة ميل من هذا الموضع يا سيدي».

وقال المستر ويلر في نفسه في ناحية: «جواب مسكت!».

وعاد المستر بكوك يقول: «وكيف يتواتى لي دخول تلك الحديقة؟».

وأجاب تروتر: «إن الجدار خفيض يا سيدي، وفي إمكان خادمك أن يعاونك على الصعود».

وقال المستر بكوك يردد هذه العبارة بغير تفكير: «سيتمكن خادمي من معاونتي على الصعود، وهل أنت واثق أنك ستكون بقرب الباب الذي تحدثت عنه؟».

وأجاب تروتر: «لن تخطئ في الاهتداء إليه يا سيدي، فهو الباب الوحيد الذي يفتح على الحديقة، وما عليك إلا أن تطرقه طرقة خفيفة حين تسمع الساعة تدق، فأفتحه لك في الحال».

وقال المستر بكوك: «لست عن هذه الخطة راضيًا، ولكن ما دمنا لا نجد غيرها، وما دامت سعادة هذه الفتاة ومصير حياتها كله في خطر على هذا النحو، فلأتخذها، وسأكون حتمًا في ذلك المكان».

وهكذا للمرة الثانية نرى طيبة المستر بكوك تورطه في مشروع كان أحب إلى نفسه أن يكون بمنأى عنه.

قال: «وما اسم البيت؟».

وأجاب تروتر قائلًا: «وستجيت هاوس يا سيدي. وما عليك إلا أن تنعطف يمنة عند خروجك من حدود البلدة، فتراه قائمًا بمعزل على قيد خطوات من الطريق العام، وتجد اسمه مكتوبًا على لوح نحاسي فوق الباب».

وقال المستر بكوك: «أعرفه، لقد رأيته مرة من قبل عندما كنت في هذه البلدة، لتثق إذن بي».

وهنا انحنى المستر تروتر مرة أخرى وتولى لينصرف، وإذا بالمستر بكوك يلقي جنيهًا في كفه قائلًا: «إنك لإنسان بديع، وإني لمعجب بطيبة قلبك، لا شكر، تذكر الحادية عشرة».

وانصرف من الحجرة يتبعه سام.

وأجاب المستر تروتر: «لا خوف من أن أنساه يا سيدي».

وقال هذا لصاحبه حين خرجا: «لم يكن بكاؤك فكرة سيئة. إني لمستعد أن أبكي سيلًا كالمطر، إذا كان هذا هو الشرط. كيف تيسر ذلك لك؟ قل لي بالله عليك؟».

وأجاب جوب بلهجة الجد: «إنه ينبعث من القلب يا مستر ووكر. طاب صباحك يا سيدي».

وقال سام في نفسه، عقب انصراف صاحبه: «أنت عميل لطيف. ولقد أخرجنا كل ما في صدرك على كل حال».

وليس في إمكاننا أن نبيِّن طبيعة الأفكار التي خطرت ببال المستر تروتر تمامًا؛ لأننا نعرف ما هي.

وانقضى النهار، وآذن المساء، وجاء سام ويلر قبيل العاشرة ينبئ سيده أن المستر جنجل وجوب خرجا معًا، وأنهما قد حزما أمتعتهما، وطلبا إعداد مركبة، وبدا أن الخطة أخذت تسير في دور التنفيذ كما قال المستر ترونر.

وبلغت الساعة العاشرة والنصف، وهو الموعد الذي اتفق على خروج المستر بكوك فيه لتنفيذ مهمته الدقيقة، وعرض عليه سام أن يرتدي معطفه الكبير، ولكنه لم يستجب لإلحاحه؛ حتى لا يعوقه عائق عن تسلق الجدار، وخرج يتبعه خادمه.

وكانت الليلة قمراء، ولكن ضياء القمر كان محتجبًا خلف السحب، والليل صافٍ بديع، ولكن الظلام كان شديدًا على غير المألوف، وقد غمرت الحلكة الدروب والسياج والحقول والدور، ولفتها جميعًا في ظُلَل من فوقها ظُلَل، وكان الجو حارًّا يرهق الأنفاس، وبرق الصيف يرعش خافتًا على حافة الأفق، وكان هو المشهد الوحيد الذي يتباين والوجوم البليد الذي يغمر كل شيء فيه، ولم يكن ثمة صوت ولا جرس، إلا صدى عواء كلب مستيقظ مسهد في حراسة بيت بعيد.

واهتديا إلى المبنى المنشود، وقرأ اللوح النحاسي، وسارا حول الجدار، ووقفا عند ذلك الجزء منه الذي يفصل بينهما وبين الحديقة من الخلف.

وقال المستر بكوك: «أما أنت فتعود يا سام إلى الفندق، بعد أن تعاونني على التسلق».

- «أمرك يا سيدي».

- «وتظل ساهرًا حتى أعود».

- «بكل تأكيد يا سيدي».

- «خذ برجلي، وحين تسمعني أقول «فوق» فارفعني برفق».

- «سأفعل يا سيدي».

ولما انتهى المستر بكوك من هذه المقدمات، أمسك بقمة الجدار، وأعطى الأمر «فوق» فنفذه سام بالحرف، وسواء كان جسم المستر بكوك قد شارك إلى حد ما عقله في مرونته، أو كانت فكرة المستر ويلر عن «الدفع برفق» لم تخل نوعًا ما من الخشونة، وتختلف قليلًا مع الوصف الذي وصفه به المستر بكوك، فإن التأثير المباشر للمساعدة التي قدمها هو «تطويح» ذلك الرجل الخالد من فوق الجدار بجملته إلى الأرض المنبسطة وراءه، حيث حطم في نزلته السريعة ثلاث شجيرات من التوت وشجرة ورد، وهو يسقط بطوله كله فوق الثرى آخر الأمر.

وقال سام في همس ظاهر، بعد أن أفاق من الدهشة التي تولته على أثر اختفاء سيده عن ناظره: «أرجو يا سيدي ألا تكون قد أصبت نفسك بأذى».

وأجاب المستر بكوك من الجانب الآخر للجدار: «لم أصب نفسي بأذى يا سام طبعًا، ولكني أعتقد أنك أنت الذي فعلتها».

وقال سام: «أملي أن لا أكون يا سيدي».

ونهض المستر بكوك من «الوقعة» وقال: «لا عليك، لم يحدث غير

بضعة خدوش، هيا انصرف وإلا سمعوا أصواتنا».

- «إلى اللقاء يا سيدي».

- «إلى اللقاء».

وانصرف سام ويلر مسترق الخطى تاركًا المستر بكوك وحده في الحديقة.

وكانت الأنوار تبدو بين لحظة وأخرى من نوافذ البيت وشرفاته، إذ تنبعث من مدارج السلم، كأنما أوى القوم إلى المضاجع، ولم يشأ المستر بكوك أن يقترب كثيرًا من الباب، قبل أن يحين الموعد المضروب، فانزوى متسللًا في ركن من الجدار وانتظر اللحظة المعينة.

وكان من المحتمل أن يُحدِث موقفٌ كهذا انقباضًا في نفوس كثير من الناس، ولكن المستر بكوك لم يكن مع ذلك يشعر بأي انقباض أو «تطير»، فقد كان يعلم أن غرضه في الجملة طيب، وقد وضع كل ثقته في جوب الطيب الشعور، وليس من شك في أن الموقف كان ثقيلًا، إن لم نقل «رهيبًا»، ولكن في إمكان الرجل المفكر أن يتدبر الأمور في كل حين، فلا عجب إذا أسلمه التفكير إلى سرحة عابرة، لم يلبث نواقيس الكنيسة وهي تدق الحادية عشرة والنصف أن أيقظته منها، فاستوى على قدميه بحذر وهو يقول في نفسه: «هذا هو الموعد»، ورفع عينيه يتطلع إلى البيت، فإذا الأنوار قد انطفأت، وخشب النوافذ قد أُغلِق، ، فأدرك أن القوم بلا شك قد أووا إلى مراقدهم، فمشى على أطراف قدميه إلى الباب، فدقه دقة خفيفة، ومرت دقيقتان أو ثلاث دقائق ولم يتلقَ جوابًا،

فعاد يطرقه طرقة أوضح من تلك قليلًا، ثم دقة ثالثة أكثر منها وضوحًا.

وأخيرًا سمع مواقع أقدام على السلم، وإذا ضياء شمعة ينبعث من ثقب مفتاح الباب، وطرق أذنه صوت سلاسل تُفَك، ومزلاج يُرفَع، وإذا الباب يُفتَح ببطء.

وكان فتح الباب إلى الخارج، وكلما اتسعت فتحته ازداد المستر بكوك تراجعًا خلفه وانزواءً، ولشد ما كانت دهشته حين أطلَّ بعينه على سبيل الحذر والاحتياط؛ فتبين أن الشخص الذي فتحه لم يكن جوب تروتر، بل خادمة تحمل في يدها شمعة، فأرجع المستر بكوك رأسه إلى الوراء، بتلك السرعة البالغة التي عُرِفت عن ذلك الممثل البارع البديع «بنتش»، حين يقف مترصدًا لذلك الممثل الهزلي المفرطح الرأس الذي يحمل صندوقًا من القصدير يحوي آلة موسيقية.

وقالت الفتاة، تخاطب أخرى من داخل البيت: «لا بد من أن تكون القطة يا سارة».

ولما لم تجد حيوانًا مثلها يعبث بالباب، عادت في رفق تغلقه، وتعيد مزلاجه إلى موضعه، تاركة المستر بكوك لاصقًا بالجدار.

وراح المستر بكوك يقول في نفسه: «هذا شيء غريب جدًّا! أحسبهن ساهرات إلى ما بعد الوقت المألوف. يا للخيبة المتناهية! أن يخترن هذه الليلة دون سواها، وهي التي جئت فيها لتحقيق ذلك الهدف. حظ سيئ كل السوء».

وعاد بكل حذر إلى الركن الذي كان من قبلُ مختبئًا فيه، منتظرًا

ريثما يتبين أن لا خوف من تكرار الإشارة.

ولم تنقضِ خمس دقائق عليه في ذلك الموضع، حتى رأى برقًا خاطفًا يلتمع فجأة في الفضاء، ثم يعقبه قصف رعد شديد تتردد أصديته بعيدًا، ويُحدِث ترددها صوتًا مروعًا، وإذا برق آخَر ينبعث أبهر ضياء من الأول، ثم يتلوه رعد أشد قصفًا من سابقه، وإذا المطر ينهمر بقوة مكتسحة كل شيء أمامها.

وكان المستر بكوك يعلم حق العلم أن من الخطر الاحتماء من الصواعق بجوار شجرة، وكانت عن يمينه واحدة، وعن شماله أخرى، وثالثة قائمة قبالته، ورابعة من خلفه، فإذا هو لبث في مكانه، فقد يقع ضحية حادث، ولو بدا في بهرة الحديقة، فقد يسلمونه إلى الشرطي، فراح يحاول مرة أو مرتين تسلق الجدار، ولكنه لم يجد في هذه المرة من سيقان ترفعه إلى أعلى غير الساقين اللتين أنعمت الطبيعة بهما عليه، ولا نتيجة لهذه المحاولة غير إصابته بسحجات أليمة في ركبتيه، وخدوش منوعة في قصبتيهما، وإجهاد قواه إلى حدٍّ جعل العرق يتصبب غزيرًا من جميع أطراف بدنه.

وقال المستر بكوك لنفسه وقد وقف ليمسح عرقه بعد ذلك المجهود: «يا له من موقف مروع!» وتطلع ببصره إلى البيت فوجد الظلام يغمره من جميع أرجائه، فاعتقد أن القوم لا بد أن يكونوا قد عادوا إلى مضاجعهم، فليجرب الإشارة مرة أخرى.

ومضى على أطراف أصابع قدميه فوق الحصباء الندية، وطرق الباب، وأمسك بأنفاسه وأنصت إلى ثقب المفتاح، ولكنه لم يسمع جوابًا. هذا أمر غريب كل الغرابة. ودق أخرى، ومضت ثانية، فبلغ سمعه

همس خافت من الداخل، ثم صوت يصيح: «من هذا؟».

وقال المستر بكوك في نفسه: «ليس هذا صوت جوب». وتراجع في الحال إلى الجدار: «هذا صوت امرأة!».

ولم يكد يصل بتفكيره إلى هذه النتيجة، حتى انفتحت نافذة فوق السلم، ورددت ثلاث أو أربع نسوة السؤال عينه: «من هذا؟».

ولم يجرؤ المستر بكوك على تحريك يد أو قدم، فقد تبيَّن له أن القوم جميعًا قد هبوا من نومهم، فاعتزم البقاء في موضعه حتى يهدأ ذلك الفزع، ثم يحاول بجهد يفوق الطبيعة تسلق الجدار، أو يهلك دونه.

وكانت هذه العزيمة ككل عزمات المستر بكوك خير وسيلة تُتَّخَذ في هذا الموطن، ولكنها كانت لسوء الحظ مبنية على افتراض أن القوم لن يجرؤوا على فتح الباب مرة أخرى، ولشد ما كانت حيرته حين سمع أصوات السلاسل والمزالج وهي تُرفَع، وشهد الباب ينفتح شيئًا فشيئًا، فتراجع إلى الركن خطوة فخطوة، ولكن جسمه- على كل حال- حال بين فتح الباب على سعته.

وتعالت أصوات عدة من السلم تقول: «من هناك؟».

وكانت هذه الأصوات تتألف من أصوات السيدة العانس ربة البيت، وثلاث معلمات، وخمس خادمات، وثلاثين طالبة، وكلهن أنصاف عاريات، وفي غابة من الجدائل الملففة المعقوصة في قلانس من الورق.

وبالطبع لم يقل المستر بكوك مَنْ هو الذي كان هناك، وإذا نغمة الصيحات تتحول إلى نغمة جديدة، وهي: «رباه.. إنني خائفة!».

وصاحت الراهبة المديرة، وقد توخت الوقوف في أعلى السلم، أو في المؤخرة: «أيتها الطاهية! لماذا لا تدخلين الحديقة قليلًا لكي تبحثي؟».

وأجابت الطاهية: «من فضلك يا سيدتي، لا أحب ذلك!».

وصاحت الطالبات الثلاثون قائلات: «يا إلهي ما أغبى هذه الطاهية!».

وعادت الراهبة تقول بجد وجلال: «يا طاهية، لا تردي عليَّ من فضلك، إني أصر على دخولك الحديقة في الحال؛ لتبحثي عمن فيها».

وهنا بدأت الطاهية تبكي، وقالت خادم البيت: «إن هذا لعار شديد تستحق عليه إنذار شهر في الحال».

وقالت السيدة الراهبة، وهي تضرب الأرض بقدميها نافدة الصبر: «هل سمعت يا طاهية؟».

وقالت المعلمات الثلاث: «ألا تسمعين كلام سيدتك أيتها الطاهية؟».

وصاحت الطالبات: «ما أوقح هذه الطاهية!».

وعندئذٍ لم يسع الطاهية المسكينة بعد كل هذا الإلحاح الشديد عليها إلا أن تتقدم خطوة أو خطوتين، وترفع شمعتها إلى وضع يحول بينها وبين رؤية شيء مطلقًا، وقالت إنها لم تجد أحدًا هناك، وإنه لا بد أن يكون ذلك الصوت الذي سمعته هبة الريح، وكاد الباب يغلق مرة أخرى، لولا أن طالبة فضولية كانت واقفة تنظر من خلال «مفصلات» الباب،

أطلقت عندئذ صرخة مخيفة، عادت على أثرها الطاهية، والخادمة والطالبات الجريئات أكثر من أترابهن مبادرات إلى الموضع.

وصاحت السيدة الراهبة في اللحظة التي بدأت فيها الطالبة الصارخة تنطلق في نوبة تشنجية قوة أربع بنات: «ما الذي جرى لمسز سميذرز؟».

وصاحت الطالبات التسع والعشرون في نفس واحد: «رباه مسز سميذرز! يا ويلتاه!».

وصرخت مس سميذرز قائلة: «الرجل، الرجل الواقف خلف الباب!».

ولم تكد السيدة الراهبة تسمع هذه الصرخة المروعة حتى ارتدت عائدة إلى مخدعها، وأحكمت إغلاق الباب، وأغمي في هدوء عليها، كما تراجعت الطالبات والمعلمات والخادمات متدافعات إلى السلم متساقطات، وأخذن في صياح وإغماء، وتدافع لا مثيل له، وفي وسط هذه الضجة خرج المستر بكوك من مخبئه ووقف بينهن، وهو يقول: «أيتها السيدات.. أيتها السيدات العزيزات!».

وقالت إحدى المعلمات، وهي أكبرهن سنًّا وأكثرهن دمامة وقبحًا: «إنه يدعوننا بالعزيزات. آه، من الشقي!».

وصاح المستر بكوك مستيئسًا من حرج موقفه: «أيتها السيدات، أصغين لقولي، أنا لست لصًّا، ولكني أريد أن أتحدث إلى ربة البيت».

وصرخت معلمة أخرى قائلة: «أواه. يا له من وحش مفترس، يقول إنه يريد الكلام مع مس تومكنز!».

وهنا ارتفع صياح عام.

وصاحت عدة أصوات: «ليدق أحد جرس الخطر!».

وصرخ المستر بكوك قائلًا: «لا تفعلن! لا تفعلن! انظرن إليَّ، هل أبدو كما يبدو اللص! يا سيداتي العزيزات. لكن في وسعكن أن تشددن وثاقي أو تحبسنني في مكان ضيق، وإنما اسمعن لما أريد أن أقوله، أصغين لي».

وقالت الخادمة متلعثمة: «كيف جئت إلى حديقتنا؟».

وأجاب المستر بكوك وهو يجهد رئتيه إلى نهاية قواهما: «ادعين لي ربة البيت وأنا سأحدثها عن كل شيء، كل شيء، نادينها، ولكن لا تصرخن، وستسمعن الحكاية كلها».

وعندئذٍ بدأ فريق من العاقلات فيهن لا يتجاوز عددهن أربعًا يثبن نوعًا ما إلى الهدوء، وقد يكون مردُّ ذلك إلى مظهر المستر بكوك نفسه، أو إلى سلوكه الذي وصفناه، أو إلى اللهفة التي لا يستطيع عقل المرأة مغالبتها، ونعني بها الرغبة الشديدة في سماع شيء يبدو في تلك اللحظة سرًّا مرهوبًا، ومضين يقترحن عليه، للتدليل على صدقه وإخلاصه، أن يذعن لما يطلبن إليه، ورضي ذلك السيد أن يعقد مؤتمرًا مع مس تومكنز في داخل غرفة صغيرة اعتادت طالبات القسم النهاري أن يعلقن فيها قبعاتهن، وحقائب غذائهن، فتقدَّم في الحال إلى تلك الغرفة طائعًا مختارًا، وأغلق الباب عليه لتطمئن قلوبهن، وما لبث هذا التصرف أن أنزل السكينة على أفئدة الأخريات، وجيء بالسيدة الراهبة من مخدعها،

وابتدأ المؤتمر.

وقالت مس تومكنز بصوت خافت: «ماذا كنت تفعل في الحديقة أيها الرجل؟».

وأجاب المستر بكوك من جوف محبسه: «جئت لأنبهك يا سيدتي بأن إحدى البنات هنا ستختطف الليلة».

وصرخت مس تومكنز والمعلمات الثلاث والطالبات الثلاثون والخادمات الخمس معًا: «ستختطف! ومن هذا الذي سيختطفها؟».

قال: «صديقك المستر شارلز فتز- مارشال».

قالت: «صديقي! لا أعرف شخصًا بهذا الاسم».

قال: «إذن فلأدعه باسمه الآخر، المستر جنجل».

قالت: «لم أسمع بهذا الاسم في حياتي».

قال: «إذن لقد غرر بي، وخدعت وكنت ضحية مؤامرة، دنيئة حقيرة، أرسلي أحدًا إلى فندق «أنجل» يا سيدتي إذا لم تكوني مصدقتي. أرسلي إلى ذلك الفندق من يدعو خادم المستر بكوك. أتوسل إليك أن تفعلي يا سيدتي».

وقالت مس تومكنز للمربية الكاتبة الحاسبة: «لا بد أن يكون رجلًا محترمًا، ما دام له خادم خاص».

وأجابت المربية قائلة: «إن رأيي يا مس تومكنز هو أن خادمه هو الذي يحرسه، وأظن أنه مجنون يا مس تومكنز والآخر حارسه!».

وأجابت مسز تومكنز: «أحسبك على حق يا جوين، فلتذهب خادمتان إلى فندق «أنجل» ولتبق الأخريات هنا لحمايتنا».

وأوفدت خادمتان على عجل إلى الفندق للبحث عن صمويل ويلر، وتخلفت الخادمات الثلاث لحماية تومكنز، والمعلمات الثلاث، والطالبات الثلاثين، بينما جلس المستر بكوك في الغرفة تحت حقائب الشطائر، ينتظر عودة الرسولين بكل ما استطاع أن يستجمع من الفلسفة والصبر والجَلَد لنجدته.

وعادتا بعد ساعة ونصف ساعة، وتبين بكوك عندئذٍ أن هناك إلى جانب صوت صمويل ويلر صوتين آخَرين، أحدهما مألوف لسمعه، ولكنهِ لا يدري لِمَنْ هو، ولا يذكر مطلقًا صاحبه.

وجرى حديث موجز، وفُتِح الباب، وخرج بكوك من المحبس، فوجد نفسه في حضرة أهل البيت جميعًا، وصمويل ويلر، والسيد الكبير واردل، وخطيب ابنته العتيد تراندل.

وجرى المستر بكوك نحو واردل فتناول يده مصافحًا، وهو يقول: «أهلًا يا صديقي العزيز. بحق السماء اشرح لهذه السيدة الموقف السيئ الحرج الذي أنا فيه، فلا بد أنك قد سمعت به من خادمي. قل على كل حال يا عزيزي أنني لست لصًّا ولا أنا بمجنون!».

وأجاب المستر واردل وهو يهز يد صديقه اليمنى بينما راح المستر تراندل يهز اليسرى: «لقد قلت ذلك يا صديقي العزيز. قلته قبل الآن!».

وتدخل المستر ويلر وهو يتقدم خطوة قائلًا: «ومن يقول هذا أو قاله،

فإنما يقول كذبًا، ولا ينطق حقًّا، بل أبعد ما يكون من الحق.. بل العكس تمامًا.. وإن كان في هذا البناء رجال قالوا ذلك، مهما يكن عددهم، فإني ليسرني أن أقدم إليهم دليلًا مقنعًا كل الإقناع بأنهم مخطئون، هنا في هذه الغرفة ذاتها، إذا تكرمت السيدات المحترمات فانصرفن منها، وأمرن أولئك الرجال أن يأتوا إليَّ واحدًا بعد الآخر».

وبعد أن فرغ المستر ويلر من إلقاء هذا التحدي بذلاقة بالغة، راح يضرب كفه المبسوطة بقبضة يده الأخرى، مؤكدًا بهذه الحركة قوله، ويغمز بعينيه مسرورًا مداعبًا المس تومكنز التي لا يستطيع أحد وصف مدى رعبها؛ لظنه أنه من المحتمل أن يكون ثمة رجال في مدرستها المقصورة على البنات دون سواهن.

وانتهى المستر بكوك سريعًا منشرح الحادث إلى حد ما، ولكنه في عودته إلى الفندق مع أصحابه، وجلوسه إلى نار مشبوبة، وعشاء هو أحوج ما يكون إليه، لم يقل شيئًا، ولم تستطع ملاحظة واحدة من جانب أصحابه استخلاص قول منه، فقد بدا مذهولًا سابح الخاطر شاردًا، وإن التفت مرة أو مرتين إلى المستر واردل فقال: «كيف أتيت إلى هنا؟».

وأجاب واردل بقوله: «لقد أتينا أنا وتراندل إلى هنا طلبًا للقنص، ووصلنا الليلة ودهشنا عندما علمنا من خادمك أنك هنا أيضًا» وراح الشيخ يربت على ظهره وهو يقول: «وإني لمغتبط بلقائك، وسنستمتع برحلة بهيجة إلى الصيد في أول الموسم «سبتمبر» ونهيئ لونكل فرصة أخرى. فما رأيك يا صاح؟».

فلم يحر المستر بكوك جوابًا، بل لم يسأل عن أصدقائه في «دنجلي

ديل»، ولم يلبث أن آوى إلى غرفته، وأمر سام بأن يحضر الشموع إذا هو دق الجرس له.

ودق الجرس في الوقت المناسب، ومثل المستر ويلر في حضرة سيده.

وتطلع المستر بكوك إليه من تحت الأغطية قائلًا: «يا سام».

قال: «نعم يا سيدي».

وسكت المستر بكوك لحظة وأوقد المستر ويلر الشمعة.

وعاد المستر بكوك ينادي قائلًا: «يا سام»، كأنما يبذل مجهودًا بالغًا.

وأجاب المستر ويلر مرة أخرى: «نعم يا سيدي».

- «أين هذا الرجل الذي يدعى تروتر؟».

- «أتعني جوب يا سيدي؟».

- «نعم».

- «ذهب يا سيدي».

- «أظن مع سيده؟».

- «مع صاحبه أو سيده أو كائنًا من يكون، لقد ذهب معه، لعنة الله عليهما معًا يا سيدي».

وقال المستر بكوك وهو يكاد يختنق: «لقد فطن جنجل إلى خطتي، فدس عليك ذلك المخلوق واخترع لك تلك القصة. هذا هو رأيي».

وأجاب المستر ويلر: «هو ذلك تمامًا يا سيدي».

- «وكان كل ذلك كذبًا وبهتانًا».

- «كله يا سيدي! حيلة مسبوكة يا سيدي، لهروب فني محبوك».

وقال المستر بكوك: «لا أظنه سيهرب منا بهذه السهولة في المرة القادمة يا سام؟».

- «لا أظنه يا سيدي».

ونهض المستر بكوك متحاملًا في فراشه وضرب وسادته بقبضة يده، قائلًا: «إذا قدر لي يومًا أن ألتقي بهذا الرجل، في أي مكان، فسأوقع عليه عقابًا بدنيًّا إلى جانب الفضيحة التي يستأهلها إلى حد بعيد، سأفعلن، وإلا لما كنت أدعى بكوك!».

وقال سام: «وإذا أنا أمسكت بذلك المخلوق المكتئب الحزين الأسود الشعر، فلن أدعى ويلر إن لم أجلب دموعًا حقيقية إلى عينيه، ولو مرة في العمر، طاب ليلك يا سيدي».

* * *

# الفصل السابع عشر

## يبين كيف تكون الإصابة «بالنقرس» في بعض الأحيان حافزًا لعبقرية الابتكار والابتداع

لم تكن بِنْيَةُ المستر بكوك- رغم مقدرتها على احتمال قدر كبير من الجهد والإعياء- منيعةً ضد تلك الهجمات المجتمعة التي قاساها في تلك اللية المشهودة التي وصفناها في الفصل الماضي، فقد كان البلل الذي أصابه من تلك الليلة العاصفة المطيرة، والاحتجاز في غرفة ضيقة، خطرين كما هما فريدان في ذاتهما، فلا عجب إذا هو اعتكف في فراشه من وطأة النقرس.

ولكن إذا كانت القوى البدنية التي أوتيها ذلك الرجل العظيم قد تعرضت للتلف على هذا النحو، فقد ظلَّتْ قواه الذهنية محتفظة بشدة بأسها، ومرونتها الطبيعية؛ إذ كانت المرونة غالبة على قواه المعنوية، فلم يلبث أن استرد روحه الفكهة، حتى لقد توارى من خاطره ذلك الغيظ الذي أحسه عقب تلك المخاطرة الأخيرة التي أقدم عليها، فاستطاع أن يشارك في الضحك الصادق المنبعث من القلب، لكل تلميح أو إشارة

تثيره في نفس صاحبه المستر واردل، دون غضب أو ارتباك، بل أكثر من هذا، أن سام ظل ملازمًا خدمته طيلة اليومين اللذين اعتكفهما في فراشه، فحاول في اليوم الأول الترويح عن سيده بالنوادر والأحاديث، ولكن المستر بكوك طلب في اليوم الثاني مسندًا وقلمًا ودواة، ولبث طيلة اليوم منهمكًا في الكتابة، وفي اليوم الثالث استطاع الجلوس في غرفته، وأوفد خادمه برسالة إلى المستر واردل والمستر تراندل يقول فيها: إنه ليسره السرور كله إذا تفضَّلَا بتناول شرابهما في حجرته في ذلك المساء، وجاء الرد بقبول الدعوة مع أجزل الشكر، وما إن جلسا إلى النبيذ واطمأن بهما المجلس، حتى أخرج المستر بكوك على استحياء القصة الصغيرة التالية، قائلًا إنه هو الذي أشرف على صياغتها وتحريرها بنفسه من واقع الملاحظات التي دوَّنها لما سمعه من رواية المستر ويلر بفطرته الساذجة، وسليقته البريئة.

## قس الأبرشية: قصة حب صادق

كان في سالف الدهر، وفي بلدة صغيرة بسواد الريف، تبعد كثيرًا من لندن، رجل قصير القامة يدعى «نثنايل بيبكن» يشتغل في أبرشية البلدة، ويقيم في بيت صغير في شارعها المتواضع الذي لم يكن يبعد عن الكنيسة أكثر من مسيرة عشر دقائق. وكان أكثر نهاره- من التاسعة إلى الرابعة- يقوم بتعليم الأطفال الصغار شيئًا من العلم، وكان نثنايل بيبكن هذا مخلوقًا وديعًا لا أذاة منه، ولا عدوان على أحد من جانبه، طيب القلب، سليم الطوية، له أنف مرتفع إلى أعلى، وساقان ملتويتان إلى الداخل، وفي عينيه حول، وفي مشيته عرج، وقد مضى يقسِّم وقته

بين الكنيسة والمدرسة، معتقدًا عن يقين أن ليس على وجه الأرض رجل في مثل براعة راعي الأبرشية وذكائه، ولا مكان أروع من قاعة الصلاة فيها، ولا مدرسة في مثل نظام مدرسته وحسن تنسيقها، ولم يكن «نثنايل بيبكن» قد رأى غير مرة واحدة في حياته فقط أسقفًا، أسقفًا حقيقيًّا في أردان خضر، وشعر مستعار، فقد شهده وهو يمشي، وسمعه وهو يتحدث في تثبيت العماد حتى لقد استولى على نثنايل بيبكن في تلك المناسبة الجليلة، من فرط الرهبة والروع، حين ألقى الأسقف يده فوق رأسه، ما جعله يغمى في الحال عليه، فيحمله الشماس بين ذراعيه ويخرج به من الكنيسة.

لقد كان ذلك حدثًا عظيمًا، وعهدًا مشهودًا، في حياة «نثنايل بيبكن» بل كان الحدث الأوحد الذي أزعج تيار حياته الهادئة، حتى حدث في ذات أصيل رائق أن حانت منه وهو شارد الخاطر، نظرة، بينما كان مكبًّا على لوح «الإردواز» ليفكر في مسألة حسابية يعطيها لصبي عقابًا له على خطأ ارتكبه، وإذا تلك النظرة تستقر فجأة على مُحَيًّا فتاة صبيحة تدعى «مرايا لوبز» وهي الابنة الوحيدة للشيخ لوبز صانع السروج الكبير الذي تقع داره في الناحية المقابلة، وكانت عينا المستر بيبكن كثيرًا ما استقرتا من قبلُ، في الكنيسة وغيرها، على وجه مرايا المليح، ولكن عيني مرايا لوبز لم تبدوا قبل هذه المرة في مثل بهائهما وبريقهما، ولا لاح خداها يومًا في مثل تلك الحمرة التي بدت بهما في تلك المرة بالذات؛ فلا عجب إذا لم يستطع نثنايل بيبكن أن يرد عينيه عنهما، ولا غرو إذا هي تراجعت عن النافذة التي كانت تطل منها، حين رأت شابًّا يطيل النظر

إليها، وأغلقتها وأسدلت الستار، ولا غرابة أيضًا إذا راح نثنايل بيبكن بعد ذلك مباشرة ينقضُّ على ذلك الصبي الصغير المخطئ فيوسعه ضربًا، ويمرغه تمريغًا؛ شفاءً لغليله، ولم يكن في ذلك كله من عجب، فقد كان شيئًا طبيعيًّا جدًّا لا غرابة فيه.

ولكن العجب مع ذلك أن امرأً في مثل طبيعة المستر بيبكن وانزوائه، وعصبية مزاجه، وقلة موارده خاصة، بدأ من ذلك اليوم يجرؤ على التطلع إلى خطبة يد تلك الابنة الوحيدة التي رُزِق بها الشيخ لويز الحاد الطباع، والطمع في كسب قلبها، وهي ابنة ذلك «السروجي» العظيم، الذي كان في وسعه أن يشتري القرية كلها بجرة قلمه دون أن يشعر بأنه أنفق شيئًا، ذلك الشيخ «لويز» الذي عرف عنه أنه يملك أموالًا طائلة مودعة في المصرف القائم في «البندر» المجاور.. وذلك الشيخ الذي قيل إنه يختزن كنوزًا لا تُعد ولا تنفد، في تلك الخزانة الصغيرة ذات المفتاح الضخم القائمة فوق «الطنف» في الحجرة الخلفية من البيت، ذلك الشيخ الذي تسامع الناس عن مآدبه وولائمه، وكيف كانت موائده تزدان بآنية شاي من الفضة الخالصة، وإبريق للقشدة، ووعاء للسكر، وكيف كان من عادته أن يفخر في زهوه وكبريائه بأن تلك «الفضيات» ستكون ملكًا لابنته حين تجد الرجل الذي تختاره لفؤادها. بل إني لأكرر أنه من العجب العجاب حقًّا، أن يجسر امرؤ مثل نثنايل بيبكن على مد عينيه إلى هذه الناحية، ولكن الحب أعمى، وفي عين نثنايل كما علمت «حول»، ولعل هذين العاملين مجتمعين هما اللذان «حالا» بينه وبين النظر إلى المسألة في ضوئها الصحيح.

ولو كان الشيخ لوبز قد خامرته أقل فكرة عن الحب الذي دبَّ في قلب نثنايل بيبكن، لَعمد إلى المدرسة فدكَّها دكًّا، وسواها بالتراب، أو لَمَحَا معلمها من وجه الأرض، أو اقترف أمرًا آخَر لا يقل في نكره وبشاعته، وعنفه وقوته، عما وصفناه، فقد كان شيخًا مرهويًا جبارًا، إذا مس امرؤ كبرياءه، أو أثار غضبه، وأنه ليست الأخضرين ... حتى لتخرج ألفاظ السباب واللعنات والأيمان متدفقة منه مدوية قاصفة كالرعد في طريقها، حين يندد ببلادة صبيه المعروق، ذي الساقين النحيلتين، حتى ليزحف نثنايل بيبكن، ويسقط قلبه في حذائه من الرعب، ويقف شعر رؤوس الأطفال الصغار في المدرسة من الفزع.

ومرت الأيام ... فكان نثنايل بيبكن بعد انتهاء الدروس، وانصراف التلاميذ، يجلس قبالة النافذة الأمامية، متظاهرًا بأنه يقرأ في كتاب، وهو في الواقع يلقي نظرات جانبية على عدوة الطريق، باحثًا بعينيه عن عيني مرايا لوبز البراقتين، ولم تنقضِ عدة أيام عليه وهو ملازم مجلسه هذا، حتى ظهرت هاتان العينان البراقتان في إحدى النوافذ العليا، وصاحبتهما تبدو منهمكة في القراءة أيضًا، فكان ذلك باعث ابتهاجة وفرحة بالغة لقلبه، وكان حسب فؤاده أن يجلس على هذه الحال ساعات طوالًا، وينظر إلى ذلك الوجه المليح، وإن ظلت عيناها رانيتين إلى الكتاب لا ترتفعان عنه، ولكن بدأت مرايا لوبز ترفعهما عنه، وترسلان أشعتهما صوبه، فلم يلبث فرحه وإعجابه أن تجاوزا كل حد. وفي ذات يوم، حين عرف أن الشيخ لوبز لم يكن في البيت، تجرأ نثنايل بيبكن على تقبيل يده «لمرايا»، ولكنها في هذه المرة، لم تغلق النافذة ولم تسدل الستر، بل

راحت تقبل «يدها» له وهي تبتسم.. فما إن رأى ذلك حتى صح منه العزم على أن يساير عاطفته بلا إبطاء، مهما تكن العاقبة.

ولعمري ما وطئت وجه الأرض قدم أجمل، ولا حوت الدنيا فؤادًا أكثر مرحًا، ولا مُحَيًّا أوفر أحوالًا وطوابع حسن، ولا قوامًا أهيف وأبدع، من قدم مرايا، وفؤادها، وطلعتها، وقوامها ... لقد كان في عينيها المتلألئتين رنوة ماكرة لكي تشق طريقها إلى صدورٍ أقل حساسية من صدره، وفي ضحكتها المرحة وسوسة فرحة لا يسع أشد الناس سخطًا على الحياة، وتبرمًا بالدنيا، إلا أن يبتسم لسماعها، بل إن الشيخ لوبز نفسه، وهو في قمة وحشيته وذروة حنقه، لا يستطيع أن يقاوم ملاعبة ابنته المليحة الحسناء، وكلما مضت هي وابنة عم لها، تدعى «كيت»، وهي فتاة ذكية جريئة فاتنة صغيرة البدن، تسألان الشيخ حاجة، وكثيرًا ما تسألانه، لم يكن يستطيع أن يرفض لهما سؤالًا، حتى ولو طلبتا إليه أن ينزل لهما عن جزء من كنوزه التي لا تُعد، ولا تنفد، والتي حجبها عن نور الشمس، في تلك الخزانة الحديدية.

وجعل قلب نثنايل بيبكن يخفق في جوانحه حين شهد هاتين الساحرتين الصغيرتين على قيد بضع مئات من الياردات منه، في ذات مساء صائف في ذلك الحقل ذاته الذي طالما يجول في أرجائه إلى أوان الليل، وتمثل جمال «مرايا لوبز» في خاطره، وفكر في حسنها الفتَّان. ولكم فكر من قبل في التقدم بجرأة إليها ومكاشفتها نجوى حبه، إذا تواتى له يومًا لقاؤها، ولكنه شعر حين وجدها في ذلك الحقل فجأة ماثلة حياله، تصاعد الدم كله في شرايينه إلى وجهه، من فرط الخجل

والارتباك، فتخاذلت ساقاه لحرمانهما من نصيبهما من دمه، ورجفتا من تحته. ولما وقفتا تقطفان شيئًا من الزهر، أو تستمعان إلى شدو طائر، وقف هو كذلك، وتظاهر بأنه مشغول بالتفكير، وإن كان ذلك هو الواقع؛ لأنه كان فعلًا يفكر فيما ينبغي أن يفعله، إذا هما تولتا بظهريهما، وتلاقَتَا به وجهًا لوجه، وهو ما ستفعلانه حتمًا بعد لحظة، ولئن خشي أن يتقدم هو نحوهما، فلم يكن ليحتمل احتجابهما عن ناظره، وحرمان عينه من رؤيتهما، فلا عجب إذا أسرع في مشيته حين رآهما تسرعان، وتباطأ كلما تباطأتا، ووقف كلما وقفتا، وكان من المحتمل أن تظلا منطلقتين على هذا النحو، حتى تحول عتمة الليل دونهما، لو لم تلق «كيت» بمكر نظرة إلى الخلف، وتشير إشارة مشجعة إليه أن يتقدم، وكان في إشارتها شيء لم يستطع مغالبته، فاستجاب للدعوة، وبعد خجل شديد منه، وضحك كثير من تلك الصغيرة الماكرة، راح نثنايل بيبكن يجثو فوق الحشائش الندية، وأعلن أنه لن ينهض من جثوته تلك إلى الأبد، إلا إذا أذنت له مرايا لويز بالنهوض حبيبًا مقبولًا منها، وعندئذٍ دوت ضحكات مرايا في أرجاء الفضاء، مبددة سكينة المساء، وإن لم تكدر صفاءه، أو تزعج هدأته؛ لفرط حلاوتها، وشدة عذوبتها، وانطلقت الصغيرة الماكرة تضحك أكثر من قبلُ، فازداد نثنايل بيبكن حياءً وخجلًا، وأخيرًا، وبعد إلحاح شديد من هذا الرجل الصغير الذي أضواه الحب، أشاحت مرايا بوجهها وهمست لابنة عمها، أن تقول له.. وقد قالت كيت فعلًا: «على كل حال، كما بدا لك، إنها تشعر بشرف بالغ مما عرضته عليها، وتحدثت به إليها، وإن يدها وفؤادها تحت تصرف أبيها، وإن لم تخف على أحد مواهب

المستر بيبكن، ولا يستطيع إنسان أن ينكرها عليه».

وقد جرى هذا الكلام كله بجد ظاهر، وانطلق نثنايل عائدًا مع مرايا إلى البيت، وحاول جاهدًا أن ينتزع من وجنتها قبلة قبل الوداع، فلا عجب إذا هو أوى إلى فراشه سعيدًا قرير العين، وراح يحلم طيلة الليل أنه قد ذهب يترضى الشيخ لوبز، وينشد موافقته، ويفتح الخزانة، ويبني بمرايا، ويتم له الزفاف بها.

وفي اليوم التالي رأى نثنايل بيبكن الشيخ يخرج على مهره الأدهم، وبعد عدة إشارات من الصغيرة الماكرة، وهي واقفة في النافذة، وإن لم يستطع مطلقًا فهم الغرض منها، ولا إدراك معانيها، جاءه الصبي المعروق ذو الساقين الناحلتين ليقول له: إن سيده سوف لا يثوب إلى البيت في تلك الليلة، وإن السيدتين تنتظرانه لتناول الشاي معهما في تمام السادسة، ولا يدري نثنايل بيبكن، ولا تلاميذه الصغار يدرون أكثر مما تدري أنت، كيف انقضت الدروس في ذلك النهار، سوى أنها انقضت، على أية صورة انقضت، ولم يكد الصبيان ينصرفون، حتى أنفق نثنايل بيبكن الوقت كله إلى السادسة في تجميل بزته، وتزيين سمته، إلى أن رضي عن شكله، وراقته صورته، ولم يكن كل ذلك الوقت الطويل قد ذهب في اختيار الثياب التي يحسن به أن يرتديها؛ إذ لم يكن لديه منها ما يتعب في اختياره، أو يحار كثيرًا في اصطفائه، ولكنه انقضى في الارتداء ذاته، وعملية اللبس نفسها، وأحسن المظاهر المناسبة للاشتمال بها، فقد كان ذلك كله مهمة شاقة، وعملًا خطيرًا.

وكانت الحفلة صغيرة تتألف من مرايا لوبز، وابنة عمها كيت، وثلاث

أو أربع بنات مرحات، فكهات، متوردات الخدود، وشاهد نثنايل بيبكن بعيني رأسه ما تحقق به أن ما يقال عن كنوز لوبز وأمواله المخبوءة لم يكن مبالَغًا فيه، فقد رأى حقًّا إناء الشاي، وإبريق القشدة، ووعاء السكر، وكلها من الفضة الخالصة، قوائم فوق المائدة، ورأى كذلك الملاعق، والصحاف التي وُضِعت فيها الفطائر، والخبز المحمر، من الفضة كذلك، وكان الشيء الوحيد الذي يؤذي العين، ويقتحمه البصر، ابن عم آخر لمرايا، وأخ «لكيت» كانت مرايا تدعوه «هنري»، فقد راح يستحوذ على مرايا كلها لنفسه في ركن من الخوان، ومن الممتع للعين أن نشهد المحبة بادية في أفق العشيرة، ولكنها قد تغلو حتى تتجاوز الحد، ولم يسع نثنايل بيبكن إلا أن يعتقد أن مرايا لا بد أن تكون مولعة إلى حد بعيد بأهلها، وذوي قرباها؛ إذ كانت تبدي من العناية بهم قدر ما هي مبديته نحو ابن عمها هذا.

وحدث أيضًا بعد الفراغ من تناول الشاي أن اقترحت الصغيرة الماكرة على الجمع لعبة «الاستغماء» فكان نثنايل بيبكن، وهو أبدًا معصوب العينين، كلما ألقى يده على ذلك الفتى الصغير، وجد مرايا في كل مرة على مقربة منه، وعلى الرغم من أن تلك الماكرة الصغيرة والبنات الأخريات جعلن يعركنه، ويجذبن شعره، ويضعن المقاعد في طريقه، ويفعلن به ما شاء العبث لهن، بدا له أن مرايا لم تكن تدنو منه أبدًا، وكان في وسعه أن يُقسِم في إحدى المرات أنه سمع صوت قُبْلة، ثم كلمة احتجاج من مرايا، فضحكات مكبوتة من البنات، وكان ذلك كله عجيبًا، متناهيًا في العجب، ولا ندري هل كان من الجائز أن يفعله نثنايل بيبكن

في هذا الموقف لو لم تتجه أفكاره فجأة وجهة جديدة.

وكانت الظروف التي حملته على التفكير في ذلك الاتجاه الجديد هي صوت شديد بالباب، ولم يكن ذلك الطارق العنيف أحدًا سوى الشيخ لويز نفسه، فقد عاد فجأة، وانطلق يدق الباب كما يدق «حامل الموتى» بالمطرقة نعش ميت؛ لأنه كان يريد عشاءه، وما كاد صبي وصانع السروج المعروق الناحل الساقين يحمل هذا النبأ المزعج، حتى بادرت البنات إلى الصعود إلى مخدع «مرايا لويز»، وألقى ابن العم ونثنايل بيبكن في غرفتين حبيستين داخل قاعة الجلوس، إذ لم يكن في البيت كله مخبأ أصلح من ذلك لهما، وما إن انتهت مرايا لويز وابنة عمها الصغيرة الماكرة من إخفائهما على تلك الصورة، وإصلاح ما اضطرب من أثاث الحجرة، حتى فتحا الباب للشيخ، ولم يكن قد كف عن الطرق منذ بدأه.

وحدث لسوء الحظ أن الشيخ كان من الجوع في غضب موحش، فاستطاع نثنايل أن يسمع زمجرته كعواء كلب ضخم مبحوح الحنجرة، وكلما دخل الحجرة ذلك الصبي المعروق التعس ذو الساقين الناحلتين، هَبَّ فيه ذلك الشيخ سابًّا لاعنًا، وهو في حنق شديد، لا لسبب ظاهر أو غرضٍ غير التنفيس عن صدره بإطلاق بضع لعنات أخرى، وأخيرًا وُضِع العشاء بعد تسخينه فوق المائدة، فأكبَّ الشيخ عليه كدأبه، وما لبث أن أتى عليه كله، وقبل ابنته، وطلب قصبته.

وكانت الطبيعة قد ركبت ركبتي نثنايل بيبكن تركيبًا جعلهما متقاربتين متلاصقتين، ولكنهما حين سمع الشيخ يطلب القصبة،

اصطكتا، كأن كل ركلة منهما توشك أن تسحق الأخرى سحقًا، فقد رأى في الغرفة ذاتها التي احتبس فيها قصبة سوداء الجذع، فضية التجويف، متدلية من خطافين، وكانت هي القصبة التي يراها في فم الشيخ كل أصيل ومساء خلال السنوات الخمس الماضية، ونزلت الفتاتان إلى الطبقة الأولى من البيت لإحضار القصبة، ثم صعدتا إلى الطبقة العليا، ثم ذهبتا تبحثان عنها في كل مكان، إلا المكان الذي تعرفان أن القصبة فيه، بينما لبث الشيخ يعصف ويقصف أعجب العصف والقصف، ولكنه تذكَّر أخيرًا تلك الغرفة الصغيرة، فمشى إليها، ولم تكن ثمة جدوى من أن يحاول رجل صغير الجثة كنثنايل بيبكن سد الباب من الداخل، إذا كان الذي يشده من الخارج رجلًا ضخمًا شديد البأس كالشيخ لوبز، فلم يَحْتَجْ إلى أكثر من جذبة واحدة، وإذا بالباب ينفتح دفعة واحدة، وإذا نثنايل بيبكن واقف في الحجرة يرعش من الخوف، ويرجف من رأسه إلى أخمص قدميه. الرحمة يا رب! ما كان أبشع النظرة التي ألقاها الشيخ على المسكين، وهو يجره من رقبته جرًّا، ويوقفه على بُعْد الذراع منه.

وانثنى يصيح به قائلًا بصوت مخيف: «أي شيطان جاء بك إلى هنا؟».

ولم يستطع نثنايل بيبكن أن يجيب، فجعل الشيخ يهزه إلى أمام، ويرده إلى خلف، دقيقتين أو ثلاثًا كي يحمله على الكلام، والاهتداء إلى رأي أو حجة يعتذر بها.

وزأر لوبز قائلًا: «ماذا تريد هنا؟ أحسبك جئت من أجل ابنتي!».

وكان الشيخ قد قال هذه العبارة سخريةً منه، وازدراءً به؛ لأنه لم يكن يعتقد أن مثل نثنايل بيبكن يمكن أن تسول له النفس الإقدام إلى هذا الحد.

ولشد ما كان حنقه حين راح ذلك المسكين يقول: «يا مستر لويز، لقد جئت في طلب ابنتك، إنني أحبها يا مستر لويز».

وهنا زفر الشيخ، وكاد الفالج يقدح في ساقيه من نكر هذا الاعتراف، وصاح به قائلًا: «ماذا تقول أيها الشقي، الماخط الأنف، المعوج الوجه، الناقص النمو؟ ماذا تعني بهذا؟ قل هذا في وجهي لكي أخنقك خنقًا».

وأكبر الظن أن الشيخ لويز كان سيخرج ذلك الوعيد مخرج التنفيذ، في فورة غضبه، لولا أن أمسك بذراعه شبح تراى فجأة أمامه، ونعني به ابن عم مرايا ذاته، فقد خرج من محبسه وتقدم نحو الشيخ، قائلًا: «لا أستطيع أن أسمح يا سيدي بأن تقع التبعة عن خطأ أنا الذي اقترفته، إن صح أن يدعى ما فعلته خطأ، وأنا على استعداد للاعتراف به، على هذا الشخص العاجز عن الأذى الذي دُعِيَ إلى هنا، بحيلة بريئة من حيل البنات، إنني أحب ابنتك يا سيدي، وأنا هنا لكي أجتمع بها».

وفتح الشيخ لويز عينيه على سعتهما حين سمع هذا القول، ولكني عيني نثنايل بيبكن كانتا أكثر سعة، وأرحب حدقًا.

وقال الشيخ أخيرًا، حين تمالك أنفاسه اللاهثة: «أأنت الذي فعلت؟».

- «نعم. أنا الذي فعلت».

- «بعد أن منعتك من دخول هذا البيت منذ زمن بعيد!».

- «نعم، أنت منعتني، ولولا ذلك لما جئت إلى هنا سرًا في هذه الليلة».

وإني لآسف أن أقرر هنا أن الشيخ كان سيهم بالانقضاض على الفتى، لولا أن تعلقت ابنته الحسناء بذراعه، والدموع تنهمر من عينيها البراقتين.

وقال الفتى: «لا تمنعيه يا مرايا، فإن كان يريد أن يضربني، فدعيه، فلن أمس شعرة واحدة من رأسه الذي علاه المشيب، ولو أوتيت ما في الأرض من ثراء».

وأطرق الشيخ خجلًا من هذا العتاب، والتقت عيناه بعيني ابنته، وقد ألمعت من قبل مرة أو مرتين إلى بريق هاتين العينين، ولكني هنا أقرر أن سلطانهما رغم اغروراقهما بالعبرات، لم يقل ولم ينقص شيئًا. وأشاح الشيخ بوجهه، كأنما يتحامى من فتنتهما، وإذا هو بمحض المصادفة يلتقي بوجه تلك الصغيرة الماكرة، وكانت من خوفها على أخيها، وضحكها من نثنايل بيبكن قد أبدت من سحر مُحَيَّاها، وفتون مكرها، وحيائها كذلك، ما لا يقوى أي رجل- سواء أكان شيخًا أم شابًّا- على مغالبته، وراحت تدخل في دلال ودعابة وإغراء ذراعها في ذراع الشيخ، وتهمس له كلامًا في أذنه، فلم يسع لويز- وهو حيالها العاجز المستكين- إلا أن ابتسم، وإن تسللت في الوقت ذاته دمعة إلى خده.

ولم تنقضِ دقائق حتى دُعِيت الفتيات من المخدع، فجئن في ضحك كثير واستحياء، وبينما كان الشباب في سرور وهناءة بالغَيْنِ، تناول الشيخ لويز القصبة، ومضى يدخن، وكان الظرف الذي أحاط بتلك القصبة دون سواها عجيبًا، فلا عجب إذا هو شعر بأنها ألطف قصبة دخنها في حياته، وأكثر شيء إمتاعًا وترفيهًا.

ورأى نثنايل أنه من الخير الرضى بما قُسِم له، والصبر على ما أصابه، فراح شيئًا فشيئًا يرتفع مكانه عند الشيخ لويز، ويصيب حظوة متزايدة لديه، فجعل هذا يعلمه التدخين على الأيام، واعتادا الجلوس معًا في الحديقة كلما راق المساء، عدة سنين، يدخنان ويتعاطيان الشراب في مجلس ممتع، وخلوة هنية.

ولم يلبث أن نقه من أثر الحب؛ إذ لا يزال اسمه مدوَّنًا في سجلات الأبرشية، شاهدًا على زواج مرايا لويز بابن عمها، والظاهر أيضًا من الرجوع إلى وثائق أخرى أنه في ليلة الزفاف وُضِع في سجن القرية وهو في حالة سُكْر بيِّن، وعربدة في الطريق العام، اشترك فيها معه وخفف من حدتها بجانبه، ذلك الصبي المعروق الناحل الساقين.

* * *

# الفصل الثامن عشر

## يبين بإيجاز مسألتين: الأولى قوة «التشنجات» والأخرى قوة «الظروف»

وظل البكوكيون يومين عقب مأدبة الإفطار في دار مسز هنتر، مقيمين في إيتنزول، يرتقبون في قلق وصول أنباء من زعيمهم الموقر، وهكذا وجد المستر طبمن والمستر سنودجراس نفسيهما متبطلين يلهوان كما شاءا؛ لأن المستر ونكل لبث مقيمًا في دار المستر بت؛ تلبيةً لدعوة ملحة، مكرسًا وقته لمرافقة السيدة المحببة، ولم يكن مجلسهما بين الفينة والفينة ينقصه حضور المستر بت نفسه، ليستكملا هناءتهما، ولئن كان في شغل شاغل أكثر وقته بالتفكير في الصالح العام، والقضاء على الصحيفة المعارضة «الإنديبندنت» فلم تكن من عادة ذلك الرجل العظيم أن يهبط من أوجه الذهني إلى وهدة الأذهان العادية، ولكنه في هذه المناسبة بالذات، وعلى سبيل المجاملة المقصودة لأي مريد من من مريدي المستر بكوك، اضطر إلى التنزل من عليائه، والتسامح في كبريائه،

والهبوط من قاعدة تمثاله للمشي على الأرض، والتعطف بالنزول بأفكاره وآرائه إلى مستوى إفهام القطيع العام، والتظاهر- شكلًا لا حقيقة- بأنه واحد منه.

وإذا كان هذا هو مسلك ذلك الرجل الذائع الذكر إزاء المستر ونكل، فلا يصعب علينا أن نتصور مدى الدهشة البالغة التي ارتسمت على وجه ذلك السيد حين وجد يومًا، وهو جالس وحده في قاعة الإفطار، الباب قد فُتِح بعجلة، ثم أُغْلِق بمثلها، على دخول المستر بت، وهو يمشي متسللًا إليه في جلال، ويلقى جانبًا يد ونكل المبسوطة لتحيته، ويصرف بأسنانه، كأنما يحاول أن يخفف من حدة القول الذي يوشك أن يقوله، ويصيح به قائلًا في صوت كالمنشار: «أيها الثعبان!».

وصاح المستر ونكل، وهو ينهض من مقعده: «سيدي!».

وعاد المستر بت وهو يرفع من صوته ثم يغض منه: «ثعبان يا سيدي! قلت ثعبانًا يا سيدي. فلتفسر قولي كما شئت».

وإذا أنت افترقت عن رجل في الثانية بعد نصف الليل، على محض المودة، ثم جاءك في التاسعة والنصف من الصباح وحياك بقوله لك إنك لثعبان، فمن المعقول أن تستنتج من ذلك أن شيئًا غير سار قد حدث في تلك الفترة، وهذا هو ما اعتقده المستر ونكل وفكر فعلًا فيه، فرد على نظرة المستر بت الجلمود القاسية بمثلها، وأخذ امتثالًا لطلبه، يفسر كلمة «الثعبان» كما يشاء، ولكنه لم يصل من التفسير إلى شيء إطلاقًا. ولهذا مضى بعد صمت عميق استغرق بضع دقائق يقول: «ثعبان يا سيدي.. ثعبان.. يا مستر بت، ماذا يمكن أن تعني بهذا يا سيدي؟ هذا عبث!».

وصاح المستر بت، بحركة من يده، تنم عن رغبة شديدة في قذف رأس ضيفه بإناء الشاي المعدني الموضوع أمامه: «عبث يا سيدي.. عبث.. ولكن كلا.. سأظل هادئًا.. سأظل هادئًا يا سيدي»، وللتدليل على هدوئه رائح يتهالك على مقعد والزبد يخرج من فمه.

وتدخل المستر ونكل قائلًا: «سيدي العزيز!».

وأجاب بت: «أتدعوني سيدي العزيز؟ كيف تجرؤ على مخاطبتي بقولك سيدي العزيز؟ وكيف تجرؤ على النظر إليَّ شذرًا والتفوه بهذا القول يا سيدي؟».

وقال المستر ونكل: «إذا جئت إلى هنا يا سيدي، فدعني أقل لك: كيف تجرؤ أنت على النظر إليَّ شذرًا، وتدعوني ثعبانًا يا سيدي؟».

وأجاب المستر بت: «لأنك ثعبان».

وقال المستر ونكل بحرارة: «اثبت ذلك يا سيدي.. اثبته».

وهنا خطفت عبسة خبيثة على وجه رئيس التحرير، وهو يخرج من جيبه عدد الصباح من «الإنديبندنت» ويضع أصبعه على فقرة معينة فيه، ويقذف بالجريدة من فوق المائدة إليه.

وتناول المستر ونكل الجريدة، فقرأ ما يلي:

«إن زميلنا الخامل الذكر القذر، حاول في بعض ملاحظاته التي تتقزز منها النفوس، على الانتخابات التي جرت أخيرًا في الدائرة، أن ينتهك قدسية الحياة الخاصة، فأشار بشكل لا يمكن أن يساء فهمه، إلى شؤون مرشحنا الخاصة، بل دعنا نقول، رغم هزيمة مرشحنا بوسائل

دنيئة، نائبنا العتيد، المستر فيزكين. فماذا يعني زميلنا النذل بهذا الذي كتبه، بل ماذا هو قائل إذا نحن فعلنا ما فعله، فلم نبال مثله بالأدب الاجتماعي، وحرمة الحياة الخاصة، وأزحنا الستار الذي يخفي لحسن الحظ حياته هو الخاصة عن السخرية العامة، إذا لم نقل، عن اشمئزاز الناس واستنكارهم؟ بل ماذا تكون الحال إذا نحن أوضحنا، وعقبنا على الوقائع والظروف التي افتضح أمرها، وشاهدها الناس جميعًا إلا زميلنا المكفوف البصر؟ ماذا تكون الحال حقًّا، إذا نحن نشرنا الأبيات التالية التي تلقيناها ونحن نكتب هذه السطور من مواطن موهوب، ومراسل لنا؟ وهذه هي الأبيات:

**نداء إلى «إبريق»(١) نحاسي**

«لو أنك يا بت عرفت
كيف ستروح على الدهر خائنتك
لفعلت يومئذ، وأنت تسمع
نواقيس الزواج تدق وتجلجل،
ما ليس في إمكانك اليوم أن تفعل
ولسلمتها طائعًا مختارًا إلى و...»

وانثنى المستر بت يقول بصوت رهيب: «ماذا تكون القافية التي تستوجبها كلمة «تجلجل»، «وتفعل» يا شقي؟».

وقالت مسز بت، وكان دخولها في تلك اللحظة بمثابة الرد سلفًا:

---

(١) تعني الكلمة بت POT إبريق أو وعاء وقد لعب الناظم بالألفاظ فجاء بها على سبيل التورية مع كلمة بت POTT اسم الرجل.

«ما هي الكلمة أو القافية التي تتفق وكلمة «تجلجل» و«تفعل»؟ أظنها ونكل»، وراحت تبتسم ابتسامة عذبة للبكوكي المرتبك، وتمد إليه يدها. ولو أن بت لم يتدخل فيقول غاضبًا: «كفى، يا سيدتي، كفى، أتتناولين يده أمام وجهي؟» لقبلها الشاب المضطرب، مدفوعًا إلى ذلك باضطرابه.

وقالت السيدة مبهوتة: «يا مستر ب!».

وصاح بها زوجها قائلًا: «اسمعي أيتها المرأة المنكودة. اسمعي يا سيدتي، نداء إلى «إبريق» نحاسي «بت» نحاسي. يعني أنا يا سيدتي. ولو عرفت أنها على الدهر، ستروح خائنتك. يعني أنت يا سيدتي. أنت!».

وبهذه الفورة الشديدة التي بدا بها غضبه، والتي اقترنت بشيء يشبه الارتجاف، مضى يقذف وجه امرأته بالجريدة، فسقط العدد عند قدميها.

وقالت مسز بت في دهشة، وانحنت فالتقطت الصحيفة: «بشرفي يا سيدي، بشرفي يا سيدي!».

وهنا استخذى المستر بت وتراجع أمام النظرة المحتقرة التي حدجته بها زوجته، وغالب مغالبة مستيئسة لجمع شتات شجاعته، ولكن تلك الشجاعة لم تلبث أن تناثرت بددًا.

وليس في تلك العبارة القصيرة «بشرفي يا سيدي!» شيء مرهوب أو خطير مطلقًا، وأنت اللحظة تقرأها، ولكن اللهجة التي قيلت بها، والنظرة التي صحبتها، كانتا تنطويان على تلميح إلى عقاب سيقع على رأس بت فيما بعدُ، فلم تلبثا أن أحدثتا أثرهما فيه، حتى لم يكن ليغيب عن أقل الناس فطنة، إذا هو نظر إلى وجهه المضطرب، أنه لم يكن ليتردد في خلع

حذائه الولنجتون إلى أي امرئ قدير، يرضى أن ينتعله في تلك اللحظة بدلًا منه.

وقرأت مسز بت تلك الأبيات، وأطلقت صرخة عالية، وألقت بنفسها على البساط، ومددت قدميها صارخة، وضربت بكعب حذائها، وركلت بقدميها في صورة لم تدع ذرة من الشك في صدق ما كانت تحس به إزاء هذا الموقف.

وقال بت، وقد وقف جامدًا في مكانه: «لم أقل يا عزيزتي إنني صدقت ذلك». ولكن صوت المسكين قد غرق في صرخات شريكته.

وقال المستر ونكل: «دعيني يا مسز بت، أتوسل إليك يا سيدتي العزيزة أن تهدئي من روعك»، ولكن صرخاتها ودقات كعبها فوق البساط غطت على صوته، وكانت أكثر من قبل تتابعًا.

وراح المستر بت يقول: «إنني جد آسف يا عزيزتي! وإذا لم تكفي مراعاة لصحتك، فراعي مركزي أنا يا عزيزتي، حتى لا يتجمهر الناس حول البيت».

ولكن صرخاتها زادت اشتدادًا وتتابعًا كلما زاد المستر بت توسلًا.

وكانت في البيت- لحسن الحظ- وصيفة خاصة لمسز بت، وهي شابة كان عملها في الظاهر الإشراف على زينة السيدة، وإن أدَّتْ إليها في الواقع خدمات كثيرة منوعة، وأهمها ما يتعلق بمساعدة سيدتها في تحقيق كل رغبة تتعارض مع رغبات بت التعس، فلم تلبث تلك الصرخات أن بلغت سمع تلك الوصيفة الشابة؛ فجاءت إلى الحجرة مهرولة، تكاد

من سرعتها تُفسِد إلى حد كبير نظام شعرها، وعقصة جدائلها، ووضع قبعتها.

وراحت تصيح وهي تجثو مروعة بجانب مسز بت المنبطحة على البساط: «رباه.. يا سيدتي العزيزة، ما الذي جرى، يا سيدتي العزيزة؟».

وغمغمت المريضة: «سيدك المتوحش!».

وبدا على المستر بت الاستسلام والاستكانة، فلم يفه بقول.

وراحت الوصيفة تقول بلهجة التأنيب: «يا للعار! أنا عارفة أنه سيودي يومًا بحياتك يا سيدتي. واهًا لك يا سيدتي المسكينة!».

فازداد بت استكانة واستسلامًا، وتابعت زوجته الهجوم فقالت: «أواه.. لا تتركيني يا جودوين، لا تتركيني»، ومضت تتعلق بمعصم الوصيفة في هزة عصبية شديدة، وهي تقول: «أنت الإنسان الوحيد الذي يحنو عليَّ يا جودوين!».

ولم تكد جودوين تسمع هذا الاستنجاد المؤثر بها، حتى عمدت هي الأخرى إلى تمثيل مأساة خاصة، فراحت ترسل فيضًا مدرارًا من العبرات، وتقول: «لن أتركك أبدًا يا سيدتي. أبدًا. أواه. يا سيدي، ينبغي أن تكون حريصًا. ينبغي لك أن تحتاط يا سيدي. إنك لا تعرف أي أذى أنت محدثه للسيدة، وسوف تأسف في يوم من الأيام على ما فرطت فيه من قبل، وأنا بالأمر عارفة. ولطالما قلت ذلك قبل الآن».

ولبث بت التعس ينظر خائفًا متهيبًا ولا يقول شيئًا.

وقالت مسز بت بصوت خافت: «جودوين!».

وأجابت هذه قائلة: «نعم يا سيدتي».

- «آه لو عرفت كيف أحببت هذا الرجل؟».

وقالت حارستها: «لا تحزني نفسك باستعادة الذكريات يا سيدتي».

وبدا الخوف البالغ على بت، وحانت اللحظة الحاسمة للإجهاز عليه، فانطلقت مسز بت تقول وهي تنتحب: «والآن، بعد كل ذلك، يصبح جزائي عنده هذه المعاملة التي يعاملني بها، وتأنيبي وإهانتي في حضرة شخص ثالث. وهذا الشخص الثالث يكاد يكون غريبًا!».

وسكنت لحظة، ثم واصلت الحديث وهي ترفع نفسها في أحضان وصيفتها: «ولكن لن أرتضي ذلك يا جودوين ولن أقبله، وسيتدخل شقيقي اللفتنانت، وسأنفصل يا جودوين!».

وقالت جودوين: «يستأهل يا سيدتي».

ولم يجاهر بت بما دار في خاطره من الأفكار حين تلقى هذا التهديد بالانفصال، وإنما قنع بقوله في ذلة بالغة: «ألا تنصتين لي يا عزيزتي؟».

فكان جوابها الوحيد فيضًا آخَر من البكاء والنحيب، وازدادت بت عصبية وتشنجًا، وراحت تتسائل: لماذا جاءت إلى هذه الدنيا، ولماذا تُرَاها وُلِدت؟ وغير ذلك من الأسئلة المماثلة.

ومضى المستر بت يقول مترجيًّا مستعطفًا: «لا تستسلمي يا عزيزتي لهذه المشاعر المؤثرة، فما اعتقدت يومًا أن هذه الفقرة تقوم على أساس. هذا مستحيل يا عزيزتي، وكل غضبي يا عزيزتي، بل أقول كل هياجي وحنقي، إنما هو موجه إلى الإنديبندنت وكتابها لجرأتهم على نشرها.

هذا هو كل ما هنالك».

وألقى المستر بت نظرة متوسلة إلى من كان سببًا فيما جرى، وهو البريء، كأنما يناشده ألا يذكر شيئًا عن «الثعبان».

وانثنى المستر ونكل يقول، وقد استرد الشجاعة حين وجد بت قد فقدها: «وأي إجراء تنوي يا سيدي أن تتخذه للاقتصاص من هذا السوء الذي أحدثوه؟».

وقالت مسز بت: «أواه يا جودوين! هل ينوي أن يضرب رئيس تحرير الصحيفة بالسوط تأديبًا له؟ هل ينوي ذلك يا جودوين؟».

وأجابتها حارستها: «اسكتي يا سيدتي، وهدئي من روعك، إني لأجرؤ على القول إنه سيفعل ذلك إذا شئت يا سيدتي».

وقال بت حين رأى زوجته تبدي أعراضًا لمعاودة النوبة: «بلا ريب، سأفعل ذلك بالطبع».

وعادت مسز بت تقول وهي لا تزال مترددة في معاودة التشنج: «ومتى يا جودوين متى؟».

وأجاب المستر بت قائلًا: «في الحال طبعًا، قبل أن ينقضي النهار».

وقالت زوجته: «أواه، يا جودوين، هذه هي السبيل الوحيدة لتأديبه على هذه الوشاية، ورد كرامتي أمام الناس».

وأجابت جودوين: «بلا شك يا سيدتي. وما من رجل يا سيدتي تطاوعه رجولته أن يرفض عملًا كهذا».

ورأى المستر بت أن نوبة التشنج لا تزال مرفرفة توشك أن تعود،

فعاد يكرر أنه سيفعل ذلك، ولكن مسز بت من فرط تأثرها فكرة الارتياب بها، ظلت مرارًا على وشك الانهيار، وكانت بلا نزاع ستعود إليه، لولا الجهود الملحة التي بذلتها جودوين، ولولا التوسلات المتكررة من جانب بت المغلوب على أمره للعفو عنه، والصفح عما كان منه. وأخيرًا، حين رأت مسز بت أن ذلك المسكين قد تملكه الروع، وأنزل من عليائه إلى المستوى اللائق به، عادت فثابت إلى نفسها، ونهض الجميع لتناول طعام الفطور.

وقالت مسز بت وهي تبتسم من خلال بقايا عبراتها: «لن تدع هذه الوشاية الحقيرة التي اخترعتها تلك الجريدة تقصر من مقامك هنا يا مستر ونكل!».

وقال المستر بت: «أرجو أن لا يكون ذلك»، وهو يود في أعماق نفسه لو اختنق ضيفه بتلك القطعة من الخبز اليابس الذي كان يهم برفعها إلى فمه في تلك اللحظة، وبذلك ينهي مقامه في داره فعلًا.

وأجاب المستر ونكل قائلًا: «إنك لكريم يا سيدي، ولكن وصل كتاب من المستر بكوك، كما علمت من رقعة بعث بها المستر طبمن، وسلمت إليَّ في غرفتي هذا الصباح، وعلمت أن المستر بكوك يرجو إلينا أن نوافيه في «بري» اليوم، وإننا معتزمون السفر بالمركبة الحافلة ظهرًا».

وقالت مسز بت: «ولكنك ستعود إلينا، أليس كذلك؟».

وأجاب المستر ونكل: «أوه، بكل تأكيد».

وعادت تقول وهي تسترق نظرة حنونًا رفيقة إلى ضيفها: «هل أنت واثق حقًّا؟».

وأجاب المستر ونكل: «كل الثقة».

وانتهى الإفطار في صمت؛ لأن كل إنسان منهم كان يفكر في أمره وهمه، فكانت مسز بت متأسفة على فراق حبيب، والمستر بت على تهوره في التعهد بضرب رئيس تحرير الإنديبندنت بالسوط، والمستر ونكل على وضع نفسه بسذاجة وسلامة نية في موطن حرج.

واقترب الظهر، وبعد عدة توديعات ووعود بالإياب، انفلت المستر ونكل لا يلوي على شيء.

وقال المستر بت في نفسه، وهو يدخل المكتب الصغير الذي يعد فيه « صواعقه»: «سأدس السم له لو رجع!».

وجعل المستر ونكل يقول، وهو منطلق في طريقه إلى فندق «بيكوك»: «لو عدت واختلطت بهؤلاء القوم مرة أخرى، لكنت أنا المستحق أن أضرب بالسياط. هذا هو كل ما في الأمر».

وكان صديقاه على الأهبة، وكانت المركبة تستعد هي أيضًا، فلم يمضِ نصف ساعة حتى انطلقوا في رحلتهم على الطريق ذاته الذي اجتازه المستر بكوك وسام في سفرتهما الأخيرة، التي قلنا من قبلُ شيئًا عنها، ونعتقد أننا مطالبون بأن نقتطف ذلك الوصف الشعري الجميل الذي وصفها به المستر سنودجراس في مذكراته.

وكان المستر ويلر واقفًا بباب فندق «أنجل» على استعداد لاستقبالهم، فلما وصلوا أدخلهم على المستر بكوك. ولشد ما كانت دهشة المستر ونكل والمستر سنودجراس، بل لشد ما كان ارتباك المستر

طبمن حين وجدوا المستر واردل، والمستر traندل، معه.

وقال الشيخ وهو يتناول يد المستر طبمن: «كيف أنت؟ لا تتراجع ولا تبد منفعلًا مضطرب العاطفة على هذا النحو، فليس في ذلك الأمر حيلة يا صاح، لوددت من أجلها هي لو أنك ظفرت بها، ولكني مغتبط لأنك لم تظفر بها، وهذا خير لك. إن شابًّا مثلك واجد خيرًا من ذلك في يوم من الأيام.

وبهذه المواساة ألقى المستر واردل يده على ظهر المستر طبمن، وأرسل من أعماق صدره ضحكة مجلجلة.

وانثنى يهز يدي المستر ونكل والمستر سنودجراس معًا مصافحًا، وهو يقول: «والآن كيف أنتما أيها السيدان الظريفان؟ لقد كنت اللحظة أقول للمستر بكوك إننا لا بد أن نأخذكم جميعًا عندنا في عيد الميلاد؛ لأننا قادمون على زفاف..».

وقال المستر سنودجراس وقد ارتد وجهه شاحبًا: «زفاف!» زفاف حقيقي في هذه المرة».

وأجاب الشيخ الماجن: «آه! زفاف! ولكن لا ترتعب للنبأ. إنه زفاف تراندل وبللا».

وقال المستر سنودجراس، وقد استراح من شك أليم كان قد ران على صدره: «أهذا كل ما في الأمر؟ مبارك يا سيدي، وكيف حال جو؟».

وأجاب السيد الكبير: «بخير. نعسان كعهدك به».

قال: «ووالدتك والقسيس، والأسرة جميعًا؟».

وأجاب واردل: «بخير وعافية».

وقال المستر طبمن، وهو يجاهد نفسه مجاهدة: «وأين... أين هي يا سيدي؟».

وأشاح بوجهه، وحجب عينيه بيديه.

وقال الشيخ: «هي»، ثم هز رأسه هزة العليم، واستتلى قائلًا: «هل تعني قريبتي العزباء؟».

وأومأ المستر طبمن إيماءة توحي بأن سؤاله يراد به «راشيل» الخائبة الأمل.

ومضى الشيخ يقول: «أوه. لقد ذهبت، وهي اليوم تقيم عند قريب لها يقطن موضعًا بعيدًا؛ لأنها لم تطق لقاء ابنتيّ، فتركتها تذهب، ولكن تعال! ها هو ذا الغداء مهيأ، ولا بد من أن تكون جائعًا، بعد رَكبتك، فإني جائع، ولم أركب مثلك، فهلموا بنا نجلس إلى الطعام».

وأدوا للوجبة حقها، وحين جلسوا حول المائدة، بعد أن رُفِعت الصحاف عنها، راح المستر بكوك وسط حنق مريديه وشدة استبشاعهم، يقص عليهم الحادث الذي وقع له، والنجاح الذي كان حليفًا لمكر جنجل الخبيث الرجيم، وأحابيله النكراء.

وختم المستر بكوك قصته قائلًا: «وقد أحالني النقرس الذي أصابني في تلك الحديقة، أعرج في هذه اللحظة لا أستطيع المسير».

وقال المستر ونكل وهو يبتسم: «وأنا أيضًا لي واقعة حال». وانطلق تلبية لرجاء المستر بكوك يقص قصة القذف الشنيع الذي وجهته جريدة

«الإنديبندنت»، والهياج الذي انتاب صديقهم رئيس التحرير من جرائه.

وكان جبين المستر بكوك مقطبًا خلال القصة، وأدرك أصحابه ذلك عليه، فلما انتهى المستر ونكل منها، وساد السكون، انطلق المستر بكوك يضرب المائدة بجمع كفه ويقول: «أليس من غرائب الظروف ألا ندخل بيت رجل إلا ورطناه إلى حد ما أوقعناه في محرجة؟ بل إني لأسأل أليس هذا دليلًا على نزق أصحابي، بل على ما هو شر من ذلك وأنكى، على سواد قلوبهم؟ فتحت كل سقف يقيمون، تراهم يزعجون سكينة أنثى وادعة مطمئنة ويفقدونها سعادتها ورغدها. أقول، أليس....؟».

وأكبر الظن أن المستر بكوك كان سينطلق في هذا القول ومثله، ويمعن طويلًا، لولا أن دخل عندئذٍ سام يحمل كتابًا، فقطع عليه بدخوله فيض بلاغته.

ومسح الرجل جبينه بمنديله، وخلع منظاره، فمسح زجاجته، ثم رده إلى عينيه، وقال وقد استرد رفق لهجته، وهدوء صوته: «ما هذا الذي جئت به يا سام؟».

وأجاب المستر ويلر: «لقد عرجت على مكتب البريد منذ لحظة فوجدت هذا الكتاب، وقد لبث فيه يومين كاملين، وهو مختوم بخاتم رسمي، ومعنون بحروف مستديرة!».

وقال المستر بكوك وهو يفض الغلاف: «لا أعرف هذا الخط. يا ألله! ما هذا؟ لا بد أن يكون هذا هزلًا لا جدًّا. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا!».

وسأله الجميع: «ما الخطب؟».

وقال المستر ونكل، وقد فزع من الرعب الذي بدا على وجه المستر بكوك: «أنعي أحد؟ هل مات إنسان؟».

فلم يحر المستر بكوك جوابًا، بل طوَّح بالكتاب من فوق المائدة، طالبًا إلى المستر طبمن قراءته بصوت مسموع، وتراجع في مقعده، وفي عينيه نظرة دهشة تخيف من يراها.

ومضى المستر طبمن بصوت راعش يقرأ الكتاب، وكان نصه كما يلي:

**«المستر صمويل بكوك**

**تحريرًا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٠**

**محكمة فريمان في كورنهل**

**الدعوى المرفوعة من باردل على بكوك»**

**«سيدي**

بناء على طلب مسز مارتا باردل بشأن رفع دعوى عليك لنكثك بوعد الزواج منها، ومطالبتك بتعويض عما أصابها تقدره المدعية بألف وخمسمائة جنيه، نرجو أن نحطيكم علمًا بأنه قد صدر الإذن بالخصومة في هذه القضية من محكمة الأحوال الشخصية، ونرجو أن تتكرموا بإخطارنا برجوع البريد باسم محاميكم في لندن، حتى يتيسر لنا الاتصال به».

«وتفضلوا يا سيدي بقبول وافر الاحترام.

ددسن وفج»

وكان في تلك الدهشة الصامتة التي أخذ كلٌّ منهم ينظر بها إلى الجالس بجواره، وراح الجميع بها ينظرون إلى المستر بكوك كذلك- شيءٌ أبلغ من كل قول، حتى لكأن كلًّا منهم خشي الكلام.

وأخيرًا عمد المستر طبمن إلى تبديد ذلك الصمت المستطيل، فانثنى يكرر وهو لا يدري: «ددسن وفج!».

وقال المستر سنودجراس ساهمًا مفكرًا: «باردل وبكوك!».

وغمغم المستر طبمن، وهو شارد الفكر: «يزعجون سكينة أنثى وادعة مطمئنة، ويفقدونها سعادتها ورغدها».

وقال المستر بكوك، وقد استرد أخيرًا القدرة على النطق: «هذه مؤامرة، مؤامرة دنيئة دبرها هذان المحاميان العتيدان ددسن وفج؛ لأنه من المستحيل أن تفعل مسز باردل ذلك، ولا يطاوعها قلبها على فعله، وليست لها قضية ما حتى ترفعها. هذا شيء مضحك. شيء مضحك!».

وقال المستر واردل وهو يبتسم: «أما فيما يتعلق بقلبها، فأنت بلا شك خير من يحكم، ولست أريد أن أثبطك أو أخذلك، ولكني أريد أن أقول فيما يتعلق بقضيتها أن دسسن وفج هما خير من أي أحد فينا وأعرف بأسبابها ومبرراتها».

وقال المستر بكوك: «هذه محاولة خبيثة لابتزاز المال».

وأجاب المستر واردل بسعلة قصيرة جافة: «أرجو أن تكون كذلك».

واسترسل المستر بكوك يقول في حدة بالغة: «من الذي سمعني يومًا أتحدث إليها إلا كما يتحدث المستأجر إلى المالكة؟ ومن الذي رآني

يومًا معها؟ حتى من أحد أصدقائي هنا؟».

فقاطعه المستر طبمن قائلًا: «إلا في مرة واحدة».

وهنا امتقع وجه المستر بكوك، وانطلق المستر واردل يقول: «آه، هذا شيء مهم، ولكني أعتقد أنه لم يكن ثمة ما يريب؟».

وهنا نظر المستر طبمن إلى زعيمه نظرة متهيبة وقال: «لم يكن ثمة ما يريب، ولكني لا أعرف كيف حدث ما حدث. فقد كانت بلا شك مرتمية في أحضانه».

وصاح المستر بكوك، وقد داهمته ذكرى ذلك المشهد: «يا للعجب! ويا لصنع المقادير! ما أرهب قوة الظروف! نعم.. لقد كانت كذلك، لقد كانت كذلك».

وقال المستر ونكل في شيء من الخبث: «وكان صديقنا يواسيها في محنتها وآلامها».

وقال المستر بكوك: «كذلك، لست أنكر، حقًّا لقد فعلت».

وهنا صاح المستر واردل: «ها! في قضية ليس فيها ما يريب، إن هذا ليبدو غريبًا. أليس كذلك يا بكوك؟ آه! أيها الماكر!».

وانطلق يقهقه حتى اهتزت الأقداح المصفوفة فوق المنضدة الجانبية من قصف قهقهته.

وصاح المستر بكوك وهو يضع ذقنه على كفيه: «ما أرهب اجتماع الظواهر يا ونكل! وأنت يا طبمن أستميحكما صفحًا عن الملاحظات التي أبديتها منذ هنيهة. فنحن جميعًا ضحايا الظروف، وأنا أكبركم لها فريسة».

وبهذا الاعتذار مضى المستر بكوك يدفن رأسه في يديه، ويستسلم لتفكير طويل، بينما جعل واردل يرسم دوائر منتظمة من الإيماءات والغمزات لأفراد الجمع الآخرين.

ورفع المستر بكوك رأسه ودق المائدة بيده قائلًا: «سأشرح ذلك كله، وسأقابل ددسن وفج. سأذهب إلى لندن غدًا».

وقال واردل: «ليس غدًا. إنك شديد العرج، فلا تقوى على السفر».

قال: «ليكن إذن اليوم الذي بعده».

وأجاب واردل: «سيكون أول سبتمبر، وقد تعهدت لي بالخروج معنا إلى الصيد في أرض السير جفريماننج على أية حال، أو مقابلتنا على الغداء، إذا لم تشترك في الصيد معنا».

وقال المستر بكوك: «ليكن إذن اليوم الذي سيليه، أي يوم الخميس يا سام!».

وأجاب المستر ويلر: «نعم يا سيدي».

قال: «احجز لنا مقعدين في المركبة العامة المسافرة إلى لندن صباح يوم الخميس. لي ولك».

قال: «ليكن ذلك يا سيدي».

وانصرف المستر ويلر، وذهب في بطء ليؤدي مهمته، وهو واضع يديه في جيبه، وعيناه مطرقتان إلى الأرض، وراح يقول وهو يمشي الهوينا في الطريق العام: «الإمبراطور، رجل بديع، تصور وقوعه مع مسز باردل

هذه، وهي أم ولد صغير. هذه هي حال أولئك العجائز دائمًا. لا أعتقد أنه فعل ذلك. لا أعتقد أن مثله يفعلها».

وانطلق المستر ويلر في مناجاته الأخلاقية على هذا النحو، وهو في طريقه إلى مكتب حجز التذاكر في المركبة الحافلة.

* * *

# الفصل التاسع عشر

## يوم سار، ونهاية غير سارة

كانت الطيور لحسن حظها، وسكينة خاطرها، وراحتها، وطمأنينة بالها- في جهل سعيد بأمر المعدات التي كانت تُعَدُّ لمباغتتها في اليوم الأول من شهر سبتمبر، فلا غرو إذا هي رحبت بمقدمه، كأجمل يوم مر عليها في ذلك الموسم، فكم من «حجلة» فتية راحت تحجل راضية مغتبطة فوق أعقاب الحصاد، وتتخطر في زهو الشباب وخيلائه، وكم من بطة كبيرة مضت ترقب نزق تلك الصغيرة بعينها المستديرة، وتنظر إليها نظرة السخرية، وترنو نحوها رنوة الحكمة والخبرة، وإن كانت هي الأخرى في جهل بمصيرها المقترب، ونهايتها المحتومة، قد مضت «تتشمس» في أنسام الصباح العليلة، فرحة مبتهجة، ثم راحت بعد بضع ساعات ترف على الأرض بأجنحتها.

ولكنا قد أخذنا نتكلف. فلنعد إلى سياق الحديث.

لقد كان الصباح- بصريح القول، وحقيقة الواقع- رائعًا، بلغ من إمتاعه أنك لا تكاد تصدِّق أن أشهر الصيف المألوف في إنجلترا- على قلتها- قد انقضت منذ وقت قريب، فقد بدت الأسوار المقامة من العوسج، والحقول والمروج والأشجار، والرُّبَى والمستنقعات، مرسلة ظلالها المنوعة، وأفياءها الوارفة، ونضرتها المورقة، كأن ورقة منها لم تسقط، ولا أثر لصفرة الذبول قد اختلط بألوان الصيف الزاهية، حتى لا تكاد تشعر بأن الخريف قد بدأ، فقد خلا أديم السماء من السحب، والشمس تسطع فتملأ الكون ضياءً ودفئًا، وشدو الطير وطنين الآلاف المؤلَّفة من حشرات الصيف، تفعم الهواء صدحًا ولحنًا، والبساتين المحيطة بالأكواخ مزدحمة بالأزاهر من كل لون بهيج، تتلألأ وتبرق في الندى الكثيف كأنها اللآلئ والجواهر المتألقة ... وكل شيء يومئذٍ يحمل طابع الصيف، ولا تزال كل ألوانه الجميلة زاهية لم تنصل بعدُ.

كذلك كان مشهد الصبح حين وقفتْ بباب على عدوة الطريق مركبةٌ مكشوفة، تقل ثلاثة من البكوكيين- فقد آثر المستر سنودجراس البقاء في الفندق- والمستر واردل، والمستر تراندل، بينما اتخذ سام ويلر مجلسه بجانب السائق، وكان بالباب حارس صيد فارع القامة معروق البدن، وغلام يكاد يكون منتعلًا نصف انتعال، وقد لفَّ بأغطية من الجلد ساقَيْه الصغيرتين، وقد حمل كلٌّ منهما حقيبة رحيبة الجوانب، ومعهما كلبان.

وهمس المستر ونكل لواردل، حين جاء الرجل فأنزل سلم المركبة لينزل الجمع منها: «هل تراهما يظنان أننا سنقتل من الطير ما يكفي ليملأ

هاتين الحقيبتين؟».

فصاح الشيخ واردل قائلًا: «يملأهما! أي نعم، بارك الله فيك، أنت تملأ واحدة، وأنا أملأ الأخرى، فإذا امتلأتا، فإن جيوب «السترة» تتسع لمزيد».

ونزل المستر ونكل من المركبة دون أن يُحير جوابًا عن هذه الملاحظة، ولكنه مضى يحدِّث نفسه قائلًا: إنه إذا بقيت الجماعة في الهواء الطلق حتى ينتهي هو من ملء إحدى الحقيبتين، فسوف لا ينجو القوم في الغالب من وعكة برد تصيب منهم الرؤوس والصدور.

وانثنى واردل يلاطف الكلبين صائحًا: «هي! جونو، يا حبيبة، وأنت يا داف انزل، انزل»، ثم التفت إلى الحارس فقال: «لا يزال السير جفري في اسكتلندا بالطبع يا مارتن، أليس كذلك؟».

فأجاب الحارس المديد القامة بالإيجاب، ومضى ينظر في شيء من الدهشة إلى المستر ونكل، وهو ممسك ببندقيته كأنه يتمنى لو أغنى جيب ردائه عنه مئونة جذب الزناد، ثم إلى المستر طبمن وهو ممسك ببندقيته هو الآخر كأنه منها الخائف المشفق، ولم يكن ثمة شك مطلقًا في أنه كان فعلًا كذلك.

ولاحظ المستر واردل نظرته فقال: «إن صديقيّ هذين لم يتقنا هذا النوع من الصيد بعد. وأنت تعرف المثل القائل: من يعش ير. وسوف يحسنان الرماية في يوم من الأيام، وأعتذر مع ذلك للمستر ونكل، فقد جرى له شيء من التمرين قبل الآن».

فابتسم المستر ونكل ابتسامة خفيفة من فوق غطاء رقبته الأزرق اللون، ردًّا على هذه «التحية» وارتبك في حمل بندقيته أشد الارتباك، من فرط حيائه، بحيث لو كانت محشوة، لخر مجندلًا منها لساعته.

وقال الحارس المديد القامة: «لا ينبغي لك أن تمسك البندقية بهذا الشكل، حين تكون محشوة يا سيدي، وإلا فاللعنة عليَّ في كل كتاب، إذا أنت لم تصنع لحمًا باردًا من أحد منا هنا».

وبادر المستر ونكل عقب هذه النصيحة إلى تغيير وضع البندقية، فجعل الماسورة بعد كل محاولة بذلها تكاد تمس رأس المستر ويلر، فصاح هذا وهو يلتقط القبعة، وكانت قد انقلبت من فوق هامته، قائلًا وهو يفرك صدغه: «ها! ها يا سيد، إذا أنت أدرتها إلى هذه الناحية، فستملأ إحدى هاتين الحقيبتين وأكثر منهما برصاصة واحدة!».

وضحك الغلام الملفف الساقين بالجلد ضحكة عالية مرحة، ثم تظاهر بأن أحدًا سواه هو الذي ضحك، وعندئذ عبس المستر واردل عبسة ذات رهبة وجلال.

وانثنى يسأل الحارس: «أين قلت للغلام أن يقابلنا ومعه قليل من الطعام يا مارتن؟».

وأجاب الحارس: «بجانب «ون تري هل» (التل ذي الشجرة الواحدة) يا سيدي في الساعة الثانية عشرة».

قال: «ليست هذه أرض السير جفري أليس كذلك؟».

وأجاب الحارس: «بلى يا سيدي، ولكنها قريبة منها، إنها أرض

الضابط بولدويج، ولكننا لن نجد أحدًا يعترضنا، وهناك أيضًا موضع معشب جميل».

قال: «حسن جدًّا، والآن من الخير أن نبادر، ألا توافينا في الثانية عشرة إذن يا بكوك؟».

وكان المستر بكوك يشتهي فعلًا مشاهدة الصيد، ولا سيما أنه كان يشعر بشيء من القلق على حياة المستر ونكل وأوصاله، وكان من المؤلم حقًّا، في صباح مغرٍ كهذا شديد الفتنة، أن يرفض الدعوة ويترك صديقيه يستمتعان وحدهما، ولهذا راح يجيب بلهجة جدية قائلًا: «سأفعل حتمًا».

وسأل الحارس: «أليس السيد صيادًا يا سيدي؟».

وقال واردل: «كلا، ثم هو أعرج لا يقدر على الحركة».

وقال المستر بكوك: «أود كثيرًا أن أذهب معكم، كثيرًا جدًّا».

وساد السكون لحظة أسفًا ورثاء للشيخ في ملمته.

وقال الغلام: «إن على الجانب الآخر من السور عربة تدفع باليد، فلو تيسر لخادم السيد أن يدفع بها على طول الدرب، لاستطاع البقاء منا على كثب، ونحن في إمكاننا أن نرفعها من فوق الحواجز وأمثالها».

وقال المستر ويلر بوصفه الشخص المقصود، ولرغبته الشديدة في مشاهدة الصيد: «هذا هو المطلوب تمامًا، وعين الجد، أحسنت يا ذا الخد الصغير، سأخرجها من مكانها في الحال، دقيقة واحدة».

ولكن هنا ظهرت صعوبة، فإن ذلك الحارس المديد احتج بقوة على إشراك سيد محمول على عجلة يد في رحلة صيد، قائلًا: «إن هذا عمل

مخالف لجميع القواعد المرعية والسوابق الماضية مخالفة صارخة».

وكان هذا الاعتراض حائلًا كبيرًا، ولكن لم يكن بالمتعذر التغلب عليه، فإن الحارس بعد أن لوطف وأشبع، وأرضى خاطره أيضًا بلكز الغلام المبتكر الذي اقترح الاستعانة بتلك الأداة، في رأسه عدة لكزات، لم يسعه سوى السكوت، فحُمِل المستر بكوك فوق العربة، وانطلق الجمع، وفي المقدمة واردل والحارس الطويل، وفي الساقة جلس المستر بكوك في المركبة، وتولى سام دفعها إلى الأمام.

ولم يكد الجميع يجتازون نصف الميدان الأول، حتى صاح المستر بكوك قائلًا: «قف يا سام!».

وقال واردل: «ماذا جرى؟».

فأجاب المستر بكوك بلهجة العزم الشديد: «لن أدع هذه العربة تتحرك خطوة واحدة، إذا لم يحمل ونكل بندقيته بشكل آخر».

وقال ونكل المسكين: «بأي شكل أحملها؟».

وأجاب المستر بكوك: «احملها بحيث توجه فوهتها إلى الأرض».

وقال ونكل: «ولكن حملها هكذا لا يتفق وقواعد الصيد».

وأجاب المستر بكوك: «لا يهمني ألا يتفق مع قواعد الصيد أو يتفق معها، فلست أريد أن أصاب بالرصاص وأنا محمول في عربة يد مراعاة للمظاهر، وإرضاء لأحد».

وقال الرجل الطويل مزمجرًا: «أنا عارف أن هذا السيد سيطلق القذيفة على أحد منا قبل أن يدري ما هو صانع».

وقال المستر ونكل، وهو يجعل فوهة البندقية إلى الأرض: «حسن، حسن لا مانع!».

وقال المستر ويلر: «أي شيء يكفل لنا الأمان، فالحياة لا يستهان بها».

وانطلقوا.

ولكنهم لم يسيروا غير بعيد حتى صاح المستر بكوك مرة أخرى: «قف!».

فقال واردل: «ما الذي جرى أيضًا؟».

وأجاب المستر بكوك: «إن بندقية طبمن ليست في وضع سليم.. أعرف أنها ليست كذلك».

وقال المستر طبمن في فزع شديد: «إيه؟ ماذا؟ ليست في وضع سليم؟».

وقال المستر بكوك: «ما دمت ممسكًا بها على هذا النحو، إنني آسف على إثارة أية اعتراضات أخرى، ولكني لا أرضى أن نتابع المسير، ما لم تجعلها كما حملها ونكل من قبلك».

وقال الحارس المديد: «أظن يا سيدي من الخير أن تفعل؛ لأنه من المحتمل كثيرًا أن تطلق الرصاصة على نفسك أو على أحد سواك».

وبادر المستر طبمن إلى النزول على الأمر، فوضع بندقيته على الصورة المطلوبة، وتابع الجمع المسير، وكان الصائدان «الهاويان» يمشيان منكسي السلاح، كجنديين بسيطين في «جنازة ملكية».

وعندئذ وقف الكلبان فجأة لا يريدان تقدمًا، وتسلل القوم خطوة واحدة، ثم وقفوا هم كذلك.

وهمس المستر ونكل قائلًا: «ما الذي عرا سيقان الكلبين؟ وما هذه الوقفة الغريبة؟».

وأجاب واردل مخافتًا: «صه! ألا تستطيع السكوت؟ ألا ترى كيف يشيران؟».

وقال المستر ونكل، وهو يتلفت حوله كأنما كان يتوقع شيئًا معينًا من جمال المشهد وروعته: «كان الكلبان الذكيان يسترعيان الأنظار إليه خاصة. أتقول يشيران.. وإلى أي شيء يشيران؟».

وقال واردل غير ملق بالًا إلى هذا السؤال في حماسة اللحظة: «افتح عينيك. والآن!».

وارتفعت عندئذ جلبة، وسمع رفيف طائر جعل المستر ونكل يتراجع كأنما قد أصابه الرصاص. وانبعث دوي طلقتين بانج! بانج! وانجاب الدخان سريعًا مكتسحًا الميدان، مقلوبًا متجعدًا في جوف الأفق».

وقال المستر ونكل، في أشد الاضطراب، وهو يتلفت ويدور في كل ناحية: «أين هي؟ قولوا لي متى أطلق النار؟ أين هي؟.. أين هي؟».

وقال واردل، وهو يتناول حجلتين وضعهما الكلبان عند قدميه: «ها هما!».

وقال ونكل في ذهلته: «كلا. كلا، إنني أقصد الأخرى».

وأجابه واردل ببرود، وهو يعيد حشو البندقية: «طارت بعيدًا، وأنت

تسأل عنها».

وقال الحارس الطويل: «أكبر ظني أننا سنلتقي بعد خمس دقائق بسرب آخر، فإذا بدأ السيد يطلق الآن فلعله مستطيع أن يخرج الرصاصة من الأنبوبة عندما تتراءى الأطيار في الفضاء».

وقهقه المستر ويلر لهذه النكتة اللاذعة.

وقال المستر بكوك، في لهجة الرثاء لصاحبه في اضطرابه وارتباكه: «يا سام!».

- «سيدي».

- «لا تضحك».

- «بلا شك يا سيدي».

ومضى المستر ونكل على سبيل التعويض عن ارتباكه السابق، يقطب تقاطيع وجهه من خلف عربة السيد، والغلام ذو الأربطة فَرِح لَاهٍ بهذا المشهد وحده، ولكنه لم يتمالك من إطلاق ضحكة مدوية، فبادر الحارس الطويل إلى لكزه كأن هذا اللكز حجة أو شفيع يبرر استدارته إلى الوراء، ليخفي ضحكاته هو من ذلك المشهد العجيب.

وقال واردل للمستر طبمن: «مرحى يا صاح. لقد أطلقت النار في هذه المرة على كل حال».

وأجاب المستر طبمن في زهو ظاهر: «أي نعم!».

وقال واردل: «أحسنت، وستصيب شيئًا في المرة التالية إذا انتبهت، سهل جدًّا، أليس كذلك؟».

فأجاب طبمن: «بلى.. سهل للغاية، وإن كانت موجعة للكف، لقد كادت تلقيني إلى الخلف. لم أكن أتصور أن هذه الأسلحة الصغيرة ترد المرء إلى الخلف على هذا النحو».

وقال الشيخ مبتسمًا: «آه! ستعتادها مع الوقت، والآن، هيا، كل شيء على استعداد، والعربة معدة هي الأخرى؟».

وقال المستر ويلر: «معدة يا سيدي».

- «هلموا إذن».

وقال سام وهو يرفع العربة: «أمسك جيدًا يا سيدي».

وصاح المستر بكوك: «إيه! إيه!».

وانطلقوا خفافًا في طريقهم.

وصاح المستر واردل حين رفعت العربة من فوق أحد الأسوار، لتدخل ميدانًا آخر، وعاد المستر بكوك فاستقر فوقها: «دعوا هذه العربة تقف الآن إلى الخلف».

وكف المستر ويلر عن دفعها وهو يقول: «سأفعل يا سيدي».

والتفت الشيخ إلى ونكل فقال: «والآن يا ونكل، اتبعني متسللًا ولا تتأخر كثيرًا في هذه المرة».

وقال المستر ونكل: «لا تخف أبدًا. هل هما يشيران؟».

وأجاب الشيخ: «كلا! كلا! ليس الآن! فلنسكت اللحظة ولنهدأ قليلًا».

وتسللوا، وكانوا على وشك أن يتقدموا في هدوء وسكينة، لو لم يعبث المستر ونكل ببندقيته، ويأتِ ببعض الحركات المعقدة الدقيقة، فيُطلِق النار في أحرج لحظة، من فوق رأس الغلام القصير، في ذلك الموضع بالذات الذي كان رأس الحارس الطويل سيكون فيه، لو أنه كان واقفًا في البقعة التي وقف الغلام فيها.

وصاح الشيخ واردل قائلًا: «لماذا بالله فعلت هذا؟» وقد رأى الطير تفر آمنة ليس عليها من سوء».

وأجاب ونكل المسكين، وهو ينظر إلى قفل البندقية، كأن النظر إليها يجدي: «لم أر بندقية كهذه في حياتي، إن رصاصها ينطلق من تلقاء ذاته، وستفعل هذا حتمًا».

وصاح واردل، في شيء من القلق والهياج: «ستفعل هذا حتمًا! أتمنى لو أنها قتلت شيئًا ومن تلقاء ذاتها أيضًا».

وقال الحارس الطويل بصوت خفيض، ولهجة المتنبئ: «لن يمضي وقت طويل يا سيدي حتى تفعل هذا».

وأجاب المستر ونكل بغضب: «ماذا تعني يا سيدي بهذه الملاحظة؟».

وقال الحارس: «لا بأس، يا سيدي، لا بأس. أنا لست متزوجًا ولا رب أسرة، وهذا الغلام الذي هنا ستأخذ أمه تعويضًا حسنًا من السير جفري إذا هو قتل في أرض صيده. أعد حشو بندقيتك يا سيدي. أعد حشوها».

وصرخ المستر بكوك من جانب العربة، وقد ريع من تلميحات ذلك الحارس وإشاراته المؤلمة: «خذوا منه هذه البندقية، ليأخذها منه أحد منكم، هل تسمعون ما أقول؟».

ولكن لم يتطوع أحد لتنفيذ أمره، وأما المستر ونكل فقد أرسل نظرة متمردة ثائرة إلى المستر بكوك، وأعاد حشو بندقيته، وانطلق مع الآخرين.

ونجد لزامًا علينا أن نقول استنادًا إلى مذكرات المستر بكوك، أن تقدُّم المستر طبمن مع الجمع كان أدنى إلى الحكمة والحذر والروية، من الطريقة التي اتبعها المستر ونكل، ولكن هذا لا ينقص بحال من فضل هذا السيد، وعلمه بكل ما يتصل بالصيد وفنونه، فقد رأينا- كما قال المستر بكوك فأحسن القول- أن خلقًا كثيرًا من أفضل الفلاسفة وأقدرهم، منذ أبعد القرون والأجيال، كانوا في زمانهم منارات عليا في العلم، من الناحية النظرية، ولكنهم عجزوا كل العجز عن تطبيق نظرياتهم من الوجهة العملية.

فقد كانت طريقة المستر طبمن متناهية في البساطة، كشأن كثير من أكبر المكتشفات، فقد أدرك في الحال بسرعة الرجل العبقري وحيطته أن أهم ما ينبغي تحقيقه من الأهداف في الصيد نقطتان: الأولى أن يُطلِق بندقيته بحيث لا يحدث أذى لنفسه، والثانية أن يُطلِقها بحيث لا يتعرض أحد من النظارة للخطر. ومن الجلي أن الوسيلة المثلى- بعد التغلب على صعوبة الإطلاق في ذاته- هي إغماض عينيه كل الإغماض، وإطلاق الرصاص في الفضاء.

وقد حدث في إحدى المرات، بعد أن أغمض المستر طبمن عينيه

وأطلق النار، ثم فتحهما، أن أبصر بطة سمينة، وهي تسقط جريحة على الأرض، فهَمَّ بأن يهنِّئ المستر ونكل بنجاحه المطرد، ولولا أن رآه يتقدم نحوه، ويمسك يده بحرارة.

وقال الشيخ: «لقد سددت يا طبمن الرماية إلى تلك الحجلة بالذات!».

وأجاب المستر طبمن: «كلا، كلا».

قال: «بل لقد فعلت، وقد رأيتك بعيني رأسي، ولاحظت أنك صوبت إليها دون سواها. لقد رأيت ذلك بنفسي، وشاهدتك وأنت ترفع البندقية لتسدد الرمية، وأريد أن أقول لك الحق إن أبرع الرماة في العالم كله لم يكن في استطاعته أن يفعل أكثر مما فعلت ولا أجمل رماية مما رميت، إنك لأبرع مما كنت أظن يا طبمن. هل سبقت لك في الصيد سابقة؟».

وقد حاول المستر طبمن الاحتجاج، وهو يبتسم ابتسامة الإيثار وإنكار الذات، ويقول: إنه لم يشترك في الصيد من قبلُ، فلم يُجْدِ الإنكار نفعًا، بل لقد اتُّخِذَتْ تلك الابتسامة دليلًا على العكس، ومن تلك اللحظة توطدت شهرته في عالم الصيد، ولم تكن تلك الشهرة هي الوحيدة التي نالها بهذه السهولة، ولا كانت الظروف السعيدة الموفقة مقتصرةً على صيد البط دون سواه.

أما المستر ونكل فقد ظل يرسل الشهب والنيران والدخان، دون الوصول إلى أية نتائج مادية تستحق الذكر، بل راح أحيانًا ينفق «الرش» في الفضاء، وأحيانًا يطلقه ماسحًا به سطح الأرض مسحًا يعرض حياة

الكلبين لخطر بالغ، فكان إطلاق الرصاص على تلك الصورة منوَّعًا كل التنويع، وغريبًا كل الغرابة، إذا نظرنا إليه على أنه معرض لهو وعبث، ولكنه من ناحية الرماية إلى هدف معين، قد يكون في الجملة إخفاقًا، ولا يخفى أن المثل السائر يقول لكل رصاصة مستقر، فإن طبقناه على رصاصات المستر ونكل، بدا لنا إنها لم تكن سوى رصاصات «لقيطة» تعسة محرومة من حقوقها الطبيعية، ألقيت إلى هذا العالم إلقاء، فلم تجد مستقرًا.

وتقدم المستر واردل إلى جانب المركبة، ومسح العرق المتصبب عن وجهه الأحمر المرح وهو يقول: «كيف الحال؟ إنه ليوم «صائف» أليس كذلك؟».

وأجاب المستر بكوك: «إنه لكذلك حقًّا. إن الشمس لحارة أشد ما تكون حرارتها، حتى بالنسبة لي، وأنا الجالس لا حراك بي، لست أدري كيف تشعر بها أنت؟».

وقال السيد الكبير: «حارة جدًّا، من غير شك وقد تجاوزت الساعة اثنتي عشرة. أتبصر تلك الربوة الخضراء التي تلوح هنالك؟».

- «بلا شك».

- «هذا هو الموضع الذي ستتناول فيه الغداء، يمين الله، ها هو ذا الغلام قد حضر بالسلة في الموعد المضروب، كأنه الساعة في دقتها».

وتهللت أسارير المستر بكوك ومضى يقول: «حقًّا إنه لكذلك. يا له من غلام طيب.. سأنفحه شلنًا في الحال. يا سام هيا، ادفع العربة».

وقال المستر ويلر، وقد جددت من قواه أخيلة الغداء وقرب تناوله: «أمسك جيدًا يا سيدي، وأنت يا صاحب الأربطة، أفسح الطريق، ولا تقلبني إن كنت تقدر حياتي الغالية، كما قال ذلك السيد للسائق وهم يسوقونه إلى طايبرن[١]».

وانطلق يسرع في خطوه، ويدفع عربة سيده بخفة نحو الربوة النضيرة، حتى وقف بها بجانب السلة تمامًا، وأقبل يُخرج ألوان الطعام منها في سرعة فائقة وجعل يناجي نفسه، وهو يصفّ الأطعمة فوق الحشائش: «فطير بلحم العجول، هذا صنف بديع جدًّا، حين تعرف السيدة التي طهته، وتتأكد أنه ليس لحم قطط، وماذا يهم إذا كان أقرب ما يكون شبهًا إلى لحم العجول حتى لا يعرف صناع الفطائر أنفسهم الفرق بين اللحمين!».

وقال السيد بكوك: «أحقًّا لا يعرفون يا سام؟».

وأجاب المستر ويلر، وهو يلمس قبعته: «كلا يا سيدي، لا يعرفون فعلًا، فقد كنت في يوم ما أسكن مع صانع فطير في مسكن واحد يا سيدي، وكان الرجل لطيفًا، ملء ثيابه لطافة، ورجلًا مجتهدًا منتظمًا في معيشته أيضًا، يستطيع أن يصنع فطيرًا من أي شيء كان، قلت له حين تأكدت الصداقة بيننا: كم من القطط تقتني يا مستر بردكس؟ قال: آه... إني أقتني كثيرًا منها. قلت: لا بد من أنك مولع جدًّا بالقطط. فغمز لي بعينه، وقال: كثير من الناس يربون قططًا، ولكنهن لا موسم لهن متى ينقضي الشتاء. قلت: لا موسم لهن، كيف؟ قال: نعم، إن للفواكه موسمًا، ولكن القطط خارج الموسم! قلت: عجبًا! ماذا تعني؟ قال: أعني! أعني أنني لن أتآمر

(١) ساحة الإعدام.

مع الجزارين على تثبيت أسعار اللحوم! وراح يضغط بشدة، ويهمس لي في أذني قائلًا: يا مستر ويلر، أرجو ألا تذكر ما سمعته هنا أبدًا، إن الموسم هو الذي له دخل في هذا كله، إن هذه الفطائر تُصنَع كلها من هذه الحيوانات النبيلة- ومضى يشير إلى قطة لطيفة صغيرة- وأنا أقدد لحومها لصنع شطائر محمرة من لحم العجول الكبيرة والكلى حسب الطلب، وفوق ذلك أستطيع أن أصنع من لحم العجال الصغير شطائر محمرة أو من الشطائر كلاوي، أو من هذا أو ذاك لحم ضأن، في دقيقة واحدة، حسب أحوال السوق، والأذواق تختلف!».

وقال المستر بكوك وهو يرتعش ارتعاشة خفيفة: «لا بد من أن هذا الرجل كان شابًّا بارعًا ماهرًا يا سام!».

ومضى المستر ويلر يقول، وهو ماضٍ في تفريغ السلة: «فعلًا يا سيدي. كانت فطائره جميلة. ماذا أرى؟ لسانًا، هذا صنف بديع، إذا لم يكن لسان امرأة، وهذا خبز، وهذا لحم خنزير مملح بديع، قطع صغيرة من اللحم البارد! مفتخر، وماذا في هذه القدور الفخارية يا هذا؟».

وأجاب الغلام وهو ينزل عن كتفه قدرين كبرتين من الفخار مربوطتين بسير من الجلد في هذه القدر: «في إحداهما «بيرة» وفي الأخرى بنتش بارد».

وقال المستر ويلر، وهو يستعرض ترتيب الأطعمة بسرور شديد: «إنه لغداء شهي في مجموعه. والآن أيها السادة اهجموا! اهجموا! كما قال الإنجليز للفرنسيين حين ثبتوا الحراب في البنادق».

ولم يكن القوم بحاجة إلى دعوة ثانية ليؤدوا لهذه الوجبة حقها، ولم يكن المستر ويلر، وذلك الحارس المارد، والغلامان الآخران ينتظرون مَنْ يدعوهم إلى الجلوس فوق العشب على مسافة قصيرة، والانقضاض على نصيب طيِّب من اللحوم، وكانت من فوقهم شجرة سرو كبيرة تغمرهم بظل وارف، ويحيط بهم مشهد ممتع تترامى فيه حيالهم المروج والحقول، وتتخلله أسوار وحواجز كثيرة من عوسج نضير.

وأنشأ المستر بكوك يقول، وقد أخذت بشرة وجهه البليغ في تعبيره تتقشر سريعًا من أثر التعرض للهواء: «هذا مشهد بهيج! بهيج كل البهجة!».

وأجاب واردل: «هو كذلك، هو كذلك يا صاح هيا، كأسًا من بنتش[1]».

وقال المستر بكوك: «بكل سرور». وكان البشر الذي طفح على وجهه، بعد تناول الشراب، دليلًا على صدق جوابه، وانثنى يقول وهو يمسح بلسانه شفتيه: «بديع، ممتع للغاية، سأتناول كأسًا أخرى، إنه لرطب، رطب جدًّا، هلموا يا سادة، لنشرب نخب أصدقائنا في دنجلي ديل».

وراح يصب الشراب من القدر وهو لا يفارقها.

وشرب النخب وسط صيحات عالية.

---

(١) Punch نوع من المسكر.

وقال المستر ونكل، وهو يأكل خبزًا ولحم خنزير بمطواة جيب: «سأقول لكم ماذا أنا صانع للعودة إلى الصيد. سأضع بطة محشوة فوق قمة أحد الأعمدة وأتدرب على رميها، مبتدئًا من مسافة قصيرة، ثم آخذ في إطالتها شيئًا فشيئًا، وأعتقد أن هذا تدريب بديع!».

وقال المستر ويلر: «إنني أعرف سيدًا فعل ذلك يا سيدي، مبتدئًا بياردتين، ولكنه لم يعد إلى هذه التجربة أبدًا؛ لأنه من الطلقة الأولى نسف الطائر نسفًا، فلم ير أحد له ريشًا بعد ذلك».

وقال المستر بكوك: «يا سام!».

وأجاب المستر ويلر: «نعم يا سيدي».

قال: «من فضلك احتفظ بنوادرك حتى يطلب إليك».

- «بلا شك يا سيدي».

وهنا غمز المستر ويلر بعينه غمزة لم يُخْفِها وعاء الجعة الذي كان يرفعه إلى شفتيه بلذة متناهية، فلم يسع الغلامين غير الانطلاق معًا في الضحك، كما تفضل الرجل الطويل فابتسم.

وقال المستر بكوك، وهو ينظر بجد إلى تلك القدر: «إن هذا البنتش السائغ فاخر بلا شك، واليوم قائظ مفرط القيظ، وأنت يا طبمن يا صديقي العزيز، ألك في كأس أخرى منه؟».

وأجاب المستر طبمن: «بأعظم السرور». وبعد أن شرب المستر بكوك الكأس تناول أخرى، لكي يتبين هل في «البنتش» قشر برتقال؛ لأن قشر البرتقال لا يوافق معدته دائمًا، ولما لم يجد فيه أثرًا له، تناول

كأسًا أخرى، في صحة صديقهم الغائب، ثم وجد نفسه مضطرًا حتمًا إلى شرب نخب صانع البنتش ومقطره «المجهول».

وما لبثت الكؤوس المتوالية أن أحدثت أثرًا كبيرًا في نفس المستر بكوك؛ فطفح مُحَيَّاه بِشرًا ظاهرًا، وابتسامًا كثيرًا، وضحكًا متتابعًا حتى بدت نواجذه، ومرحًا شديدًا يبرق في عينيه، وأخذ يستسلم شيئًا فشيئًا لحميا الشراب، وبطشة الصهباء، وزاده اشتداد الهجير استسلامًا، فأبدى رغبة قوية في تذكر أغنية كان قد سمعها في طفولته، ولكنه لم يستطع أن يتذكرها، فالتمس تنبيهها واحتثاثها بكؤوس أخرى من «البنتش» تبين أنها أحدثت عكس التأثير الذي كان يريده منها، فبعد أن نسي كلمات تلك الأغنية، بدأ ينسى النطق بأي كلام إطلاقًا، وأخيرًا، وبعد أن تحامل على ساقيه ليخطب القوم، ويُسمِعهم كلامًا بليغًا، سقط في العربة، وراح في سبات عميق في اللحظة ذاتها.

وبعد أن أعيدت الصحاف إلى السلة، وتبيَّن أنه من المتعذر تمامًا إيقاظ المستر بكوك من نعاسه الشديد، أخذ القوم يبحثون هل كان يحسن بالمستر ويلر أن يدفع العربة التي تُقِلُّ سيده لمواصلة المسير، أو أن من الأفضل أن يتركوه حيث هو، حتى يعودوا إليه، وتقرَّر أخيرًا الأخذ بالخطة الثانية، ولم تكن بقية الرحلة لتتجاوز الساعة، وقد ألحف المستر ويلر في مرافقة الجماعة، فصحت النية على ترك المستر بكوك نائمًا في العربة، والعودة إليه بعد الفراغ من الصيد، وانطلقوا بعد أن تركوه يغطُّ هادئًا مستريحًا في الظل كما يشاء ويشاء له الغطيط.

والظاهر أن ليس ثمة سبب معقول للشك في أن المستر بكوك سيظل

في غطيطه تحت الظلال حتى يثوب إليه أصحابه، أو حتى ترتمي ظلال المساء على المروج، إذا هم تخلفوا عن الأوبة إليه، ما دمنا نتصور أنه قد تُرِك في ذلك الموضع بأمان، ولكنه لم يُترَك في أمان فعلًا، وإليك السبب.

كان الضابط بولدويج رجلًا قصير القامة شديد البطش، يرتدي ثوبًا سابغًا أزرق اللون، وغطاء رقبة أسود، وإذا تنزَّل يومًا من عليائه ليتجول في رحاب أرضه، حمل معه عصا غليظة من الخيزران ذات كعب من نحاس، واصطحب بستانيًّا، وصبي بستاني يبدو الحلم على وجهيهما، وتلوح الوداعة على سحنتيهما، وكان الضابط بولدويج يُصدِر إليهما- لا إلى العصا- الأوامر في عظمة وغلظة، وكانت داره مغنى جميلًا، وأرضه بساتين وساحات صيد، وكل شيء حوله رفيع وجليل وعظيم.

ولم يقضِ المستر بكوك في ذلك السبات الذي استولى عليه غير نصف ساعة، حتى أقبل الضابط بولدويج يتبعه البستانيان، مسرعًا على قدر ما يواتيه حجمه، ويليق بخطر شأنه، وحين اقترب من السروة الظليلة تمهَّل في مسيره، وأخذ نفسًا مستطيلًا، ونظر إلى ذلك المشهد، كأنما كان يعتقد أن المشهد ذاته أولى به أن يتشرف بأنه قد استرعى انتباهه، ثم راح يضرب بعصاه الأرض وينادي البستاني قائلًا: «هنط!».

وأجاب البستاني: «نعم يا سيدي».

- «حش هذا الموضع صباح غد، هل أنت سامع يا هنط؟».

- «نعم يا سيدي».

- «واعتن بتنظيفه لي وتنظيمه. هل أنت سامع يا هنط؟».

- «نعم يا سيدي».

- «وفكرني في صنع لافتة خشبية لتحذير العامة من دخول هذه الأرض، وطلب الصيد فيها وما إلى ذلك. آأنت سامع؟ آأنت سامع؟».

- «لن أنسى ذلك يا سيدي».

وتقدم الآخر ويده مرفوعة إلى قبعته فقال: «أستميحك المعذرة يا سيدي».

وقال الضابط بولدويج: «إيه يا ولكنز ما حكايتك؟».

- «أستميحك المعذرة يا سيدي. ولكني أعتقد أنه كان هنا اليوم متعدون يطلبون صيدًا».

وقال الضابط بولدويج مزمجرًا وهو يدير عينيه في المكان «ها!».

- «نعم يا سيدي، وأحسبهم تناولوا غداءهم هنا يا سيدي».

وقال الضابط بولدويج وقد وقعت عينه على الفتات والفضلات المتناثرة فوق الحشائش: «ما أوقحهم وأشد جرأتهم! أحسبهم قد فعلوا، والواقع أنهم قد التهموا طعامهم هنا».

ومضى يقول في حنق وهو يشدد قبضته على عصاه الغليظة: «ليتني رأيت هؤلاء المتشردين هنا!».

وقال ولكنز: «عفوًا يا سيدي ولكن...».

وزأر الضابط قائلًا: «ولكن ماذا؟...».

وأتبع عينيه نظرات ولكنز الخائفة، فوقعتا على العربة والمستر بكوك.

وقال الضابط وهو يلكز المستر بكوك عدة لكزات بعصاه: «من تكون أيها الشقي؟ وما اسمك؟».

وغمغم المستر بكوك قائلًا: «بنتش بارد! وراح في النوم مرة أخرى».

وصاح الضابط بولدويج: «إيه..».

ولكنه لم يتلق جوابًا.

وسأل الضابط تابعيه: «ما هو الاسم الذي قاله؟».

وأجاب ولكنز: «أظنه قال بنتش يا سيدي».

وقال الضابط بولدويج: «هذه وقاحته، هذه وقاحة اللعين، إنه يتظاهر الآن بالنوم، إنه سكران. رجل من السوقة طافح خمرًا، ابعده بعربته يا ولكنز. أسرع بإبعاده من وجهي، هيا ادفعه».

وقال ولكنز بخوف شديد: «إلى أين يا سيدي؟».

وأجاب الضابط بولدويج: «إلى الشيطان!».

وقال ولكنز: «سمعًا وطاعة يا سيدي».

وقال الضابط: «قف!».

فامتثل البستاني للأمر.

وقال الضابط: «ادفع به، ادفع به إلى الحظيرة، ودعنا نر هل سيدعو نفسه بنتش حين يفيق. لا أريد أن أتنكد بسببه، هيا، ادفع به».

ودفع المستر بكوك امتثالًا لهذا الأمر القاهر، وانطلق الضابط بولدويج الجبار في طريقه متورمًا منتفخًا من سورة الغضب.

ولشد ما كانت دهشة الجماعة حين عادوا فلم يجدوا المستر بكوك في الموضع الذي تركوه فيه، وبدا لهم أنه أخذ العربة معه، فقد كان ذلك أغرب شيء سمع الناس به، وأشد شيء غموضًا واستغلاقًا على الأفهام، فإن نهوض رجل أعرج مستويًا على ساقيه بلا سابق إنذار، وانصرافه من ذلك الموضع قد يكون حادثًا خارقًا للمألوف إلى أبعد الحدود، أما أن يتمكن من دفع عربة ثقيلة أمامه، على سبيل العبث والتسلية، فشيء يبلغ قطعًا حد المعجزات.

ومضوا ينقبون في كل ركن، ويبحثون في كل زاوية، آحادًا ومجتمعين، ويصيحون بأعلى أصواتهم، ويطلقون الصفير والضحكات، وينادون باسمه، ولكن كانت النتيجة واحدة، وهي الفشل في العثور عليه، وبعد بحث لا جدوى منه بضع ساعات انتهوا إلى قرار أليم، وهو أن يعودوا أدراجهم يائسين.

وكان المستر بكوك عندئذٍ قد نُقِل بعربته إلى الحظيرة، وتُرِك في أمان، وهو لا يزال مستغرقًا في النوم، ولشد ما كان فرح أولاد القرية، بل ما كان أشد سرور ثلاثة أرباع أهلها، وقد احتشدوا من حول الحظيرة؛ منتظرين حتى يروه صاحيًا من النوم. وإذا كان مجرد رؤيتهم إياه وهو مدفوع إليها فوق العربة قد أثار في نفوسهم أشد السرور، فما بالك بفرحهم وابتهاجهم حين يشهدونه، بعد بضع نداءات غير واضحة «يا سام!» قد استوى جالسًا في العربة، وراح ينظر وهو في دهشة لا توصف إلى الوجوه المترائية لعينيه. لقد كان فرحهم في تلك اللحظة بلا شك أضعافًا مضاعفة، وكانت الصيحة العامة بالطبع هي الإشارة بأنه قد

صحا من النوم، وجاء تساؤله بالضرورة: «ما الخبر؟» فكان مدعاة إلى صيحة أشد من الأولى، إن أمكن أن يكون بعد الأولى ما هو أشد منها.

وصرخ النظارة: «ما أعجبه من منظر!».

وصاح المستر بكوك: «أين أنا؟».

وأجاب الغوغاء: «في الحظيرة».

فسألهم المستر بيكوك: «كيف جئت إلى هنا؟ وماذا كنت أفعل؟ ومن أين جيء بي؟..».

فكان الرد الوحيد: «بولدويج.. الضابط بولدويج».

وعاد المستر بكوك يصيح: «أخرجوني، أين خادمي؟ وأين أصحابي؟».

وصاح الناس به: «لا أصحاب لك، مرحى!».

وألقى بعضهم عليه لفتة، ورشقه آخرون بقطعة من البطاطس، وترامت إليه بيضة، وبضعة رموز أخرى، وأدلة على فرح القوم وانبعاثهم إلى المداعبة والعبث. وليس في استطاعة أحد أن يقول إلى متى كان هذا المشهد سيطول، أو إلى أي حد كان المستر بكوك سيعاني من عبث العابثين، لو لم تقف فجأة عربة كانت مسرعة بقرب ذلك الموضع، وينزل منها الشيخ واردل وسام ويلر، وينطلق أولهما مسرعًا، فيصل إليه في أقل مما تستغرقه كتابة هذه السطور، إن لم نَقُلْ قراءتها، ويحمله إلى المركبة، بينما كان الآخَر قد انتهى من الجولة الثالثة والأخيرة في معركة منفردة بينه وبين شماس القرية.

وصاحت عدة أصوات تقول: «نادوا المأمور!».

ووثب المستر ويلر إلى مكانه بجانب السائق وهو يقول: «هلموا أسرعوا فنادوه، وأبلغوه تحياتي، تحيات المستر ويلر، وقولوا له إنني ضربت شماسكم، وإذا أرسل أحدًا سواه فسأعود غدًا وأوسعه هو الآخر ضربًا. هيا سق أيها الحوذي!».

وقال المستر بكوك حين خرجت المركبة من حدود القرية: «سأكلف أحدًا برفع دعوى حجز بلا مبرر على الضابط بولدويج بمجرد وصولي إلى لندن».

وقال واردل: «يظهر أننا تعدينا على أرضه».

وعاد المستر بكوك يقول: «لا يهمني. سأرفع دعوى حتمًا».

وقال واردل: «كلا، لن تفعل».

وأجاب المستر بكوك منفعلًا: «بل سأفعلن بحق». وكاد يقسم، لولا أن بدت أمارات المزاح على وجه واردل، فأمسك وقال: «ولم لا؟».

وأجاب الشيخ واردل، وهو يكاد يستلقي من الضحك: «لأنهم قد يقلبون الدفة على أحدنا فيقولون إنه كان قد أفرط كثيرًا في شرب البنتش».

فلم يتمالك المستر بكوك من إخفاء ابتسامة خطفت بوجهه، وما لبثت الابتسامة أن امتدت فكانت ضحكة، وتطورت الضحكة إلى قهقهة مدوية، والقهقهة إلى زأرة عامة، ولكي يظل مزاجهم صافيًا، وقفوا عند أول حانة وجدوها عل الطريق وطلبوا «دورًا» من البراندي والماء وقدرًا كبيرًا من شراب شديد البطش للمستر ويلر.

# الفصل العشرون

**يبين كيف بدأ ددسن وفج من رجال الأعمال، وكيف كان الكتبة أهل مجانة، وكيف جرى حديث مؤثر بين المستر ويلر ووالده الغائب عنه من عهد طويل، ويصف أيضًا صفوة «الزبائن» الذين يختلفون إلى حانة «ماجباي اصطمب» وكيف يكون الفصل التالي ممتعًا غاية الإمتاع...**

في الطابق الأرضي من واجهة بيت أغبر الطلاء، في الطرف الأقصى من محكمة «فريمان» في كورنهل، كان يجلس الكتبة الأربعة الذين يعملون في مكتب السيدين ددسن وفج المحاميين أمام المحكمة العليا ومحكمة الأحوال الشخصية في وستمنستر، والقضاء العالي، وهم لا يرون نورًا ولا شمسًا، إلا كما يرجو إنسان أن يرى لمحات منهما، وهو في قاع بئر عميقة، ولا يتاح لهم رؤية الكواكب في السماء، إلا ما يتاح له في ذلك الموضع المنعزل.

وكان مكتبهم غرفة مظلمة عفنة رطبة ذات حاجز يحجبهم عن الأنظار، ومن خلفه كرسيان قديمان من الخشب، وقد قامت فوق أحد

جدرانها ساعة «دقاقة» شديدة الدق و«تقويم» للأيام والشهور، ومشجب للمظلات، وآخران للقبعات، وبضعة أرفف وضعت فوقها إضبارات تتدلى منها قصاصات تحوي أرقامها وعناوينها، وملفات من أوراق قذرة، وصناديق قديمة من الخشب وُسِمت بعناوينها كذلك وبياناتها، وعدة زجاجات فخارية للمداد من مختلف الأشكال والأحجام، وفي الحجرة باب زجاجي يؤدي إلى دهليز يفضي إلى الفناء.

وإلى الجانب الخارجي من ذلك الباب الزجاجي تقدَّم المستر بكوك، يتبعه سام ويلر، في صبيحة يوم الجمعة الذي تلا الحادث الذي رويناه بأمانة في الفصل السابق.

وصاح صوت من خلف الحاجز؛ ردًّا على طرقة خفيفة بالباب من كف المستر بكوك: «ادخل، ألا تستطيع أن تدخل؟».

ودخل على الصوت المستر بكوك وسام.

وتقدم المستر بكوك، والقبعة في يده نحو الحاجز في رفق وسأل قائلًا: «هل المستر ددسن أو المستر فج هنا يا سيدي؟».

وأجاب الصوت قائلًا: «المستر ددسن ليس هنا الآن، والمستر فج مشغول في هذه اللحظة»، وتطلع الرأس الذي انبعث هذا الصوت منه من فوق الحاجز والقلم خلف أذنه، إلى المستر بكوك.

وكان رأسًا رثًّا، تلوى شعره المصفر المفروق على جانب واحد منه، والمدهون ببعض الأدهنة العطرة ليستقر في موضعه، فبدا ذوائب شبه مستديرة حول وجه مسطوح ذي عينين ضيقتين، وقميص قذر، وربطة عنق سوداء ناحلة.

وعاد المستر بكوك يسأل: «ومتى ينتظر أن يعود المستر ددسن يا سيدي؟».

- «لا أعرف».

- «وهل يطول انشغال المستر فج يا سيدي؟».

- «لا أعرف».

وشرع الرجل في إصلاح قلمه بكل تؤدة، بينما ضحك كاتب آخر ضحكة الموافقة على ما أجاب به زميله، وكان يذيب قدرًا من مسحوق «السيدلتز» الملين، خلف غطاء مكتبه.

وقال المستر بكوك: «أظن أنه يحسن بي أن أنتظر».

ولم يتلق جوابًا، فجلس غير مأمور، وأصغى إلى دقات الساعة، وغمغمة الكتبة وهم يتجاذبون أطراف الحديث.

قال أحدهم، وهو في رداء رمادي وأزرار نحاسية وسراويل سود وحذاء قصير، في ختام كلام له غير مسموع عن واقعة حال له: «في الليلة الماضية، لقد كانت ممتعة، أليس كذلك؟».

وقال الرجل الذي يمزج «السيدلتز»: «جد ممتعة، جد ممتعة».

وقال ذو الرداء الرمادي: «وكان توم كومنز في كرسي الرياسة، وكان الوقت منتصف الخامسة حين وصلت إلى سمرز تاون، وكنت سكران ثملًا، فلم أهتد إلى الثقب الذي يدخل فيه المفتاح، فاضطررت إلى دق الباب وإيقاظ المرأة العجوز. ولست أدري ماذا سيقول العجوز فج إذا عرف الحادث؟ سيطردني من العمل، أليس كذلك؟».

وضحك الآخرون جميعًا لهذه الفكرة اللطيفة.

وقال ذو الرداء الرمادي: «لقد حدث فصل بديع مع فج هنا في هذا الصباح، فبينما كان جاك في الدور العلوي يفرز الأوراق، وأنتما الاثنان قد خرجتما للذهاب إلى مكتب دفع الرسوم، جاء فج إلى هنا ليفتح البريد، وإذا الرجل الذي استصدرنا ضده أمر أداء في «كمبرول» كما تعرفون، يفاجئنا، ما اسمه؟ فقد نسيت».

وقال الكاتب الذي كان قد خاطب المستر بكوك: «اسمه رمزي».

وقال: «آه! رمزي وهو عميل طيب موعوك، ونظر إليه الشيخ فج بحدة شديدة وقال: خير إن شاء الله؟ وأنتم تعرفون طريقته، هل جئت لتسوية المسألة؟ وأجاب رمزي وهو يدس يده في جيبه ويخرج النقود: «نعم يا سيدي، إن مقدار الدين جنيهان وعشرة شلنات والنفقات ثلاثة جنيهات وخمسة شلنات. وها هي ذي يا سيدي» وزفر زفرة حارة، وهو يقدم النقود ملفوفة في ورقة «نشاف». فنظر الشيخ فج أولًا إلى المال، ثم إلى الرجل، ثم سعل سعلته المعهودة، وعندئذ عرفت أنه يضمر أمرًا. قال: «ألا تدري أن هناك إعلانًا سيزيد جملة النفقات إلى حد كبير؟» فأجفل رمزي من هذا القول، وأجاب: «لا تقل يا سيدي، إن الأمر وصل إلى علمي ليلة أمس فقط، يا سيدي» وأجاب فج: «أقول هذا وأكرره. لقد ذهب كاتبي الساعة لتسجيله. ألم يذهب المستر جاكسون لتسجيل الإعلان في قلم الكتاب بشأن قضية «بولمان ورمزي» يا مستر وكس؟» فقلت: طبعًا نعم، فسعل فج سعلة أخرى ونظر إلى رمزي، وقال هذا: «يا إلهي! وأنا الذي كدت أجن في سبيل جمع هذا المبلغ من ها هنا

وها هنا، ولم أحصل عليه إلا بشق، ثم لا ينتهي الأمر إلى نتيجة» وقال فج بفتور: «لا نتيجة مطلقًا، فالأفضل أن تعود فتجمع مبلغًا آخر وتأتي به في الموعد المضروب» وأجاب رمزي وهو يضرب المكتب بقبضة يده: «ولكني والله لا أستطيع» وقال فج وقد بدأ يغض تعمدًا: «لا تضايقني يا سيدي» وقال رمزي: «لست أضايقك في شيء يا سيدي» وقال فج: «بل أنت تضايقني فعلًا. اخرج من المكتب يا سيدي وارجع لي حين تعرف كيف تكون مؤدبًا» وعندئذ حاول رمزي أن يتكلم، ولكن فج منعه، فرد المال إلى جيبه وتسلل منصرفًا. وما كاد الباب يغلق حتى دار الشيخ فج نحوي، وعلى وجهه ابتسامة بديعة، وأخرج الإعلان من جيبه، وقال لي: «اسمع يا وكس، خذ مركبة واذهب إلى المحكمة بكل سرعة ممكنة وسجل هذا الإعلان. إن المصاريف والأتعاب في أمان، لأنه رجل مستقيم وله أسرة كبيرة ومرتبه خمسة وعشرون شلنًا في الأسبوع، وإذا أمكننا أن نحصل على حكم بالأداء، وهو ما أنا واثق به، فسوف ينقدنا الثمن أصحاب العمل الذين يستخدمونه، وهكذا يتسنى لنا أن نأخذ منه كل ما في إمكاننا أخذه، اسمع يا مستر وكس، إنه عمل لا يتنافى مع أحكام المسيحية وتعاليمها، لأنه سينصلح حاله بهذا الدرس النافع الذي سيُعطى له، وهو رجل ذو أسرة كبيرة، ودخل صغير، حتى لا يعود إلى الاستدانة. ألا ترى ذلك يا مستر وكس؟ ألست معي في هذا؟ وابتسم ابتسامة مطمئنة رفيقة وانصرف، وكان منظره في تلك اللحظة ممتعًا».

وسكت المستر وكس لحظة، ثم عاد يقول بلهجة إعجاب شديد: «إنه رجل عمل بديع، بديع حقًا، أليس كذلك؟».

وأمّن الثلاثة الآخرون على قوله، وأحسوا بارتياح لا حد له لهذه

القصة التي رويت لهم.

وهمس المستر ويلر لسيده قائلًا: «إنهم خلق ظرفاء، أهل لطف يا سيدي!».

وأومأ المستر بكوك موافقًا، وسعل ليجتذب أنظار السادة الجالسين خلف «الدريئة»، وكان هذا الحديث القصير الذي دار بينهم قد أراح خواطرهم، فتنازلوا إلى إظهار شيء من الاهتمام بذلك الغريب.

فقال جاكسن: «لست أدري هل انتهى فج من عمله الآن؟».

وقال وكس، وهو ينزل بكل رفق وتؤدة من فوق كرسيه الطويل: «سأرى أي اسم أحمله إلى المستر فج».

وقال الرجل الذائع الصيت صاحب هذه المذكرات: «بكوك».

وصعد المستر جاكسن السلم ليؤدي هذه المهمة، وعاد على الأثر يقول: إن المستر فج سيقابل المستر بكوك بعد خمس دقائق، وعاد إلى مكتبه بعد أن نقل الرسالة التي جاء بها.

وهمس وكس: «ما هو الاسم الذي ذكر؟».

وأجاب جاكسن: «بكوك. إنه الشخص المدعى عليه في قضية باردل وبكوك».

وتعالت فجأة مواقع أقدام مختلطة بضحك مكبوت من خلف الحاجز.

وهمس المستر ويلر قائلًا: «إنهم، يهزأون بك يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «يهزأون بي يا سام! ماذا تعني بقولك يهزأون؟».

وهنا أشار المستر ويلر بإبهامه من فوق كتفه، فتطلع المستر بكوك ببصره، فتبيَّن له أن وجوه الكَتَبَة الأربعة جميعًا تنمُّ عن سرور بالغ، وأنهم يطلون برؤوسهم من فوق الحاجز الخشبي، ويدققون البحث في شكل هذا العابث «المزعوم» بأفئدة النساء والمكدر لصفاء عيشهن، وما إن تطلع ببصره حتى توارت تلك الرؤوس فجأة، وتلا اختفاءها صرير الأقلام وهي تمر على الورق بسرعة متناهية.

ودق الجرس في المكتب فجأة، طالبًا حضور المستر جاكسن إلى مكتب فج، فانصرف مسرعًا، وعاد يقول إنه، أي فج، مستعد لمقابلة المستر بكوك لو تكرم بالصعود إلى غرفته.

وصعد المستر بكوك السلم، تاركًا سام ويلر في الطابق الأرضي، وكان مكتوبًا على باب الغرفة «المستر فج» بحروف واضحة، وبعد أن طرق جاكسن الباب وقيل له: ادخل، تقدم ليعلن أن المستر بكوك قد حضر.

وسأل المستر فج الكاتب: «هل المستر ددسن هنا؟».

وأجاب جاكسن: «لقد حضر اللحظة يا سيدي».

- «ادعه إلى الحضور».

- «نعم يا سيدي».

وانصرف جاكسن.. وانثنى المستر فج يقول للمستر بكوك: «تفضل

بالجلوس يا سيدي، ها هو ذا الورق يا سيدي، وسيأتي شريكي في الحال، وعندئذ نستطيع أن نتحادث في هذه المسألة يا سيدي».

وجلس المستر بكوك وتناول الورق، ولكنه لم يقرأه، بل مضى يطل من فوقه على الرجل الجالس أمامه، فإذا هو يبدو لعينه كهلًا ذا وجه كثير البثور، يلوح كأنه من معاشر النباتيين وأكلة الخضر، في رداء أسود، وسراويل رمادية، وأغطية سيقان سود، وكأنه جزء لا يتجزأ من المكتب الذي جلس إليه، ويماثله تفكيرًا وإحساسًا.

وانقضت بضع لحظات في صمت، وعندئذٍ دخل المستر ددسن، فإذا هو رجل بدين، مهيب، عبوس، جهير الصوت.

وابتدأ الحديث.

قال فج: «ها هو المستر بكوك».

وقال ددسن: «آه.. أأنت المدعى عليه في قضية باردل وبكوك، يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «أنا يا سيدي».

وقال ددسن: «حسنًا يا سيدي، وماذا تقترح؟».

وتبعه فج فقال: «آه، ماذا تقترح يا مستر بكوك؟» ودس يديه في جيبي سراويله، وأسند ظهره إلى المقعد.

وقال ددسن: «صه يا فج، ودعني أسمع ماذا يريد المستر بكوك أن يقول».

ونظر المستر بكوك بهدوء إلى الزميلين وأنشأ يقول: «لقد جئت أيها

السيدان إلى هنا لأبدي دهشتي حين تلقيت كتابكما منذ أيام، ولأسأل ما هي الأسباب التي ستستندون إليها في رفع الدعوى عليَّ؟».

ولم يكد فج يقول: «الأسباب التي....» حتى منعه ددسن من الكلام قائلًا: «يا مستر فج، أنا سأتكلم».

وقال فج: «معذرة يا مستر ددسن».

ومضى ددسن في تعال وسمو يقول: «أما عن أسباب الدعوى، فهذه تسأل عنها محاميك، وتستطلع شعورك، أما نحن يا سيدي فليس أمامنا غير أقوال موكلتنا، وقد تكون أقوالها يا سيدي صحيحة، وقد لا تكون كذلك، وقد تكون مصدقة، وقد تكون بعيدة عن التصديق، ولكن إذا كانت صحيحة، ومصدقة، فلست أتردد في القول يا سيدي بأن حججنا في الدعوى قوية، لا يدحضها شيء، وقد تكون سيئ الحظ يا سيدي، وقد تكون عامدًا، ولكن إذا أنا طلبت بوصفي محلفًا مؤديًّا اليمين، لإبداء رأيي في تصرفك، فلست أتردد في القول بأني لا أملك غير رأي واحد فيه».

وهنا نصب المستر ددسن قامته، بلهجة المستاء من إنكار فضله، ونظر إلى فج، فما كان من هذا إلا أن غيب يديه في جيبه، وهز رأسه هزة الحكمة، وقال بلهجة الموافقة التامة: «بلا أدنى شك».

وقال المستر بكوك والألم الشديد مرتسم على وجهه: «اسمح لي يا سيدي أن أؤكد لك إنني في هذا الأمر سيئ الحظ إلى أبعد حد».

وأجاب ددسن قائلًا: «أرجو أن تكون كذلك يا سيدي، بل يقيني

إنك كذلك يا سيدي. فإن كنت حقيقة بريئًا مما اتهمت به، فأنت أسوأ حظًّا من أي إنسان يمكن أن يصاب بسوء الحظ. ما رأيك يا مستر فج؟».

وقال فج وهو يبتسم ابتسامة من لا يصدق ما سمع: «إنني أقول ما قلته تمامًا».

ومضى ددسن: «إن الإذن الصادر برفع الدعوى صادر يا سيدي من الجهة التي تملك إصداره، يا مستر فج أين سجل صحف الدعوى؟».

وقال فج وهو يناول زميله سجلًا مربع الشكل ذا غلاف من الورق المقوى: «ها هو ذا».

ومضى ددسن يقول: «ها هو ذا المدون في السجل «مدلسكس في قضية مارتا باردل ضد صمويل بكوك.. التعويض المطلوب عن الاضرار ألف وخمسمائة جنيه- الوكيل عن المدعية ددسن وفج- في ٢٨ أغسطس عام ١٨٣٠» كل شيء قد تم وفقًا للقانون يا سيدي».

وسعل ددسن ونظر إلى فج، فقال هذا: «تمامًا» وعادا ينظران معًا إلى المستر بكوك.

وقال المستر بكوك: «أفهم من هذا إذن أن في نيتكما فعلًا المضي في الدعوى؟».

وأجاب ددسن بشيء أقرب إلى الابتسام بقدر ما يسمح له مركزه: «تفهم يا سيدي؟ لك أن تفهم هذا بلا ريب».

وقال المستر بكوك: «وأن التعويض هو فعلًا مقدر بألف وخمسمائة جنيه؟».

وأجاب ددسن: «وإلى هذا الفهم لك أن تضيف تأكيدي أننا لو أردنا أن نؤثر في موكلتنا، لجعلنا التعويض ثلاثة أضعاف هذا القدر يا سيدي».

وقال فج، وهو ينظر إلى ددسن: «وأعتقد أن السيدة باردل قالت إنها لن ترضى بأقل من ذلك درهمًا واحدًا».

وأجاب ددسن بتجهم: «بلا نزاع لأن الدعوى إنما بدأت الآن، ولا يجدي فيها قبول أي تراض من جانب المستر بكوك، حتى وإن أراد تراضيًا».

وانثنى إلى المستر بكوك فقال وهو يلوح بقصاصة من الورق في يمناه، ويقدم صورة منها بكل لطف إليه: «وما دمت لم تعرض شروطًا يا سيدي، فمن الخير أن أقدم إليك نسخة من الإذن الصادر، وأحتفظ بالأصل وهو في يميني كما ترى».

ونهض المستر بكوك من مجلسه، ونهض معه غضبه في وقت واحد، وهو يقول: «حسن جدًّا، حسن جدًّا، أيها السيدان. سيتصل بكما وكيلي».

وقال فج وهو يفرك يديه: «سنكون سعيدين جدًّا إذا فعل».

وقال ددسن وهو يفتح الباب: «جدًّا».

وعلى رأس السلم وقف المستر بكوك الثائر، ثم استدار قائلًا: «اسمحا لي أيها السيدان قبل انصرافي أن أقول إنه ليس في جميع الإجراءات المعيبة الخبيثة ما هو....».

وهنا قاطعه ددسن بأدب بالغ قائلًا: «قف يا سيدي لا تذهب، يا مستر

جاكسن، يا مستر وكس!».

وأجاب الكاتبان، وقد ظهرا في أسفل السلم: «نعم يا سيدي».

قال: «أريد منكما فقط أن تسمعا ما سيقوله السيد. من فضلك استمر يا سيدي. أظنك قلت إنه ليس في جميع الإجراءات المعيبة الخبيثة ما هو...».

وأجاب المستر بكوك وقد تملكه الغضب: «نعم. لقد قلت إنه ليس في جميع الإجراءات المعيبة الخبيثة التي التجئ إليها في يوم من الأيام، ما هو أعيب من هذا الإجراء ولا أخبث منه. وأنا الآن أكرر ما قلت يا سيدي».

وقال ددسن: «هل سمعت يا مستر وكس؟».

وقال فج في أثره: «لا تنس هذه العبارات بالنص يا مستر جاكسن».

وقال ددسن: «ولعلك تحب يا سيدي أن تسمينا «نصابين» فقلها من فضلك إذا شئت، هلم يا سيدي قلها من فضلك».

وقال المستر بكوك: «فعلًا أنتم نصابون!».

وقال ددسن: «جميل جدًّا هل أنت سامع أيها الواقف في أسفل السلم، يا مستر وكس، أنت شاهد!؟».

وأجاب وكس: «نعم يا سيدي».

وأضاف فج قائلًا: «يحسن أن تصعدا قليلًا إذا لم تستطيعا سماع ما يقول. تفضل يا سيدي، استمر بالله عليه. الأفضل أن تسمينا لصوصًا يا سيدي، أو لعلك تحب أن تتعدى على أحد منا، فافعل يا سيدي إذا

شئت، فلن نبدي أقل مقاومة. تفضل أرجوك».

وتقدَّم فج على سبيل الإغراء والتحريض، فوقف على منال قبضة المستر بكوك، وليس ثمة شك في أنه كان سيلبي ذلك الرجاء المُلِحَّ، لولا تدخُّل سام في تلك اللحظة، وكان قد سمع ذلك الحوار، فخرج مسرعًا من المكتب، وصعد السلم، وأمسك بذراع سيده، وهو يقول: «تعال، إن مشاهدة لعبة المضرب والكرة جميلة جدًّا، ولكنها بينك وبين اثنين من المحامين، وأنت لا بالكرة ولا هما بالمضرب. منظر لا يسر... هيا بنا يا سيدي، وإذا أردت أن تريح خاطرك بضرب أحد، فتعال إلى الفناء واضربني أنا، ولكن الضرب هنا عملية غالية التكاليف».

وراح المستر ويلر دون أن يكلف نفسه شيئًا ينزل سيده السلم ويسير به إلى الفناء، حتى إذا استقر به في «كورنهل» واطمأن، عاد يمشي خلفه، تاركه يذهب به إلى أي مكان يشاء.

ومضى المستر بكوك مشدوهًا شارد الخاطر، فاجتاز دار البلدية، وعطف على حي شيبسايد، وبدأ سام يعجب له أين تراه يريد الذهاب، وعندئذ دار سيده إليه فقال: «يا سام، سأذهب في الحال إلى مكتب المستر بركر».

وأجاب المستر ويلر: «هذا، هو المكان بالذات الذي كان أولى بك أن تذهب إليه في الليلة الماضية يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «هذا صحيح يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «أنا أعرف أنه صحيح».

ومضى سيده يقول: «حسن، حسن، يا سام! فلنذهب إليه في الحال، ولكني أولًا أراني معكر المزاج مما حدث، وأحب أن أتناول كأسًا من البراندي بالماء الساخن يا سام، فأين تظنني أتناوله؟».

وكان علم المستر ويلر بلندن واسع المدى عجيبًا، فأجاب على الفور، وبلا أقل تفكير: «اتجه إلى اليمين، واقصد المحل الذي قبل الأخير، وعلى يمينك أيضًا، وخذ المقصورة التي أمام أول موقدة؛ لأن المائدة التي فيها ليست لها رِجل في الوسط، ولكن الموائد الأخرى لها أرجل وسطى، وهي متعبة جدًّا».

واتبع المستر بكوك توجيهات خادمه بالحرف الواحد، وطلب إليه أن يتبعه، ودخل الحانة التي أشار سام إليها، ولم يلبث البراندي المزيج بالماء الساخن أن وُضِع أمامه، بينما جلس المستر ويلر احترامًا له على مسافة منه، إلى المائدة ذاتها، وسعى إليه الخادم بقدر طيب من النبيذ.

وكانت القاعة بسيطة كل البساطة، والظاهر أن حوذية المركبات الحافلة هم الذين يتولون أمر الإشراف عليها خاصة؛ لأن عددًا كبيرًا ممن تلوح عليهم مظاهر السائقين كانوا جلوسًا في المقاصير يشربون ويدخنون.

وكان من بينهم رجل بدين، محمر الوجه، تجاوز حدود الكهولة، يجلس في المقصورة المقابلة، وقد جذب شكله اهتمامًا خاصًّا من المستر بكوك، فقد كان مفرطًا في التدخين، وكان بين كل بضعة أنفاس من الدخان ينزع القصبة من فمه، وينظر أولًا إلى المستر ويلر، ثم إلى المستر بكوك، ثم يكب بعد ذلك على وعاء من الشراب، فيُدخِل فيه من

وجهه ما يسمح حجم الوعاء بدخوله، ويعود فينظر إليهما، ثم يتناول بضعة أنفاس من الدخان، وهو مستغرق في التفكير، ويعاود إلقاء نظرة عليهما، وأخيرًا راح يضع ساقيه على المقعد، ويسند ظهره إلى الجدار، ويعاود أخذ أنفاس مستطيلة من القصبة، وهو يحملق فيهما البصر من خلال ذوائب الدخان المتصاعدة منها، كأنما قد صحت منه النية على أن يشهد منهما أكبر قدر ممكن من المشاهدة.

وكانت حركات الرجل البدين قد غابت في أول الأمر عن نظر المستر ويلر، ولكنه حين رأى عيني المستر بكوك تتجهان إليه بين لحظة وأخرى، بدأ شيئًا فشيئًا ينظر في اتجاه نظرات سيده، مظللًا عينيه بكفه، كأنما قد عرف الرجل بعض المعرفة، ولكنه يريد أن يستوثق من شخصيته، غير أن شكوكه لم تلبث أن تبددت، فإن ذلك الرجل البدين راح ينفخ الدخان المتصاعد من قصبته، ويطلق من صوته الأجش، كأنه خارج من بطنه، ومنبعث من تحت اللفاعات الكثيفة التي تغطي حنجرته وصدره، هذا النداء البطيء النبرات: «وي، هذا سامي!».

وقال المستر بكوك: «من يكون هذا يا سام؟».

وأجاب المستر ويلر والدهشة بادية في عينيه: «ما كنت لأصدق عيني يا سيدي، إنه الرجل الكبير».

وقال المستر بكوك: «الرجل الكبير! أي رجل كبير؟».

وأجاب المستر ويلر: «والدي يا سيدي، كيف أنت يا أبي؟».

ومضى بهذا التعبير الجميل عن محبته البنوية يفسح مكانًا فوق

المقعد بجانبه، لجلوس الرجل البدين الذي تقدَّم والقصبة في فمه، ووعاء الشراب في كفه، للسلام عليه.

وقال الوالد: «وي يا سامي، لم تقع عيني عليك من عامين أو أكثر».

وأجاب الابن: «وأكثر أيها الشيخ البخيل، وكيف حال امرأة أبي؟».

وقال المستر ويلر الكبير، في جد كثير: «وي يا سامي، اسمع مني، ليس في الدنيا أرملة ألطف ولا أظرف من هذه الزوجة الثانية التي تزوجتها. إنها مخلوقة لطيفة يا سامي، وكل ما أستطيع أن أقوله عنها الآن إنها أرملة لطيفة فوق العادة، ومن الأسف الشديد أنها غيرت أحوالها، إنها لا تؤدي وظيفة الزوجة يا سامي».

وقال المستر ويلر الصغير: «ألا تؤدي الوظيفة حقًّا؟».

وهز المستر ويلر الكبير رأسه، وأجاب وهو يرسل زفرة: «لقد جربت كثيرًا يا سامي، جربت أكثر من مرة، فاجعل والدك مثلًا أمامك، وخذ العبرة منه، وكن في منتهى الحذر من الأرامل طيلة حياتك، وبالأخص إذا كن صاحبات حانات يا سامي».

وبعد أن ألقى هذه النصيحة الأبوية بكل حماسة وعطف، عاد يملأ القصبة من علبة من القصدير كان يحملها في جيبه، ويشعل القصبة الجديدة من رماد القديمة، ويعاود التدخين بسرعة بالغة.

وواصل الحديث بعد لحظة طويلة، مخاطبًا المستر بكوك: «أستميحك المعذرة يا سيدي، لا تؤاخذني، أرجو ألا تكون لديك أرملة يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك ضاحكًا: «كلا»، وبينما كان يضحك، أقبل سام ويلر يهمس لأبيه عن مدى العلاقة بينه وبين ذلك السيد.

وقال المستر ويلر الكبير وهو يرفع قبعته: «لا تؤاخذني يا سيدي.. أرجو ألا يكون في نفسك شيء من جهة سامي، إذا كان قد أخطأ أو وجدت فيه عيبًا».

وأجاب المستر بكوك: «لا شيء على الإطلاق».

وأجاب الشيخ: «الحمد لله. يسرني أن أسمع ذلك يا سيدي، فقد تعبت كثيرًا في تربيته يا سيدي، وتركته يجري في الشوارع وهو صغير ويتولى بنفسه أموره، فإن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعل الولد ذكيًّا يا سيدي».

وقال المستر بكوك وهو يبتسم: «يخيل إليَّ أنها طريقة لا تخلو من خطر».

وأردف المستر ويلر الصغير قائلًا: «وليست مضمونة أيضًا، فقد خدعت منذ أيام».

وقال والده: «لا تقل هذا».

وأجاب ابنه: «بل حدث».

ومضى يقص عليه بكل اختصار كيف غرر به جوب تروتر بدهائه ومكره.

وأصغى المستر ويلر الكبير إلى القصة بأشد الاهتمام، ومضى يقول في نهايتها: «أليس هو رجلًا طويلًا نحيفًا، مرسل الشعر، خفيف الحركة،

سريع الجري؟».

ولم يفهم المستر بكوك تمامًا هذا الوصف الأخير، ولكنه فهم الأوصاف الأولى، فقال على الفور: «نعم».

ومضى المستر ويلر الكبير فقال: «أما الآخر فشخص أسود الشعر في ثوب توتي اللون ذو رأس كبير الحجم جدًّا».

وقال المستر بكوك وسام بجد شديد: «نعم هو، هو».

وقال المستر ويلر: «إني أعرف أين هما الآن، هذا هو كل ما هنالك.. إنهما الآن في «أبسويتش» آمنين مطمئنين هما الاثنان».

وقال المستر بكوك غير مصدق: «كلا!».

وأجاب المستر ويلر: «بل هما كذلك. وسأقول لك كيف عرفت ذلك. إنني أشتغل من وقت إلى آخر على المركبة التي تسافر إلى «أبسويتش» بالنيابة عن صاحب لي، وكنت أعمل عليها في اليوم الذي تلا الليلة التي أصبت فيها بالنقرس، وقد أقللتهما إلى فندق «بلاي بوي» في تشلمر فورد، وهو الموضع الذي كانا شاخصين إليه، ومنه رأسًا إلى «أبسويتش» حيث كانا معتزمين المقام طويلًا، كما علمت من الخادم التوتي اللون».

وقال المستر بكوك: «سأتبعه، ويصح لنا أن نشهد أبسويتش كما نشهد أي موضع آخر، سأتبعه».

وسأل المستر ويلر الصغير أباه: «هل أنت متأكد أنهما هما بالذات يا معلم؟».

وأجاب الوالد: «كل التأكد يا سامي، كل التأكد، وذلك لغرابة شكلهما، وللألفة العجيبة التي بين السيد وخادمه، وفوق ذلك كله؛ لأني سمعتهما وهما جالسان في المقدمة خلف مقعد السائق مباشرة يضحكان ويقولان إنهما عرفا كيف يخدعان العجوز فيروركس[1]».

وقال المستر بكوك: «العجوز من...؟».

وأجاب الوالد: «العجوز «فيروركس» يا سيدي، ولا شك في أنهما كانا يعنيانك يا سيدي».

وليس في التسمية «بفيروركس» طبعًا ما يؤذي الشعور أو يستنكره الخاطر، وإن كان مع ذلك لا يزال خلوًّا من الاحترام، أو التنويه بالفضل، وكانت ذكرى الفصول التي مثَّلها جنجل قد ازدحمت في خاطر المستر بكوك، ولم تبقَ إلا ريشة فترجح كفة الميزان، فكانت تسميته «بالعجوز فيروركس» هي تلك الريشة! فراح يضرب المائدة بجمع كفه وهو يقول: «سأتبعه».

وهنا قال المستر ويلر الكبير: «سأشتغل على المركبة المسافرة إلى أبسويتش بعد غد يا سيدي، من فندق «بول» في «هوايتشابل» فإذا كنت تنوي الذهاب فعلًا، فالأفضل أن تذهب معي».

وأجاب المستر بكوك: «هذا صحيح، وسأكتب إلى بيري حتى ينتظروني في أبسويتش، سنذهب معك، ولكن لا تنصرف هكذا مسرعًا، ألا تأخذ شيئًا؟».

---

(١) كناية استعملت للمستر بكوك تهكمًا، ومعناها الصواريخ أو الألعاب النارية.

وقال المستر ويلر وقد وقف عن الحركة: «إنك لكريم جدًّا يا سيدي، كأس صغيرة من البراندي إذا كان ولا بد؛ لأشرب في صحتك، ونجاح سامي وتوفيقه يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «بلا شك، كأسًا من البراندي هنا يا غلام!».

وجيء بالشراب، وبعد أن جذب المستر ويلر شعره تحية للمستر بكوك، وأومأ برأسه لسام، راح يلقي بكل ما في الكأس في حلقه الرحيب، كأنه قمع خياطة صغير.

وقال سام: «مرحى! يا أبت، احذر يا صاح وإلا عدت إلى سابق مرضك، وهو مرض المفاصل».

وقال المستر ويلر وهو يضع الكأس بعد اجتراعها: «لقد وجدت دواء ناجعًا لعلاجه يا سامي».

وقال المستر بكوك وهو يخرج بسرعة مذكراته: «أتقول إنك وجدت دواء ناجعًا للنقرس؟ فما هو؟».

وأجاب المستر ويلر: «إن هذا المرض يا سيدي ينشأ من الإفراط في الراحة والرفاهية، فإذا أصبت يومًا به يا سيدي، فتزوج أرملة ذات صوت صاخب، وتعرف تمامًا كيف تستخدمه، وأنت لن يصيبك هذا المرض بعد ذلك. هذه وصفة بديعة يا سيدي، وأنا مداوم عليها، وأنا ضامن أنها تطرد أي علة يكون سببها الإكثار من اللهو والمرح».

وبعد أن باح بهذا السر العظيم، أفرغ ما في الكأس مرة أخرى، وغمز غمزة متقنة، وزفر زفرة حارة، وانصرف في رفق.

وقال المستر بكوك وهو يبتسم: «ما رأيك فيما قاله أبوك يا سام؟».

وأجاب المستر ويلر: «رأيي؟ رأيي أنه ضحية للزوجية، كما قال القسيس عن بلوبيرد وهو يرسل دمعة عليه، حين تولى دفنه».

ولكن المستر بكوك لم يجب عن هذا الاستنتاج الحكيم كل الحكمة، بل مضى بعد أن دفع الحساب، يواصل المسير إلى فندق «جراي»، ولكنه ما كاد يصل إلى غياضه المنعزلة، حتى دقت الثامنة، فبدا له من ذلك السيل المستفيض من الناس الذين يتجهون صوب الشوارع المختلفة في الحي، وهم في أحذيتهم الموحلة، وقبعاتهم البيضاء الملطخة، وثيابهم المغبرة، أن أكثر المكاتب أغلقت أبوابها، وانتهت مواعيد العمل فيها.

وبعد أن صعد المدارج، تبيَّن له أن ما توقعه كان صحيحًا، فقد رأى الباب الخارجي في مكتب المستر بركر مغلقًا، وظهر من السكون التام الذي تلا ركلات المستر ويلر الباب بقدميه، أن الموظفين انصرفوا عن العمل لدخول الليل.

فقال المستر بكوك: «هذا فصل غير سار يا سام، إذ لا ينبغي أن تضيع ساعة واحدة مني دون لقائه، ولن يغمض لي جفن الليلة إذا لم يهدأ بالي وأكل الأمر إلى أحد أرباب المهنة».

وأجاب المستر ويلر: «ها هي ذي سيدة عجوز صاعدة السلم يا سيدي، لعلها تعرف أين يتيسر لنا الاهتداء إلى أحد.. يا سيدتي الكبيرة.. أين رجال المستر بركر؟».

وقال عجوز نحيفة بائسة، وقد وقفت لتتمالك أنفاسها، بعد صعود

السلم: «لقد انصرفوا، وأنا آتية لتنظيف المكتب».

وسألها المستر بكوك: «هل أنت خادم المستر بركر؟».

وأجابت العجوز قائلة: «بل أنا غسالة المستر بركر».

وقال المستر بكوك في ناحية لسام: «آه.. إنه لشيء غريب يا سام، إنهم في هذه الفنادق يسمون العجائز جميعًا غسالات، أعجب لهم لماذا يسمونهن كذلك».

وأجاب المستر ويلر: «أظن يا سيدي أن هذا يرجع لى كراهيتهن الشديدة لغسل أي شيء يا سيدي».

وقال المستر بكوك وهو ينظر إلى العجوز، ويتأمل شكلها، وحالة المكتب الذي كانت في تلك اللحظة قد فتحته، وما يدلان عليه من الكراهية المتأصلة لاستخدام الصابون والماء: «لست أعجب» ومضى يسأل العجوز: «هل تعرفين أين أستطيع أن أجد المستر بركر أيتها المرأة الكريمة؟».

وقالت العجوز بخشونة: «كلا، لا أعرف! إنه الآن خارج المدينة».

وقال المستر بكوك: «هذا حظ سيئ. وأين كاتبه؟ هل تعرفين؟».

وأجابت الغسالة: «نعم أعرف أين هو، ولكنه لن يشكرني على تعريفك به».

وقال المستر بكوك: «إن لدي عملًا خاصًا معه».

قالت: «ألا يمكن إرجاؤه إلى الصباح؟».

وأجاب المستر بكوك: «لا أظن».

قالت: «إذا كان الأمر كذلك، وكان المفروض أن أقول أين هو، فلا بأس إذن من قولي لك عنه، إذا ذهبت إلى حانة ماجباي اصطمب، وسألت في مكان الشراب عن المستر لوتن، فسوف يدلونك عليه، فهو كاتب المستر بركر».

ولم يكد المستر بكوك وسام يتلقيان هذا التوجيه ويعرفان أيضًا أن تلك الحانة تقع في أحد الأفنية، وأنها لحسن الحظ أيضًا بقرب «كلير ماركت» وبجوار الجدار الخلفي لفندق «نيو إن» حتى راحا يهبطان السلم المتداعي بسلام، وينطلقان صوب حانة ماجباي واصطمب.

وكانت تلك الحانة- المفضلة عند المستر لوتن وزملائه، لقضاء الليل في القصف واللهو والشراب- هي ما يعده عامة الناس محلًّا عامًّا، وكان الدليلَ الكافيَ على أن صاحبها رجل مولع بجمع المال، وجودُ فراغ صغير تحت حافة نافذة قاعة الشراب، لا يتجاوز موضع كرسي كبير، مؤجَّر لإسكاف يرقع الأحذية، كما يقوم الدليل على حبه للخير وانبعاثه إلى البر في سماحته لبائع فطير ببيع أطعمته الشهية على عتبة الحانة، بلا خوف من اعتراض أحد عليه، وفي الشرفات الخفيضة المزدانة بأستار صفراء اللون تتدلى بطاقتان أو ثلاث بطاقات للإعلان عن ديفونشير سايدر، وتنوب دانتزج الفضي(١)، ولافتة كبيرة سوداء الطلاء كتب عليها، «ليكن معلومًا لدى الجمهور المستنير أن في أقبية المحل نصف مليون برميل من جعة الإستاوت الجيدة» وهي لافتة تدع

(١) شجر يشبه الصنوبر.

الخاطر في شك لا بأس منه من ناحية المدى الذي يظن أن هذه الحانة الضخمة تشغله في بطن الأرض، وإذا نحن أضفنا إلى هذا أن اللافتة التي ضربتها الشمس ومحت التقلبات الجوية نصف معالم صورة طائر يدعى العقعق، وهو يحدق البصر في «عرق» أعوج أسود الطلاء تعلم الجيران منذ طفولتهم أن يسموه «القرة» أو «العقب»، فقد قلنا كل ما نحتاج إلى قوله في وصف ذلك البناء من الخارج[1].

وتقدم المستر بكوك إلى محل الشراب، فخرجت إليه امرأة كبيرة السن من خلف حاجز فيه.

قال: «هل المستر لوتن هنا يا سيدتي؟».

وأجابت ربة الحان: «هنا يا سيدي، يا شارلي، خذ السيد إلى المستر لوتن».

وقال غلام أحمر الشعل يحجل في مشيته ويسعى بأباريق الشراب على الزبائن: «لا يستطيع السيد أن يدخل اللحظة عليه، فإن المستر لوتن يغني الآن أغنية هزلية، فإذا دخل عليه غضب، ولكنه سينتهي فورًا يا سيدي».

وما كاد الغلام الأحمر الرأس يتم قوله هذا، حتى تعالى دق إجماعي على الموائد، وقرع كؤوس؛ مما يوحي بأن الأغنية قد انتهت في تلك اللحظة ذاتها.

---

(١) هذا هو تفسير اسم الفندق ماجباي واصطمب، فإن الكلمة الأولى معناها اسم هذا الطائر والأخرى القرمة.

وبعد أن طلب المستر بكوك إلى سام الترويح عن نفسه في القاعة العامة، ترك الغلام يذهب به إلى المستر لوتن.

وما إن قال الغلام: «إن سيدًا يطلب التحدث إليك يا سيدي»، حتى انبرى رجل منتفخ في نضارة العمر يشغل المقعد القائم في رأس المائدة، فتطلع ببصره في دهشة صوب الجهة التي انبعث منها الصوت، ولم تقل دهشته حين استقرت عيناه على شخص لم يره من قبل.

وأنشأ المستر بكوك يقول: «أستميحك عفوًا يا سيدي، بل أنا آسف كل الأسف على تعكير صفو السادة الآخرين، ولكني قادم لأمر خاص، فلو سمحت لي باحتجازك في الطرف الأقصى من هذه الحجرة خمس دقائق، لكنت لك من الشاكرين».

ونهض الرجل المنتفخ الأوداج من مجلسه، وقرَّب كرسيًّا من مقعد المستر بكوك في ركن مظلم من الحجرة، وأصغى بانتباه إلى محنة المستر بكوك، والخطب الذي أَلَمَّ به.

وقال عقب فراغ المستر بكوك من قصته: «آه، ددسن وفج؟ أولئك قوم ماهرون في عملهم، رجال أعمال مجدون، ددسن وفج يا سيدي».

وآمن المستر بكوك على وصف الرجل لعملهما، بينما مضى هذا يقول: «إن المستر بركر ليس الآن في المدينة، ولا ينتظر أن يعود إليها قبل الأسبوع القادم، ولكن إذا أردت اتخاذ إجراءات الدفاع ومطالبه، وتركت لي صورة الإعلان، استطعت أن أنجز كل ما هو مطلوب ريثما يعود».

وقال المستر بكوك، وهو يسلم النسخة إليه: «هذا هو عين ما جئت

من أجله، وإذا حدث شيء مهم، ففي وسعك أن تكتب إليّ خطابًا في «شباك البريد» في أبسويتش».

وأجاب كاتب المستر بركر: «هذا حسن!» وعندئذ رأى عين المستر بكوك حائمة بفضول حول المائدة، فأضاف قائلًا: «هلا انضممت إلينا، فقضيت معنا نصف ساعة أو نحوه؟ نحن هنا في مجلس أنس بديع، وقعدة بديعة معنا، فهذا وكيل مكتب سامكن وجرين، وهذا وكيل سميذر وبرايس، أما كاتب بمكن وتومس فهو خارج المنزل، وهو مغن بديع، ومعنا أيضًا جاك بمبر وكثيرون غيرهم. أحسبك قادمًا من الريف، فهل تحب أن تجلس معنا؟».

فلم يستطع المستر بكوك أن يغالب فرصة مغرية كهذه لدراسة الطبيعة البشرية، فترك الرجل يمشي به إلى المائدة، وبعد أن قدّمه إلى الجمع بكل المراسيم المألوفة، اتخذ مجلسه بقرب الرئيس، ونادى الغلام فطلب كأسًا من الشراب الأثير لديه.

وأعقب ذلك سكون عميق لم يكن المستر بكوك يتوقعه مطلقًا.

وقال جاره الجالس عن يمينه، وهو رجل في قميص مرتوق، وأزرار من الفسيفساء، ولفافة طويلة في فمه: «أرجو يا سيدي ألا يكون هذا الشيء مزعجًا لك!».

وأجاب المستر بكوك: «لا، مطلقًا. إني أحبه كثيرًا، وإن كنت أنا نفسي لا أدخن».

وتدخل سيد آخر في الجهة المقابلة من المائدة فقال: «إنني آسف

كل الأسف أن أقول إنني أدخن. إن التدخين عندي هو الأكل والمسكن».

ونظر المستر بكوك إلى ذلك المتحدث، فقال في نفسه: «لو كان الاستحمام أيضًا، لكان أفضل وأجدى».

وساد السكون مرة أخرى.

فقد كان المستر بكوك غريبًا، والظاهر أن قدومه عليهم أثقل على نفوسهم شيئًا ما.

وقال الرئيس: «إن المستر جرندي معتزم أن يشنف الأسماع بأغنية».

وقال المستر جراندي: «كلا، ليس معتزمًا».

وعاد الرئيس يقول: «ولِمَ لا؟».

وقال المستر جراندي: «لأنه لا يستطيع».

وأجاب الرئيس قائلًا: «بل الأفضل أن نقول إنه لا يريد».

وأجاب المستر جرندي: «حسن، إنه لا يريد».

وانتهى رفض المستر جرندي القاطع لتشنيف أسماع القوم إلى سكون آخر.

وقال الرئيس بحزن: «ألا يريد أحد أن يطربنا؟».

وانبرى شاب ذو شاربين، وحول في عينيه، وقميص مفتوح بطوق قذر، من أقصى المائدة، فقال: «لماذا لا تطربنا أنت أيها الرئيس؟».

وقال السيد المدخن الذي يلبس المجوهرات الفسيفسائية: «استمعوا، استمعوا!».

وأجاب الرئيس: «لأني لا أعرف إلا أغنية واحدة، وقد غنيتها قبل الآن، وتكرار أغنية بعينها في ليلة واحدة يقتضي غرامة طلب دور من البراندي لجميع الجالسين».

ولم يجب أحد، وساد السكون مرة أخرى.

وأراد المستر بكوك أن يخلق موضوعًا يتيسر للقوم الاشتراك في مناقشته فقال: «لقد كنت الليلة أيها السادة في مكان لا أشك في أنكم جميعًا تعرفونه حق المعرفة، وإن لم أذهب إليه منذ بضع سنين، ولا أعرف عنه إلا القليل، إنني أقصد أيها السادة فندق جراي، إن هذه الفنادق القديمة هي في مدينة كبيرة كلندن زوايا غريبة، وأركان عجيبة».

وهمس الرئيس من فوق المائدة للمستر بكوك قائلًا: «والله لقد وقعت على موضوع يستطيع واحد منا على الأقل أن يتحدث عنه طوال العمر ولا ينتهي، لقد أخرجت الشيخ جاك بمبر من مخبئه، فما شوهد يومًا يتكلم عن شيء غير الفنادق، فقد عاش وحده فيها حتى كاد يذهب لبه».

وكان الرجل الذي أشار لوتن إليه بهذا القول قصير القامة، أصفر اللون، مرتفع الكتفين، ذا وجه لم يفطن إليه المستر بكوك من قبلُ؛ لاعتياده الانحناء إلى الأمام، كلما لزم الصمت، ولهذا عجب حين رأى الرجل يرفع وجهه المغضن، وتستقر عيناه الرماديتان على وجهه في نظرة حادة متسائلة: كيف غاب من قبلُ عن نظره ذلك الوجه العجيب؟

وتبين له أن على سحنة الرجل ابتسامة مستقرة ثابتة لا تفارقه، وأنه قد

أسند ذقنه إلى يد طويلة معروقة، استطالت أظافرها إلى حد غير مألوف، وأمال رأسه إلى ناحية، وراح يرسل نظرات حادة من تحت حاجبين أشيبين متعرجين، حتى ليبدو على ابتسامته شيء من مكر موحش تنبو الأنظار عنه.

ذلكم هو الرجل الذي أقبل يُطلِق فيضًا زاخرًا من الكلام، ولكني أرى هذا الفصل قد طال، وذلك الرجل الكبير السن شخصية غريبة، فأولى به وأحق، كما هو أنسب لنا وأوفق، أن ندعه يتحدث عن نفسه في فصل قائم بذاته.

* * *

# الفصل الحادي والعشرون

## وفيه ينطلق ذلك الشيخ متحدثًا عن الموضوع الأثير لديه ويروي قصته عن عميل غريب

وقال الشيخ الذي وصفناه لك بإيجاز في الفصل السابق: «أها... منذا الذي كان يتحدث اللحظة عن الفنادق؟».

فأجاب المستر بكوك: «أنا يا سيدي،وقد قلت إنها أماكن قديمة فريدة في نوعها».

وقال الشيخ بسخرية: «أنت؟ وماذا تعرف أنت عن ذلك الزمان الذي كان الشباب فيه يحبسون أنفسهم في تلك الحجرات الموحشة، ويكبون على القراءة ساعة بعد أخرى، وليلة بعد ليلة، حتى تضل عقولهم من طول دراساتهم حتى منتصف الليل، وحتى تعيا قواهم العقلية وتضمحل، وحتى يطلع النهار فلا يوافيهم بتجدد ولا انتعاش، ولا صحة ولا عافية، بل يغرقون في ذلك التوفر غير الطبيعي على كتبهم الجافة القديمة، ويفنون فيها شبابهم؟ وإذا نحن انتقلنا من ذلك العهد الغابر إلى عهد أقرب منه إلينا، وزمان مختلف عنه كل الاختلاف، فماذا تعرف أنت عن

الرزوح البطيء تحت مرض الصدر، أو الذبول السريع من الحمى، أو تلك النتائج العظيمة الملازمة للحياة والإسراف على النفس، التي عاناها الناس في تلك الحجرات ذاتها؟ وكم من طلاب رحمة تظن أنهم عادوا كسيري القلوب من مكتب أحد المحامين ليجدوا موضع راحة أبدية في أمواه التاميز، أو ملاذًا لهم في جوف المحابس وغَيَابَةِ السجون؟ إن تلك الدور ليست عادية، فما من لوح زجاجي في جدار قديم لو أوتي قوة النطق وملكة الذاكرة، لما تردد في الخروج من مكانه ذاك في الجدار؛ ليروي حديث ما شاهد من شقاء وعذاب وألم، إنها قصة الحياة يا سيدي، قصة الحياة، وقد تبدو تلك الأماكن اليوم عادية، ولكني أقول لك: إنها أماكن أثرية غريبة، وإني لأوثر أن أسمع أساطيرَ وقصصًا مروعة رهيبة ذات أوصاف وأسماء مخيفة، على سماع التاريخ الحقيقي لحجرة من تلك الحجرات التي تتألف الفنادق العتيقة منها».

وكان في حماسة الشيخ على هذه الصورة الفجائية شيء غريب، وفي الموضوع الذي أثاره على هذا النحو عجب بالغ لم يكن المستر بكوك يتوقعه حتى يهيئ الجواب عنه، فانثنى الشيخ، وقد كبح من جماح حدته، وعاد إلى غمزاته، بعد أن اختفت حماسته السابقة، يقول: «انظر إليها من ناحية أخرى.. أو قل من أقل نواحيها غرابة، وأبعدها من الطرافة، ما أبدعها من أماكن للتعذيب البطيء! تصور ذلك البائس الفقير الذي أنفق كل ما كان لديه، حتى بات متسولًا، ومضى يسرق من صحابه، وذهب يدخل مهنة لن تأتيه بكسرة من الخبز. تصور اللهفة، والأمل، والخيبة، والخوف، والبؤس، والفاقة، وذبول الأماني، ونهاية المصير من انتحار أو

حياة سكير في خرق بالية وأسمال ونعل مخصوف، ألست على حق فيما أتحدث به عنهم؟».

ومضى الشيخ يفرك يديه، ويغمز كدأبه من السرور لاهتدائه إلى وجهة نظر أخرى تتصل بالموضع الأثير لديه.

ونظر المستر بكوك إلى الرجل بدهشة بالغة وابتسم القوم ونظروا في صمت لا ينبسون.

وواصل الشيخ الحديث قائلًا: «فلتتحدثوا عن جامعاتكم الألمانية ما شئتم. يا للضلالة! إن في بلادكم من الطرافة وروعة الخيال ما يكفي، بل ما يغني عن الخروج منها ولو نصف ميل، ولكن الناس لا يفكرون أبدًا».

وقال المستر بكوك ضاحكًا: «الواقع إنني لم أفكر قبل الآن في طرافة هذا الموضوع بالذات».

وأجاب الشيخ قائلًا: «بالطبع لم تفكر، بلا شك، لم تفعل، كما اعتاد صديق لي أن يقول: ماذا في حجرات الفنادق من غريب؟ فكنت أقول إنها أماكن قديمة غريبة، فكان يقول كلا! وكنت أقول: «مهجورة» وكان يرد قائلًا: ليست في شيء من هذا بتاتًا. ومات في ذات صباح بالسكتة وهو يهم بفتح باب بيته الخارجي، فسقط رأسه في صندوق الخطابات حيث لبث ثمانية عشر شهرًا، وظن الناس جميعًا أنه قد سافر من المدينة».

وسأل المستر بيكوك: «وكيف وجدوه في النهاية؟»».

وأجاب الشيخ قائلًا: «لقد أصر القضاة على كسر بابه وفتحه؛ لأنه

لم يكن قد دفع الأجرة منذ عامين، ففعلوا، وكسروا القفل عنوة، وعندئذ سقط هيكل عظمي علاه الغبار الكثيف، وهو في سترة زرقاء وسراويل سود إلى الركبة، بين ذراعي البواب الذي فتح الباب. أليس هذا غريبًا؟ ربما كان كذلك».

وراح الشيخ يميل برأسه إلى ناحية أكثر من قبل ويفرك كفيه بفرح لا يوصف.

ومضى يقول حين أخذت نواجذه وقسمات وجهه تهبط قليلًا: «وأعرف حادثة أخرى جرت في فندق كليفورد، وهي أن نزيلًا سيئ السيرة حبس نفسه في مخدعه، وتناول جرعة من الزرنيخ، وظن كبير الخدم أن الرجل قد هرب، ففتح الباب، وعلق إعلانًا به، وجاء نزيل آخر، فاستأجر الغرف وفرشها وانتقل للمقام فيها، ولكنه لم يجد النوم مطاوعًا، فلبث يتقلب في فراشه قلقًا متعبًا، وانثنى يقول لنفسه: هذا شيء غريب، سأجعل الغرفة الأخرى منامة لي، وأتخذ هذه غرفة جلوس، وفعلًا أحدث هذا التغيير، وطاب له النوم ليلًا، ولكنه في المساء، وجد نفسه قلقًا هائج الأعصاب لا يستطيع القراءة، ولا يكف عن إصلاح ذبالة الشموع وإجالة البصر فيما حوله، وقال لنفسه ذات ليلة حين عاد من مشاهدة التمثيل وأخذ يرشف كأسًا من الخمرة، وهو مولٍّ ظهره إلى الجدار حتى لا يتمكن الوهم منه فيتصور أحدًا من خلفه: لست أدري ما السر في هذا القلق الذي ينتابني؟ وفي تلك اللحظة استقرت عيناه على الغرفة الضيقة التي ظلت مقفلة، وإذا رِعدة تسرى في كيانه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فقال في نفسه: لقد أحسست هذا الإحساس الغريب

من قبل، ولا أتمالك الشعور بأن شيئًا غامضًا يحيط بتلك الغرفة. وجمع شتات شجاعته، وضرب قفل الباب ضربة أو اثنتين بمحرك النار في المدفأة، ففتح الباب، وإذا هو يبصر حياله المستأجر الأخير واقفًا منتصب القامة في الركن ممسكًا قارورة في يده، ووجهه. نعم أما وجهه...».

وما كاد الشيخ يبلغ من قصته هذا الحد، حتى تمهل وأجال البصر في وجوه سامعيه المبهوتين، وهو يبتسم ابتسامة سرور رهيب.

وقال المستر بكوك وهو يتفرس في وجه الشيخ مستعينًا بمنظاره: «ما أغرب هذه الحكايات التي ترويها لنا يا سيدي!».

وقال الشيخ: «أتقول: ما أغرب.. كلام هراء، إنك تظنها غريبة؛ لأنك لا تعرف عنها شيئًا. إنها مضحكة، ولكنها ليست مستغربة».

وقال المستر بكوك رغم إرادته: «مضحكة!».

وأجاب الشيخ بضحكة إبليسية: «نعم، مضحكة، أليست كذلك؟».

ومضى دون أن ينتظر الجواب فقال: «وقد عرفت رجلًا آخر، دعني أتذكر، عرفته منذ أربعين عامًا، كان قد استأجر بضع غرف قديمة رطبة عفنة في فندق من أقدم الفنادق ظل مقفلًا وخاليًا عدة سنين قبل أن يأتي الرجل فيستأجر تلك الغرف فيه، وكانت تحيط بذلك المكان حكاياتٌ ونوادرُ كثيرةٌ عن العجائزِ، والواقع أن المكان كان أبعد ما يكون من البهجة والإيناس، ولكنه كان فقيرًا والأجر رخيصًا، وكان رخص إيجارها سببًا كافيًا للرضاء بها لو أنها كانت أسوأ من حقيقتها عشرة أمثال أو تزيد، وقد اضطر إلى الاستغناء عن بعض الأشياء المركبة فيها، ومن بينها خزانة

كبيرة للأوراق مصنوعة من الخشب البسيط ذات أبواب من الزجاج، ولها ستار أخضر من الداخل، وهي شيء لا نفع له منه إطلاقًا؛ إذ لم تكن لديه أوراق حتى يحفظها فيها. أما ثيابه فقد كان يحملها معه، ولم يكن حملها عبئًا كبيرًا يقتضي مجهودًا، وقصارى القول إنه نقل إلى تلك الغرف كل متاعه، ولم يكن أكثر ممَّا تتسع حقيبة كبيرة له، وراح يخرج الأمتعة منها وينثرها في أرجاء الغرفة نثرًا، حتى يجعل المقاعد الأربعة التي فيها تبدو كأنها من الكثرة اثني عشر مقعدًا أو تزيد، وإنه لجالس ذات ليلة أمام الموقدة، يشرب أول كأس من جالونين من الويسكي طلبهما بالدَّين مسائلًا نفسه: هل سيتاح له يومًا أداء ثمنهما، وإذا صح ذلك، فعلى مدى كم من السنين، وإذا عيناه تلتقيان بتلك الأبواب الزجاجية لهذه الخزانة الخشبية، فقال في نفسه: «لو لم أكن مضطرًا إلى أخذ هذه الخزانة القبيحة الشكل بالسعر الذي قدره لها الدلّال، لاستطعت شراء شيء مربح بالمال الذي أديته، وراح يخاطب الخزانة بصوت مسموع؛ لأنه لم يجد أحدًا آخر يخاطبه: «اسمع يا صاح! لو لم يكن تحطيم جثتك العجوز أكثر نفقة من ثمنك بعد ذلك، لجعلتك في أسرع وقت طعامًا للنار». ولكنه ما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى سمع صوتًا كأنه الأنين الخافت ينبعث من جوفها، فأجفل في بداية الأمر، ولكنه ظن بعد التفكير في الأمر لحظة أنه لا بد أن يكون صادرًا من شاب في الحجرة المجاورة، كان يتغدى في الخارج، فوضع قدميه على سياج المدفأة ورفع محرك النار ليقلب به جذواتها، وإذا ذلك الصوت يتكرر، وأحد الأبواب الزجاجية ينفتح ببطء، فيكشف عن شبح شاحب اللون ناحل

البدن في ثياب قذرة خلق منتصبًا في جوف الخزانة، وكان ذلك الشيخ مديد القامة نحيفًا، تلوح على وجهه سمات الهم والشجن، ولكن في لون بشرته، وجملة مظهره الهزيل الغريب عن هذه الأرض شيئًا لم يرَ أحد من أهل هذا العالم يبدو يومًا في مثله، فارتد المستأجر الجديد ممتقع اللون كثيرًا، وقد وقف المحرك في كفه، وصاح به قائلًا: من أنت؟ وراح يسدد المحرك إلى وجه ذلك الشبح الرهيب، وإذا هو يجيب قائلًا: «لا تقذفني بهذا المحرك؛ لأنك مهما تحسن تسديده، فسينفذ في هيكلي بلا مقاومة، وتتبدد قوته في الخشب القائم من خلفي. إنني روح!» وتلعثم المستأجر وهو يسأله قائلًا: ولكن ماذا بالله عليك تريد هنا؟ وأجاب الشبح قائلًا: في هذه الحجرة تم دماري حين احتوتني الحياة الدنيا، حتى تسولنا أنا وأولادي وسألْنا الناس إحسانًا، وقد أودعت هذه الخزانة كل أوراقي التي أنفقت السنين الطوال في جمعها، وهي في ثوب طويل سابغ، وفي هذه الحجرة، حين مت من فرط الحزن، وخيبة الأمل على مر الزمن، راح بخيلان ماكران يقسمان بينهما الثروة التي كنت أجاهد في سبيل الظفر بها طيلة حياتي التعسة، والتي لم يبقَ أخيرًا منها درهم واحد لذريتي الشقية المنكودة الطالع، حتى لقد روعت أفرادها، وتركتهم يذهبون عني هائمين مشردين، ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أكف في الليل- وهو الفترة الوحيدة التي أستطيع أن أرف على الأرض، وأزور الدنيا- عن الهيام والحومان حول موضع شقتي القديمة، ومكان بأسائي التي طال عليها العهد، إن هذه الغرف غرفاتي، فاتركها لي. وأجاب المستأجر وكان قد تواتى له جمع شتات خاطره خلال حديث الروح وكلامه: إذا كنت مصرًّا

على الحضور هنا، نزلت لك عن ملكيتي بكل سرور، ولكني أحب أن أسألك سؤالًا واحدًا إذا أذنت لي. وقال الشبح عابسًا: سل ما شئت. قال: لست أعنيك شخصيًّا بما أنا قائله؛ لأنه ينطبق بالسواء على أكثر الأشباح التي سمعت عنها، وهو أنه ليبدو لي عجيبًا أنكم كلما واتتكم الفرصة لزيارة أجمل بقاع الأرض- لأني أظن الفضاء ليس شيئًا بالنسبة لكم- لا تعودون إلا إلى البقاع التي عانيتم فيها أشد البؤس، ولا تزورون إلا الأماكن التي قاسيتم فيها أشد الشقاء، عجبي لكم كيف تفعلون! وأجاب الشبح قائلًا: يا ألله! إن هذا صحيح، ولم يخطر ببالي من قبل. ومضى المستأجر قائلًا: ومن هذا ترى يا سيدي أن هذه الغرفة غير مريحة بتاتًا، ومن شكل هذه الخزانة أراني أميل إلى القول بأنها ليست خالية من «البق» وأعتقد أنك واجد مكانًا أفضل كثيرًا منها وأوفر راحة. ولست أحب أن أقول شيئًا عن جو لندن الكريه للغاية حتى لا يطيب المقام فيه. وأجاب الشبح بأدب قائلًا: أنت على حق يا سيدي، ولم يَدُرْ هذا بخلدي قبل الآن، وسأحاول تبديل الهواء وشيكًا. والواقع أنه أخذ يتوارى وهو يتكلم؛ فقد اختفت ساقاه كل الاختفاء، وراح المستأجر يناديه قائلًا: وإذا تكرمت يا سيدي أن تقترح على السيدات والسادات الآخرين الذين هم اليوم في شغل بزيارة البيوت القديمة الخالية أن يلتمسوا سواها مزارًا لهم، أوفر راحة وأهنأ مجالًا؛ أديتَ للمجتمع الإنساني صنيعًا كبيرًا. وأجاب الشبح قائلًا: سأفعل، نحن بلا شك أغبياء، أغبياء فعلًا، ولست أستطيع أن أتصور كيف بلغ بنا الغباء هذا المدى. ولم يكد الشبح ينتهي من هذه الكلمات حتى اختفى.

وهنا أضاف الشيخ قائلًا، وهو يلقي نظرة ماكرة حول المائدة: «ومن العجيب أنه لم يعد إلى ذلك المكان أبدًا».

وقال ذو الأزرار الفسيفسائية وهو يشعل لفافة كبيرة أخرى: «هذه قصة لا بأس بها إذا كانت صحيحة».

وصاح الشيخ قائلًا وهو ينظر نظرة سخرية بالغة: «أتقول إذا؟»، وأردف يقول وهو يدير عينه إلى لوتن: «أحسبه قائلًا بعد «إذا» هذه أن قصتي عن العميل الغريب الذي جاءنا، وأنا أشتغل في مكتب محام، ليست صحيحة هي الأخرى. ولكني لست أعجب...».

وقال ذو الأزرار الفسيفسائية: «لا أريد أن أقول شيئًا عنها إطلاقًا؛ لأني لم أسمعها قبل الآن».

وقال المستر بكوك: «أتمنى لو أعدتها يا سيدي».

وقال لوتن: «قلها؛ لأنه لم يسمعها أحد سواي، وقد كدت أنساها».

وأجال الشيخ بصره فيمن حوله، وغمر غمرة أشد من قبل نكرًا، كأنما قد انتصر بمشهد ذلك الاهتمام البادي على الوجوه كلها، ثم عرك ذقنه بكفه، وتطلع ببصره إلى السقف كأنما يحاول أن يستعيد الحادث إلى ذاكرته، ثم بدأ يقص القصة التالية:

### قصة الشيخ الكبير عن العميل الغريب

قال الشيخ: لا يهم من الأمر أن أحدثكم متى وكيف وقع لي العلم بهذه القصة القصيرة، وإذا أنا رويتها لكم بالترتيب الذي وصلت إليَّ به، وجب أن أبدأ من الوسط، حتى إذا بلغت ختامها، عدت أدراجي إلى

البداية، وحسبي أن أقول: إن بعض حوادثها جرى أمام عيني، وأما الباقي فأعلم أنه حدث فعلًا، وإن هناك أشخاصًا لا يزالون أحياء ويذكرونها كلَّ التذكرِ.

في حي «هاي ستريت» بقرب كنيسة القديس جورج، وعلى الجانب ذاته الذي تقع فيه يقوم كما يعرف أكثر الناس، سجن «مارشالسي» وهو أصغر سجوننا التي يحبس فيها المدينون الذين لا يوفون بديونهم، وإذ كان ذلك السجن قد أصبح فيما بعد مكانًا آخر يختلف كل الاختلاف عن ذلك المكان المليء بالأقذار الذي كان من قبل، فإن التحسن الذي طرأ عليه لا يغري كثيرًا المسرف المتلاف، ولا عزاء فيه للعاجز عن الوفاء، فإن المحكوم عليه بالحبس يجد في سجن «نيوجيت» ما هو واجده المفلس المدين في سجن «مارشالسي» من الرياضة والمشي واستنشاق الهواء[1].

ولكن هذا القسم من لندن موضع لست أطيقه، وقد يكون ذلك وهمًا في نفسي، أو لعل مرد نفوري منه إلى عجزي عن فصله من الذكريات القديمة المتصلة به؛ فإن الشارع عريض، والحوانيت رحيبة الجوانب، وأصوات المركبات الرائحة والغادية فيه، ومواقع أقوام السابلة الذين لا ينقطع سيلهم، وجلبة الحركة والمرور فيه، تتردد أصديتها في فضائه من مطلع النهار إلى منتصف الليل، ولكن الشوارع المحيطة به حقيرة وضيقة، والفاقة والفجور يتفشيان في أَزِقَّتِها المزدحمة، والعَوَز والبؤس معتقلان في سجنه الضيق لا يفارقانه، حتى لتبدو الكآبة والوحشة- في

(١) هذا السجن لم يعد له وجود (المترجم).

عيني على الأقل- محيطتين بذلك المشهد، مضفيتين عليه لونًا من الوجس والذبول والمرض.

وكم من أعين قد أغمضت أجفانها من عهد طويل في القبور، كانت فيما مضى تدير بصرها في ذلك المشهد، وتلم به إلمامة عابرة، وهي تجتاز باب سجن «مارشالسي» القديم لأول عهدها به، فإن اليأس قلما يأتي مع أول صدمة أليمة من صدمات البؤس، وللمرء أبدًا ثقة بأصحابه الذين لم يجرب مروءتهم من قبل، وإنه ليذكر المرات الكثيرة التي عرض فيها أصحابه الأولياء عليه صنائعهم في أوقات لم يكن فيها محتاجًا إليها، فهو أبدًا يراوده الأمل، نعم الأمل فيمن لم يجرب بعد ولم يختبر، ومهما يرزح تحت الصدمة الأولى، فلا يني ذلك الأملُ أن ينهض في صدره، وينتعش من جديد إلى حين، حتى يسقط صريعًا تحت وطأة الخيبة والإخفاق والإهمال، وسرعان ما تذهب تلك الأعين ذاتها الغائرة في رؤوسها، ترسل نظراتٍ شاردةً من وجوه ذبلت من الجوع، واصفرَّت من الحبس، في تلك الأيام التي ليس من باب التشبيه والمجاز أن نقول في وصفها: إن أولئك المدينين المحبوسين ريثما يؤدون ديونهم، مضوا يقضونها في غيابة المحبس يائسين، لا يرجون إفراجًا، ولا أمل لهم في حرية ولا خلاص! هنالك لا تعود لشناعة الحياة بكل مداها وجود تام، وإن بقي منها شيء يكفي لإتيانِ أفعالٍ واقترافِ جرائمَ تحيل القلبَ داميًا.

منذ عشرين عامًا، ألفت أم وطفلها الذهاب مع كل صباح إلى باب السجن، حتى لقد نحل أديم الإفريز من مواقع قدميها، وكم ذهبت مع مطالع النهار إليه بعد ليلة مؤرقة ألح عليها السهد فيها والبؤس والحسرات

فجاءت باكرة إليه ساعة أو قرابتها، ثم لا تلبث الأم أن تتولى منصرفة في قنوط ويأس، ممسكة بيد طفلها، ذاهبة صوب الجسر القديم، فإذا بلغته رفعت الطفل بين ذراعيها لكي تريه الأمواه المتلألئة بضياء شمس الصباح، والحركة البادية على صفحة النهر؛ استعدادًا للعمل والمتعة التي يكفلها للناس في تلك الساعات الباكرة من النهار، ولتحاول اجتذاب عينيه إلى الأشياء المترامية أمامه، ولكنها لا تلبث أن تنزله من أحضانها، وتخفي وجهها في لفاعتها، وتطلق العِنان للعبرات التي ملأت عينيها؛ فقد بدا لها أنْ لا أثرَ لاهتمام ولا ابتهاج في وجهه الذليل النحيل؛ فقد كان الطفل لا يذكر شيئًا كثيرًا مما وقع له، ولكن القليل الذي ظل له ذاكرًا كان متشابهًا، أو من نوع واحد، وهو فاقة أبويه وبؤسهما، ولكم قضى الساعات جالسًا فوق ركبة أمه، يرقب في عطف صبياني الدموع التي كانت تتسلل إلى وجهها، ثم ينطلق في هدوء إلى ركن مظلم؛ لينام في إجهاش ونحيب. لقد عادت تلك الحقائق الأليمة، حقائق الحياة القاسية، وكل ما اقترن بها من حرمان وجوع وظمأ وبرد وعوز تقفز إلى ذاكرته مع بواكر الفهم، ومطالع التفكير، ولئن كانت الطفولة ماثلة فيه فقد غابت عنها، بفرحها وترحها، وعينيها المتلألئتين.

وكان الأب والأم يريان ذلك ويتبادلان النظر، وفي خاطر كل منهما تصورات أليمة لا يجرؤ على تصويرها كلامًا، والإفصاح عنها منطقًا، وكان ذلك الرجل السليم البنية القوي البأس، الذي كان في إمكانه أن يتحمل أية مجهدة، ويضطلع بأشقِّ عملٍ، قد راح يذوي في أفق المحبس المكتظِّ بالسجناء وجَوِّهِ الموبوءِ، بينما أخذت المرأة النحيفة الواهنة

ترزح تحت وطأة عللها الجثمانية، ومرضها النفسي، وكان فؤاد الصبي كسيرًا تحطمه الأيام.

وهلَّ الشتاء، وجاءت في أثره أسابيع من برد شديد، ومطر غزير، فانتقلت المرأة المسكينة إلى حجرات صغيرة قريبة من الموضع الذي يقوم فيه السجن الذي احتبس زوجها فيه، ولئن كانت هذه النقلة قد جاءت ضرورة اقتضاها اشتداد فاقتها؛ فقد كانت نفسها أسعد حالًا من قبل لمقامها بقربه، وظلت شهرين ترقب في كل يوم هي ورفيقها الصغير الموعد الذي يفتح فيه باب السجن عادة، ولكنها في ذات يوم لم تأتِ إليه، ولم تكن من قبلُ تتخلف يومًا عنه، وجاءت في صبح يوم آخر وحدها؛ فقد مات الطفل!

وما درى الذين كانوا يقولون بكل هدوء إن ثكل الرجل كان نهاية سعيدة لذلك الطفل الراحل، وخلاصًا من آلامه، ورحمة بالغة بالأم التي بقيت في قيد الحياة؛ لأنها تخلصت من النفقة عليه. أقول: ما درى أولئك القائلون مبلغَ عذابِ الثكلِ، إن نظرة حب وإعزاز صامتة، حين تتولى الأعين الأخرى مشيحة بأنظارها، والشعور بأن لنا عند مخلوق واحد من العطف والحنان ما ليس لنا عند الآخرين حتى يتخلون عنًّا، ولا يشعرون مطلقًا بنا، هما سلوة وعون وسند، في خطوبنا وويلاتنا، ولا يكفله الثراء، ولا يشتريه بالمال، ولا يؤتيه سلطان في الأرض، وكان الطفل يجلس الساعات الطوال عند قدمي أبويه، ويداه الصغيرتان متشابكتان لا تنفصلان، ووجهه النحيل يتطلع إليهما، وقد شاهداه وهو يذوي على الأيام، ولئن لم تكن حياته القصيرة سوى وجود لا فرح ولا ابتهاج فيه،

وقد انتقل عندئذٍ إلى ذلك الهدوء المقيم الذي لم يعرفه في هذا العالم الذي جاءه عابرًا؛ فقد كانا أبويه، وجاء ثكلهما له مصابًا أليمًا يحز منهما في شغاف الروح.

وكان جليًّا لأعين الذين كانوا ينظرون إلى التحول البادي على وجه تلك الأم الثكلى أن موتها لن يلبث أن يختم حياة البؤس الذي كانت تعانيه ويريحها من المحنة التي كانت تقاسيها، وكان زملاء زوجها في المحبس يخشون أن يتحدثوا إليه في أمر أحزانه وبلاياه، وتركوا له وحده الغرفة الصغيرة التي كان من قبل يشغلها مع رفيقين منهم، فجاءت زوجه تقاسمه تلك الغرفة، وتقيم معه صبورًا على الألم، ولكن بلا أمل، بينما ذهبت حياتها تذوي وتضمحل على الأيام.

وغلبتها الغشية في ذات مساء وهي بين ذراعي زوجها، فاحتملها إلى النافذة المفتوحة لينشقها الهواء، وإذا هو يبصر على ضوء القمر المشع على وجهها تغيرًا شديدًا في قسماته، جعله يتراجع مترنحًا تحت وطأة ثقلها كطفل لا حول له ولا قوة.

وقالت مخافتة: «أنزلني يا جورج عن ذراعيك». فأجلسها وجلس هو بجانبها، ودفن وجهه في راحيته، وأجهش بالعبَرات.

قالت: «إنه لجد أليم أن أفارقك، ولكن تلك مشيئة الله، فلتحتمل الخطب مرضاة لي. أواه! كم أنا حامدة لله أخذَه طفلَنا إلى جواره، إنه الآن سعيد في مقامه عند خالق السموات، ماذا كان صانعًا هنا، وأمه ذاهبة؟».

وقال الرجل وهو ينهض من مجلسه: «لن تموتي يا ماري». وذهب مسرعًا يروح ويغدو في المحبس، ضاربًا رأسه بقبضتيه، ثم عاد إلى مجلسه بجانبها، واحتواها بين ذراعيه، وأضاف في سكينة قائلًا: «تماسكي أيتها المرأة العزيزة، أتضرع إليك أن تتجلدي، إنك ستحيين».

وقال المرأة المحضورة: «لن أحيا بعد اليوم يا جورج، فدعهم يوسدوني بجانب طفلي المسكين، ولكن عدني أنك إذا غادرت يومًا هذا المكان المخيف، وأصبحت غنيًّا أخا ثراء، سوف تنقلنا إلى مقبرة هادئة في سواد الريف بعيدة من هنا، نائية نستطيع أن نرقد فيها بسلام. أي جورج العزيز! عدني إنك فاعل».

وقال الرجل وهو يجثو ثائر العاطفة عند قدميها: «إني لفاعل، تكلمي يا ماري! كلمة واحدة، أو نظرة واحدة!».

وأمسك عن الكلام؛ إذ شعر بأن الذراع التي كانت مطوقة عنقه بدأت تتخشب وتثقل، وانبعثت زفرة عميقة من ذلك الهيكل الذاوي المائل حياله، واختلجت الشفتان، وخطفت ابتسامة على ذلك الوجه المصفر، ولكن لم تلبث الشفتان أن سكنتا، وتلك الابتسامة أن استحالت إلى حملقة رهيبة، لقد أمسى وحيدًا في هذا العالم.

وفي تلك الليلة، ووسط الصمت والوحشة المخيمين على غرفته الحقيرة، كان الرجل المحزون التعس جاثيًا بجانب جثة امرأته، مُشهِدًا الله على موقفه أن يكرس حياته من تلك الساعة للثأر لموتها، وموت طفله، وأن يوجه آخر رمق في حياته إلى تحقيق هذا الهدف، وأن يجعل انتقامه طويل الأمد رهيبًا، وأن يبقى حقده حيًّا لا يعاجله موت، ولا ينطفئ

له سعير، وأن يطارد خصمه في أرجاء الدنيا، ومختلف بقاع الأرض.

وقد أحال اليأس الشديد، والعاطفة الثائرة إلى حد يجاوز الطبيعة البشرية، وجه ذلك الرجل الحاقد الثائر، في ليلة واحدة، إلى صورة وحشية رهيبة جعلت رفقاءه في السجن ينزوون منه رعبًا كلما مَرَّ عليه ملأ منهم؛ فقد بدت عيناه متَّقدتين تقدحان شررًا ووجهه شاحبًا كوجوه الموتى، وبدنه منحنيًا مقوسًا كأنه ارتد شيخًا كبيرًا، وقد عض بنواجذه شفته السفلى حتى نفذت في لحمها، من شدة عذاب نفسه، ومضض روحه، وتساقطت منها قطرات الدم على ذقنه فلطخت بحمرتها قميصه وغطاء رقبته، دون أن تفلت دمعة من عينه، أو زفرة من صدره، ولكن النظرة القلقة الخلاجة، وتلك العجلة المضطربة التي مضى يقطع بها الفناء ذهوبًا وجيئة، كانتا دليلًا ظاهرًا على شدة الحمى التي كانت تستعر في أنحائه.

وكان لزامًا عليه أن ينقل رفات امرأته من السجن بلا إبطاء، وتلقَّى النبأ بهدوء تام، ووافق على النقل واحتشد أكثر السجناء لحضور نقل جثمانها، وأفسحوا الطريق وقوفًا على الجانبين، حين أقبل الزوج المحزون وهو يتقدم بخطى سراع، فيقف وحيدًا في داخل فضاء مسور عن كثب من باب السجن، بينما ابتعد الناس عن الموضع، بدافع إحساس غريزي استولى عليهم من دقة الموقف وحرجه، وحمل النعش البسيط الذي وضع الرفات فيه برفق على أكتاف الرجال، وساد الناسَ سكونٌ رهيبٌ، لا يبدده غير عويل النساء، ومواقع أقدام حملة النعش على الإفريز، ووصلوا إلى البقعة التي وقف فيها الزوج المحزون، فوضع يده

فوق النعش وراح يسوي- وهو لا يشعر- الغطاء المنشور عليه، وأشار إليهم بمتابعة المسير، ورفع الحراس الوقوف عند الباب قبعاتهم للنعش حين مر بهم، ولم تمضِ لحظة أخرى حتى أُغلق الباب الضخم دونه، فأرسل الرجل نظرة فازعة إلى الجمع الحاشد قبالته، وخر مغشيًّا عليه.

ولبث عدة أسابيع رهن حمى شديدة، وهذيان رهيب، تحت رقابة الأساة ليل نهار، لا يفارقه لحظة الشعور بمصابه، ولا ذكرى العهد الذي عاهده، وتغيرت المشاهد على عينيه، وجعلت الأماكن والبقاع تتوالى على خاطره، والأحداث تتتابع في مخيلته، في عجلة الهذيان، ولكنها جميعًا كانت متصلة في صورة غريبة بذلك الهدف العظيم الماثل في ذهنه، وكان يخيل إليه أنه قد ركب البحر مارقًا على زورق في لج متقاذف، ويَمٍّ لا ساحل له، وتحت سماء حمراء بلون الدم، والأمواه الغاضبة الثائرة، تغلي وتتدفَّق في كل ناحية من حوله، وأمامه مركب آخر يغالب اللج ويصارع الأمواج، ويناضل حيال العاصفة المزمجرة، وقد راحت الرياح الهوج تعبث بأشرعته القائمة فوق السارية، وازدحم سطحها بأشباح تهتز وتتدافع إلى الجانبين، حين انطلقت الأمواج المتقاذفة تنفجر بين لحظة وأخرى، وترمي ببعض تلك الأشباح المناضلة إلى جوف البحر المزبد، ولكنَّ المركبين ظلا يسيران وسط تلك الكتل الزائرة المزمجرة من الماء، بسرعة وقوة لا يقف شيء في طريقهما، ولا يحول دونهما حائل، حتى استطاعت الجارية المطاردة أن تلحق بالجارية المتقدمة فتضرب سكانها وتحطمه تحطيمًا، ومن تلك الدوامة الضخمة التي أحدثتها الجارية المغرقة انبعثت صرخة عالية مدوية، هي صيحات الموت من

أفواه عشرات الغرقى، اجتمعت كلها في صرخة موحشة واحدة، تعالت حتى غطت على صيحة الحرب التي أطلقتها عناصر الطبيعة الهائجة المحنقة، ولبثت تتردد حتى ليخيل إليك أنها مضت تشق الفضاء والسماء والأوقيانوس، ولكن ما هذا؟ ما هذا الرأس الأشيب الذي طفا فوق أديم الماء، ومضيفي نظرات عذاب أليم، وصيحات استغاثة، يصطرع مع الأمواج؟ لقد ألقى نظرة واحدة، ثم قفز من جانب الجارية، وانثنى يضرب الماء بذراعيه ضربات قوية سابحًا نحوه، حتى بلغه وأطبق عليه، لقد كانت تلك الملامح ملامحه هو وتلك القسمات قسماته، ورآه ذلك الشيخ دانيًا منه، فحاول عبثًا الإفلات من قبضته، ولكنه أمسك به بقوة وجرَّه معه تحت اليم هابطًا به الأعماق، منحدرًا به إلى أبعد الأغوار، حتى غلبه الوهن من طول الصراع، فلم يلبث أن كف عن المغالبة، وسكنت نأمته بعد النضال، لقد مات، وهو الذي قتله، ووفى بالعهد الذي عاهده.

وتراءى له بعد ذلك أنه راح يشق طريقه فوق رمال محرقة في صحراء شاسعة، حافي القدمين وحيدًا، والرمال تخنقه وتعميه، وتنفذ حباتها الدقاق في جميع مسام بشرته، وتكاد من إلحاحها عليه تُفقده لبه، وتذهب بصوابه، وكانت كتل ضخمة منها، تحملها الرياح السافيات، وتكسوها أشعة الشمس المحرِقة من وهجها وبريقها، فتبدو له من بعيد كأعمدة من نار حية متأججة، وقد تناثرت عند قدميه عظام الذين بادوا في تلك المهامِهِ القفر، وكأن ضياءً رهيبًا قد أشع على كل شيء حوله، وإلى آخر مدى البصر لا يبصر غير أشباح من هول ورعب مواثِلٍ أمامه، وعبثًا حاول أن يطلق صرخة فزع ورعب؛ فإن لسانه قد جف حتى

لصق بحلقه، فانطلق في طريقه كمن هو في جِنَّة، كأنما أوتي قوة خارقة للطبيعة، فمضى يشق الرمال لا يلوي على شيء، حتى أعياه المسير وبلغ منه التعب كلَّ مبلغ، فخرَّ مغشيًّا عليه. ولكن ما هذه الأنسام الندية العطرة التي أنعشته، وما هذا الصوت الثَّجَّاج الذي طرق أذنيه؟ أماء يبصر؟ إي والله هذا ينبوع يبدو لعينيه، وهذا جدول فضفاض رائق الأمواه يجرى عند قدميه. لقد مضى يعب منه وينهل، ويمد أوصاله الموجعة على ضفافه، ويهبط في أعماق غيبوبة لذة عذبة ... وأفاق على وقع أقدام تدنو منه، وإذا شيخ أشيب يخطو خطى وئيدة؛ ليطفئ ظمأه المحرق. لقد رآه مرة أخرى فأسرع إليه وطوقه بذارعيه وردَّه عن الورود، فطفق الشيخ الأشيب يناضل ويصرخ؛ طلبًا للماء، ويلتمس قطرة واحدة منه لإنقاذ حياته، ولكنه أمسك بالرجل وحال بينه وبين الينبوع، وهو يتأمل مبلغ العذاب الماثل في عينيه الظامئتين الملهوفتين، حتى إذا هوى رأسه فوق صدره، انثنى يركل جثته بقدميه بعيدًا عنه.

ولما تركتْه الحمى وثاب إلى نفسه، صحا فوجد نفسه غنيًّا وحرًّا طليقًا، وعلم أن أباه رضي له الموت في السجن، نعم «رضي» له الممات سجينًا، ذلك الأب الذي هان عليه أن يدع من هم أعز عليه من حياته يموتون من الجوع والمرض الذي يعجز الطب عن علاجه، قد وُجِدَ ميتًا على فراشه الوثير ووسادته الناعمة، لقد رضي قلبه أن يترك ابنه يعيش من بعده متسولًا مستجديًا، واعتز بصحته وقوته، فأرجأ ذلك حتى دهمه الموت، ولعله الآن يصرف بأسنانه ويحرق الأرم في العالم الآخر؛ غيظًا وحنقًا من تصور ثرائه الذي تركه له بإهماله وتقصيره. لقد صحا لهذا

ولأكثر منه، صحا ليذكر الهدف الذي كان يعيش من أجله، ويدرك أن عدوه هو الذي كان يعيش من أجله، ويدرك أن عدوه هو حموه، ذلك الرجل الذي زج به في غيابة السجن، ذلك الرجل الذي ذهبت إليه ابنته تحمل طفلها فجثت عند قدميه تسأله الرحمة، فطردهما من بيته، أوَّاه! كم راح يلعن ذلك الضعف الذي منعه من النهوض والحركة لينفذ انتقامه الرهيب!

وتركهم يحملونه من مشهد مصابه وبأسائه إلى دار هادئة على ساحل البحر، لا أملًا في استعادة سكينة نفسه ورغده؛ فقد تخلَّيَا عنه إلى الأبد، بل لاسترداد قواه الذابلة، والتفكير في هدفه العزيز عليه، وفي تلك الدار، أتاحت له روح شريرة الفرصة لتحقيق انتقامه الرهيب.

وكان الوقت صيفًا، فكان يخرج من البيت ساهمًا مستغرقًا في تفكيره الكئيب، على مطالع المساء، فيهيم على وجهه في درب ضيق تحت صخور البحر إلى بقعة قفراء منعزلة راقه الاختلاف إليها في هيَمانه وتجواله فيقتعد لديها حجرًا سقط من صخرة، ويمكث الساعات عندها دافنًا رأسه بين يديه، حتى لقد يطول به الجلوس أحيانًا، إلى غمرة الظلام، حين ترسل ظلال الصخور العابسة فوق رأسه حلكة كثيفة على كل شيء حوله.

وإنه لجالس ذات مساء هادئ في ذلك الموضع الذي اعتاده، رافعًا بين لحظة وأخرى رأسه ليرقب رفيف غر فوق صفحة البحر، أو يجيل العين في ذلك الدرب المستطيل على حمرة الشفق الرائع المشهد وهو يبدأ من بهرة الأوقيانوس، ثم يمتد كأنه مؤدٍّ إلى الحافة ذاتها التي تغيب

الشمس عندها، وإنه لجالس في تلك البقعة؛ إذ تبدد ذلك السكون العميق الذي يغمر موضعه على انطلاق استغاثة تشق عنان السماء، فأرهف سمعه، وهو في شك من الأمر، فإذا الصرخة تتكرر وتشتد، فاستوى على قدميه، وبادر إلى البقعة التي انبعث منها، وإذا هو يبصر مشهدًا بليغًا في ذاته، يقص قصته؛ فقد رأى ثيابًا متناثرة على الرمال، ورأسًا بشريًّا يطفو فوق الموج، على مسافة قليلة من الشاطئ، وشيخًا يقلب كفيه من فرط الألم، يعدو فوقه ذهوبًا وجيئة، صارخًا يطلب الغوث، فلم يكن من ذلك المريض الذي كان قد استرد يومئذٍ قدرًا كافيًا من قواه، إلا أن خلع رداءه، واندفع إلى البحر، معتزمًا الوثوب إلى أمواهه، وجر الغريب إلى البر، وإذا الرجل الكبير السن يبادره في لوعة حرى، وهو متقدم إلى لقائه صارخًا: «بـ «اسم الله» يا سيدي الغوث، الغوث، البدار يا سيدي بحق السموات. إنه ابني يا سيدي، إنه ولدي الوحيد، وهو يموت أمام عيني أبيه!».

ولم يكد الغريب يسمع الكلمة الأولى من فم الشيخ حتى جمد في مكانه، ووقف مشتبك الذراعين، لا يعير حراكًا.

وإذا الشيخ يتراجع صائحًا في دهشة بالغة: «رباه! من أرى؟ هيلنج!».

فابتسم الغريب، ولبث صامتًا.

وصاح الشيخ قائلًا في ثورة عاطفته: «هيلنج! ولدي يا هيلنج! ولدي العزيز! انظر، انظر!».

وراح الشيخ المسكين المتقطع الأنفاس يشير إلى البقعة التي كان الفتى يناضل فيها ويصارع للنجاة بحياته.

وقال الشيخ: «اسمع! إنه يصرخ مرة أخرى. إنه لا يزال حيًّا، أي هيلنج! ناشدتك الله إلا ما أنقذته!».

ولكن الغريب عاد يبتسم، ولبث جامدًا في مكانه.

وصاح الشيخ وهو يجثو على ركبتيه ويشبك يديه: «لقد ظلمتك فخذ بثأرك مني، خذ كل ما ملكت يميني، خذ كل شيء، خذ حياتي، وألق بي في اليم عند قدميك. وإذا جاز للطبيعة البشرية أن تكبت صراعًا، وتمسك عن نضال، فسأموت دون أن أحرك يدًا ولا قدمًا. ألا أنقذه يا هيلنج! افعل ناشدتك، أنقذ ولدي، إنه صغير يا هيلنج، لا ينبغي له أن يموت».

وأجاب الغريب وهو يمسك الشيخ بوحشية من معصمه: «استمع لي. النفس بالنفس، والحياة بالحياة، وهذه واحدة. لقد مات طفلي أمام عيني أبيه، ميتة أشد عذابًا وألمًا من هذه الميتة التي يلقاها اللحظة ذلك الفتى الواشي في حق أخته وفضلها. وقد ضحكت أنت في وجه ابنتك، حين كان الموت قد ألقى كفه على آلامنا وعذابنا، فماذا بقي في خاطرك عنهما الآن؟ انظر هناك، انظر هناك!».

وأشار الغريب إلى البحر، وإذا صرخة خافتة تتلاشى على أديمه، وإذا نهاية ذلك الصراع العنيف من ذلك الفتى الصغير المحضور تهيج الأمواج المتدفقة بضع ثوان، وإذا البقعة التي هوى عندها إلى قبره الباكر لم تعد تفترق في شيء عن الأمواه المحيطة بها.

وانفرطت ثلاثة أعوام.

ووقفت ذات يوم مركبة خاصة بباب محامٍ في لندن اشتهر يومئذٍ بأنه ليس على شيء كثير من النزاهة والأمانة في مهنته، ونزل منها سيد لا يلوح عليه أن جاوز ربيع الحياة، وإن بدا شاحبًا، ناحلًا، مهمومًا، فلا يحتاج رجل الأعمال فطنة حادة ليتبين بنظرة واحدة أن المرض أو الألم كان أفعل أثرًا في هذا التغير الذي طرأ على مظهره مما كان في إمكان الزمن أن يحدثه في ضعفي الفترة كلها التي انقضت من حياته.

وقال ذلك الغريب: «أريد أن تتولى عملًا قضائيًّا لي».

وانحنى المحامي انحناءة أدب بالغ، ورمق ببصره إضمامة كبيرة من الأوراق كان الغريب يحملها في يده، ولاحظ الزائر نظرته تلك، فمضى يقول: «ليس العمل الذي أريد أن أَكِلَهُ إليك عاديًّا، ولا هذه الأوراق وصلت إلى يدي هينة سهلة، بل جاءت بعد تعب شديد ونفقة باهظة».

فعاد المحامي يلقي نظرة أكثر لهفة وفضولًا إلى تلك الرزمة، وأخذ الزائر يفك الخيط الذي رُبطت به، ويُخرج قدرًا من الأوراق والتعهدات وصورًا من عقودٍ ووثائقَ أخرى.

ومضى العميل يقول: «إن الرجل الذي تحوي هذه الأوراق اسمه، كما سترى، استطاع أن يجمع مالًا طائلًا منذ بضع سنين، وكان بينه وبين الذين وقعوا من بداية الأمر في يديه، والذين استطعت أن أشتري منهم شيئًا فشيئًا الأوراق لقاء ثلاثة أو أربعة أمثال قيمتها الاسمية، تفاهم واتفاق على وجوب تجديد هذه القروض من وقت إلى آخر، خلال فترة معينة من الزمن، ثم لا تتجدد بعد ذلك أبدًا، ولكن هذا التفاهم لا يبدو له أثر في هذه الأوراق مطلقًا، وقد تعرض منذ عهد قريب لعدة خسائر، وإذا

تراكمت عليه هذه الالتزامات مرة واحدة حطمته حتمًا وأسقطته».

وقال المحامي وهو مكب على الأوراق: «إن جملة المال تصل إلى عدة آلاف من الجنيهات».

وأجاب العميل: «هذا صحيح».

وقال المحامي: «فماذا نحن صانعون؟».

وأجاب «العميل» بانفعال فجائي: «صانعون؟ نستعدي كل أداة في القانون القائم، وكل حيلة في وسع البراعة أن تتفتق عنها، وكل خدعة تعمد إليها النذالة، مع كل المهارة التي أوتيها أبرع المحامين، إنني أريد له موتًا أليمًا بطيئًا شديد العذاب، أريد أن أخرب بيته تخريبًا، وأحجز وأبيع كل أراضيه وأملاكه ومتاعه، أريد أن أشرده من بيت إلى بيت، وأنهي حياته متسولًا في شيخوخته، وأتركه يموت في السجن».

وأجاب المحامي، بعد أن أفاق من دهشته العابرة: «ولكن النفقات يا سيدي العزيز، وتكاليف هذا كله، فإذا كان المدعي عليه فقيرًا مسكينًا، فمن الذي سيؤدي النفقات يا سيدي؟».

وقال الغريب ويده ترعش بشدة من فرط الحماسة، حتى لا يكاد يقوى على الإمساك بالقلم الذي تناوله في يده وهو ماضٍ في قوله: «قل ما شئت، وعين المال الذي تريد، يكن لك، لا تخش أن تعينه يا رجل، فلن أحسبه باهظًا إذا تحقق به هدفي».

وعين المحامي قدرًا كبيرًا من المال خبط عشواء، عربونًا أو «مقدم أتعاب» ليضمن به حقه إزاء احتمال الفشل، وجواز الإخفاق، بل فوق

ذلك كله، ليعرف إلى أي مدى يعتزم عميله الذهاب، أكثر من التفكير في مبلغ تنفيذه لما يطلبه. ولكن الغريب كتب بالمال المطلوب صكًّا على البنك الذي يتعامل معه، وانصرف.

وصرف المال في حينه، ووجد المحامي أن عميله الغريب يصح الاعتماد عليه، فشرع في العمل بجد، ولبث المستر هايلنج أكثر من عامين بعد ذلك يجلس الساعات الطوال في المكتب مكبًّا على الأوراق ويعيد القراءة مرارًا وتكرارًا، وعيناه تبرقان فرحًا واغتباطًا، في كتب الاحتجاج، والتماسات التأجيل ولو إلى فترة قصيرة، وصور الدمار الذي سيحيق بالمَدين، ويتابع القضايا واحدة بعد أخرى، والدعوى تلو الدعوى في فيض غير منقطع، فوجد عن كل التماس يرجو به الشيخ مهلة قصيرة جوابًا واحدًا، وهو «لا بد من الوفاء»، وتبين له أن الأرض والعقار والأثاث كانت جميعًا تنتقل إلى حوزته؛ تنفيذًا لعديد الأحكام الصادرة بوجوب الاستيلاء عليها، حتى أمسى الشيخ نفسه مهددًا بالزج في السجن لولا أنه تمكن من الإفلات من رقابة الشرطة ولاذ بأذيال الفرار.

ولم يكن نجاح هذه المطاردة الملحَّة في إشباع كراهية هايلنج للشيخ، وإطفاء نار حقده عليه، بل زاده الدمار الذي أنزله به حقدًا وغلًّا، واشتد به الحنق حين علم بنبأ فراره، فجعل يصرف بأسنانه من الغضب، ويقطِّع شعر رأسه تقطيعًا، ويهاجم بالسب واللعن الذين عهد إليهم بأمر القبض عليه فتركوه يُفلت منهم، ولم يكن يسترد بعض الهدوء إلا بتكرار التوكيد له أن الاهتداء إلى مخبأ ذلك الهارب محقَّق، حتى لقد أوفد رسلًا للبحث عنه في كل مكان، واتخذ كل حيلة لمعرفة الموضع الذي أوى

إليه، ولكن الجهود التي بذلت في هذه السبيل ذهبت جميعًا أدراج الرياح، وانفرط نصف عام ولا يزال الشيخ مختفيًا لا يعرف أحد أين تُراه ذهب.

ففي ذات مساء، ظهر هايلنج بعد غيبة عدة أسابيع عن مكتب محاميه، ودق باب البيت الذي يقيم وكيله فيه، وبعث إليه بمن ينبئه أن سيدًا يريد لقاءه في الحال، وقبل أن يتمكن المحامي- حين عرفه من صوته فوق السلم- من إصدار أمره إلى الخادم بدخوله عليه، كان هايلنج قد دخل حجرة الاستقبال شاحب اللون لاهث الأنفاس، وتقدم إلى الباب فأوصده حتى لا يسترق أحد السمع عليهما، وتهالك على مقعد وأنشأ يقول بصوت خافت: «لقد وجدته أخيرًا».

وقال المحامي: «أحق هو؟ لقد أحسنت يا سيدي العزيز، لقد أحسنت».

وأجاب هايلنج إنه الساعة يقيم في بيت حقير في «كامدن»، ولعلنا قد أخفقنا في اكتشاف مقره؛ لأنه يعيش في ذلك البيت وحيدًا يقاسي أشنع البؤس طيلة الأيام وهو فقير، يعاني فاقة شديدة».

وقال المحامي: «حسن جدًّا، وسنستصدر بالطبع أمرًا بالقبض عليه».

وأجاب هايلنج: «نعم، بل تمهل، كلا، بل في اليوم التالي له، وأراك في دهشة من رغبتي في التأجيل». ومضى يبتسم ابتسامة منكرة، ويردف قائلًا: «لقد نسيت بادي الرأي، فإن بعد غد ذكرى مشهودة في حياته، فليكن اعتقاله بمناسبتها».

وقال المحامي: «حسن جدًّا! ألا تكتب للضابط في هذا الشأن؟».

قال: «كلا، دعه يجتمع بي هنا في الثامنة من المساء، فأصحبه بنفسي إلى مخبئه».

واجتمعا في الموعد المضروب، فاستأجرا مركبة وأمرا سائقها أن يقف بهما في طريق «بانكراس» عند الموضع الذي يقوم فيه مصنع «الأبرشية»، وكان الظلام قد حل حين نزلا من المركبة في ذلك الموضع، فسارا حذاء الجدار القائم قبالة المستشفى البيطري، وعطفا هنالك على زقاق كان يدعى يومئذ «شارع الكلية الصغيرة»، وكان في تلك الأيام، وإن لم ندر ماذا صنع الله به اليوم، مكانًا مهجورًا، لا يحيط به غير الحقول والخنادق.

وأرخى هايلنج قبعته التي تلازمه في الأسفار على عينيه، وتزمل بقبائه، ووقف أمام أحقر بيت في ذلك الزقاق ودقَّ الباب برفق، فجاءت في الحال امرأة ففتحته وانحنت انحناءة تنم عن المعرفة، فهمس هايلنج للشرطي أن يبقى حيث هو، وتسلل وحده إلى الطبقة العليا من البيت، وفتح باب الحجرة الأمامية، ودخل في الحال.

وكان الشيخ قد أمسى مُقعدًا، وهو يجلس أمام منضدة خشبية عارية، من فوقها شمعة ضئيلة، فلم يكد يرى الغريب داخلًا عليه، حتى نهض متحاملًا على قدميه.

وقال الشيخ: «ماذا تريد الآن؟ أي بلاء جديد هذا؟ ماذا تريد هنا؟».

وأجاب هايلنج: «كلمة معك!».

وراح يجلس في الطرف الآخر من المنضدة، ويخلع عنه قباءه وقبعته، ويكشف عن وجهه.

وإذا الشيخ يفقد في التو واللحظة قوة النطق، ويسقط في مقعده ويشبك يديه، ويرمق الشبح القائم حياله بنظرة امتزج فيها المقت بالخوف.

وأنشأ هايلنج يقول: «في مثل هذا اليوم من ستة أعوام خلت، طالبت بحياة طفلي التي كنت مدينًا بها لي، وقد أقسمت بجانب ابنتك، وهي تجود بأنفاسها الأخيرة أن أحيا حياة ثأر وانتقام، ومنذ ذلك اليوم لم أنحرف لحظة واحدة عن هدفي، ولو انحرفت، لكان في ذكري الآلام التي صبرتْ عليها غير شاكية، ونظراتها الأليمة وهي تذبل رويدًا وتذوي، أو وجه طفلنا الساغب، ما يكفي حافزًا لي على تحقيق غايتي، ولعلك ذاكر أول ما بدا من انتقامي، وهذا اليوم هو الانتقام الأخير».

وارتعد الشيخ وتخاذلت ذراعاه إلى جنبيه.

وتمهل هايلنج لحظة، ثم مضى يقول: «إنني تارك هذه البلاد غدًا، والليلة أنا مسلمك إلى الموت الحي الذي أسلمتها إليه، إلى سجن أبدي لا أمل في الخروج منه».

ورفع عينيه إلى وجه الشيخ وتمهل قليلًا، ثم قرب النور منه، ورده إلى موضعه في رفق. وغادر الغرفة.

وقال للمرأة وهو يفتح الباب: «يحسن بكِ أن تعني بأمر الشيخ، فإني أحسبه مريضًا» وأشار إلى الشرطي أن يتبعه.

وأغلقت المرأة الباب.

وصعدت في عجلة إلى الشيخ، فوجدته قد فارق الحياة.

وتحت أطباق الثرى، في جدث بسيط المظهر، في بقعة من أجمل البقاع، وفي المقابر المنعزلة، في إقليم «كنت»، حيث الأزاهر البرية مختلطات بأنضر الحشائش ويبدو المشهد المحيط بالموضع أبدع البقاع في البلاد كلها، ترقد عظام تلك الأم الشابة وطفلها البديع، ولكن رفات الأب لم يختلط بتلك العظام، ومنذ تلك الليلة لم يظفر المحامي بأي نبأ عمَّا كان من أمر ذلك «العميل الغريب».

وما كاد الشيخ يختم قصته، حتى تقدم إلى مشجب في ركن من الحجرة، فتناول منه رداءه وقبعته فلبسهما بتأنٍّ بالغٍ، وانصرف دون أن ينبس بكلمة واحدة.

وكان السيد ذو الأزرار الفسيفسائية قد استولى النعاس عليه، وراح أكثر أفراد الجمع في شغل شاغل بمداعبته ووضع دهن الشمع المذاب في كأسه، فانتهز المستر بكوك هذه الفرصة وانصرف دون أن يلحظ أحد منهم انصرافه، وبعد أن أدى حساب شرابه

* * *

# الفصل الثاني والعشرون

## رحلة المستر بكوك إلى أبسويتش وواقعة حال له مع امرأة نصف ملففة جدائلها في ورق أصفر

وسأل المستر ويلر الكبير فتاه الودود سامي، وهو يدخل فناء فندق «بل» في هوايتشابل يحمل حقيبة سفر وحقيبة صغيرة: «أهذا متاع المعلم يا بني؟».

وأجاب المستر ويلر الصغير، وهو يحط عنه العبء الذي كان يحمله على أرض الفناء ويجلس فوقه: «لقد كان أولى بك يا صاح أن تحدس حدسًا أسوأ من هذا، إن المعلم نفسه قادم إلى هنا اللحظة».

وقال الوالد: «أحسبه آتيًا في مركبة».

وأجاب الابن: «أي نعم، سيركب مسافة لا تزيد على ميلين، نظير ثمانية بنسات. كيف حال امرأة أبي اليوم؟».

وأجاب المستر ويلر الكبير بجد بالغ: «عجيب! يا سامي، عجيب والله. لقد بدأت تدخل في جماعة المثوديين، منذ أيام يا سامي، والمؤكد

أنها امرأة نقية فوق ما يجب، وأنا لا أستأهل مثلها، وأعتقد أنني غير جدير بها».

وقال المستر صموئيل: «آه، هذا إنكار ذات منك».

وأجاب الأب بزفرة: «جدًّا، لقد توصلت إلى اختراع شيء يجعل الكبار يولدون من جديد يا سامي. وهذا الاختراع يسمى على ما أظن: «المولد الجديد» إنني أحب أن أرى هذا الاختراع في دور التنفيذ، وأود كثيرًا أن أرى امرأة أبيك مولودة من جديد؛ لكي أسلمها لمرضعة تتعهد بها يا سامي».

ومضى المستر ويلر بعد سكوت قصير، جعل خلاله يضرب أنفسه بأصبعه بضع مرات يقول: «ماذا تظن أولئك النساء قد فعلن من يومين يا سامي؟».

وأجاب سامي: «لا أدري، ماذا فعلن؟».

قال: أقمن حفلة شاي لرجل يسمينه «الراعي»، وكنت واقفًا أنظر إلى الصور في الحانوت اذي في حينا، فقرأت إعلانًا مكتوبًا فيه «التذكرة بنصف كراون، جميع الطلبات تقدم إلى اللجنة، الأمينة المسز ويلر» ولما رجعت إلى البيت وجدت اللجنة مجتمعة في غرفة الجلوس عندنا، وكان عددهن أربع عشرة امرأة، كنت أتمنى لو سمعتهن يا سامي بنفسك. لقد كن يتخذن قرارًا، ويأخذن الأصوات، ويقمن بأعمال من هذا القبيل. وبعد إلحاح من امرأة أبيك عليَّ في الذهاب لحضور الحفلة وشوق مني لرؤية مناظر غريبة إذا ذهبت، استخرت الله وكتبت اسمي طالبًا تذكرة،

وكان الموعد الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة، فلبست وتزينت أحسن زينة، وذهبت مع المرأة العجوز، ودخلنا قاعة واسعة وضعت فيها أدوات الشاي لثلاثين شخصًا، فرأيت النساء يبدأن في التهامس بعضهن مع بعض، ثم ينظرن إليَّ، كأنهن لم يرين في حياتهن رجلًا بدينًا في الثامنة والخمسين من العمر، وبعد لحظة سمعنا حركة شديدة على السلم، وإذا شخص طويل نحيل الجسم أحمر الأنف في غطاء رقبة أبيض، فصاح قائلًا: «لقد أتى الراعي ليزور قطيعه الوفي الأمين» وإذا رجل سمين في ثوب أسود وله وجه ضخم أبيض، وهو يبتسم ابتسامة عريضة كالساعة الدقاقة.. هذا والله ما حصل يا سامي! وقال الراعي: «قبلة السلام!» ومضى الراعي يقبل النساء، ولما انتهى، بدأ الرجل الأحمر الأنف، وعندئذ بدأت أنا الآخر أفكر هل يحسن بي أنا أيضًا أن أبتدئ، لا سيما أن سيدة جميلة لطيفة جدًّا كانت جالسة بجانبي. وإذا الشاي يأتي، وامرأة أبيك معه لأنها كانت في الطابق الأسفل تقوم بغليه.. فانهالوا جميعًا عليه بأسنانهم وأظافرهم. وكان الترتيل يا سامي عاليًا جميلًا، عندما كان الشاي يغلي ويدور الأكل والشرب! كنت أتمنى أن ترى الراعي وهو يهجم على اللحوم والفطائر، فوالله ما رأيت في حياتي إنسانًا يأكل ويشرب مثله. والرجل الأحمر الأنف، لا أظنك ترضى أن تتعهد لإنسان كهذا بتقديم الأغذية والمأكولات، ولكنه أين يروح بجانب ذلك الراعي.. ما علينا، وبعد الانتهاء من الشاي بدأوا في ترتيلة أخرى، وبعدها بدأ الراعي يعظ.، وقد أتقن الوعظ فعلًا، وهو عجيب، لم يكن منتظرًا منه إذا تذكرنا أن هذه الفطائر الدسمة لا بد من أنها أثقلت على

صدره، وكتمت أنفاسه، وإذا هو فجأة يقف عن الوعظ، ويصيح قائلًا: «أين المذنب؟ أين المذنب الأثيم؟» وفي الحال رأيت النساء جميعًا ينظرن نحوي، وبدأن يتأوهن كأنهن سيمتن. وكان هذا المنظر غريبًا، ولكني سكت ولم أقل شيئًا. وعاد الراعي مرة أخرى يقول وهو ينظر إليَّ نظرة قاسية: أين المذنب؟ أين المذنب المنكود؟ وعاد النساء يتأوهن عشرة أضعاف تأوهاتهن الأولى. الحق أقول لك، إني غضبت وتهيجت، وخطوت خطوة أو اثنتين إلى الأمام، وقلت له: هل وجهت لي يا صاح هذا السؤال الذي سألته؟ ولكنه بدلًا من أن يعتذر لي ويرضي خاطري بكلمتين لطيفتين، أخذ يسب لي «الأخضرين»، ويشتمني، ويقول عني يا سامي إنني «أجوف تافه» وشتائم أخرى من كل لون. أقول لك الحق، إن دمي أخذ يغلي في عروقي، فلكمته هو أولًا لكمتين أو ثلاث لكمات، ومثلها أو أكثر ليسلمها إلى الرجل الأحمر الأنف، وانصرفت، أتمنى لو أنك سمعت صراخ النساء في تلك اللحظة يا سامي، وهن يخرجن الراعي من تحت المائدة.. ها! ها هو المعلم قد جاء.. «قدر الدنيا!».

وفيما كان المستر ويلر ماضيًا في حديثه هذا، نزل المستر بكوك من المركبة ودخل الفناء.

وبادره المستر ويلر الكبير قائلًا: «صباح بديع يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «بديع فعلًا!».

وردد هذا القول بالذات رجل أحمر الشعر ذو أنف فضولي ومنظار أزرق، كان قد نزل في اللحظة ذاتها من مركبة أخرى، والتفت إلى المستر بكوك قائلًا: «أذاهب إلى أبسويتش يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «نعم».

- «اتفاق «عجيب»، أنا أيضًا ذاهب إليها».

فأومأ المستر بكوك إليه.

وقال ذو الشعر الأحمر: «وستركب خارج الحافلة؟».

وعاد المستر بكوك يومئ مرة أخرى.

وقال ذو الشعر الأحمر: «ما أعجب وما أغرب! أنا أيضًا سأركب خارج الحافلة، نحن إذن مسافران معًا».

وكان الرجل تبدو عليه الأبـَّهة، حاد الأنف، غريب الكلام، اعتاد أن يحدث هزة برأسه كلما قال شيئًا، كما تفعل العصافير، ومضى يبتسم كأنه قد وقع على أغرب اكتشاف تواتى يومًا للحكمة البشرية.

وقال المستر بكوك: إنني لسعيد برفقتك في السفر يا سيدي.

وأجاب الرجل الغريب: «آه، إنه من حسن حظنا معًا، أليس الأمر كذلك؟ الرفقة- كما ترى- إنها شيء مختلف جدًّا عن العزلة، أليس الأمر كذلك؟».

وقال المستر ويلر، وهو ينضم إلى الحديث بابتسامة لطيفة: «لا نكران لهذه الحقيقة. هذا ما أسميه كلامًا واضحًا لا يحتاج إلى دليل، كما قال بائع لحم الكلاب، حين قالت له ربة البيت إنه ليس رجلًا مهذبًا».

وقال ذو الشعر الأحمر وهو يجيل البصر في المستر ويلر من فرعه إلى قدمه، بنظرة استنكار وأنفة: «آه، أهذا صديق لك يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك مخافتًا بصوته: «ليس صديقًا بالضبط، ولكنه في الواقع خادمي، وأنا معطيه قدرًا كبيرًا من الحرية؛ لأنني - بيني وبينك - أعتقد أنه فريد في نوعه، فذ، وإني به لمعتز».

وقال الرجل ذو الشعر الأحمر: «آه، هذه مسألة ذوق. وأنا لا أحب الإنسان الفذ، ولا أميل إليه، ولا أرى ضرورة تدعو إليه. ما اسمك يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك قائلًا، وقد سرته كثيرًا مباغتته بهذا السؤال، كما راقته غرابة أطوار الرجل: «ها هي ذي بطاقتي يا سيدي».

وقال ذو الشعر الأحمر، وهو يضع البطاقة في جيبه: «آه! بكوك، جميل جدًّا. إنني أحب أن أعرف أسماء الناس؛ لأنها تغني المرء عن تعب كثير. ها هي ذي بطاقتي يا سيدي، تتبين منها أنني أدعى ماجنس يا سيدي. اسمي ماجنس، أعتقد أنه اسم حسن يا سيدي. أليس كذلك؟».

وأجاب المستر بكوك، وهو لا يكاد يملك كبت ابتسامة: «إنه اسم حسن جدًّا فعلًا».

ومضى المستر ماجنس يقول: «نعم أعتقد أنه كذلك. إن هناك اسمًا آخر قبله كما تلاحظ. اسمح لي يا سيدي، أرجوك أن تمسك بالبطاقة مائلة قليلًا؛ حتى لا يقع الضوء على الحروف من فوق. ها هو ذا بيتر ماجنس، أظن النغمة عند النطق به جميلة. أليس كذلك؟».

وقال المستر بكوك: «جدًّا».

ومضى المستر ماجنس يقول: «إن الحرفين الأولين من هذين

الاسمين يقترنان بظرف غريب. لعلك تلاحظ يا سيدي أنهما «ب.م»- بوست مريديان[1]- حتى إنني أحيانًا أوقع الرقاع المستعجلة التي أكتبها إلى أصدقائي الحميمين بهذه الإمضاءة «بعد الظهر»، وقد سرت أصدقائي كثيرًا يا مستر بكوك».

وأجاب المستر بكوك وهو في أعماق نفسه يعجب لهذه السهولة التي يسر أصدقاء المستر ماجنس بها، قائلًا: «إنني مدرك أيضًا أنها مدعاة سرور بالغ لهم».

وجاء رب الفندق يقول: «والآن، أيها السيدان، المركبة على استعداد إذا تفضلتما بالركوب».

وسأله المستر ماجنس: «هل نقلتم إليها كل أمتعتي؟».

- «كلها يا سيدي».

- «والحقيبة الحمراء؟».

- «كل شيء يا سيدي».

- «والحقيبة ذات الأربطة؟».

- «في خزانة العربة الأمامية يا سيدي».

- «والحزمة الملففة في الورق الأسمر؟».

- «تحت المقعد يا سيدي».

- «وصندوق القبعة الجلد؟».

---

(١) اصطلاح في تحديد الوقت معناه بعد الزوال أو بعد الظهر.

- «كله في المركبة يا سيدي».

وهنا قال المستر بكوك: «والآن ألا تصعد؟».

وأجاب المستر ماجنس، وهو واقف على العجلة: «معذرة يا مستر بكوك، لا يمكن أن أوافق على الصعود وأنا في هذه الحالة من الشك، إنني مقتنع كل الاقتناع من طريقة هذا الرجل في ردوده، بأن علبة القبعة لم توضع في المركبة».

ولم تُجْدِ توكيداتُ ربِّ الفندقِ وأقسامه المقدسة نفعًا في إقناع هذا السيد الغريب، وأصر على أن يبحث عنها حتى عثر عليها في قاع «خزانة» المركبة، فاطمأن إلى وجودها في أمان، ولكنه أحس بهاتف يوحي إليه أولًا أن الحقيبة الحمراء لم توضع كما يجب، وثانيًا أن الحقيبة ذات الأربطة سُرِقَتْ، وأخيرًا أن الحُزمة الملففة في الورق قد تفككت، وبعد أن تحقق بعينيه أن كل هذه الشكوك لم تكن في محلها وافق على الصعود فوق سقف المركبة قائلًا: إنه الآن قد أزال كل ما كان يخالج نفسه من ريبة، وإنه مستريح سعيد.

وقال المستر ويلر الكبير وهو ينظر إليه بطرف عينه حين صعد إلى موضعه: «إنك عصبي، ألست كذلك يا سيدي؟».

وأجاب الغريب: «بلى، إنني أكاد أكون كذلك في هذه المسائل الصغيرة ونحوها، ولكني الآن بخير تام. بخير تام».

وقال المستر ويلر: «الحمد لله، وأنت يا سامي، أَعِنْ سيدك على الصعود، الرِّجْل الأخرى يا سيدي، هكذا، أعطنا يدك يا سيدي. هيا! لقد

كنت بلا شك أخف وزنًا وأنت صغير يا سيدي منك الآن».

وأجاب المستر بكوك بلطف وهو لاهث الأنفاس، حين اتخذ مجلسه فوق الأريكة إلى جانبه: «هذا صحيح يا مستر ويلر».

وقال المستر ويلر: «اقفز إلى الأمام يا سامي. والآن أطلق الخيل يا وليم.. احترسوا أيها السادة من الباب الكبير، طأطئوا رؤوسكم! حسبك هذا يا وليم، دعهم وشأنهم».

وانطلقت المركبة صعدًا في طريق هوايتشابل وسط إعجاب جميع سكان تلك المنطقة المزدحمة بالقاطنين.

وقال سام وهو يلمس قبعته بكفه، كما ألف أن يفعل كلما دخل في حديث مع سيده: «إن هذا الحي يا سيدي ليس لطيفًا».

وأجاب المستر بكوك، وهو يتأمل الشارع المزدحم القذر الذي يمرون منه: «فعلًا يا سام».

وواصل سام قوله: «إنه لظرف عجيب جدًّا يا سيدي أن الفقر وحيوان الأصداف البحرية لا يفترقان».

وقال المستر بكوك: «لست أفهم مرادك يا سام».

وأجاب سام: «إن ما أعنيه يا سيدي هو أنه كلما اشتد الفقر بمكان ما، اشتد الإقبال فيه على الأصداف البحرية، انظر يا سيدي تر محلًا لبيع هذه الأصداف لكل ستة من البيوت، وتشهد الشارع ممتلئًا على الصفين بحوانيت بيع هذا المحار، وأعتقد أنه كلما ألح الفقر على أحد من الناس هنا، اندفع من مسكنه ليأكل هذه الأصداف من شدة اليأس من الحياة».

وقال المستر ويلر الكبير: «بلا شك، وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة للسلمون المملح!».

وقال المستر بكوك: «هاتان حقيقتان بارزتان لم تخطرا ببالي قبل الآن، وسأدونهما في مذكراتي عند أول موضع نقف فيه».

وكانوا حينئذ قد وصلوا إلى «نقطة العوايد»- المكوس- في «مايل إند»، وساد السكون، حتى قطعوا ميلين أو ثلاثة أميال أخرى، وعندئذ التفت المستر ويلر فجأة إلى المستر بكوك وأنشأ يقول: «إن حياة «حارس النقطة» حياة غريبة يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «حارس ماذا؟».

- «حارس النقطة».

وسأل المستر ماجنس: «ماذا تعني بحارس النقطة؟».

وتدخل المستر صمويل ويلر لشرح مراد الوالد، فقال: «إن الرجل العجوز يعني حارس باب العوائد، وهذا هو قصده».

فقال المستر بكوك: «آه، فهمت، نعم، إنها لحياة غريبة جدًّا، ومتعبة للغاية».

وعاد المستر ويلر الكبير يقول: «إن هؤلاء القوم أناس لاقوا في حياتهم تعاسة وخيبة رجاء».

وقال المستر بكوك: «ماذا؟».

وأجاب المستر ويلر الكبير: «أي نعم، ولهذا السبب تراهم يتركون العالم ويحبسون أنفسهم في هذه النقط، أولًا لكي يعيشوا وحيدين، وثانيًا

لينتقموا من الناس بمقاضاة المكوس».

وقال المستر بكوك: «يا عجبًا! ما كنت أعرف هذا قبل الآن».

وأجاب المستر ويلر: «هذه حقيقة يا سيدي، ولو كانوا قومًا متعلمين، لسميتهم الناقمين الساخطين على البشر، أما وهم ليسوا كذلك، فكل ما يقال عنهم إنهم حراس على المكوس فقط».

وعلى هذا النحو مضى المستر ويلر ينفي عن الرحلة سآمتها بمثل هذا الحديث الذي يجمع بين فتنة الدعابة وفائدة المعرفة، حتى مضى أكثر النهار فيه، فلم تعوزهم الموضوعات مطلقًا، ولا نقصتهم أفانين القول، وكلما تخلَّلت ثرثرة المستر ويلر وقفات أو فراغ، راح المستر بيتر ماجنس يسده بالرغبة في معرفة أحوال رفقائه في السفر، وسماع قصة حياتهم واحدًا واحدًا، وإظهار قلقه في كل مرحلة على سلامة الحقيبتين وعلبة القبعة والحزمة الملففة بالورق.

وفي شارع إبسويتش الرئيس، وعلى الجانب الأيسر من الطريق، بعد مسافة قصيرة من الأرض الفضاء الممتدة أمام دار البلدية، يقوم فندق اشتهر عند القاصي والداني باسم «الحصان الأبيض الكبير» يزيده ظهورًا للعين ووضوحًا تمثال حجري لحيوان غريب ذي معرفة غزيرة وذيل طويل يشبه من بعيد حصان مركبة نقل، يبدو الجنون عليه، وقد نُصب هذا التمثال فوق الباب الكبير، واشتهر فندق «الحصان الأبيض الكبير» في تلك الجهة شهرة ثور فحل، أو لفتة نادرة رددت الصحف ذكرها أو حلوف بدين.. أي إنه عرف بضخامة حجمه، فلم يعرف يومًا فندق بكثرة دهاليزه المتشعبة المكسوة بالبسط كأنها تيه يضل المرء في

شعابه ومنعطفاته، ولا كثرة حجراته الرطبة العفنة الضئيلة النور، ووفرة عدد المغارات أو الكهوف الصغيرة المعدة لتناول الطعام أو النوم، كما عرف ذلك الفندق بكثرتها العجيبة تحت سقف واحد، تضمها الجدران الأربعة التي تحيط به.

وكانت المركبة القادمة من لندن تقف بباب ذلك الفندق المفرط في الضخامة في ساعة معينة من كل مساء، وفي ذلك المساء بالذات الذي نتحدث عنه في هذا الفصل، وقفت ونزل منها المستر بكوك وسام ويلر والمستر بيتر ماجنس.

وأنشأ الأخير يقول بعد أن رأى الحقيبة ذات الأربطة، والحقيبة الحمراء، والحزمة الملففة، وعلبة القبعات قد استقرت جميعًا في الردهة: «أنازل هنا يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «أي نعم!».

وقال المستر ماجنس: «عجيب! ما عرفت يومًا شيئًا يشبه هذه المصادفة غير المألوفة. إنني أيضًا نازل هنا. أرجو أن نتعشى معًا؟».

وأجاب المستر بكوك: «بكل سرور، ولست متأكدًا كل التأكد، هل وصل أصحابي أو لم يصلوا، يا غلام! هل هنا سيد يدعى المستر طبمن؟».

وإذا رجل بدين يحمل فوطة مكثت معه أسبوعين، تحت ذراعه، ويلبس جوربًا مماثلًا للفوطة في قدم العهد، وطول المكث، ينثني في بطء عن الانشغال بالنظر إلى الشارع عند توجيه هذا السؤال، ومضى

يجيب بلهجة قاطعة، بعد أن لبث يدقق البصر في وجه السائل، ويتفحصه من فرعه إلى قدمه: «كلا».

- «ولا أحد باسم سنودجراس؟».

- «كلا».

- «ولا ونكل؟».

- «كلا».

وانثنى المستر بكوك يقول للمستر ماجنس: «لم يصل أصحابي اليوم يا سيدي، سنتعشى وحدنا إذن. يا غلام! أرنا غرفة خاصة».

وتواضع الخادم البدين إزاء هذا الرجاء فأمر الخدم بنقل أمتعة السيدين وتقدمهما في دهليز طويل مظلم، إلى غرفة واسعة رديئة الأثاث، ذات مدفأة قذرة تحوي نارًا قليلة تحاول يائسة أن تبدو بهيجة مشرقة، ولكنها توشك سريعًا على الانطفاء من وخامة جو المكان الذي يحتويها، وبعد ساعة جاء الخدم إلى السيدين بقطعة صغيرة من السمك ومثلها من اللحم، وما إن رفع الطعام حتى قرب المستر بكوك والمستر بيتر ماجنس مقعديهما من النار وأمرا بزجاجة من أردأ نبيذ ممكن، وأفحش ثمن محتمل، لا لغرض إلا إفادة الفندق، واكتفيا باحتساء البراندي المشعشع بالماء لمصلحتهما هما ومزاجهما.

وكان المستر بيتر ماجنس بطبيعته رجلًا كثير الكلام، وما لبث البراندي المزيج بالماء أن أحدث أثرًا عجيبًا في إخراج أعمق الأسرار المختبئة في صدره، فطفق يتحدث عن نفسه، وعلاقاته، وأصحابه،

ونكاته، وأعماله، وأخواته- وعند أكثر الثرثارين كلام كثير يقولونه عن إخوتهم- ثم مضى ينظر عدة دقائق إلى المستر بكوك نظرة زرقاء من خلف منظاره الملون، وقال على استحياء: «وماذا تظن، ماذا تظن يا مستر بكوك. السبب الذي حدا بي إلى المجيء إلى هنا؟».

وأجاب المستر بكوك: «يمين الله لا أستطيع مطلقًا التكهن، ربما جئت لعمل!».

وقال المستر بيتر ماجنس: «هذا صحيح إلى حد ما يا سيدي، وخطأ إلى حد ما أيضًا، حاول مرة أخرى يا مستر بكوك».

وقال هذا: «في الواقع إنني أناشدك الرحمة أن تنبئني بالحقيقة، أو تكتمها عني كما يتراءى لك؛ لأنني لا أحسن التخمين، وإن حاولته الليل كله».

وقال المستر ماجنس بضحكة مستحيية: «إذن، هيه، هيه، هيه، ما رأيك يا مستر بكوك إذا كنت قد جئت إلى هنا لأخطب يا سيدي. هيه، هيه، هيه».

وأجاب المستر بكوك بإحدى ابتساماته اللامعة المشرقة: «رأيي! إنك على أكثر الرجحان ستنجح».

وقال المستر ماجنس: «آه! هل تظن هذا حقًّا يا مستر بكوك.. هل تظن؟».

وأجاب المستر بكوك: «بلا ريب».

- «كلا! أنت تمزح».

- «لا، لست مازحًا».

وقال المستر ماجنس: «إذن لا أخفي عنك سرًّا صغيرًا، هذا هو فكري أنا أيضًا، ولا بأس من أن أنبئك يا مستر بكوك، وإن كنت بطبعي غيورًا إلى حد شنيع، إن السيدة التي عليها العين هنا في هذا الفندق».

وخلع المستر ماجنس منظاره؛ لكي يغمز بعينه، ثم أعاده إلى موضعه.

وقال المستر بكوك مداعبًا: «أهذا هو سر خروجك من الحجرة مسرعًا قبل العشاء أكثر من مرة؟».

قال: «صه، نعم، أنت على حق، ولكني من غباوتي لم أرها مع ذلك».

- «أتقول جدًّا؟».

- «نعم، لا يكفي مجرد رؤيتها عقب الوصول من السفر، بل من رأيي أن أنتظر إلى الغد يا سيدي. فتكون الفرصة عندئذ مضاعفة. يا مستر بكوك، إن في تلك الحقيبة طاقمًا من الثياب يا سيدي، وفي هذه العلبة قبعة، وأنتظر أن يكون للثوب والقبعة تأثير لا شك في عظم قيمته، بالنسبة لي يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «فعلًا».

- «نعم. ولا بد من أنك قد لاحظت مبلغ قلقي عليهما اليوم، ولست أعتقد أن في الإمكان شراء مثل هذه الثياب، ومثل هذه القبعة بالمال يا مستر بكوك».

وهنأ المستر بكوك هذا المالك الموفق السعيد بهذه الثياب التي

لا تنافس ولا تغالب باقتنائها، وظل المستر بيتر ماجنس بضع لحظات مستغرقًا في التأمل.

وأخيرًا قال: «إنها مخلوقة بديعة!».

وقال المستر بكوك: «أهي كذلك؟».

وأجاب المستر ماجنس: «جدًّا، جدًّا، وهي تقيم على مبعدة عشرين ميلًا من هذا الموضع يا مستر بكوك. وقد سمعت أنها ستكون هنا الليلة، وستمكث إلى ضحى الغد، فجئت لأنتهز الفرصة، وأعتقد أن الفندق مكان طيب لعرض فكرة الزواج على امرأة عزباء فيه يا مستر بكوك، إذ أكبر ظني أنها ستشعر بوحشة حياتها ووحدتها في السفر والغربة، أكثر مما تحسهما في بيتها. فما رأيك يا مستر بكوك؟».

وأجاب هذا السيد قائلًا: «مرجح جدًّا».

وعاد المستر بيتر ماجنس يقول: «عفوًا يا مستر بكوك إذا رأيتني بطبيعتي فضوليًّا.. ما الذي جاء بك أنت إلى هنا؟».

وأجاب المستر بكوك، وقد أخذ الدم يتصاعد إلى وجهه من مجرد الذكرى: «جئت في مهمة أقل لذة بكثير من مهمتك. لقد جئت إلى هنا يا سيدي لأكشف عن خيانة إنسان وغدره وكذبه، وكان من قبل موضع ثقتي، وكنت معتمدًا على وفائه وشرفه وأمانته».

وقال المستر ماجنس: «ويحي! هذه مهمة سيئة جدًّا. أحسب الأمر يتصل بسيدة. آه... ما أشد مكرك يا مستر بكوك! ما أشد مكرك! ولكني يا سيدي لا أريد مطلقًا أن ألتمس معرفة حقيقة مشاعرك، حاشا لله، هذه

مسائل مؤلمة يا سيدي، مؤلمة جدًّا، فلا تؤاخذني يا مستر بكوك إذا أنت أردت أن تطلق العنان لمشاعرك؛ لأني أعرف يا سيدي مبلغ ألم النفس من التعرض للخيانة والخداع، فقد جربت هذا الشيء ثلاث مرات أو أربعًا».

وقال المستر بكوك، وهو يملأ ساعته ويضعها فوق المائدة: «إني لشاكر لك مراعاتك لما تظنه واقعة حال محزنة، ولكن...».

وعاجله المستر بيتر ماجنس قائلًا: «كلا! كلا! ولا كلمة أخرى، إنه لموضوع أليم، أنا أفهم، أنا أفهم. كم الساعة الآن يا مستر بكوك؟».

- «جاوزت الثانية عشرة».

- «ويحي! لقد حان الذهاب إلى الفراش، فإن الجلوس هنا لا يجدي، أخشى أن أكون شاحبًا غدًا يا مستر بكوك!».

وما إن تصور المستر بيتر ماجنس أنه سيصبح مصفرًّا شاحب الوجه، حتى دق الجرس للخادم الموكلة بترتيب الغرف، وبعد أن نقلت الحقيبة ذات الأربطة والحقيبة الحمراء، وعلبة القبعات، والحزمة الملففة، إلى غرفة نومه، أوى إليها، يحمل خادم في أثره «مائلة» يابانية، بينما سيق المستر بكوك مع «مائلة» أخرى، من خلال منعرجات كثيرة، ومنعطفات لا آخر لها، إلى غرفة أخرى.

وقالت الفتاة الموكلة بالغرف: «هذه هي غرفتك يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك، وهو يدير عينيه حوله: «حسن جدًّا».

وكانت الغرفة واسعة إلى حد لا يطاق، وذات سريرين ونار مشبوبة

في الموقدة، وهي في الجملة أوفر راحة ممَّا كان المستر بكوك يتوقع، بعد الذي شاهده في تلك الفترة القصيرة من غرف الفندق وحجراته.

وسأل المضيفة قائلًا: «لا ينام أحد في السرير الآخر بالطبع».

قالت: «كلا يا سيدي».

قال: «حسن جدًّا. أبلغي خادمي أن يحضر إليَّ قليلًا من الماء الساخن في الثامنة والنصف صباحًا، وإنني لست الليلة بحاجة إليه».

قالت: «سمعًا وطاعة يا سيدي».

وبعد أن حَيَّتِ المسترَ بكوك انصرفت وتركته وحده، وجلس السيد الكبير في مقعد قريب من الموقدة، وسرح به الخاطر في فيض زاخر من الأفكار، فذكر أولًا أصحابه، وتساءل متى يوافونه، ثم عاد به الخاطر إلى السيدة مارتا باردل، ومن تلك السيدة بطبيعة الحال إلى مكتب ددسن وفج في تلك الدار القاتمة، ثم طار به الفكر رأسًا إلى صميم قصة «العميل الغريب»، ومنها عاد أدراجه إلى فندق «الحصان الأبيض الكبير» في أبسويتش، في وضوح كافٍ لإقناعه بأن النعاس قد استولى عليه، فعمد إلى تنبيه نفسه وأخذ يخلع ثيابه، وإذا هو يتذكر فجأة أنه قد ترك ساعته فوق المنضدة في الطبقة الأولى من الفندق.

وكانت هذه الساعة أثيرة لديه؛ فقد ظلت معه، ملازمة مكانها تحت ظل صداره، أعوامًا أطول مما يطلب منا أن نعين في هذه اللحظة، ولم يكن قد خطر بباله احتمال الذهاب إلى الفراش دون أن يسمع دقها الرفيق تحت وسادته أو في كيسها الموضوع فوق رأسه، ولكن الوقت

كان متأخرًا، فلم يشأ أن يدق الجرس في تلك الساعة الموهنة من الليل، فارتدى سترته في عجلة، وكان قد خلعها منذ لحظة، وحمل «الماثلة» بيده، وراح في رفق يهبط السلم.

وكلما هبط منها مدارج، تبين له أن هناك أخرى أكثر منها تقتضيه الهبوط، وكذلك ظل ينزل، ويهبط، حتى أسلمته تلك المدارج بعد لَأْيٍ إلى دهليز ضيق، فبدأ يهنئ نفسه بتوفيقه في الوصول إلى الدور الأرضي، ولكن سلمًا آخر لاح عندئذٍ لعينيه المذهولتين، وأخيرًا بلغ قاعة تذكر أنه رآها عند دخول الفندق، وما زال يتنقل من دهليز إلى آخر، ويجتاز حجرة إثر حجرة، حتى كاد ينثني عن البحث من اليأس، ففتح في النهاية بابًا وجده، وإذا هو في القاعة ذاتها التي قضى المساء فيها، ورأى الساعة التي جاء يبحث عنها موضوعة في مكانها فوق المنضدة.

وتناولها المستر بكوك فرحًا فرحة المنتصر، وانثنى يعود أدراجه إلى غرفته، ولئن كان نزوله إلى الدور الأرضي قد حُفَّ بمكاره، وصادفته فيه صعاب ومشاق، وأحاطت به خلاله شكوك وحيرة؛ فقد كانت عودته أكثر مشقة، وأشد ارتباكًا؛ فقد طالعته صفوف من الأبواب، تزينها أحذية من كل شكل وطراز وحجم، وتتفرع في كل ناحية، حتى لَكَمْ أدار في رفق مقبض أبواب عدة منها بدت له كباب غرفته، ولكم سمع من صوت خشن يصيح من جوفها: من أنت؟ أو ماذا تريد هنا؟ فكان يتسلل منصرفًا على أصابع قدميه بخفة مدهشة، حتى إذا كاد ييأس، لاح له باب اجتذب خاطره، فأطل ببصره، لقد اهتدى بعد لَأْيٍ! فها هما ذان السريران، في الموضع ذاته الذي تذكره تمامًا، ولا تزال النار في الغرفة مشبوبة، ولم

تكن الشمعة طويلة حين تسلمها، فلم تلبث بعد طول خفقان ضيائها مع هبات الهواء في الدهاليز والردهات التي اجتازها أن هوت في ثقبها، وهو يغلق الباب في أثره فقال لنفسه: «لا بأس، سأخلع ثيابي على ضوء النار في الموقدة».

وكان كل سرير منهما قائمًا على جانب من الباب وعلى الجانب الداخلي منه ممر صغير ينتهي إلى مقعد من القش، يكاد يتسع لدخول المرء إلى السرير أو نزوله منه، إذا أراد النزول أو الصعود من هذا الجانب.

فتقدم المستر بكوك إلى ذلك المقعد فجلس ليخلع في هدوء حذاءه وغطاء ساقيه، ثم نضا عنه سترته وصداره وقميصه، وتناول برفق طاقية النوم فأثبتها في رأسه بربط خيطها تحت ذقنه.

وفي تلك اللحظة فقط خطر له سخف هذه الطوفة المحيرة التي طافها في نواحي الفندق ودهاليزه، فأسند ظهره إلى مسند الكرسي القش، وانطلق يضحك من صميم قلبه، حتى لو شهده إنسان ثابت العقل ورأى الابتسامات التي امتدت إلى سائر تقاطيع وجهه، وهي منطلقة متهللة من تحت طاقية النوم، لوجد في هذا المنظر سرورًا بالغًا، ومتعة متناهية.

ومضى المستر بكوك يحدث النفس، وهو يبتسم حتى ليكاد يفك خيط الطاقية الذي تحت ذقنه، فقال: «إن ضلتي في هذا المكان، وتيهي في هذه المدارج الكثيرة، لأبدع فكرة سمعت بها في حياتي. إنه لشيء مضحك، مضحك حقًّا»، وابتسم ابتسامة أعرض من الأولى، وهم بأن يواصل خلع ثيابه، وهو في أتم الابتهاج وصفاء الخاطر، لولا أن قطع عليه فجأة شيء لم يكن في حسبانه، فوقف عن استكمال خلعها، وذلك

أن دخل الحجرة شخص يحمل شمعة، وأغلق الباب بالقفل في أثره، وتقدم إلى منضدة الزينة، فوضع النور عليها، فلم تلبث الابتسامة التي خطفت على وجهه أن تلاشت في نظرة دهشة لا حد لها، وعجب بالغ، وكان دخول ذلك الشخص كائنًا من يكون فجائيًا، هادئًا، إلى حد لم يتسع معه الوقت للمستر بكوك فينادي أو يعارض دخوله. فمن تراه هذا الطارئ عليه في فحمة الليل؟ أهو لص؟ أرجل سوء رآه وهو يصعد السلم وفي يده ساعة جميلة؟ ماذا هو صانع في هذا الموقف؟

وكانت السبيل الوحيدة التي تذلل للمستر بكوك الظفر بلمحة من وجه هذا الزائر الغريب دون التعرض لخطر الانكشاف لعينيه، هو الزحف والتسلل إلى السرير والإطلال من خلال أستاره على الجانب المقابل، فعمد إلى هذه الحيلة، وأبقى الأستار مغلقة بعناية وحرص بيده، فلا يمكن أن يتراءى منه أكثر من وجهه وطاقيته، وراح يضع منظاره على عينيه، ويجمع شتات شجاعته وينظر من خلال الستر المسدل.

وكاد المستر بكوك يغشى عليه من الرعب والفزع؛ فقد رأى أمام المرآة سيدة نصفًا ملففة جدائلها في ورق أصفر، وهي في شغل بتسريح ما تسميه النساء شعرهن الخلفي، وعقصه فوق هامتها، وتبين للمستر بكوك من وقوف السيدة على هذا النحو وهي لا تدري شيئًا عن وجوده أنها تنوي المبيت في الحجرة إلى الصبح؛ فقد أحضرت معها سراجًا ذا مظلة فوضعته في حوض على أديم الغرفة، احتياطًا حكيمًا من الحريق، حيث ظل يضيء كمنار ضخم في مساحة محدودة من الماء.

وقال المستر بكوك محدثًا نفسه: «رباه! ما أشنع هذا الموقف، وما

أشد حرجه!».

وهمهمت السيدة، فبادر المستر بكوك إلى إدخال رأسه خلف الستر بحركة آلية سريعة.

ومضى المستر بكوك المسكين يقول لنفسه، والعرق يتصبب قطرات على طاقتيه: «لم يقع لي في حياتي كلها شيء مرعب كهذا، أبدًا، إنه لموقف مخيف».

وكان من المستحيل عليه أن يغالب الرغبة المُلِحَّةَ في مشاهدة ما هو حادث، فأخرج رأسه من خلف الأستار مرة أخرى، فإذا المشهد شر من قبل وأدهى؛ فقد أتمت السيدة عقص شعرها، وغطته بطاقية حريرية في عناية بالغة، وراحت تنظر مفكرة إلى النار.

واستتلى المستر بكوك في حديث نفسه يقول: «إن الأمر أخذ يتفاقم ويتحرج، ولست أرضى أن تسير الأمور على هذا النحو، ويبدو لي من هدوء هذه السيدة، أنه لا بد من أنني دخلت حجرة غير حجرتي، وإذا أنا ناديت فسوف تصرخ وتوقظ الفندق كله، ولكني إذا بقيت في موضعي هذا، فسوف تكون النتائج أرهب وأبشع».

ولسنا بحاجة إلى قول بأن المستر بكوك من أشد الناس حياءً وأرقهم ذهنًا وأدقهم إحساسًا، فلم تلبث فكرة الظهور بطاقية النوم أمام سيدة أن تغلبت عليه، وتملكت خاطره، ولكنه كان قد ربط تلك الخيوط اللعينة ربطة معقدة، وحاول فك العقدة بكل قواه فلم يستطع، وكان الموقف يحتم ظهوره من مخبئه، فما العمل؟ لم يكن أمامه غير سبيل أخرى،

فانزوي خلف الأستار، وراح يرفع الصوت مناديًا: «ها، هيم!».

وبدا على السيدة أنها أجفلت على ذلك الصوت غير المنتظر؛ إذ اصطدمت بمظلة السراج الذي جاءت به كما كان جليًّا أنها مضت تقنع نفسها بأن ما سمعته لم يكن شيئًا آخر غير مجرد خيال أو وهم؛ لأنها عادت تنظر إلى النار مفكرة ساهمة، بينما كان المستر بكوك يحسبها قد أغمى عليها من فرط الرعب.

وعاد ينظر من خلال الستر وهو يقول في نفسه: «هذه أنثى خارقة للمألوف. ها! هيم!».

وكانت هذه الأصوات الأخيرة أشبه ما تكون بما تحدثنا عنه الأساطير والقصص الخرافية عن العملاق المتوحش بلندربور واعتياده التعبير بها عن رأيه في أنه قد حان الوقت لنشر الغطاء فوق المائدة، وكانت في هذه المرة مسموعة واضحة لا ينتظر أن يخطئ أحد في فهمها فيحسبها من فعل الخيال أو الوهم، فلا عجب إذا راحت السيدة النصف تقول: «يا إلهي! ما هذا؟».

وقال المستر بكوك من خلف الستر: «إنه ليس إلا سيدًا يا سيدتي!».

وقالت السيدة بصرخة مروعة: «سيد!».

وقال المستر بكوك في نفسه: «لقد وقع المصاب!».

وصرخت السيدة قائلة: «رجل غريب في الحجرة! فلم تبق إلا لحظة واحدة ويهب الفندق كله فزعًا».

وأحدث ثوبها حفيفًا وهي تسرع نحو الباب.

وصاح المستر بكوك، مخرجًا رأسه بسرعة من فرط اليأس الذي استولى عليه: «سيدتي! سيدتي!».

ولم يكن للمستر بكوك من إخراج رأسه هدف معين، ولكن هذه الحركة أحدثت في الحال أثرًا حسنًا؛ فقد كانت السيدة عندئذٍ- كما قلنا- قريبة من الباب، ولا بد لها من اجتيازه؛ لتصل إلى السلم، ولم يكن ثمة أدنى شك في أنها كانت موشكة أن تفعل في تلك اللحظة، لولا أن ظهرت فجأة «طاقية» المستر بكوك، فجعلتها تتراجع إلى أقصى ركن من الحجرة، حيث وقفت تحملق فيه البصر مروعة شاردة اللب، بينما لبث هو يحملق فيها البصر كذلك.

وقالت السيدة، وهي تخفي عينيها وراء يديها: «أيها الشقي! ماذا تريد هنا؟».

وأجاب المستر بكوك بجد بالغ: «لا شيء يا سيدتي، لا شيء مطلقًا».

قالت وهي تتطلع ببصرها: «لا شيء!».

قال وهو يومئ برأسه بكل قوة، حتى جعل زر طاقيته يتراقص مع إيماءته: «لا شيء يا سيدتي، أقسم لك بشرفي إنني أكاد أذوب يا سيدتي حياء وارتباكًا من مخاطبة سيدة وأنا في طاقية النوم» (وهنا بادرت السيدة إلى انتزاع طاقيتها عن رأسها) «ولكني لا أستطيع رفعها يا سيدتي» (وهنا راح يشدها شدة قوية للتدليل على صدق قوله) «لقد وضح لي الآن يا سيدتي أنني أخطأت فظننت أن هذا السرير هو سريري، ولم تكن قد انقضت عليَّ هنا غير خمس دقائق قبل دخولك فجأة هذه الغرفة».

قالت وهي تجهش بالعبرات: «إذا كانت هذه القصة غير المرجحة صحيحة، فلتغادر الغرفة في الحال!».

وأجاب المستر بكوك: «سأفعل يا سيدتي، بكل سرور».

وعادت السيدة تقول: «حالًا يا سيدي».

وعاجلها المستر بكوك قائلًا: «بلا شك، بلا شك يا سيدتي.. إني آسف أشد الأسف يا سيدتي».

ونزل من السرير وهو يقول: «إني آسف على أنني كنت سببًا في هذا الفزع والانفعال يا سيدتي. آسف جد الأسف يا سيدتي».

فأشارت السيدة إلى الباب، وفي تلك اللحظة تجلت إحدى سجايا المستر بكوك بأبهى مظاهرها، حين تحيط به أحرج الظروف، فقد راح يضع بسرعة قبعته فوق طاقية النوم، كما يفعل حارس الليل في طوفه، ويحمل حذاءه وغطاء ساقيه في يده، وسترته وصداره على ذراعه، ولم يثنه شيء عن إظهار أدبه الجم، فمضى يقول وهو ينحني انحناءة بالغة: «إنني لشديد الأسف يا سيدتي».

قالت: «إذا كنت حقًّا يا سيدي، فاترك الغرفة في الحال».

وقال المستر بكوك وهو يفتح الباب، ومن فرط اضطرابه سقط الحذاء منه على الأرض: «حالًا يا سيدتي، في التو واللحظة يا سيدتي».

وجمع المستر بكوك فردتي حذائه، ودار بعينيه لينحني مرة أخرى ومضى يقول: «أرجو يا سيدتي أن تشفع لي أخلاقي التي لا شائبة تشوبها، والاحترام البالغ الذي أكنه لجنسك، وتقوم عني عذرًا يسيرًا عما...» ولكن

السيدة عاجلته قبل أن يتم كلماته بدفعه نحو الدهليز وإقفال الباب بالرتاج في أثره.

ومهما ذهب المستر بكوك يهنئ نفسه بفراره من هذا المأزق، ونجاته في هدوء من هذا الموطن الدقيق؛ فإن موقفه الحالي كان في الحق موقفًا لا يُحسد عليه؛ فقد وجد نفسه وحده في دهليز مكشوف، بفندق غريب، وفي موهن من الليل، وفي نصف ثيابه، ولم يكن محتملًا أن يهتدي إلى طريقه وسط ظلام دامس إلى غرفة عجز كلَّ العجزِ من قبل عن اكتشافها وهو يحمل «الماثلة»، وإذا هو أحدث أقل ضوضاء في محاولته البحث عنها بلا جدوى، فلا يبعد مطلقًا أن يطلق الرصاص عليه نزيل مسهد يقظان أو قد يقتله، فلا حيلة إذن أمامه غير البقاء حيث هو حتى تبدو مطالع النهار، ومضى يتلمس طريقه بضع خطوات في ذلك الدهليز، ولشد ما كان فزعه حين تعثر فوق عدة أحذية وهو يتحسس السبيل، حتى انزوى في ركن صغير من الجدار، يرتقب مطلع الصبح بكل صبر الفلاسفة.

ولكنه تعذَّر عليه مع ذلك مقاساة هذه التجربة الإضافية لقوى صبره؛ إذ لم يلبث في مخبئه ذاك فترة قصيرة حتى فزع فزعًا لا يوصف؛ إذ رأى رجلًا يحمل نورًا في نهاية الدهليز، ولكن فزعه استحال بغتة إلى فرح شديد حين تبين أن ذلك الرجل هو خادمه الأمين.

لقد كان القادم فعلًا المستر صمويل ويلر؛ فقد أطال السهر في الحديث مع ماسح الأحذية الذي كان سهران يرتقب وصول البريد، وجاء في تلك اللحظة ليأوي إلى فراشه.

ويتراءى المستر بكوك فجأة لخادمه وهو يناديه: «يا سام، أين غرفتي؟».

ونظر سام إلى سيده في دهشة متناهية، ولم يستطع أن يواجه المستر بكوك إلا بعد أن كرر هذا السؤال عدة مرات، وتقدم إلى الحجرة التي طال البحث عنها.

وقال المستر ويلر بكل برود: «يمكن أن تكون هذه، يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «ولكني معتزم يا سام عزمًا أكيدًا أن لا أسير في هذا الفندق وحدي مرة أخرى، ولو أقمت فيه ستة أشهر سويًّا».

وأجاب المستر ويلر: «هذا هو أحكم قرار تتخذه يا سيدي، فإنك بحاجة إلى إنسان يلاحظك حين يفارقك العقل ويذهب للزيارة».

وقال المستر بكوك: «ماذا تعني بهذا يا سام؟». واستوى في فراشه ومد يده كأنما يهم بأن يقول شيئًا آخر، ولكنه أمسك فجأة، واستدار وهو يقول لخادمه: «طاب ليلك».

وأجاب المستر ويلر: «طاب ليلك يا سيدي». ووقف حين جاوز الباب، وهز رأسه، ومشى قليلًا، ثم وقف ورفع فتيلة الشمعة، وهز رأسه مرة أخرى، وانطلق في خطى بطيئة إلى غرفته، وهو يبدو مستغرقًا في أعمق الأفكار والتأملات.

* * *

# الفصل الثالث والعشرون

## وفيه يبدأ المستر صمويل ويلر يحصر كل قواه في تصفية الحساب بينه وبين المستر تروتر

في غرفة صغيرة بجوار فناء الإسطبل، وفي بكرة الصباح الذي جرت فيه واقعة الحال بين المستر بكوك والسيدة النَّصَف الملففة الجدائل في الورق الأصفر، جلس المستر ويلر الكبير يعد العدة للرجوع إلى لندن، وكان يجلس أبدع جلسة مناسبة لرسم صورته.

ومن الجائز كثيرًا أنه كان في دور من أدوار حياته الماضية يلوح مرهف القوام ممشوقًا، ولكن وجهه تعرَّض وتضخم من الإسراف على نفسه في الشراب والغذاء، وأثر النزوع الظاهر إلى الاستسلام للأقدار، حتى لقد امتدت لياته اللحمية المترهلة فتجاوزت الحدود التي كانت من قبل مخصصة لها، فإذا لم تستطع أن تلم بسحنته كل الإلمام من الأمام، فلن يتوانى لك أن تميز منها شيئًا أكثر من أقصى طرف لأنف يضرب لونه إلى الحمرة، وقد اكتسبت ذقنه لهذه الأسباب والمؤثرات ذاتها ذلك الشكل الجسيم البارز الذي يوصف عادة بزيادة كلمة «مزدوج» على اسم هذا الجزء المعبر من الوجه، كما تنم ملامحه عن مجموعة مبقعة

غريبة من الألوان لا تشاهد إلا عند الذين يشتغلون بمهمته، وإلا على لحم العجول المشوي المشوي نصف شواء، وكان يتلفع حول عنقه بلفاعة للسفر قرمزية اللون، تندمج في ذقنه بتدرج لا يكاد يبين، حتى ليشق عليك أن تميز بين طيات رقبته، وطيات لفاعته، ومن فوقه ارتدى صدارًا طويلًا من طراز عريض مخطط قرنفلي اللون، ومن فوق هذا أيضًا سترة خضراء فضفاضة تزدان بأزرار نحاسية ضخمة كان الزران اللذان يزينان الصدار منها منفصلين متباعدين لا نحسب أحدًا استطاع يومًا أن يبصرهما معًا في وقتٍ واحد، وكان شعره قصيرًا، ناحلًا، فاحمًا، لا يكاد يرى، من تحت حاشية عريضة لقبعة رمادية قصيرة، وقد وضع ساقيه في سراويلَ إلى الركبة وانتعل حذاءً طويلًا، ولبس ساعة ذات سلسلة من نحاس تنتهي بخاتم ومفتاح متدليين من صداره الرحيب.

وقد أسلفنا عليك أن المستر ويلر كان منهمكًا بإعداد العدة للسفر إلى لندن، والواقع أنه كان يأكل ويتغدى؛ فقد صفت على المائدة القائمة أمامه جرة من جعة، وشريحة من اللحم، ورغيف محترم، وراح يوزع رضاه وحظوته وعطفه على كل منها بالتناوب، في نزاهة مطلقة، وإنصاف تام لا يعرف التحيز، وكان قد قطع كسرة ضخمة من الرغيف، وإذا هو يسمع مواقع قدم إنسان يدخل الحجرة فرفع بصره فوجد ابنه أمامه.

قال: «صباح الخير يا سامي».

ومشى الابن إلى جرة الجعة، وأومأ لأبيه إيماءة ذات مغزى، وانثنى يتناول عبة كبيرة منها على سبيل الجواب.

وقال المستر ويلر الكبير وهو ينظر في جوف الجرة حين ردها ابنه

إلى مكانها وقد عب منها النصف: «هذا نفس طويل في الشراب يا سامي. مرحى! لقد كنت تصبح «صدفية» غير عادية يا سامي، لو أنك ولدت في الماء مع السمك والمحار».

وأجاب سام، وهو ينقض على اللحم البارد بقوة: «أي نعم، وكنت أعرف كيف ألقط غذاء محترمًا».

وقال المستر ويلر الكبير وهو يهز الجعة، بإحداث دوائر صغيرة بالجرة، تمهيدًا للشرب: «إنني آسف جدًّا يا سامي لسماعي من شفتيك أنك تركت ذلك الرجل التوتي اللون يخدعك، لقد كنت أعتقد قبل ثلاثة أيام فقط أن اسم ويلر والدجل لا يجتمعان أبدًا ولا يتفقان».

وقال سام: «إلا فيما يتصل بالأرملة طبعًا».

وأجاب المستر ويلر وقد تغير لونه قليلًا: «إن الأرامل يا سامي استثناء من كل قاعدة، لقد سمعت قومًا يقولون إن الأرملة في قوة تغلبها على الرجل تعادل خمسًا وعشرين امرأة من العاديات، ولكني أظنها تعادل أكثر من ذلك، وإن لم أكن متأكدًا».

وقال سام: «هذا كلام طيب».

ومضى الوالد يقول غير ملق بالًا إلى هذا الاعتراض: «وهناك أيضًا شيء آخر يختلف عن هذا كثيرًا، ألا تعرف يا سامي ما قاله المحامي في الدفاع عن رجل اتهم بضرب زوجته بمحراك النار في الموقدة، كلما كان سكران: «وكل ما في الأمر يا سعادة القاضي، هذه نقطة ضعف لطيفة» وهذا هو ما أقوله يا سامي عن الأرامل، وما سوف تقوله أنت حين تكبر

مثلي وتصل إلى سني».

وقال سام: «كان أولى لي أن أعرف خيرًا من ذلك».

وأجاب المستر ويلر وهو يضرب المائدة بقبضة يده: «كان أولى لك أن تعرف أكثر! ما هذا الكلام؟ إنني أعرف شابًّا لم يصل إلى نصف تعليمك ولا ربعه، ولا دار في الحياة مثل ما درت، ولا حتى ستة أشهر، رفض أن يكون له بالأرامل صلة مطلقًا، وهزأ بالفكرة أشد الهزؤ».

ودق الجرس من ألم الذكرى التي هاجها ابنه في نفسه، وطلب قدرًا آخر من الجعة.

وقال سام: «لا فائدة من تقليب الكلام الآن، فقد انتهى الأمر، ولا حيلة فيه، وهذا هو بعض العزاء، كما يقولون دائمًا في تركيا حين يقطعون رأس رجل خطأ مكان رأس سواه. المسألة يا معلم أنني أنا الذي عليه الدور، وبمجرد إمساكي بتروتر سأعرف ماذا أفعل به».

وأجاب الوالد: «أرجو ذلك يا سامي، أرجو ذلك. في صحتك يا سامي. وإن شاء الله تمحو بسرعة هذا العار الذي جلبته على اسم الأسرة.

وإكرامًا لهذا النخب راح المستر ويلر يعب من الجعة عبة لا تقل عن ثلثي القدر الجديد الذي طلبه، وسلم الجرة إلى ابنه ليأتي على الباقي، فبادر هذا إلى الإتيان عليه.

وقال المستر ويلر وهو ينظر إلى ساعته الكبيرة الفضية ذات الوجهين المعلقة بطرف سلسلتها النحاسية: «والآن يا سامي لقد حان أن أذهب

إلى المكتب لأتلقى التعليمات في الطريق، وأطمئن على حشو المركبة؛ لأن المركبات يا سامي كالبنادق، تحتاج إلى التعمير بعناية فائقة قبل انطلاقها».

وابتسم المستر ويلر الصغير لهذه النكتة «الأبوية» المأخوذة من «المهنة» ابتسامة «بنوية»، بينما انطلق الوالد المحترم يقول بلهجة جد رهيبة: «إنني تاركك يا صمويل، يا ولدي، ولا أدري متى أراك مرة أخرى، فقد تريني امرأة أبيك الويل، أو قد تحدث حوادث في الأيام القادمة قبل أن تسمع أخبارًا عن المستر ويلر الذائع الصيت في «بل سفدج» كلها. إن اسم الأسرة يتوقف كثيرًا جدًّا عليك يا صمويل. وأرجو أن ترعاه، وتحسن إليه، وتصونه، وأنا عارف من ناحية التربية، والنشأة، والأصل، أن في إمكاني أن أعتمد عليك، كما أعتمد على نفسي تمامًا. فليس عندي غير نصيحة صغيرة أقدمها، وهي إذا كتب لك أن تعيش فوق الخمسين، وتشعر برغبة في الزواج بأي امرأة كائنة من تكون، فاحبس نفسك في غرفتك، إن كانت لك غرفة، واشرب سمًّا في الحال، سمم نفسك يا صمويل يا بني، فسوف تسر بعد ذلك وتبتهج وتستريح!».

وبهذه الكلمات المؤثرة راح المستر ويلر يطيل النظر إلى ابنه، ثم دار في رفق على عقبيه، واختفى عن بصره.

وغادر المستر صمويل ويلر الفندق وهو ساهم مفكر في تلك الكلمات التي سمعها من والده، قبل انصرافه، متجهًا صوب كنيسة القديس كليمنت، محاولًا التسرية عن صدره بالطواف بين آثارها ومعالمها القديمة، ولم يكد يسير غير بعيد حتى وجد نفسه في بقعة

منعزلة، تبدو أشبه بفناء مهيب المنظر، تبين أن ليس له منفذ غير الرجوع من حيث أتى، فهَمَّ بأن يعود أدراجه، ولكنه فجأة وقف عن المسير كأنما قد سمر في مكانه؛ فقد شاهد شكلًا عجيبًا بوغت به، شكلًا نحن قاصُّوه اللحظة عليك.

كان المستر صمويل ويلر يتطلع ببصره إلى البيت القديم المشيد من الآجر بين لحظة وأخرى، وهو في شرود شديد، وذهول بالغ، ويغمز بطرف عينه إلى خادمة مليحة بضة، وهى ترفع ستارًا، أو تفتح نافذة مخدع، وإذا باب الحديقة في أقصى طرف الفناء، وهو باب ينفتح ويخرج منه رجل فيغلقه بحرص بالغ في أثره، وينطلق مسرعًا إلى البقعة التي كان المستر ويلر واقفًا فيها.

وإذا نحن نظرنا إلى هذا الأمر على أنه حادث منفصل لا صلة له بشيء آخر، ولا يقترن بأي ظرف من الظروف، بدا لنا مألوفًا لا غرابة فيه، فإن الناس في كل الدنيا يخرجون من الحدائق، ويغلقون أبوابها الخضر في أثرهم، وينصرفون في طريقهم مسرعين، دون أن يلفتوا نظر أحد، فلا غرو إذا قلنا: إنه لا بد من أن يكون ثمة شيء في ذلك الرجل أو سلوكه أو فيهما معًا، اجتذب نظر المستر ويلر خاصة إليه، وسواء كان هذا أو ذاك فنحن تاركون للقارئ أن يقرر، حين ننتهي من تسجيل تصرفات ذلك الرجل الذي نتحدث عنه.

وما إن أغلق الرجل الباب الأخضر في أثره، حتى انطلق كما أسلفنا عليك مرتين، في خطو منفرج، يقطع الفناء، ولكنه ما كاد يلمح المستر ويلر، حتى ترنح قليلًا ووقف، كأنه في شك لا يدري أي طريق يتخذ،

وكان الباب الأخضر قد أغلق فلم يعد أمامه غير أن يسير قُدُمًا في وجهه، ولكنه أدرك في الحال أنه لا بد من أن يمر بالمستر ويلر؛ لينطلق في طريقه، فواصل خطوه السريع وتقدم مرسلًا نظره إلى الأمام، وكان أغرب شيء يبدو على ذلك الرجل تقليص معارف وجهه في أغرب الحركات وأقبحها صورة، وما نحسب خلق الطبيعة أخفى يومًا بمثل ما حاول الرجل إخفاء وجهه في لحظة واحدة بذلك التقليص المصطنع الغريب.

وقال المستر ويلر في نفسه، وقد رأى الرجل يقترب: «عجبًا! إن هذا لجد غريب! إني أقسم أنه هو...».

وجاء الرجل، فاشتد قبح وجهه وازداد تقلصًا، وهو يدنو رويدًا.

وقال المستر ويلر في نفسه مرة أخرى: «أقسم أنه هو من شعره الأسود وثيابه التوتية اللون، ولكني لم أشهد في حياتي وجهًا كهذا الوجه».

وما كاد المستر ويلر يفوه بهذه الكلمات، حتى اتخذت معارف وجه الرجل صورة غير آدمية، وشكلًا قبيحًا مستكمل الدمامة، تام القبح، ولكنه كان مع هذا مضطرًّا إلى المرور بقرب سام، فاستطاع هذا بنظراته المتفحصة أن يكتشف من خلف هذه الحركات المخيفة والتقلصات المفزعة، شيئًا أقرب ما يكون شبهًا إلى عيني المستر جوب تروتر الصغيرتين، حتى لا يكاد يخطئهما.

وصاح سام بحدة بالغة: «ها! أنت يا سيدي!».

فوقف الغريب.

وعاد سام يقول بلهجة أشد حدة: «ها!».

ووقف الرجل ذو الوجه البشع يرسل بصره في أشد الدهشة مخترقًا الفناء، روحة وغدوة، ثم إلى نوافذ البيوت، وفي كل ناحية إلا ناحية سام ويلر، وخطا خطوة أخرى إلى الأمام، ولكنه وقف عن الخطو بصرخة أخرى تهيب به: «ها! أنت يا سيدي!»، وكانت تلك هي الصرخة الثالثة.

ولم يبق أمام الغريب من سبيل للتظاهر بأنه لا يدري من أين انبعث ذلك الصوت، فلم يسعه أخيرًا إلا أن ينظر إلى سام ويلر وجهًا لوجه.

وقال سام: «لا فائدة يا جوب تروتر، أقبل.. هذا كلام فارغ، لست جميلًا جدًّا حين يمكن أن تستغنى عن كثير من ملامحك الحسنة، هيا، أعد عينيك إلى أصلهما وإلا أخرجتهما من وجهك، هل أنت سامع؟».

وبدا على المستر ويلر أنه على استعداد تام لتنفيذ هذا القول نصًّا وروحًا، فأخذ المستر تروتر يرد وجهه شيئًا فشيئًا إلى شكله الطبيعي، ثم أبدى حركة سرور شديد، فصاح: «من هذا الذي أرى؟ المستر ووكر!».

وأجاب سام: «نعم، إنك لمسرور جدًّا لرؤيتي، ألست كذلك؟».

وقال جوب تروتر مسرورًا: «آه يا مستر ووكر، لو عرفت كم أنا مشتاق إلى رؤيتك! إنه لشوق مبرح يا مستر ووكر، فلا أكاد أطيقه، حقًّا، لا أكاد أصطبر عليه». وراح يجهش بالعبرات، ويطوق المستر ويلر بذراعيه ويحتضنه ويعانقه من فرط السرور».

وصاح سام غاضبًا من هذه الحركات، ومحاولًا عبثًا التخلص من قبضة هذا الصديق المتحمس: «ابعد عني، ابعد عني، ما الذي يبكيك عليَّ هكذا أيها اللغز العجيب؟!».

وأجاب جوب تروتر وهو يرخي ذراعيه رويدًا من احتضانته للمستر ويلر، حين اختفت بوادر غضبه وإقدامه على الشر والعدوان: «لأنني مسرور بلقائك. آه يا مستر ووكر، هذا كثير».

وردد سام قوله: «كثير! كثيرًا جدًّا على ما أظن، والآن ماذا عندك لتقوله لي؟».

ولكن المستر تروتر لم يجب؛ لأن المنديل الوردي الصغير كان مؤديًا عمله إلى آخره.

وراح المستر ويلر يكرر سؤاله بلهجة التهديد: «ماذا عندك لتقوله لي قبل أن أطيح برأسك؟».

وقال المستر تروتر بنظرة دهشة بريئة: «آه؟».

قال: «وماذا عندك لتقوله؟».

- «أنا يا مستر ووكر؟».

- «لا تنادي ووكر، أنا اسمي ويلر، وأنت تعرف ذلك حق المعرفة، والآن ما قولك؟».

- «ويحي يا مستر ووكر، لا تؤاخذني، أقصد ويلر، عندي كلام كثير أقوله، لو قصدنا إلى أي مكان آخر يتيسر لنا أن نتكلم فيه على مهل. آه لو كنت تعلم كم كان شوقي إليك يا مستر ويلر!».

وقال سام بجفوة: «شديد جدًّا على ما أظن».

وأجاب المستر تروتر دون أن يحرك عضلة واحدة من عضلات وجهه: «جدًّا، جدًّا، يا سيدي، هات يدك لنتصافح يا مستر ويلر».

وحدج سام رفيقه بنظره بضع ثوان، واستجاب لسؤاله، كأنما حفزه دافع فجائي إلى موافقته.

وأنشأ المستر تروتر يقول وهما منطلقان: «وكيف حال سيدك العزيز الكريم؟ آه، إنه رجل فاضل حقًّا يا مستر ويلر. أرجو أن لا يكون قد أصابه برد في تلك الليلة المخيفة يا سيدي».

وبدت في عينيه وهو يقول ذلك نظرة مكر خاطفة، أثارت رجفة في قبضة يد المستر ويلر، وهو يحترق رغبة في كسر أضلاعه. ولكن سام كتم مع ذلك حنقه، وأجاب بأن سيده في أتم خير وعافية.

وأجاب المستر تروتر: «هذا شيء يسرني كل السرور. أهو هنا؟».

وقال سام مجيبًا عن سؤاله: «وهل سيدك هنا؟».

وأجاب المستر تروتر قائلًا: «آه، نعم هنا، ويحزنني أن أقول يا مستر ويلر أنه أسوأ حالًا من قبل».

وقال سام: «آه! آه!».

وعاد المستر تروتر يقول: «آه، مفزع، مخيف!».

وقال سام: «أفي مدرسة داخلية؟».

وأجاب المستر تروتر بتلك النظرة الماكرة التي لاحظها سام قبل الآن: «كلا، ليس في مدرسة داخلية».

ونظر سام إليه مليًّا وهو يقول: «في البيت ذي الباب الأخضر؟».

وأجاب جوب بسرعة غير مألوفة منه: «لا، لا، ليس هناك. ليس هناك».

قال بنظرة حادة: «ماذا كنت تفعل أنت هناك؟ هل دخلته قضاء وقدرًا؟ ربما».

وأجاب جوب: «اسمع يا مستر ويلر، إنني لا أجد بأسًا في مكاشفتك بأسراري الصغيرة، لأننا كما تعلم تحاببنا، ومال كل منا إلى صاحبه حين التقينا أول مرة، هل تتذكر كيف كان سرورنا في ذلك الصباح؟».

وقال سام وهو نافد الصبر: «أي نعم، أتذكر. ثم ماذا؟».

وأجاب جوب بدقة بالغة وصوت رجل يبوح بسر خطير: «في هذا البيت ذي الباب الأخير يا مستر ويلر يستخدم أهله خدمًا كثيرين جدًّا».

وقاطعه سام قائلًا: «هذا ما أعتقده، من مجرد شكله».

وواصل المستر تروتر حديثه قائلًا: «نعم. ومن أولئك الخدم طاهية تدخر قدرًا يسيرًا من المال يا مستر ويلر، وتريد إذا أمكنها أن تستقر بها الحياة، وتفتح حانوتًا صغيرًا للبقالة. هل فهمت؟».

- «نعم».

- «نعم يا مستر ويلر.. نعم يا سيدي. وقد التقيت بها في كنيسة اعتدت أن أذهب إليها، كنيسة نظيفة جدًّا في هذه البلدة يا مستر ويلر، حيث يرتلون المجموعة الرابعة من المزامير التي اعتدت أن أحملها معي في كتاب صغير، لعلك رأيته قبل الآن في يدي، فعرفتها يا مستر ويلر وتوثقت بيننا المعرفة إلى حد ما، ثم أصبحت بسرعة صداقة، ولا أكتمك يا مستر ويلر إنني سأكون... البقال!».

وقال سام وهو ينظر إلى جوب نظرة جانبية مليئة بكره شديد: «وأي بقال ظريف بديع ستكونه؟».

وأردف جوب يقول، وعيناه مغرورقتان بالدموع: «إن المزية الكبرى من هذا يا مستر ويلر هي أنني سأتمكن من ترك خدمتي المعيبة التي أنا فيها مع ذلك الرجل السيئ، وأستطيع أن أعيش عيشة أفضل وأحسن، عيشة كالتي نشأت عليها من الصغر يا مستر ويلر».

وقال سام: «لا بد من أنك نشأت نشأة طيبة جدًّا».

وأجاب جوب: «جدًّا يا مستر ويلر، جدًّا».

وعلى ذكرى طهارة أيام شبابه وحسن نشأته جذب المنديل الوردي من جيبه واستغرق في بكاء شديد.

وقال سام: «لا بد أنك كنت صبيًّا بديعًا على غير العادة يطيب للمرء أن يذهب معه إلى المدرسة».

وأجاب جوب بزفرة حارة: «إي والله، لقد كنت معبود المدرسة».

وقال سام: «لا عجب! ولكم كنت لأمك المباركة نعمة ورجاء!».

وراح المستر جوب تروتر على سماع هذه الكلمات يدخل طرف المنديل الوردي في ركن كل عين من عينيه، واحدة تلو الأخرى، ويبكي بدموع غزار.

وقال سام وهو مغيظ: «ما قصتك يا رجل؟ إن مشروعات المياه في تشلزي ليست شيئًا إذا قورنت بك، ما الذي يذيبك الآن؟ أشعورك بآثامك وغدرك؟».

وأجاب جوب بعد أن سكت لحظة: «لست أملك حبس شعوري يا مستر ويلر، حين أتذكر أن سيدي خامره الشك من الحديث الذي جرى بيني وبينك، فأسرع بي إلى مركبة بعد أن أقنع تلك السيدة الحلوة الشابة بأن تقول إنها لا تعرف عنه شيئًا، وبعد أن تمكن من رشوة ناظرة المدرسة لكي تزعم ذلك عينه، ترك الفتاة على أمل الفوز بشيء أحسن. آه! يا مستر ويلر إنني كلما تصورت ذلك شعرت بقشعريرة تسري في أنحاء بدني».

وقال المستر ويلر: «أهذه هي القصة؟».

وأجاب جوب: «بكل تأكيد».

وكانا قد ألما عندئذ على الفندق، فقال سام: «والآن اسمع يا جوب. إنني أريد حديثًا صغيرًا معك، فإن لم يكن لديك عمل معين، فإني أود أن أراك الليلة في فندق الحصان الأبيض الكبير، حوالي الثامنة».

وأجاب جوب: سآتي بلا شك، كن مطمئنًا».

وقال سام وهو ينظر إليه نظرة لها دلالتها: «الأفضل لك، وإلا فسوف أذهب أسال عنك في الجانب الآخر من الباب الأخضر، وعندئذ قد أستطيع أن أهدم كل ما بنيت، كما تعلم».

قال: «تأكد أنني سأكون لديك يا سيدي».

وهز يد سام بحرارة متناهية، ثم انصرف.

وقال سام وهو يرسل عينه في أثره: «حذار يا جوب تروتر، وإلا فسوف تراني في هذه المرة أشد منك دهاء وأقوى مكرًا. سأكونن كذلك فعلًا!».

وقال ذلك نجوى بينه وبين نفسه. ولبث يتبع جوب بنظره حتى اختفى.

وبادر سام إلى حجرة سيده.

قال: «الأمور تسير حسنة يا سيدي».

فسأله المستر بكوك قائلًا: «أي أمور يا سام؟».

قال: «لقد وجدتهما يا سيدي».

- «من هما اللذان وجدتهما؟».

- «صاحبنا العجيب، وذلك الشخص الكثير البكاء ذو الشعر الأسود».

وقال المستر بكوك بأشد الحماسة: «مستحيل يا سام! أين هما يا سام؟ أين هما؟».

وأجاب المستر ويلر قائلًا: «صه، صه! سأشرح لك الخبر».

وانطلق وهو يعين سيده على ارتداء ثيابه يقص عليه بالتفصيل الخطة التي رسمها للعمل.

وسأله المستر بكوك قائلًا: «ولكن متى سيكون التنفيذ يا سام؟».

وأجاب سام: «كل شيء في حينه يا سيدي».

أما هل نفذ حقًا في حينه أم لم ينفذ، فسوف نقصه عليك فيما يلي.

# الفصل الرابع والعشرون

**وفيه تشتد الغيرة بالمستر بيتر ماجنس، وتعرف السيدة النصف فتوجس، وينتهي الأمر بوقوع البكوكيين في قبضة القانون**

ولما نزل المستر بكوك إلى القاعة التي قضى فيها المساء السابق مع المستر بيتر ماجنس، وجدَه قد لبس وتجمَّل بأغلب الحلل والأشياء الأخرى التي كانت في الحقيبتين، وعلبة القبعات، والرِّزمة الملففة، بادية عليه بكل ما فيها من روعة وجمال، بينما كان هو يذرع القاعة رواحًا وغدوًّا في أشد القلق والاضطراب.

واستقبله المستر ماجنس قائلًا: «طاب صباحك يا سيدي. ما رأيك في هذا يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك، وهو يتأمل ثيابه ويبتسم ابتسامة طيبة: «مؤثر جدًّا».

وقال المستر ماجنس: «أي نعم. أظن هذا يكفي، لقد أرسلت بطاقتي إليها يا مستر بكوك».

قال: «هل فعلت حقًّا؟».

قال: «وقد عاد الغلام يقول إنها ستقابلني في الحادية عشرة، في الحادية عشرة يا سيدي، أي لم يبق على الموعد غير ربع ساعة».

وقال المستر بكوك: «لقد اقترب الموعد كثيرًا».

وأجاب المستر ماجنس: «أي نعم، اقترب جدًّا حتى كاد المرء يضطرب منه. آه! يا مستر بكوك!».

وقال المستر بكوك: «إن الطمأنينة مهمة في هذه المواقف ولها أثر بالغ».

وأجاب المستر ماجنس: «أعتقد أنها كذلك يا سيدي، وإني لجد مطمئن يا سيدي. وفي الحق لست أدري لماذا يتوجس المرء خيفة من موقف كهذا يا سيدي، فلعمري ما هو؟ إنه شيء لا يستحي منه ولا يخاف. إنه مسألة تبادل عواطف لا أكثر ولا أقل. زوج في جانب، وزوجة في الجانب الآخر، هذا هو رأيي في الموضوع يا مستر بكوك».

وأجاب المستر بكوك: «هذا رأي فلسفي جدًّا، ولكن الفطور ينتظر يا مستر ماجنس، فهلم إليه».

وجلسا لتناوله، ولكن على الرغم من ادِّعاء المستر بيتر ماجنس الثقة بنفسه، والطمأنينة إلى موقفه، بدا جليًّا عليه أنه كان رهن اضطراب عصبي شديد كان من أوضح أعراضه فقدانه شهوة الطعام، ونزوعه إلى قلب أواني الشاي، ومحاولته الظهور بمظهر المرح والمجانة، وميله الذي لا يغالب إلى النظر في الساعة بين ثانية وأخرى.

وضحك المستر ماجنس، متراثيًا بالابتهاج، وهو يلهث من فرط

الاضطراب: «هيه، هيه، هيه، لم يبق من الزمن إلا دقيقتان يا مستر بكوك. أتراني مصفِرّ الوِجه يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «ليس كثيرًا».

وساد السكون لحظة.

وعاد المستر ماجنس يقول: «عفوًا يا مستر بكوك إذا أنا سألتك: هل جربت شيئًا من هذا القبيل في زمانك؟».

وقال المستر بكوك: «أتقصد الخطبة؟».

- «نعم».

وأجاب المستر بكوك بكل قوة: «أبدًا، أبدًا».

وقال المستر ماجنس: «ليس لديك إذن فكرة عما يحسن أن نبدأ الكلام به».

وأجاب المستر بكوك: «لعلي قد كونت بعض الأفكار في هذا الشأن، ولكني لم أعرضها يومًا معرض الاختبار والتجربة، ولهذا يؤسفني إذا أنت استهديت بها في اتخاذ تدابيرك، ووضع خطتك».

وقال المستر ماجنس وهو يلقي نظرة أخرى على الساعة، وكان عقربها قد اقترب من الدقيقة الخامسة بعد الحادية عشرة: «أكون شاكرًا لك يا سيدي إذا أنت أسديت إليَّ أية نصيحة في هذه المسألة».

وأنشأ المستر بكوك يقول بجد بالغ اعتاد ذلك الرجل العظيم الالتجاء إليه، كلما أراد أن يجعل لملاحظاته قوة وأثرًا فعالًا في النفوس: «إذن استمع لي يا سيدي. لو أني كنت مكانك لكان أول شيء أبدأه أن أنوه بجمال

السيدة، وأشيد بسجاياها الحسان، ثم أعطف من ذلك التنويه والإشادة إلى الكلام عن نفسك والحديث عن قلة جدارتك ونقص فضلك».

وقال المستر ماجنس: «حسن جدًّا. ثم ماذا؟».

ومضى المستر بكوك يقول: «قلة جدارتك بها، تذكر هذا ولا تنسه، ولو كنت في مكانك لأثبت لها أنني لست مجردًا من الفضل جملة، ولمضيت أشرح لها خلاصة من ماضي حياتي وشيئًا موجزًا عن حاضري، ولقلت على سبيل التمثيل والاستشهاد إنني لا بد من أن أكون في عين إنسانة سواها موضع رغبة صادقة، ثم أذهب بعد ذلك أصف مبلغ حرارة حبي وعمق ولائي، وصدق إخلاصي، ولعلي بعدئذ مجترئ على محاولة الإمساك بيدها».

وقال المستر ماجنس: «أي نعم، فهمت ما تقول، هذه نقطة عظيمة جدًّا».

واستتلى المستر بكوك يقول، وقد بدأت حماسته تزداد لظهور الموضوع في ألوان زاهية لعينيه: «وعندئذ أهجم يا سيدي عليها بسؤال واضح بسيط وهو قولك: «فهل ترتضينني؟ وأحسبني معذورًا إذا افترضت أنها عند سماعها هذا السؤال ستشيح بوجهها».

وقال المستر ماجنس: «أتظن أن هذا سيؤخذ قضية مسلمًا بها؟ لأن الأمر سينتهي بارتباك إذا هي لم تفعل ذلك في الموضع المناسب».

وأجاب المستر بكوك: «أعتقد أنها ستفعل ذلك، وعندئذ يا سيدي اضغط يدها، وأظن، أظن يا مستر ماجنس أنه لن يكون رفض ما بعد ذلك،

ثم أزيح في رفق المنديل الذي يحملني علمي اليسير بالطبيعة البشرية على الاعتقاد بأن السيدة ستدنيه من عينيها في تلك اللحظة، وأختلس منها قبلة محترمة. أعتقد يا مستر ماجنس أن لا بد من تقبيلها، وأنا في هذه النقطة أقرر جازمًا أنها ستغمغم في أذني كلمة قبول في استحياء، إذا كانت فعلًا مقبلة على الرضى بي، جانحة إلى قبولي».

وراح المستر ماجنس ينظر مليًّا في وجه المستر بكوك الذكي، وهو في صمت، لحظة قصيرة، وكان عقرب الساعة قد وصل إلى الدقيقة العاشرة بعد الحادية عشرة، فصافحه بحرارة، وانطلق مستيئسًا من الغرفة لا يلوي على شيء.

وانثنى المستر بكوك يذرع القاعة في رفق، وكانت الساعة قد حذت حذوه، فبلغت النصف، وإذا الباب يفتح فجأة، فاستدار ليرى المستر بيتر ماجنس عائدًا، ولكنه أبصر حياله وجهًا متهللًا، وهو وجه المستر طبمن، وطلعة هادئة ساجية، وتلك طلعة المستر ونكل، وصفحة تتجلى فيها مخايل الذكاء، وتلك صفحة المستر سنودجراس.

وبينما كان المستر بكوك يحييهم ويسلم عليهم؛ إذ دخل المستر بيتر ماجنس مهرولًا، فقال المستر بكوك: «هذا هو ذا السيد الذي كنت أتحدث إليكم عنه، وهؤلاء أصحابي يا مستر ماجنس».

وقال المستر ماجنس، في حالة ظاهرة من الحماسة والاضطراب: «خادمكم أيها السادة، اسمح لي يا مستر بكوك بالكلام معك لحظة واحدة يا سيدي».

ومضى يدخل سبابته في عروة رداء المستر بكوك ويجذبه إلى نافذة في ركن من القاعة.

قال: «هنئني يا مستر بكوك، لقد اتبعت نصيحتك بالحرف الواحد».

وسأله المستر بكوك: «وجاءت النتيجة على ما يرام، أليس كذلك؟».

قال: «كذلك، ولم يكن في الإمكان، أحسن مما كان، لقد أصبحت لي يا مستر بكوك».

وأجاب المستر بكوك متحمسًا، وهو يشد كف صاحبه الجديد: «أهنئك من صميم قلبي».

وقال المستر ماجنس: «لا بد من أن تراها يا سيدي، من هنا إذا تكرمت، اسمحوا لنا بدقيقة واحدة أيها السادة».

وفي الحجرة مشى المستر ماجنس بالمستر بكوك منصرفين من الحجرة، ووقف بالباب التالي في الدهليز، وطرق الباب برفق.

وانبعث صوت نسوي يقول: «ادخل».

فدخلا.

وقال المستر ماجنس: «يا آنسة وذرفيلد، اسمحي لي أن أقدم إليك صديقي الحميم المستر بكوك، ويا مستر بكوك أقدم إليك الآنسة وذرفيلد».

وكانت السيدة واقفة في الطرف الأقصى من الحجرة، فلما انحنى المستر بكوك لها في أدب، أخرج منظاره من جيب صداره فوضعه فوق عينيه، ولم يكد يفعل حتى أفلتت منه صيحة دهشة، وتراجع عدة

خطوات، بينما مضت السيدة ترسل صرخة مكتومة، وتخفي وجهها بيديها، وتتهالك على مقعد، ووقف المستر ماجنس جامدًا في مكانه، ينقل عينه بينهما، وقد بدت على وجهه أبلغ علامات الاستنكار والذهول.

وكان هذا المشهد في ظاهره تصرفًا غامضًا بلا شك، ولكن الواقع أن المستر بكوك ما كاد يضع المنظار على عينيه حتى عرف في الحال أن عروس المستر ماجنس ليست سوى السيدة التي دخل عليها الحجرة غير مأذون في الليلة الماضية، ولم يكد المنظار يستقر فوق أنفه، حتى عرفت السيدة في التو واللحظة ذلك الوجه الذي شهدته بالأمس محاطًا بكل شنائع «طاقية النوم»، فكان ذلك سر صرختها، وباعث صيحته.

وصاح المستر ماجنس وقد تملكته الدهشة: «يا مستر بكوك، ما معنى هذا يا سيدي؟ وما مراده؟».

وأضاف تلك الكلمة الأخيرة في لهجة وعيد وبصوت مرتفع.

وأجاب المستر بكوك في شيء من الغضب لهذا التغير الفجائي في لهجة المستر ماجنس وتحوله إلى صيغة الأمر: «سيدي، إنني أرفض الإجابة عن هذا السؤال».

وقال المستر ماجنس: «أترفض يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «نعم يا سيدي، إنني أمتنع عن قول شيء قد يحرج هذه السيدة، أو يثير في نفسها ذكريات أليمة، دون موافقتها وإذنها».

وقال المستر بيتر ماجنس: «يا آنسة وذرفيلد، أتعرفين هذا الشخص؟».

وأجابت السيدة النصف: «أعرفه».

ولبثت مترددة لا تزيد شيئًا.

وأجاب المستر ماجنس بحدة: «نعم، هل تعرفينه يا سيدتي؟ لقد سألتك هل تعرفينه؟».

قالت: «لقد رأيته من قبل».

قال: «أين؟ أين؟».

ونهضت السيدة من مقعدها، وأشاحت بوجهها قائلة: «هذا ما أرفض أن أبوح به مهما كلفني الرفض!».

وقال المستر بكوك: «إنني مدرك ما تعنين يا سيدتي، وأحترم هذا الإحساس الرقيق الذي أبديته، وثقي بأنني أيضًا لن أبوح آخر الدهر به».

وقال المستر ماجنس: «يمين الله يا سيدتي إنك بهذا القول، وبالنظر إلى المركز الذي أصبح لي عندك، تريدين أن تخفي هذه المسألة بهدوء ظاهر، واستخفاف واضح يا سيدتي».

قالت: «إنك لقاس يا مستر ماجنس».

وهنا راحت السيدة تبكي بدمع سخين.

وتدخل المستر بكوك قائلًا: «لتوجه ملاحظاتك إليَّ أنا يا سيدي، إن كانت ثمة لائمة فأنا وحدي الملوم».

وقال المستر ماجنس: «أأنت وحدك الملوم يا سيدي؟ فهمت إذن. إنك نادم على ما كنت معتزمًا أن تفعله، أنادم أنت؟».

وقال المستر بكوك بدهشة: «على ما كنت معتزمًا؟».

وأجاب المستر ماجنس: «نعم يا سيدي، لا تنظر إليَّ هكذا يا سيدي، لقد تذكرت كلامك لي في الليلة الماضية، لقد قلت إنك جئت إلى هنا يا سيدي لتكشف خيانة شخص وتفضح غدره، وكان صدقه ووفاؤه من قبل موضع ثقتك التامة، إنه...».

وهنا راح المستر ماجنس يطيل النظر إليه هزءًا وازدراءً، وينزع عن عينيه منظاره الأخضر اللون ويديرهما في كل ناحية، بشكل مخيف، وصورة مروعة.

وعاد يقول: «آه- ويكرر نظرته الهازئة المزدرية بحركة متزايدة- ولكنك ستجيب يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «عم أجيب؟».

وقال المستر ماجنس: وهو يمشي في الحجرة ذهابًا وجيئة: «لا بأس يا سيدي، لا بأس!».

وأكبر ظننا أن في قول الناس: «لا بأس» معنى جامعًا متواضعًا عليه، فلا نذكر أننا شاهدنا شجارًا في الطريق، ولا مشادة في الملهى، ولا نزاعًا في محل عام، أو مكان سواه، إلا كان الجواب فيه عن كل سؤال يوجهه الخصم إلى خصمه، هو هذه العبارة بالذات: «لا بأس» أو «حسن». فيقول أحدهما للآخر: «هل تسمي نفسك إنسانًا مهذبًا يا سيدي؟» ويجيب هذا بقوله: «لا بأس»، ويقول بعضهم: «هل رأيتني أقول شيئًا للشابة يا سيدي؟» ويجيب الآخر قائلًا: «حسن»، أو ينثني أحد الناس

يقول: «هل تريد أن أحطم رأسك في هذا الجدار يا سيدي؟» ويرد الآخر قائلًا: «لا بأس يا سيدي» ويلاحظ أيضًا أن هذه العبارة بالذات تنطوي على شيء من التقريع يثير في صدر الشخص الذي توجه إليه غضبًا أشد مما يثيره أفحش المثالب والسباب.

ولسنا نقصد بهذا أن نقول: إن توجيه هذه العبارة إلى المستر بكوك أثار في صدره ذلك الغضب الذي تثيره أبدًا في صدور الناس عامة، وإنما نريد أن نسجل ما حدث فعلًا في تلك اللحظة، فقد تقدم المستر بكوك نحو الباب ففتحه وراح ينادي قائلًا: «يا مستر طبمن تعال إلينا».

وفي الحال جاء المستر طبمن، وهو مبهوت في دهشة بالغة.

وابتدره المستر بكوك قائلًا: «أي طبمن، إن سرًّا ينطوي على شيء من الحرج، ويتصل بهذه السيدة، كان اللحظة سببًا لخلاف بيني وبين هذا السيد، فإذا أنا أكدت له بحضورك أن لا صلة لهذا السر به، ولا علاقة له مطلقًا بشؤونه، فلا أراني بحاجة إلى إحاطتك علمًا بأنه إذا استمر في مناقشتي في صحته، فمعنى ذلك أنه يشك في صدقي، وهو شك سأعده مهينًا لي أبلغ الإهانة».

وما كاد ينتهي من قوله هذا حتى نظر إلى المستر بيتر ماجنس نظرة شاملة محيطة، وكانت صراحته وحفاظه، وقوة منطقه، وبداهة حجته- وهي جميعًا أبرز مزاياه- كفيلة بإقناع أي إنسان أوتي مسكة من العقل، ولكن عقل المستر بيتر ماجنس- في تلك اللحظة بالذات- لم يكن ساكنًا في رأسه، ولا مستقرًّا في تفكيره، وبدلًا من أن يتلقى شرح المستر بكوك كما كان ينبغي له أن يتلقَّاه، راح يستسلم لانفعال شديد محرِق ثائر

يتملكه من جميع نواحيه، ويتحدَّث عمَّا يجب في حق إحساسه، ويقول كلامًا من هذا القبيل ونحوه، ويشد شعره، ويأتي بحركات مضحكة ويروح ويغدو في الحجرة مهددًا بقبضة يده في وجه المستر بكوك المفعم برًّا وعطفًا.

وكان المستر بكوك نفسه- وهو عالم ببراءته- واثقًا من صدقه ونزاهته، هائج الخاطر؛ لإحراج السيدة وإشراكها لسوء الحظ في هذه المسألة الكريهة، قد فقد سكينته المألوفة وهدوء نفسه المعروف، فكانت النتيجة أن الكلام طال، والنقاش احتد، والأصوات ازدادت ارتفاعًا، وانتهى الأمر بأن قال المستر ماجنس للمستر بكوك إنه سيرسل إليه من يبلغه مشيئته، فكان جواب المستر بكوك بأدب جدير بالثناء أنه من الخير أن يعجل، وعندئذٍ اندفعت السيدة مروعة من الحجرة، وجر المستر طبمن صديقه تاركين المستر بيتر ماجنس وحده لتفكيره.

ولو أن تلك السيدة النَّصَف كانت من النساء اللاتي اختلطن كثيرًا بالناس، وعرفن شؤون الدنيا، أو أفدن بعادات الذين يضعون فيها القوانين، وآداب الذين ينشؤون فيها العرف والأخلاق، لعرفت أن هذا النوع من العنف والحدة هو أبعد الأشياء من الأذى، وأخلاها من الضرر، في الطبيعة، ولكنها عاشت أكثر حياتها في الريف ولم تقرأ في يوم من الأيام محاضر المناقشات التي تدور في البرلمان، ولم تدرك غير طرف يسير من هذه المسائل الدقيقة التي تتصل بالحياة المتحضرة ودنيا السادات والمهذبين، فلا عجب إذا هي أوصدت على نفسها الباب، حين هرعت إلى غرفتها، وأخذت تفكر في ذلك المشهد الذي جرى أمامها،

وتصور لخاطرها صورًا مروعة للقتل والدمار وسفك الدماء، وتتمثل من بينها صورة كاملة للمستر بيتر ماجنس محمولًا من بين أربعة رجال، مزدانًا بخزنة كاملة من الرصاص في جنبه الأيسر، وكلما فكرت في ذلك كله، ازدادت رعبًا، وامتلأت خيفة، وانتهى بها التفكير إلى تقرير الذهاب إلى دار العمدة؛ لتطلب إليه البدار إلى اعتقال المستر بكوك والمستر طبمن بغير إبطاء.

وقد ألجأتها إلى اتخاذ هذا القرار عدة اعتبارات؛ أهمها: إقامة الدليل الذي لا نزاع فيه، والبرهان الذي سيتوافر به، على إخلاصها للمستر بيتر ماجنس، وقلقها على سلامته، وكانت تعرف حق المعرفة شدة غيرته، وسرعة تأويله الخاطئ لسبب اضطرابها عند رؤية المستر بكوك، وكانت واثقة كذلك من نفوذها وقوة سلطانها على ذلك الرجل الصغير الجثة ومقدرتها على إطفاء نار غيرته المتأججة، إذا تواتى لها إزالة المستر بكوك من الطريق، ومنع الاشتباك بين الرجلين.

واستولت هذه الأفكار عليها، فلبست قبعتها وأخذت ملفعتها وقصدت إلى دار العمدة في الحال.

وكان المستر جورج نبكنز- عمدة البلدة الذي أسلفنا ذكره- أكبر شخصية يستطيع أسرع «مشاء» أن يهتدي إليه، بين مشرق الشمس ودلوكها، في الحادي والعشرين من شهر يونية الذي تتحدث التقاويم عنه بأنه أطول يوم في العام كله، ويتسع فيه للباحث عنه بالطبع أكبر وقت للاهتداء إلى مكانه.

وكان المستر نبكنز في صباح ذلك اليوم بالذات في أشد حالات

الاضطراب والهياج لقيام اضطرابات ومشاغبات في البلدة؛ فقد تآمر طلبة المدارس النهارية، في أكبر مدرسة لهذا النوع من التعليم على تحطيم واجهة حانوت بائع تفاح ممقوت، بعد أن جرُوا في أثر شماس الكنيسة وأوسعوه صفيرًا وسخرية وازدراءً، ورشقوا دار الشرطة بالأحجار.

وكان الشرطي فيها رجلًا مكتهلًا في حذاء طويل، لبث في عمله المتصل بحفظ النظام منذ فتائه، أي من نصف قرن على أقل تقدير.

وكان المستر نبكنز جالسًا في مقعده الرحيب مقطبًا في جلال، يغلي من الغضب، حين قيل له: إن سيدة تريد الدخول عليه لأمر عاجل وشأن خاص، فبدَا عليه الغيظ المكتوم، وأمر بأن يسمح لها بالمثول، فأطيع ذلك الأمر في الحال، ككل أمر يصدره ممثلو الملوك والأباطرة والقضاة والحكام الكبار في الأرض.

ودخلت الآنسة وذرفيلد مضطربة مرتبكة.

وقال العمدة: «يا مزل».

وكان «مزل» هذا حاجبًا طويل البدن، قصير الساقين.

- «يا مزل».

- «نعم يا سيدي».

وانثنى إلى السيدة فقال: «والآن يا سيدتي قصي ما الخبر؟».

وأجاب الآنسة وذرفيلد: «إنه لأمر أليم يا سيدي».

قال: «مرجح جدًّا يا سيدتي. هدئي روعك»، وهنا بدا المستر نبكنز رحيمًا رفيقًا، «فإذا هدأت فنبئيني ما الذي أقدمك علينا يا سيدتي».

وهنا استطاع القاضي أن ينتصر على الإنسان، فعاد ينظر بتجهم وعبوس.

وقالت الآنسة وذرفيلد: «إنه لجد أليم لنفسي يا سيدي أن أفصح عن باعث قدومي، ولكني أخشى أن تحدث مبارزة هنا».

وقال العمدة: «أتقولين هنا؟ أين يا سيدتي؟».

قالت: «في أبسويتش».

قال وقد روعته الفكرة كل الترويع: «في أبسويتش يا سيدتي! مبارزة في أبسويتش! هذا مستحيل يا سيدتي، إنني مقتنع أن لا شيء من هذا القبيل يمكن التفكير فيه هنا في هذه البلدة. سبحان الله يا سيدتي. أتعرفين مدى نشاط الموكلين فيها بحفظ النظام، وسلامة الأمن؟ ألم يبلغك يومًا يا سيدتي أنني بادرت إلى حلقة مباراة في الرابع من شهر مايو الماضي، ولم يكن معي غير ستين شرطيًّا خاصًّا، معرضًا نفسي للوقوع فريسة غضب جمهور محنق وهياجه، فمنعت مباراة في الملاكمة بين الملاكم ضمبلنج الذي ينتمي إلى ولاية مدلسكس وبين الملاكم بانتام من ولاية سافوك. مبارزة في أبسويتش يا سيدتي، لا أظن، لا أظن. وهنا مضى ذلك الرجل القائم على صون النظام بقوة السلطان يتحدث إلى نفسه: «لا أظن أن رجلين يجرؤان على تدبير شيء كهذا مخل بالنظام في هذا البلد».

وقالت السيدة النصف: «إن علمي بالأمر للأسف جد صحيح، فقد كنت حاضرة المشاجرة».

وقال العمدة وهو مبهوت: «هذا شيء خارق للمألوف يا مزل!».

وأجاب الحاجب: «نعم يا سيدي».

قال: «ادع المستر جنكس إلى الحضور هنا فورًا، في هذه اللحظة».

وأجاب الحاجب: «سمعًا وطاعة يا سيدي».

وانصرف الحاجب، ودخل الحجرة كاتب في منتصف العمر أصفر اللون حاد الأنف، يبدو عليه السغب ونقص التغذية، وتلوح على زيه وثوبه رقة الحال.

وناداه العمدة قائلًا: «يا مستر جنكس، يا مستر جنكس».

قال: «نعم يا سيدي».

ومضى العمدة يقول: «إن هذه السيدة قد جاءت تبلغنا نبأ اعتزام رجلين المبارزة في هذه البلدة».

ولم يدر المستر جنكس ماذا هو صانع، فابتسم ابتسامة الحائر المرتبك.

فانتهره العمدة قائلًا: «مِمَّ تضحك يا مستر جنكس؟».

وعندئذ بادر المستر جنكس إلى اتخاذ سمات الجد في الحال.

وقال العمدة: «يا مستر جنكس إنك أحمق».

فنظر المستر جنكس نظرة ذلة وانكسار إلى الرجل العظيم وعض طرف قلمه.

ومضى العمدة قائلًا: «قد تجد شيئًا مضحكًا في هذا البلاغ يا سيدي،

ولكن في وسعي أن أقول لك هذا يا مستر جنكس، وهو أن ليس ثمة شيء يضحكك».

وتنهد جنكس المسكين الساغب، كأنما أدرك أنه لا يوجد في الواقع شيء يدعو إلى الضحك، ولم يكد يؤمر بأن يأخذ أقوال السيدة، حتى دلف إلى مقعد وبدأ يكتب البلاغ.

ولما انتهى من تدوين المحضر، انثنى العمدة يقول: «أفهم من هذا أن الرجل الذي يدعى بكوك هو أصل البلاء؟».

وأجابت السيدة: «نعم هو».

وقال العمدة: «والمشاغب الآخر، ماذا يدعى يا مستر جنكس؟».

قال: «طبمن يا سيدي».

- «هل طبمن هو الثاني؟».

- «نعم».

- «هل قلت يا سيدتي أن الأول اختفى؟».

وأجابت الآنسة وذرفيلد بسعلة قصيرة: «نعم».

قال: «حسن جدًّا، إن أمامنا إذن رجلين من السفاحين جاءا من لندن إلى هنا للقضاء على أرواح رعايا جلالة الملك، ظنًّا منهما أن يد القانون عاجزة شلَّاء ما دامت هذه البلدة بعيدة من العاصمة، لسوف نجعلهما عبرة لمن يعتبر. أعد الأمر بالقبض عليهما يا مستر جنكس. يا مزل».

وقال الحاجب: «نعم يا سيدي».

قال: «هل جرمر في الطابق الأول؟».

- «نعم يا سيدي».

- «ادعه إلينا».

وانصرف مزل الممثل الخاضع، ولم يلبث أن عاد ومعه السيد المكتهل الذي ينتعل حذاء طويلًا والذي اشتهر بضخامة أنفه كأنه الزجاجة، وخشونة الصوت، وردائه الذي يضرب إلى لون «السعوط» وعينه الحوَّامة لا تستقر على شيء.

وقال العمدة: «جرمر».

وأجاب هذا : «نعم يا سيدي».

- «هل المدينة هادئة الآن؟».

- «في خير حال يا سيدي. لقد هدأ الشعور العام إلى حد ما، بعد أن تفرق الغلمان وذهبوا إلى الكريكت».

وقال العمدة في لهجة العزم والحزم: «لا شيء يجدي في هذه الأيام غير التدابير الشديدة يا جرمر، فإذا استهتر أحد بسلطة رجال الملك وأجناده، فليس أمامنا إلا أن نقرأ عليه قانون التجمهر والاجتماعات، وإذا عجزت السلطات المدنية عن حماية هذه النوافذ يا جرمر، فمن واجب السلطات العسكرية أن تحمي السلطات المدنية والنوافذ كذلك، وأعتقد أن هذا هو حكم الدستور يا مستر جنكس. أليس الأمر كذلك؟».

وقال: «هذا بلا شك يا سيدي».

قال وهو يوقع الأمر: «حسن جدًّا، اذهب يا جرمر فأحضر هذين

الشخصين أمامي في هذا الأصيل، ستجدهما في فندق «الحصان الأبيض الكبير» هل تتذكر حادث الملاكمين ضمبلنج وبانتام يا جرمر؟».

وأشار المستر جرمر بهزة من رأسه إشارة توحي بأنه لن ينساه أبدًا وليس من المرجح في الواقع أن ينساه، ما دام القول فيه، أو الحديث عنه، يُذكر في كل يوم ويتكرر الاستشهاد به.

وواصل ممثل السلطة التنفيذية حديثه قائلًا: «ولكن حادث اليوم أكثر مخالفة لأحكام الدستور، وأشد إخلالًا بالنظام، وانتهاكًا لحقوق صاحب الجلالة.. لأنني أعتقد أن المبارزة من حقوق جلالته التي لا نزاع فيها. أليس الأمر كذلك يا مستر جنكس؟».

وأجاب هذا قائلًا: «لقد نص عليها صراحة في «الماجنا كارتا».. «العهد الأعظم»، يا سيدي».

وقال العمدة: «وهي درة من أسطع الدرر في التاج البريطاني، انتزعها الأعيان من جلالته انتزاعًا، أليس هذا صحيحًا يا مستر جنكس؟».

وأجاب جنكس: «أي نعم يا سيدي».

واشرأب العمدة بعنقه كبرياء وزهوًا وقال: «حسن جدًّا، فلن تنتهك هذه الوثيقة في هذا الجزء من المملكة، يا جرمر، خذ معك أعوانًا، ونفذ هذا الأمر بلا إبطاء يا مزل».

وقال الحاجب: «نعم يا سيدي».

- «تقدم السيدة إلى الخارج».

وخرجت الآنسة وذرفيلد متأثرة بالغ التأثر بسعة علم العمدة

ودراساته، وانصرف المستر نبكنز لتناول الغداء، وأوى المستر جنكس إلى نفسه وانطوى عليها، وكان ذلك هو الملاذ الوحيد لديه، إذا استثنينا المتكأ الذي اتخذ منه فراشًا في الغرفة الصغيرة التي اعتادت أسرة صاحبة البيت أن تقضي فيها ساعات النهار، وانصرف المستر جرمر أيضًا؛ لكي يمحو- بطريقته الخاصة في تنفيذ المهمة التي عهد بها إليه- الإهانة التي لحقت به وبغيره من ممثلي حضرة صاحب الجلالة- ونعني به حضرة الشماس- في صبيحة ذلك النهار.

وبينما كانت هذه التدابير الحاسمة تُتَّخذ لصيانة الأمن وحفظ النظام، كان المستر بكوك وأصحابه- وهم أخلياء الأذهان من الأحداث العظيمة التي توشك على الوقوع- جالسين في هدوء إلى طعام الغداء، يتجاذبون أطراف الأحاديث، كأحسن ما يكون الصحب والخلطاء، وكان المستر بكوك يقص عليهم واقعة الحال التي جرت له في الليلة الماضية، وهم بسماعها فاكهون، وبخاصة المستر طبمن، وإذا الباب يفتح ووجه تقتحمه الأبصار يطل عليهم منه، وإذا ذلك الوجه المنفر ينظر باهتمام بالغ إلى المستر بكوك عدة ثوان، وقد بدا عليه أنه قد اقتنع بنتيجة بحثه؛ فقد تقدم إلى الحجرة، يمشي في حذاء طويل، ولكيلا نطيل على القارئ انتظار معرفة شخص ذلك الطارئ على المستر بكوك وصحبه، نقول: إن هاتين العينين الخلاجتين الحوامتين اللتين أطلتا عليهم من الباب، هما عينا المستر جرمر، وإن الشخص الذي تقدَّم نحوهم هو شخص ذلك السيد ذاته.

وكانت طريقة المستر جرمر في الإجراءات «فنية» ولكنها خاصة

لا يجري فيها على طرائق سواه. فقد كان أول عمل أتاه أنه أقفل الباب من الداخل، وكان الإجراء الثاني أنه راح يمسح رأسه ووجهه بكل عناية بمنديل من القطن أخرجه من جيبه، والثالث أنه وضع القبعة والمنديل في جوفها على أقرب كرسي منه، والرابع أنه أطلع من جيب الصدر في سترته هراوة قصيرة يعلوها تاج نحاسي، فأشار به إلى المستر بكوك بشكل جدي رهيب كأنه شبح من الأشباح.

وكان المستر سنودجراس أول من قطع السكون الذي ساد القوم من الدهشة؛ إذ انثنى يقول بلهجة التوكيد: «إن هذه غرفة خاصة يا سيدي.. غرفة خاصة!».

فهز المستر جرمر رأسه وأجاب قائلًا: «ليس هناك غرفة خاصة في نظر صاحب الجلالة، متى اجتيز الباب المؤدي إلى الشارع العام، هذا هو القانون. إن بعض الناس يقولون إن مسكن الإنجليزي هو حصنه المنيع. هذا كلام فارغ».

وهنا تبادل البكوكيون النظر في دهشة وعجب.

وقال المستر جرمر: «أيكم يدعى المستر طبمن؟».

وكان قد عرف المستر بكوك بالبداهة، وأدرك أنه هو في الحال.

وقال المستر طبمن: «أنا؟».

وأجاب المستر جرمر: «وأنا أدعى القانون!».

قال: «ماذا؟».

وأجاب المستر جرمر: «القانون! السلطة المدنية، والتنفيذية، هذه

هي ألقابي، وهذه هي سلطتي. طبمن الاسم الأول على بياض، وبكوك شرحه. الإخلال بالنظام في أراضي مولانا الملك. وقد أخذت الأقوال المتعلقة بهذه القضية، وتمت الإجراءات التي ينص عليها القانون، ولهذا ألقي القبض عليك يا بكوك وأنت يا طبمن، السالفي الذكر».

ونهض المستر طبمن من مجلسه قائلًا: «ماذا تعني بهذه القحة؟ اخرج من الحجرة».

وقال المستر جرمر وهو يتراجع بسرعة إلى الباب: «يا من هنا!» ثم يفتح منه قدر بوصة أو بوصتين، وينادي: «يا ضبلي..!».

وانبعث صوت أجش من الدهليز قائلًا: «نعم».

قال: «تقدم يا ضبلي».

وجاء على هذا الأمر رجل قذر السحنة، عملاق ضخم البدن، فحشر نفسه حشرًا من خلال الفتحة الصغيرة حتى احمر وجهه من هذا الجهد الذي بذله في الدخول.

وقال المستر جرمر: «هل الشرطيون الآخرون وقوف في الخارج يا ضبلي؟».

وأجاب الرجل، وكان من عادته الإيجاز وقلة الكلام، بإيماءة من رأسه.

وقال المستر جرمر: «مر القسم الذي أنت موكل به يا ضبلي بالدخول».

فعل ضبلي ما طلب إليه، وإذا ستة رجال يحمل كل منهم هراوة

قصيرة ذات تاج من نحاس، يتدفقون على الحجرة، ورد المستر جرمر هراوته إلى مكانها ونظر إلى المستر ضبلي، وأعاد هذا هراوته إلى موضعها ونظر إلى رجاله، ورد هؤلاء هراواتهم إلى أماكنها، ونظروا إلى المستر طبمن والمستر بكوك.

ونهض المستر بكوك وأصحابه نهضة رجل واحد.

وقال أولهم: «ما معنى هذا التهجم المنكر على حياتي الخاصة؟».

وقال المستر طبمن: «من الذي يجرؤ على اعتقالي؟».

وقال سنودجراس: «ماذا تريدون هنا أيها الأشقياء؟».

ولم يقل المستر ونكل شيئًا، ولكنه رمق جرمر بعينيه، ونظر إليه نظرة لو كان لديه أي خالجة من الشعور لنفذت في رأسه، ولكنها والحالة هذه لم تُحدث فيه أثرًا ظاهرًا.

ولما تبين ممثلو السلطة التنفيذية أن المستر بكوك وأصحابه يهمون بمقاومة سلطة القانون، شمروا عن أذرعهم كأنهم مقدِمون على جندلتهم في الحال، واستياقهم بعد ذلك، وهو إجراء عادي تقتضيه المهنة، وينفذ بمجرد التفكير فيه دون تردُّد، وقد فطن المستر بكوك لتلك الحركة في الحال، فأخذ المستر طبمن في ناحية وتحدث إليه بضع لحظات، وأبدى استعداده للذهاب إلى دار العمدة مكتفيًا بتوجيه أنظار الحاضرين إلى أن في نيته فعلًا أن يحتج على هذا التهجم البشع على حقوقه بوصفه مواطنًا عقب الإفراج عنه مباشرة، فضحك الحاضرون لهذا القول ساخرين، خلا المستر جرمر الذي كان يعد أي شك ولو يسير في حقوق السلطة

التنفيذية المقدسة تجديفًا لا يغتفر.

ولكن عندما أبدى المستر بكوك استعداده للانحناء أمام قوانين بلاده، وعندما رأى الخدم والغلمان والوصيفات وصبيان المرابط والمركبات العامة الذين كانوا يتوقعون أن يشهدوا منظرًا لطيفًا، على إثر عناده وتهديده، أنه قد امتثل للأمر، انصرفوا خائبي الأمل مشمئزِّين، وعندئذ قامت صعوبة لم يكن أحد قد توقعها؛ وذلك أن المستر بكوك مع احترامه التام للسلطات الدستورية، امتنع أشد الامتناع عن الظهور في الشوارع العامة محاطًا بالشرطة والحراس كما يحاط بالمجرمين العاديين، كما امتنع المستر جرمر، بالنظر إلى حالة الاضطراب، وهياج الشعور العام؛ فقد كان اليوم نصف عطلة، وصبية المدارس لم يعودوا بعدُ إلى دورهم، وأبى كل الإباء أن يستغني عن حراسة المقبوض عليهما، ويسير في الجهة الأخرى من الطريق، ويقبل من المستر بكوك التعهد بشرفه أن يسير رأسًا إلى مقر العمدة، بل لقد رفض المستر بكوك والمستر طبمن أيضًا أن يتحملا أجرة مركبة نقلهما إليه، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة المحترمة التي يتسنى في هذا الموقف الحصول عليها، وهكذا اشتد الخلاف وطال أمد المأزق، وبينما كان ممثلو السلطة التنفيذية يوشكون أن يتغلبوا على اعتراض المستر بكوك على السير مشيًا إلى دار العمدة، بحمله عنوة؛ إذ خطر بالبال أن في فناء الفندق مقعدًا قديمًا كالهودج كان قد صُنِعَ في الأصل لحمل سيد غني كان يشكو داء المفاصل، وهو يتسع للمستر بكوك والمستر طبمن بلا عناء، ويشبه على الأقل عجلة أو مركبة صغيرة، فاستؤجر وأُحضر إلى بهو الفندق وراح المستر بكوك وصاحبه

طبمن ينحشران فيه ويرخيان أستاره، وجيء في الحال برجلين يحملان الهودج بينهما وخرج الموكب في مظهر فخم، ونظام بديع، وأحاط الأشراط بالمركبة، بينما تقدمها المستر جرمر والمستر ضبلي يمشيان في الطليعة مشية المنتصرين، وجاء المستر سنودجراس والمستر ونكل في الساقة يسيران ذراعًا لذراع، وغوغاء إبسويتش الذين لا يعرفون للصابون قيمة ولا قدرًا يؤلفون المؤخرة.

ولم يكن أصحاب الحوانيت في البلدة قد عرفوا جلية الأمر، ولا حقيقة التهمة، ولكن هذا المشهد كان كافيًا لتلقينهم وإفهامهم مدى سطوة القانون، وإدخال الارتياح والطمأنينة على نفوسهم؛ فقد رأوا بأعينهم يد القانون الشديدة البأس، مسلطة في العشرين رجلًا من سدنته وحراسه، يستاقون جانيين من أهل العاصمة ذاتها، وينفذون سلطان القانون بأمر عمدة البلدة التي يعيشون فيها، ويعتقلون الجانيين الأثيمين بكل تلك الجهود المشتركة التي تعاونت عليها أدوات القانون ودواليبه، في ذلك المحيط الضيق، وهما داخل هودج واحد، وقد تجلت مظاهر السرور والإعجاب بأجلى آياتها في تحية المستر جرمر وهو على رأس هذا الموكب، والهراوة في يده، فكانت هتافات الغوغاء القذرين مدوية. وانطلق الموكب الهوينا في وسط هذه المظاهر المجتمعة التي تدل على الارتياح العام، وراح يشق الطريق في هيبة وجلال.

وكان المستر ويلر مرتديًا سترة الصباح ذات الأردان المصنوعة من البفتة السوداء، وعائدًا في حزن وخيبة أمل من بحث غير موفَّق حول البيت الغريب ذي الباب الأخضر، وإذا هو يرفع عينيه فيبصر زحامًا في الطريق، محيطًا بشيء قريب الشبه بهودج، فأراد أن يصرف عن خاطره

كل تفكير في خيبة مشروعه، فوقف في ناحية يشهد الموكب وهو يمر ووجد الناس يهتفون، فرحين راضين، فبدأ على سبيل التسرية عن نفسه، ونفي الهم عن صدره، يهتف بكل قواه مع الهاتفين.

ومر المستر جرمر، ومر المستر ضبلي في أثره، واجتاز الهودج، واجتاز الحراس، وظل سام مستجيبًا لحماسة الناس، مشتركًا في هتاف الغوغاء، وملوحًا بقبعته في الفضاء كأنه في أقصى حدود الابتهاج والإشراق- وإن لم تكن لديه بالطبع أقل فكرة عن الموضوع- ولكنه لم يلبث أن وقف عن حركاته تلك وحماسته، حين ظهر لعينيه فجأة المستر ونكل والمستر سنودجراس.

فصاح سام: «ما الخبر أيها السيدان؟ ومن تراهم يحملون في هذه المحفة المحزنة؟».

ورد السيدان عليه معًا، ولكن كلامهما ضاع في وسط الجلبة الصاخبة.

فعاد يصيح قائلًا: «من قلتما؟».

وجاءه الرد المشترك مرة أخرى، ولكنه لم يسمعه، وإن كان قد أدرك من حركة شفاههما أنهما قد نطقا بتلك الكلمة الساحرة «بكوك».

وكان هذا حسبه، فلم تنقض دقيقة واحدة، حتى شق طريقه في غمار الزحام، وأوقف الحمالين اللذين يحملان الهودج بينهما، وواجه جرمر ذا الصولة والصولجان.

قال: «ما هذا أيها السيد الكبير؟ من هذا الذي تحمله في هذه النقالة؟».

وقال المستر جرمر: «ابعد يا هذا».

وكان هذا الإعجاب الذي بدا له من جانب الجمهور، قد زاد في هيبته، كغيره من الناس، ورفع من مكانته وأبهته.

وقال المستر ضبلي: «اطرحوه أرضًا إذا لم يمتثل».

وأجاب سام قائلًا: «أشكرك كثيرًا أيها السيد الكبير لعنايتك براحتي، وأشكر أيضًا السيد الآخر الذي يبدو كأنه قد فر لساعته وتوه من قافلة عملاق، على اقتراحه الجميل، ولكني أفضل أن تعطيني جوابًا عن سؤالي، وإذا لم يكن في ذلك بأس لديك. كيف أنت يا سيدي؟ وكان هذا السؤال الأخير موجهًا بلهجة عطف ورعاية إلى المستر بكوك، وكان هذا قد أطل من خلال النافذة الأمامية.

وعندئذٍ أخرج المستر جرمر- وهو لا يكاد يقوى على النطق من شدة الغيظ- الهراوة ذات التاج النحاسي من الجيب الخاص بها ورفعها أمام عيني سام.

وقال: «هذا آه، إنها لعصا مليحة جدًّا، وبالأخص تاجها الذي يشبه التاج الحقيقي الآخر إلى حد بعيد».

وصاح المستر جرمر في غضب: «إلى الوراء»، وعلى سبيل زيادة الأمر الصادر منه قوة، راح يدفع الشارة النحاسية رمز التاجي الملكي في طوق سام بإحدى يديه، ويمسكه من رقبته بالأخرى، وهي تحية رد عليها المستر ويلر بدفعة ألقته على الأرض، وكان قد سبقها رعاية واحترامًا له بجندلة أحد الحمالين، لكي يسقط المستر جرمر فوقه، ويجد فراشًا

يستلقي عليه.

ولسنا متأكدين هل كانت نوبة جنون التي استولت عندئذٍ على المستر ونكل بسبب التأذي من هذا المشهد، والاستياء من رؤيته، أو كان سببها التأثر بتلك الشهامة التي أبداها المستر ويلر؟ ولكن المؤكد أنه لم يكد يرى المستر جرمر يسقط على الأرض، حتى هجم هجمة مروعة على غلام صغير كان واقفًا بجانبه، بينما راح المستر سنودجراس- بروح مسيحية صادقة، وحتى لا يأخذ أحد من الناس على غرة- يعلن بصوت مرتفع أنه سيبدأ القتال، وأنشأ يخلع سترته بمنتهى التأني والتؤدة، ولكن الشرطة بادروا إليه فحاصروه وأمسكوا به، ومن الإنصاف له وللمستر ونكل أن نقول: إنهما لم يحاولا أقلَّ محاولةٍ لإنقاذ نفسيهما أو إنقاذ المستر ويلر الذي قاوم أشد المقاومة، ولكن الكثرة تغلبت على الشجاعة فأحيط به.

وعاد الموكب إلى نظامه ورفع الحمالان حملهما وتابع القوم المسير.

وكان غضب المستر بكوك خلال هذا الحادث من بدايته إلى نهايته قد جاوز الحدود؛ فقد رأى سام وهو يجندل الأشراط ويكر ويفر في كل ناحية، ولم يستطع أن يرى أكثر من ذلك؛ لأن باب الهودج استعصى عليه، والأستار أبت أن ترتفع، وأخيرًا- وبمعاونة المستر طبمن- تمكن من فتح السقف، والصعود فوق المسند، والتوازن على قدميه ما أمكن، بوضع يده فوق كتف صاحبه، وراح يخطب في الجماهير متحدثًا عن

الطريقة الجائرة التي عومل بها، ومناشدتهم الشهادة بأن الشرطة هم البادئون بمهاجمة خادمه.

وعلى هذا النحو وصل الموكب إلى دار العدالة، الحمالان يسيران بالمحفة جنبًا، والسجينان يتبعانهما والمستر بكوك يخطب، والغوغاء يتصايحون...

* * *

# الفصل الخامس والعشرون

**يصف- فيما يصف من مواقفَ سارةٍ وحوادثَ فكهةٍ- مدى هيبة المستر نبكنز ونزاهته، وكيفَ استطاع المستر ويلر أن يرد على خدعة المستر جوب تروتر بلعبة أبرع منها، ومسالة أخرى سيجدها القارئ في موضعها**

كان غضب المستر ويلر شديدًا وهو يحمل حملًا، فكثرت غمزاته ونكاته على أشكال المستر جرمر وزملائه، كما بدا جريئًا في تحديه لأي شخص من أولئك الجنود الستة، وإعلان تذمره واستيائه، بينما مضى المستر سنودجراس والمستر ونكل يصغيان باحترام صامت إلى فيض البلاغة المتدفقة من المستر بكوك زعيمهما وهو فوق منبر «الهودج» تلك البلاغة الزاخرة التي لم يستطع المستر طبمن أن يوقف تيارها المتقاذف لحظة واحدة، بكل ما حاوله وتقدم به من توسلات إليه أن يغلق غطاء المركبة، وينثني عن خطبته، ولكن غضب المستر ويلر لم يلبث أن استحال إلى فضول، حين رأى الموكب قد انعطف نحو ذلك الفناء ذاته الذي التقى فيه بالهارب جوب تروتر، وما لبث هذا الفضول أن انقلب إلى دهشة سارة، وعجب عاجب، حين شهد المستر جرمر بجلالة

قدره يأمر الحمالين بالوقوف ويتقدم بخطوات جليلة، وفي مشية أبهة وسلطان، نحو ذلك الباب الأخضر الذي خرج منه جوب تروتر، ويدق الجرس بجذبة قوية، وإذا خادمة رشيقة مليحة المحيا، تأتي فتفتح الباب، وما كادت ترى السجناء على تلك الصورة الثائرة، وتسمع كلمات المستر بكوك الجياشة الغاضبة، حتى رفعت يديها من فرط الدهشة، ونادت المستر مزل مستنجدة، وجاء هذا ففتح نصف الباب الذي تدخل المركبات منه؛ لكي يتسع لدخول «الهودج» والسجناء والأشراط، وبادر إلى إغلاقه بعنف في وجوه الغوغاء، فغضب هؤلاء من صدهم عن الدخول، ومضوا في سبيل تحقيق لهفتهم على مشاهدة ما سيجري داخل الدار، وإرضاء مشاعرهم، يركلون الباب بأرجلهم، ويدقون الجرس بأيديهم ساعة أو ساعتين متعاقبتين على هذا العبث بالدور، خلا ثلاثة أو أربعة منهم حالفهم التوفيق فاكتشفوا ثغرة في الباب لا تشرف على شيء فاكتفوا بالحملقة والنظر من خلالها بتلك المثابرة الملحة التي لا تعرف التعب، ولا يغالبها الضجر، تلك المثابرة التي تبدو من الناس في أكثر هذه المشاهد، فيزدحمون بباب صيدلية، ويضعون أنوفهم في واجهاتها الأمامية إذا دهمت مركبةٌ أحدَ السكارى في الطريق، فحمل إلى الصيدلية لإجراء جراحة له في الغرفة الخلفية منها.

وأوقف الهودج عند المنحنى الأول من مدارج سلم مؤدٍّ إلى باب البيت، وقد وضعت على كلا جانبيه «صبارة» من «الصبار» الأمريكي في حوض أخضر اللون، وسيق بالمستر بكوك وأصحابه إلى البهو حيث كان «مزل» قد أعلن من قبل حضورهم، وأمر المستر نبكنز بدخولهم،

فأدخلوا في حضرة ذلك السيد صاحب السلطان الحريص على سلطته.

وكان المشهد رائعًا يهز النفوس، وعلى هذا النحو دبر وروعي في تدبيره أن يقذف الرعب في قلوب الجناة، ويقنعهم بهيبة القانون وسلطانه؛ فقد جلس المستر نبكنز أمام مكتبة ضخمة، في مقعد كبير، خلف مكتب كبير، وأمامه مجلد ضخم، وبدا أكبر حجمًا من أي شيء فيها، على ضخامتها، وقد ازدانت المنضدة بأكداس من الأوراق، وفي الطرف الأقصى منها ظهر رأس المستر جنكس وكتفاه، وكان منشغلًا كل الانشغال بالتظاهر بأنه مشغول ما أمكن.

وبعد أن دخل الجميع، تقدم مزل فأغلق الباب بعناية واتخذ موقفه خلف مقعد مولاه؛ انتظارًا لأوامره.

واستلقى المستر نبكنز في مقعده بهيبة تسري لها رعدة في النفوس، وراح يتفحص وجوه الزائرين الذين جاءوا كارهين.

وأنشأ المستر نبكنز يقول: «والآن يا جرمر، من هذا الشخص؟».

وأشار إلى المستر بكوك، وكان هذا قد وقف موقف المتحدث عن صحابه، والقبعة في يده، وهو ينحني بكل أدب واحترام.

وأجاب جرمر: «هذا هو بكوك يا حضرة العمدة».

وهنا تدخل المستر ويلر، وتقدم يدفع الآخرين بمرفقه؛ ليقف في المقدمة وقال: «دعك من هذا كله أيها العجوز الشبيه بالشيخ القائل: «أشعل لي لفافة» عفوًا يا سيدي، ولكن ضابط هذا ذا القبعة الحمراء البرتقالية اللون الذي لا يمكن أن يكسب قوته يومًا مديرًا للمراسيم، في

أي مكان كان، هذا السيد يا سيدي»، قال هذا وهو يدفع جرمر في ناحية، ويخاطب العمدة بغير كلفة إطلاقًا: «هذا السيد هو الوجيه الكبير صمويل بكوك، وهذا المستر طبمن. وهذا المستر سنودجراس والآخر القريب منه في الناحية الأخرى هو المستر ونكل؟ كلهم سادات لطاف ظراف يسعدك يا سيدي أن تعرفهم، وكلما عجلت بإرسال ضباطك هؤلاء إلى الهراسة[1] مدة شهر أو شهرين، كان ذلك خيرًا لنا ولك؛ لكي نصبح أحباء ونتفاهم، على أحسن ما يكون التفاهم، العمل أولًا، واللهو بعد ذلك، كما قال الملك ريتشارد الثالث حين طعن بالخنجر الملك الآخر في البرج، قبل أن يخنق الولدان في المهد».

وما كاد المستر ويلر ينتهي من هذه الخطبة حتى أخذ يمسح قبعته بمرفقه الأيمن، ويومئ بشفقة لجنكس الذي لبث مصغيًا إليه طيلة الوقت الذي استغرقه في الخطبة برهبة لا توصف.

وقال العمدة: «من يكون هذا الرجل يا جرمر؟».

وأجاب المستر جرمر قائلًا: «شخص متهور جدًّا يا حضرة العمدة، فقد حاول إنقاذ السجناء، وتهجم على الشرطة فتحفظنا عليه وأحضرناه إلى هنا».

وأجاب العمدة: «لقد أحسنت صنعًا. الظاهر أنه من الأوشاب المتهورين».

وقال المستر بكوك بغضب: «إنه خادمي يا سيدي».

(١) آلة من آلات التعذيب تدار بالأقدام لحمل المتهمين على الاعتراف ولتأديب الجناة.

وقال المستر نبكنز: «إنه خادمك، هذه إذن مؤامرة لإحباط أغراض العدالة وقتل الموكلين بها. إنه خادم بكوك. اكتب هذا يا سيد جنكس».

وفعل جنكس ما أمر به.

وصاح المستر نبكنز قاصفًا كالرعد: «ما اسمك يا هذا؟».

وأجاب سام: «ويلر».

وقال المستر نبكنز: «اسم يصلح للنشر في تقويم السجون».

وكانت هذه نكتة، فلا غرو إذا انتابت جنكس، وجرمر، وضبلي، والشرطيين الستة، ومزل نوبة ضحك استمرت خمس دقائق.

وقال العمدة: «قيد اسمه عندك يا مستر جنكس».

وقال سام: «بلامين، لا لام واحدة يا أخ!».

وهنا ضحك ثانية شرطي سيئ الحظ، فبادر العمدة إلى تهديده بالعقاب في الحال؛ لأنه من الخطر البالغ الضحك ممن لا ينبغي الضحك منه في هذه الأحوال.

وقال العمدة: «وأين تقيم؟».

وأجاب سام: «في أي مكان أستطيع».

وقال العمدة، وقد بدأ الغضب يبدو عليه، «اكتب هذا يا مستر جنكس».

وقال سام: «وتحته خط».

وقال العمدة: «إنه متشرد يا مستر جنكس، متشرد باعترافه، أليس

كذلك يا مستر جنكس؟».

- «بلا شك يا سيدي».

وقال المستر نبكنز: «سأحكم عليه بهذه الصفة».

وقال سام: «هذا البلد معروف بالعدالة والنزاهة في القضاء، وليس فيه قاض إلا حكم على نفسه مرتين قبل أن يحكم على الناس».

وضحك شرطي آخر لهذا التهكم، ثم حاول أن يتراءى ساكنًا جادًّا أكثر مما في مقدوره، فاكتشفه العمدة في الحال وصاح وهو محمر الوجه من الغضب: «جرمر. كيف سولت لك النفس اختيار شخص عديم الكفاءة سيئ السمعة كهذا الرجل ليكون شرطيًّا ممتازًا، كيف اجترأت على عمل كهذا؟».

وأجاب جرمر متلعثمًا: «إنني آسف أشد الأسف يا حضرة العمدة».

وقال العمدة المحنق: «آسف جدًا. إنك ستندم على هذا الإهمال في واجبك يا مستر جرمر، وستُجعل عبرة لأمثالك، اسحب من هذا المخلوق هراوته، فهو سكران. أنت سكران يا هذا؟».

وقال الرجل: «أنا لست سكران يا حضرة العمدة».

ورد العمدة قائلًا: «بل أنت سكران فعلًا، كيف تجرؤ على تكذيب قولي إنك سكران، حين أقول إنك كذلك؟ ألا تعبق رائحة الخمر منه يا جرمر؟».

وأجاب جرمر: «بشكل بشع يا حضرة العمدة».

وكان جرمر قد شعر برائحة: «الروم» تنبعث من ناحية ما، ولم يكن

متأكدًا أنها منبعثة من ذلك الشرطي بالذات.

وقال المستر نبكنز: «إنني متأكد أنه سكران، وقد فطنت إلى سكره لأول وهلة حين دخل الحجرة، من عينه المهتاجة. هل لاحظت عينه المهتاجة يا مستر جنكس؟».

- «بلا شك يا سيدي».

وقال الرجل، وكان مفيقًا صاحيًا لنفسه ليس به سكر: «إنني لم أذق قطرة من الخمر منذ هذا الصباح».

وقال المستر نبكنز: «كيف تجترئ على الكذب أمامي، أليس هو سكران في هذه اللحظة يا مستر جنكس؟».

وأجاب جنكس: «بلا شك يا سيدي».

وقال القاضي: «إنني يا مستر جنكس أتهم هذا الرجل بإهانة المحكمة.. أعد ورقة الاتهام يا مستر جنكس».

وكان الشرطي سيحكم بلا شك عليه، لولا أن جنكس الذي يتولى عمل «المستشار» لحضرة العمدة؛ لأنه سبق له التدرب على إجراءات القضاء ثلاثة أعوام في مكتب أحد المحامين في الريف، أقبل يهمس للقاضي قائلًا إن هذا الإجراء لا يجدي، ولا غناء فيه، فما كان منه إلا أن ألقى خطابًا قال فيه إنه بالنظر إلى أن الرجل رب أسرة، سيكتفي بتوبيخه وفصله من الخدمة، وتم فعلًا تأنيبه بشدة زهاء ربع ساعة، وأطلق سبيله، وراح جرمر وضبلي ومزل وسائر الأجناد الآخرين يغمغمون بإعجابهم بعظمة المستر نبكنز ورفعة إحساسه.

وانثنى المستر نبكنز يقول: «والآن يا مستر جنكس، حلف جرمر اليمين!».

وأدَّى جرمر اليمين في الحال، ولكنه أطال في شهادته، وشرد كثيرًا في أقواله، وكان غداء العمدة قد أوشك أن يُهَيَّأَ له، فلم تكن ثَمَّةَ حيلة أمامه غير الاختصار، بتوجيه أسئلة معينة لجرمر، ورد هذا عليها في الغالب بالإيجاب.

وهكذا مضى الاستجواب هينًا لينًا، وثبت منه أن المستر ويلر تعدى مرتين على الشرطة، كما ثبت التهديد على المستر ونكل، والتعدي بالإشارة على المستر سنودجراس.

ولما انتهى ذلك كله على ما يروم المستر نبكنز، أخذ في المداولة مع المستر جنكس همسًا ومخافتة.

ولم تستمر المداولة أكثر من خمس عشرة دقيقة، فعاد المستر جنكس إلى مجلسه في طرف المنضدة، واستوى العمدة في مقعده، وأرسل سعلة ونحنحة على سبيل التمهيد، وشرع في النطق بالأحكام، وإذا المستر بكوك يقاطعه قائلًا: «عفوًا يا سيدي عن مقاطعتك، ولكن قبل أن تشرع في إصدار القرار الذي قد تكون بنيته على أساس الأقوال التي أُدْلِيَ بها هنا، أرى لزامًا أن أطالب بحقي في سماع أقوالي، فيما يتعلق شخصيًّا بي».

وقال القاضي بلهجة قاطعة: «أمسك عليك لسانك يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «أنا مضطر إلى الإذعان لأمرك يا سيدي».

وعاد القاضي يقول: «أمسك عليك لسانك يا سيدي، وإلا أمرت ضابطًا بإخراجك».

وقال المستر بكوك: «لك أن تأمر ضباطك وأشراطك أن يفعلوا ما تشاء يا سيدي، فلا شك عندي بعد الذي رأيته من الخضوع الغالب عليهم، أنك مهما تأمرهم يفعلوا يا سيدي، ولكني أصارحك يا سيدي بأني لا أزال متمسكًا بحقي في سماع أقوالي، ما لم أخرج من هنا بالقوة».

وهنا صاح المستر ويلر بصوت مسموع: «بكوك والمبادئ!».

فانتهره المستر بكوك قائلًا: «سام، اسكت أنت».

وأجاب الخادم: «كسكوت طبلة مثقوبة يا سيدي».

ونظر المستر نبكنز إلى المستر بكوك في دهشة بالغة من هذا التهور الذي لم يألفه من أحد قبله، وهَمَّ بأن يرد عليه ردًّا عنيفًا كل العنف لولا أن جذبه المستر جنكس من كمه وهمس شيئًا في أذنه، فلم يسع القاضي إلا أن يرد ردًّا هادئًا لا يكاد يبلغ الأسماع، وتجدد التهامس، والظاهر أن جنكس كان يعارض العمدة ويستنكر إجراءه.

وأخيرًا التفت العمدة إلى المستر بكوك بعد أن ابتلع على كُرْهٍ هذا الاعتراض على الامتناع عن سماع أقواله فقال بحدة: «ماذا تريد أن تقول؟».

وأجاب المستر بكوك، بعد أن أرسل من خلال منظاره نظرة جعلت نبكنز نفسه يعرق منها وتخور عزيمته: «أريد أولًا أن أعرف السبب الذي دعا إلى استياقي أنا وصاحبي إلى هنا».

وهمس القاضي لجنكس: «هل يتحتم أن أنبئه؟».

وهمس هذا له: «أظن أنه يحسن أن تفعل يا سيدي».

وقال القاضي: «لقد أبلغني شخص بعد حلفه اليمين أنه علم أنك عازم على مبارزة، وأن الرجل الآخر طبمن هو مساعدك فيها ومحرضك، ولهذا، آه يا مستر جنكس؟».

- «بلا شك يا سيدي».

- «ولهذا أدعوكما، أظن أن هذا هو الإجراء الصحيح يا مستر جنكس؟».

- «بلا شك يا سيدي».

- «ولهذا ماذا؟ يا مستر جنكس؟».

- «أن يقدم ضمانًا يا سيدي».

- «نعم. ولهذا أطلب إليكما، كما كنت أريد أن أقول، لولا أن قاطعني كاتبي، أن تقدما ضمانًا».

وهمس المستر جنكس في أذنه: «ضمانًا مقبولًا».

وقال العمدة: «ضمانًا مقبولًا».

وعاد الكاتب يهمس له: «من أشخاص مقيمين في البلدة».

وقال العمدة: «من أشخاص مقيمين في البلدة».

وهمس المستر جنكس: «خمسين جنيهًا عن كل واحد، ويتعين أن يكون الضامن من أرباب الأملاك طبعًا».

وقال العمدة بصوت جهير وفي اعتزاز بالغ: «إنني أطلب ضمانتين، كل منهما بخمسين جنيهًا، ويجب أن يكون الضامن طبعًا من ذوي الأملاك».

وقال المستر بكوك، وكان هو والمستر طبمن قد استولت عليهما الدهشة وتملكهما الغضب» «يا سبحان الله يا سيدي. إننا هنا غريبان عن البلدة وأهلها، ولا أعرف فيها أحدًا من ذوي الأملاك، كما لا أعرف شيئًا عن اعتزامي مبارزة أحد من خلق الله».

وأجاب العمدة: «أريد أن أقول، أريد أن أقول، أليس كذلك يا مستر جنكس؟».

- «بلا شك يا سيدي».

وسأل العمدة المتهم: «ألديك شيء آخر تقوله؟».

وكان لدى المستر بكوك شيء كثير يقوله، وكان بلا شك قائله، وإن لم يكن في صالحه، ولا ينتظر أن يرتاح العمدة له، لو لم يجذبه المستر ويلر من كمه، على إثر انتهائه من كلامه، ويدور بينهما في الحال حديث جدي سريع، جعله يغض عن السؤال الأخير الذي وجهه العمدة إليه، ولم يكن المستر نبكنز بالرجل الذي يسأل السؤال مرتين؛ ولهذا راح بعد نحنحة أخرى ووسط صمت الهيبة والرهبة والإعجاب البادية على الشرطة، ينطق بالأحكام.

وكان الحكم على المستر ويلر بجنيهين غرامة من التهمة الأولى، وثلاثة جنيهات عن التهمة الثانية، وعلى المستر ونكل بجنيهين، وعلى سنودجراس بجنيه واحد مع مطالبتهما في الوقت ذاته بألا يتعرضا لأحد

من رعايا حضرة صاحب الجلالة، وأن يحرصا على إقرار الوئام بينهم، وبخاصة مع خادم جلالته دانيال جرمر.

أما بكوك وطبمن فقد سبق له الحكم عليهما بكفالة.

وما كاد القاضي ينتهي من الكلام حتى تقدم المستر بكوك، وقد بدت ابتسامة على وجهه الذي استعاد تهلله وإشراقه، فقال: «أستميح حضرة العمدة عفوًا، هل يأذن لي في حديث خاص معه بضع دقائق في أمر مهم يتعلق بشخصه؟».

وقال العمدة: «ماذا؟».

وأعاد المستر بكوك السؤال.

وقال العمدة: «هذا طلب مخالف للمألوف كل المخالفة. حديث خاص؟».

وأجاب المستر بكوك بثبات: «نعم، حديث خاص يتصل ببعض المعلومات التي أريد الإفضاء بها، والتي استقيتها من خادمي، ولهذا أريد أن يحضر هذا الحديث».

ونظر العمدة إلى المستر جنكس، ونظر المستر جنكس إلى العمدة، ونظر الشرطة بعضهم إلى بعض في دهشة ظاهرة، وبدا المستر نبكنز فجأة شاحب اللون. هل ترى ذلك الرجل الذي يدعى ويلر في لحظة ندامة وتأنيب ضمير قد أفضى بنبأ مؤامرة سرية على اغتياله؟ لقد خطرت له هذه الفكرة المروعة، إنه موظف عمومي. واشتد وجهه شحوبًا، إذ تمثل له يوليوس قيصر، وتصور ما جرى للمستر برسيفال[1].

(١) من رجال السياسة في عهد دكنز، واغتيل في أروقة مجلس العموم عام ١٨١٢.

وعاد العمدة ينظر إلى المستر بكوك، ثم أشار إلى المستر جنكس.

وغمغم يقول: «ما رأيك في هذا الطلب يا مستر جنكس؟».

ولم يكن المستر جنكس يدري ما رأيه فيه، كما خشي أن يقع في خطأ، فلم يزد على ابتسامة واهية حائرة، وزم ركني فمه، وهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر.

وقال العمدة بجد: «يا مستر جنكس، إنك لحمار!».

وابتسم المستر جنكس مرة أخرى لهذا التعبير عن رأيه فيه، ابتسامة أوهى من الأولى، ولبث يتزحزح شيئًا فشيئًا حتى عاد إلى ركنه.

وخلا المستر نبكنز للمداولة مع نفسه بضع ثوانٍ ثم نهض من مقعده، وطلب إلى المستر بكوك وسام أن يتبعاه، وتقدمهما إلى غرفة صغيرة تفتح على ساحة القضاء وطلب إلى المستر بكوك التقدم إلى أقصى الغرفة، وألقى يده على الباب الذي تركه مفتوحًا نصف فتحة حتى يتهيأ له السبيل إلى الفرار إذا لمح أقل بادرة تنم عن الرغبة في العدوان عليه، ثم أبدى استعداده لسماع تلك المعلومات مهما يكن موضوعها.

وأنشأ المستر بكوك يقول: «سأدخل في صميم الموضوع في الحال بغير مقدمات يا سيدي. إنه أمر يتعلق بشخصك ويمس سمعتك إلى حد كبير، إن لدي من الأسباب يا سيدي ما يحملني على الاعتقاد إنك تؤوي في بيتك نصابًا كبيرًا، ومحتالًا داهية».

وقاطعه سام قائلًا: «بل اثنين لا واحدًا، هل نسيت يا سيدي الشخص التوتي الغزير الدموع، المطبوع على الخسة والتضليل؟».

وقال المستر بكوك: «اسمع يا سام، إذا كنت تريد أن يكون حديثي مع هذا السيد واضحًا جليًّا، فإني مضطر إلى أن أرجوك أن تضبط شعورك».

وأجاب المستر ويلر: «متأسف جدًّا يا سيدي، ولكني كلما أتذكر جوب هذا، لا أتمالك نفسي من فتح الصمام قليلًا».

وعاد المستر بكوك يقول: «وفي كلمة واحدة يا سيدي، هل خادمي على حق في قوله إن شخصًا يدعى الضابط فتز- مارشال اعتاد التردد على هذا البيت؟».

ورأى المستر بكوك أن المستر نبكنز يوشك أن يعترض على كلامه في غضب فأردف قائلًا: «لأنه إذا صح ذلك، فإني أعرف أن ذلك الشخص..».

وقال المستر نبكنز وهو يغلق الباب: «اغضض من صوتك. تعرف عنه ماذا يا سيدي؟».

قال في حنق: «أعرفه أفاقًا لا يرعى عهدًا ولا ذمة. أعرفه شخصًا معيبًا غير شريف، مخلوقًا مفترسًا ينهش الناس ويتخذ من السليمي النية منهم مطايا لأغراضه، وهم ضحاياه الحمقى البله المساكين».

وقال المستر نبكنز وقد احمر وجهه وتغير مسلكه كل التغير: «يا ألله! يا للعجب يا مستر...».

وقال سام: «بكوك».

وعاد العمدة يقول: «يا عجبًا! يا مستر بكوك! تفضل اجلس، هل تعني حقًّا ما تقول؟ هل الضابط فتز- مارشال فعلًا...؟».

وعاجله سام قائلًا: «لا تسمه ضابطًا ولا فتز- مارشال لأنه لا هذا ولا ذاك، إنه ممثل متجول يدعى «جنجل» وإذا جاز أن ترى ذئبًا في زي توتي اللون، فإن جوب تروتر هو ذلك الذئب».

وقال المستر بكوك ردًّا على نظرة الدهشة التي بدت على وجه العمدة: «هذه هي الحقيقة يا سيدي، إن كل مهمتي في هذه البلدة هي أن أفضح خافية هذا الشخص الذي نتحدث اللحظة عنه».

وانطلق المستر بكوك يسكب في أذن المستر نبكنز المروَّع المبهوت قصة موجزة عن جرائم المستر جنجل وفظائعه، فروى كيف كان أول عهده بلقائه، وكيف هرب مع الآنسة واردل، وكيف فرح واغتبط بالتخلي عنها لقاء شيء من المال، وكيف وقع في شرَك نصبه له بدخول مدرسة للبنات في منتصف الليل، وكيف يشعر الآن- أي المستر بكوك نفسه- أن واجبه يقتضيه فضح حقيقة اسمه الحالي ورتبته العسكرية.

وكان دم المستر نبكنز خلال سماع هذه القصة يغلي في عروقه، ويرسل حمرته في كل أنحائه، حتى أرنبة أذنه؛ فقد التقط ذلك الضابط المزعوم في سباق للخيل غير بعيد من الموضع، وما لبثت زوجته وابنته أن فتنتا الضابط فتز-مارشال بكثرة أسماء معارف فتز-مارشال من العلية، وعديد رحلات فيتز-مارشال وأسفاره، وحسن صيت فيتز- مارشال، وجمال بزته، فجعلتا تقدمانه إلى الناس، وتنقلان طرائف أقواله وتحلانه مكان الصدارة من الصفوة المختارة من أصحابهما ومعارفهما، حتى كادت صديقتهم الحميمة السيدة بوركنهام وابنتها الآنسة بوركنهام وزوجها المستر سدني بوركنهام يتميزون من الغيظ والكمد، وشدة الغيرة!

ثم هو الآن، بعد كل ذلك، يسمع أنه أفاق صعلوك، وممثل جوالة، وإذا لم نقل نصابًا، فهو شيء أقرب شبهًا إليه، حتى ليصعب التفريق بينهما! يا للسموات! ماذا عسى آل بوركنهام يقولون؟ وأي انتصار سيحرزه المستر سدني بوركنهام حين يتبين أن كل كلامه المؤدب، وخطبه الرقيقة أغض عنها، وامتهنت إيثارًا لذلك المزاحم المنافس عليه، وكيف سيواجه هو- أي المستر نبكنز- عين الشيخ بوركنهام حين يلتقيان في الدورة القادمة التي تنعقد مرة كل ثلاثة أشهر، وأي فرصة سوف تسنح للمعارضة في عمديته إذا تسامع الناس بهذه القصة؟

وانثنى المستر نبكنز وقد أشرق وجهه لحظة، بعد صمت طويل، قائلًا: «ولكن بعد هذا كله، لا تزال هذه القصة مجرد كلام يقال، إن الضابط فتز- مارشال رجل جم الأدب جذاب، بل يصح لي أن أقول إن له خصومًا وأعداء كثيرين، فأي دليل لديك على صدق ما رويت؟».

وأجاب المستر بكوك: «واجهني به. هذا هو كل ما أسأل، وغاية ما أرجو، واجهني به أنا وأصحابي هنا، وعندئذ لن نحتاج إلى برهان جديد».

وقال المستر نبكنز: «ولِمَ لا؟ إن هذا أمر سهل جدًّا، فسيأتي إلى هنا الليلة، فلا تبقى ثمة فرصة لكشف الأمر أمام الناس، مراعاة على الأقل لذلك الشاب. وأحب أن أستشير السيدة نبكنز في مدى وجاهة هذا التصرف قبل أن نفعل شيئًا. وعلى كل حال يا مستر بكوك لا بد لنا من صرف هذه القضية قبل أن نقدم على أي عمل، فتفضل بنا إلى القاعة المجاورة».

وذهبا إلى القاعة.

وصاح العمدة بصوت مروع: «جرمر».

وأجاب هذا بابتسامة رجل يعتقد أنه موضع حظوة لدى العمدة واحتساب: «نعم يا سيدي».

وقال العمدة عابسًا: «دع عنك هذا يا سيدي، ولا ترني هذا الاستخفاف منك هنا؛ لأنه تصرف غير لائق مطلقًا، وإني أؤكد لك أن لا شيء يدعوك إلى الابتسام.. هل الأقوال التي أبديتها هنا منذ لحظة صحيحة تمامًا؟ الآن احتط فيما تقول ولا تتسرع يا سيدي».

وقال جرمر متلعثمًا: «إنني يا سيدي..».

وصاح العمدة به: «أنت مرتبك، ألست مرتبكًا؟ يا مستر جنكس.. ألا ترى هذا الارتباك البادي عليه؟».

وأجاب جنكس: «بلا شك يا سيدي».

وقال العمدة: «والآن أعد أقوالك يا جرمر، وأعود فأحذرك مرة أخرى أن تحتاط. يا مستر جنكس اكتب ما هو قائل».

وأخذ جرمر المسكين في سرد شكواه من جديد، ولكن بين تأثير مشهد المستر جنكس وهو يقيد كل حرف، ويسجل كل كلمة، وبين ترديد العمدة لكل لفظة تخرج من فمه، لم تلبث نزعته الطبيعية إلى الشرود وارتباكه المتناهي، أن جعلاه يتورط بعد ثلاث دقائق في كلام متناقض، وقول معقَّد، إلى حد دفع بالمستر نبكنز إلى مصارحته بأنه لا يصدق ما قال، ولا يسلم بصحة شهادته، ويضطره إلى إلغاء الحكم بالغرامات التي نطق بها من قبل بها، ولم يستغرق المستر جنكس وقتًا في الاهتداء إلى

الكفالة المحكوم بها على المستر بكوك وصاحبه، وبعد أن انتهت كل تلك الإجراءات الجدية على ما يرام، أمر العمدة بإخراج المستر جرمر من القاعة، فكان ذلك مثلًا من الأمثال على أن العظمة البشرية لا تستقر على حال، وأن الحظوة لدى العظماء لا تدوم».

وكانت السيدة نبكنز امرأة ذات جلال، تضع فوق رأسها عمامة ذات لون وردي من «الشاش» وضفائر بنية اللون غير قاتمة من الشعر المستعار، وكانت الآنسة نبكنز تشبه أمها في كل كبريائها وزهوها، إلا العمامة، وتحكيها في كل طبيعتها الخشنة، إلا الضفيرة، ولئن جرت هاتان الصفتان البديعتان الأمَّ والفتاةَ إلى الوقوع في ورطات سيئة- كما كان يحدث غالبًا- فلا تزالان متفقتين دائمًا في إلقاء اللائمة على عاتق المستر نبكنز، فلا عجب حين قصد المستر نبكنز إلى زوجته وقص عليها الرواية التي سمعها من المستر بكوك، إذا هي تذكرت فجأة أنها كانت تتوقع دائمًا حدوث شيء من هذا القبيل، وأنها كانت أبدًا تقول إن ذلك سوف يقع حتمًا، وإن نصيحتها لم يؤخذ بها مطلقًا، وإنها لا تعرف حقًّا ماذا يظن المستر بكوك بها، وأي رأي يراه فيها، وكلامًا طويلًا من هذا النوع ونحوه.

وانثنت الآنسة نبكنز وهى ترغم دمعة صغيرة على الظهور في ركني عينيها: «تصوري أيضًا كيف خدعت وكيف استغفلت استغفالًا!».

وأجابت أمها قائلة: «آه.. اشكري بابا يا عزيزتي. لكم توسلت ورجوت هذا الرجل أن يسأل عن هذا الضابط وروابطه «العائلية»، وكم ألححت وتضرعت إليه أن يتخذ خطوة قاطعة، وإجراء إيجابيًّا. إنني

واثقة أن أحدًا لن يصدق كلامي هذا مطلقًا».

وقال المستر نبكنز: «ولكن يا عزيزتي...».

وقالت امرأته: «ليس لك كلام معي. أيها المستخف بالأمور حتى تتفاقم، لا تكلمني».

وقال المستر نبكنز: «يا حبيبتي، أنت بنفسك اعترفت بميلك وولوعك بالضابط فتز- مارشال، وأنت التي لم تكفي عن دعوته إلى بيتنا يا عزيزتي، ولم تدعي فرصة تسنح إلا انتهزتيها لتقديمه إلى الناس في بيوتهم».

وصاحت السيدة نبكنز لاجئة إلى ابنتها في صورة المرأة التي أُسيء كثيرًا إليها: «ألم أقل ذلك يا هنرييتا؟ ألم أقل إن «بابا» سينقلب على عقبيه ويلقي بكل اللائمة على عتبتي أنا؟ ألم أقل ذلك؟».

وأجهشت بالبكاء.

وصاحت ابنتها محتجة: «أوه... با...».

وانتحبت هي الأخرى.

وعادت مسز نبكنز تقول باكية: «هذا كثير! كثير جدًّا، أن يكون هو الذي جلب كل هذا العار والشنار علينا، ثم يجرحني بزعمه أنني أنا السبب».

وقالت ابنتها: «كيف يمكننا الظهور في المجتمع؟».

وصاحت أمها: «وكيف يمكن أن نرى وجوهنا لآل بوركنهام؟».

وتبعتها ابنتها قائلة: «وآل جريجز».

وقالت مسز نبكنز: « أو لـ «آل سلمنتوكنز»؟».

ولكن: «ماذا يهم بابا. وما شأنه هو».

وعند هذه الذكرى المروعة راحت مسز نبكنز تبكي بحرقة نفسية، وتبعتها ابنتها بكاء ونحيبًا.

وكذلك ظلت عَبرات السيدة نبكنز متدفقة، حتى اتسع لها الوقت للتفكير في الأمر، وتقليب وجوه الرأي فيه، والقطع بأن الوسيلة المثلى هي دعوة المستر بكوك وأصحابه إلى البقاء لديهم حتى يأتي الضابط وعندئذٍ يُعطى المستر بكوك الفرصة التي يطلبها، فإذا تبين أنه قد قال حقًّا، تيسر طرد الضابط من البيت في هدوء حتى لا ينتشر النبأ بين الناس، ومن السهل عليهم عندئذٍ تعليل اختفائه عند آل بوركنهام بأنه قد عُيِّنَ بفضل نفوذ أهله في البلاط حاكمًا عامًّا في مستعمرة «سيراليوني» أو «سوجور بوبنت» أو أي منطقة من تلك المناطق الطيبة الهواء التي تفتن ألباب الأوروبيين بسحرها، فإذا نزلوا يومًا بها وأقاموا، فقلما يتسنى لهم إقناع أنفسهم بالعودة منها.

ولما كفكفت السيدة نبكنز عبراتها، وجففت ابنتها دموعها، وأبدى المستر نبكنز ارتياحه لتسوية المسألة كما اقترحت زوجته، وانتهى المستر بكوك وأصحابه من إزالة كل أثر لما حدث لهم، قدموا إلى السيدتين، وما لبثوا أن دُعوا إلى تناول الغداء، وأما المستر ويلر الذي اكتشف العمدة بذكائه الغريب وفطانته الثاقبة، في نصف ساعة، أنه من أظرف الأحياء؛

فقد سُلِّمَ إلى المستر مزل ليوليه عنايته، ويكرم مثواه.

وقال المستر مزل للمستر ويلر وهو يتقدمه إلى السلم المؤدي إلى المطبخ: «كيف أنت يا سيدي؟».

وأجاب سام: «لم تتغير حالي كثيرًا مذ رأيتك واقفًا خلف مقعد مولاك في القاعة منذ لحظة قصيرة».

وقال المستر مزل: «اعذرني إذا لم أتنبه إليك كثيرًا في ذلك الوقت؛ لأن سيدي كما ترى لم يعرفنا بعضنا ببعض، بالله كم هو مولع بك يا مستر ويلر. تأكد أنه يحبك كثيرًا».

وقال سام: «آه.. إنه شخص لطيف».

وأجاب مزل: «أليس هو كذلك حقًّا؟».

وقال سام: «وابن نكتة».

وقال مزل: «وفياض في الكلام. انظر كيف تتدفق الآراء منه، وتفيض الأفكار. ما رأيك؟».

وأجاب سام: «بديع. إنها لتتدفق، ويضرب بعضها رؤوس بعضها الآخر بسرعة شديدة، حتى ليخيل إليك أنها تتضارب ويغمي عليها، فلا يعرف الإنسان ماذا يريد أن يقول... بالله عليك هل تفهم منها شيئًا؟».

وقال المستر مزل: «هذه هي أكبر مزية لأسلوبه في الكلام. تنبه إلى الدرجة الأخيرة من السلم يا مستر ويلر. هل تحب أن تغسل يديك يا سيدي قبل أن تجلس إلى السيدات؟ هذا هو حوض فيه ماء يا سيدي، وفوطة نظيفة مُعَلقة خلف الباب».

وقال المستر ويلر، وهو يضع قدرًا كبيرًا من صابون أصفر في الفوطة: «يحسن بي أن أنظف نفسي» وراح يحك بالصابون وجهه حتى عاد يبرق، وهو يقول: «كم سيدة عندكم؟».

وأجاب المستر مزل: «اثنتان فقط في مطبخنا: الطاهية والوصيفة، وعندنا صبي يشتغل مساعدًا، وبنت تعاونه، ولكنهما يأكلان في غرفة الغسيل».

وقال المستر ويلر: «آه، يأكلان في غرفة الغسيل، هل تقول جدًّا؟».

وأجاب المستر مزل: «نعم، لقد جربنا أكلهما معنا على المائدة حين قدما للعمل في البيت، ولكننا لم نستطع أن نبقيهما معنا؛ لأن تصرفات البنت سوقية بشكل بشع، والغلام يتنفس بصعوبة شديدة وهو يأكل، حتى وجدنا أنه من المستحيل علينا أن نجلس معه إلى مائدة واحدة».

وقال المستر ويلر: «يا له من درفيل صغير».

واسترسل المستر مزل يقول: «مرعب! ولكن هذا هو أسوأ ما في خدمة الريف يا مستر ويلر. الصغار دائمًا متوحشون. من هنا يا سيدي. من فضلك. الطريق من هنا».

وتقدم المستر مزل بسام في أدب بالغ إلى المطبخ، وقال: «يا ماري» مناديًا الخادمة المليحة: «هذا هو المستر ويلر، سيد أرسله مولانا لإكرامه ما استطعنا».

وقال المستر ويلر، وهو ينظر نظرة إعجاب إليها: «وإن سيدكم لفهيم ذكي، عرف كيف يرسلني إلى مكان طيب، ولو كنت رب هذا البيت لوجدت كل أسباب الراحة متوافرة حيث تكون ماري».

وقالت ماري بخجل: «يا له من كلام، يا مستر ويلر!».

وهنا تكلمت الطاهية فقالت: «أما أنا فلا أجدها أبدًا».

وبادر المستر مزل يقول: «يا للداهية! لقد نسيتك. يا مستر ويلر دعني أعرفك بها».

وقال المستر ويلر: «كيف أنت يا سيدتي؟ إنني لفي سرور شديد لرؤيتك، وأرجو أن تكون معرفتي بك طويلة الأمد، كما قال أحدهم لورقة من فئة الخمسة الجنيهات».

ولما انتهت حفلة التعارف على هذه الصورة، توارت ماري والطاهية في الغرفة الخلفية من المطبخ لتضحكا ملء أشداقهما، وعادتا بعد عشر دقائق باسمتين خجلاوين، فجلستا إلى المائدة.

وكان لظروف المستر ويلر وسماحة أخلاقه وبراعة حديثه أثر لا يقاوم في نفوس أصحابه الجدد، فلم تلبث الألفة أن سادت الجميع، وتوثقت بينهم المودة، وعرفوا تفاصيل جرائم جوب تروتر ودقائق قصته.

وقالت ماري: «لا أطيق أبدًا هذا الجوب».

وأجاب المستر ويلر: «ولا يصح لك أن تطيقيه يومًا ما يا عزيزتي».

وسألته ماري قائلة: «ولِمَ لا؟».

وأجاب المستر ويلر: «لأن القبح والنصب لا يأتلفان والرشاقة والفضيلة أبدًا. أليس كذلك يا مستر مزل؟».

وأجاب هذا السيد: «مطلقًا».

وهنا ضحكت ماري، وقالت إن الطاهية هي التي جعلتها كذلك،

وضحكت الطاهية قائلة إنها لم تفعل.

وقالت ماري: «ليست لي كأس».

وقال المستر ويلر: «اشربي معي يا عزيزتي، ضعي شفتيك على حافة كأسي، فتكون قبلتي لك بالواسطة».

وقالت ماري: «عيب يا مستر ويلر».

قال: «ما هو العيب يا عزيزتي؟».

قالت: «الكلام بهذه الطريقة».

قال: «كلام فارغ. هذا شيء لا بأس منه، إنه الطبيعة، أليس كذلك يا طاهية؟».

وأجابت الطاهية، وهي في سرور شديد: «لا تسألني في كلام معيب».

وضحكت ماري والطاهية مرة أخرى، وما لبثت البيرة واللحم البارد، والضحك المقترن بهما أن جعلت الطاهية توشك على الاختناق، فكانت أزمة مزعجة لم تزل عنها إلا بخبطات رفيقة على ظهرها، ومحاولات أخرى ضرورية تولَّى المستر صمويل ويلر بذلها بمنتهى الدقة واللطف.

وفي وسط هذا المرح والقصف سمعوا جرس الباب الخارجي يدق عاليًا، فبلدر الغلام الذي يتناول طعامه في غرفة الغسيل إلى الذهاب لفتحه، وكان المستر ويلر في أوج غزله وتلطفاته للخادمة الحسناء، والمستر مزل منشغلًا بإعطاء الطعام حقه من الإنصاف والاهتمام، بينما كفت عنه الطاهية لحظة لتضحك، وهي ترفع قطعة كبيرة من الطعام إلى

شفتيها، وإذا باب المطبخ يفتح ويدخل منه المستر جوب تروتر.

وقد قلنا «يدخل» ولكن هذا التعبير يغاير ما ألفناه من الدقة في التزام الحقيقة، ووصف الواقع، والصحيح أن الباب فُتح، وأن المستر جوب تروتر بدا لديه، وكان سيدخل، بل همّ فعلًا بالدخول، لولا أن لمح المستر ويلر، فتراجع مرغمًا خطوة أو خطوتين ووقف يرمق هذا المشهد القائم حياله، ولم يكن يتوقعه مطلقًا، وجمد في مكانه تمامًا، من فرط الذهول والرعب.

ونهض سام وهو في أشد الفرح قائلًا: «ها هو ذا. لقد كنا في سيرتك اللحظة بالذات، كيف الحال؟ وأين كنت؟ تعال، ادخل».

وألقى يده على طوق جوب التوتي وهو لا يحاول مقاومته، وجرَّه إلى المطبخ وأغلق الباب، وسلم المفتاح إلى المستر مزل، فأخذه بكل هدوء ووضعه في أحد جيوبه الجانبية وأحكم الزرار عليه.

وصاح سام: «هذه لعبة بحق. تصور أن سيدي سيحظى بلقاء سيدك في الطابق الأعلى، وتصور سروري الشديد بلقائك في الطابق الأسفل. كيف أحوالك، وكيف حالة البقالة التي تنوي فتحها. أنعم بك وأكرم! إنني لفي فرح بالغ برؤيتك. إنك تبدو سعيدًا راضيًا. إن مقابلتنا هنا لحظ جميل. أليس كذلك يا مستر مزل؟».

وقال هذا: «إنه لكذلك».

وقال سام: «انظر كيف هو مشرق متهلل!».

وقال مزل: «ومنشرح النفس كل الانشراح».

وقال سام: «لأنه حظى بمقابلتنا، فإن اجتماعنا يجعله مبتهجًا كل الابتهاج. اجلس، اجلس».

واضطر المستر تروتر إلى الجلوس في مقعد بجانب المدفأة، وألقى نظرة من عينيه الضيقتين على وجه المستر ويلر أولًا، ثم على المستر مزل ثانيًا ولم يقل شيئًا.

وقال سام: «والآن أمام هاتين السيدتين أحب أن أسألك، من باب الفضول، ألا تعد نفسك لطيفًا مهذبًا كأي شاب بديع، يضع منديلًا ورديًا في جيب ردائه؟».

وقالت الطاهية بغضب: «كمن يريد الزواج بطاهية، آه، يا مجرم!».

وقالت الوصيفة في أثرها: «ويترك ماضيه السيئ ويفتح بقالة بعد ذلك».

وقال المستر مزل، بلهجة جد شديد، وغيظ من العبارتين الأخيرتين: «والآن اسمع أيها الشاب هذا الذي سأقوله لك، إن هذه السيدة- مشيرًا إلى الطاهية- هي صديقتي أنا، وحين تتكلم يا سيدي عن عزمك على الإتجار بالبقالة معها، تجرحني في أدق النقط التي يجرح فيها الرجل رجلًا آخر. هل فهمتني يا سيدي؟».

وسكت المستر مزل مرتقبًا الجواب، في اعتزاز ببلاغته التي يقلد فيها سيده.

ولكن المستر تروتر لم يحر جوابًا.

وعندئذ استرسل المستر مزل يقول بجد ظاهر: «من الجائز جدًّا

يا سيدي أنك لن تدعى إلى الطبقة العليا من البيت قبل عدة دقائق؛ لأن سيدي منشغل في هذه اللحظة خاصة بعقاب سيدك وقطع دابره، فالوقت إذن متسع لخلوة بيني وبينك وكلام خاص. هل فهمتني يا سيدي؟».

وسكت المستر مزل ثانية ليرتقب ردًّا، ولكن المستر تروتر خيب ظنه.

فمضى يقول: «حسن، إنني لشديد الأسف لاضطراري إلى الكلام أمام السيدتين وشرح قصدي، ولكن عذري أن المسالة عاجلة لا تسمح بالتأجيل. إن غرفة المطبخ الخلفية خالية ليس فيها أحد يا سيدي، فإذا تكرمت بدخولها يا سيدي، وليكن المستر ويلر شاهدنا، واستطعنا أن نرضي كرامتنا، قبل أن يدق الجرس. فاتبعني يا سيدي».

وما إن فاه المستر مزل بهذه الكلمات، حتى خطا خطوة أو خطوتين صوب الباب، وبدأ لكسب الوقت يخلع سترته وهو متقدم إلى الغرفة الأخرى.

ولكن الطاهية لم تكد تسمع هذه الألفاظ، وتدرك معنى التحدي الشديد الذي تنطوي عليه، وتشهد المستر مزل يهم بالتنفيذ، حتى أطلقت صرخة مدوية واندفعت نحو المستر جوب تروتر، فنهض من مقعده في الحال، وانقضت هي عليه تخدش وتقطع وجهه الضخم المسطوح بأظافرها بتلك النوبة التي تنتاب النساء إذا غضبن وخرجن عن طورهن، ومضت تغيب يديها في شعره الأسود الطويل، وتقتلع منه شعرات غزارًا تكفي لتكوين عدة خواتيم حداد، وما إن أتمت هذه الفعلة بتلك الحمية التي أوحى بها حبها الصادق للمستر مزل، حتى تراجعت

خطوات فسقطت فوق الطنف، وهي مغمى عليها، من رقة إحساسها، وسرعة تأثرها وهياج عاطفتها.

وفي تلك اللحظة دق الجرس.

وقال سام: «هذا الجرس لك يا جوب تروتر». وقبل أن يتمكن هذا من الاحتجاج أو الرد، بل قبل أن يتسع له الوقت لوقف النزيف من جروحه التي أحدثتها السيدة الغضبى في معالم سحنته، أمسك سام بإحدى ذراعيه وتناول مزل الأخرى، وجره أحدهما من أمام، ودفعه الآخر من خلف، فاحتملاه إلى مدارج السلم وساقا به إلى قاعة الجلوس.

وكانت صورتهم على هذا النحو «لوحة» مؤثرة كل التأثير، وكان السيد المحترم الفرد جنجل، الشهير بالضابط فتز- مارشال، واقفًا بقرب الباب، حاملًا قبعته بيده، وعلى وجهه ابتسامة، وهو هادئ لم يتأثر إطلاقًا بحرج موقفه، وكان المستر بكوك واقفًا قبالته، والظاهر أنه كان يلقي عليه درسًا في الأخلاق ومكارمها؛ لأن يده اليسرى كانت تحت ذيل ردائه، واليمنى مبسوطة أمامه في الفضاء، كديدنه حين ينطلق في خطبة مؤثرة. وعلى قيد خطوات منه وقف المستر طبمن، والغضب بادٍ على وجهه، كلما همَّ بالوثوب على غريمه أمسكه صديقاه الآخران، وهما حريصان على منعه، بينما وقف في أقصى القاعة المستر نبكنز وزوجته وابنته في جلال يشوبه اكتئاب، وغيظ شديد لا يستطيعون مغالبته.

وقال المستر نبكنز في وقار وجلال، حين سيق بجوب إلى القاعة: «ما الذي يمنعني من احتجاز هذين الرجلين بوصفهما مجرمين أفاقين؟ إنها الرحمة البلهاء. ما الذي يمنعني؟».

وأجاب جنجل وهو هادئ: «الكبرياء أيها الشيخ، الكبرياء، لا فائدة من الاحتجاز، لقد قبضنا على الضابط، آه، ها، ها، حسن جدًّا، كان سيصبح زوجًا للابنة. هل نفضح أنفسنا أمام الناس؟ هذا مستحيل، لنبدوا بُلَهًا مغفلين جدًّا!».

وقالت مسز نبكنز: «أيها الوغد، إننا لنسخر من تلميحاتك الحقيرة هذه».

وأضافت هنرييتا قائلة: «لقد كنت أبدًا أمقته!».

وقال جنجل: «طبعًا، شاب ممشوق القد، حبيب قديم، سدني بروكنهام! غني، جميل، وإن لم يكن في مثل غنى الضابط، أبعدوه. أنقذوني منه. لا أحد أحسن من الضابط! لا إنسان مثل الضابط في كل مكان، وكل البنات به مجنونات! آه يا جوب؟».

وهنا ضحك جنجل ملء فمه، وراح جوب يفرك يديه من الفرح، وانطلق أول صوت خرج من فمه منذ دخل البيت، وكان ذلك الصوت ضحكة خافتة توحي بأنه يجد لذة بالغة في ضحكته تلك، حتى لا يريد أن يترك لها صوتًا مسموعًا، لينفرد هو بلذتها.

وقالت الأم: «يا مستر نبكنز، إن هذا الحديث لا يصح أمام الخدم ليسمعوه، أخرج هذين الوغدين من هنا».

وقال المستر نبكنز: «بلا شك يا عزيزتي. يا مزل!».

- «نعم يا سيدي».

- «افتح الباب الخارجي».

- «نعم يا سيدي».

وقال المستر نبكنز، وهو يلوح بيده تلويحة قاطعة: «اخرج من البيت».

وابتسم جنجل ومشى إلى الباب.

وصاح المستر بكوك به: «قف».

ووقف جنجل..

وقال المستر بكوك: «كان في إمكاني أن أجعل ثأري منك أشد من هذا بكثير، لقاء ما عانيته على يديك، وعلى يدي صاحبك المنافق هذا».

وانحنى جوب تروتر بكل أدب ووضع يده على قلبه.

وعاد المستر بكوك يقول، وقد بدأ الغضب يتملكه رويدًا: «أقول كان في إمكاني أن أجعل ثأري أشد وأقسى، ولكني مكتفٍ بفضح سرك، وكشف حقيقتك للناس؛ لأنني أعد ذلك واجبًا عليَّ نحو المجتمع. إن هذه لسماحة يا سيدي أرجو أن تتذكرها».

وعندما وصل المستر بكوك إلى هذه النقطة، رفع جوب تروتر يده إلى أذنه بجد يشوبه الهزل، كأنما لا يريد أن تفوته كلمة واحدة من قول المستر بكوك.

ومضى هذا قائلًا، وقد تملكه الغضب فعلًا: «وليس عندي ما أضيفه يا سيدي إلا أن أقول لك إنك مجرم، وشقي، وشر من رأيت من خلق الله أو سمعت خلا هذا التقي الورع المتشرد في ثوبه التوتي اللون».

وضحك جنجل قائلًا: «ها، ها، رجل طيب بكوك. قلب كريم.

شيخ بدين! ولكن لا ينبغي لك أن تستسلم للغضب والاحتداد. شيء غير مستحب جدًّا. وداعًا. سأراك يومًا ما، خل عنك، عد إلى مرحك. والآن جوب. تروت»[1].

وراح المستر جنجل بعد هذه الكلمات يحشر قبعته في رأسه على عادته، وانصرف من الحجرة بينما تمهل جوب تروتر وأجال البصر حوله، وابتسم ثم انحنى بجد مزيج بسخرية للمستر بكوك، وغمز بعينه لمستر ويلر، في مكر الجريء الذي يحير كل وصف، وانطلق في أثر سيده المؤمل أبدًا الذي لا يعروه يأس».

وقال المستر بكوك، حين رأى المستر ويلر ينصرف خلفه: «سام!».

- «سيدي».

- «ابق هنا».

وبدا المستر ويلر مترددًا.

وعاد المستر بكوك يكرر الأمر.

وقال المستر ويلر: «ألا تسمح لي بتوديع جوب وتنفيض فروته في الحديقة؟».

وأجاب المستر بكوك: «كلا، قطعًا».

قال: «أو أركله عند الباب يا سيدي على الأقل؟».

وأجابه سيده: «كلا، إطلاقًا».

---

(١) ديكنز يلعب هنا بلفظة «تروتر» ومعناها في الإنجليزية «الذي يسير خببًا» وفعلها «تروت» أي «سر خببًا» أو انطلق.

وبدا المستر ويلر لأول مرة منذ دخل في خدمة سيده مستاءً متألمًا لحظة ما، ولكن لم يلبث أن تهللت أساريره؛ لأن المستر مزل الماكر، كان قد اختبأ خلف الباب الخارجي، ثم اندفع في اللحظة المناسبة ببراعة فائقة وأخذ في وجهه كلًّا من المستر جنجل وخادمه، وهما ينزلان السلم، فسقطا فوق حوضي «الصبار» القائمين في أسفله.

وانثنى المستر بكوك، فقال مخاطبًا المستر نبكنز: «والآن يا سيدي وقد أديت واجبي، أودعك أنا وأصحابي، شاكرين لك حسن ضيافتك لنا، واسمح لي عن نفسي، وبالنيابة عن صحبي أن أؤكد لك أننا ما قبلنا دعوتك، ولا رضينا أن نخرج على هذه الصورة من المأزق الذي وجدنا أنفسنا فيه، لولا شعورنا بالواجب واحترامًا له. ونحن عائدون إلى لندن غدًا. فاطمئن إلى سرك عندنا، إنه في الحفظ والصون».

وهكذا! انحنى المستر بكوك بأدب بالغ للسيدتين، بعد أن سجل احتجاجه على المعاملة التي لقوها في الصباح، وغادر الحجرة مع أصدقائه، رغم تشدُّد الأسرة في رجائهم البقاء.

وقال المستر بكوك: «أحضر قبعتك يا سام».

وأجاب سام: «إنها في الطابق الأسفل يا سيدي».

وانطلق لإحضارها.

ولم يكن أحد في المطبخ غير الخادمة الحسناء، وكانت قبعة سام قد اختفت في مكان ما، فاضطر إلى البحث عنها، وجاءت المليحة بالمصباح لتنير له المكان وتعاونه، فراحا يبحثان وينقبان، وفي لهفتها على الاهتداء إليها، جثت على ركبتيها، ومضت تقلب كل الأشياء المتراكمة في ركن

صغير بجانب الباب، وكان هذا الركن محرجًا؛ لأنك لا تستطيع الوصول إليه إلا إذا أوصدت الباب أولًا.

وصاحت المليحة قائلة: «ها هي ذي! ها هي ذي، أليست هذه؟».

قال: «دعيني أنظر إليها».

فوضعت الحسناء الشمعة على أرض الغرفة، وكان ضوؤها بصيصًا لا يكاد يضيء، فاضطر سام إلى الزحف على ركبتيه ليتبين هل هي حقًّا أو لا، وكان ذلك الركن ضيقًا، فلم يكن الذنب على أحد غير البنَّاء الذي شيَّد ذلك البيت في التصاق سام بالجارية الحسناء بحكم الضرورة وضيق المكان.

وقال سام: «هي قبعتي بلا شك. وداعًا إذن».

قالت: «وداعًا».

وفيما كان يقول الوداع، سقطت القبعة من يده بعد كل ذلك العناء الذي لقياه في الاهتداء إليها.

قالت: «ما أغرب تصرفاتك. إنك ستفقدها مرة أخرى، إذا لم تحرص عليها».

ولكي تمنعه من إضاعتها، وقفت تضعها فوق رأسه.

ولا يزال الشك قائمًا إلى اليوم هل بدا وجه تلك الخادمة المليحة أملح وأفتن حين رفعته نحو وجهه، أو كان مجرد نتيجة عرضية لتقاربهما وتلاصقهما، ولكن الثابت أنه قبَّلها.

وقالت المليحة: «أظنك لا تعني أن تقول إنك فعلت هذا قاصدًا».

قال: «كلا! لم أقصد، ولكن سأقصد الآن».

وقبلها مرة أخرى.

وسمع صوت سيده ينادي من السلم: «يا سام!».

واندفع يصعد المدارج قائلًا: «نعم. أنا آت يا سيدي».

وقال سيده: «لقد أطلت الغياب».

قال: «لقد كان شيء خلف الباب يا سيدي منعنا من فتحه مدة طويلة».

وكانت هذه هي المرحلة الأولى التي اجتازها المستر ويلر إلى أول عهده بالحب.

* * *

# الفصل السادس والعشرون

## وصف موجز لما جرى في قضية باردل ضد بكوك

وكذلك بعد أن تم للمستر بكوك تحقيق هدفه الأكبر، بفضح جنجل، وكشف ستره، اعتزم البدار إلى العودة إلى لندن؛ ليعرف مدى الإجراءات التي اتَّخذها ضده في تلك الفترة المحاميان ددسن وفج، وتنفيذًا لهذا العزم بكل النشاط والحزم المعروفين عنه، صعد إلى المقعد الخلفي في أول مركبة غادرت إبسويتش في صبيحة اليوم التالي للحوادث التي فصَّلناها في الفصلين السابقين، فوصل هو وأصحابه الثلاثة، والمستر صمويل ويلر تابعه إلى العاصمة في صحة تامة وأمان في مساء اليوم ذاته.

وهنا تفرَّق الصحاب إلى حين، فذهب ثلاثتهم إلى بيوتهم؛ ليعدوا العدة المطلوبة لزيارتهم القادمة لمزرعة دنجلي ديل، واتخذ المستر بكوك وَسام مسكنًا مؤقتًا لهما في حي قديم، وفندق مريح، ونعني به فندق «جورج وحانة الرخم» في جورج يارد بشارع لومبارد.

وتناول المستر بكوك العشاء، وانتهى من الزجاجة الثانية من النبيذ الأثير لديه، وأرخى منديله الحريري فوق رأسه، ومد ساقيه إلى سياج الموقدة، واستلقى في مقعد رحيب، ولم ينتبه من غفوته إلا على دخول المستر ويلر يحمل حقيبته المصنوعة من القماش.

قال: «سام!».

وأجاب هذا: «سيدي».

قال: «لقد دار بخلدي الساعة يا سام أنني تركت عدة أشياء عند السيدة باردل في شارع جوزول، فينبغي أن أتدبر أمر استردادها قبل أن أغادر المدينة مرة أخرى».

وأجاب المستر ويلر: «لا بأس، شيء جميل!».

واستلقى المستر بكوك يقول: «ويمكن أن أرسل هذه الأمتعة إلى بيت المستر طبمن لتبقى عنده حتى حين، ولكن يتعين البحث عنها وجمعها وحزمها، وأود منك أن تذهب يا سام إلى شارع «جوزول» وتؤدي هذا العمل بنفسك».

وسأل المستر ويلر: «هل تريد مني أن أذهب في الحال يا سيدي؟».

وقال سيده: «نعم في الحال. ولكن انتظر يا سام- وراح يخرج كيس نقوده- إن عليَّ لها أجرة لا بد من أدائها، ولكن هذا الأجر لا يستحق إلا في عيد الميلاد، ولكن هذا لا يهم، فأده إليها، لننتهي منه، ولا بد قبل انتهاء العقد من شهر إنذار، فها هو ذا الإنذار مكتوب، فأعطها إياه، وقل لها أن تكتب إيصالًا، في أي وقت تشاء».

وقال المستر ويلر: «جميل جدًّا يا سيدي. هل من شيء آخر؟».

- «لا شيء غير هذا يا سام».

ومشى المستر ويلر ببطء إلى الباب كأنما يتوقع شيئًا آخر، وفتحه برفق كذلك، وخرج منه ببطء أيضًا، وأغلقه بكل تؤدة تاركًا فتحة صغيرة، وإذا المستر بكوك ينادي: «سام!».

قال وهو يعود أدراجه مسرعًا ويغلق الباب وراءه: «نعم يا سيدي».

قال: «لا مانع عندي يا سام من أن تحاول التثبت من شعور السيدة باردل ذاتها نحوي، وهل من المرجح فعلًا أن هذه القضية الباطلة الجائرة ستستمر إلى النهاية. أقول إنني لا أمانع في هذا، إذا رغبت أنت فيه يا سام، وراقك أن تفعله».

وأومأ سام إيماءة قصيرة توحي بأنه قد فهم المراد ووعاه، وانصرف.

ووضع المستر بكوك منديله الحريري مرة أخرى فوق رأسه، وتهيأ للإغفاء. وبادر المستر ويلر من ساعته إلى تأدية المهمة التي وكلت إليه.

وكانت الساعة قد قاربت التاسعة حين وصل إلى شارع جوزول، فلمح شمعتين تضيئان في الغرفة الصغيرة المطلة على الباب، وعلى زجاج النافذة قد انعكست صورة قبعتين، فأدرك أن عند السيدة باردل ضيوفًا.

ودق الباب، وبعد فترة طويلة، قضاها الواقف خارج الباب في الصفير ببعض النغمات، واستغرقها في الداخل إنسان يحاول جاهدًا إضاءة شمعة تأبى أن تضيء، وإذا مواقع حذاء صغير فوق البساط تتقدم

إلى الباب، وإذا باردل الصغير يظهر أمام مستر ويلر.

وقال هذا: «أهلًا يا نطاط! كيف حال أمك؟».

وأجاب باردل الصغير: «في أتم الخير، وأنا أيضًا».

وقال سام: «هذه مرحمة. قل لها إنني أريد أن أكلمها أيها الصبي الفذ بين الصبيان».

ووضع باردل الصغير الشمعة على أول درجة من السلم وتوارى منصرفًا إلى الحجرة يحمل رسالته.

وكانت القبعتان اللتان انعكست صورتهما على ستار النافذة قبعتي صديقتين للسيدة باردل جاءتا منذ لحظة؛ لتتناولا فنجانًا من الشاي في جلسة هادئة وعشاءً بسيطًا شهيًّا من البطاطس وقليلٍ من الجبن المحمر.

وكان الجبن يجبش ويحمر ويطش طشًّا بهيجًا مفرحًا في فرن «هولندي» صغير أمام النار، وقطع البطاطس تنضج في مقلاة صغيرة من القصدير على جانب الموقدة، في منظر شهي للطاعمين. كما كانت السيدة باردل وصاحبتاها ناعمات بحديث ممتع هادئ، عن صواحبهن ومعارفهن، حين أقبل باردل الصغير من الاستجابة إلى جرس الباب، ليؤدي الرسالة التي حملها من قبل المستر صمويل ويلر.

وقالت السيدة باردل، وقد ارتد وجهها شاحبًا: «خادم المستر بكوك!».

وقالت السيدة كلبنز: «يا عجبًا!».

وقالت السيدة ساندرز: «ما كنت في الحقيقة مصدقة لو لم أكن

حاضرة الساعة!».

وكانت السيدة كلبنز امرأة نحيلة خفيفة جمة النشاط، وكانت السيدة ساندرز بدينة متخمة ثقيلة الوجه.

وشعرت السيدة باردل بأنه من الكياسة أن تتراءى مرتبكة مضطربة، ولم تكن الثلاث يعرفن على اليقين هل ينبغي في هذه الظروف أن يكون الاتصال بخادم المستر بكوك من طريق المحاميين ددسن وفج، ولا بأس من الاتصال المباشر به، فلا غرو إذا جاء هذا النبأ مفاجئًا لهن، وكان أول شيء يُفعل طبعًا في هذا التردد الذي استولى عليهن، هو ضرب الغلام؛ لأنه وجد المستر ويلر بالباب، فضربته أمه ولكزته فراح يصرخ بأنغام وألحان شجية.

وصاحت به أمه قائلة: «اخرس أيها المخلوق الشرير!».

وقالت السيدة ساندرز: «نعم، لا تزعج أمك المسكينة».

وقالت السيدة كلبنز باستسلام ورثاء: «كفاها همًّا فلا تزدها أنت همومًا».

وقالت السيدة ساندرز: «آه! ما أسوأه من حظ أيها الحمل المسكين!».

وكان باردل الصغير يزداد صراخًا على هذه الأقوال والكلمات الراثية المواسية.

والتفتت السيدة باردل إلى صديقتها السيدة كلبنز قائلة: «والآن ماذا أفعل؟».

وأجابت السيدة كلبنز قائلة: «من رأيي أنا أنه يجب أن تقابليه، ولكن لا يمكن أن يتم ذلك مهما يكن الأمر، إلا بحضور شاهد».

وقالت السيدة ساندرز، وكانت هي الأخرى في أشد اللهفة والفضول لمعرفة جلية الأمر: «ومن رأيي أنا أن حضور شاهدين أكثر تطبيقًا للقانون».

وقالت السيدة باردل: «أظنه أنه يحسن أن يأتي إلى هنا».

وأجابت السيدة كلبنز في لهفة متشبثة بهذه الفكرة: «بلا شك. ادخل أيها الشاب، وأغلق باب الشارع أولًا من فضلك».

وبادر المستر ويلر إلى تنفيذ الطلب، ودخل حجرة الجلوس، وأخذ يشرح مهمته للسيدة باردل قائلًا: «إنني آسف كثيرًا على إحداث أي إزعاج شخصي لك يا سيدتي، كما قال اللص الذي تسلل إلى البيت للسيدة العجوز عندما ألقاها فوق النار، ولكن الواقع أنني وسيدي لم نعد إلى المدينة إلا منذ لحظة، ونحن مسافران بعد قليل، فلا مفر من حضوري كما ترين ولا حيلة».

وقالت السيدة كلبنز وقد أعجبها شكل المستر ويلر وكلامه: «إن الشاب لا حيلة له في أغلاط سيده ولا ذنب بالطبع».

وتبعتها السيدة ساندرز قائلة: «بلا شك».

وكان يبدو من نظراتها المتلهفة إلى المقلاة الصغيرة أنها في شغل شاغل بتقدير ما فيها من البطاطس، إذا دُعِيَ سام إلى البقاء لتناول العشاء.

واسترسل سام غير ملق بالًا إلى هذه المقاطعة: «وكل ما أتيت من

أجله هو هذا: أولًا أقدم إنذارًا من سيدي، وها هو ذا. وثانيًا أن أدفع الأجرة، وها هي ذي. وثالثًا أن أجمع كل الأشياء التي تركها هنا وأتركها لكي تُعْطَى لأي رسول نرسله لأخذها. ورابعًا أن أبلغك أن تؤجري المحل في أقرب وقت تشائين. هذا هو كل ما في الأمر».

وقالت السيدة باردل: «لقد طالما قلت من قبل ولا أزال أقول، على الرغم مما حدث، إن المستر بكوك تصرف في كل شيء إلا شيئًا واحدًا، تصرفات سيد مهذب تمامًا، وإن النقود لديه كأنها في المصرف سواء بسواء».

وأدنت منديلها وهي تقول ذلك من عينيها، وانصرفت من الحجرة لتأتي بالإيصال.

وأدرك سام حقَّ الإدراكِ أنه من المتعين عليه أن يظل هادئًا، وأن هاتين المرأتين ستتكلمان حتمًا، فراح ينظر تارة إلى المقلاة والجبن المحمر، وتارة أخرى إلى الجدار والسقف، وهو في صمت شديد.

وأنشأت السيدة كلبنز تقول: «مسكينة حقًّا».

وأجابتها السيدة ساندرز: «مسكينة هي!».

ولم يقل سام شيئًا، فقد تبين له أنهما ستدخلان في الموضوع.

وعادت السيدة كلبنز تقول: «إنني في الواقع لا أتمالك نفسي من الغضب كلما فكرت في هذه الخيانة، ولست أريد أن أقول شيئًا يؤلمك أيها الشاب، ولكن الواقع أن سيدك حيوان بهيم، وكنت أحب أن أراه هنا لأقول ذلك له».

وقال سام: «ليت هذا حدث».

ومضت السيدة كلبنز وهي ترنو إلى المقلاة والفرن الهولندي: «وحتى يرى بعينيه كيف تعيش في شدة الحزن، ولا تجد في شيء سلوة، إلا حين تزورها صواحبها، لمجرد العطف والرثاء، ليجلسن معها ويواسينها.. شيء فظيع!».

وقالت السيدة ساندرز في أثرها: «وحشي!».

واستتلت السيدة كلبنز قائلة: «وسيدك أيها الشاب، سيد ذو مال لا تضنيه النفقة على زوجة، ولا على شيء آخر، ليس له ولا ظل عذر يشفع لتصرفه. لماذا لا يتزوجها؟».

وقال سام: «آه! هذا هو السؤال».

وأجابته السيدة كلبنز: «فعلًا، هذا هو السؤال الذي كان يجب أن توجهه إليه إذا كانت لديها جرأتي ونفسيتي، ولكن هناك القانون يحمينا نحن النساء، ما دام الرجال يفعلون بنا ما يشاءون، وسوف يعلم ذلك سيدك أيها الشاب، وسيؤدي نفقات هذا العلم، قبل أن يزداد عمره ستة أشهر».

وعند هذه الفكرة المواسية، سكتت السيدة كلبنز وابتسمت للسيدة ساندرز، فردت هذه عليها بابتسامة مماثلة.

وقال سام في نفسه: «القضية سائرة إذن دون شك».

وفي تلك اللحظة عادت السيدة باردل تحمل الإيصال.

قالت: «ها هو ذا الإيصال وباقي النقود، وأرجو أن تتناول شيئًا من

الشراب يدفع البرد عنك، ولو على ذكر المعرفة القديمة يا مستر ويلر».

ورأى المستر ويلر الفرصة مواتية فَرَضِي في الحال واستجاب، ومضت السيدة باردل فأخرجت من غرفة صغيرة زجاجة سوداء اللون وقدحًا من الأقداح التي يشرب فيها النبيذ، وكانت شاردة البال، مستغرقة في تفكيرها الأليم، حتى لقد ملأت القدح للمستر ويلر، وعادت فجاءت بثلاثة أقداح أخرى فملأتها كذلك.

وقالت السيدة كلبنز: «انظري يا سيدة باردل ماذا فعلت؟».

وقالت السيدة ساندرز: «لا بأس! لا بأس!».

وصاحت السيدة باردل، وهي تبتسم ابتسامة باهتة: «آه! أين عقلي.. يظهر أنه طار!».

وفهم سام ذلك كله طبعًا، فقال في الحال إنه لا يمكن أن يشرب أبدًا قبل العشاء إلا إذا شربت سيدة معه.

واشترك الجمع في ضحك مستطيل، وتطوعت السيدة ساندرز لمفاكهته فتناولت رشفة قليلة من كأسها، وعندئذٍ اقترح سام أن يفعل الجميع ذلك، فتناولوا رشفة قليلة من كؤوسهم، وانثنت السيدة كلبنز تقترح شرب نخب نجاح قضية باردل ضد بكوك، فأفرغت النسوة كؤوسهن في أجوافهن؛ تعبيرًا عن شعورهن، ولم يلبثن أن دخلن في ثرثرة بالغة.

وقالت السيدة باردل: «أظنك قد سمعت بما جرى يا مستر ويلر؟».

وأجاب سام قائلًا: «سمعت شيئًا وغابت عني أشياء».

ومضت السيدة باردل تقول: «إنه لجد أليم يا مستر ويلر أن يجرر الإنسان على هذه الصورة أمام الناس، ولكني أدركت الآن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي ينبغي أن أفعله، وقد أنبأني محامياي المستر ددسن والمستر فج أننا حتمًا سننجح من أقوال الشهود الذين سنطلب سماعهم، ولست أدري يا مستر ويلر ماذا أنا فاعلة إذا لم يجر الأمر على هذه الصورة».

وتأثرت السيدة ساندرز بمجرد تصور خسارة السيدة باردل لقضيتها، إلى حد اضطرها الى ملء كأسها واجتراعها في الحال، وقالت بعد ذلك: إنها لو لم يسعفها حضور ذهنها فتبادر إلى شرب كأسها لخيل إليها أنها ستسقط مغشيًّا عليها.

وقال سام: «ومتى ينتظر أن تعرض القضية؟».

وأجابت السيدة باردل: «في شهر فبراير أو مارس».

وقالت السيدة كلبنز: «ما أكثر عدد الشهود الذين سيحضرون! أليس كذلك؟».

وتبعتها السيدة ساندرز قائلة: «آه! يا لكثرتهم!».

واستتلت الأخرى تقول: «أولن يكون ددسن وفج في هياج وحنق شديدين إذا لم تكسب المدعية قضيتها، وهما قد أخذاها جزافًا، على المكسب والخسارة؟».

وقالت السيدة ساندرز: «ألا يكونان كذلك حقًّا؟».

وعادت السيدة كلبنز تقول: «ولكنها ستكسبها حتمًا».

وقالت السيدة باردل: «ليت ذلك يحدث!».

وتبعتها السيدة ساندرز قائلة: «لا شك في ذلك».

وهنا نهض سام ووضع الكأس وهو يقول: «والآن كل ما في إمكاني أن أقوله هو إنني أتمنى لك أن تكسبيها».

وأجابت السيدة باردل بحرارة: «شكرًا لك يا مستر ويلر».

ومضى سام يقول: «وأما عن دسسن وفج اللذين يتناولان القضايا التي من هذا النوع على سبيل الكسب والخسارة، كما يفعل الآخرون، والنوع الآخر من أصحاب المكارم في المهنة ذاتها الذين يمسكون الناس من آذانهم، لوجه الله وبلا مقابل، ويرسلون كتبتهم للبحث عن منازعات صغيرة بين جيرانهم ومعارفهم ممن يريدون فضها من طريق القضايا، فكل ما في إمكاني أن أقول عنهم إنني أود أن ينالوا الجزاء الذي يستحقونه عندي».

وقالت السيدة باردل في سرور: «آه! أود أن ينالوا الجزاء الذي يود كل ذي قلب رؤوف كريم أن ينالوه».

وأجاب سام: «آمين! وإن شاء الله! ليتخموا ويشبعوا، ويجمعوا الأموال الطائلة. طاب ليلكن يا سيدات».

وحمدت السيدة ساندرز الله على أن مضيفتهما أذنت لسام في الانصراف دون أن تدعوه إلى الاشتراك في البطاطس والجبن المحمر، فلم يكد يخرج حتى أقبل ثلاثتهن، وباردل الصغير بكل ما في وسعه من المساعدة التي تتيسر للغلام المنهوم بالطعام، على تأدية ما للبطاطس

والجبن من حق عليهم، فلم يلبث هذان الصنفان أن تواريا إزاء جهودهم البالغة.

وانطلق المستر ويلر عائدًا إلى الفندق، فنقل إلى سيده الحديث بأمانة، وكل ما استطاع أن يلتقطه من الكلام في زيارته للسيدة باردل عن أساليب ددسن وفج الخادعة الماكرة في تناول القضايا.

وجاء الحديث الذي دار بين المستر بكوك والمستر بركر المحامي في اليوم التالي، فكان أكثر من مؤيد لما قاله المستر ويلر ورواه، فبادر المستر بكوك في إعداد العدة لزيارة مزرعة «دنجلي ديل» في عيد الميلاد، مؤملًا فرج الله بعد شهرين أو ثلاثة أشهر، حين يحل موعد نظر قضية التعويض المرفوعة عليه بدعوى الإخلال بتعهده بالزواج، وهي القضية التي توافرت فيها للمدعية كل ما يمكن أن يتوافر من المزايا، لا من قوة الظروف ومنطقها فحسب، بل أيضًا من أساليب ددسن وفج، ووسائلهما الخادعة الماكرة.

* * *

# الفصل السابع والعشرون

## عن زيارة المستر ويلر لامرأة أبيه في دوركنج

وكان قد بقي يومان على الموعد الذي تم الاتفاق عليه بين المستر بكوك وصحبه للرحيل إلى «دنجلي ديل»، فجلس المستر ويلر في غرفة خلفية بفندق «جورج والرخم» يفكر بعد تناول عشاء مبكر، في أحسن الوسائل لقضاء الوقت، وكان اليوم صافيًا بديعًا، فلم تنقضِ عشر دقائق في تقليب وجوه الرأي في هذا الأمر حتى أحسَّ فجأة حنينًا إلى والده، شوقًا زائدًا إلى لقائه، ورؤية امرأة أبيه، وكان هذا الشعور قويًّا مباغتًا، تركه في دهشة من هذا النسيان الطويل للتفكير في تأدية هذا الواجب المقدس للوالدين، وشعر برغبة شديدة إلى التكفير عن هذا العقوق بغير إبطاء، فنهض لتوِّه من مجلسه فصعد السلم إلى غرفة المستر بكوك، والتمس الإذن له في الغياب لتحقيق هذه الغاية المحمودة.

وقال المستر بكوك حين عرف مراده، وبرقت عيناه سرورًا لهذا الشعور البنوي الكريم الذي تملك خادمه: «بلا شك، يا سام، بلا شك».

وانحنى المستر ويلر شاكرًا.

وقال المستر بكوك: «إنه ليسرني كل السرور أن يكون لديك هذا الشعور بالواجب نحو أبيك يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «إن هذا الشعور عندي من زمان بعيد يا سيدي».

وقال المستر بكوك معجبًا: «هذا إحساس كريم جدًّا يا سام».

وأجاب سام قائلًا: «جدًّا يا سيدي، فكلما أردت شيئًا من والدي، طلبته إليه بكل احترام وأدب، فإذا لم يجبني إليه، أخذت منه، خوفًا من أن أندفع إلى إتيان عمل سيئ؛ لأنني لم آخذه. وبهذه الطريقة يا سيدي وفرت عليه متاعب كثيرة».

وقال المستر بكوك وهو يهز رأسه ويبتسم ابتسامة خفيفة: «ليس هذا ما أعنيه تمامًا يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «هذا شعور كرم كله يا سيدي وحسن قصد، وسلامة نية، كما قال أحدهم حين هرب من زوجته؛ لأنها لم تكن سعيدة في حياتها معه».

وقال المستر بكوك: «لك أن تذهب».

وأجاب المستر ويلر: «شكرًا لك يا سيدي».

وانحنى أحسن ما استطاع الانحناء، وذهب فارتدى أحسن ما لديه من الثياب، واتخذ مجلسه فوق سطح المركبة الحافلة الشاخصة إلى «دوركنج».

وكانت حانة «مركيز جرانبي» على عهد السيدة ويلر - امرأة أبيه - نموذج حانة على جانب الطريق العام من الطراز الممتاز، أوتيت من السعة ما يكفي لراحة الرواد، ومن الضيق بحيث يكفي لأن تبدو دفئة، وقد علقت على العدوة الأخرى من الطريق «لافتة» كبيرة فوق عمود طويل تمثل رأس سيد وكتفيه، وفيها يبدو وجهه مصابًا «بالفالج»، ويرتدي سترة حمراء ذات ظهارة زرقاء قاتمة، وقبعة مثلثة الأركان من فوقها فراغ صافي الزرقة يمثل صورة السماء، ومن فوق هذه السماء أيضًا علمان، وتحت آخر زرار في السترة مدفعان ... كل ذلك تصوير معبِّر بلا شك عن شكل مركيز جرانبي الذي خلدت الدنيا ذكره على السنين.

وتبدو في واجهة مكان الشراب مجموعة مختارة من نبات إبرة الراعي وصف نظيف خالٍ من الغبار يتألف من قنينات الكحول، وعلى مصاريع النوافذ نقوش ذهبية مختلفة، تنوه بما يحوي المحل من سرر طيبة، وأشربة وأنبذة نظيفة، وقد جلس نخبة مختارة من القرويين وأصحاب المركبات والخيول حول باب مربط الخيل ومسقى الجياد، فكان مشهدهم على تلك الصورة برهانًا ظاهرًا على جودة الجعة والأشربة التي تباع في الحانة.

ووقف سام ويلر عند نزوله من المركبة؛ ليتأمل كل هذه الأدلة والشواهد على رواج المحل ونجاحه، بعين الجوالة المجرِّب الذي حنكته كثرة الأسفار.

وما كاد ينتهي من هذه الملاحظات حتى دخل الحانة في الحال، راضيًا كل الرضا عمَّا لاحظه، مغتبطًا كل الاغتباط بما رآه.

وقالت امرأة ذات صوت صافر في اللحظة التي ظهر رأسه فيها لدى الباب: «ماذا تريد أيها الشاب؟».

نظر سام حوله في ذلك الاتِّجاه الذي انبعث هذا الصوت منه، فتبين له أنه صادر من سيدة تميل إلى البدانة وتلوح عليها سمات الرفاهة، وهي جالسة بجانب الموقدة في مكان الشراب تنفخ في النار لتغلي الشاي، ولم تكن وحدها؛ فقد جلس على الجانب الآخر من الموقدة رجل مستوي القامة في مقعد مرتفع المسند، يرتدي ثيابًا سودًا رثة، وظهره يكاد يشبه المقعد في طول ظهره وتخشبه، فلم يكد سام يراه حتى اجتذب أنظاره، وأثار اهتمامه.

وكان الرجل جامد السحنة، أحمر الأنف، طويل الوجه ناحله، وله عينان كأعين الأفاعي، حادتان وإن كانتا قطعًا شريرتين، وقد ارتدى سروالًا قصيرًا وجوربًا أسود من القطن، باليين رثين كسائر ثيابه، وكانت نظراته «منشاة»، ولكن قميصه كان يعوزه «النشاء»، فبدت حواشيه الطوال تصطرع فوق صداره المزرر في صورة أبعد ما تكون من النظافة، وأخلى ما تكون من الرونق، وقد وضح بجانبه قفازًا عتيقًا باليًا من جلد القندس، وقبعة عريضة الحاشية، ومظلة خضراء ناحلة اللون، لصقت بقاعها كمية غزيرة من عظام الحوت، لتتوازن مع جزئها الأعلى الخالي من المقبض، وهى موضوعة في شكل مستقر يوحى بأن الرجل ذا الأنف الأحمر أيًا كان هو لا ينوي الانصراف مسرعًا.

ولكي ننصف ذلك الرجل الأحمر الأنف نقول: إنه لو أن نية كهذه قامت في خاطره، لكان أبعد الناس وأخلاهم من الفطانة والحكمة؛ لأن

كل الظواهر تدل على أنه إذا توقع بحق أن يجد في مكان آخر راحة أوفر أسبابًا ممَّا هو واجد في تلك الحانة فلا بد أن يكون لديه حلقة بديعة من المعارف، وكانت النار تتأجج وتتوهج، من أثر المنفاخ الذي ينفخ به فيها؛ لتزداد اشتعالًا، بينما راح الإبريق يغني فرحًا من أثرهما معًا- النار والمنفاخ- وقد صُفَّتْ أواني الشاي فوق صينية صغيرة على المائدة وصحفة من الخبز الساخن المدهون بالزبد تنضج بقرب النار، بينما كان الرجل ذو الأنف الأحمر نفسه منهمكًا في تحويل قطعة كبيرة من الخبز الطري إلى خبز محمر من النوع ذاته، مستعينًا بشوكة تحمير طويلة من النحاس، وبجانبه كأس من الروم الساخن المستخلص من «الأناناس» والممزوج بالماء، وفي جوفه قطعة من الليمون، وكلما تمهل الرجل ذو الأنف الأحمر ليقرب الرغيف المستدير من عينه؛ ليستوثق من نضجه على النار، رشف رشفة أو رشفتين من الروم، وابتسم للسيدة البدينة وهي تنفخ في النار.

وكان سام مستغرق الذهن في تأمل هذا المشهد الممتع، فلم يرع للسؤال الأول الذي وجهته إليه السيدة البدينة وتركه يمر بلا جواب، فكررته مرة أخرى وفي كل مرة بصوت أكثر صفيرًا، حتى أحس أخيرًا أن تصرفه هذا غير لائق، فأجاب قائلًا: «هل المعلم هنا؟».

فأجابت السيدة ويلر- لأن تلك السيدة البدينة لم تكن سوى أرملة المرحوم كلارك ووريثته الوحيدة التي آلت إليها تركته: «كلا، ليس هنا، ولست أنتظر عودته أيضًا».

وقال سام: «أحسبه يسوق المركبة، اليوم».

وأجابت السيدة ويلر: «يجوز، ولا يجوز، من يدري».

وانثنت عنه لتضع الزبد على الرغيف المحمر الذي انتهى الرجل الأحمر الأنف من تحميره، ثم واصلت قولها: «لا أعرف، بل أكثر من ذلك، لا يهمني، قل بسم الله يا مستر ستيجنز!».

واستجاب الرجل الأحمر الأنف لما طلبت وأقبل على الخبز المحمر يلتهمه التهام المفترس.

وكان ظهور هذا الرجل قد حمل سام لأول وهلة على شيء أكثر من مجرد الاشتباه في أنه لا بد من أن يكون نائب «الراعي» الذي حدثه والده المحترم عنه؛ لأنه لم يكد يراه وهو يأكل حتى زال كل شك أو شبهة من نفسه، وبدا له في الحال أنه إذا أراد أن يتخذ له مقامًا إلى حين في تلك الحانة، فليثبت قدمه في الموضع بلا إبطاء، وبدأ الإجراءات اللازمة لتحقيق هذه الغاية بإلقاء ذراعه على باب الحانة ففتحه بكل هدوء ودخل بكل رفق غير مكترث ولا حافل.

قال: «يا امرأة أبي، كيف الأحوال؟».

وقالت السيدة ويلر، وهي ترفع عينيها إلى وجهه، غير مبدية سرورًا ظاهرًا بمحضره: «أعتقد أنه من آل ويلر».

وقال سام وهو لا يزال متشبثًا بهدوئه: «أظن ذلك، وأرجو أن يعذرني هذا السيد المحترم. إنني أتمنى لو أكون ويلر الذي يمتلكك يا امرأة أبي!».

وكانت هذه العبارة تحية ذات خزنتين كبعض أنواع البنادق، أو

تحمل معنيين، أولهما: أن السيدة ويلر امرأة جميلة محببة. والآخر: أن المستر ستيجنز كان عليه مظهر رجال الدين. وقد أحدثت كلمته في الحال أثرًا ظاهرًا، واستغل سام الفرصة فراح يقبل امرأة أبيه.

ودفعته السيدة ويلر عنها وهي تقول: «ابعد عني».

وقال الرجل ذو الأنف الأحمر: «عيب يا فتى!».

وأجاب سام قائلًا: «لا مؤاخذة يا سيدي. لا مؤاخذة، لك حق، ولكن لا ضير ولا بأس، حين تكون زوجات الآباء شابات جميلات الوجوه يا سيدي. أليس كذلك؟».

وقال المستر ستيجنز: «ذلك كله غرور».

وقالت السيدة ويلر وهي تصلح قبعتها: «هو كذلك».

وكان رأي سام كذلك أيضًا، ولكنه أمسك عن الكلام.

وبدا على «نائب الراعي» أنه لم يرتح لقدوم سام، وعندما هدأت الفورة الأولى التي أحدثتها تلك التحية، بدا على السيدة ويلر أيضًا أنها كانت تتمنى التخلص منه دون أن يؤثر ذلك في نفسها إطلاقًا، ولما كان طرده أو صرفه بالإكراه أمر لا يليق، فلا حيلة إذن في الصبر عليه. وهكذا جلس الثلاثة لتناول الشاي.

وقال سام: «وكيف حال والدي؟».

ورفعت السيدة ويلر يديها عند سماع هذا السؤال، وصعَّدت بصرها تصعيدًا، كأنها ترى السؤال مؤلمًا أو لا يسرها فتح الكلام فيه.

وتبرّم المستر ستيجنز وزام.

وقال سام: «ما قصة هذا السيد وما سبب تذمره؟».

وأجابت السيدة ويلر: «إنه مشمئز من تصرف أبيك وسلوكه».

وقال سام: «أهو حقًّا؟».

وقالت السيدة ويلر بجد: «وله حق».

وتناول المستر ستيجنز قطعة أخرى من الخبز المحمر بالزبد وراح يزمجر.

وقالت السيدة ويلر: «إنه لمذنب أثيم».

وصاح المستر ستيجنز: «رجل شر وغضب»، وتناول قضمة كبيرة شبه مستديرة من الخبز، وعاد يزفر مرة أخرى.

وأحس سام رغبة قوية تتنازعه في إعطاء المستر ستيجنز شيئًا يستحق أن يئن منه ويزفر، ولكنه كبت رغبته، واكتفى بقوله: «وما الذي يفعله والدنا الآن؟ ماذا وراءه؟».

وقالت السيدة ويلر: «أتسألني ما الذي يفعله؟ إن له قلبًا غليظًا قاسيًا. إن هذا الرجل البديع- لا تعبس، يا مستر ستيجنز، إني أكرر قولي إنك رجل بديع- يأتي ليلة بعد ليلة، فيجلس هنا ساعات طويلة، فلا يحدث ذلك أدنى تأثير فيه».

وقال سام: «هذا غريب فعلًا، لو كنت أنا في مركزه لأحدث ذلك تأثيرًا كبيرًا في نفسي، أنا عارف هذا».

وقال المستر ستيجنز بلهجة جد بالغ: «الواقع يا صديقي الشاب أنه قد أوتي قلبًا متحجرًا، أوه، يا صديقي الشاب، من كان يستطيع أن يقاوم

توسلات ست عشرة من إخواننا، ويرفض نداءاتهن إلى وجوب الاكتتاب لجمعيتنا السامية الأهداف، حتى يتيسر لها أن تمد أطفال الزنوج في جزر الهند الغربية بالصديريات الصوف ومناديل اليد المرشدة؟».

وقال سام: «وما هي المناديل المرشدة؟ لم أر في حياتي شيئًا كهذه المناديل التي تتحدث عنها».

وأجاب المستر ستيجنز: «إنها مناديل تجمع بين المتعة والمنفعة يا صديقي الشاب، كما تقرن القصص المختارة بالصور والرسوم التي تساعد على فهمها».

وقال سام: «آه، فهمت، كالتي يعلقها بائعو الخردوات على دكاكينهم مع عرائض المتسولين ودعواتهم وما أشبه ذلك».

وبدأ المستر ستيجنز الرغيف الثالث وهو يهزه رأسه هزة الموافقة.

وقال سام: «لا يقتنع بكلام السيدات، أحقًا لا يقتنع؟».

وقالت السيدة ويلر: «كلا، بل يجلس ويدخن في قصبته ويقول إن الأطفال الزنوج هم- ماذا يقول عنهم- هل تذكر؟».

وقال المستر ستيجنز: «نصابون صغار».

ومضت السيدة ويلر تقول: «وهكذا يسميهم».

وراحت هي والمستر ستيجنز يزفران ويئنَّان من تصرفاته المتكررة.

وكان من المحتمل أن يسترسلا في سرد مزيد من هذه التصرفات وأشباهها، لولا أن الخبز المحمر كان قد أتى عليه كله، والشاي أمسى ضعيفًا لا يُشرب، وسام لا يبدي بوادر توحي بقرب انصرافه، وعندئذٍ

تذكر المستر ستيجنز فجأة أن لديه موعدًا عاجلًا جدًّا مع الراعي فغادر المكان على الأثر.

وما كادت أواني الشاي تُرفع، والمجلس حول الموقدة ينظف، حتى وقفت المركبة القادمة من لندن ونزل منها المستر ويلر أمام الباب، وساقته قدماه إلى مكان الشراب وأرته عيناه ولده.

وصاح الوالد: «من أرى؟ سامي!».

وصاح الولد: «من أشهد؟ والدنا المحترم!».

وتصافحا بحرارة وحماسة.

وقال المستر ويلر الكبير: «إن سروري لشديد برؤيتك يا سامي، وإن كانت معرفتك كيف تسلك مع امرأة أبيك سرًّا لا أعرفه، وكل ما أريده منك أن تكتب لي وصف الطريقة لكي أسير عليها. هذا كل ما أطلبه».

وقال سام: «صه إنها هنا يا شيخ!».

وأجاب المستر ويلر: «إنها ليست قريبة منا حتى تسمع؛ لأن من عادتها أن تذهب إلى الطابق الأسفل فتمكث ساعتين بعد الشاي في لعن وسخط، فهي إذن فرصة أمامنا يا سامي لأستمتع فيها بشرب كأسين».

وراح يمزج قدحين من الشراب بالماء، ويخرج قصبتي تدخين، وجلس الأب والابن على مقعدين متقابلين، واتخذ سام المقعد العالي المسند على جانب الموقدة واقتعد المستر ويلر الكرسي الآخر، مستلقيًا فيه كابنه، وشرعا يستمتعان بالشراب والتدخين بكل الوقار الواجب لمجلسهما.

وقال الأب لابنه بفتور بعد صمت مستطيل: «هل كان أحد هنا يا سامي؟».

فهز سام رأسه هزة إيجاب.

وعاد المستر ويلر يسأل: «الشخص الأحمر الأنف؟».

وهز سام رأسه مرة أخرى.

وشد المستر ويلر أنفاسًا قوية من القصبة وهو يقول: «رجل ظريف، أليس كذلك يا سامي؟».

وقال سام: «يلوح أنه كذلك».

وقال المستر ويلر: «وبارع في الحساب».

وقال سام: «أهو حقًّا؟».

وأجاب الوالد قائلًا: «يقترض منك ثمانية عشر بنسًا يوم الإثنين، ويأتي يوم الثلاثاء يطلب شلنًا ليكون مجموع السلفة نصف «كراون»، ثم يزورك يوم الأربعاء طالبًا «نصف كراون»، حتى تكون الجملة خمسة شلنات، وهكذا يضاعف الرقم حتى يصل به إلى خمسة جنيهات في وقت قصير، كالأرقام التي في كتاب الحساب عن المسامير التي في حذاء الحصان تمامًا يا سامي».

وهز سام رأسه إشارة إلى أنه قد تذكر المسألة الحسابية التي عناها والده.

وعاد سام بعد فترة انشغال بالتدخين مرة أخرى فقال: «أحقًّا إنك لا تريد أن تكتتب لشراء الصديريات الصوف؟».

وأجاب المستر ويلر: «طبعًا. ما فائدة الصديريات الصوف لأولئك الصغار في الخارج؟».

وراح يغض من صوته قائلًا، وهو ينحني إلى الأمام ليسمعه: «هل تريد أن تعرف حقيقة رأيي في هذا الموضوع، أنا لا أتردد في التبرع بسخاء لشراء «صديريات» لبعض قومنا هنا في بلادنا».

وما كاد ينتهي من هذا القول حتى عاد إلى جلسته الأولى، وغمز بعينه إلى ولده البكر غمزة بليغة المدلول.

وقال سام: «الحقيقة إن هذا العمل غريب، إرسال مناديل يد إلى أناس لا يعرفون كيف يستخدمونها، شيء عجيب حقًّا!».

وأجابه الوالد قائلًا: «إنهم لا يكفون أبدًا عن هذا الدجل وأشباهه، ففي يوم الأحد الماضي كنت سائرًا في الطريق، فمن تتصور أنني شاهدت؟ لا أحد غير امرأة أبيك واقفة بباب كنيسة صغيرة ممسكة بوعاء حساء، أزرق اللون، وأعتقد جازمًا أن فيه نقودًا يبلغ مجموعها جنيهين، وكلها من أنصاف البنسات وكلما خرج الناس من الكنيسة ألقوا بنساتهم فيها موسوسة مجلجلة، حتى ليخيل إليك أن البشر لم يستطيعوا يومًا صنع طبق كهذا يقوى على حمل هذه النقود ووسوستها المستمرة، فماذا تظن سر هذه التبرعات، ولمن تحسبها تُجمع؟».

وقال سام: «يمكن لإقامة حفلة شاي أخرى كالتي سمعت عنها منك».

وأجاب الوالد: «أبدًا، ولكن لدفع حساب المياه المطلوب من

الراعي يا سام».

وقال سام مبهوتًا: «حساب المياه!».

وأجاب المستر ويلر: «إي والله. لقد طُولب الراعي بحساب ثلاثة شهور لم يوفها، بل لم يوف منها درهمًا واحدًا. وهل مثله يوفي بما عليه؟ أو ربما لأن الماء لا نفع له منه؛ لأنه لا يشرب من الصنبور إلا قليلًا يا سامي، إنه يعرف لعبة تساوي ستة أمثال أجرة المياه، ولهذا لم يؤدِّ الثمن وقطع الماء عنه، وذهب الراعي إلى الكنيسة وقال لمريديه: إنه مظلوم مضطهد كما ظُلِمَ القديسون من قبله واضطُهدوا، وإنه يرجو أن يلين قلب الذي قطع عنه الماء، فيدير المحبس في الاتجاه الآخر فيفتحه، ولكنه يعتقد أن القوم يأتمرون به، ويريدون مضايقته واضطهاده، فلا تلبث النساء أن تنادي بوجوب عقد اجتماع، فيجتمعن ويرتلن التراتيل وينتخبن امرأة أبيك رئيسة، فتتطوع لجمع التبرعات في يوم الأحد التالي، وتسلم النقود كلها للراعي، وإذا لم يحصل منها يا سامي على ما يجعله خالصًا من حساب شركة المياه طول العمر، فأنا فاسد وأنت فاسد آخر... وعلى الدنيا السلام».

ولبث المستر ويلر يدخن بضع دقائق في صمت، ثم مضى قائلًا: «إن المصيبة أن هؤلاء الرعاة يا ولدي يؤثرون في أدمغة النساء ويتلفون عقولهن، وهن من طيبة قلوبهن يتصورن أنهم على حق ولا يعرفن الحقيقة. إنهن يا صمويل ضحايا الدجل، إي والله ضحايا الدجل».

وقال سام: «أظنهن كذلك».

ومضى المستر ويلر يقول وهو يهز رأسه بجد: «نعم ولا شيء سواه. وكل ما يحزنني يا صمويل أن أراهن يضيعن أوقاتهن ومجهودهن في صنع ملابس لأناس من ذوي الألوان النحاسية لا يحتاجون إليها، ولا يأبهن بأبناء المسيحية ومساكينها البيض مثلهن، ولو استطعت يا صمويل أن أفعل ما بدا لي لربطت بعض هؤلاء الرعاة الكسالى خلف مركبة ثقيلة من مركبات النقل، وجعلتهم يجرون بها رواحًا وغدوًّا طول اليوم، حتى يخرج هذا الكلام الفارغ من أدمغتهم، لو أن ذلك كان ميسورًا».

وما إن فرغ المستر ويلر من شرح هذ الطريقة البديعة بكل قوة وتوكيد، مع ما يناسبها من الإيماءات بالرأس، والغمزات بالعين، حتى ارتشف الكأس مرة واحدة ونفض الرماد من الصبة، بكل رزانة ووقار.

وإذا صوت صافر ينبعث من جانب الردهة.

فقال المستر ويلر: «هذا صوت قريبتك العزيزة يا سامي».

ودخلت السيدة ويلر الحجرة مسرعة.

قالت: «لقد عدت إذن».

قال: «نعم، يا عزيزتي».

وملأ قصبة أخرى.

قالت: «وهل رجع المستر ستيجنز؟».

قال: «كلا يا عزيزتي، لم يرجع».

ومضى يشعل التبغ بطريقة بارعة، وهي أن يمسك بملقط النار جذوة ويدنيها من القصبة، ويقول: «وأكثر من ذلك يا عزيزتي أنني سأحاول

إحياء النار إذا لم يرجع أبدًا».

وقالت السيدة ويلر: «وي أيها الخبيث».

قال: «شكرًا، يا حبيبتي».

وقال سام: «كفى، لا ضرورة لهذا الغزل أمام الغرباء. ها هو ذا السيد المحترم قد جاء».

وهنا أسرعت السيدة ويلر فكفكفت الدموع التي كانت قد همت بإذرافها إكراهًا، وبادر المستر ويلر إلى تقريب مقعده من الركن عابسًا مقطِّبًا.

ونوشد المستر ستيجنز أن يتناول كأسًا أخرى من الروم، وما كان بحاجة إلى مناشدة، ثم ثانية، فثالثة، وإنعاش نفسه بعشاء خفيف، قبل المعاودة من جديد.

وكان يجلس على الجانب الذي جلس عنده المستر ويلر، فجعل هذا كلما استطاع- في خفية عن امرأته- يبث ولده أشجانه، ويكشف عمَّا يُكِنُّه في أعماق صدره، بهز قبضة يده فوق رأس «نائب الراعي»، فكانت هذه الحركة مدعاة فرح بالغ وارتياح متناه لنفس ولده، وبخاصة كلما رأى المستر ستيجنز مستمرًا في اجتراع كؤوس الروم تباعًا، وهو لا يدري مما يدور قريبًا منه شيئًا.

وكان أكثر الحديث مقصورًا على مسز ويلر والأب ستيجنز، والموضوعات لا تتعدى في الغالب الإشادة بفضائل الراعي، وصلاح قطيعه، وذنوب الآخرين وآثامهم المنكرة، وهو حديث جعل المستر

ويلر الكبير بين لحظة وأخرى يقاطعه بكلمات وإشارات خفيفة إلى سيد يدعى «ووكر» وتعليقات أخرى سائرة وتعقيبات عابرة من هذا القبيل.

وأخيرًا تناول المستر ستيجنز قبعته، واستأذن، بعد أن ظهرت عليه من الأعراض الواضحة ما يدل على أنه قد تناول كل ما في إمكان بطنه أن يتناول من الروم الممزوج بالماء ولم يلبث المستر ويلر أن مشى بولده إلى فراشه؛ ليريه موضعه، وراح الأب الفاضل يهز يده بحماسة بالغة وقد بدا عليه الانبعاث إلى توجيه بعض الملاحظات إليه، ولكنه رأى مسز ويلر تتقدم نحوه فعدل عن نيته واكتفى بأن حياه في اقتضاب تحية المساء.

وبكر سام في النهوض من فراشه صباح اليوم التالي فتناول فطورًا عاجلًا واستعد للعودة إلى لندن، وما كادت قدمه تحمله خارج البيت، حتى وجد أباه واقفًا حياله.

وقال المستر ويلر: «أذاهب أنت يا سامي؟».

وأجاب قائلًا: «في الحال».

قال: «لوددت لو أنك كممت هذا «الاستيجنز» وأخذته معك».

وقال سام معاتبًا: «إنني مستنكر تصرفك. لماذا تسمح له أن يدخل بأنفه الأحمر في حانة مركيز جرنبي؟».

وأطال المستر ويلر النظر إلى ولده ثم أجاب قائلًا: «لأنني رجل متزوج يا صمويل، لأنني رجل متزوج، ويوم تصبح كذلك يا صمويل ستفهم أشياء كثيرة لا تفهمها الآن، ولكن البحث في مدى الفائدة من معاناة الكثير، لمجرد فهم القليل، كما قال الصبي الذي تصدقوا عليه

بالتعليم، عندما وصل إلى نهاية ألف باء، مسألة تختلف فيها الأذواق، وإن كان رأيي أنا أنها لا تستأهل كل ذلك العناء».

وقال سام: «حسن، وداعًا».

وأجاب المستر ويلر: «أهكذا يا سامي؟».

ووقف سام عن المسير قائلًا: «ليس عندي ما أقوله إلا هذا: لو كنت أنا صاحب حانة مركيز جرانبي وجاء ستيجنز هذا، فحمر خبزًا في محل البار الذي أملكه لـــ.....».

وقاطعه المستر ويلر بلهفة بالغة: «لـــ... ماذا؟».

قال: «لوضعت له السم في الروم والماء».

وهز المستر ويلر يد ابنه بحرارة وهو يقول: «كلا، أحقًّا تفعل يا صمويل؟ أحقًّا؟».

وقال سام: نعم. وإن كنت في أول الأمر لا أشتد في القسوة عليه، بل أكتفي عندئذ بإسقاطه في حوض الماء ووضع الغطاء عليه، فإذا رأيت أنه لا يقدر معنى الكرم والعطف والبر به، جربت الطريقة الأخرى التي قلت لك عنها».

وعندئذٍ ألقى المستر ويلر الكبير نظرة إعجاب بالغ لا تعبر الألفاظ عنه، على ولده، وعاد يتناول يده، وينصرف في بطء، مقلبًا في خاطره عديد الأفكار التي أثارتها نصيحة ابنه في نفسه.

وأرسل سام نظرة في أثر أبيه، حتى رآه ينعطف نحو ركن في الطريق، فانطلق في سبيله، وجعل يفكر أولًا فيما قد تؤدي إليه نصيحته لأبيه من

العواقب، ومبلغ رجحان الأخذ بها، أو بعد احتماله، ولكنه ما لبث أن طرد هذا الموضوع من خاطره متعزيًا بفكرة واحدة، وهي أن الزمن وحده هو الذي سيرينا ما سوف يحدث، وتلك هي الفكرة التي نلح على القارئ في قبولها.

* * *

# الفصل الثامن والعشرون

**فصل فكه عن عيد الميلاد، يصف حفلة عرس، وبعض ضروب أخرى من اللهو، لا تقل من حيث العادات الحسنة والتقاليد الطيبة عن الزواج روعة وشأناً، ولكنها لم تعد مرعية من الناحية الدينية في هذا الزمن الذي تدهورت فيه الأخلاق**

في مثل نشاط النحل، إن لم نقل في مثل خفة الجنيَّات، اجتمع البكوكيون الأربعة، في صبيحة الثاني والعشرين من شهر ديسمبر من العام الذي حدثت فيه هذه الرحلات، التي دوَّنَّاها بأمانة في هذا الكتاب، وكان عيد الميلاد على الأبواب، بكل ما يحويه من خدع كواذب، وطهارة قلوب، موسم الكرم والجود، وأمام المرح، وتفتح الأفئدة، والعام القديم يستعد فيه كدأب الفلاسفة والحكماء الأقدمين، لدعوة أصحابه إلى الجلوس من حوله، لكي ينطلق في رفق منصرفًا، وليرحل في هدوء، وسط القصف، وضوضاء العيد.

كان الموسم موسم فرح ومرح، وكانت أربعة قلوب من عديد القلوب التي فرحت بمقدمه على الأقل فرحة مرحة كذلك، وفي الحق

كم من أفئدة يسوق عيد الميلاد إليها فترة قصيرة من السعادة، ويجلب إليها شيئًا عابرًا من المتاع، وكم من عشائرَ تفرق أهلها أيدي سبا، وتشتت أفرادها في كل مكان، في سبيل الصراع على الحياة، ومعركة العيش التي لا تخمد، عادت فالتأم شملها، وضَفَت عليها متعة الرفقة، وتبادُل الأماني، وهي مصدر فرح صادق نقي لا تشوبه شائبة، حتى ليعدها الإيمان بالأديان في أكثر العالم حضارة، وأشد أصقاعها همجية، سواء بسواء، من بين بواكير النعماء التي سيجنيها البشر في الحياة الأخرى التي أعدت للسعداء والفائزين، وكم من ذكريات هاجعات، وأحاسيس هادئة ساكنة، يأتي عيد الميلاد فيثيرها من مراقدها، ويوقظها من السبات.

وإنا نكتب هذه السطور الآن، ونحن على عدة الأميال من البقعة التي تَلاقينا فيها، عامًا بعد عام، في هذا اليوم بالذات، وانتظمتنا فيه حلقة من المفاريح والسعداء، وكم من قلوب كانت تخفق يومئذٍ فرحًا وابتهاجًا، كفَّت عن الخفقان، وكم من النظرات التي كانت تلتمع قد ذهب ضياؤها، وكم من الأيدي التي تناولناها في أكُفِّنا ارتدَّت اليوم باردة هامدة، وكم من الأعين التي كنا نتلمس التطلُّع إليها، توارى ضياؤها البرَّاق في ظلمة القبور، ولكن لا يزال البيت العتيق، والحجرة القديمة، والأصوات المرحة، والوجوه البسامة، والأمازيح والضحكات، وأتفه النوادر، وأدق الظروف المتصلة بتلك اللقاءات الهنية، تزدحم على أخلادنا، كلما دار العام دورته، كأن آخر اجتماع لنا لم يكن إلا أمس الدابر! أيها العيد السعيد، الذي يستطيع وحده أن يردنا إلى أوهام طفولتنا الأولى، ويعيد إلى خاطر الشيخ لذات شبابه، ويحمل الملاح والمسافر معًا، وهما على

آلاف الأميال، إلى موقدة داره، وجو بيته الساكن الساجي.

ولكنا قد استفضنا في حديث عيد الميلاد المقدس، وانشغلنا بتعداد مزاياه الحسان، حتى تركنا المستر بكوك وصحابه منتظرين في العراء البارد خارج المركبة الشاخصة إلى «ماجلتون»، التي وصلوا إليها منذ هنيهة مشتملين بمعاطفهم ولفاعاتهم، بينما حملت الحقائب والجعب القطنية في خزانة المركبة، وراح المستر ويلر والحارس يحاولان أن يدخلا في الخزانة الأمامية سمكة ضخمة من نوع «الحوت» لا تتسع الخزانة لمثلها، وهي راقدة في «سفط» أسمر مستطيل، من فوقها طبقة من القش. وقد ظلت متروكة إلى النهاية، حتى يتيسر إرقادها في أمان فوق ستة دنان من الأصداف الحية، جاء بها المستر بكوك نفسه، وصفت بنظام في قاع الخزانة، وكان الاهتمام البادي على وجهه شديدًا وهو يرقب المستر ويلر والحارس حين مضيا يحاولان حشر تلك السمكة الضخمة فيها، مدخلين رأسها أولًا، ثم ذيلها أولًا، ثم جزءها الأعلى إلى أعلى، ثم ظهرها إلى أعلى، ثم على جنبها وبعد ذلك بطولها، وهي مع كل هذه المحاولات تتأبّى على الدخول، حتى لقد ضربها الحارس عرضًا في وسط السلة فإذا هي تتوارى فجأة في جوف الخزانة، وإذا رأس الحارس نفسه وكتفاه تختفي معها؛ لأنه لم يحسب حسابًا لكفها الفجائي عن المقاومة السلبية، فتولته دهشة بالغة لم تكن في حسبانه؛ مما جعل جميع الحمالين والنظارة يضحكون ولا يستطيعون كتمان ضحكاتهم لهذا المشهد الفكه، كما ابتسم المستر بكوك مسرورًا وأطلع شلنًا من جيب صداره، راجيًا إلى الحارس- وهو يخرج نفسه من جوف الخزانة-

أن يشرب به في صحته كأسًا من البراندي والماء، فابتسم الحارس أيضًا وتبعه السادة سنودجراس وونكل وطبمن فضحكوا معًا مبتهجين، واختفى الحارس والمستر ويلر خمس دقائق، وأغلب الظن أنهما ذهبا ليتناولا البراندي والماء؛ لأن رائحتهما كانت تعبق بالخمير حين عادا إلى الظهور. وعندئذٍ يصعد السائق إلى مكانه في المركبة ويثِب المستر ويلر من خلفه، ويلف البكوكيون بمعاطفهم سوقهم، ولفاعاتهم حول أنوفهم، ويتقدم أعوان السائس فينزعون الأغطية من فوق ظهور الخيل، ويصيح السائق صيحة الفرح: «كل شيء على ما يرام» وينطلق السفر ذاهبين.

وتجري بهم المركبة رجراجة خلال الشوارع، وتتخطى في طريقها الأحجار، حتى تخرج أخيرًا إلى الأرض الفضاء، والريف المترامي في كل ناحية، والعجلات مارقات فوق أديم الأرض الصلبة المغطاة بالجليد، والخيل مندفعة إلى السير خببًا على تلويح السوط في يد السائق وقعقعته في الهواء، كأن الحِمل الذي تحمله المركبة والركب والحوت ودِنَان الأصداف الحية وكل شيء آخر لم يكن سوى ريشة في أعقابها، ومضت تهبط منحدرًا رفيقًا إلى مستوى من الأرض صلب الأديم كأنه كتلة واحدة من الرخام امتدت ميلين طولًا، ثم قعقعة أخرى من السوط، فإذا هي مسرعة، مغذية المسير، متوثبة، مطوحة برؤوسها، محدثة وسوسة وأصواتًا مختلفة بسروجها وأعِنَّتها ولجمها، كأنها جميعًا من فرح مسرعة المسير، بينما أمسك السائق السوط والأعِنَّة بإحدى يديه، وخلع بالأخرى قبعته فألقاها فوق ركبتيه، ونزع منديله من جيبه، ومسح

به جبهته؛ وذلك لأنه اعتاد أن يفعل ذلك، ولأنه رأى من المناسب أن يُري الركاب أيضًا مبلغ هدوئه، ويبين لهم أنه من السهل أن يسوق المرء وهذه الأربعة كلها في يديه، إذا توافر له من الخبرة مثل ما توافر له، وبعد أن فرغ من ذلك جميعًا في يسر ظاهر، وإلا أضاع التأثير الذي كان يتوخَّاه منه، راح يرد المنديل إلى جيبه، ويعيد القبعة إلى رأسه، ويصلح من قفازه، ويسوي بين مرفقيه، ويلوح بالسوط في الهواء مرة أخرى، فتنطلق الخيل عاديات وهي أشد فرحًا ممَّا كانت وأكثر ابتهاجًا.

ولاحت للأعين بضع دور صغيرة متناثرة على جانبي الطريق، موحية بأن المركبة موشكة على دخول بلدة أو قرية، وإذا نغمات بوق «الحارس» تموج وتسري في أطباق الفضاء الصافي الشديد البرد، فتوقظ الشيخ القائم في داخل المركبة، فينزل مصراع النافذة الخشبي بعناية إلى نصفه، ويطل منه ليتبين معالم الطريق، ثم ينثني فيرفعه بالعناية ذاتها، ويبلغ الآخر الذي في جوف المركبة أنهم لن يلبثوا أن يغيروا الخيل في المحطة القادمة، فيستيقظ زميله هذا، ويعتزم تأجيل إغفاءته إلى ما بعد الوقوف، وعندئذٍ ترتفع نغمات البوق في الفضاء فتصحو عليها زوجة صاحب الكوخ وأطفالها، فيُطِلُّونَ من باب الدار، ويظلون يرقبون المركبة حتى تنعطف على ركن من الطريق، فيعودون إلى الجلوس القرفصاء حول النار المشبوبة في البيت، ويلقون إليها حطبًا آخر ليجد رَبُّ الأسرة الدفء موفورًا حين يعود، بينما كان هو على مبعدة ميل كامل منهم قد تبادل هزة من رأسه مع السائق، في تحية ودية، ووقف يتأمَّل المركبة وهي مبتعدة مسرعة.

ولا يزال البوق يرسل أنغامه في الفضاء والمركبة منطلقة في جلجلتها فوق الطريق غير المعبد خلال دروب البلدة الصغيرة التي دخلتها، والسائق قد فَكَّ الحزام الذي يمسك وشاحه؛ استعدادًا لإلقائه عنه في اللحظة التي تقف فيها المركبة.

وعندئذٍ يُخرج المستر بكوك رأسه من رقبة معطفه ويدير عينه فيما حوله بدهشة بالغة، وفضول شديد، ويلمح السائق ذلك منه فينبئه باسم البلدة، ويقول: إن يوم سوقها كان بالأمس. فينقل المستر بكوك هذه المعلومات إلى أصحابه، فيخرجون من رقاب معاطفهم كذلك ويتلفتون حولهم، ويكاد المستر ونكل الجالس على الحافَة تاركًا إحدى ساقيه متدلية في الفضاء يسقط إلى الطريق، حين أخذت المركبة تنعرج بهم في زاوية حادة بقرب حانوت بائع الجبن، ثم تعطف على السوق، وتقف في فناء الفندق فجأة قبل أن يُفيق المستر سنودجراس الجالس لصقه من فزعه، وكانت الخيل الأخرى وعليها الأغطية واقفة ترتقب المركبة، فلا يني السائق في إلقاء الأعِنَّةِ من يده والنزول منها، ويتبعه الركاب الجلوس في خارجها فينزلون هم كذلك، فلا يبقى غير الذين لا يطمئنُّون كثيرًا إلى مقدرتهم على الصعود مرة أخرى، ويؤثِرُون البقاء حيث هم، ويدقون المركبة بأرجلهم لتدفئتها رانين بأعين متلهفة وأنوف محمرة إلى النار المشبوبة في مكان الشراب بالفندق، وأغصان شجرة عيد الميلاد، والتوت الأحمر الذي ازدانت الشرفة به.

وكان الحارس قد سلَّم إلى حانوت تاجر الغلال الحُزمة الملفَّفة في الورق الأسمر التي أخرجها من المحفظة الصغيرة المعلقة فوق

كتفه بسير من الجلد، وأشرف على شد الخيل إلى المركبة، وألقى على الإفريز السرج الذي أُحضر من لندن فوق سطح المركبة. واشترك في المؤتمر الذي عقده السائق والسائس للحديث عن الفرس السوداء التي جرحت ساقها الأمامية اليمنى في يوم الثلاثاء الماضي. واستقر الحارس والمستر ويلر خلف المركبة واستوى السائق في مجلسه أمامها، وعاد الحارس الموكل بداخلها يرفع النافذة بعد أن كان قد أنزلها قليلًا خلال فترة الراحة، ونزع السائس الأغطية عن ظهور الخيل، واستعد الجميع للمسير، إلا «السيدين البدينين» اللذين مضى السائق يسأل عنهما وهو قلق نافد الصبر، وإذا هو والحارس وسام ويلر، والمستر ونكل، والمستر سنودجراس، والسواس جميعًا، وكل فرد من المتسكعين في الموضع والمتبطلين، وهم أكثر من الآخرين مجتمعين عددًا، إذا بهم جميعًا يتصايحون بأعلى الأصوات؛ بحثًا عن السيدين الغائبين، وإذا صوت من بعيد ينبعث من جانب أنامل المستر بكوك قد جمدت من البرد حتى إنه ظل خمس دقائق يحاول إخراج ستة بنسات؛ ليدفع ثمن شرابهما.

وعندئذ صاح السائق منبهًا: «والآن أيها السادة»، ورددها الحارس، وكان من رأي الشيخ الذي يتولى الحراسة في الداخل أنه من الشذوذ الصارخ أن ينزل الناس من المركبة وهم يعرفون أن الوقت ضيق لا يتسع للنزول والصعود، ويحاول المستر بكوك التسلق من جانب، والمستر طبمن من الآخر، ويصيح المستر ونكل: «كل شيء على ما يرام»، فتنطلق المركبة، وتُرفع اللفاعات، وتعاد أطواق المعاطف إلى مواضعها من الأعناق، وتنقطع أصوات العجلات على الأفاريز الحجرية وتتوارى

الأكواخ والدور، وتعود المركبة مارقة في طريق مكشوف، وهبات الهواء الصافي النقي تهب على الوجوه، وتدخل الفرح على النفوس، وتشيع الغبطة في الجوانح والأفئدة.

كذلك كان سفر المستر بكوك وأصحابه في المركبة إلى «دنجلي ديل»، وما إن بلغت الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم، حتى كانوا جميعًا وقوفًا على سلم فندق «الأسد الأزرق»، فرحين سالمين، آمنين معافين، فقد تناولوا على الطريق قدرًا من الجعة والبراندي يكفي ليتحدوا به الصقيع الذي قيَّد الأرض بأصفاد من حديد، وراح يُضفي نسيجه البديع على الشجر، ويُلقي شباكه البيضاء على الأسوار المقامة من العوسج، وكان المستر بكوك منهمكًا عندئذٍ في عَدِّ دنان أصداف البحر الحية، والإشراف على إخراج الحوت، وإذا هو يشعر بيدٍ تجتذب في رفق حاشية معطفه، فاستدار ليرى من هذا الذي لجأ إلى هذه الطريقة في استرعاء أنظاره، فإذا هو يتبين أنه لم يكن سوى الوصيف الأثير عند المستر واردل الذي عرفه قُرَّاءُ هذه القصة الخلية من التزويق باسم اشتهر به وامتاز، وهو «الغلام البدين».

فصاح المستر بكوك: «آها».

وقال الغلام البدين: «أها!».

وانثنى يرمق بنظره الحوت، وأصداف البحر الحية، ضاحكًا من فرح واغتباط، وقد بدا أسمن وأكثر بدانة من قبل.

وقال المستر بكوك: «حسن! إنك لتبدو متوردًا يا صديقي الصغير».

وأجاب الغلام البدين قائلًا: «لقد كنت نائمًا أمام النار المشبوبة في غرفة الخدم هنا».

وكان قد استدفأ بحرّها حتى استحال لونه إلى لون قمة مدخنة جديدة.

ومضى يقول: «لقد أوفدني سيدي مع عربة النقل لحمل أمتعتكم إلى البيت، وكان يريد أن يرسل بعض الخيل المسرجة، ولكنه اعتقد أنكم ستؤثرون المشي على الأقدام؛ لأن اليوم شديد القر».

وقال المستر بكوك في عجلة: «أي نعم، أي نعم- فقد تذكر كيف قطعوا المسافة ذاتها سيرًا على الأقدام في مناسبة سابقة- نعم، إننا لنفضل المشي. يا سام!».

وقال المستر ويلر: «نعم!».

قال: «أعِن خادم المستر واردل على نقل الأمتعة إلى العربة واركب معه؛ لأننا سنذهب مشاة في الحال».

وبعد أن فرغ المستر بكوك من هذه التوجيهات ودفع حساب السائق، انطلق مع صحابه الثلاثة في الدرب المُعَدِّ لسير المشاة وسط الحقول، وهم خفاف سراع، تاركين المستر ويلر يواجه الغلام البدين لأول مرة، فلا عجب إذا انثنى سام ينظر إلى الغلام في دهشة بالغة دون أن يقول كلمة واحدة، وأخذ يربط الأمتعة في سرعة فوق العجلة، بينما وقف الغلام البدين في ناحية هادئًا وكأنما يحسب منظر المستر ويلر وهو يشتغل بمفرده مشهدًا يسر الخاطر كل السرور.

وألقى سام الحقيبة القطنية الأخيرة فوق العربة قائلًا: «ها نحن أولاء قد انتهينا، كل الأمتعة قد شحنت على العربة».

وقال الغلام البدين بارتياح بالغ: «نعم، كلها».

وقال سام: «والآن أيها الفتى ذو العشرين ستونًا[1]، إنك لنموذج بديع للغلمان رابحي الجوائز[2]».

وأجاب الغلام البدين: «شكرًا».

وسأله سام قائلًا: «أليس في ذهنك شيء يشغل بالك، ويضني خاطرك يا أخي؟».

قال: «لا أدري».

ومضى سام يقول: «لقد كنت عند النظر إليك أتصور أنك تعاني تباريح حب موفق لبعض النساء أو الفتيات».

وهز الغلام البدين رأسه.

وقال سام: «حسن، إني لمسرور أن أسمع ذلك. ألا تشرب شيئًا؟».

وأجاب الغلام: «بل أحب الأكل أكثر».

وصاح سام قائلًا: «آه، لقد كان أولى بي أن أظن ذلك، ولكن ما أقصده هو هل تحب أن تتناول قطرة من شراب تدفئك؟ ولكني أظنك لا تشعر يومًا ببرد بهذا النسيج اللدن الذي عليك[3] هل تشعر ببرد أحيانًا؟».

---

(١) لقد عبر سام عن وزن الغلام البدين بقوله: «عشرين ستون، والستون Stone وزن إنجليزي يعادل ١٤ رطلًا إنجليزيًا، أي أن وزنه يبلغ ٢٨٠ رطلًا.

(٢) يقصد رابحي الجوائز في البدانة.

(٣) يقصد الشحم واللحم.

وأجاب الغلام: «أحيانًا، وعندئذ أحب أن أشرب قليلًا، إذا كان الصنف جيدًا».

وقال سام: «آه، تشرب! قل لي هكذا، تعال معي إذن، من هنا».

ولم يلبثا أن وصلا إلى غرفة الشراب المخصصة بالخدم في فندق «الأسد الأزرق» وابتلع الغلام البدين كأسًا من الخمر مرة واحدة، ولم تطرف عيناه، وهي حركة رفعت مركزه كثيرًا في تقدير المستر ويلر وحسن ظنه، ولم يكد هذا يفرغ من شرب كأس مماثلة، حتى نهضا وركبا العربة.

وقال الغلام البدين: «هل تعرف كيف تسوق؟».

وأجاب سام: «أظن ذلك».

ووضع الغلام البدين العنان في يده وقال: «هاك إذن». وأشار إلى درب هناك قائلًا إنه طريق مستقيم تسير فيه ولا تخطئ.

ومضى الغلام البدين يجلس بجانب السمكة الضخمة متوددًا متلطفًا، ووضع دنًّا من دنان الأصداف الحية تحت رأسه كما يضع الوسادة، ولم يلبث إلا لحظة حتى استولى النعاس عليه.

وقال سام: «والله إني لم أر في الغلمان الهادئين الفاترين الذين وقعت عيني عليهم في حياتي مثل هذا الغلام فتورًا وبرودًا. هذا، أصح، أفق يا ذا البطن الرحيب!».

ولكن لم تبد على ذي البطن الرحيب أية أعراض توحي بأنه سيفيق من النوم، وجلس سام ويلر في مقدمة العربة، وأهاب بالحصان العجوز

بهزة من السرج، فانطلق بهما صوب «ضيعة مانور».

وكان المستر بكوك وأصحابه في الوقت ذاته قد استطاعوا بالمشي تجديد دورتهم الدموية وتنشيطها وهم ماضون في طريقهم خفافًا فرحين، وكانت الدروب وعرة، والحشائش هشة يعلوها الصقيع، وللهواء برودة جميلة جافة منعشة، وجعلتهم سرعة اقتراب الشفق الأشهب، أو الأردوازي اللون- فذلك وصف أفضل وأدق للشفق في الجو الصقيع- يتطلعون مشرقين متلهفين على المناعم التي تنتظرهم في دار مضيفهم الجواد الكريم، وكان ذلك الأصيل أدعى ما يكون إلى إثارة الرغبة في نَفْسَي رجُلين مكتهلين، في ساحة منعزلة، أو ميدان مهجور، إلى خلع معطفيهما، ليلهوا بلعبة «قفزة الضفادع» في انشراح صدر، ومرح صادق، حتى لنعتقد جازمين أنه لو كان المستر طبمن عرض في تلك اللحظة على صديقه أن يكون «ظهرًا» ليقفز المستر بكوك من فوقه، لقبل هذا الاقتراح بمنتهى الارتياح والسرور.

ولكن المستر طبمن لم يتطوع، ولم يعرِض، فانطلق الصحاب في طريقهم يتحدثون حديثًا فكهًا مرحًا، وما إن عطفوا على زقاق كان لا بد لهم من اجتيازه، حتى ترامت إلى آذانهم أصوات كثيرة، وقبل أن يتسع الوقت للحدس ومن عسى أن يكون أصحابها، وجدوا أنفسهم في وسط الجمع الذين كانوا يرتقبون وصولهم، وكان أول ما بدا لهم من تلك الأصوات صيحة مدويَّة من شَفَتَي المستر واردل، حين بدوا للأبصار، من مكان قريب، وكانت تلك الصيحة «مرحبًا».

وكان أول من رأوه واردل نفسه، وقد بدا أكثر مرحًا من قبل، إن أمكن

أن يكون في طبيعته المرحة مزيد. ثم رأوا بعدئذ بللا وصاحبها الوفي الأمين «ترandl»، وأخيرًا لمحوا «إميلي» وثماني شابات أو عشرًا، جئن جميعًا لحضور الزفاف في اليوم التالي، وقد بدون سعيدات متدللات كما تبدو الفتيات عادة في هذه المناسبات المشهودة، وهن جميعًا يملأن آفاق الحقول والدروب القريبة والبعيدة، بضوضاء ألعابهن ومراتعهن وضحكاتهن.

ولم تلبث مراسيمُ التعارف في أمثال هذه الظروف ونحوها أن تمَّت، أو بعبارة أصح، لم يلبث التعارف أن تم بغير مراسيم ولا كلفة إطلاقًا، فلم تنقضِ دقيقتان حتى كان المستر بكوك يمزح مع الفتيات اللاتي أبين أن يتخطين الحاجز الخشبي، وهو إليهن ناظر، وآثرن لجمال أقدامهن وكعوبهن الوقوف عدة دقائق لا يبغين تحركًا من مواقفهن، بل ذهب يداعبهن بكل بساطة وبلا أدنى تحفُّظ أو احتياط، كأنه يعرفهن طول العمر. ومما يجدر بنا ذكره أيضًا أن المستر سنودجراس راح يعرض على إميلي من المساعدة على تخطي ذلك الحاجز أكثر ممَّا يحتاج الأمر إليه، أو يقتضيه الخوف المطلق منه، وإن كان ثلاثة أقدام ارتفاعًا، ولم يكن هناك غير حجرين اثنين للوقوف فوقهما، والوثوب منهما لتخطيه، بينما جعلت فتاة سوداء العينين في حذاء صغير جميل ذي فروة فوق مقدمه، ترسل صرخات مدوية، حتى تقدَّم المستر ونكل ليساعدها على الوثوب.

كان ذلك كله بهيجًا، يدخل السرور على النفوس، وحين تم التغلُّب على الصعاب في سبيل تخطي ذلك الحاجز، ووجد القوم أنفسهم في الأرض الفضاء، والحقول المترامية، أنشأ الشيخ واردل ينبئ المستر

بكوك أنهم كانوا قد جاءوا بجمعهم لمعاينة الرياش والجهاز الذي أُعِدَ للبيت الذي سيقيم فيه العروسان، بعد عطلة الميلاد، وعندئذٍ علَت حمرة الخجل وجهي «بللا» وتراندل، واحمرت خدودهما احمرار وجه الغلام البدين عقب جلسته قبالة الموقدة في غرفة الخدم. وهمست الفتاة ذات العينين السوداوين والحذاء المكسو بالفراء بكلام في أذن «إميلي» ثم نظرت بمكر إلى المستر سنودجراس، فأجابتها إميلي أنها فتاة حمقاء، وإن كانت قد توردت حياء، واصطبغ خدها بلون الأرجوان، كما شعر المستر سنودجراس، وهو شديد الحياء ككل العباقرة عادة، بحمرة الخجل تتصاعد إلى وجهه، وتبلغ قمة رأسه، وود من صميم قلبه لو أن هذه الفتاة ذات العينين السوداوين والحذاء الصغير المكسو بالفرو، لزمت دارها في الريف القريب، ولم تكن حاضرة معهم.

ولكن إذا كان القوم قد بدوا على تلك الصورة من الألفة والهناءة والمرح، فماذا عسى أن يكون مدى المودة والترحاب والإيناس الذي سيُستقبلون به عند وصولهم إلى الضيعة؟

لقد راح الخدم أنفسهم يبتسمون سرورًا لمشهد المستر بكوك عند وصوله، بل إن «أما» نفسها انثنت تخلع على المستر طبمن نظرة جمعت بين الحشمة، والجرأة، وتوافرت فيها كل الملاحة، حتى لتكفي لأن تجعل تمثال بونابرت القائم في الردهة، ينشر ذراعيه، ويطويهما عليها محتضنًا معانقًا.

وكانت السيدة العجوز جالسة في أبهتها المألوفة في القاعة الأمامية وإن بدت غضبى؛ ومن ثَمَّ أشد ما تكون صممًا، ولم تكن من عادتها يومًا

أن تخرج، وكانت ككثير من مثيلاتها من السيدات العجائز اللاتي من طرازها، ترى أن من الإجرام، واقتراف «الخيانة العظمى» في البيت، أن يتقدم أحد من أفراده فيفعل شيئًا لا تستطيع هي أن تفعله، فلا عجب إذا هي جلست في مقعدها الرحيب تنظر عابسة متجهمة ما استطاعت، وإن كان ذلك كله منها على كل حال تكرمًا وبرًّا وتعطفًا.

وقال واردل لأمه: «أماه، المستر بكوك، ألا تتذكرينه؟».

وأجاب العجوز في وقار بالغ: «لا بأس، فلا تزعج المستر بكوك بشأن مخلوقة عجوز مثلي، فلم يعد أحد يعني بي الآن، وهو شيء طبيعي».

وطوَّحت السيدة العجوز برأسها ومرت بيديها الراعشتين على ثوبها الحريري الأزرق الفاتح؛ لتصلح من ثناياه.

وقال المستر بكوك: «لا تقولي هذا يا سيدتي، فلن أدعك تواصلين جفوة صديق قديم بهذا الشكل. فقد جئت خصيصًا لأستمع بحديث طويل معك، ولعب دور ورق، لكي نُرِيَ هؤلاء الأولاد والبنات كيف يكون الرقص على أنغام الموسيقى، قبل أن تنقضي ثمان وأربعون ساعة أخرى من أعمارهم».

وبدا على السيدة العجوز أنها بدأت وشيكًا ترضى، ولكنها لم تشأ أن تظهر ذلك مرة واحدة، فانثنت تقول: «آه، لا أستطيع سماع ما يقول».

وقال واردل: «هراء يا أم. دعي الغضب جانبًا، وأشرقي بوجهك علينا. تذكري زفاف بللا. أدخلي السرور على نفسها. أفرحي البنت المسكينة».

وسمعت السيدة العجوز هذا كله؛ لأن شفتيها ارتجفتا حين قال ابنها ما قاله، ولكن للكبر ضيق أخلاقه، وللشيخوخة مساوؤها، ولم تكن قد ثابت بعد إلى نفسها، فعادت تصلح من ثنايا ثوبها الأزرق، وتلتفت إلى المستر بكوك قائلة: «آه، يا مستر بكوك، لقد كان الناس في زمانك مختلفين كل الاختلاف عن أهل هذا الزمان عندما كنت فتاة صغيرة».

وقال المستر بكوك: «لا شك في هذا يا سيدتي، بل هذا هو السبب الذي ترينني من أجله أوثر كثيرًا البقية الباقية من السلف الصالح».

وراح يجذب بللا إليه برفق ويقبل جبينها ويأمرها بالجلوس فوق المسند الصغير الموضوع عند قدمي السيدة العجوز، وسواء كان التعبير الذي بدا على وجه الفتاة «وهي ترفع بصرها إلى جدتها»، وقد أثار في نفسها ذكريات تلك الأيام الخالية، أو كانت طيبة قلب المستر بكوك ولطفه قد أحدثا أثرهما في نفسها، أو مهما يكن من الأمر، فإن السيدة العجوز لم تلبث أن هدأت وذاب غضبها، فأهوت على عنق حفيدتها معانقة، ولم يلبث ذلك العبوس أن تبخر، وترك فيضًا يتدفق من دموع صامتة.

وكان القوم في تلك الليلة حلقة من المفاريح، وندوة مرح، وكانت عشرات الأدوار التي لعبها المستر بكوك والسيدة العجوز بالورق، يسودها الهدوء، وتغمرها السكينة، وكان المرح حول المنضدة المستديرة صاخبًا يملأ الأفق ضحكًا وجلبة، وطاف السقاة- بعد انصراف السيدات بوقت طويل- بأكواب النبيذ الساخن المعتق، المشعشع بالبراندي والبهار، مرة، فأخرى، فثلاثًا، وكان النوم بعد السهرة القاصفة عميقًا، وما كان

أحلى الأحلام التي طافت بالعقول بعدئذٍ. إن أحلام المستر سنودجراس ظلت حائمة حول إميلي واردل، وإن الماثل في أحلام المستر ونكل كان يبدو في صورة فتاة ذات عينين سوداوين، وابتسامة ماكرة فاتنة، وحذاء بديع يكسو الفراء جزأه الأعلى.

واستيقظ المستر بكوك في بكرة الصبح على طنين من الأصوات، ووقع أقدام تكفي لإيقاظ الغلام البدين نفسه من سباته العميق، فاستوى جالسًا في فراشه وأصغى إلى هذه الضوضاء، فبدا له أن الخادمات والسيدات اللاتي ينزلن في ضيافة البيت جعلن يعدون رائحات غاديات، في عجلة ظاهرة، وتعالت الأصوات طالبة ماء ساخنًا، وتكررت الصيحات في طلب إبر وخيط، وتوسلات كثيرة يحاول صاحبها كبتها وهو ينادي: «أواه! هلموا إليَّ لتشدوا أربطتي، ناشدتكم الله»، حتى لقد بدأ المستر بكوك في سلامة نيته، وطيب سريرته، يتصور أنه لا بد من أن حادثًا مروعًا قد وقع، فأخذ يفيق من النوم ويتذكر حفلة الزفاف، ولم يسعه عند تذكر هذه المناسبة الكبيرة الشأن إلا أن يتجمل بأحسن ثيابه، ويعني ببزته، ينزل إلى قاعة الإفطار.

ووجد الخادمات جميعًا في ثياب قشيبة، وجلابيبَ من الحرير القرنفلي اللون، وأقواس وعقد بيضاء اللون، تزدان بها قبعاتهن، وهن يجلن في أنحاء البيت في حال من الاضطراب والهياج تعز على الوصف، وكانت السيدة العجوز في ثوب مزركش لم يشهد النور منذ عشرين سنة، إلا ما كان ينفذ إليه من شوارد الأشعة، وخيوط الضياء المتراخية التي كانت تتسلل من ثقوب الصندوق الذي لبث راقدًا فيه طيلة تلك السنين.

وكان المستر تراندل بادي الإشراق، حسن الهندام، وإن لاح «عصبيًّا» إلى حد ما، وكان عميد العشيرة الطيب القلب يحاول أن يبدو بالغ الفرح، خالي البال، ولكن المحاولة لم تكن ناجحة، وكانت الفتيات جميعًا في دموع، وثياب من حرير أبيض، إلا اثنتين أو ثلاثًا منهن حظين بمتعة مشاهدة العروسين في الطبقة العليا من البيت.

وكان البكوكيون جميعًا في أجمل مظهر، وأحسن سمت، وقد ارتفعت الأصوات الصاخبة من جانب البقعة الناضرة الممتدة أمام البيت؛ حيث اجتمع الرجال والفتيان والأيفاع والمراهقون الملحقون بخدمة المزرعة، وقد وضع كل منهم «عقدة» بيضاء في عروة ثوبه، وهم يهتفون بكل قواهم مقتدين بالمستر ونكل الذي عرف فعلًا كيف يكسب محبتهم، وترتفع مكانته في قلوبهم، بتصرفاته وحسن أسوته فيهم، كأنه واحد منهم، وابن جلدتهم، وكأنه قد ولد في أرضهم.

ولا يخفى أن الزفاف مسألة يترخَّص فيها المزاح وتباح فيها الدعابة، وإن كان في الواقع أمرًا لا مزاح فيها مطلقًا، وإنما نحن نعني ما يكون من المزاح والتنكيت على حفلاته، ونرجو أن يفهم عنا بجلاء أننا لا نُضمر سخرية خفية من الحياة الزوجية، أو نتخذها هُزُوًا؛ فإن أفراحها ومسراتها لا تزال مختلطة بأسف وحسرات على مغادرة البيت الذي كانت النشأة فيه، والعش الذي درجت الأقدام الصغيرة في أرجائه، وتلك العَبرات التي يذرِفها الآباء والبنون والبنات عند الوداع، والشعور بأن العروس موشِكة أن تفارِق أعزَّ الصحاب وأحنى الخلطاء في أسعد أدوار العمر، وأصفى أيام الحياة؛ لمواجهة هموم لم تجرَّب من قبلُ، وملاقاة متاعب

لم تختبر كثيرًا ولم تعرف، وغير ذلك من المشاعر والأحاسيس الطبيعية التي لا نحب أن نصِفها حتى لا نجعل هذا الفصل من الكتاب محزنًا، والتي لا نزال نرجو ألا يظن بنا أننا منها ساخرون.

فلنقل في إيجاز إذن إن الاحتفال بالزفاف تم على يد القسيس الشيخ في كنيسة «دنجلي ديل» وإن اسم المستر بكوك دُوِّن في سجلاتها، ولا يزال محفوظًا في خزانتها إلى اليوم، وأن الفتاة ذات العينين السوداوين وقعت اسمها بأحرف راعشة مهزوزة، وخط مرتجف، وإن توقيع إميلي، بوصفها الوصيفة الأخرى للعروس، كاد يبدو مطموسًا لا يُقرأ، وإن الاحتفال تم بجملته على وجه يستحق الإعجاب، وإن الفتيات عامة رأين أنه ليس مروعًا بالصورة التي كُنَّ يتوقعنها، وإذا كانت ذات العينين السوداوين والابتسامة الفاتنة قد راحت تقول للمستر ونكل: إنها متأكدة من أنها لن ترتضي الاستسلام لشيء مروع مخيف كهذا، فلا يزال لدينا من الأسباب القوية ما يحملنا على الاعتقاد أنها كانت على خطأ، كما يصح لنا أن نضيف إلى ذلك كله أن المستر بكوك كان أول من حيَّا العروس وهنَّأها، وأحاط جيدها وهو يحييها بسلسلة وساعة من الذهب لم تشهدهما عين بشر من قبلُ غير عين الصائغ الذي صاغهما، وعندئذٍ دقت أجراس الكنيسة أبدع دقات وأمرحها أصدية، فعاد الجميع إلى تناول طعام الفطور.

وقال المستر ويلر للغلام البدين، وهو يساعد في صفِّ ألوان من الطعام لم تصف على الموائد كما يجب في الليلة الماضية: «وأين نضع

«الكفتة» يا صاحبي الصغير آكل الأفيون؟»(١).

وأشار الغلام البدين إلى الموضع الذي يجب أن توضع «الكفتة» فيه.

وقال سام: «جميل جدًّا. ضع شيئًا من عيد الميلاد فيها، والطبق الثاني يوضع مقابلًا للأول. والآن كل شيء يبدو منسقًا ومريحًا، كما قال الأب لابنه، حين قطع رأسه ليعالج الحول الذي في عينه».

ولم يكد المستر ويلر ينتهي من هذه المقارنة التي ذكرها حتى تراجع خطوة أو خطوتين ليعطيها كل التأثير المطلوب، ويتفقد المعدات والتنسيقات وهو في أتم الارتياح.

وقال المستر بكوك، حين جلس الجميع إلى المائدة: «يا واردل، عليَّ بكأس من النبيذ تحية لهذا الحدث السعيد».

وقال المستر واردل: «بكل سرور يا بني، يا جو، لعنة الله على هذا الغلام، لقد عاد إلى النوم».

وأجاب الغلام البدين، وهو ينهض مسرعًا من ركن قصي: «كلا يا سيدي لست نائمًا».

وكان الغلام في ذلك الركن المنزوي يلتهم فطيرة من فطائر عيد الميلاد، كما يفعل القديس الذي يرعى الغلمان السمان والذي يدعى هورنر الخالد، وإن لم يكن تناوله الفطير بذلك الهدوء والتأني المعروفين عن ذلك السيد الصغير»(٢).

---

(١) أو «أبو النوم» لكثرة نومه واستغراقه في سباته.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى أغنية الأطفال القديمة المعروفة عند الإنجليز LITTLE JACK HORNER STIN A CORNER EATING HIS CHRISTIMAS PIE, ETC.

وقال المستر واردل: «املأ كأسًا للمستر بكوك».

قال: «سمعًا يا سيدي».

وملأ الكأس ثم تراجع فوقف خلف مقعد سيده، ومضى يرقب من مرصده هذا حركة السكاكين والشوك وسير اللقم المختارة من الصحاف إلى الأفواه، بشيء من الفرح المكتئب الواجم الذي يحدث في النفس أبلغ الأثر.

وقال المستر بكوك: «بارك الله لك يا صديقي العزيز».

وأجاب واردل: «ولك يا بني».

وتقارعا الكأسين محبة ووفاء.

وانثنى المستر بكوك يقول للسيدة العجوز: «يا مسز واردل، نحن معاشر الكبار لا مفر لنا من أن نشرب كأسًا من النبيذ معًا تكريمًا لهذا الحفل البهيج».

وكانت السيدة العجوز في تلك اللحظة جالسة جلسة العظمة والجلال، ومتخذة مكان الصدار من المائدة، في ثوبها المزركش، وعن أحد جنبيها حفيدتها العروس، وعن الآخر المستر بكوك ليتولى تقطيع «الأطعمة»، ولم يكن قد رفع صوته وهو يقترح عليها شرب كأس ليبلغ سمعها، ولكنها أدركت في الحال مراده، فارتشفت كأسًا ممتلئة من النبيذ، في صحته، وسعادته، وأقبلت تقص في دقة وتفصيل قصة زفافها، وتتحدث عن طراز زمانها، وهو لبس الأحذية العالية الكعب، وتروي رواياتٍ معينةً عن حياة سيدة راحلة، من غادات عصرها، تُدعى الليدي

تولنجلوار، وهي بين ذلك كله تضحك من أعماق قلبها، ويشاركها في الضحك الغيد الأخريات متسائلات، فيما بينهن أي شيء في الأرض ترى الجدة العجوز تتحدث عنه، وكلما ضحكن، ضحكت هي من قلبها عشرة أمثال ضحكهن وقالت: إن هذه القصص التي روتها كانت أبدًا تُعَدُّ من أبدع القصص؛ مما جعلهن يعاودن الضحك، ويزدن السيدة العجوز انتعاشًا ومجانة.

وهنا قُطِعَت «الكعكة»، وطيف بها على الحلقة وادخرت الفتيات قطعًا منها؛ ليضعنها تحت وساداتهن فيحلمن بالعرسان، فكان ذلك مثار خجل كثير، ومرح طويل.

وقال المستر بكوك لصديقه القديم، ذلك السيد العنيد ذي «الرأس» الجامد: «ألك في كأس من النبيذ يا مستر ويلر؟».

وأجابه هذا بجد ووقار: «بكل ارتياح يا مستر بكوك».

وقال القسيس البر الكريم: «ألا تشركاني معكما؟».

وتبعته زوجته قائلة: «وأنا؟».

وقال آخران من أقارب الأسرة الفقراء كانا جالسين في أقصى طرف من المائدة، وكانا قد أكلا وشربا كثيرًا، وضحكا من كل شيء: «وأنا، وأنا».

وأبدى المستر بكوك اغتباطًا صادقًا بكل الطلبات الإضافية، وعيناه تبرقان فرحًا وحبورًا.

وإذا هو ينهض فجأة قائلًا: «أيتها السيدات، أيها السادة».

وصاح المستر ويلر: «اسمعوا، أنصتوا، اسمعوا» وقد بلغت حماسته الذروة.

وارتفع صوت المستر واردل قائلًا: «ليدخل الخدم جميعًا» وقد خشي أن يوجه المستر بكوك بعض اللوم أمام الناس إلى خادمه، فبادر بدعوة الخدم؛ لكي يمنعه من تأنيب كان بلا شك سيوجهه إليه.

وعادل المستر واردل يصيح قائلًا: «وأعطوا كل واحد منهم كأسًا ليشربوا النخب. والآن يا بكوك».

وفي وسط صمت ساد القوم، وتهامس الخادمات، وارتباك الخدم فيما بينهم، بدأ المستر بكوك يلقي خطابًا.

قال: «أيتها السيدات، أيها السادة! كلا، لا أريد أن أقول سيدات وسادة، سأناديكم يا أصدقائي، يا أصدقائي الأعزاء، إذا سمحت السيدات لي بأن أستبيح هذا لنفسي».

وهنا قوطع المستر بكوك بتصفيق عاصف من السيدات وردده السادات في أثرهن، سمع خلاله صوت ذا العينين السوداوين تقول إنها لو استطاعت لقبلت هذا المستر بكوك العزيز، وهنا سألها المستر ونكل بجرأة: «ألا يمكن أن يتم ذلك من طريق الإنابة؟»، فكان جواب ذات العينين أن قالت «امش من هنا»، وإن شفعت الأمر بنظرة بليغة ما أمكن، تقول له: «إن استطعت».

وواصل المستر بكوك الخطبة فقال: «أصدقائي الأعزاء! إنني أقترح شرب نخب العروسين بارك الله حولهما (هتاف ودموع)، وأنت

يا صديقي الشاب «تراندل» أعتقد أنك فتى لا مثيل لك في أخلاقك وشهامتك ورجولتك، وأعرف عن العروس أنها فتاة محببة ظريفة لطيفة كل الظرف واللطف، وأنها أهل لأن تنقل إلى أفق جديد تلك السعادة التي ظلت عشرين عامًا تضفيها على كل من حولها في بيت أبيها».

وهنا اندفع الغلام البدين في إجهاش شديد فبادر إليه المستر ويلر فجذبه من طوقه فأخرجه.

«وإني لأتمنى لو أني رددت إلى عهد النضارة والشباب لكي أكون لأختها بعلًا- هتاف- أما وليس هذا في الإمكان، فإني لسعيد أن أكون في سن أبيها، حتى لا تذهب الظنون إلى أني أضمر نيات أخرى، إذا أنا قلت إنني معجب بالأختين معًا، محب لهما، مقدر مكانتهما خير تقدير. «هتافات وانتحابات» إن أبا العروس، صديقنا الكريم هذا، إنسان نبيل وإني بمعرفته لفخور- هتاف شديد- فهو رجل حدب، بديع مستقل الرأي، كريم القلب، مضياف، سمح، فياض الندى- صيحات حماسية من الأقارب الرقيقي الحال لكل نعت على حدته من كل تلك النعوت، ولا سيما النعتين الأخيرين- ويقيني أن أمنيتنا جميعًا أن تستمتع ابنته بكل السعادة التي يرجوها لها، وأن يجد في تمني الهناءة لها رضى النفس، وسكينة الخاطر، وطمأنينة الروح، التي هو بها جدير كل الجدارة. فلنشرب في صحتهم، ولنرجو لهم طول العمر وفيض النعم والبركات».

وانتهى المستر بكوك من خطبته وسط عاصفة من التصفيق، وعادت رئات الخدم وحناجرهم- تحت إمرة المستر ويلر- ترسل أشد الهتافات وأبلغ الصيحات، وأقبل المستر واردل يشرب في صحة المستر بكوك،

واقترح هذا أن يشرب نخب السيدة العجوز، وجاء المستر سنودجراس فطلب أن يشرب في صحة المستر واردل، وطلب هذا أن يشرب نخبه، واقترح أحد الأقارب الفقراء أن يُشارب المستر طبمن، وأقبل الآخرون منهم يقترحون الشرب في صحة المستر ونكل. وغمرت السعادة القوم جميعًا، وضفا الفرح والمرح على الحلقة كلها، حتى فطنوا إلى اختفاء قريبين من الرقيقي الحال فجأة تحت المائدة، فأدركوا أنه قد حان الانصراف.

وعلى العشاء عادوا إلى الاجتماع، بعد الأوبة من رياضة على الأقدام اقترحها المستر واردل، مسافة خمسة وعشرين ميلًا، قام بها الرجال، لإزالة أثر الشراب الذي عاقروه على الفطور، وكان القريبان الفقيران اللذان سقطا تحت المائدة قد لزما فراشهما اليوم طوله؛ استعدادًا لمتعة المساء، ولكنهما لم يوفَّقا، فظلَّا معتكفَيْن فيه، وكانت مجانة المستر ويلر قد أبقت الخدم جميعًا في مرح مستطيل، ومجانة غير منقطعة، بينما راح الفتى البدين يقسم وقته حصصًا قصيرة يتناوب فيها الأكل والنوم.

وكان العشاء في مثل المرح الذي غمر الفطور، والضوضاء التي تخللته، دون العبرات، وخلا البكاء والدموع، وجاء دور النُّقل والفاكهة، ثم المزيد من الأنخاب، وجاءت القهوة والشاي، وابتدأ الرقص.

وكانت أحسن قاعة للجلوس في الدار حجرة فسيحة مستطيلة قاتمة الزجاج، ذات مدفأة عالية، ومدخنة رحيبة، تتسع لدخول مركبة من الطراز الجديد بكل أجزائها وعجلاتها، وفي أقصى الحجرة جلس في مقصورة ظليلة تحيط بها شجرات عيد الميلاد والأعواد الناضرة، عازفان

على «الكمان» من صفوة العازفين البارعين، والموسيقي الضارب على القيثار الأوحد في بلدة «ماجلتون» كلها، وفي كل ركن، وجنب، وزاوية قامت «ماثلات» ضخمة من الفضة، لكل واحدة منها أربعة فروع، وطُوِيَ البساط، وأنيرت الشموع، وتأججت النار في الموقدة وأزت أزيزها، ودوَّت أرجاء القاعة بالأصوات المرحة والضحكات المدوية. ولو أن قومًا من السراة القدامى في هذه البلاد ارتدوا عند الممات حورًا وجانًا، لكان هذا الموضع هو المكان الذي يختارونه لمجانتهم وقصفهم.

ولو أن شيئًا جاء نافلة بديعة لتزيد في جمال هذا المشهد وفتنته وبهائه، لكان ظهور المستر بكوك خالعًا غطاء ساقيه لأول مرة في ذاكرات أقدم أصدقائه، هو هذه النافلة.

وسأله واردل قائلًا: «هل تنوي أن ترقص؟».

وأجاب المستر بكوك: «طبعًا، بلا شك، ألا تراني قد تهيأت لهذا الغرض؟».

وأشار إلى جوربه الحريري المخطط، وحذاء الرقص المحبوك الأربطة في قدميه.

وصاح المستر طبمن مازحًا: «أأنت تلبس جوربًا من حرير؟».

ودار المستر بكوك بحماسة إليه فقال: «ولِمَ لا؟ يا سيدي، ما المانع؟».

وأجاب المستر طبمن: «لا سبب طبعًا يمنعك من لبسه».

وقال المستر بكوك بلهجة قاطعة: «لا أتصور يا سيدي، لا أتصور».

وكان المستر طبمن يهم بأن يضحك، ولكنه وجد أن المسألة جد، فأمسك، وبدا عليه الهدوء، فقال: «إنه لجورب من طراز جميل».

وأجاب المستر بكوك وقد استقرت عيناه على وجه صاحبه: «أرجو أن يكون كذلك. وأعتقد يا سيدي أنك لا ترى شيئًا غير مألوف من هذا الجورب، بوصفه جوربًا؟».

وقال المستر طبمن: «لا شيء، دون شك، لا شيء». ومشى مبتعدًا، ولم يلبث وجه المستر بكوك أن استعاد سماته الحنون المألوفة.

وصاح قائلًا، وهو واقف مع السيدة العجوز على حافة الحلبة، ومن فرط حماسته وشدة رغبته في الإقبال على الرقص، أخطأ أربع مرات في التقدم إلى الحلبة، قبل أن يعزف العازفون: «إننا جميعًا على أتم الأهبة».

وقال المستر واردل: «فلتبدأوا إذن في الحال. والآن».

وبدأ العازفان يعزفان، وبدأ صاحب القيثار توقيعه، وانطلق المستر بكوك يدخل الحلبة، وإذا الأيدي تصفق والأصوات تصيح: «قف! قف!».

وقال المستر بكوك: «ما الذي جرى؟»، وقد أمسك عن الرقص، حين سكنت أنغام الكمان والقيثار، ولولا ذلك لما استطاعت قوة في الأرض أن تمسكه عن المُضِيّ في الرقص، حتى ولو شب في الدار حريق.

وصاحت الأصوات منادية: «أين أرابللا ألن؟».

وقال المستر طبمن: «وأين ونكل؟».

وإذا صوت المستر ونكل يصيح: «ها نحن أولاء» وهو يخرج مع

رفيقته الحسناء من الركن، ولم يكن من السهل، وهما خارجان من مخبئهما، معرفة أيهما كان وجهه أشد حمرة من صاحبه، أهو أم ذات العينين السوداوين؟

وقال المستر بكوك في شيء من الغضب: «شيء غريب يا ونكل، ألا تأخذ مكانك قبل الآن!».

وأجاب المستر ونكل: «لا غرابة مطلقًا».

وقال المستر بكوك بابتسامة ذات دلالة بالغة، حين استقرت عيناه على «أرابللا»: «لم أكن أعرف أبدًا أنه شيء غريب».

ولم تكن ثمة فسحة من الوقت للبحث في الأمر أكثر من ذلك؛ لأن الموسيقى بدأت بقوة، وانطلق المستر بكوك شابكًا يديه إلى وسط الحلبة ثم إلى نهاية الحجرة، فنصف المسافة إلى المدفأة، فعائدًا أدراجه إلى الباب، فالتفافة بالأيدي مشتبكة، فضربة الأرض بالقدم، ثم استعداد للرقصة التالية، ثم رقصة أخرى، وضربة بالقدم لوزن الخطوة، وهكذا دواليك، رقصة بعد رقصة، في خفة لا مثيل لها. وأخيرًا، بعد أربع عشرة رقصة، استعفت العجوز من عدد منها، وخرجت من الحلبة في إعياء، فحلت محلها زوجة القسيس، ثم أمسكت، ومضى المستر بكوك مواصلًا الرقص وحده، حين كف الآخرون عنه، لمجرد متابعة أنغام الموسيقى وعزفها، وهو بين ذلك كله يبتسم لمراقصته ابتسامة أُنس لا يوصف.

وكان العروسان قبل أن يكلَّ المستر بكوك من الرقص بوقت طويل قد انصرفا من هذا المشهد، وكان ثمة عشاء فاخر قد تهيَّأ في الطبقة

الأولى من البيت وأعقبه مجلس أُنس طيب وسمر، وعندما استيقظ المستر بكوك متأخرًا في صباح اليوم التالي، تذكَّر في صورة مرتبكة، أنه دعا نحو خمسة وأربعين شخصًا للعشاء معه في فندق «الحصان الأبيض الكبير» في أول مرة يأتون فيها إلى لندن. ولكن هذه الفكرة التي تخيلها عند يقظته من النوم كانت دليلًا واضحًا على أنه تناول شيئًا آخر غير الرياضة والرقص، في الليلة الماضية.

وقال سام لأما: «وهكذا تقيمون ألعابًا في المطبخ الليلة يا عزيزتي؟».

قالت: «نعم يا مستر ويلر. كذلك جرت عادتنا في ليلة عيد الميلاد، وسيدي لا ينثني عن إقامتها لأي سبب من الأسباب».

وقال المستر ويلر: «إن سيدك لا ينسى في المكارم شيئًا يا عزيزتي، لم أر في حياتي رجلًا مثله في رقة شعوره ولا شاهدت سيدًا منظمًا بهذا الشكل».

وقال الغلام البدين مشتركًا في الحديث: «إنه فعلًا كذلك، ألا تراه يربي خنازير جميلة؟» ونظر الغلام البدين إلى المستر ويلر نظرة أدنى إلى نظرات أكلة اللحوم البشرية، وقد تخيل الأفخاذ المشوية والمرق.

وقال سام: «أوه، هل صحوت أخيرًا؟».

وأومأ الغلام برأسه.

ومضى سام يقول له: «استمع لكلامي أيها التنين الصغير، إذا لم تقلل من نومك، وتزد من رياضتك، فسوف تصبح حين تبلغ شأو الرجال عرضة لمتاعب بدنية كالتي عاناها الرجل ذو الضفيرة الطويلة».

وقال الغلام البدين بصوت مضطرب: «وماذا صنعوا به؟».

وأجاب المستر ويلر: «سأقول لك، لقد كان من أضخم خلق الله، كان رجلًا لحيمًا شحيمًا لبث خمسًا وأربعين سنة لا تستطيع عينه أن ترى حذاءه».

وصاحت أما قائلة: «يا ساتر يا رب!».

وواصل المستر ويلر حديثه قائلًا: «نعم، يا عزيزتي، لم يكن نظره يصل يومًا إلى حذائه، ولو أنك وضعت نموذجًا تامًّا لساقيه على مائدة الطعام التي أمامه لما عرفهما. وكان من عادته أن يذهب إلى مكتبه تاركًا سلسلة ساعة ذهبية جميلة متدلية نحو قدم وربع قدم، أما الساعة ذاتها فمن الذهب أيضًا وهي موضوعة في جيبه الصغير، وهي تساوي... إنني أخشى أن أقول كم تساوي، ولكنها كانت تساوي ما يمكن أن تساويه ساعة ضخمة ثقيلة الوزن، مستديرة الشكل، ساعة «سمينة» تناسب الرجل السمين نفسه، ولها ميناء ضخم كوجهه سواء بسواء. وقال له أصدقاؤه يومًا: يحسن بك ألا تلبس هذه الساعة؛ لأنها ستغري اللصوص بسرقتك. قال: أحقًّا؟ وأجابوا قائلين: نعم. قال: فليكن، إني أود أن أرى ذلك اللص الذي يستطيع أن ينتزع هذه الساعة من مكانها؛ لأني في الواقع لن أراه، لأنها مربوطة مثبتة، وكلما أردت أن أعرف الوقت، تطلعت بعيني إلى حوانيت الخبازين. وكان يضحك من قلبه حتى ليخيل إلى الناظر أنه سيتفكك أجزاءً ثم يعاود المسير برأسه الأشيب وضفيرته المستطيلة، متدحرجًا في شارع «ستراند» وسلسلته الذهبية متدلية أكثر من قبل، والساعة الضخمة تكاد تبرز من خلال صداره الرمادي الصوف،

ولم يبق في طول لندن وعرضها نشال لم يجرب جذب تلك السلسلة من مكانها، ولكنها تأبّت عليهم أجمعين، والساعة أيضًا لم تنزع يومًا من موضعها، حتى سئموا أخيرًا اقتفاء خطى ذلك الشيخ الضخم الجسم في الشوارع، وعلى الأفاريز، فكان يعود إلى بيته فيضحك منهم حتى لتهتز ضفيرته اهتزاز رقاص ساعة جدار هولندية، وفي ذات يوم، بينما كان الشيخ سائرًا يتدحرج في طريقه، رأى «نشالًا» قادمًا نحوه، وكان يعرف النشالين جميعًا بمجرد النظر إليه، وهو مشتبك الذراع بذراع صبي صغير ذي رأس ضخم، فقال في نفسه: هذه لعبة أخرى، إنهما سيحاولان من جديد، ولكن الحيلة لن تجوز، وانطلق يضحك ملء فيه، وإذا الصبي يترك ذراع النشال، ويندفع برأسه نحو بطن الشيخ، فانحنى هذا لحظة من فرط الألم، وهو يصيح قائلًا: «هذه جريمة قتل!»، وهمس النشال في أذنه «لا بأس يا سيدي». وحين استقام الشيخ ورفع قامته كانت الساعة والسلسلة قد ذهبتا، وأدهى من ذلك وأنكى أن عملية الهضم اختلت لديه إلى آخر يوم في حياته، فانتبه أيها الفتى إذن لنفسك، واحرص على ألا تزداد بعد اليوم بدانة ويتراكم الشحم عليك».

وبعد أن ختم المستر ويلر هذه القصة البليغة المغزى، التي أحدثت أثرًا كبيرًا في نفس الغلام البدين، انطلقوا إلى المطبخ الكبير حيث كان الخدم قد اجتمعوا جريًا على عادتهم السنوية، ليلة عيد الميلاد، وتبعًا للتقاليد التي كان آباء واردل وأسلافه يرعونها كابرًا عن كابر من قديم الزمان.

وكان المستر واردل قد عمد إلى تعليق فرع كبير من شجرة عيد

الميلاد بيديه، من وسط سقف المطبخ، فلم يلبث هذا الفرع الكبير أن أثار مشهدًا من الاضطراب العام الباعث على الاغتباط والانشراح، وفي وسط هذا الهرج والمرج عمد المستر بكوك بتلك الشهامة الرائعة التي تشرف سليلة من سليلات الليدي تولنجلور ذاتها، إلى تناول يد السيدة العجوز ومشى بها حتى أوقفها تحت ذلك الفرع القدسي وأدَّى لها التحية بكل ما استوجبت من أدب واحتفال ومراسيمَ.

واستسلمت السيدة العجوز لهذا النوع العملي من الأدب بكل الوقار الذي يناسب هذا التصرف الجليل الرهيب، ولكن الفتيات اللاتي لم يستكملن التشرُّب بهذا التوقير القديم للعادات، أو اللاتي تصورن أن قيمة القبلة تغلو كثيرًا وتزداد، إذا اقتضى الظفر بها بعض التعب، رحن يتصايحن ويتدافعن ويختفين في الزوايا والأركان، مهددات ومحتجات، وأتين كل ما في وسعهن أن يأتين، إلا الانصراف من الحجرة، حتى رأين بعض الذين كانوا أقل من المستر بكوك، جرأة وإقدامًا يوشكون أن يعدلوا عن فعل ما فعله، فوجدن جميعًا- وفي الحال- أن لا فائدة من التأبِّي، ولا نفع من المقاومة، فرضين أن تُطبع القبلات على وجوههن بغير اعتراض، فقبل المستر ونكل خد ذات العينين السوداوين وقبل المستر سنودجراس وجنة إميلي، وأما المستر ويلر فلم يدقق كثيرًا في وجوب الوقوف تحت الشجرة فراح يقبل «أما» والخادمات الأخريات حيث وجدهن أو حيث أمسك بهن، وأما القريبان الفقيران فذهبا يقبلان كل النساء، غير مستثنيين الدميمات من الأضياف ولا القبيحات اللاتي من فرط ارتباكهن أسرعن فوقفن تحت الشجرة بمجرد تعليقها، وهن

غير شاعرات بما هن فاعلات! بينما وقف «واردل» موليًا ظهره للموقدة، يشهد هذا المنظر بارتياح تام، وانتهز الغلام البدين الفرصة للاستمتاع بما يشتهي، فراح يلتهم بلا استئذان ولا تردد فطيرة كانت موضوعة بعناية في مكان قريب منه ليتناولها إنسان سواه.

وسكن الصياح وبدت الوجوه متوهجة من حمرة القبل، والجدائل مضطربات، وكان المستر بكوك بعد أن قبَّل السيدة العجوز على النحو الذي وصفنا، واقفًا تحت الشجرة ينظر بسرور ظاهر على وجهه إلى كل ما كان يجري من حوله، وإذا ذات العينين السوداوين بعد همس قليل للفتيات الأخريات، تندفع فجأة فتطوق عنق المستر بكوك بذراعها، وتقبله بحنان بالغ على خده الأيسر، وقبل أن يعرف ما الخبر، أحاطت به الغيد جميعًا، فقبَّلنه واحدة بعد أخرى.

وما كان أبدعه من مشهد، وأنت ترى المستر بكوك في وسط هذا السرب من الغيد، وهو يُجذب من هاهنا، ويُشَدُّ من هاهنا، ويُقبَّل مرة من ذقنه وثانية قبلة على أنفه، وأخرى على منظاره، وتسمع قصف الضحكات التي دوَّت من كل مكان، ولكن أبدع من ذلك أيضًا أن نشهد المستر بكوك وقد عصبوا عينيه بعد قليل بمنديل حريري، وهو يجري في أرجاء الحجرة، فيصطدم مرة بالجدار، ويتعثر أخرى بالأركان، ويمر من خلال جميع مفارقات لعبة «الاستغماء» وحركاتها المضحكة، وهو في حماسة الاستمتاع بها، ثم ينتهي أخيرًا بإمساك أحد القريبين الفقيرين، فيضطر إلى رفع العصابة عن عينيه بخفة متناهية أثارت إعجاب النظارة، وتصفيق المشاهدين. وأما القريبان الرقيقي الحال، فقد ذهبا يمسكان

بالذين يظنان أنهم يحبون أن يمسكوا، ولما فترت حماسة اللعبة وهدأت، وقعا في قبضة الآخرين.

وحين أحس القوم جميعًا التعب من هذه اللعبة، أقبلوا على لعبة أخرى تقتضي التقاط الزبيب من وعاء يحوي شرابًا ساخنًا، وحين تم التهاب الأنامل من الالتقاط، وفرغ الوعاء من الزبيب كله، جلسوا بقرب الموقدة الكبيرة التي تتأجج فيها النار إلى عشاء شهي، وإناء ضخم أصغر قليلًا من «طشت» الغسيل، كان التفاح الساخن يئز في جوفه ويتوثب بشكل جميل، وصوت بهيج، لا تستطيع النفس مقاومة إغرائه.

وأنشأ المستر بكوك يقول، وهو يدير عينيه فيما حوله: «هذه حقًّا هي الرفاهية».

وأجاب المستر واردل: «إن عادتنا التي لا تتغير أن يجلس كل إنسان معنا في ليلة العيد، سادات وخدمًا على السواء، كما ترى، وننتظر حتى تدق الساعة الثانية عشرة، معلنة حلول العيد، ونتسلى بعقد الرهان، وقص القصص. ترانذل، حرك النار يا بني».

وتطاير الشرر الوهاج الوثاب عشرات ومئات، حين حركت عيدان الحطب في الموقدة، وأرسل اللهيب الأحمر وهجًا مشرقًا نفذ إلى أقصى أركان القاعة، وألقى ظله البهيج على الوجوه والطلعات.

وانثنى واردل يقول: «هيا، أغنية، أغنية العيد، سأغنيكم واحدة، ما دمت لا أجد أفضل منها».

وصاح المستر بكوك: «مرحى!».

وعاد واردل يصيح: «املأ الكؤوس. فلن يتوانى لك أن ترى قاع الإناء من خلال لون هذا الشراب البديع، قبل انقضاء ساعتين من الزمن، هيا، اترعوا الكؤوس وطوفوا علينا بها، والآن فلتسمعوا الأغنية».

وشرع الشيخ المرح بلا مقدمات، ولا كلام، وفي صوت حسن، قوي النبرات، يغني الأغنية التالية:

## أغنية عيد الميلاد

لست بالربيع حافلًا، فليحمل على جناحه المتردد
الأزاهر وأكمام الورد، في المهد
إنه ليستهويها وشيكًا بمطره الغادر
ثم ينثرها قبل أن يتنفس الصبح
إنه لعفريت متقلب الأهواء، لا يعرف نفسه من الغباء
ولا يتبين عقله المتغير ساعة من الزمن
يبتسم لك في وجهك، ثم إذا هو بعبسة ملتوية
يذبل أصغر أزاهيرك
ودع شمس الصيف تذهب مسرعة إلى كنها الشاهق
فلن ألتمسها أبدًا
وحين يحجبها الغمام، ألاقيها بضحك عالٍ
ولا أحفل منها بعبوس، وليس لغضبها عندي اهتمام
لأن الجنون الهارف، هو وليدها العزيز عليها

الذي يأتي في ذيل الحمى حين تسيطر على المحموم المدنف

وحين يشتد الحب ويتطرف، لا يبقى طويلا

وكم من عاشق عرف ذلك، فتعذَّب وتألَّم

إن ليلة حصاد زاهية، بجانب أضواء هادئة

من أشعة قمر حيي رقيق الحاشية

لأعذب عندي- أقسم جهدي- من ظهيرة بادية

وهاجرة لفاحة غير مستحيية

ولكن كل ورقة ذاوية تثير أساي

حين ترقد تحت الدوحة الضاحية

فليفعل الخريف بجوه ما يشاء فلست عنه راضيًا

ولكن غنائي وإنشادي، لعيد الميلاد

المتفتح لفؤادي الصادق الميعاد، الجريء، فأشرب

له من القدح المترع الرانوان

وأهتف له ثلاثًا بكل قواي وإيماني

ونعلن مقدمه في ضجة وطنين

يبهج صدره المرح بأطيب الأماني، ونكرمه بكل ما

أوتينا من صنوف طعام وألوان

وننصرف أحبابًا في أمان

وفي أصدق خيلائه، وأبدع كبريائه، يأبى الكتمان
فلا يخفي ذرة من قروحه، في قرّ الشتاء وشدة رياحه
لأنها ليست عابًا ولا ذامًّا، ما دام أمثالها ندوبًا
باديات على وجه أكبر الشجعان
دعوني له أغنِّ، حتى يتردد غنائي بين السقوف
والجدران
دعوني أشدُ بألحاني لهذا الشجاع
لأنه ملك الفصول جميعًا على الزمان

وكان التصفيق لهذه الأغنية صاخبًا مدويًا؛ لأن اجتماع الأصحاب والخدم والحشم في صعيد واحد من أروع المجامع للسامعين، وكان القريبان الفقيران خاصة في حال متناهية من اللذة والطرب، وأعيد ملء الإناء الضخم، وطيف مرة أخرى بالكؤوس المترعة.

وقال أحدهم مخافتًا بصوته: «يا ألله! إن الجليد يسقط غزيرًا!».

وقال واردل: «الجليد يسقط! حقًّا؟».

وأجاب الرجل قائلًا: «ليلة مقرورة قاسية يا سيدي، وقد هبت ريح عاتية، فدفعت بالجليد في الحقول في سحابة كثيفة بيضاء».

وقالت السيدة العجوز متسائلة: «ماذا يقول جم؟ هل من حادث جرى؟».

وأجابها واردل قائلًا: «كلا، كلا، يا أماه! إنه يقول إن الجليد شديد، والريح نفاذة، وهو ما أشعر به فعلًا، من زفيفها الظاهر في جوف المدخنة».

وقالت السيدة العجوز: «آه! لقد كانت الريح كذلك، والجليد كذلك، طوال السنين الخاليات. وإني لأذكر ذلك قبل وفاة أبيك المسكين بخمس سنين، وكانت ليلة عيد الميلاد أيضًا، فراح يقص علينا قصة العفاريت الذين اختطفوا العجوز جبريل جرب».

وقال المستر بكوك: «قصة ماذا؟».

وأجاب واردل: «لا شيء، لا شيء. هي قصة عن سادن كنيسة، يظن السذج هنا أن العفاريت اختطفوه».

وصاحت السيدة العجوز: «أتقول يظن! هل ثمة إنسان يجرؤ على تكذيبها؟ يظن! ألم تسمع منذ طفولتك أن العفاريت اختطفوه؟ أو لا تعلم أنهم فعلوا ذلك حقًّا؟».

قال ضاحكًا: «ليكن يا أماه إذا شئت. لقد اختطفه العفاريت فعلًا يا بكوك، وبهذا ينتهي الأمر».

وقال المستر بكوك: «كلا، كلا، لا تقل ينتهي؛ لأني أريد أن أعرف كيف ولماذا اختطفوه، وأسمع القصة بحذافيرها حتمًا؟».

وابتسم واردل، حين رأى القوم جميعًا مقبلين برؤوسهم، مرهفي الأسماع، فملأ كأسًا من الإناء وأومأ برأسه في صحة المستر بكوك، وبدأ يقص القصة التالية.

ولكن ويحنا! لقد استهوانا الحديث فمضينا في فصل طويل ناسين كل ما في قيود الرواية من فصول، وكل ما نرى لزامًا علينا أن نراعيَه من تنسيق وتبويب، فلنختم هنا هذا الفصل، لنبدأ قصة العفريت في فصل جديد.

أيتها السيدات، أيها السادة، منظر جديد، ولكن من فضلكم لا تنظروا بعين الحظوة إلى العفاريت.

* * *

# الفصل التاسع والعشرون

## قصة العفريت الذي اختطف سادنًا

كان في غابر الزمان، وسالف العصر والأوان، في هذا الجزء من البلاد والأوطان، ومن عهد بعيد في مطاوي الدهر، بعد أن يجعل القصة حقيقية؛ لأن أجدادنا الأولين كانوا مؤمنين بها كل الإيمان، كان يعيش رجل يدعى «جبريل جرب» يشتغل في كنيسة البلدة القديمة سادنًا وحفار قبور، ولا يستتبع قيام امرئ بسدانة الكنيسة، والعيش أبدًا في وسط معالم الموت، وشاراته ورموزه، أن يكون إنسانًا حزينًا، مربدًا، كئيبًا، فإن معاشر حفاري القبور هم أكثر أهل الدنيا مرحًا، وقد كان لي يومًا شرف العلاقة الوثيقة برجل صموت، معقود اللسان، ولكنه إذا عاد من عمله، وخلا إلى حياته الخاصة، كان الفكه والمرح والممازح، كأي عابث هازل لا يقيم للدنيا وزنًا ولا يحمل للحياة همًّا، ويغني ما شاء أن يغني، حافظًا أغنية، لا يتطرق إلى ذاكرته نسيان، ويشتف الكأس المترعة مرة واحدة، دون أن يتمهل ليتمالك أنفاسه.

ولكن رغم هذه السوابق المدللة على العكس، كان «جبريل جرب» رجلًا سيئ الحال، عبوسًا مربدًا، منطويًا على نفسه، لا أنيس له غير زجاجة قديمة ذات غطاء من ورق الصفصاف المجدول قد أثبتها في جيب صداره الرحيب، وهو ينظر إلى كل وجه متهلّل مشرق يمر به نظرة حقد وشرّ، حتى ليصعب عليك أن تلقاه ولا تحس أن لقاءه مُعْقِبٌ أمرًا غير محمود.

ففي ليلة عيد الميلاد، في ذات سنة من السنين، تنكَّب جبريل جرب فأسه، قبل الشفق بقليل، وأشعل مصباحه، وانطلق صوب المقبرة القديمة؛ فقد كان عليه أن يمهد قبرًا لميت سيدفن في الصباح، وكان يشعر بضيق صدر، فظن أن الإقبال على العمل في الحال قد يذهب بضجره، ويصلح مزاجه، وفيما كان منطلقًا في وجهه، مخترقًا ذلك الدرب القديم، إذ أبصر وهج النيران المستعرة في المواقد، من خلال نوافذ الدور وشرفاتها، وسمع ضحكات الذين اجتمعوا فجلسوا من حولها، وبلغت أذنه صيحاتهم المرحة في مجالسهم منها، ولمح الاستعدادات القائمة في ضجيج وصخب لمباهج اليوم التالي، وهبَّت على أنفه روائح الأطعمة الشهية، وهى تتصاعد كالسحب من نوافذ المطابخ وتتعالى ذوائبها كالغمام.

كان ذلك كله قرحة في صدره، وغمة في نفسه، وحين شاهد جموعًا من الولدان يخرجون من البيوت متوثِّبين طافرين، وينطلقون في الطريق قافزين؛ ليعبروه إلى العُدوة الأخرى، فإذا هم قبل أن يبلغوها ليطرقوا الأبواب، يلتقون ببضعة صبيان جعد الرؤوس، أشقياء، يبادرونهم،

ويزدحمون من حولهم، وهم صاعدون بهم إلى الدور لقضاء المساء في ألعاب العيد، راح جبريل يكشر عن ابتسامة مخيفة، ويمسك بمقبض فأسه إمساكة قوية، وقد تخيل عندئذٍ الحصبة، والحمى القرمزية، والقلاع، والسعال الديكي، وجملة أخرى غيرها من وسائل العزاء له والترويح.

وفي هذه الحالة النفسية السعيدة، انطلق جبريل في سبيله، يرد بزمجرة قصيرة متجهمة، على تحيات الجيران الذين كانوا يمرون عليه من لحظة إلى أخرى، حتى عطف على الزقاق المعتم المؤدي إلى المقبرة، وكان يتطلَّع إلى بلوغ الزقاق المظلم؛ لأنه موضع لطيف قاتم محزن، لا يأنس الناس إلى غشيانه إلا في رابعة النهار، ومشرق الشمس، فلا عجب إذا هو تذمر وغضب؛ إذ سمع صبيًّا يرفع الصوت بأغنية لطيفة من أغاني عيد الميلاد، في ذلك الموضع الرهيب الذي كان يدعى «زقاق النعوش» منذ أيام الكنيسة القديمة، وعهد الرهبان الحليقي الرؤوس.

وكلما تقدم جبريل في طريقه وبدا الصوت أقرب إليه شيئًا فشيئًا، تبيَّن له أنه منبعث من غلام صغير كان يسير مسرعًا ليوافي جموعًا من الغلمان في الشارع القديم، فأراد أن يستأنس بصوته من ناحية، وأن يعد نفسه لهذه المناسبة المرتقبة، بإطلاق صوته بتلك الأغنية قدر ما وسعت رئتاه.

وانتظر جبريل حتى رأى الغلام مقتربًا، فاختفى في ركن، ثم وثب عليه من مكمنه، فضربه بمصباحه خمس ضربات أو ستًّا فوق أم ناصيته؛ ليعلمه درسًا في الغض من صوته، وبينما انطلق الغلام مسرعًا ويده فوق

رأسه يغني لحنًا مختلفًا عن غنائه السابق، راح جبريل يضحك مسرورًا، ويدخل المقبرة، ويغلق بابها في أثره.

ونضا عنه رداءه، ووضع مصباحه، وأقبل على الجدث الذي لم يستكمل، فانكمش في تمهيده ساعة أو نحوها، وهو مستروح إلى العمل ناشط، ولكن الأرض كانت صلبة من أثر الجليد، فلم يكن شقها بالعمل الهين، ولا إزالة ترابها بالأمر اليسير، وكان القمر بازغًا، ولكنه كان في أوائله، فكان الضياء الذي يرسله على القبر ضعيفًا؛ فقد كان اللحد في ظل جدار الكنيسة، وكانت هذه العوائق في أي وقت آخر من شأنها أن تتعبه وتفسد عليه مزاجه، ولكنه كان في تلك اللحظة مسرورًا لأنه أوقف الغلام الصغير عن الغناء، فلم يكترث كثيرًا ببطء عمله، وانثنى ينظر في جوف اللحد حين اكتفى بذلك القدر من العمل تلك الليلة، وهو في اغتباط بشع مغمغمًا وهو يجمع أدواته.

مثوى كريم لابن آدم
حين تنتهي الحياة في هذا العالم
بضع أقدام في الثرى البارد
وحجر تحت رأسه ليتوسد
وآخر عند قدميه ليستند
وطعام شهي عصير للدود
وعشب كثيف من فوقه مقام
وصلصال رطب من حوله ركام

مثوى كريم في الأرض الحرام!

ومضى جبريل جرب يضحك، وهو يقتعد جندلًا من جنادل القبور كان مستقره المحبوب، كلما أراح من العمل، وأخرج من جيبه الزجاجة الملففة بِعِيدان الصفصاف المجدول، وهو يقول: نعش في عيد الميلاد، وصندوق رفات، هوه! هوه! هوه!

وإذا صوت ينبعث من خلفه مرددًا: هوه! هوه! هوه! وتمهل جبريل في شيء من الفزع، وهو يرفع الزجاجة إلى شفتيه، وتلفت حوله، فوجد أن جوف أقدم قبر من القبور المحيطة به لا يقل هدوءًا وسكونًا عن فناء المقبرة كلها في ضياء القمر الشاحب، ورأى الجليد يبرق فوق اللحود، ويتلألأ كصفوف من الدرر، بين النقوش الحجرية في فناء الكنيسة القديمة، والثلوج راقدة صلبة، جعدة، مجدولة، فوق أديم الثرى، أو منتشرة فوق أكوام التراب المجترف من الحفر، بيضًا نواصع كالأغطية، حتى لكأن جثث الموتى رواقد عندها، وتلك الأغطية هي أكفانها، فلا حفيف يمكن أن يسمع من خلال ذلك السكون العميق الذي يغمر هذا المشهد الرهيب، كأن الأصوات ذاتها قد تجمدت فيه، فكل شيء ثَمَّ متجمد بارد صامت لا نأمة فيه.

فعاد جبريل يرفع الزجاجة إلى شفتيه وهو قائل لنفسه: «لقد كان ذلك الصوت بلا شك رجع الصدى».

وقال صوت أجش: «كلا، لم يكن كذلك».

وهنا أجفل جبريل، ووقف جامدًا في مكانه من فرط الدهشة

والروع؛ فقد استقرت عيناه على شبح جعل الدم يجمد في عروقه.

لقد رأى على جندل قائم غير بعيد منه، شبحًا غريبًا عن أشباح هذه الدنيا، وقد جلس فوق الجندل، ولم يدع ساقيه الطويلتين الغريبتين تصلان إلى الأرض، بل طواهما من تحته، طية عجيبة متناهية في العجب، وكانت ذراعاه المفتولتان عاريتين، ويداه مستقرتين فوق ركبتيه، وعلى بدنه القصير المستدير غطاء محبوك مزدان بزخارف صغيرة، وقباء قصير متدلٍّ خلف ظهره، وقد قسم طوق رقبته قممًا غرائب تقوم مقام الطوق المغضَّن ذي الثنايا المتعددة، وحذاؤه مرتفع إلى أعلى عند أصابع قدميه، كأطراف محددة، وفوق رأسه قبعة عريضة الحاشية، تزينها ريشة واحدة، وقد كساها الجليد بياضًا، وكأنما قد جلس فوق ذلك الجندل بالذات مستريحًا منذ مائتي عام أو ثلاثمائة، ساكن الأوصال في أتم الهدوء، يمد لسانه مدة السخرية، ويبتسم لجبريل جرب ابتسامة لا يتواتى مثلها إلا لعفريت.

وقال العفريت: «لم يكن رجع الصدى».

وكأنما أصاب الفالج ذلك اللَّحَّاد، فوقف لا يحير جوابًا.

وقال العفريت عابسًا: «ماذا تفعل هنا في ليلة عيد الميلاد؟».

وقال جبريل جرب بصوت متلعثم: «جئت أحفر قبرًا يا سيدي».

وصاح العفريت به: «أي إنسان هذا الذي يهيم بين القبور والأجداث في ليلة كهذه؟».

وإذا أصوات موحشة ترتفع صائحة: «جبريل جرب! جبريل

جرب!» حتى ملأ عزيفها جوانب المقبرة كلها، ووقف جبريل يتلفت من خيفة حوله، ولكنه لم يبصر شيئًا.

وقال العفريت: «وأي شراب تحوي هذه الزجاجة؟».

وأجاب سادن الكنيسة وهو أشد ارتجافًا من قبل: «إنه شراب الهولاندز يا سيدي».

وكان اشتداد رعبه لأنه اشترى ذلك الشراب من المهربين، فخشي أن يكون هذا السائل من موظفي الجمارك في دنيا العفاريت.

وقال العفريت: «ومن هذا الذي يشرب الهولاندز وحده، ويعاقره في مقبرة، ويتعاطاه في ليلة كهذه؟».

وعاد الأصوات تتصايح: «جبريل جرب! جبريل جرب!».

ونظر العفريت نظرة خبث إلى السادن المروع، ثم رفع صوته قائلًا: «ومن هو إذن غنيمتنا العادلة؟».

وعن هذا السؤال انبعثت الأصوات الخفية تجيب: «جبريل جرب.. جبريل جرب!»، كأنها فرقة من المنشدين يغنون على أنغام الأرغن في صحن الكنيسة لحنًا خيل إليه أن ريحًا هوجاء قد حملته إلى أذنيه، ثم تلاشت، وهي في طريقها عابرة.

وابتسم العفريت ابتسامة أعرض من الأولى وهو يقول: «ما قولك في هذا يا جبريل؟».

ولهث اللَّحَّاد مختنق الأنفاس.

وعاد العفريت يقول: «ما رأيك في هذا يا جبريل؟» وراح يركل

الهواء بقدميه عن جانبي الجندل، وينظر إلى الأطراف المحددة من نعيله راضيًا مغتبطًا، كأنه يتأمل أحدث طراز من أحذية الولنجتون في حوانيت شارع بوند.

وأجاب السادن وهو يكاد يموت رعبًا: «إن هذا لغريب جدًّا يا سيدي، وجميل جدًّا، ولكني أظن أنه يحسن بي أن أعود إلى العمل لكي أتمه، من فضلك يا سيدي».

وقال العفريت: «إلى العمل؟ أي عمل؟».

وتلعثم اللَّحَّاد قائلًا: «القبر يا سيدي، تمهيد القبر».

وقال العفريت: «أوه! القبر! ولكن من الذي يصنع القبور في وقت يمرح فيه الناس جميعًا ويلهون، ويجد في حفرها لذة وسرورًا؟».

وعندئذ ارتفعت تلك الأصوات المجهولة صائحة: «جبريل جرب.. جبريل جرب».

وقال العفريت، وهو يمد لسانه ساخرًا أكثر من قبل- ويا له من لسان متناهي العجب: «أخشى أن يكون أصحابي يريدونك يا جبريل».

وأجاب السادن المفزوع المروع: «بعد إذنكم يا سيدي، لا أظنهم يستطيعون يا سيدي، لأنهم لا يعرفونني، ولا أحسب هؤلاء السادات قد رأوني في حياتهم يا سيدي».

وقال العفريت: «أوه، بل لقد رأوك، إننا نعرف الرجل الكاشر العابث المزمجر الذي جاء يجتاز الطريق العام في هذه الليلة، وهو ينظر نظرات سوء وشر إلى الصبيان والولدان، ويشدد قبضة يده على فأسه

الذي يحفر القبور به للموتى الذاهبين. إننا نعرف الرجل الذي ضرب الغلام، والحقد منه يأكل قلبه، لا لذنب جناه غير شعوره بالفرح، وهو لا يشعر بشيء منه، إننا نعرفه، إننا نعرفه».

وأرسل العفريت عندئذ ضحكة عالية صافرة رددتها الأصدية عشرين ضعفًا، وراح يلقي بساقيه في الهواء، ويقف فوق هامته، أو بعبارة أصح، على طرف قبعته العريضة الحاشية كأنها بلاطة سكر، وفوق حافة الجندل الضيقة، وانطلق في انقلابة عجيبة، متناهية في خفة الحركة، ثم هوى منها عند قدمي اللَّحَّاد فاستقر متخذًا ذلك الموضع الذي يتخذه معاشر الحائكين عامة فوق دكة الحانوت.

وقال السادن، وهو يحاول أن يتحرك من مكانه: «أخشى يا سيدي أن أكون مضطرًا إلى تركك».

وقال العفريت: «آه! هذا شراب مدفئ حقًّا. هاتوا منه. ها! ها! ها!».

وفيما كان العفريت مسترسلًا في هذا الضحك، لمح السادن ضياءً باهرًا ينبعث لحظة واحدة من نوافذ الكنيسة كأن البناء كله قد أضاء، ثم توارى ذلك الضوء، وطرق سمعه أنغام من الأرغن، وإذا صفوف من العفاريت تشبه جميعًا هذا العفريت الذي رآه أول مرة، وهي تتدفق على الفناء، وتلعب لعبة «الضفادع القافزة» مع جنادل القبور وأحجارها، لا تقف لحظة حتى تتمالك أنفاسها، بل «قافزة» فوق ظهور أشدها طولًا واحدًا بعد الآخر ببراعة متناهية.

وكان العفريت الأول أعجب قافز، ولم يكن أحد من العفاريت

الآخرين يجرؤ على الدنو منه، واستطاع اللحَّاد على فرط ما استولى عليه من الرعب والرهبة أن يتبين أن العفاريت الآخرين لبثوا قانعين بالقفز فوق القبور العامة المألوفة الأحجام، بينما ذهب العفريت الأول يقفز فوق القبور الوجيهة ذات القبقاب، وفوق السقوف الحديدية، وغيرها بكل سهولة، كأنها أعمدة المصابيح في الشوارع العامة.

وأخيرًا بلغت هذه اللعبة ذروة الحماسة، وأخذ الأرغن يسرع في عزفه، وتتعالى أنغامه، والعفاريت مقبلة ترقص أشد من قبل وتقفز وتنقلب رؤوسًا على الأعقاب فوق أديم الأرض، ثم تثِب فوق جنادل القبور كالكرات، فكان عقل اللَّحَّاد يدور معها في مثل سرعة حركاتها، وساقاه ترعشان من تحته، كلما رأى الأرواح تطير أمام عينيه، وإذا الملك العفريت يندفع فجأة نحوه ويلقي يده على طوق رقبته، ثم يهبط به إلى أعماق الأرض.

وعندما وجد جبريل جرب فسحة من الوقت ليسترد أنفاسه التي ذهبت بها هبطته السريعة، تبين له أنه في مكان أشبه بكهف رحيب تحيط به من كل جانب جموع من العفاريت قباح الخلقة رهيبي السمات، ورأى في بهرة القاعة، على منصة مرتفعة، صديقه الذي شهده في فناء المقبرة، وقد وقف هو نفسه بجانبه لا يعير حراكًا.

وقال ملك العفاريت: «البرد شديد الليلة، آتونا بكأس من شراب دفيء».

وما إن صدر هذا الأمر، حتى انبرى ستة من العفاريت لا يفتر الابتسام عن وجوههم، وقد بدا لخاطر جبريل أنهم رجال بلاط ذلك

الملك، فانصرفوا مسرعين، ثم ما لبثوا أن عادوا بقدَح كبير يحوي شرابًا كالنار فتقدموا به إلى الملك.

وقال العفريت: «آه! هذا شراب مدفئ حقًّا، هاتوا منه زجاجة للمستر جرب».

وكان خداه ونحره شفافين حين تناول الكأس فألقى بذلك اللهب في جوفه.

وقد حاول السادن التعس عبثًا أن يحتج بأنه ليس من عادته أن يتناول شيئًا دفئًا في الليل؛ فقد تقدم منه عفريت فأمسك به، بينما مضى آخر يسكب الشراب الناري الملتهب في حلقه، ووقف العفاريت الآخرون يضحكون منه وهو يسعل ويختنق ويكفكف الدموع الغزار التي فاضت من عينيه على أثر ابتلاع ذلك الشراب المحرق.

وقال الملك وهو يحرك بشكل غريب ركن قبعته العريضة الحاشية في عين السادن، ويحدث له بتلك الحركة أشد الألم: «والآن، أروا هذا الرجل أخا البؤس والعبوس والوجوم بعض الصور التي في مستودعنا الكبير».

وما كاد العفريت يقول ذلك حتى انجابت سحابة كثيفة كانت تحجب الركن القَصِيَّ من الكهف، فكشفت شيئًا فشيئًا- على مسافة بعيدة- عن غرفة صغيرة قليلة الأثاث، ولكنها نظيفة منسقة، وإذا مشهد جمع من الولدان قد احتشدوا حول نار وهَّاجة، متعلقين بثياب أمهاتهم، راقصين طافرين حول كرسيها، وكانت الأم تقوم من مجلسها بين لحظة

وأخرى وتزيح الستار عن النافذة، كأنما ترتقب شيئًا معينًا، وكان على المائدة طعام يسير مهيأ للآكلين، وبجانب النار مقعد ذو مساند، وارتفع عندئذٍ دق الباب، فتقدمت الأم ففتحته، والولدان من حولها محيطون، وهم يصفقون فرحًا، حين رأوا أباهم عليهم مقبلًا، وهو مبلل الثياب، بادي اللغوب، ينفض الثلج عن ردائه، والولدان حوله يمسكون بقبائه، وقبعته، وعصاه وقفازه، بحماسة بالغة، وما إن جلس إلى طعامه قبالة النار، حتى تقدم الأولاد فتسلقوا ركبتيه، بينما جلست الأم بجانبه وقد غمرتهم جميعًا السعادة، وسادهم الرغد.

ولكن لم يلبث هذا المشهد أن تغيَّر، بشكل لا يكاد يحس، فإذا هو يتحول إلى مخدع صغير، حيث كان أجمل طفل فيهم وأصغرهم سنًّا قد رقد في سكرات الموت محضورًا، ذهبت حمرة الورد من خديه، وضياء البصر من عينيه، وإذا هو يلفظ النفس الأخير، في اللحظة ذاتها التي راح اللَّحَّاد ينظر فيها إليه، باهتمام لم يشعر بمثله في يوم من الأيام ولا عرف كنهه مرة في حياته، وإذا إخوته وأخواته الصغار يزدحمون حول فراشه الصغير، ويمسكون بيده الدقيقة، المتبردة، المتراخية، ولكنهم يتراجعون منزَوِين من لمستها، ناظرين إلى وجهه المستدق نظرات رهبة وخوف؛ فقد أدركوا أنه قد مات، وإن كان يبدو هادئًا ساكنًا كعهدهم به، ويلوح نائمًا في سلام نومة الطفل الجميل، وعرفوا أنه ملك من السماء المليئة بالنور والسعادة والنعيم، يطل عليهم، ويحفهم ببركته.

وعادت السحابة الكثيفة تتلاشى رويدًا، وتكشف عن صورة أخرى، صورة بدا فيها الأبوان وقد أدركهما الكبر، وأصبحا عاجزين

لا حول لهما ولا قوة، وقد نقص عدد الذين يحيطون بهما إلى أكثر من النصف وإن تجلى الرضى والبشر على كل وجه، وبرقا في كل عين، وهم حاشدون حول الموقدة، يسمعون أو يقصون قصصًا قديمة عن أيامهم الخالية، وما لبث الأب أن توارى في قبره، وتبعته شريكته في جملة همومه، وسائر متاعبه، وجاء الذين لا يزالون على قيد الحياة، وهم قليل، فجثوا عند قبرهما، ورووا العشب الأخضر الذي يكسوه بدموعهم، ثم نهضوا منصرفين في حزن وأسى، لا في ولولة مريرة، ولا إعوال يائس؛ لأنهم عرفوا أنهم سيلتقون بهما في يوم من الأيام، وانطلقوا في غمار هذا العالم الصاخب مستعيدين قناعتهم، مستردين رضاهم وهناءتهم وبشرهم، ولم تلبث السحابة أن استقرت على الصورة لتحجبها عن عين اللَّحَّاد.

وقال العفريت وهو يدير وجهه العريض إليه: «ما رأيك في هذا؟».

فغمغم جبريل شيئًا يوحي بأنه يريد أن يقول إنه جميل، وقد بدا خجلان مستحييًا، حين رأى العفريت يرقد بعينيه المتقدتين.

ومضى العفريت يقول في لهجة احتقار شديد: «أيها الإنسان التعس، أنت يا هذا» وبدا كأنه يريد أن يزيد، ولكن الغضب الشديد خنق صوته، فلم ينطق، بل رفع إحدى ساقيه اللدنتين، فوق رأس السادن قليلًا؛ ليستوثق من تسديدها، وراح يركله ركلة قوية متقنة، ولم يلبث العفاريت جميعًا على أثرها أن أحاطوا به ومضوا يركلونه ركلًا، بلا رحمة، كما يفعل عادة رجال بلاط الملوك في هذه الأرض، يركلون من يركله الملوك، ويعانقون من يعانقونهم.

وقال الملك لأتباعه: «أروه مزيدًا».

وانجابت السحابة مرة أخرى، كاشفة عن مشهد أرض جميلة، لا يزال مثلها إلى اليوم، على مبعدة نصف ميل من كنيسة تلك القرية القديمة، وإذا الشمس في كبِد السماء الصافية الزرقاء الأديم ساطعة، والماء على ضيائها متلألئ الصفحة، والشجر يلوح أكثر نضرة، والأزاهر أوفر جمالًا، من أشعتها المحيية الباهرة، وخرير الجداول عذب الوقع في السمع، وللشجر حفيف رفيق على هبة الأنسام التي راحت تغمغم بين الأوراق والأفنان، والطير شادية فوق الأغصان، والقبرة ترسل من أجواز الفضاء تحية الصباح. إي والله، لقد كان يوم صبح يوم صيف ساطع الأنوار، عباق الشذى، تدب الحياة منه في كل عود، وتتجلى على كل فنن، والنمل متسلل إلى جهد يومه، والفراشة ترفرف بجناحيها وتستدفئ بأشعة الشمس الضاحية، وملايين الحشرات تنشر أجنحتها الشفافة، وتمرح بحياتها الهنية على قصر آجالها، والإنسان يمشي في مناكبها، متألق النفس من جمال مشاهدها، والسعادة والروعة غامرتان لكل مكان.

وعاد ملك العفاريت يقول بلهجة احتقار أشد من الأولى: «إنك لإنسان حقير!».. وطوح بساقه في الفضاء وأهوى بها فوق كتفيه، واحتذى الأتباع حذوه.

وطفقت السحابة تنجاب وتنكشف، وتعددت الدروس التي لقنت لجبريل جرب وتوالت، وكانت كتفاه في ألم شديد من توالي أقدام العفاريت، ولكنه مع ذلك ينظر مشدوهًا مشوقًا إلى مزيد، وما عتم أن

رأى الناس دائبين على العمل، قانعين بالخبز القليل الذي يكسبونه من الجد والكد، سعداء فرحين، وبدا له أن وجه الطبيعة الجميل العذب البديع كان لأشدهم جهالة مصدرًا لمرح لا ينضب، وفرح لا ينفد معينه، ووجد الذين قلَّت تغذيتهم، ورقَّت حالهم، فرحين مع الحرمان، متغلبين على صنوف من الآلام كانت أدعى إلى أن تهد قوى أناس أشد منهم بأسًا، وأصلب منهم عيدانًا، لا لشيء سوى أن صدورهم ملأى بكل مطالب السعادة والقناعة والرضا بالحياة، ورأى النساء- وهن أرق مخلوقات الله كلها كيانًا، وأهشها وأضعفها بنيانًا- أسمى ما يكُنَّ في الغالب صبرًا على الحزن، وأقوى ما يكنَّ على احتمال المحن وملاقاة الخطوب؛ لأن في أعماق أفئدتهن ينابيع ثجاجة من الحب والتفاني والإيثار، وفوق هذا وذاك لقد تبين أن أمثاله الذين ينظرون نظر الحقد إلى مرح الآخرين، هم أخبث الأعشاب على وجه الأرض، وانتهى به التفكير في خير الحياة وشرها، إلى القطع بأن حياتنا الدنيا هي بعد ذلك كله حياة طيبة تستحق الرضا بها، وتقتضي منا احترامها وإكبار شأنها، ولكنه ما كاد يخلص إلى هذا الرأي، حتى خُيِّلَ إليه أن تلك السحابة التي أطبقت على المشهد الأخير، ترامت إليه فاستقرت على مشاعره، وأسلمته إلى نوم عميق، وأخذ العفاريت يتوارَوْن واحدًا بعد واحد من عينيه، وأنه ما كاد آخر عفريت منهم يختفي عن ناظره، حتى هبط في سبات شديد.

وكان النهار قد طلع حين صحا جبريل جرب من نومه فوجد نفسه مستلقيًا على حجارة القبر في فناء المقبرة والزجاجة فارغة بجانبه،

ورداءه وفأسه ومصباحه قد ارتدَّتْ بيضاء من جليد الليلة الماضية المتناثر فوق أديم الثرى حوله، ورأى الحجر الذي كان العفريت الأول يقتعده، قائمًا على حاله كما كان من قبل، واللحد الذي كان يعمل على إعداده، لا يزال في موضعه غير بعيد منه، فبدأ يشك في حقيقة ما وقع له، ولكن حدة الألم الذي كان يشعر به في كتفيه، حين هم بالنهوض من موضعه، أكدت له أن ركل العفاريت لم يكن في الحق من نسج الخيال ولكنه عاد يستريب ويتشكك حين لم يرَ آثارًا لمواقع أقدام على الجليد الذي كان العفاريت يلعبون فوقه لعبة «الضفادع القافزة»، وإذا هو لا يلبث أن يرد السبب إلى ما تذكره وسمع من قبل به، وهو أن العفاريت «أرواح، لا تترك آثارًا ظاهرة خلفها».

وكذلك استوى جبريل على ساقيه قدر استطاعته؛ لِمَا كان يحسه من الألم في ظهره، ونثر الثلوج المتراكمة عن ردائه، فلبسه، وولى وجهه شطر القرية.

ولكنه عاد خلقًا جديدًا، وإنسانًا آخر لا صلة له بماضيه، ولم يُطِقْ فكرةَ العودة إلى موضع لا تقابل فيه ندامته إلا بالسخرية، ولا صلاح أمره إلا بالتكذيب، فوقف بضع لحظات مترددًا، ثم انطلق هائمًا على وجهه، ويلتمس خبزه أينما وجد إليه سبيلًا.

وعثر الناس في ذلك اليوم بالمصباح والفأس والزجاجة في فناء المقبرة، وتضاربت الآراء كثيرًا فيما عسى أن يكون قد جرى لذلك السادن، ولكن لم يلبث القوم أن قطعوا بأن العفاريت اختطفوه اختطافًا، ولم يعدموا خلقًا منهم تقدموا للشهادة بأنهم رأوه رأي العين وهو مارق

في أجواز الفضاء فوق صهوة حصان أعور كستنائي اللون، قائمتاه الخلفيتان ساقا ليث، وذيله ذنب دب، فصدقوا الرواية في النهاية، وآمنوا بها إيمانًا، واعتاد السادن الجديد أن يعرض على الفضوليين لقاء أجر زهيد قطعة كبيرة من دوارة الرياح، قال: إن الحصان أطارها عرَضًا من مكانها بركلة من قدمه، وهو طائر في الفضاء، فالتقطها من أرض المقبرة بعد عام أو عامين من ذلك الحادث.

وللأسف لم تلبث هذه الأقاصيص أن اضطربت قليلًا بعودة جبريل جرب نفسه إلى الظهور، بعد أن ذهب أمره نسيًا منسيًّا، عقب انفراط عشر سنين، عاد شيخًا مهلهلًا قانعًا يشكو النقرس، فقص ما جرى له للقسيس، وللعمدة أيضًا، ولكن القصة بدأت على مر الزمان تروى للتاريخ في تلك الصورة ذاتها التي ظلت تتردد إلى يومنا هذا، وأما المؤمنون بقصة «دوارة الرياح» التي أطارها الحصان من مكانها، فقد خالجهم الشك مرة في صحتها، ولكن تبين أنه لم يكن من السهل إقناعهم بالعدول عن شكهم، فراحوا يتراءون عقلاء ما استطاعوا، ويهزون أكتافهم، ويتحسسون بأيديهم جباههم، ويغمغمون بكلام يوحي بأن جبريل جرب شرب الزجاجة كلها، فاستولى النوم عليه فوق الحجر، ومضوا يعللون روايته لمشهد العفاريت في الكهف بقولهم: إنه رأى الدنيا وخبرها، وعرف خيرها وشرها. فاستقام، ورجع عمَّا كان منه في ماضيه، ولكن هذا الرأي لم يجد يومًا مصدقين له أو مؤيدين، فلم تلبث الأصوات أن طوته. ومهما يكن من الأمر، فقد ظل جبريل جرب يشكو النقرس إلى نهاية أيامه، وبقيت هذه القصة منطوية على مغزى

واحد، إن لم تكن فيها عبرة أبلغ، ودرس أصلح دلالة، وهذا المغزى هو أنه إذا بدا امرؤ في عيد الميلاد عَبوسًا متجهمًا، منفردًا عن الناس بشرابه، فليعلم أي منقلب سينقلب، مهما كانت الأرواح صالحة طيبة، أو كانت أبعد كثيرًا من قيام الدليل على ظهورها، كتلك التي شاهدها جبريل جرب في كهف العفاريت.

* * *

# مذكـرات بكـوك

يأخذنا تشارلز دِيكنز في (مذكِّرات بكوك) عبر رحلاتٍ طويلةٍ لا تنتهي في الأسفار والمغامرات الشيِّقة والحكايات العجيبة والقصص الغريبة، حتى لا نعرف -حين ننتهي من قراءة فصلٍ- ما الذي سيأخذُنا إليه الفصل القادم؟

يتشكَّل الكِتَاب من متتالياتٍ قصصيَّةٍ، أو هو عبارةٌ عن روايةٍ متشظيَّة الأماكن والأزمنة، حتى ليتسنَّى للقارئ أن يقول بمنتهى الارتياح: «(مذكِّرات بكوك) كِتَابٌ لتدوين أحوال المجتمع الإنجليزي أيَّام كان دِيكنز حيًّا».

سيرى القارئ في هذا الكِتَاب كل الشخصيَّات التي قد تطرأ على باله، كما يتناول جميع الموضوعات التي تتداولها المجتمعات... هو كِتَابٌ يجمع الهزل بالجد، والضحك بالبكاء. يصلح لأن يكون جليسًا صالحًا، وخليلًا مؤنسًا.

ISBN 978-977-765-093-9
9789777650939

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS